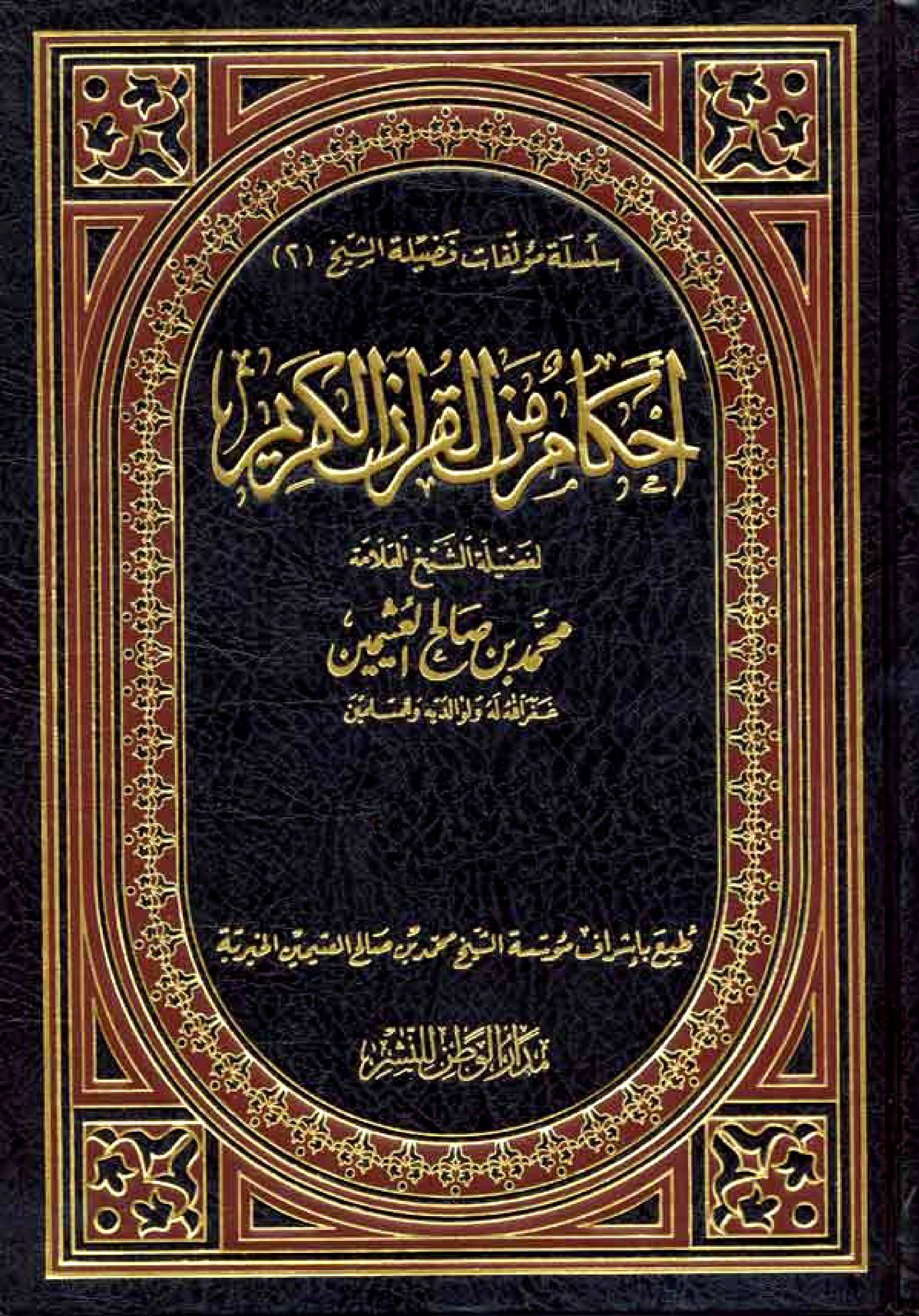

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٢)
أحكام من القرآن الكريم
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
مدار الوطن للنشر

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٢)

أحكام من القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد

(١ - ٢)

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

مدار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

أحكام من القرآن الكريم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

الأحكام من القرآن والسنة / محمد بن صالح العثيمين - الرياض - ١٤٢٨هـ

٢ مج.

ردمك: ٦ - ٥ - ٩٩١٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (مجموعة)

٣ - ٦ - ٩٩١٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (ج ١)

١- القرآن - الأحكام أ- العنوان

ديوي: ٢٢٦,٢ ١٤٢٨/٨٠٢٥

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٨٠٢٥

ردمك: ٦ - ٥ - ٩٩١٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (مجموعة)

٣ - ٦ - ٩٩١٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (ج ١)

المملكة العربية السعودية

عنيزة - ص.ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠٦/٢٦٤٢١٠٧ - ٠٦/٢٦٤٢٠٠٩

www.binothaimeen.com

info@binothaimeen.com

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



مدار الوطن للنشر

هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس: ٤٧٢٣٩٤١ - ص.ب: ٣٣١٠

فرع السويدي: هاتف: ٤٢٦٧١٧٧ - فاكس: ٤٢٦٧٣٧٧

المنطقة الغربية: ٠٥٠٤١٤٣١٩٨ المنطقة الشرقية والرياض: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨

المنطقة الشمالية والقصيم: ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٤١٣٠٧٢٧

التوزيع الخيري: ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤ - ٢٨٣١٤٥٣ التسويق والمعارض الخارجية: ٠٥٠٦٤٩٥٦٢٥

البريد الإلكتروني: Pop@dar-alwatan.com

موقعنا على الإنترنت: www.madar-alwatan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فقد طبع من هذا الكتاب أوَّلُه عام١٤١٥هـ من سورة الفاتحة وحتى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ .... ﴾ الآية [البقرة: ١٨٨]، واعتنى بتلك الطبعة - مشكورًا - الشيخ/ عبد الكريم بن صالح المقرن - جزاه الله خيرًا -.

وقد رأى المؤلف - صاحب الفضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى - أن يراجع الكتاب المطبوع قبل إعادة طبعه مرة أخرى، فشرع في ذلك غير أنه وافاه الأجل - رحمه الله تعالى - قبل أن يكمله، حيث بلغ في مراجعته قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

وإنفاذًا للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها صاحب الفضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى - لإخراج مؤلفاته عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى الشيخ عبدالكريم بن

صالح المقرن بإكمال العمل وإعداد باقي محتوى الأشرطة المسجلة المنتهية بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] وتخريج الأحاديث الواردة، وعاونه في ذلك الشيخ خالد بن أمان الله الصاوي فجزاهما الله خيرًا.

هذا وقد أدخلت التعديلات التي كتبها فضيلة الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى في مراجعته، وتم توثيق باقي المادة العلمية على الأصول السمعية للأحاديث التي كان يلقيها - رحمه الله - على حلقات منتظمة، وتبثها إذاعة القرآن الكريم من المملكة العربية السعودية، فصدر - بعون الله تعالى وتوفيقه - كاملًا في طبعته الأولى بمجلدين عام ١٤٢٥هـ.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، موافقًا لمرضاته، نافعًا لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا المؤلف عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويسكنه فسيح جناته، إنه سميع قريب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد الأولين والآخرين، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

غرة محرم ١٤٢٨هـ

نبذة مختصرة عن
العلاّمة محمد بن صالح العثيمين
١٣٤٧ - ١٤٢١هـ

نسبه ومولده:

هو صاحب الفضيلة الشيخ العالم المحقق، الفقيه المفسّر، الورع الزاهد، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن آل عثيمين من الوهبة من بني تميم.

ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ في عنيزة - إحدى مدن القصيم - في المملكة العربية السعودية.

نشأتـــه العلميـــة:

ألحقه والده - رحمه الله تعالى - ليتعلم القرآن الكريم عند جدّه من جهة أمه المعلِّم عبد الرحمن بن سليمان الدامغ - رحمه الله -، ثمَّ تعلَّم الكتابة، وشيئًا من الحساب، والنصوص الأدبية في مدرسة الأستاذ عبدالعزيز بن صالح الدامغ - حفظه الله -، وذلك قبل أن يلتحق بمدرسة المعلِّم علي بن عبدالله الشحيتان - رحمه الله - حيث حفظ القرآن الكريم عنده عن ظهر قلب ولمّا يتجاوز الحادية عشرة من عمره بعد.

وبتوجيه من والده - رحمه الله - أقبل على طلب العلم الشرعي، وكان فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - يدرِّس العلوم الشرعية والعربية في الجامع الكبير بعنيزة، وقد رتَّب من طلبته الكبار؛ ومنهم الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع - رحمه الله - لتدريس

المبتدئين من الطلبة، فانضم الشيخ إلى حلقته حتى أدرك من العلم في التوحيد، والفقه، والنحو ما أدرك.

ثم جلس في حلقة شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، فدرس عليه في التفسير، والحديث، والسيرة النبوية، والتوحيد، والفقه، والأصول، والفرائض، والنحو، وحفظ مختصرات المتون في هذه العلوم.

ويُعدّ فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله - هو شيخه الأول؛ إذ أخذ عنه العلم؛ معرفةً وطريقةً أكثر مما أخذ عن غيره، وتأثر بمنهجه وتأصيله، وطريقة تدريسه، واتِّباعه للدليل.

وعندما كان الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان - رحمه الله ـ قاضيًا في عنيزة قرأ عليه في علم الفرائض، كما قرأ على الشيخ عبدالرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ في النحو والبلاغة أثناء وجوده مدرّسًا في تلك المدينة.

ولما فتح المعهد العلمي في الرياض أشار عليه بعضُ إخوانه أن يلتحق به، فاستأذن شيخَه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ فأذن له، والتحق بالمعهد عامي ١٣٧٢ ـ ١٣٧٣ هـ.

ولقد انتفع ـ خلال السنتين اللّتين انتظم فيهما في معهد الرياض العلمي ـ بالعلماء الذين كانوا يدرِّسون فيه حينذاك ومنهم: العلامة المفسِّر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ الفقيه عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد، والشيخ المحدِّث عبد الرزاق الأفريقي ـ رحمهم الله تعالى ـ.

وفي أثناء ذلك اتصل بسماحة الشيخ العلاّمة عبد العزيز بن عبدالله ابن باز ـ رحمه الله ـ فقرأ عليه في المسجد من صحيح البخاري ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتفع به في علم الحديث والنظر في آراء

فقهاء المذاهب والمقارنة بينها، ويُعدُّ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ هو شيخه الثاني في التحصيل والتأثُّر به.

ثم عاد إلى عنيزة عام ١٣٧٤ هـ وصار يَدرُسُ على شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ويتابع دراسته انتسابًا في كلية الشريعة، التي أصبحت جزءًا من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، حتى نال الشهادة العالية.

تدريســـه:

توسَّم فيه شيخه النّجابة وسرعة التحصيل العلمي فشجّعه على التدريس وهو ما زال طالبًا في حلقته، فبدأ التدريس عام ١٣٧٠هـ في الجامع الكبير بعنيزة.

ولّما تخرَّج من المعهد العلمي في الرياض عُيِّن مدرِّسًا في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٤ هـ.

وفي سنة ١٣٧٦هـ توفي شيخه العلاّمة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ فتولّى بعده إمامة الجامع الكبير في عنيزة، وإمامة العيدين فيها، والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية التابعة للجامع؛ وهي التي أسسها شيخه ـ رحمه الله ـ عام ١٣٥٩ هـ.

ولما كثر الطلبة، وصارت المكتبة لا تكفيهم؛ بدأ فضيلة الشيخ ـ رحمه الله ـ يدرِّس في المسجد الجامع نفسه، واجتمع إليه الطلاب وتوافدوا من المملكة وغيرها حتى كانوا يبلغون المئات في بعض الدروس، وهؤلاء يدرسون دراسة تحصيل جاد، لا لمجرد الاستماع، وبقي على ذلك، إمامًا

وخطيبًا ومدرسًا، حتى وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ.

بقي الشيخ مدرِّسًا في المعهد العلمي من عام ١٣٧٤هـ إلى عام ١٣٩٨هـ عندما انتقل إلى التدريس في كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وظل أستاذًا فيها حتى وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ.

وكان يدرِّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج ورمضان والإجازات الصيفية منذ عام ١٤٠٢هـ ، حتى وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ.

وللشيخ ـ رحمه الله ـ أسلوب تعليمي فريد في جودته ونجاحه، فهو يناقش طلابه ويتقبل أسئلتهم، ويُلقي الدروس والمحاضرات بهمَّة عالية ونفسٍ مطمئنة واثقة، مبتهجًا بنشره للعلم وتقريبه إلى الناس.

آثـــاره العلميـــة:

ظهرت جهوده العظيمة ـ رحمه الله تعالى ـ خلال أكثر من خمسين عامًا من العطاء والبذل في نشر العلم والتدريس والوعظ والإرشاد والتوجيه وإلقاء المحاضرات والدعوة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ولقد اهتم بالتأليف وتحرير الفتاوى والأجوبة التي تميَّزت بالتأصيل العلمي الرصين، وصدرت له العشرات من الكتب والرسائل والمحاضرات والفتاوى والخطب واللقاءات والمقالات، وترك ثروة علمية كبيرة، كما صدر له آلاف الساعات الصوتية التي سجلت محاضراته وخطبه ولقاءاته وبرامجه الإذاعية ودروسه العلمية في تفسير القرآن الكريم والشروحات المتميزة

للحديث الشريف والسيرة النبوية والمتون والمنظومات في العلوم الشرعية والنحوية.

وإنفاذًا للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها فضيلته ـ رحمه الله تعالى ـ لنشر مؤلفاته، ورسائله، ودروسه، ومحاضراته، وخطبه، وفتاواه ولقاءاته، تقوم مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ـ بعون الله وتوفيقه ـ بواجب وشرف المسؤولية لإخراج كافة آثاره العلمية والعناية بها.

وبناءً على توجيهاته ـ رحمه الله تعالى ـ أنشئ له موقع خاص على شبكة المعلومات الدولية من أجل تعميم الفائدة المرجوة ـ بعون الله تعالى ـ وتقديم جميع آثاره العلمية من المؤلفات والتسجيلات الصوتية.

أعماله وجهوده الأخرى:

إلى جانب تلك الجهود المثمرة في مجالات التدريس والتأليف والإمامة والخطابة والإفتاء والدعوة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان لفضيلة الشيخ أعمال كثيرة موفقة منها ما يلي:

* عضوًا في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية من عام ١٤٠٧هـ إلى وفاته.
* عضوًا في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العامين الدراسيين ١٣٩٨ ـ ١٤٠٠هـ.
* عضوًا في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية في القصيم ورئيسًا لقسم العقيدة فيها.

* وفي آخر فترة تدريسه بالمعهد العلمي شارك في عضوية لجنة الخطط والمناهج للمعاهد العلمية، وألّف عددًا من الكتب المقررة بها.
* عضوًا في لجنة التوعية في موسم الحج من عام ١٣٩٢هـ إلى وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ حيث كان يلقي دروسًا ومحاضرات في مكة والمشاعر، ويفتي في المسائل والأحكام الشرعية.
* ترأس جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة من تأسيسها عام ١٤٠٥هـ إلى وفاته.
* ألقى محاضرات عديدة داخل المملكة العربية السعودية على فئات متنوعة من الناس، كما ألقى محاضرات عبر الهاتف على تجمعات ومراكز إسلامية في جهات مختلفة من العالم.
* من علماء المملكة الكبار الذين يجيبون على أسئلة المستفسرين حول أحكام الدين وأصوله عقيدة وشريعة، وذلك عبر البرامج الإذاعية من المملكة العربية السعودية وأشهرها برنامج «نور على الدرب».
* نذر نفسه للإجابة على أسئلة السائلين مهاتفه ومكاتبة ومشافهة.
* رتّب لقاءات علمية مجدولة، أسبوعية وشهرية وسنوية.
* شارك في العديد من المؤتمرات التي عقدت في المملكة العربية السعودية.
* ولأنه يهتم بالسلوك التربوي والجانب الوعظي اعتنى بتوجيه الطلاب وإرشادهم إلى سلوك المنهج الجاد في طلب العلم وتحصيله، وعمل على استقطابهم والصبر على تعليمهم وتحمل أسئلتهم المتعددة، والاهتمام بأمورهم.

* وللشيخ ـ رحمه الله ـ أعمال عديدة في ميادين الخير وأبواب البرّ ومجالات الإحسان إلى الناس، والسعي في حوائجهم، وإسداء النصيحة لهم بصدق وإخلاص.

مكانتـــه العلميـــة:

يُعَدُّ فضيلة الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ من الراسخين في العلم الذين وهبهم الله ـ بمنّه وكرمه ـ تأصيلاً ومَلَكة عظيمة في معرفة الدليل واتباعه ودقة النظر واستنباط الأحكام والفوائد من الكتاب والسنّة، وسبر أغوار اللغة العربية معانِيَ وإعرابًا وبلاغة.

ولما تحلَّى به من صفات العلماء الجليلة وأخلاقهم الحميدة والجمع بين العلم والعمل أحبَّه الناس محبة عظيمة، وقدّره الجميع كل التقدير، ورزقه الله القبول لديهم واطمأنوا لاختياراته الفقهية، وأقبلوا على دروسه وفتاواه وآثاره العلمية، ينهلون من معين علمه ويستفيدون من نصحه ومواعظه.

وقد مُنح جائزة الملك فيصل ـ رحمه الله ـ العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤هـ، وجاء في الحيثيات التي أبدتها لجنة الاختيار لمنحه الجائزة ما يلي:

أولاً: تحلِّيه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع، ورحابة الصدر، وقول الحق، والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.

ثانيًا: انتفاع الكثيرين بعلمه؛ تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا.

ثالثـــاً: إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

رابعـــاً: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كثيرة.

خامسًا: اتباعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلاً حيًّا لمنهج السلف الصالح؛ فكرًا وسلوكًا.

عقِبُــه:

له خمسة من البنين، وثلاث من البنات، وبنوه هم: عبد الله، وعبدالرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

وفاتـــــه:

تُوفي ـ رحمه الله ـ في مدينة جدّة قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال عام ١٤٢١هـ، وصُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة عصر يوم الخميس، ثم شيّعته تلك الآلاف من المصلّين والحشود العظيمة في مشاهد مؤثرة، ودفن في مكة المكرمة.

وبعد صلاة الجمعة من اليوم التالي صُلِّي عليه صلاة الغائب في جميع مدن المملكة العربية السعودية.

رحم الله شيخنا رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومَنَّ عليه بمغفرته ورضوانه، وجزاه عما قدّم للإسلام والمسلمين خيرًا.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإننا نستفتح هذا الكتاب، «أحكام من القرآن الكريم»، راجين الله - سبحانه وتعالى - أن يكون مباركًا، نافعًا لنا ولإخواننا المسلمين. وأحكام القرآن العظيم هي ما تتضمنه الآيات الكريمة من الفوائد الدينية، والدنيوية، والفردية، والاجتماعية. ولا ريب أن كل آية في كتاب الله تتضمن فوائد عظيمةً يعرفها الإنسان بحسب علمه وفهمه، ولا ريب كذلك أن الإنسان يؤتى العلم بحسب ما معه من الإيمان، والهدى، والتقى، كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ ﴾، وقال - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾، وقال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾، وكلما كان الإنسان أشد إقبالًا على القرآن الكريم، وإيمانًا به، وحبًّا له، وتدبرًا لآياته - كان به أفهم، وبما يدل عليه من

الفوائد العظيمة، والأحكام أوسع؛ ولهذا، فإني أحث إخواني المسلمين على تدبر كتاب الله ــ عز وجل ـ، وتفهم معانيه، والرجوع فيما لا يعرفونه إلى أهل العلم ليبينوه لهم، وإن لم يتيسر ذلك فإلى كتب التفسير الموثوق بها؛ كتفسير ابن كثير ـ رحمه الله ــ وتفسير شيخنا عبدالرحمن بن سعدي، وتفسير القرطبي، وتفسير الشوكاني، وغيرها من التفاسير المعروفة الموثوق بمؤلفيها في علمهم ودينهم؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما أنزل القرآن لهذا، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلۡنَـٰهُ إِلَيۡكَ مُبَـٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾.

فالقرآن الكريم لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية، تلاوة الآيات الحرفية، بل نزل من أجل هذا ومن أجل ما هو أتم وأكمل، وهو تدبر الآيات وتفهم معانيها، ثم التذكر بما فيها من القصص، والأخبار، والمواعظ، والأحكام، ولهذا كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعًا، وكثير من الناس اليوم لا يهتم بهذا الجانب، أعني جانب المعنى وجانب التدبر، وما تتضمنه الآيات من الفوائد والأحكام، ولا يهتمون به.

وهذا قصور بلا شك من الإنسان، وتقصير منه. ومن الناس من يتجرأ ويتكلم في القرآن بما لا يعلم فيكون شاهدًا على الله ـ سبحانه

وتعالى ـ بما لا يعلم، وهذا محرم، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فكل إنسان يتكلم في معنى آية من كتاب الله فهو شاهد على الله ـ تعالى ـ بأنه أراد بها كذا وكذا، وهذا أمر خطير؛ لأنه سيسأل عنه يوم القيامة فيقال: من الذي أعلمك بأن الله ـ تعالى ـ أراد كذا وكذا؟ ويكون قد قال في القرآن برأيه. ومن الناس من يعلم أن القرآن يدل على كذا وكذا، ولكن لديه عقيدة سابقة ونحلة يؤمها، ويقتدي بها وتقليده لمن يثق به، فتجده يحرف الكلم عن مواضعه، ويصرف آيات كتاب الله عز وجل إلى ما كان يعتقده وينتحله من هذا المذهب، وهذا أشد من الذي قبله؛ لأنه خالف الحق عن علم به، فالواجب على كل مسلم مؤمن أن يتقي الله عز وجل حين يتكلم في معنى آية من كلام الله، وأن يكون على حذر، فلا يقول إلا ما يعلم أنه هو المراد، أو يغلب على ظنه أنه هو المراد، وأما مع الشك فلا يجوز له أن يتكلم في شيء، ونحن في هذا الكتاب لن نتكلم كثيرًا عن تفسير الآيات، وبيان وجوهها اللغوية من البلاغة والإعراب وغير ذلك؛ لأن هذا ـ والحمد لله ـ موجود في كثير من كتب المفسرين، ولكن يهمني أن أبين الفوائد التي تستنبط من هذه الآيات، وأبين وجه ذلك غالبًا فيما يحتاج إلى بيان، وفيما خفيت دلالته؛ لأن الاستفادة من القرآن الكريم بهذه الطريقة يحصل بها علم كثير؛ ولهذا

سئل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: «لا والذي برأ النسمة، وخلق الحبة إلا فهمًا يؤتيه الله - تعالى - في كتابه وما في هذه الصحيفة؛ وهي فكاك الأسير»(١)... إلخ ما فيها، لكن المهم أنه قال: «إلا فهمًا يؤتيه الله - تعالى - في كتابه»، وهذا يدل على أن الفهم في كتاب الله يحصل به خير كثير، وعلم غزير، ولكن يجب أن يكون الفهم مبنيا على هذا الأساس كما أشرنا إليه؛ لأن الناس أربعة أقسام: فمنهم من عنده علم، ولكن ليس عنده فهم، ومن الناس من عنده فهم ولكن ليس عنده علم، ومن الناس من عنده علم وفهم، ومن الناس من لا علم عنده ولا فهم، والمراد من هذا الكتاب هو استنباط الفوائد من كتاب الله - عز وجل -؛ ليحصل بذلك خير كثير.

واعلم أن الدلالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: مطابقة، وتضمُّن، والتزام.

فدلالة اللفظ على جميع معناه دلالة مطابقة، ودلالته على جزء معناه دلالة تضمُّن، ودلالته على أمر لازم خارج دلالة التزام، ولنضرب لذلك مثلًا معنويا ومثلًا حسيًّا.

أما المثل المعنوي: فانظر إلى اسم من أسماء الله؛ وهو «الخالق» تجد أنه دل على صفة الخلق وعلى الخالق نفسه، فدلالته على الخلق نفسه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

وعلى صفة الخلق دلالة مطابقة، ودلالته على الخالق نفسه وحده أو على صفة الخلق وحدها دلالة تضمُّن، ودلالته على العلم والقدرة دلالة التزام؛ لأن الخلق لا بد فيه من علم وقدرة، فمن لم يكن عالمًا لا يستطيع أن يخلق، ومن لم يكن قادرًا لا يستطيع أن يخلق.

أما المثال الحسي فكأن نقول: «هذا بيت» كلمة بيت تدل على جميع البيت، على كل ما يحيط به سور البيت دلالة مطابقة، وتدل على هذه الغرفة، وغرفة ثانية، وغرفة ثالثة، وغرفة رابعة، وعلى الحوش (البراح)، وعلى المجلس، والصالة دلالة تضمن، وتدل على أن لهذا البيت بانيًا دلالة التزام، هذه الأنواع الثلاثة من الدلالة إذا استعملها الإنسان استعمالًا جيدًا حصل بها فوائد كثيرة، ولهذا تجد بعض أهل العلم إذا تكلم عن آية، أو حديث؛ لاستنباط أحكامها استخرج منها أشياء كثيرةً؛ لاستعماله هذه الأنواع الثلاثة من الدلالة، ومن الناس من يقصر فهمه عنها فلا يستطيع أن يستنبط إلا فوائد قليلةً، نسأل الله أن يوفقنا لخدمة كتابه، وأن يفقهنا في دلالاته واستنباط فوائده، وأن ينفع بهذا العمل؛ إنه سميع مجيب.

محمد بن صالح العثيمين



(١) سورة الفاتحة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل على رسوله محمد ﷺ هذا القرآن العظيم، وأنزل عليه سبعًا من المثاني، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ .

«والسبع المثاني» هي فاتحة الكتاب، وهي أعظم سورة في كتاب الله، ولهذا فرضت قراءتها في الصلوات، فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، افتتحها الله ـ سبحانه ـ بالحمد والثناء والتمجيد، والحمد هو وصف المحمود بالكمال، والثناء تكرار هذا الوصف، والتمجيد ذكر المجد والعظمة وقوة السلطان؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**قال الله ـ تعالى ـ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الله ـ تعالى ـ: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله ـ تعالى ـ: أثنى علي عبدي، وإذا**

قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجدني عبدي [(وقال مَرَّةً: فوض إلي عبدي)]، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»(١).

ففي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليل على كمال صفات الله ـ عز وجل ـ، وعلى كمال نعمه على عباده؛ لأن الحمد لا يستحقه إلا من كان كاملًا في وصفه، كاملًا في فعله، وأعني بالحمد الحمد المطلق الكامل، وإلا فقد يحمد الإنسان حمدًا كاملًا على فعل ناقص، أو على كمال ذاتي ناقص.

وفي قوله: ﴿لله﴾ دليل علي ثبوت ألوهية الله ـ عز وجل ـ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ إله الحق، وما سواه فهو باطل، وفي الإتيان باللام دليل على استحقاق هذا الحمد لله وحده، لا يشاركه فيه أحد، فالحمد المطلق الكامل لا يكون إلا لله ـ عز وجل ـ؛ لأن كل ما سواه إنما يحمد على شيء معين حمدًا يليق بهذا الشيء المعين، ويكافئ هذا الشيء المعين.

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ، والرب هو الخالق المالك المدبر، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله،

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٥).

ولا مدبر إلا الله ـ عز وجل ـ، وإضافة الخلق إلى غير الله، أو الملك إلى غيره، أو التدبير إلى غير الله ـ إضافة ناقصة، ناقصة في ذاتها، وناقصة في شمولها وعمومها، أما خلق الله، وملك الله، وتدبير الله، فهو كامل شامل عام، وفي الآية الكريمة إثبات رب ومربوب، مما يدل على التباين بين الخالق والمخلوق، ويكون فيه رد على قول أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود.

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على أن العالمين كلهم يفتقرون إلى الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه لا قيام للمربوب إلا بالرب، فالرب هو المربي القائم على غيره من كل وجه، وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على أن الملائكة، والرسل، والأولياء، لا حق لهم في التدبير والخلق، ويتفرع على ذلك أنه ليس لأحد أن يدعو هؤلاء، وأن يستغيث بهم، وأن يستنصر بهم؛ لأنهم مربوبون، هم بأنفسهم محتاجون إلى الرب، غير مستغنين عنه، فكيف يمكن أن يكونوا ملجأً للعباد وملاذًا لهم يستعيذون بهم، ويستغيثون بهم، ويسترحمون بهم؟!

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على أن العالم حادث، وهو كذلك؛ فإن العالم حادث بعد أن لم يكن، كما قال الله ـ تعالى ـ يعني نفسه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، قال النبي ﷺ في تفسيرها: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك**

شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[1].

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على أن هذا العالم علم وآية دالة على الله -عز وجل-، فإن ما في هذا الكون من الانتظام البديع والاطراد، وعدم التناقض، والإحكام، دليل على كمال موجده -عز وجل-، كما قال -تعالى-: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، فهذا الكون المربوب المخلوق علم على خالقه -عز وجل-، ودليل عليه، وآية من آياته.

وفي قوله -تعالى-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إثبات صفة الرحمة، والرحمة صفة من صفات الله -عز وجل- الثابتة، قال -تعالى-: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وهي غير الإرادة، وغير الإحسان، بل هي صفة مستقلة ينشأ عنها إرادة الإحسان، وإيصال الإحسان إلى الخلق، ويصف الله نفسه بـ«الرحمن الرحيم»، بعد ذكر ربوبيته العامة، ففي ذلك دليل على أن ربوبيته -عز وجل- ربوبية رحمة وإحسان إلى الخلق،

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم، رقم (٢٧١٣).

بجلب النعم، ودفع النقم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وفي وصفه بـ«الرحمن الرحيم» دليل على سعة رحمته، وهذا مستفاد من «الرحمن» ؛ لأن «رحمان» على وزن «فعلان» ، وهذه الصيغة تدل على الامتلاء والسعة؛ كما يقولون: «غضبان»، و«ندمان»، وما أشبه ذلك للممتلئ غضبًا وندمًا.

وفي قوله: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ دليل على إيصاله هذه الرحمة إلى من شاء من عباده، ورحمة الله ـ عز وجل ـ عامة وخاصة، فأما العامة فهي لجميع الخلق، فكل الخلق مرحومون برحمة الله، ولولا رحمة الله ما أكلوا وما شربوا، وما اكتسوا، وما سكنوا، ولكن الله رحمهم؛ فهيأ لهم ما تقوم به أبدانهم من المعيشة الدنيوية، وأما رحمته الخاصة فهي خاصة بالمؤمنين الذين تستمر رحمتهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا رحمهم الله ـ تعالى ـ بحصول ما تقوم به أبدانهم، وفي الآخرة رحمهم الله ـ تعالى ـ بحصول ما تقوم به أديانهم.

وفي قوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ رد على منكري الرحمة الذين يقولون: إن الرحمة ليست صفةً حقيقيةً لله، بل هي إرادة الإحسان، أو الإحسان نفسه، وذلك لأن الأصل في الوصف الحقيقة، فإذا قيل: «الرحمنُ»؛ أي ذو الرحمة، فالأصل أنه متصف بها حقيقةً، ولا يلزم من

اتصاف الله ـ تعالى ـ بالرحمة أن يكون مماثلًا للمخلوق، ولا يلزم من ذلك أن يكون ناقصًا؛ لأن النقص الذي يمكن أن يكون في صفة الرحمة ـ إن كان ـ إنما ذلك في رحمة المخلوق التي قد لا تكون عن حكمة، فتكون ناقصةً.

* * *

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

يوم الدين هو يوم القيامة، والدين هنا بمعنى الجزاء، وكما يكون الدين بمعنى الجزاء يكون أيضًا بمعنى العمل، فمن مجيئه بمعنى العمل، قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، ومن مجيئه بمعنى الجزاء هذه الآية؛ فقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ؛ أي مالك يوم الجزاء الذي يدان فيه كل عامل بما عمل، وأضاف الله ـ تعالى ـ الملك إلى يوم الدين، وإن كان ـ سبحانه وتعالى ـ مالكًا للدنيا والآخرة؛ لأن ملكيته تظهر جليةً واضحةً في ذلك اليوم، ويعترف بها كل مخلوق، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٥ ـ ١٧]؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الملك في ذلك اليوم، يوم

القيامة، لا يكون لأحد لا جزئيا ولا غير جزئي، لا حقيقةً ولا مجازًا؛ لأن الناس كلهم يوم القيامة يحشرون حفاةً عراةً غرلًا[1]. حفاةً: ليس في رجل أحدهم نعال، وعراةً: ليس عليهم ثياب، وغرلًا: ليسوا مختونين، لا فرق في ذلك بين السيد والعبد، ولا بين الراعي والرعية، ولا بين الأب والابن، فكل الناس على حد سواء، وفي قوله: ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ - أيضًا - دليل على أن الله - عز وجل - في ذلك اليوم تام الملك والسلطان، كما تدل عليه القراءة الثانية الصحيحة السبعية، وهي ﴿مَلِكِ يوم الدين﴾، فهي قراءة صحيحة سبعية، فينبغي للإنسان أن يقرأ بها أحيانًا، لكن لا بحضور العامة؛ لئلا يشوش عليهم؛ فإن الملك له من السلطة والنفوذ ما ليس للمالك، لكن الملك أحيانًا لا يملك فيكون ملكاً قاصر الملك، فباجتماع القراءتين يكون الكمال، أن الله - تعالى - «ملكٌ» و«مالِكٌ»: «مَلِكٌ»: أي ذو سلطان، وقهر، وعظمة، وكلمة نافذة، و«مالك»: ذو تصرف كامل في ملكوته - عز وجل -.

وفي قوله - تعالى -: ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ إثبات اليوم الآخر، وهو حق، والإيمان به أحد أركان الإيمان الستة، فاليوم الآخر حق ثابت كما أن الدنيا الآن حق لا ينكره أحد، فكذلك اليوم الآخر المستقبل الموعود

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلاً﴾، رقم (٣٣٤٩)؛ ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

حق ثابت ولا بد منه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فلو كان الناس خلقوا لهذه الدنيا يعيشون فيها ما يعيشون على ما فيها من التعب، والنصب، واللأواء، والعدوان، والظلم، والصلاح، والفساد، لو كانوا خلقوا لهذا فقط لكان ذلك نقصًا بالغًا في حق الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه سفه، وباطل، ولعب، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى هذا المعنى في قوله : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾[الدخان: ٣٨]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا﴾[ص: ٢٧]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه لا بد من لقاء ومجازاة على هذه الأعمال التي عملناها في هذه الدنيا، ولا يمكن أن يقوم الإنسان بشرع الله حق القيام، إلا إذا كان مؤمنًا بأن هناك يومًا يلاقي فيه الإنسان ربه فيحاسبه على عمله؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦].

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ـ أيضًا ـ إثبات الجزاء والحساب، وأن الإنسان يحاسب على عمله، ويجازى عليه، وهو حق ثابت، ولكنه ـ أي الحساب ـ على وجهين:

الوجه الأول: حساب المؤمن، وهذا لا يناقش الحساب، وإنما يخلو

به الرب ـ عز وجل ـ فيكلمه وحده، ويقرره بذنوبه، حتى يقر بها، ثم يقول الله له: «قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»(١)، فالحمد لله على ستره، ما أكثر الذنوب التي يفعلها العبد إما باطنةً في قلبه، وإما ظاهرةً في جوارحه، لكن لا يعلم بها الناس، ومع هذا فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يمن عليه ويستره، ويقول الله ـ عز وجل ـ في حسابه له يوم القيامة: «قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

أما الوجه الثاني من الحساب: فهو حساب الخزي والعار ـ والعياذ بالله ـ، وهو حساب الكافر؛ فإنه يجزى بأعماله يوم القيامة، وينادى على رءوس الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ترغيب وترهيب: ترغيب في العمل الصالح؛ لأن الإنسان إذا أيقن بأنه سيحاسب على عمله، ويثاب عليه حرص على الأعمال الصالحة، واجتهد، ورغب فيها؛ وترهيب لأنه إذا علم بأنه سيجازى على عمله ويعاقب على سيئته، أو على الأصح يستحق العقاب على سيئته فإنه يخشى من ذلك، ويتجنب الأعمال السيئة، خوفًا من يوم الدين الذي يجازى فيه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)؛ ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨).

العاملون بأعمالهم؛ كما قيل: «كما تدين تدان»،فعلينا أن نأخذ لهذا اليوم عدته، وأن نعمل صالحًا يقربنا إلى الله ـ عز وجل ـ، ويسعدنا في ذلك اليوم.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ دليل على كمال حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ حيث جعل لهذا الخلق مآلًا يدانون فيه، ويجازون بأعمالهم؛ لأنه لولا ذلك لكان الأمر عبثًا كما سبق أن ذكرنا.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إشارة إلى كمال العدل؛ لأن الدين هو المجازاة، مجازاة العامل بقدر ما عمل، ولكنْ ـ مع هذا ـ نقول: إن مجازاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده دائرة بين العدل والفضل، فهي بالنسبة للكافر عدل محض ليس فيه ظلم، فالكافر عقوبته الخلود في النار أبد الآبدين، لا يخرج منها أبدًا، ولا تخبو النار التي يعذب فيها أبدًا؛ لقول الله ـ تعالى ـ في ثلاث آيات من القرآن: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾، فالآية الأولى في سورة النساء، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٨ـ ١٦٩]، وتأبيد الخلود يدل على تأبيد المكان الذي فيه الخلود، والآية الثانية في سورة الأحزاب؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، والآية

الثالثة في سورة الجن؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣]، ولا قول لأحد بعد أن صرح الله ـ عز وجل ـ بتأبيد الخلود في نار جهنم، لا قول لأحد بعد ذلك، وكل قول يخالف هذا فهو مردود على قائله؛ لأن القائل بالتأبيد هو العالم بما سيكون، وهو الخالق ـ عز وجل ـ، فمجازاة الله الكافر بالخلود في النار أبد الآبدين هو عدل، وليس فيها ظلم.

قد يقول قائل: إنك إذا قست مدة بقاء الإنسان في الحياة الدنيا فإنها لن تكون شيئًا بالنسبة إلى التأبيد الأبدي، فيكون تأبيده على أكثر من بقائه في الدنيا شيئًا من الظلم.

والجواب على هذا: ألا ظلم في ذلك:

أولًا: لأن هذا الإنسان استغرق جميع حياته في الكفر، فيكون من العدل أن يستغرق جميع بقائه في الآخرة في العذاب.

وثانيًا: أن هذا الإنسان الكافر قد أرسلت إليه الرسل، وأنزلت معهم الكتب، وبينوا للناس الطريق، ورغبوا الناس في الحق، وحذروهم من الباطل، ولم يبق للناس حجة على الله بعد الرسل، فيكون هو الذي اختار لنفسه هذا المقام الأبدي، لأنه يعلم أن الكافر سيبقى في هذا المكان الأبدي، فحينئذ يكون هو الظالم لنفسه؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧؛ والأعراف: ١٦٠].

أما الجزاء الفضلي، الذي هو فضل الله ـ عز وجل ـ؛ فهو جزاء المؤمن، فالمؤمن يجازى بالنسبة للحسنة الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأما بالنسبة للسيئات، فإنه تحت المشيئة، إن شاء الله ـ تعالى ـ عذبه، وإن شاء ـ تعالى ـ غفر له؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:١١٦]، إذن فجزاء الله ـ تعالى ـ للمؤمن من نوع الجزاء الفضلي، وأما الظلم فهو ممتنع في حق الله ـ عز وجل ـ، فهو لا يمكن أن يظلم أحدًا فيزيد في سيئاته، أو ينقص من حسناته.

* * *

ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

العبادة: هي التذلل لله ـ عز وجل ـ؛ محبةً وتعظيمًا بامتثال أمره، واجتناب نهيه، والاستعانة: طلب العون. والإنسان مفتقر إلى الله ـ عز وجل ـ في العبادة والاستعانة؛ أما افتقاره إليه في العبادة؛ فلأن العبادة هي مادة سعادته، وأما الاستعانة؛ فلأن الله إذا لم يعنه وكله إلى نفسه، فيكله إلى ضعف، وعجز، وعورة، ولا قيام للإنسان إلا بالله ـ عز وجل ـ؛ ففي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إخلاص العبادة لله ـ عز وجل ـ؛ ووجه ذلك تقديم المعمول «إياكَ» ولو جاءت على الترتيب لقال: «نعبدُكَ»، فلما قدم المعمول؛ دل على الإخلاص، وتخصيص العبادة لله وحده؛

لأن من القواعد المقررة في اللغة العربية أن تقديم المعمول يفيد الحصر؛ أي: الاختصاص، ويكون قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متضمنًا لمعنى قول الإنسان: «لا إله إلا الله».

وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليل على اتباع الشريعة؛ شريعة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ لأن العبادة لا تتم إلا بأمرين: الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله؛ وذلك باتباع الرسل؛ ولهذا نقول: لا إشراك ولا ارتداد؛ فالإشراك ينافي الإخلاص، والارتداد ينافي الاتباع؛ فالعبادة لله ـ سبحانه وتعالى ـ إخلاص واتباع، لا شرك ولا ارتداد.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليل على أن العبادة إذا أشرك بها مع الله أحد؛ لم تكن عبادةً لله، ولا تقبل من العابد؛ ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه»[1].

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليل على إفراد الله ـ تعالى ـ بالاستعانة؛ ووجهه تقديم المعمول؛ لأن تقديم المعمول يفيد ـ على ما تقتضيه اللغة العربية ـ الحصر؛ أي: الاختصاص، فلا استعانة للإنسان إلا بالله ـ عز وجل ـ، ولا يستطيع الإنسان أن يقوم بشيء إلا بمعونة

---

(١) رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

الله له، وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليل على أنه ينبغي للإنسان حال العبادة أن يستحضر أنه مستعين بالله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لتتيسر له العبادة، ولتكون عبادة؛ لكونها متبعًا فيها الرسول ﷺ، مخلصًا لله فيها؛ ولكونه مستعينًا بالله عليها؛ ولهذا نقول: ينبغي للعابد أن يستحضر ثلاثة أشياء: الإخلاص، والمتابعة، والاستعانة؛ فالإخلاص والاستعانة لله وحده، والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ ليوصل إلى الله؛ أما الإخلاص لله: فأن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله والدار الآخرة. وأما الاستعانة: فأن يشعر بأن الله هو الذي أعانه على هذا، ويسر له أسباب القيام به، ولولا أنه أعانه ما حصل. وأما المتابعة: فأن يستحضر كأنما الرسول ﷺ أمامه، وهو خلفه يقتدي به.

فهذه ثلاثة أمور ينبغي للعابد أن يكون مستحضرًا لها؛ ليكون ذلك أعون له في إتمام العبادة.

فوائد الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

١ ـ أن الإنسان دائرٌ بين أمرين: بين عبادة الله، واستعانة النفس؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي عن هذه الآية: «هَذا بيني وبين عَبْدي»[1]؛ فالعبادة لله والمعونة للعبد.

---

(١) هو جزء من حديث سبق تخريجه ص(١٢).

٢- وفي هذه الآية دليل على تخصيص الله بالاستعانة؛ أي: أن الإنسان لا يستعين استعانة مطلقة إلا بالله؛ لأن الاستعانة المقيدة هذه جائزة حتى بغير الله فيما يقدر عليه المخلوق؛ ولهذا قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «... **وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة...**»[1]، فأثبت عون الإنسان لأخيه؛ فالاستعانة بمخلوق فيما يقدر عليه لا بأس بها، ولا تنافي العبادة ولا الإخلاص، لكنها ـ في الحقيقة ـ استعانة مقيدة وليست عامة شاملة؛ فهي استعانة قاصرة ـ أيضًا ـ؛ لأنها على عمل معين يقدر عليه المستعان به؛ وعلى هذا فالاستعانة بأصحاب القبور على قضاء الحوائج محرمة، بل هي من الشرك؛ وذلك لأن أصحاب القبور لا يستطيعون أن يعينوا أحدًا وهم أموات؛ فهم بأنفسهم لا يستطيعون أن يعملوا لأنفسهم شيئًا، فكيف يعملون لغيرهم؟! فإذا أردت أن تستعين في أمر لا يقدر عليه إلا الله، فلا تستعن إلا بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ.

٣ـ **وفي قوله**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليل على أنه ينبغي للمتكلم أن يأتي بالأشياء التي تثير فطنة المخاطب وتنبهه؛ وذلك لأن الآيات الأولى الثلاث كلها بصيغة الغائب، أو كلها في سياق الغَيْبَة؛ حيث قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، رقم (٢٨٩١)؛ ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩).

يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ولكن في الآية الرابعة قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب، والالتفات ـ بلا شك ـ يوجب استيقاظ المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد انساب الإنسان وغفل، ولم يحصل له انتباه، فإذا تغير الأسلوب؛ فإن الذهن ينصدم بهذا التغير، ثم ينتبه فكأنه صوت منبه، ينبه الإنسان على ما سيُخاطب به؛ ولهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ولم يقل: «إِيَّاهُ نَعْبُدُ»، وفي هذه الآية دليل مبني على الالتفات الذي ذكرناه ـ وهو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ـ؛ وهو دليل على أهمية العبادة والاستعانة، وإخلاصهما لله، كأن هذا الذي أثنيت عليه ـ وهو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيما سبق من الآيات الثلاث، كأنه ـ لقوة إيمانك به ـ أمامك، تخاطبه، ولا شك أن الإنسان إذا قرأها في الصلاة؛ فإنه يستقبل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والله ـ تعالى ـ يكون قِبَلَ وجهه، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ولكن ليعْلَم أن الله ـ تعالى ـ قِبَلَ وجهه، وإن كان هو في السماء فوق العرش، ولا تناقض في ذلك؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقاس بخلقه؛ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٤ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ دليلٌ على اجتماع الأمة؛ فإنه لم يقل: إياك أعبد، وإياك أستعين، وأنه ينبغي للأمة أن تتفق وتجتمع على العبادة والاستعانة بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقد يؤخذ منها إثبات علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فإن هذه السورة فرضت قراءتها

في جميع الصلوات، ومنها الصلاة الجهرية التي يجتمع فيها الإمام والمأموم، ولو جاءت بصيغة الإفراد «إِيَّاكَ أعبد وإِيَّاك أستعين»؛ لكان في ذلك إخلال بالنسبة للمأمومين؛ لأنه سيكون ـ في هذه الحالة ـ الإمام وحده هو الذي يقول: «إِيَّاكَ أعبد وإِيَّاكَ أستعين»، فَمن المعلوم أن الذين وراءه لن ينالهم نصيب من هذا لو كانت الآية بصيغة الإفراد، أما قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فإن المأموم يشعر بأنه هو والإمام على حد سواء في عبادة الله ـ تعالى ـ والاستعانة به.

٥ـ وفي الآية دليل على أن الإنسان ينبغي أن يستعين بالله في كل شيء حتى في الأمور الصغيرة؛ كالذهاب، والمجيء، والأكل، والشرب، واللباس، فينبغي للإنسان أن يستعين بالله في كل شيء؛ حتى يكون بذلك مدركًا لحاجته، متعبدًا لربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الاستعانة من العبادة، وإذا استعان الإنسان بربه؛ يسَّر له الأمر وسَهَّلَهُ عليه؛ ولهذا يؤمر الإنسان إذا حلف على شيء مستقبل أن يقول: إن شاء الله؛ حتى يشعر باستعانته بربه، فإنه إذا قال: إن شاء الله؛ كان ذلك عونًا على قضاء حاجته؛ وفي الصحيحين في قصة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة كلهنَّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا؛ فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشقِّ رجل. وايم الذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لو قال: إنْ شاءَ اللهُ؛ لجاهدوا في

سبيل الله فرسانًا أجمعون»، وهنا لم يقل سليمان ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: إن شاء الله؛ اعتمادًا على ما في قلبه من العزيمة، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل؛ وذلك ليتبين له ولغيره أن الأمر بيد الله؛ قال النبي ﷺ: «لو قال: إن شاء الله؛ لم يحنث وكان دركًا لحاجته»[1].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

هذه الآيات الثلاث كلها للإنسان؛ فسورة الفاتحة سبع آيات: ثلاث منها لله خالصة، وثلاث منها للإنسان خالصة، وآية وسط بينهما كما جاء في الحديث الصحيح: «قال الله ـ تعالى ـ: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ قال الله ـ تعالى ـ: حمدني عبدي، وإذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ قال الله ـ تعالى ـ: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجَّدني عبدي ـ وقال مَرَّةً: فَوَّض إليَّ عبدي ـ فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ رقم: (٦٦٣٩)، واللفظ له؛ ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ قال: هذا لِعَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سأل»[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ الهداية بمعنى: الدلالة والتوفيق، فإن كانت مُعَدَّاةً بإلى فهي للدلالة، وإن كانت متعدية بنفسها فهي للتوفيق والدلالة، وهنا الهداية متعدية بنفسها؛ فيكون المراد بها الدلالة والتوفيق؛ أي: أن الله ـ تعالى ـ يرزقك علمًا تهتدي به إلى شريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ويوفقك لهذه الشريعة حتى تقوم بها.

وقوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ الصراط: هو الطريق الواسع، والمستقيم: الذي ليس فيه اعوجاج، ولا ارتفاع، ولا انحدار.

فوائد وأحكام:

١ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يدعو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بهذا الدعاء: أن يهديه صراطه المستقيم.

٢ـ وفي قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ـ أيضًا ـ دليل على أن الإنسان مفتقر إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في الهداية؛ ويتفرع عن ذلك أنه يجب على الإنسان أن يترك الإعجاب بنفسه، والقول: اهتديتُ؛ لأنني

(١) سبق تخريجه ص(١٢).

أعرف الحق، وهذا مني؛ فيمنُّ باهتدائه على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقد أنكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الأعراب الذي يمنُّونَ على رسول الله أن أسلموا؛ فقال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]؛ فالإنسان لو لم يهده الله لم يهتدِ؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ [الكهف: ١٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٣٣].

فإن قال قائل: إن قلتم هكذا فتحتم الأبواب للمتهاونين والكسالى الذين إذا دُعوا إلى الحق قالوا: الهداية بيد الله، واحتجوا بذلك.

فالجواب أن نقول: إن الله ـ تعالى ـ لما قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وأرشدنا إلى أن ندعوه هذا الدعاء لم يرد منا أن نتوقف عن أسباب الهداية، بل نحن نسأل الله الهداية، ونسعى في أسبابها؛ ولهذا قلنا: إن الهداية هداية دلالة وهداية توفيق؛ هداية الدلالة التي هي العلم، هل يمكن أن تحصل للإنسان بلا تعب على تحصيله؟ لو قال الإنسان: اللهم ارزقني مالًا، هل معنى ذلك أن يبقى في بيته ولا يتحرك؟ بل عليه أن يتحرك ويسأل أسباب الرزق، كذلك الهداية إذا سألت الله إياها فتسعى في أسبابها، لو سألت الله ـ تعالى ـ أن يرزقك أولادًا، هل تبقى لا تتحرك لا تتزوج؟ لا؛ لابدَّ أن تتزوج حتى ترزق بالأولاد، فسؤال الشيء من الله لا يستلزم أن يبقى الإنسان جامدًا، لا

يتحرك ولا يسعى إلى الأسباب التي توصل إلى هذا الشيء؛ إذن فلا حجة لهذا الذي يحتج بهذه الآية وأشباهها على فسقه وفجوره، ثم إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا حرم الإنسان الهداية؛ فلعلمه ـ سبحانه وتعالى ـ أنه ليس أهلًا لها؛ لأن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، كما أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ جعل الهدى في قلوب أهل الهداية؛ لعلمه أنهم أهل لذلك؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

٣ـ **ومن الفوائد ـ أيضًا ـ التي تستفاد من الآية الكريمة:** ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: أن فيها دليلًا على أن دين الإسلام دين واسع شامل يتسع لكل أحد؛ فالصراط ـ في اللغة العربية ـ هو الطريق الواسع الذي يتسع لجميع السالكين.

٤ـ **وفي الآية** دليل على عموم الإسلام وشموله؛ لأنه شامل لكل ما يتعلق بالإنسان في معاشه ومعاده؛ ولهذا كان منظمًا للعباد فيما يتعلق بعبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وفيما يتعلق بالمعاملة فيما بينهم؛ ويتفرع من هذه الفائدة: الرد على مَنْ زعم أن الدين الإسلامي إنما ينظم العمل فيما يتعلق بين العبد وبين ربه، ويرى أن أمور الدنيا لا علاقة لها بدين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهذا خطأ عظيم؛ فإن الدين الإسلامي نظَّم كل شيء، وعلَّم النبيُّ ﷺ أمته كل شيء تحتاج إليه؛ قال أبو ذر ـ رَضِيَ الله

عَنْهُ ـ: «توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر منه علمًا»[١].

ويدلُّ على شمول الشرع ودين الإسلام لكل شيء أن أطول آية في كتاب الله آية الدَّيْن، وكلها تتعلق بمعاملة الخَلق بعضهم مع بعض؛ فالدين الإسلامي كما نظم المعاملة بين العبد وبين ربه، نظَّمَ المعاملة بين العبد وبين غيره من عباد الله، بل نظَّم علاقة العبد الإنسان بينه وبين البهيم غير الناطق؛ فقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «عُذِّبت امرأة في هرة ربطتها حتى ماتت؛ فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها ولا سقتها إذْ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[٢]، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «إن امرأة بغيًّا[٣] رأت كلبًا في يوم حار يُطِيف ببئر[٤]، قد أدْلَع لسانه[٥] من العطش، فنزعتْ له بمُوقِها؛ فغُفِرَ لها»[٦]، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ غفر لهذه المرأة رغم أنها بغي زانية،

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٥٥) وذكره الدارقطني في «العلل» (٦/ ٢٩٠).

(٢) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (٥٤)، حديث رقم (٣٤٨٢) واللفظ له؛ ومسلم: كتاب الحيوان، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢).

(٣) أي: زانية.

(٤) يطيف ببئر: يدور حولها..

(٥) أدلع لسانه: أخرجه؛ لشدة العطش.

(٦) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (٥٤)، حديث رقم (٣٤٦٧)؛ ومسلم: كتاب الحيوان، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم (٢٢٤٥).

وهذا يدل على أن الإِسلام له تنظيم في كل ما يتعلق بالعبد.

فإن قال قائلٌ: أليس النبي ﷺ حين قدم المدينة، ورآهم وهم يؤبرون النخل ـ أي: يلقحونها بوضع طلح الفُحَّال في ثمر النخل ـ قال «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا»، فتركوه فنفضت أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له فقال «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم؛ فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»[1]، وهذا يدل على أن أمر الدنيا مفوض للعباد؟

والجواب على ذلك: أن هذا الذي أشار إليه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يتعلق بالأحكام، وإنما يتعلق بالصناعة والحرف، ومعلوم أن الإِنسان في حرفته قد يكون أعلم من عالم بشرع الله وأدرى بها؛ فالنجار ـ مثلًا ـ يعرف كيف يصرف الخشبة حتى يجعل منها بابًا، والصانع يعرف كيف يصنع الحديد فيجعله طائرات وسيارات أكثر مما يعلمه العالم الشرعي في هذا، هذا هو الذي أراده النبي ـ عليه الصلاة والسلام.

٥ـ وفي قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ دليل على أن هناك صراطًا غير مستقيم ـ وهو كذلك ـ، بل هناك سبل كثيرة غير مستقيمة؛

---

(١) رواه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي، رقم (٢٣٦٢).

كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهناك طرق كثيرة للباطل متنوعة من أفعال، وأقوال، وانتهاكات، وأما الحق فهو طريق واحد يوصل إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإلى دار كرامته.

٦- **وفي قوله:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ **دليل على** أن دين الإسلام كامل لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وأن من ظن أن فيه قصورًا فهو القاصر، ولا أحد يظن أن في دين الإسلام قصورًا إلا أن يكون قاصرًا في فهمه أو قليلًا في علمه، أو سيئًا في قصده، أما حَسَنُ النيةِ الذي آتاه الله علمًا وفهمًا فإنه يدري ويعلم علم اليقين أن دين الإسلام ليس فيه قصور، وهو مستقيم لا اعوجاج فيه، وأن الناس لو طبقوه؛ لكانوا على الاستقامة، والسداد، والصواب، ولَمَا ضاقت عليهم السبل، ولكن قاصر الفهم، أو ناقص العلم، أو سيئ القصد هو الذي يظن أن في الإسلام قصورًا؛ فيذهب يأتي بالقشور من هنا وهناك؛ ليطبقها في بلاد الإسلام.

٧- **وفي قوله ـ تعالى ـ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ **دليل على** كمال حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وكمال رحمته؛ حيث جعل الصراط الموصل إليه صراطًا مستقيمًا لا متاهة فيه ولا ضلال، ونحن نعلم أن الصراط المستقيم يوصل إلى المقصود بسرعة بخلاف الطريق المعوج،

الذي ينحرف بالإنسان يمينًا وشمالًا؛ فإنه ـ على تقدير إيصاله إلى المطلوب ـ يكون شاقًّا وبعيدًا؛ بسبب التعرجات، أو الطلوع، أو النزول، بل هذا صراط مستقيم.

٨ - **وفي الآية الكريمة دليل على أنه لا هادي إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛** فهو الذي يُلجأ إليه في طلب الهداية لا إلى غيره.

فإن قال قائل: أليس قد قال الله ـ تعالى ـ عن نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؟

فالجواب: بلى، قد قال الله ذلك، وهو حق، لكن الهداية إلى الصراط المستقيم التي أثبتها الله لرسوله هي هداية الدلالة، وكل إنسان عنده علم بالشرع؛ فإنه يهدي الناس بهذا العلم إلى الشرع، فالدلالة على الخير ليست هي التوفيق إلى الخير؛ أما الدلالة التامة التي فيها الهداية والتوفيق فهي لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾:

هم الذين أتم الله عليهم النعمة بتوفيقهم لشريعته، وهم أربعة

أصناف، ذكرهم الله في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ يعني: صراط غير المغضوب عليهم؛ والمغضوب عليهم هم الذين علموا الحق واستكبروا عن اتباعه، و«الضالون» الذين جهلوا الحق؛ فأخطئوا في العمل، وأول من يدخل في «المغضوب عليهم» اليهودُ، وأول من يدخل في «الضالين» هم النصارى.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١ - وفي الآية الكريمة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليل على أن الناس انقسموا إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم؛ فهدوا إلى الحق علمًا وعملًا، وقسم غضب الله عليهم؛ فهدوا إلى الحق علمًا لكن لم يوفقوا للعمل به، بل استكبروا عنه وهم المغضوب عليهم، وقسم ثالث لم يهدوا إلى ا-ـق لا علمًا ولا عملًا؛ فتعبدوا الله ـ تعالى ـ عن جهل؛ فضلوا وهم الضالون، فمن المغضوب عليهم اليهود، ومن الضالين النصارى.

٢ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أنه ينبغي أن نبحث عن سيرة هؤلاء الذين أنعم الله عليهم: من هم؟

وكيف كان حالهم؟ حتى نهتدي لطريقتهم؛ ويتفرع على ذلك: الحث على معرفة سيرة النبي ﷺ؛ لأنه خيرُ من أنعم الله عليه، وبهذه المناسبة فإنني أحث إخواني المسلمين على قراءة السيرة النبوية من الكتب الموثوق بها؛ مثل «**البداية والنهاية**»، لابن كثير ـ رحمه الله ـ؛ فإنه كتاب جيدٌ جدًّا في بابه.

٣ـ وفي قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ دليلٌ على أن نعمة الدين أكبر من نعمة الدنيا؛ فإن في المغضوب عليهم والضالين مَنْ أنعم الله عليه نعمًا عظيمة في الدنيا، لكن هذه النعم ليست بشيء بالإضافة إلى نعم الدين؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولما دخل عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ على النبي ﷺ ذات يوم، فوجده ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد تأثر جنبه من الاضطجاع على سريره الذي عنده؛ بكى ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ فقال له النبي ﷺ: «**ما يبكيك يا عمر؟**» قال: أنت نبي الله، وكسرى وقيصر على أسرة الذهب؟ قال: «**يا عمر، أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»[1]؛ وعلى هذا نقول: إن النعمة الحقيقية الكبيرة العظيمة هي نعمة الله ـ تعالى ـ على عباده بدينه، ولا يخفى على الجميع أن الله ـ تعالى ـ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، رقم (٤٩١٣)؛ ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، رقم (١٤٧٩).

قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فجعل إكمال الدين من تمام النعمة ـ وهو كذلك.

٤ـ**وفي قوله ـ تعالى ـ:** ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ **دليلٌ على أن من** سلك هذا الصراط فهو في نعمة، في سرور، في انشراح؛ ويدل لذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فمن كان من هؤلاء كان في نعمة وإن كان في ضيق من العيش باعتبار نعمة الجسد؛ لأن النعمة بالدين تقتضي أن يكون الإنسان دائمًا منشرح الصدر، مطمئن القلب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ، وليس ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إنْ أصابته سرَّاءُ شَكَرَ؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر؛ فكان خيرًا له**»[1]، وقال بعض «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

٥ـ**وفي قوله:** ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ **أسند النعمة لله وحده،** وقال في الآخرين: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فأتى

---

(١) رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

بالغضب على وجه الإبهام؛ للدلالة على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له المنة الكبرى على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، وأنه لا منَّة لأحد عليهم بما أعطاهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ ويتفرع على ذلك: أن يحمد الإنسان ربَّه على كل عمل صالح يفعله؛ لأن ذلك بمعونة الله وبنعمته.

٦ـ **وفي قول الله ـ تعالى ـ:** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليلٌ على عظم ذنب من أُتي العَلم ولم يعمل به؛ لأنه يستحق الغضب؛ حيث إن الله ـ تعالى ـ أنعم عليه بوجود السبب الذي به يهتدي، ولكنه استنكف واستكبر، وفي هذه الآية ـ أيضًا ـ دليلٌ على أنه ينبغي لنا أن نعرف سيرة هؤلاء المغضوب عليهم، ولماذا غضب الله عليهم؟ وبماذا أخذهم؟ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

٧ـ **وفي قوله:** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليلٌ على أنه يجب على المسلم الذي هداه الله إلى الصراط المستقيم أن يتبرأ من طريقة هؤلاء؛ فكما سأل الله أن يعصمه من طريقهم فليتبرأ منه، وليبعد عنهم، وليتجنب ما هم عليه من الضلال، بل إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**مَنْ تشبَّه بقومٍ؛ فهو منهم**»[1]؛ فيجب علينا أن نتجنب

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٥٠)؛ وأبو داود: كتاب الحمام، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)؛ وأورده السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ٥٢٢)، ورمز له بإشارة الحسن.

ما يختصون به ـ حتى في غير العبادات ـ؛ وذلك لأننا إذا تشبهنا بهم في غير العبادات، وفعلنا ما هو من خصائصهم؛ فإن هذا يجرنا إلى أن نتشبه بهم في العبادات؛ ولهذا قال العلماء: إن التشبه بهم في الظاهر يجر إلى التشبه بهم في الباطن؛ فيهلك الإنسان كما هلكوا.

٨- **وفي قوله:** ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ دليلٌ على أنه يجب علينا معاداة هؤلاء، وبغضهم، وعدم مناصرتهم، سواء ناصرنا بعضهم على بعض أو ناصرناهم على أحد من المسلمين، فكل ذلك حرام، لكن الثاني أشد وأعظم، أما محبتنا أن ينتصر بعضهم على بعض فإن هذا لا بأس به إذا كان هذا المنتصر أهون على المسلمين وعلى الإسلام من الآخر؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ ـ ٥]؛ يعني: بنصر الله الروم على الفرس، ومن المعلوم أنهم لم يفرحوا بذلك إلا لأنهم يحبونه؛ لأن الإنسان لا يفرح بشيء إلا وهو محبوب إليه، فلا حرج علينا إذا أحببنا أن ينتصر بعض الكفار على بعض؛ لكونهم أهون من الآخرين، وأقلّ خطرًا على الإسلام والمسلمين، لكن الجميع يجب علينا أن نتبرأ منهم، وأن نعاديهم، وألا يكون بيننا وبينهم ولاء، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢].

٩ـ **وفي قوله:** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **دليل على أن** كلتا الطريقتين سيئة، يجب البعد عنها، والتنزه منها، لا الاستكبار على الحق مع العلم به، ولا الجهل بالحق؛ ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم؛ حتى لا يكون من الضالين، وأن يتعبد حتى لا يكون من المغضوب عليهم. وطلب العلم قد يكون فرضًا على الأعيان، وقد يكون فرضًا على الكفاية، وقد يكون مستحبًّا؛ فهو فرض على الأعيان في كل ما يتوقف عليه العلم بالعبادة التي يتعبد بها الإنسان؛ فالطهور والصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم منهما ما يحصل به الواجب، وكذلك الأمر في الصيام، وكذلك في الحج، وكذلك في الزكاة، وفرض على الكفاية فيما لا يتعين على الإنسان العمل به، فتعلمُهُ فرضُ كفايةٍ إذا قام به من يكفي؛ لأنه في هذه الحالة يسقط عن الباقين.

وأما القسم الثالث وهو السنة، فهو ما يكون فرض كفاية، إذا قام

به من يكفي فإنه يكون سنة في حق الباقين. وإنني ـ بهذه المناسبة ـ أحث إخواني ـ ولا سيما الشباب منهم ـ على أن يحرصوا على العلم الشرعي؛ لأن الناس ـ الآن ـ في حاجة ماسة بل في ضرورة إليه؛ لكثرة الجهل ـ الجهل البسيط والجهل المركب ـ؛ لأن كثيرًا من الناس لا علم عندهم، وكثير من الناس عندهم علم، ولكن ليس عندهم فَهْمٌ، وإني أضرب مثلًا لذلك بما سمعته من أن بعض الناس قال: الأفضل أن يتوضأ الإنسان إذا كان عنده ماءان في أيام الشتاء ـ ماء دافئ وماء بارد ـ بالماء البارد، وكلما كان أبرد كان أفضل، يقول ذلك؛ لأن النبي ﷺ أخبر بأن مما يرفع الله به الدرجات ويكفر به الخطايا؛ إسباغ الوضوء على المكاره[1]، قال: فينبغي أن يختار الأبرد؛ لأنه أكره إلى الإنسان، وهذا جهل عظيم، وفَهْمٌ قاصرٌ، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل: الوضوء بالماء البارد، أو إسباغ الوضوء بالماء البارد، لكن قال: إسباغ الوضوء على المكاره؛ يعني: أن الإنسان لا يمنعه كراهة استعمال الماء عن إسباغ الوضوء، بل يسبغ الوضوء مع كراهة استعمال الماء؛ لشدة برودته، ولا يريد الرسول عليه الصلاة والسلام من أمته أن يعجز الإنسان عن الماء الدافئ المناسب لطبيعته إلى الماء البارد الذي قد يفوته الإسباغ، والمعروف من قاعدة الشريعة العظيمة أن كل ما كان أيسر

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١).

فهو أقرب؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال رسول الله ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غَلَبَهُ...»[١].

وكان رسول الله ﷺ يبعث أصحابه ويقول: «يسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا»[٢]، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يخيَّرُ بين شيئين إلا اختار أيسرها ما لم يكن إثمًا[٣].

ولا شك أن الأيسر للإنسان إذا كان عنده ماء دافئ وماء بارد أن يتوضأ بالماء الساخن، ووضوءه بالماء الساخن ليس إثمًا؛ إذن فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لو خُيِّر بين هذا وهذا لاختار الدافئ؛ وعلى هذا يكون القول بأن يختار الماء البارد قولًا بلا علم، وإن شئت قل: قولًا بلا فهم؛ لذا فإنني أحث إخواني ـ ولا سيما الشباب ـ على العلم، والفهم، والتأني في الأمور، وعدم التسرع في الحكم على الشيء؛ حتى يتقن ذلك إتقانًا بيِّنًا؛ لأن المقام خطير، والكلمة الخطأ قد يصعب انتشال الناس منها فيما بعد.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

(٢) رواه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، رقم (٤٣٤١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٣).

(٣) انظر البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ رقم (٣٥٦٠)؛ ومسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله، رقم (٢٣٢٧).

١٠- وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ دليلٌ على أن من علم الحق ولم يَتَّبِعْه أسوأ حالًا ممن جهله؛ لأن الأول جعلت عقوبته الغضب؛ حيث قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ويتفرع على هذا التحذير عدم عمل العالم بما علم؛ لأن العالم إذا علم قامت عليه الحجة، وليس المراد هنا بالعالم من كان علمه واسعًا، بل المراد كل من علم بمسألة من مسائل الدين؛ فهو عالم بها حتى وإن كان وصفه عاميًّا، فكل من علم حُكْمًا من أحكام الدين فإن عليه أن يطبقه، وإن لم يفعل كان مستحقًّا لغضب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ غضبًا بحسب ما خالف به أمر الله، والله ـ تعالى ـ قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ولم يقل: «غير من غضبت عليهم»؛ كما قال في القسم الأول: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، وهذا دليل على أن من غضب الله عليه؛ فإنه يغضب عليه كل ولي لله؛ ويتفرع على ذلك أنه يجب علينا نحن المسلمين أن نغضب على كل من غضب الله عليه، وأن نعلم بأن كل من كان حربًا لله فهو حربٌ لنا، وأن كل من كان عدوًّا لله فهو عدو لنا؛ كما قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨].

١١- وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ دليلٌ على مهانة هؤلاء، وخِسَّتِهِم، وغلوهم؛ ولهذا ذكروا بوصف اسم المفعول،

ولم يعطوا حق اسم الفاعل؛ لأنهم مغضوب عليهم مهانون مطرودون مبغضون.

١٢ـ **وفي قوله:** ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ دليلٌ ـ أيضًا ـ على إثبات الغضب لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهو من صفاته الثابتة له في كتابه، وأجمع عليها السلف؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، والغضب صفة من صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تدل على كمال سلطانه وقدرته، وتستلزم عقوبة المغضوب عليهم؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، ولا يصح تفسير الغضب بالانتقام ولا بإرادة الانتقام؛ لأن الغضب شيء ينشأ عنه إرادة الانتقام ثم الانتقام؛ ولهذا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ ؛ أي: أغضبونا، ثم قال: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

١٣ـ **وفي قوله ـ تعالى ـ:** ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ إشارة إلى أن الضلال صفة ممقوتة؛ لأن المؤمن يسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعصمه من طريق الضالين؛ فيتفرع على ذلك: أن العلم صفة كمال ـ وهو كذلك ـ؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ

ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]. ولكن ما هو العلم الذي يستحق المرء الثناء عليه؟ إن العلم الذي يستحق المرء الثناء عليه هو العلم بشريعة الله؛ العلم بأسماء الله وصفاته، العلم بأفعال الله؛ لأن ذلك هو الذي يحقق العبادة التي خلق من أجلها الإنس والجن؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأما العلم بالصناعة، والأمور السفلية الأرضية فهذا لا يحمد ولا يذم على الإطلاق، بل إنْ أدى إلى خير ونفع كان محمودًا، وإن أدى إلى شر وضرر كان مذمومًا، وإن لم يؤد إلى هذا ولا إلى هذا، كان لا هذا ولا هذا، لا يحمد ولا يذم إلا أن يفوت به ما هو أنفع وأصلح؛ فإنه قد يذم على ذلك.

١٤ـ وفي قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ـ دون أن يعلق الغضب على ضلالهم ـ دليلٌ على أن الضالَّ لا يستحق العقوبة؛ أي: أن الإنسان إذا كان جاهلًا بالشيء لا يستحق العقوبة عليه ـ وهو كذلك ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لكن إن كان مفرطًا بترك التعلم فقد يؤاخذ على تفريطه لا على جهله؛ لأن الإنسان يجب عليه أن يتعلم من أحكام دينه ما يحتاج إليه، وقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في الرجل يترك المأمور جهلًا به هل يؤمر بقضائه أم لا يؤمر بقضائه؟

فمنهم من قال: إنه يؤمر بالقضاء؛ لأن الواجب لا يسقط بالجهل، ومنهم من قال: إنه لا يؤمر بالقضاء؛ لأن النبي ﷺ لم يأمر المسيء في صلاته بقضاء ما كان قد فعله من قبل؛ وكان هذا الرجل يصلي ولا يطمئن، فجاء ذات يوم فصلَّى والنبي ﷺ ينظر إليه، فلما سلَّم على النبي ﷺ قال له: «ارجع فصلِّ؛ فإنك لم تُصَلِّ»، فرجع فصلى كما صلَّى، ثم جاء فسلَّم على النبي ﷺ فقال: «ارجع فصلِّ؛ فإنك لم تصلِّ» (ثلاثًا)، فقال: والذي بعثك بالحقِّ، ما أُحسِنُ غيره، فعلِّمني، فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، وافعل ذلك في صلاتك كلها»[1]، فلم يأمره النبي ﷺ بإعادة ما سبق من الصلاة مع أنه كان لا يصلي على وجه مجزٍ، وكذلك المرأة المستحاضة ـ التي كانت تستحاض فلا تصلي ـ لم يأمرها النبي ﷺ بإعادة الصلاة[2]، قالوا: فهذا دليل على أن الجاهل لا يؤمر بقضاء ما تركه جهلًا.

ومن الأدلة على هذا: حديث عمار بن ياسر: «بعثني رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب قراءة الفاتحة للإمام والمأموم...، رقم (٧٥٧)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٧).

(٢) انظر فتح الباري: (١/ ٤٤٠)؛ وصحيح مسلم (١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

في حاجة فأجنبتُ[1]، فلم أجد الماء؛ فتمرغت في الصعيد كما تمرَّغُ الدابة، ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك أن تقول بيدك هكذا»، ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة، ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه»[2]، فلم يأمره النبي ﷺ بقضاء ما صلاه بذلك التيمم الذي لم يكن على وفق الشرع، وهذا القول ـ بلا شك ـ موافق لعموم قاعدة الشريعة؛ وهي اليسر وعدم العسر؛ لأن الإنسان لو أخلَّ بواجب لسنوات كثيرة، ثم قلنا: إنه يجب عليك قضاء ما فات لكان في هذا صعوبة، وربما يكون فيه تنفير، وربما يكره أن يقوم بالعبادة من أجل هذه المشقة.

نعم لو فرض أن الإنسان بلغه شيءٌ من العلم، ولكنه تهاون، وسكت، وقال ـ كما يقول البطالون ـ: ﴿ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١]، فهذا قد يلزمه بقضاء ما فات؛ من أجل تفريطه وتهاونه في الأمر، ولكل مقام مقال، والذي ينبغي في هذه المسألة ألا يُفتى فيها بوجه عام لكل الناس، بل تكون الفتوى فيها حسب حال كل قضية بعينها، وبإمكان الإنسان أن يعرف مَنْ المفرط من غيره.

---

(١) أي: أصابته جنابة..

(٢) رواه البخاري: كتاب التيمم، باب المتيمم هل ينفخ فيهما، رقم (٣٤٧)؛ ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨).

١٥ ـ وفي هـذه الـسورة العظيمـة ـ التـي سـماها الرسـول ﷺ أم الكتاب، وأم القرآن ـ دليلٌ على مضمون مـا جـاء بـه القـرآن؛ فهـي أمٌّ وفاتحة؛ لأنها تشتمل على أنـواع التوحيـد، وتـشتمل عـلى الإِشـارة إلى الشرائع، وتـشتمل عـلى الإشـارة إلى الرسـل والملائكـة، وعـلى اليـوم الآخر، وعلى أقسام الناس؛ فكل معاني القرآن تتضمنها هـذه الـسورة، بالإِشارة والدلالة التضمنية والالتزامية.

ففيهـا مـن توحيـد الألوهيـة قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن الله هو ذو الألوهية على خلقه أجمعين.

وفيها من توحيد الربوبية قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والربوبية تكون عامة وتكون خاصة، وقد اجتمـع النوعـان في قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ فربوبية الله ـ تعالى ـ لموسى، وهارون، وأمثالهما من الرسـل ليـست كربوبيتـه لفرعون، وهامان، وقارون؛ لأن ربوبيته لموسى، وهارون، وأمثالهما من الرسل ربوبية خاصة، بها عناية وتوفيق لأمر لم يوفق له أكثر الخلق.

أما الأسماء والـصفات ففيهـا ـ أي الـسورة ـ الألوهيـة، والرحمـة، والوصف بالحمد والثناء، كل هـذا مـن أجـل كـمال صـفات الله ـ عَـزَّ وَجَلَّ.

أما اليوم الآخر ففي قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

وأما العبادة والاستعانة ففي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وهي تشمل جميع الشريعة؛ من أقوال، وأفعال، واعتقادات؛ إما شيء يطلب إيجاده، وإما شيء يطلب اجتنابه، وكلها داخلة ضمن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يدع شيئًا إلا بمعونة الله، ولا يقوم بشيء إلا بمعونة الله.

وأما الإيمان بالملائكة؛ فإنه يؤخذ من قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ لأن الذين أنعم الله عليهم هم الرسل، والواسطة بين الله وبين رسله هو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه موكل بالوحي، ثم إن صراط هؤلاء الذين أنعم الله عليهم متضمن للإيمان بالملائكة.

وأما الإيمان بالقدر فيؤخذ من قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ؛ لأن مقتضى الربوبية أن يكون كل شيء بتقديره، وقضائه، وقدره.

وأما أقسام الناس فيما أوحى الله إلى رسله فقد تضمنها قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

فالمهم أن من تدبر هذه السورة وجدها ـ كما وصفها رسول الله ﷺ أم القرآن، وفاتحة الكتاب؛ ولهذا أوجب الله ـ تعالى ـ على لسان رسوله ﷺ قراءتها على كل مصلٍّ؛ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حديث

عبادة بن الصامت الثابت في الصحيحين: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[1]، وفي حديث أبي هريرة قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج»[2]؛ يعني: فاسدة، وهذا يدل على أهمية هذه السورة، ولكن هناك شيء ينبغي التنبه له، وهو أن بعض الناس يستفتح بها كل شيء، ويجعلها السورة التي يتبرَّك بها في كل مناسبة، وهذا شيء من البدع؛ لأنه لم يعلم أن النبي ﷺ كان يستفتح الأمور بها، وإنما كان يبتدئ بها في قراءة الصلاة، نعم، هي رقية إذا قُرِئ بها على المريض بإخلاص؛ فإنه ينتفع بها بإذن الله، والله الموفق.

* * *

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب قراءة الفاتحة للإمام والمأموم...، رقم (٧٥٦)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٤).

(٢) رواه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٥).

(٢) سورة البقرة

قال ـ تعالى ـ: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.

في هذه الآيات يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾؛ وهو القرآن الكريم، وأشار الله ـ سبحانه وتعالى ـ إليه بإشارة البعيد؛ لعلوِّ مرتبته، وعظيم منزلته؛ فإنه كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وقد وصفه الله ـ تعالى ـ في القرآن بأوصاف عظيمة بالغة، وسمَّاه الله كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ ﴾؛ أي: ليس فيه ريب ولا شك؛ لأنه حق نازل من عند الله، وفي قوله: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾؛ أي: الذين اتقوا عذاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: الذين يؤمنون بما غاب عنهم، لإِخبار الله ـ تعالى ـ به ورسوله،﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾؛ أي: يأتون بها قائمة مستقيمة على وفق الشريعة،﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾؛ أي: ينفقون مما رزقهم الله؛ من الزكوات الواجبة، والصدقات المستحبة، والنفقات اللازمة.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾؛ أي: من الكتب المنزلة على الرسل؛ مثـل التـوراة والإنجيـل، والزبـور،﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾؛ أي: إيقانًا كاملًا لا مرية فيه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾؛ أي: عـلى صراط مـستقيم وعلـم نافع، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾؛ أي: الذين اهتدوا بهداية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، واتبعوا ما أنزل الله؛ فأصبح مآلهم هـو الفـلاح؛ والفـلاح هـو حصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

فوائد وأحكام هذه الآيات الكريمات:

١ـ في هذه الآيات إشارة إلى الصنف الأول والأعـلى مـن أصـناف بني آدم نحو هذا الكتاب العزيز؛ فإن الناس انقسموا في هـذا الكتـاب العزيز إلى ثلاثة أقسام: قسم آمنوا به ظـاهرًا وباطنًـا، وقـسم آمنـوا بـه ظاهرًا وكفروا به باطنًا، وقسم كفروا به ظاهرًا وباطنًا، فبدأ الله ـ تعـالى ـ بالذين آمنوا به ظاهرًا وباطنًا، ثم ثَنَّى بالذين كفروا به باطنًا وظـاهرًا، ثم ثلث بالذين آمنوا به ظاهرًا وكفـروا بـه باطنًـا، وهـذا التقـسيم مـن أحسن التقاسيم، وأجملها، وأوضحها؛ فبدأ بالأعلى ثم بما يقابله تمامًـا، ثم بما هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وأخَّـرَ الكـلام علـيهم؛ لطولـه، ولبيان أوصافهم؛ حتى يحترز منهم؛ ففي قوله ـ تعالى ـ: ﴿الٓمٓ﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن العظيم ـ الذي أعجز أمـراء الفـصاحة والبلاغـة ـ لم

يكن بأحرف خارجة عن الأحرف التي كانوا يتحدثون بها، ومع ذلك أعجزهم؛ فعجزوا أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، أو بعشر سور مثله؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤]، وهذا يشمل ما يكون به الإعجاز وإن قلَّ، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس: ٣٨]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، هذا القرآن الذي أعجزكم أيها البلغاء والفصحاء لم يأت بحروف جديدة حتى تقولوا ليست هذه الحروف معلومة لنا فلا نستطيع، هذا هو الأصح في الحكمة من ذكر الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، أما الحروف نفسها فليس لها معنى؛ لأن الله ـ تعالى ـ أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين، وهذه الحروف الهجائية ليس لها معنى في اللغة العربية.

٢ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ دليل على علوِّ مرتبة القرآن، وهو كذلك؛ لأن القرآن كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فهو أعلى الكلام في الفصاحة، والبلاغة، وما يحتوي عليه من العلوم النافعة.

٣ـ وفي قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ دليلٌ على أن هذا القرآن مكتوب، وهو كذلك؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٢ ـ ١٦]، وهو كذلك مكتوب في الصحف التي بأيدينا.

٤ـ وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ «ال» دليل على أن هذا الكتاب معروف معهود، وهو كذلك؛ فإن كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كان معروفًا معهودًا بين الصحابة، لم يفتقد منه شيء، وقد ذكر أهل العلم أن من أنكر حرفًا واحدًا اتفق القرَّاء على إثباته؛ فهو كافر.

وأما اختلاف القراءات السبع؛ فإن هذا مما ثبت عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن هذه القراءات السبع كلها حق تجوز القراءة بها.

٥ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ دليلٌ على أن الاهتداء بالقرآن مربوط بالتقوى؛ فكلما كان الإنسان أتقى لله كان أهدى بكتاب الله.

٦ـ وفي قوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ دليلٌ على أن غير المتقي لا يهدى بالقرآن، وهو كذلك؛ ولهذا قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ٧ ـ ٩]،

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٠ ـ ١٤]، فأخبر الله ـ تعالى ـ أن هذا إذا تتلى عليه آيات الله؛ لم ينتفع بها، ولم تصل إلى قلبه، ولم يرَ لها شأنًا عظيمًا، بل يقول: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾؛ يعني: مثل الحكايات التي تُحكى عن الأولين، ويُتحَدَّث بها لماذا؟ لأنه ران على قلبه ما كان يكسبه من الآثام؛ فلم ينتفع بالقرآن، وكلما كان الإنسان أتقى لله كان أهدى بكتاب الله؛ ويدل على ذلك آيات كثيرة؛ منها: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وكلما نقص الإنسان من التقوى نقص من اهتدائه بكتاب الله بقدر ما نقص من تقواه.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

هنا بَيَّن الله ـ تعالى ـ أوصاف هؤلاء المتقين؛ فوصفهم ـ سبحانه ـ بأنهم يؤمنون بالغيب؛ أي: بما غاب عنهم مما أخبر اللهُ به ورسلُهُ؛ لأنهم

يصدقون بما أخبر اللهُ به ورسلُهُ أكثر مما يصدقون بما شاهدوه بأعينهم أو سمعوه بآذانهم، وأمور الغيب التي أخبر اللهُ بها ورسلُهُ كثيرة معروفة في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ. ومن أوصافهم أنهم يقيمون الصلاة؛ أي: يأتون بها قائمة تامة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ويتممون ذلك بمتمماتها من المستحبات، ومن أوصافهم - أيضًا - أنهم ينفقون مما رزقهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - على حسب ما تقتضيه الشريعة إنفاقًا دائرًا بين الإفراط والتفريط؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ يخبر الله - تعالى - في هذه الآية بأن هؤلاء على هدى، وعلى علم مما وهبهم الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وبيَّن الله - تعالى - مآلهم وهو الفلاح؛ والفلاح هو حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

فوائد الآيات الكريمات:

١ - أن الإيمان بالغيب من تقوى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهو أساس التقوى؛ لأن ضدَّ الإيمانِ الشكُّ والتكذيبُ؛ فإن الناس فيما أخبر اللهُ به ورسلُهُ ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم يؤمنون بذلك ويوقنون به، وقسم ينكرون ذلك ويجحدونه، وقسم يترددون فيه ويشكون فيه،

والناجي من هذه الأقسام هو القسم الأول؛ الذين يؤمنون به ويصدقون به.

٢ـ أن الإيمان بالشيء المشاهد لا يجدي ولا ينفع؛ لأنه إيمان يقتضيه الواقع؛ فلا يمدح الإنسان عليه، فالإنسان الذي يقول: أنا أؤمن بالشمس، وأؤمن بالقمر، وأؤمن بالنجوم لا نمدحه على ما يؤمن به من هذه الأشياء المحسوسة، وإنما يمدح الإنسان على ما يؤمن به من الأشياء الغائبة؛ ولهذا لا ينفع الإنسانَ إيمانُهُ إذا شاهد الأمر عيانًا؛ كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وقال الله ـ تعالى ـ في فرعون لما أدركه الغرق ـ: ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فقيل له: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩١].

٣ـ فضيلة إقامة الصلاة، وأن ذلك من تقوى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والصلاة ـ هنا ـ شاملة لصلاة الفريضة وصلاة النافلة.

٤ـ أن الصلاة قد يفعلها الإنسان على غير وجه الإقامة لها؛ مثل أن يفعلها غير تامة، أو يفعلها ناقصة من الأركان، أو من الواجبات، فمن النقص في الأركان الذي يتهاون فيه الكثير من الناس عدم الطمأنينة؛

فإن بعض الناس يتهاون في الطمأنينـة، ولا يطمـئن، لا سـيما في القيـام بعد الركوع، وفي الجلوس بين السجدتين، ومن المعلوم أن الطمأنينة في هذين الركنين وفي غيرهما مـن أركـان الـصلاة، وأن الـصلاة لا تـصح بدون الطمأنينة فيهما وفي غيرهما من الأركـان؛ ففـي الـصحيحين مـن حديث أبي هريرة ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ: «أنَّ رسول الله ﷺ دخـلَ المـسجدَ، فدخلَ رجلٌ، فصلَّى، فسلَّمَ على النبـي ﷺ فـردَّ وقـال: «ارجـع فـصلِّ؛ فإنك لم تُصَلِّ»، فرجع فصلى كما صلَّى، ثـم جـاء فـسلَّم عـلى النبـي ﷺ فقال: «ارجع فصلِّ؛ فإنك لم تصلِّ» (ثلاثًا)، فقال: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما أُحسِنُ غيره، فعلِّمني، فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر، ثم اقـرأ مـا تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتـى تطمـئن راكعًـا، ثـم ارفـع حتـى تَعْتَدِلَ قائِمًا، ثم اسجُدْ حتى تطمئِنَّ ساجدًا، ثـم ارفــعْ حتـى تطمـئِنَّ جالسًا، وافعل ذَلِكَ في صلاتِكَ كُلِّهـا»[1]، وإنـما أمـره الرسـول ﷺ أن يعيد الصلاة مرة بعـد أخـرى؛ مـن أجـل أن يـشتد توقانـه إلى معرفـة الصلاة وأحكامها؛ حتى يتلقى ذلك بنفس مُشْرَئِبَّة متطلعـة إلى معرفـة الحكم؛ فيكون ذلك أرسخ في قلبه، وفي رواية للحديث: «إذا قمـتَ إلى الصلاةِ فأسْبغ الوضوء، ثُمَّ استقبل القبلة فَكَبِّرْ»[2]، وإنما قال لـه النبـي

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٨).

(٢) رواه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليـك الـسلام، رقـم (٦٢٥١)؛ ومـسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

ﷺ: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء»، مع أنه لم يشاهده ﷺ وهو يتوضأ؛ لأن من جهل هذه الأركان في صلاته قد يكون جاهلًا للوضوء، فأرشد النبي ﷺ إلى ما ينبغي أن يقوم به من إسباغ الوضوء، المهم أن رسول الله ﷺ أمرنا أن نطمئن في هذه الأركان، وهو دليل على أن الصلاة لا تصح دون الطمأنينة فيها، فالكثير من الناس يضيع الطمأنينة في هذه الأركان؛ فيكون غير مقيم للصلاة، ومن إقامة الصلاة صلاتها في المساجد مع الجماعة؛ لأن النبي ﷺ قال: «لقد هممت أنْ آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلًا يصلِّي بالناس، ثم أُخالفُ إلى رجالٍ يتخلَّفون عنها، فآمر بهم فيحرِّقوا عليهم بحزَمِ الحطب بيوتهم»[1].

وعن أبي هريرة قال: «أتى رجلٌ أعمى فقال: يا رسولَ الله، إنه ليس لي قائدٌ يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ له، فيصلي في بيته، فَرَخَّصَ له، فلما ولَّى دعاهُ فقال: «هل تسمعُ النداء بالصلاة؟» فقالَ: نَعَمْ؛ قال: «فَأَجِبْ»[2]؛ فمن لم يأت بصلاة الجماعة مع قدرته عليها وعدم وجود عذر شرعي في تركها؛ فإنه غير مقيم للصلاة، فلا يكون داخلًا في هذه الأوصاف الحميدة الجليلة.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب صلاة الجماعة، رقم (٦٤٤)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٥١).

(٢) رواه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، رقم (٦٥٣).

أما النساء فلا تجب عليهنَّ صلاة الجماعة في المساجد؛ لأن الرجـال هم المخاطبون بالاجتماع إليهـا، أمـا النـساء فقـد قـال النبـي ﷺ: «... وبيوتهن خير لهن»(١)، ولكن المرأة مأمورة بأن تحضر صـلاة العيـد؛ لأن النبي ﷺ أمر أن يُخْرَج إليها النساء حتى الحيَّض وذوات الخدور إلا أنه أمر الحيَّض أن يعتزلن المـصلى(٢)؛ لأن مـصلى العيـد مـسجد تثبـت لـه أحكام المسجد كلها.

ومن إقامة الصلاة المحافظة عليهـا في أوقاتهـا، بـل هـذا مـن أهـم إقامتهـا، وأوقـات الـصلوات معروفـة ـ ولله الحمـد ـ، وهـي خمـسة؛ فالفجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والظهر من زوال الشمس ـ أي: ميلها إلى جهة المغرب ـ حتى يصير ظل كـل شيء مثلـه بعـد فيء الزوال، والعصر من ذلك الوقت ـ أي: من صيرورة ظل كل شيء مثله ـ إلى أن تصفرَّ الشمس، هذا وقـت الاختيـار، والـضرورة إلى غـروب الشمس. أما صلاة المغـرب فوقتهـا مـن غـروب الـشمس إلى مغيـب الشفق الأحمر، والعشاء مـن مغيـب الـشفق الأحمـر إلى نـصف الليـل. وطلوع الفجـر إلى طلـوع الـشمس يمكـن إدراكـه بالمـشاهدة، وزوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله يمكن أن يعرف بوضع عصا أو

---

(١) رواه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المساجد، رقم (٥٦٧).

(٢) انظر البخاري: كتاب العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى، رقـم (٩٧٤)؛ ومـسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى، رقم (٨٩٠).

نحو ذلك قائمة في الشمس، وينظر إلى ظلها، فما دام الظل ينقص فالشمس لم تَزُلْ، فإذا بدأ الظل يزيد ـ ولو يسيرًا جدًّا ـ فقد زالت الشمس، وحينئذٍ اضبط مكان الزيادة، فإذا صار من مكان الزيادة إلى منتهى ظلها طولها فقد خرج وقت الظهر ودخل وقت العصر. أما انتهاء وقت العصر فهو معلوم بالمشاهدة، وهو اصفرار الشمس؛ أي: أن تكون الشمس صفراء، ومن اصفرار الشمس إلى الغروب ـ أيضًا ـ معلوم بالمشاهدة. أما صلاة المغرب فوقتها من الغروب إلى مغيب الشفق الأحمر، وهو معلوم بالمشاهدة ـ أيضًا ـ، وتقريبه في الساعة: ما بين ساعة وربع أو سبع عشرة دقيقة من الغروب إلى ساعة ونصف ساعة أو ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة بعد الغروب؛ لأن طول مدة وقت المغرب يختلف باختلاف الفصول، ومن بعد ذلك يدخل وقت العشاء مباشرة إلى نصف الليل، وبيان ذلك أن تَنْصِف ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر؛ فالنصف هو منتهى وقت صلاة العشاء.

فلا يجوز للإنسان أن يؤخر الصلاة عن وقتها المحدد لها شرعًا إلا لعذر يبيح الجمع؛ فيجوز أن يؤخر الصلاة الأولى التي تجمع لما بعدها إلى دخول وقت الثانية؛ لأن السبب المبيح للجمع يجعل وقت الصلاتين وقتًا واحدًا؛ فمن أخَّر الصلاة عن وقتها، وصلَّاها بعد الوقت بدون عذر شرعي؛ فإن صلاته مرفوضة لا تقبل؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾

[الطلاق: ١]، وقوله في آية أخرى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والظالم لا يقبل منه عمل؛ لأنه ظلم، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحب الظالمين، ويؤيد القولَ بأن الصلاة بعد وقتها لا تصلح بدون عذر قولُهُ ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ»(١)، ومن المعلوم أن من أخَّر الصلاة عن وقتها بدون عذر فقد عمل عملًا ليس عليه أمر الله ورسوله؛ فيكون مردودًا غير مقبول.

٥ـ فضيلة الصلاة؛ حيث نصَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على إقامتها بخصوصها، ومن المعلوم أن النص على الشيء بخصوصه يدل على عناية كاملة به، وعلى مرتبة عالية له.

٦ـ فضيلة الإنفاق مما رزق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، والإنفاق من المال ينقسم إلى واجب ومستحب، وأوجب الواجبات الزكاة التي فرضها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على العباد، فمن قام بها وأدَّاها؛ فإنه يدخل في هذه الآية الكريمة أول من يدخل، ويدخل في الإنفاق ـ أيضًا ـ الإنفاق على من يجب الإنفاق عليه؛ من زوجة، وقريب، ومملوك، وإنني بهذه المناسبة أحذر بعض الناس الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، فيظنون أن ذلك خيرًا لهم، وأن ذلك

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

تنمية لأموالهم؛ فإن هذا ليس خيرًا لهم، بل هو شر لهم؛ كما قـال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، أحذر هؤلاء البخلاء من أن يمنعوا الزكاة، وأحذرهم من أن يمنعوا الإنفاق على زوجاتهم، وأحذرهم من أن يمنعوا الإنفاق على من أوجب الله عليهم الإنفاق عليه، وأحذرهم من أن يمنعوا ما أوجب الله عليهم بذله من المال؛ من إطعام جائع، أو كسوة عارٍ، أو غير ذلك مما ذكر أهلُ العلم وجوب الإنفاق فيه، ولْيَعْلم الإنسان أن كل نفقة ينفقها يبتغي بها وجه الله ـ تعالى ـ يثيبه عليها، ويأجره عليها، ولا تزيد ماله إلا نماء وبركة؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «ما نقصت صدقةٌ من مالٍ، وما زادَ اللهُ عبدًا بعفوٍ إلا عِزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»(١).

* * *

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

من فوائد وأحكام هذه الآية:

أن هؤلاء المتقين المتصفين بهذه الصفات على هدى من الله، وعلى

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

بصيرة، وعلى برهان بأن مآلهم الفلاح؛ وهو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وهذا غاية كل إنسان؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

نسأل الله ـ تعالى ـ أن نكون من الفائزين السعداء في الدنيا والآخرة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ حال هؤلاء الكفار المكذبين لرسول الله ﷺ ومآلهم؛ أما حالهم فقد قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾؛ أي: أنهم لا يؤمنون سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم؛ وذلك لأن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦،٩٧]، ولا ينافي هذا ما علم من أن بعض الناس يكون كافرًا بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ثم يهديه الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى الإسلام؛ فيكون من أئمة المسلمين، ودعاة المسلمين، وأنصار الدين؛ لأن الكلام فيمن كان كافرًا، وقد حقَّت عليه كلمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛

فإنه لا يمكن لأحد أن يهديه، أما من كان كافرًا، ولم تحق عليه كلمة الله، وعلم الله منه أنه سيتوب، ويدخل في الإسلام؛ فإنه لا يدخل في هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم؛ أي: جعل الله عليها الختم؛ وهو الطبع بعد الإغلاق والاستيثاق، يُختم على الشيء حتى يبقى مختومًا لا يصل إلى خير، فهؤلاء ختم الله على قلوبهم؛ فلا يصل إليهم الإيمان، وعلى سمعهم؛ فلا يستمعون إلى ما يتلى عليهم على وجهٍ ينتفعون به، أما الأبصار ـ والعياذ بالله ـ فجعل الله عليها غشاوة؛ لا يبصرون ولا ينظرون إلى آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ التي تدلهم على الحق، وبيَّن الله ـ تعالى ـ أن لهم في الآخرة عذابًا عظيمًا؛ حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ ـ أنَّ مَنْ حقَّت عليه كلمة الله من الكافرين لا يمكن أن يؤمن، سواء أُنْذِرَ أم لم يُنْذَرْ، وسواء رُغِّبَ أم لم يُرَغَّبْ؛ لأنه قد طُبِعَ على قلبه؛ فلا يمكن وصول الهداية إليه.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية** ـ أيضًا ـ تسلية النبي ﷺ حتى لا يضيق صدره، ولا يكون في نفسه حرج، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ

نَفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، فالنبي ﷺ ومن ورثه من أهل العلم عليهم البلاغ والدعوة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وبعد ذلك لا يضرهم من ضلَّ ما داموا على الاهتداء، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة** أنَّه ينبغي للمؤمن الذي منَّ الله عليه بالإيمان أن يحمَد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه النعمة العظيمة.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة** أن رسول الله ﷺ قد قام بإنذار هؤلاء الكافرين، ولكن هؤلاء الكافرين قد حقت عليهم كلمة العذاب؛ فلم يُجْدِ فيهم الإنذار شيئًا.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة** أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمنُّ على من يشاء من عباده؛ فمن عباد الله من يشرح الله له صدره، ويُيَسر له أمره، يشرح صدره للإسلام حتى يفرح به ويستبشر به، ويتسع صدره لقبوله؛ فيقبله، وينفذ أحكام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الوجه الذي يرضاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ومن الناس من يكون على العكس من هذا؛ فيضيق صدره حرجًا بما سمع من آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾

[الزمر: ٢٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإن قال قائلٌ: كيف يهدي الله قومًا ويضل آخرين؟

فالجواب: أن هذا السؤال لا يرد؛ لأن الله ـ تعالى ـ له أن يفعل ما يشاء، فله أن يمن على من يشاء من عباده فيهديهم إلى صراطه المستقيم، كما قالت الرسل لأقوامهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١]، ونقول ثانيًا: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يهدي إلا من كان أهلًا للهداية، ولا يُضِل إلا من كان أهلًا للضلالة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥]، فلا يُضِل من ضلَّ إلا بسببٍ من نفسه، يكون قلبه غير مريد للحق وغير قابل له، والله ـ تعالى ـ يعلم منه ذلك؛ فيكتب الله له الشقاء والضلال؛ نسأل الله الهداية.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة أنه ينبغي للإنسان أن يكون دائمًا على حذر، وألا يعتمد على نفسه، وأن يخشى من الزيغ والضلال، وأن يسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ دائمًا الثبات على الحق، والموت عليه، وأن

يحمَد الله الذي منَّ عليه بالهداية، وقد أضلَّ قومًا آخرين.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة** إثبات الجزاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

٨- **ومن فوائدها** إثبات حكمة الله؛ فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يعذب هؤلاء إلا لاستحقاقهم العذاب بكفرهم بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، وبما يجب عليهم الإيمان به.

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وهذا هو القسم الثالث من الأقسام التي ابتدأ اللهُ بها هذه السورة، وهم: المؤمنون الخُلَّص والكافرون الخُلَّص، والمؤمنون بألسنتهم دون قلوبهم.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعض الناس يقول: آمنا بالله وباليوم الآخر، لكن يقول ذلك بلسانه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما هم بمؤمنين بقلوبهم، بل هم في قلوبهم منكرون، لا يعترفون بهذا ولا يقرون به ـ والعياذ بالله ـ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ

آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: أنهم في عملهم هذا وسيرتهم هذه يخادعون الله والذين امنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم. والخداع، والمكر، والكيد، معانيها متقاربة؛ وهي الإيقاع بالخصم من غير أن يشعر، هؤلاء يتظاهرون بالإيمان؛ ليخادعوا الله والمؤمنين، فيظنون أنهم أحْسَنُوا صنعًا، ولكنهم أسَاءُوا صنعًا وسبيلًا؛ ولهذا قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، - فهم في الحقيقة خدعوا أنفسهم، ولعبوا بها، وغروها، واغتروا بصنعهم؛ فلم ينفعهم هذا الخداع؛ لأن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٨ ـ ١٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ٩ ـ ١١].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: أن هؤلاء المنافقين الذين ظنوا أنهم خدعوا الله والمؤمنين بما يتظاهرون به من الإيمان وهم على الكفر لا يخدعون إلا أنفسهم؛ لأنهم غروها، واغتروا بما صنعوا، وظنوا أنهم يحسنون صنعًا، ثم قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛أي: لا يشعرون أنهم خدعوا أنفسهم؛ ولهذا استمروا على ما هم عليه من النفاق.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك، وريب، ونفاق؛ ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾؛ أي: أعطاهم مرضًا أكثر من المرض الأول، وهذا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فهؤلاء المنافقون لما كانت قلوبهم مرضى؛ صاروا يزدادون مرضًا فوق مرضهم؛ لأنهم كلما كذَّبوا شيئًا وأنكروا شيئًا؛ ازدادوا بذلك كفرًا وبُعدًا من الله ـ عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ أي: بسبب كذبهم؛ حيث قالوا: إنهم مؤمنون، وما هم بمؤمنين.

في هذه الآيات الكريمة يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن من الناس من ينافق؛ والنفاق هو إظهار الخير وإبطان الشر، وهو بالنسبة لحق الله نفاق عقدي مخرج عن الإيمان، وقد يكون نفاقًا عمليًّا؛ كالرياء، وبالنسبة لحق المخلوق نفاق عملي لا يُخرج من الإيمان، كما قال النبي ﷺ: «آيَةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1].

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، رقم (٣٣)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال النفاق، رقم (٥٩).

فوائد وأحكام هذه الآيات:

١ـ إثبات النفاق في بعض الناس؛ لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾، والنفاق لم يحدث في هذه الأمة إلا بعد أن قويت، وكان لها سلطان، وعزة، ورفعة؛ ولهذا قال العلماء: إنه لم يظهر النفاق في هذه الأمة إلا بعد غزوة بدر؛ حيث انتصر فيها المسلمون على أعدائهم، ووجه هذا ظاهر؛ فإن المنافق إنما ينافق؛ خوفًا على نفسه وماله، ولا يمكن الخوف على النفس والمال إلا مع قوة المَخُوفِ منه.

٢ـ **ومن فوائدها**: أن الأقوال لا تنفع إذا لم يكن القلب مطابقًا لها، فإذا قال الإنسان قولًا ولكن قلبه منكر؛ فإن هذا القول لا ينفعه عند الله، بل لا يزيده من الله إلا بُعدًا.

٣ـ **ومن فوائدها**: أن أحكام الدنيا تجري على الظاهر؛ أي: على ما يظهر من حال الإنسان دون الأمر الباطن الذي في قلبه؛ لأن الأمر الباطن لا يعلمه إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أما الأمر الظاهر فيعلمه كل من ظهر له؛ ولهذا لم يقتل النبي ﷺ المنافقين، وقال حين استُؤذن في قتلهم: «لا يتحدث الناسُ أَنَّ محمدًا يقتلُ أصحابه»[1]؛ ويتفرع على ذلك

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، رقم (٦٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)

أننا نجري الناس في أحكام الدنيا على ظاهر حالهم، ولا نسيءُ الظن بأحد إذا لم تظهر لنا قرائن قوية تذيل هذا الأصل؛ ومن ثَمَّ قال الفقهاء ـ رحمهم الله ـ: إنه يحرم سوء الظن بمسلم ظاهره العدالة؛ ومن هنا أحذر بعض الإِخوة الذين يطلقون مثل قولهم: هذا منافق، هذا كافر، هذا كذا.. إلخ، ويصفونه بأوصاف تخالف ظاهر حاله بناء على ما يظنونه في قلبه، وهذا خطأ؛ لأنه ليس لنا أن نحكم إلا بما ظهر، قال النبي ﷺ: «إنَّكم تختصمون إليَّ، ولَعَلَّ بعضَكُمْ أَنْ يكونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ من بَعْضٍ؛ فأقضي له على نحوٍ مما أسمعُ منه...»[1]؛ فدلَّ هذا على أنه ليس لنا أن نحكم إلا بما هو ظاهر، أما ما هو باطن فأمره إلى الله، ولا يجوز لنا أن نرمي عباد الله بما يخالف ظاهر حالهم، اللهمَّ إلا إذا وُجدت قرائن قوية تبين كذبه، فهذا يحكم له بما تقتضيه الشريعة.

٤ـ **ومن فوائدها**: أن المنافق ليس بمؤمن؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهو كذلك، ولكن هل يصح أن نقول: إنهم مسلمون؟ يرى بعض أهل العلم أنه يصح أن نقول عن المنافق: إنه مسلم؛ لأنه مسلم ظاهرًا، وربما يستدلون بقوله ـ تعالى ـ في قصة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، وهذا البيت يضم زوجة

(١) رواه البخاري: كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، رقم (٢٦٨٠)؛ ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣)

لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهي تتظاهر بالإسلام، وليست بمؤمنة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، فسمَّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا البيت بيت المسلمين، بل سمَّى من فيه مسلمين، مع أن فيه هذه الزوجة التي ليست بمؤمنة، والمنافقون ـ في الحقيقة ـ مسلمون إسلامًا عمليًّا؛ لأنهم لا يخالفون في الظاهر ما كان عليه المسلمون، وإن كان ذلك يثقل عليهم، ويشق عليهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال النبي ﷺ: «ليس صلاةٌ أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا»[1]، وعلى كل حال فالمنافق إذا لم يظهر نفاقه ويعلنه فهو مسلم ظاهرًا، وإن كان غير مؤمن.

٥ ـ ومن **فوائد الآية الثانية**. وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن هؤلاء المنافقين إنما صنعوا ما صنعوا؛ مخادعةً، ومكرًا، وكيدًا؛ فيدُل هذا على ذم الخداع، والمكر، والكيد ـ وهو كذلك ـ؛ فالمكر، والخداع، والكيد

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة، رقم (٦٥٧).

أمور ممقوتة ومذمومة إلا إذا كان في ذلـك مـصلحة، بحيـث يكـون في مقابل من يخدعك؛ فإنه يجوز أن تخدع من خدعك، كما قال الله ـ تعـالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ ولهذا نقول: إن الحرب خدعة، ويُذْكَر أن علي بن أبي طالب لما خرج إليه عمـرو بـن ود ليبارزه صرخ عليٌّ فقال: إني لم أخرج لأبارز رجلين، فظن عمـرو أن معه آخر، فالتفت؛ فضربه علي حتى قتله، فإن هذا لا شك أنـه خـداع، لكنه خداع لمن يحسن خداعه؛ لأنه مستحق له.

٦ـ **ومن فوائدها**: بيان أن المنافقين من أعداء المؤمنين؛ ولهذا يقول: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، كـما أنهـم أعـداء لله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ؛ ويترتب على هذه الفائدة الحذر من المنـافقين، وأن يحـترز الإنـسان مـن الإفضاء إليهم بالأسرار والأمور المهمة؛ خوفًا من أن يطيحوا بـه، وأن يلقوه في المهلكة.

٧ـ **ومـن فوائـد قولـه ـ تعـالى ـ**: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن الإنسان قد يعمى عن الضلالة؛ فيظن أن ما فعلـه حـسن وهو سيئ، وهؤلاء هم أخسر الناس أعمالًا كما قال الله ـ تعـالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

فإن قال قائل: بم نزن حسن الفعل وقبحه؟

قلنا: نزن ذلك بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وما كان عليه السلف الصالح؛ فإن خير الكتب كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها.

ثم قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ أن قلوب المنافقين مرضى، والمرض ـ هنا ـ ليس مرضًا عضويًّا يكون به الألم الجسدي، ولكنه مرضٌ معنوي يرفض به القلبُ الحقَّ، ويقبل الباطل، وهذا وصف منطبق تمامًا على المنافقين.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القلب عليه مدار الصلاح والفساد بالنسبة للعمل؛ لأن الله ـ تعالى ـ وصف القلب بالمرض، وهو دليل على أنه إذا مَرِضَ مَرِضَ معه الجسد، وإذا صَحَّ صَحَّ معه الجسد، ويؤيد هذا قولُ النبي ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يعتني بقلبه فينظر: أصحيح هو أم مريض؟ فإن كان مريضًا؛ فليحرص غاية

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

الحرص على طلب الشفاء له، وإن كان صحيحًا؛ فليحمد الله على ذلك، وليسأله الثبات عليه، ونحن نشاهد أن الإنسان إذا مرض عضو من أعضائه مرضًا جسميًّا ذهب إلى كل طبيب من أجل أن يحصل على شفاء من هذا المرض، ولكن مرض القلب لا يهتم به كثير من الناس مع أن مرض القلب أشد خطرًا، وأعظم فتكًا من مرض البدن.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإنسان إذا لم يحرص على علاج مرض قلبه؛ فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ ولا شك أن هذه العقوبة أعظم من العقوبة بِفَقْدِ الولد، والأهل، والمال، وكثير من الناس يغفل عنها، فكثير من الناس يظنون أن العقوبة إنما تكون في الأمور الظاهرة؛ كالأبدان، والأموال، والأولاد، والحقيقة أن العقوبة بمرض القلوب وفسادها أشد وأعظم من العقوبة بمثل تلك الأمور، بل إن كثيرًا من الناس يكون قلبه ميتًا، يصاب بالمصائب من الخوف، والجوع، وغير ذلك من المصائب المادية المحسوسة، ولا يرعوي ولا يرتدع عما هو عليه من الفسوق والعصيان.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عدل في قضائه وقدره؛ فإنه لم يجازِ هؤلاء المنافقين بزيادة المرض، إلا حيث كانت قلوبهم مريضة عفنة؛ ولهذا قال: ﴿فَزَادَهُمُ﴾ فأتى بالفاء الدالة

على تفرع ما بعدها على ما قبلها.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المنافقين - كما يبتلون بزيادة مرض القلب؛ يبتلون أيضًا بالعذاب وهو العقوبة على أعمالهم السيئة، وهو عذاب أليم مؤلم، ولا يقاس بألم الدنيا وعقوبتها؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات السبب؛ لقوله - تعالى -: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ والباء - هنا - للسببية، ولا شك أن ارتباط المسببات بأسبابها وترتبها عليها من مقتضيات حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ونحن نعلم جميعًا أن من أسماء الله (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضعها، ومن ذلك ترتيب المسببات على أسبابها؛ ويتفرع على هذه الفائدة الرد على من أنكروا تأثير الأسباب، وقالوا: إن الأسباب ليس لها أثر في مسبباتها، وظنوا أن هذا هو التوحيد، وأن إثبات تأثير الأسباب في مسبباتها نوع من الشرك، ونحن نقول: إن تأثير الأسباب في مسبباتها ليس تأثيرًا ذاتيًا، ولكنه تأثير وسيلة؛ فالأسباب وسيلة لحصول المسببات، والذي جعلها سببًا لمسبباتها هو الله - عَزَّ وجلَّ؛ ولهذا قد تتخلف المسببات عن أسبابها بقضاء الله وقدره، أفلا ترى النار المحرقة تكون بردًا وسلامًا بأمر الله، كما في قصة إبراهيم الخليل حين أضرم قومه النار؛ ليحرقوه، وألقوه في النار فعلًا، ولكن الله - سبحانه وتعالى -

قال للنار التي ألقـوه فيهـا: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ فكانـت بـردًا وسـلامًا ﴿بَرْدًا﴾ لم تحرقـه، و﴿وَسَلَـٰمًا﴾ لم تـؤذه، قـال أهـل العلـم: لـو قـال الله لهـا: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ ولم يقـل: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾؛ لكانت بردًا مؤذيًا له أو مؤثرًا عليه ضارًّا به، ولكنه قـال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾؛ فكانت بردًا لطيفًا لا يضره ولا يتأثر به، وهذا من تمام قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهو أكبر دليل على أن الأشـياء لا تؤثر تأثيرًا ذاتيًّا بنفسها، وإنما تؤثر بتقدير الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ، وأنـت إذا أثبت الأسباب على هذا الوجه لم تكن مثبتًا مع الله ـ تعالى ـ فـاعلًا، بـل الأسباب ومسبباتها كلها مفعولات لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٨- **ومـن فوائـد قولـه ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ:** ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾؛ معرفة سوء النتائج والعواقب للكذب، وأن الكذب سبب للعذاب، ولكن لا شك أن الكذب تتفاوت مراتبه، وإذا تفاوتت مراتبه تفاوتت عقوباته؛ فالكذب على الله ورسوله ـ مثلًا ـ أعظم من الكـذب على غير الله ورسوله، والكذب الذي يترتب عليه إتلاف مال أو إتلاف أنفس أعظم من الكذب الذي لا يترتب عليه ذلك، ولكن الكذب كله حرام، ولا يصح تقسيم من قسّم الكذب من العامـة إلى كـذب أبـيض وكذب أسود، ويقولـون: إن الكـذب الأبـيض هـو الكـذب الـذي لا يترتب عليه إتلاف مال ولا إتـلاف نفـس، وإن الكـذب الأسـود هـو

الذي يترتب عليه شيء من ذلك، فنقول: إن الكذب كله أسود، وليس في الكذب شيء ممدوح، سواء ترتب عليه إتلاف مال أو أنفس، أو ظلم لأحد أم لم يترتب عليه شيء؛ ويدل لذلك أن النبي ﷺ جعل الكذب من صفات المنافقين ومن علاماتهم فقال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[١].

ويدل لهذا أن جميع العقلاء ينكرون الكذب، ولا يرضون أن يكون خلقًا لهم، ألا ترى إلى أبي سفيان حين قدم على هرقل ملك الروم قبل أن يُسْلم، فسأله هرقل عن حال النبي ﷺ، وصفاته، وحال أصحابه؛ فلم يشأ أبو سفيان أن يتكلم بكلمة كذب فتؤثر عليه، وكل العقلاء يذمون الكذب، ولا يرضى أحد منهم أن يوصف بأنه كذاب، وقد حذَّر النبي ﷺ من الكذب وقال: «.. وإيَّاكُمْ والكذب؛ فإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور؛ وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النار، وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يكتب عند الله كذَّابًا»[٢]، والكذوب المعروف عند الناس بالكذب لا يوثق بخبره، حتى وإن كان صادقًا؛ لأن الناس يحكمون على الإنسان بغالب أحواله، ويصفونه بغالب أخلاقه، فعلى

---

(١) سبق تخريجه ص (٥٥).

(٢) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ رقم (٦٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)

المسلم أن يبتعد عن الكذب كله صغيره وكبيره، ما تـضمن الظلـم منـه وما لم يتضمنه.

❊ ❊ ❊

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي: قيـل للمنـافقين: ﴿ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ لم يبـين الله ـ سـبحانه وتعالى ـ القائل للمنافقين هذا القول؛ ليـشمل كـل مـن قـال لهـم مـن النـاس، فكلـما قـال لهـم النـاس: لا تفـسدوا في الأرض بالوشـاية، والكذب، والخيانة، وإظهار الإسلام، أمام المسلمين، وإظهـار الكفـر أمام الكافرين قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ من أجل أن نـسلم مـن القتـل والحـرب مـع المـؤمنين، ونـسلم مـن الكراهيـة والـبغض مـن الكافرين، نصلح طريقنا وسيرتنا مع هؤلاء وهـؤلاء، ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

وتأمل قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ حيث حـصروا حـالهم في الإصلاح، فقال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مكذبًا لهم ورادًّا عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ فقابل الله ـ سبحانه وتعالى ـ القول بقول أبلَغَ منه؛ حيـث حـصر الإفـساد فـيهم، وصـدَّره بــ(ألا) الدالـة عـلى التوكيـد فقـال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، وصـدق الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ؛ فـإن المنـافقين هـم المفـسدون الـذين يفـسدون في

الأرض، ويجعلون فيها الفتنة بما يسيرون عليه من النفاق.

من فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

١ ـ أن المنافقين قد يأتيهم من ينصحهم، ويبيِّن لهم حالهم، وأنهم يفسدون في الأرض، ووجه الإفساد من هؤلاء أنهم يعطون للمسلمين ألسنة طيبة وقولًا معسولًا؛ فيظن المؤمن أنهم من أوليائه فيفضي إليهم بأسراره، ولكنهم كاذبون في ذلك، ويحصل بهذا الفساد؛ حيث يحصلون على أسرار المؤمنين وينشرونها بين الكفار.

ومن إفساد المنافقين في الأرض ـ أيضًا ـ أنهم يريدون أن تُمحى شريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأن يكون الحكم والتحاكم إلى الطاغوت؛ والطاغوت كلُّ نظام يخالف شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ أي: يخالف ما شرعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده، فالمنافقون يحاولون بكل جهودهم أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ

﴿أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٣]، فالمنافقون لا يريدون أن تبقى شريعة الله هي الحكم بين خلقه في أرضه، تحت سمائه، ولكن يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت؛ وهو كل ما خالف شريعة الله مما سنَّهُ البشر، ولا شك أن هذا فساد عظيم ـ أعني: رجوع الناس إلى غير شريعة الله في التحاكم بينهم ـ فيه الفوضى، وفيه الظلم، وفيه الجور؛ لأن كل حكم يخالف حكم الله لا شك أنه جور؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يحكم بين عباده بالقسط، وقد أمر الله ـ سبحانه ـ أن يكون التحاكم إليه لا إلى غيره فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يؤذون رسول الله ﷺ بكل ما يستطيعون من أذية؛ قولية أو فعلية، صريحة أو تلميحية، كما قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]، وهُمْ يؤذون رسول الله ﷺ لا لشخصه، لا لأنه محمد بن عبدالله؛ ولكن لما جاء به من الشريعة؛ لأنهم يكرهونها، ويرون أن من قام بها فإنه مستحق للأذية، ولكنهم ـ بحمد الله، ورحمته، وعزته، وقدرته، ونُصْرَتِه لنبيه

ﷺ لا يضرون النبي ﷺ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، فهم لا يضرون الرسول ﷺ بأذيتهم، وإن علمنا أنهم يؤذون رسول الله ﷺ؛ من أجل أن يتنازل عن شيء من شريعة الله خوفًا من أذيتهم، فإننا نعلم كذلك أنهم يؤذون أتباع رسول الله ﷺ لعلهم يحدُّون من التمسك بشريعته ﷺ، وإذا كانوا يؤذون من اتبع رسول الله ﷺ فإن على المؤمنين المتبعين لرسول الله ﷺ الصبر على أذيتهم القولية أو الفعلية، التصريحية أو التلميحية، وليعلموا أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ جاعلٌ كيدهم في نحورهم.

ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يُثَبِّطُون عن الجهاد في سبيل الله وعن قتال أعداء الله؛ لأن أعداء الله يوافقونهم في الكفر، فالكل كافر، لكن هؤلاء مخادعون يظهرون الإسلام، والكافرون صُرَحَاء أشجع منهم يعلنون كفرهم ولا يبالون، وهم يثبطون عن قتال هؤلاء الكافرين، كما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم في عدة آيات من القرآن العزيز.

ومن إفساد هؤلاء ـ أعني: المنافقين ـ في الأرض أنهم يوالون أعداء الله، ويتولونهم أكثر مما يتولون المؤمنين؛ لأن أعداء الله الكفار إخوانهم، إخوانهم في الكفر، إخوانهم الحقيقيون؛ لأنهم متفقون وإياهم على الكفر بالله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فهم يتولونهم أكثر مما يتولون المؤمنين؛

لأنهم إنما يتولـون المـؤمنين في الظـاهر لا في البـاطن، ومـن المعلـوم أن توليهم للكافرين يزيد الكافرين قوة ويزيدهم ثباتًا في مجابهـة المـؤمنين، وهذا يتضمن نصر الكفر على الإيمان.

وأنواع إفسادهم في الأرض كثيرة يعرفها من يتتبع الآيات الكريمة في كتـاب الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ، كـما في هـذه الـسورة، وكـما في سـورة آل عمران، وكما في سورة النساء، وكـما في سـورة التوبـة، وكـما في سـورة الأحزاب، وكما في سـورة المنـافقين، نـسأل الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ أن يحمي الإسلام من كيدهم، وأن ينصر المسلمين عليهم.

يقول الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهذه دعـوى مـنهم يُنظـرُ هـلَ يـصدقها الواقع أو لا يصدقها، فبيَّنَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه لا يصدقها الواقع.

ويستفاد من هذا: أن كل إنسان يدعو إلى باطل فإنما يزعم أنـه عـلى حق، وأن كل إنسان يدعو إلى فساد فإنما يزعم أنه يدعو إلى صلاح، فإذا قال قائل: بأي شيء يوزن الصلاح والفـساد، والحـق والباطـل؟ قلنـا: بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فبهما يعرف الحق من الباطل، ويعرف الصلاح من الفساد.

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا

﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

لم يبين الله ـ تعالى ـ القائل، وقوله: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ المراد بهم المؤمنون؛ رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد قال هؤلاء المنافقون في الجواب على من يدعوهم إلى الإيمان: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وهذا الاستفهام للإنكار، يعني لن نؤمن كما آمن السفهاء؛ لأنهم سفهاء وليسوا راشدين؛ أي: ليس عندهم رشد، بل هم في سفهٍ؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

وتأمل في الفرق بين قوله هنا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وقوله في الآية التي قبلها: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ هناك نفي الشعور عنهم؛ لأن الإفساد أمر ظاهر معلوم يدرك بالحس والحواس الظاهرة، أما الإيمان فإنه أمر باطن يدرك بالبصيرة الباطنة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فأبطل الله ـ تعالى ـ دعواهم بأن المؤمنين سفهاء، وبين أنهم هم السفهاء، وحصر السفه فيهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ أي: لا غيرهم، ولكنهم في عمى وضلال، لا يعلمون أنهم سفهاء؛ ولهذا استمروا على ما هم عليه من الضلال والعمى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن هؤلاء المنافقين قد دُعوا إلى الحق ودُعوا إلى الإيمان، ولكنهم

ـ لكبريائهم وغطرستهم، واحتقارهم غيرهم ـ يجيبون من يدعوهم إلى ذلك بأنهم لا يؤمنون كما آمن السفهاء.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هـؤلاء المنـافقين يَـدَّعون أنَّ الإيمان سفه، يَدَّعون ذلك إما عن اعتقـاد وإمـا عـن إضـلال للخلـق، يحتمل أن الله ـ تعالى ـ أعمى بصيرتهم؛ فرأوا الحق باطلًا، ويحتمل أنهـم يرون الحق حقًّا ولكن لم يوفقوا إلى اتباعه، وهذا هو الأقرب، إذن فهـم يريدون بوصف المؤمنين بالسفهاء، يريـدون بـذلك تنفـير النـاس مـن المؤمنين ومن طريقتهم، ومن الإيمان بالله.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن لتنفير المنافقين عـن ديـن الله عـدة طرق منها؛ شجب أتباعه كما في هذه الآية.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمـة:** أنـه يجـب أن يـرد عـلى ذي الباطـل باطله، ويبيِّـن أنه هو الذي على الباطل؛ لقوله ـ تعـالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

٥ـ **ومن فوائد الآية:** أن السفه وصف رديء، كل أحـد ينفـر منـه، وهذا أمر لا شك فيه، ولكن ما السفه؟ السفه ـ كل السـفه ـ أن يرغـب إنـسانٌ عــن ديـن الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ وعـن الملـة التـي عليهـا الأنبيـاء والصالحون، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]؛ ولهذا نقول: كل إنسان يرغب عن دين الإسلام؛

فإنه سفيه مهما بلغ في الذكاء، ومهما بلغ في الإدراك، لكنه لو كان راشدًا عاقلًا عقل تصرفٍ وتدبيرٍ؛ لكان متبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ .

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

هؤلاء المنافقون من أوصافهم المراوغة، والدجل، والتمويه؛ فهم إذا لقوا الذين آمنوا ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾؛ إرضاء للمؤمنين، وخداعًا لهم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ طواغيتهم أئمة الكفر قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ يعني: ولسنا مؤمنين؛ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: مستهزئون بالمؤمنين، نسخر منهم، ونلعب بعقولهم، هكذا زعموا، فقال الله ـ تعالى ـ ردًّا عليهم:

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ واستهزاء الله بهم يعني: أنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يستهزئ بهم، يتخذهم هزوًا، فيملي لهم، ويمهل لهم، فالاستهزاء صفة من صفات الله الثابتة له على وجه الحقيقة، ولازمه أن الله يمهل هؤلاء، ويمدهم ويدعهم في هذا الطغيان يضيعون ويتيهون.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ بيان مراوغة هؤلاء المنافقين؛ حيث يقولون للمؤمنين قولًا، ويقولون للشياطين من الكافرين قولًا آخر مضادًّا له؛ ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ وهــذه غاية المراوغة؛ ففيها خداع لهؤلاء ولهؤلاء، خداع للمؤمنين بأنهم مؤمنون، وخداع للكافرين بأنهم معهم، ولكن خداعهم للكافرين ليس كخداعهم للمؤمنين؛ لأن حقيقة حالهم أنهم مع الكفار، فهم ليسوا بمؤمنين حقًّا، وهم كافرون حقًّا.

٢ ـ **ومن فوائدهما**: أن الإنسان يؤخذ بظاهره؛ فالمؤمنون إذا قال لهم هؤلاء المنافقون: «آمنا» تركوهم وظاهرهم؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يعاملهم على ظاهرهم حتى إنه استؤذن في قتلهم فقال: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[1]، وهكذا الأحكام في الدنيا إنما تكون على الظاهر لا على الباطن، أما في الآخرة فتكون الأحكام على الباطن، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون أَلحنَ بحُجَّتهِ من بعض؛ فأقضي له على نحوِ مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه؛ فإنما

---

(١) سبق تخريجه ص(٥٦).

أقطع له به قطعة من النار»[1].

٣ـ **ومن فوائدهما**: أن هؤلاء المنافقين لا يقولون للمؤمنين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بل يقولون: ﴿إِنَّا﴾، ولكنهم في خطاب الكافرين يقولون: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وهذا في عقد الموالاة بينهم وبين الكفار؛ لأن المعية تقتضي المناصرة والموالاة؛ فهم مع الكفار أولياء مناصرون، لكن مع المؤمنين يقولون: ﴿إِنَّا﴾، وما يدرينا لعلهم بقولهم: ﴿إِنَّا﴾ يعنون: آمنا بالطاغوت.

٤ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين**: أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يستهزئ بمن يستهزئ به وبعباده حين قال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وهذا الوصف الذي وصف الله به نفسه ـ وهو الاستهزاء على قاعدة أهل السنة والجماعة السلفية ـ يُجرى على ظاهره، ويقال: إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يستهزئ بمن يستحق الاستهزاء، وهو استهزاء حقيقي يليق بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليس استهزاء يتضمن نقصًا؛ لأن الله وصف به نفسه فهو كمال، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]؛ ولهذا لا تجد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يصف نفسه بالاستهزاء على وجه الإطلاق، وإنما وصف نفسه بالاستهزاء في مقابلة المستهزئين بعباده؛ ليبيِّن بذلك أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أقوى منهم وأعظم، فإذا سخروا من المؤمنين سخر الله منهم.

---

(١) سبق تخريجه ص(٥٧).

٥ـ **ومن فوائد الآيتين**: بيان حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث جعل الجزاء من جنس العمل، فكما أن هؤلاء استهزءوا بالمؤمنين؛ فالله ـ تعالى ـ استهزأ بهم، وهذا من عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهو ثابت في الدنيا وفي الآخرة، بل إن جزاء الله ـ عمومًا ـ دائر بين العدل والفضل، فهو بالنسبة للعصاة عدل، وبالنسبة للطائعين فضل.

والقاعدة العامة عند أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح: كل ما وصف الله به نفسه فهو حقٌّ على حقيقته، سواء أكان ذلك في كتاب الله، أو فيما صحَّ عن رسول الله ﷺ، ويجب أن نعلم علم اليقين أن كل صفة وصف الله بها نفسه فإن حقيقتها تخالف حقيقة ما يتصف به العبد من جنسها؛ وذلك لأن الصفة تابعة للموصوف، فكما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء في ذاته؛ فليس كمثله شيء في صفاته، لا يجوز ـ مثلًا ـ أن نقول: إن هذه صفة لا تليق بالله، الواجب نفيها وتحريفها إلى معنى آخر؛ لأننا إذا قلنا بذلك صرنا نحكم على الله ـ تعالى ـ في صفاته بعقولنا لا بما بلغنا عنه ـ سبحانه وتعالى ـ ومن المعلوم أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنزل هذا الكتاب؛ ليبين للناس الهدى كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وليس من حقنا، ولا يسوغ لنا أن نحكم على الله ـ تعالى ـ بعقولنا، بل نقول: سَمِعْنا، وأطعنا، وآمنا، وصدقنا؛ فوظيفتنا نحو ما أخبر الله به عن نفسه أن نقول: سمعنا، وأطعنا، وآمنا، وصدقنا، وألا نحرف ظواهر النصوص إلى معانٍ نعينها بعقولنا، ونحكم بها على ربنا، كما أنه يجب علينا نحو هذه النصوص ألا نعتقد فيها تمثيلًا؛ أي: أن الله ـ تعالى ـ مماثل لخلقه فيها؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فنحن نعلم بالعقل أنه لا يستوي المخلوق مع الخالق في أي صفة من الصفات.

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

الإشارة في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إلى المنافقين، وأشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعيد ـ وإن كان الكلام فيهم قريبًا ـ للتبرؤ منهم والبعد عنهم؛ فإن الإشارة للبعيد تارة تكون لعلو منزلة المشار إليه،

وتارة تكون لدنو منزلته، وهـذا هـو المقـصود في هـذه الآيـة، وقولـه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: أخذوا الضلالة وتركوا الهـدى؛ فسلكوا طريق الضلال وتركوا طريق الهـدى، ولكنـه عـبر بالاشـتراء؛ ليبين أنهم سلكوا هذا الطريق عن محبة وشغف، كـما يحـب المـشتري أن يحصل على السلعة التي يشتريها، والمراد بالضلالة هنا ما خالف الحـق، وبالهدى ما وافق الحق، قال الله ـ تعالى ـ مبينًا نتيجة هذا الفعـل: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ بل خسروا خسرانًا عظيمًا، وضلوا ضلالًا بعيدًا.

من فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ بيان سفه المنافقين؛ حيث اختاروا الضلالة وتركوا الهدى، وكل إنسان يسلك هذا المسلك فإنه سفيه بلا ريـب، كـما قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٢ـ **ومن فوائدها:** أن المنافقين يحرصون عـلى كـل مـا فيـه ضـلالة، سواء أكان من الأمور الكبيرة العامة، أو كان من الأمور الصغيرة حتى الوسائل التي يتوصلون بها إلى إيـذاء الخلـق، ثـم ضرب الله لهـم مـثلًا مطابقًا لحالهم تمامًا فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

وهذا المثل مطابق لحالهم تمامًا، وهو من أمثال التمثيل، كما في علـم

البلاغة؛ فهذا رجل احتاج إلى نار يستدفئ بها ويستنير بها، ولكن ليس معه ما يستنير به فاستوقد نارًا من شخص؛ أي: طلب أن يوقد له نارًا فأوقد له النار، فلما تبين ضوءها من الشعلة طفئت الشعلة؛ فبقي في ظلمة بعد أن كان في نور، وبقيت حرارة النار التي قد يكون فيها ضرر؛ ولهذا قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بنارهم؛ أي: بقيت النار بحرارتها، وذهب النور المستفاد من الشعلة التي انطفأت، وبقوا في ظلمات لا يبصرون، وإنما كانوا في ظلمات؛ لأن انطفاء النور بعد وجوده يحدث الظلمة، ولا سيما عند انطفائه في أول وهلة، هؤلاء المنافقون ليس عندهم نور في قلوبهم؛ إنما يستفيدون ما يستفيدونه من النور من بعض المؤمنين من أقاربهم أو جيرانهم فيستضيئون به لحظة، ولكنهم يعودون إلى أصلهم من الظلمة والضلالة، يستضيئون به لحظة، ثم ينطفئ؛ فيبقى ذلك حرارة في قلوبهم؛ لأنهم ليس لهم نور يهتدون به.

ثم قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ ﴿صُمٌّ﴾ يعني: لا يسمعون الهدى، ﴿بُكْمٌ﴾ لا ينطقون به، ﴿عُمْيٌ﴾ لا يبصرونه، فنفى عنهم طرق الهداية كلها، وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ هذا حال المنافق، لا ينطق بالحق، ولا يستمع إليه، ولا ينتفع به لو سمعه، ولا يبصره، وإن أبصره لا ينتفع به، فهو بمنزلة الأعمى.

فوائد الآيتين الكريمتين:

١ـ يضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأمثال هنا؛ فيستفاد من ذلك أن من البلاغة أن يضرب المتكلم الأمثال المحسوسة للمخاطب؛ ليتوصل بها إلى المعاني المعقولة؛ لأن إدراك الشيء المحسوس أقرب من إدراك الشيء المعقول، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[المؤمنون: ٧٣]؛ فالأمثال مهمة في تعليم المخاطب بتقريب المعاني إلى ذهنه وتصورها.

٢ـ **ومن فوائدهما:** أن المنافقين ليس لهم نور ذاتي يستضيئون به، وإنما نورهم من نور خارجي يضيء عليهم ثم يخبو، ويبقون في ظلمة؛ فتشتد الظلمة عليهم بعد النور الذي أضاء لهم.

٣ـ **ومن فوائدهما:** أن هؤلاء المنافقين إذا استضاءوا بهذا النور الذي يأخذونه من غيرهم، فإنهم قد يلوح لهم شيء من الهدى، ولكن لعلم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بحالهم، وأنهم ليسوا أهلًا للهداية ـ لما في قلوبهم من الزغل، والأفكار الخبيثة ـ يذهب الله بنورهم ويدعهم، وعلى هذه الفائدة تتفرع فائدة أخرى عظيمة وهي أنه يجب على الإنسان أن يطهر

قلبه تطهيرًا كاملًا من كل زغل وخبث، وأن يعتني بطهارة قلبه أكثر مما يعتني بطهارة بدنه وثيابه؛ لأن طهارة القلب عليها المدار، وبها تكون طهارة الأعمال الظاهرة.

٤ـ **ومن فوائد الآيتين السابقتين**: بيان حال المنافقين، وأنهم ـ والعياذ بالله ـ لا يصل إليهم الهدى من أي طريق؛ فهم صمٌّ لا يسمعونه ولا يسمَّعون ما اهتدوا به، بكمٌ لا ينطقون به، بل ينطقون بالباطل، وما ينطقون به من الحق إنما يريدون به باطلًا لا يريدون به حقيقة معناه، وهم عمي لا يبصرون الحق، ولو أبصروا الحق ما انتفعوا به.

٥ـ **ومن فوائدهما**: أن هؤلاء المنافقين قد رأوا أنهم على صواب، وعلى حقٍّ، وعلى طريق صحيح؛ ولهذا لا يرجعون عن غيهم، بل يبقون على ما هم عليه، ويتفرع على هذه الفائدة فائدةٌ أخرى وهي أنه يجب على الإنسان أن يعتني دائمًا بالتنقيب والنظر في عمله، وهل هو صواب أم خطأ؛ فإن كان صوابًا فليحمد الله وليستمر عليه، وإن كان خطأ فليتب إلى الله، وليرجع إلى الصواب أينما كان.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ في المثل الثاني: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ

وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ١٩ ـ ٢٠].

هذا المثل الثاني لطائفة أخرى من المنافقين، وإن شئت فقل: لحال أخرى من المنافقين، ضرب الله لهم مثلًا بصيب من السماء؛ أي: مطر نازل من السماء؛ وهو الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ، هذا الصيب فيه ظلمات، فيه رعد، فيه برق، فيه ظلمة المطر، ظلمة السحاب، ظلمة الليل، وفيه ـ أيضًا ـ رعد وبرق، وهذا الرعد رعد شديد فيه صواعق؛ الصواعق عبارة عن كشف حال هؤلاء المنافقين، وبيان أسرارهم، وخُبْثِهم، وعما في القرآن من الزواجر والوعيد لمن عصى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لكن هؤلاء المنافقين يجعلون جُنَّةً لا تُجِنُّهم، ويستترون بستر لا ينفعهم، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق؛ يظنون أنهم إذا لم يسمعوا الصاعِقة لم تنزل عليهم، ولكنهم أخطئوا في هذا التقدير.

وهذه الآية كقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المنافقون: ٤]؛ فيظنون كل آيةٍ نزلت في وصف يبين عيوبهم، ويهتك أستارهم، يظن كل واحد منهم أنه هو المعني بذلك فيمشي في الناس وكأنه خائف حذر، ولكن هذا لا يغنيه بشيء؛ البرق بشدته وقوته يقع على بصر ضعيف لا يتحمل، ليس عنده قوة ولا قدرة على تحمل الإِضاءة؛ ولهذا

قال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾، والبصر الضعيف يتأثر بكل نـور، وكلما قوي النور قوي تأثيره، وانظر إلى الأعشى إذا خرج، أو انظـر إلى ضعيف البصر إذا خرج للشمس تجده ينكـسف بـصره وتهـل دموعـه؛ لأنه لا يقوى على تحمل هذا النور، فهم كذلك بصرهم ضـعيف ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾؛ لأن النور قوي، والبصر غير مقـاوم لـضعفه؛ فيكاد البرق يخطف أبصارهم؛ لشدته، وضعف البـصر، وعجـزه عـن المقاومة، ومع ذلـك فهـم ينتهـزون الفرصـة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾؛ لأنهم لا يستطيعون المشي مـع هـذه الظلـمات، وبعد هـذا النـور العظـيم قـال الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ لذهب بسمعهم فلم يكن لهم سمع، وبأبصارهم فلم يكن لهم بصر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فوائد الآيتين الكريمتين:

١ـ أن حال هؤلاء المنافقين حال ضـعيفة لا تـستطيع المقاومـة ولا القيام بشرع الله ـ عزَّ وجلَّ.

٢ـ أن هؤلاء المنافقين عنـدهم مـن الخـوف والرعـب مـا يجعلهـم يظنون أن كل صيحة عليهم، وأن كل وعيـد لهـم، وأن كـلَّ إنـذار لهـم أيضًا؛ فهم جبناء ضعفاء لا يستطيعون أن يقاوموا الحق؛ لقوته أمامهم، وضعفهم أمامه؛ ويترتب على هذه الفائدة فائدة عظيمة؛ وهي أنه ينبغي

على الإنسان أن يتقبل الحق حيثما كان، وأن يكون عازمًا عـلى تطبيقـه، سواء أكان ذلك شاقًا على نفسه أم هينًا عليها؛ لأن المؤمن ـ كما ذكـر الله ـ تعالى ـ من وصفه ـ يقـول: سـمعنا وأطعنـا؛ قـال ـ تعـالى ـ: ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٣ـ **ومن فوائدهما**: أن القرآن الكريم كالمطر، غيث لـلأرض تنتفـع به، وينتفع به أهل الأرض أيضًا، وهكذا وحي الله وشرعه الذي نـزل؛ هو كالغيث؛ فمن الناس من يَقْبَلُ هذا المطر، ويستخرج منـه الثمـرات العظيمة، وينتفع الناس به، ومـن النـاس مـن لا ينتفـع بهـذا الـوحي، ويكون كالأرض الصماء التي تبتلع الماء، ولا تنبت شيئًا، ومـن النـاس من يكون على أوصاف أخرى بالنسبة لهذا المطر النازل من السماء.

٤ـ **ومن فوائد الآيـة الكريمـة التـي فيهـا المثـل الثـاني**: أن هـؤلاء المنافقين قد يستضيئون بعـض الـشيء ـ أحيانًـا ـ بـما يـرون مـن النـور الحاصل من الوحي، ولكن سُرْعَان ما يزول ويذهب مع أنهم ينتفعـون به على مشقة حتى إنه يكاد يخطف أبصارهم.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات المشيئة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾، وقـد أثبـت الله ـ تعـالى ـ مشيئته في عدة آيات من القرآن، وكلٌّ شيء فإنه بمشيئة الله؛ ولهذا أجمـع المسلمون على هذه الكلمة: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»، ولكـن

مشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ تابعة لحكمته؛ فلا يشاء ـ سبحانه وتعالى ـ إلا ما اقتضت حكمته مشيئته؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فبيَّن أن مشيئته مقرونة بعلمه وحكمته ـ وهو كذلك ـ، ولكن حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ منها ما هو معلوم لنا ومفهوم نشاهده ونعرفه، ومنها ما هو خفي علينا؛ لأننا قاصرون في العلم والإدراك، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فما يَرِدُ على الذهنِ ـ أحيانًا ـ منَ الإشكالِ في بعض الآيات الكونية أو الآيات الشرعية؛ إنما ينشأ من قصور الإنسان أو تقصيره، ولو أن الإنسان بحث بحثًا جديًّا يريد به الحق؛ لَتَبَيَّن له من حكمة الله ـ تعالى ـ في أحكامه الكونية والشرعية ما لا يتبين للغافل المعرض الذي لا يريد إلا أن يشكك الناس في بعض الأمور التي تخفى في حكمتها، كما يعرف من بعض الناس الذين يأتون ويقولون: ما الحكمة في كذا؟ ما الحكمة في كذا؟

نحن لا نسيء الظن بأحد، لكن من الناس من يقول ذلك؛ ليشكك العامة فيما هم عليه من الهدى والحق، لا لقصد أن يصل إلى المعنى المطلوب الذي يسأل عنه، ومع هذا فإني أقول: إن علمت حكمة الشيء الواقع بقضاء الله وقدره، وحكمة الشيء الواقع بشرع الله ودينه، فهذا

بلا شك من نعمة الله عليك، وإن لم تعلم فسلِّم الأمـر وكِـلِ الأمـرَ إلى عالمه ـ سبحانه وتعالى ـ، واعلم أنه لا يحكم إلا لحكمة عظيمـة، عَلِمَهَـا مَنْ عَلِمَهَا وجَهِلَهَا مَنْ جَهِلَهَا.

٦ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير، وقدرتـه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قدرة تامة، لا يعتريها عجز بوجه مـن الوجـوه؛ ولهـذا كـان أمره بالشيء أمرًا واحدًا لا يكرره، بل إذا أمر بشيءٍ كان في لحظـة، قـال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فتأمل قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾؛ يعني: لا يقول للشيء: كـن، ثم يقول له: كن مرة ثانية، بل إذا قال: كن؛ كان كلمح البـصر، وتأمـل قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، تجد أنها زجرة أو صيحة واحـدة، يبعـث فيها الخلائق كلهم؛ فيحضرون للقضاء بينهم بقدرة الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ، وهذا دليل على كمال قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ؛ ولهـذا قـال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ولا يستثنى من هذا شيء أبدًا؛ فكلُّ شيءٍ اللهُ قادرٌ عليهِ؛ ويتفرع على الإيمان بهذه الفائدة أن الإنسان ينبغي أن يـسأل ربـه كل ما يرى فيه مـصلحة، ولا يستـصعب الأمـر، ولا يقـول: هـذا لـن يكون، هذا بعيد؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللهـمَّ اغفِـرْ لي

إنْ شئتَ، ارحمني إنْ شئتَ، ارزقني إنْ شئتَ، وليعزم مسألته؛ إنه يفعل ما يشاء لا مُكره له»[1]؛ فلا أحد يكره الله حتى يقال: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل، فلا يقال: «إن شئت» إلا لمن هو مكره فينظر هل يشاء أو لا يشاء، أما الذي يفعل باختياره، وبإرادته، وبقدرته؛ فإنه لا يقال في حقه: «إن شئت»؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن ذلك، وقال: «إنه يفعل ما يشاء لا مكره له».

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

وجَّه الله الخطاب إلى الناس؛ لأن الناس جميعًا يجب عليهم عبادة الله وحده لا شريك له، والعبادة هي التذلل إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد تطلق على المُتعبد به، وهي العبادات التي يقوم بها الإنسان؛ كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

وقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ الربُّ: هو الخالق المالك المصرِّف المدبر لجميع الأمور، وقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ يعني: الذي أوجدكم من العدم، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ أي: خلقهم وأوجدهم الله من العدم كما أوجدكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: من أجل أن تصلوا إلى هذه المرتبة

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، رقم (٧٤٧٧).

العالية؛ وهي تقوى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والتقوى: اتخاذُ الوقايةِ مِنْ عذابِ الله بفعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهيهِ.

فوائدُ وأحكامُ الآية الكريمةِ:

١ـ بيانُ أهميةِ هذا الطلبِ؛ وهو عبادةُ الله ـ تعالى ـ وحدَهُ، ووجهُ ذلكَ أَنَّهُ لَاْ يصدرُ الخطابُ بالنداءِ إِلَّا للعنايةِ بِهِ؛ لأنَّ النداءَ نوعٌ مِنَ التنبيهِ؛ فأنتَ إِذَاْ ناديتَ المخاطبَ انتبهَ واتجهَ إليكَ.

٢ـ **ومن فوائد الآية**: أَنَّ العبادةَ حقٌّ لله، واجبٌ على جميعِ الناسِ؛ ولهذا قَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ فكلُّ الناسِ يجبُ عَلَيْهِمْ عبادةُ الله، وعبادةُ الله ـ تعالى ـ هِيَ التعبدُ لَهُ؛ أي التذللُ لَهُ بفعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نهيهِ حَسْبَ شرعِهِ الَّذِيْ أرسلَ بِهِ رسلَهُ، وَهِيَ مختلفةٌ؛ بمعنى أَنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يجعلُ اللهُ لَهُ شريعةَ كَذَا، والآخرِ شريعةَ كَذَا، حَسْبَ مَاْ يصلحُ بِهِ الخلقُ، وَلَكِنَّ الشرائعَ كُلَّهَا اجتمعت بشريعةِ محمدٍ ﷺ، وصارت شريعةُ محمدٍ ﷺ ناسخةً لجميعِ الشرائعِ؛ فلا عبادة لله إِلَّاْ عَنْ طريقِ شريعةِ محمدٍ ﷺ، والعبادةُ لَاْبُدَّ أَنْ تكونَ مبنيةً على أساسينِ هما: **الإِخلاصُ لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والمتابعةُ لرسولِ الله ﷺ**.

أما الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهو أن ينوي الإِنسان بعبادته وجه الله والدار الآخرة، لا ينوي بذلك حطامًا من الدنيا، ولا جاهًا، ولا رئاسة، ولا تزلفًا لمخلوق، بل ينوي بذلك وجه الله والدار الآخرة،

ومتى كانت هذه نيته؛ فإنه سوف يحسن العمل، سوف يعبد الله كأنه يراه. فإن لم يكن يراه فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يراه، وضد الإخلاص في العبادة الشرك في العبادة؛ بأن ينوي بعبادته غير وجه الله والدار الآخرة؛ ينوي بها حطامًا من الدنيا، ينوى بها تزلفًا لمخلوق، ينوي بها الحصول على الجاه بين الناس، وهكذا فإن هذه النية باطلة مبطلة للعمل.

أما الركن الثاني أو الشرط الثاني فهو متابعة الرسول محمد ﷺ، ولا يمكن أن تتحقق المتابعة إلا إذا كانت العبادة موافقة للشريعة في أمور ستة: في سببها، وجنسها، وقدرها، وصفتها، وزمانها، ومكانها، فإن خالفت الشريعة في واحد من هذه الأمور الستة؛ لم يكن الإنسان متبعًا فيها لرسول الله ﷺ، فمن أحدث عبادة لسبب غير شرعي؛ فإن عبادته غير مقبولة، بل مردودة عليه؛ لقول النبي ﷺ: «**من عمل عملًا ليس** عليه أمرنا فهو رد»[1]، وهذا الحديث أساس لكل الأوصاف التي ذكرناها، ومن تعبَّد لله بجنس غير مشروع؛ فإن عبادته غير مقبولة، فلو أنَّ الإنسان ضحَّى بفرسٍ؛ فإن أضحيته لا تُقبل؛ لأنه ضحَّى بجنسٍ غير مشروع؛ فإن الأضحية إنما تشرع من بهيمة الأنعام، من الإبل، والبقر، والغنم.

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٩).

ولابد أن تكون موافقة للشرع في قدر العبادة، فمـن تعبـد لله بـأمر زائد على ما شرعه؛ فإن هذا الزائد لن يقبل، ثم قد يبطل العبادة كلهـا، وقد لا يبطلها، لو صلى الإنسان الظهر خمسًا لم تقبل منه؛ لأنها على غـير القدر الوارد في الشرع، وهذه الزيادة تبطـل العبـادة، لكـن لـو أخـرج الفطرة صاعين من الطعام لم يثب ثواب الفطرة على كلا الصاعين، وإنما يكون أحد الصاعين هو الذي يثاب عليه ثواب الفطرة، والثـاني يثـاب عليه ثواب الصدقة، وهناك فرق بين الفطـرة والـصدقة؛ لأن الـصدقة تطوع والفطرة فرض، والإنسان يثاب على الفرض أكثر مما يثـاب عـلى التطوع، ويدل عـلى الفـرض حـديث ابـن عبـاس - رضي الله عـنهما - قـال: **«فَـرَضَ رسـولُ الله ﷺ زكـاة الفطـر طُهْـرةً للـصائم مـن اللغـو والرَّفث، وطُعْمَةً للمساكين، من أدَّاها قبل الصلاة فهي زكـاةٌ مقبولـةٌ، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات»**

ولابدَّ أن تكون موافقة للشرع في صفتها، فـإن خالفـت الـشرع في الصفة؛ لم تكن مقبولة، لو أن الإنسان صلى فبدأ بالسجود قبل الركوع؛ لم تكن صلاته مقبولـة؛ لأن ذلـك عـلى خـلاف الـصفة التـي ورد بهـا الشرع؛ فتبطل الصلاة ولا تقبل، وكذلك على القول الراجح من أقوال أهل العلم لو توضأ الإنسان فبـدأ برجليـه، ثـم رأسـه، ثـم يديـه، ثـم

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم (١٦٠٩)؛ وابن ماجه: كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر، رقم (١٨٢٧).

وجهه؛ لم يكن وضوءُه مقبولًا؛ لأنه على غير الصفة الواردة عن رسول الله ﷺ.

ولابد - أيضًا - أن تكون موافقة للشرع في الزمان؛ فلو تعبد الإنسان عبادة لله - عَزَّ وَجَلَّ - في غير زمانها؛ لم تكن مقبولة، لو أن الإنسان حج - مثلًا - في غير وقت الحج؛ لم يكن حجه مقبولًا ولو زار أمكنة المناسك؛ لأنها في غير الوقت.

ولابدَّ أن تكون موافقة للشرع في مكانها، فلو اعتكف الإنسان في بيته؛ لم يكن اعتكافه مقبولًا؛ لأنه لم يتبع فيه شريعة الله.

والخلاصة أن العبادة لا تكون مقبولة إلا بموافقة الشرع، ولا تكون موافقة للشرع إلا إذا وافقت ما جاء به الشرع في السبب، والجنس، والقدر، والصفة، والزمان، والمكان.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

هذه الآية تكملة للآية التي قبلها؛ وهي قوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ ففي

الآية الأولى الإيجاد ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وفي الآية الثانية الإمداد؛ فإن الله ـ تعالى ـ خلقنا وأمدنا بالرزق الذي نتأهل به لإعداد أنفسنا لقبول شريعته، فذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما أمدنا به من المقر ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، ومن الرزق الذي به قوام البدن ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، وبتمام الإمداد يجب الاستعداد لما أمر الله به؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: شركاء في عبادته أو في شيءٍ من حقوقه وخصائصه، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: تعلمون أنه لا نِدَّ له في ربوبيته، فإذا كنتم تعلمون أنه لا شريك له في ربوبيته؛ فإن مقتضى ذلك ألا تجعلوا له شريكًا في عبادته، تتألهون إليه، وتعبدونه، وتتقربون إليه؛ كما تتقربون إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١ـ في هذه الآية من الأحكام أن الأرض جعلها الله ـ تعالى ـ فراشًا لبني آدم، جعلها قرارًا مستقرًا لا تميد ولا تضطرب، ولو كانت تميد أو تضطرب ما صحَّ أن تكون فراشًا يطمئن فيه الإنسان ويستوطن.

٢ـ **من فوائدها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل السماء بناء، وسمَّاها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في آية أخرى سقفًا محفوظة؛ فهي مبنية ومحفوظة بحفظ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهو الذي ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ

عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، فلولا أن الله أحكم البناء؛ لوقع على الأرض، وهذه من نعمة الله علينا.

٣ـ **ومن أحكامها**: إثبات أن الأسباب لها أثر في مسبباتها؛ لقوله ـ تعالى ـ حين ذكر إنزال الماء من السماء ـ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ أي: أُخْرِجَ بسببه، ولا يشك عاقل في أن للأسباب تأثيرًا في مسبباتها، وهذا التأثير الذي أودعه الله في الأسباب هو من خلق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فمن أنكر تأثير الأسباب في مسبباتها؛ فقد خالف ما هو معلوم ببداهة العقول، ومن جعل الأسباب مؤثرة بذاتها؛ فقد أثبت مع الله شريكًا، ومن أثبت تأثير الأسباب لكن بإرادة الله ـ تعالى ـ ومشيئته؛ فقد وافق الحق والواقع، وهذا هو المذهب الراجح الذي جرى عليه المحققون من أهل العلم، خلافًا لمن قال: إن الأسباب لا تؤثر، وأن ما يحصل بها من الأسباب حاصل عندها لا بها؛ لأن هذا مكابرة للواقع، فهؤلاء يقولون: إن النار إذا أحرقت الورق لم تكن هي التي أحرقته، ولكن حصل الإحراق عندها لا بها، ونحن نقول: بل حصل الإِحراق بها، لكن بأمر الله، فهو الذي خلق فيها هذه القوة المحرقة، ولو شاء الله ـ تعالى ـ لسلبها هذه القوة؛ بدليل أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال للنار التي ألقي فيها إبراهيم: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت بردًا وسلامًا عليه، بردًا خلاف طبيعتها التي هي الحرارة، وسلامًا خلاف أثرها الذي هو الإِحراق، قال بعض العلماء: ولو قال

الله: ﴿كُونِى بَرْدًا﴾، ولم يقــل: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾؛ لأهلكه بردهـا، المهـم أن في هذه الآية الكريمة إثبات الأسباب وتأثيرهـا في مـسبباتها، ولكـن مـن الذي جعل السبب مؤثرًا؟ هو الله، والسبب؛ هو المطر.

٤ـ**وفي الآية الكريمة من الفوائد**: منة الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ عـلى عباده بهذا الماء النازل من السماء؛ حيث أخرج به من الثمرات رزقًا لنـا ورزقًا لمواشينا أيضًا؛ كما قـال ـ تعـالى ـ في سـورة النحـل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]؛ تسيمون: أي ترعون أنعامكم.

٥ـ**ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب شـكر المنعِم؛ لقولـه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛أي: هـذا الـذي أنعـم علـيكم يجـب أن تـشكروه وتوحِّدوه بالعبادة كما أنه هو الذي أنعم عليكم وحـده فـلا تجعلـوا لـه أندادًا.

٦ـ**وفي الآية الكريمة من الفوائد**: شدة اللوم عـلى مـن اجـترأ عـلى المحرمات مع العلـم؛ لقولـه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فإن من علم بالقبيح وتجرأ عليه؛ أعظم جرمًا وقبحًا ممن لم يعلم به ولـو تجرأ عليه.

٧ـ**وفي الآية الكريمة من الفوائد أيـضًا**: أن الأرض التـي يـستولي عليها الإنسان تكون ملكًا له، قـراراً وهـواءً؛ قـراراً يؤخـذ مـن قولـه:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، وهواء من قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ فكل ما كان فراشًا لي من الأرض فإنما يقابله من السماء بناءً لي؛ ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: إن الهواء تابع للقرار؛ أي: أن من ملك أرضًا فله قرارها وله هواؤها إلى السماء؛ فلا يملك أحد من جيرانه أن يبني جناحًا يكون ظله على أرض الجار، بل قال العلماء: لو أن أغصان شجرة جارك صارت فوق بيتك فلك المطالبة بإزالة هذا الغصن.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

هاتان الآيتان لهما ارتباط بما قبلهما من حيث المعنى؛ وذلك أن في الآيتين السابقتين تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بإفراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة، وفي هاتين الآيتين تحقيق رسالة النبي ﷺ؛ وذلك في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ فالآيات الأربع متضمنة لشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والريب هو الشك مع القلق والضجر، والمراد بالعبد ـ هنا ـ محمد ﷺ، وأشرف أوصافه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصفان العبودية والرسالة، وقد ذكر الله ـ

سبحانه وتعالى ـ وصف نبيه محمد ﷺ بالعبودية في أعلى مقاماته، فوصفه بالعبودية حال إنزال القرآن، وحال الإسراء، وحال المعراج، وحال التحدي والذود عنه؛ فقال في الحال الأولى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال في الحالين الثانية والثالثة: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٨ ـ ١٠]، وقال في الحال الرابعة مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، والمراد ـ هنا ـ بها نزل القرآن الكريم، ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك، وقال: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: كل من تقدرون على الاستعانة به ممن تدعونهم أولياء أو شفعاء فادعوهم معكم؛ ليعينوكم على أن تأتوا بسورة من مثله ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فيما تدعون من أن هذا القرآن ليس من عند الله، ولكنهم لن يفعلوا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾؛ أي: فإن النار ستكون مأواكم؛ فاتقوها واحذروها، وذلك بالرجوع إلى الحق وتصديق رسول الله ﷺ، هذه النار التي وقودها الناس؛ الناس المستحقون لها من الكفار والمنافقين، والحجارة هي حجارة عظيمة

ليست كحجارتنا في الدنيا، تحمى في نار جهنم؛ فتزداد حرارة النار، ويزداد اشتعالها ـ والعياذ بالله ـ ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ يعني: أعدها الله للكافرين به وبرسله، وكذلك للمنافقين؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ **وفي هاتين الآيتين الكريمتين يبين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ** أن رسول الله ﷺ صادق فيما جاء به من الوحي، وأن هذا الوحي نازل من عند الله.

٢ ـ **ومن فوائدهما:** تحدي المكذبين لرسول الله ﷺ، ومن كان معهم من أعوانهم أن يأتوا بسورة من مثله، ولكنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا، قال أهل العلم: وتحدي الله المكذبين بالقرآن جاء على ثلاثة أوجه بل على أربعة؛ فتحداهم بالقرآن كله في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ كما في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ

مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾، وتحداهم أن يأتوا بأقل من ذلـك؛ كـما في قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطـور: ٣٤]، وكـل هــذه التحديات لم يتصدَّ لها أحدٌ من بلغاء الناس وفصحائهم في عهـد النبـي ﷺ، ويدل هذا على صدق رسالته ـ صـلوات الله وسـلامه عليـه ـ وأن هذا القرآن ليس من عنده.

٣- **ومن فوائد الآيتين الكـريمتين:** إثبـات علـو الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾؛ والنزول إنما يكون من الأعلى إلى الأدنى، وعلو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينقسم على قسمين: علو ذات وعلـو صفة.

فأما علو الذات فهو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عالٍ عـلى كـل شيء، مستوٍ على عرشه الذي هو أعلى المخلوقات، وهذا العلو ثابت بالقرآن، والسنة، وإجماع السلف، والعقل، والفطرة؛ أما الكتاب فأدلته على علو الله بذاته أكثر من أن تحصى، وقد جاءت على وجوه متنوعة؛ تحقيقًا لهـذا العلو، وأما السنة؛ فكذلك دلت على علو الله بذاته بأدلة كثيرة متنوعـة، فمنها ما دلالته بـالقول، ومنهـا مـا دلالتـه بالفعـل، ومنهـا مـا دلالتـه بالتقرير؛ أي: بإقرار الغير على ذلك، وأما الإجماع؛ فقـد أجمـع الـسلف من الصحابة، والتابعين، وأئمة الأمة، بل وعامة الأمة الذين بقـوا عـلى فطرتهم على علو الله ـ تعالى ـ بذاته، ولم يقل أحد منهم: إن الله لـيس في

العالم ولا خارجه؛ بل كلهم يجمعون على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ فوق كل شيء، وأما العقل؛ فلأن العلو صفة كمال لا شك في ذلك؛ فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد ثبت له جميع صفات الكمال؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وأما الفطرة؛ فإن كل شخص مفطور على علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حتى وإن لم يقرأ كتابًا أو يدرس على عالم؛ ألا ترى إلى الرجل إذا دعا الله ـ تعالى ـ يرفع يديه إلى السماء، ويرفع قلبه كذلك إلى السماء بدون أن يدرسه أحدٌ ذلك؟! لأنه يعلم ذلك من فطرته، وقد ذُكِرَ أن أبا المعالي الجويني كان يقرر ويقول: إن الله كان ولا شيء، وهو ـ الآن ـ على ما كان عليه؛ يريد أن ينكر استواء الله على العرش، فقال له أبو العلاء الهمداني ـ رحمه الله ـ: يا أستاذ، دعنا من ذكر العرش، وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، ما قال عارف قط: يا الله؛ إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، فلطم أبو المعالي رأسه، وجعل يقول: حيَّرني الهمداني، حيَّرني الهمداني؛ أي: أن هذا دليل فطري على علو الله لا ينكره أحد، ولكن يجب أن نعلم أن الله ـ تعالى ـ فوق كل شيء، لكنه ليس محصورًا بشيء؛ كما يكون الواحد منا فوق السطح، فيكون محصورًا بجدران السطح، ولكن الله ـ تعالى ـ فوق كل شيء، وليس محصورًا بأي شيء من الأشياء؛ لأن الفوق المطلق ليس فيه شيء إلا الله ـ عزَّ وجلَّ.

وأما القسم الثاني ـ وهو علو الصفة ـ؛ فمعناه: أنه ما من صفة كمال

إلا ولله - سبحانه وتعالى - أعلاها وأكملها؛ ودليل ذلك قوله - تعالى -: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، ودلالة هذا القسم في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ، وفي إجماع الصحابة، وفي العقل، وربما يكون في الفطرة دليلٌ عليه أيضًا؛ فأما الكتاب فذكرنا منه ما سبق؛ وهو قوله - تعالى -: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وأما السنة؛ فالأحاديث فيها كثيرة دالة على كمال الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فقد حدَّث النبي ﷺ عن كمال الله وعن عظمة صفاته بأحاديث لا تحصى، وكان رسول الله ﷺ يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى؛ فيثبت له صفة العلو المطلق، وهو كما يشمل علو الذات - أيضًا - يشمل علو الصفات.

وأما الإِجماع؛ فقد أجمع المسلمون على أن لله - تعالى - صفات الكمال من كل وجه.

وأما العقل؛ فلأن من المعلوم أنه لا يمكن أن يعبد باستحقاق العبادة إلا من كان كامل الصفات؛ ومن ثم أنكر إبراهيم الخليل على أبيه أن يعبد ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عنه شيئًا، وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ

لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]؛ لأن مثل هذا ناقص؛ والناقص لا يمكن أن يكون ربًّا يعبد لنقصه، ولا أحد من المخلوقات له الكمال المطلق سوى رب الأرض والسموات.

وأما دلالة الفطرة على علو الصفة؛ فلأن الإنسان بفطرته يلجأ عند المصائب والشدائد إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لعلمه أن الله قادر على كشف هذه المصائب والشدائد.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ إثبات أن القرآن كلام الله؛ وذلك لأن القرآن كلام ليس عينًا قائمة بنفسها، وإنما هو كلام، وإذا كان نازلًا من عند الله؛ لزم أن يكون كلام الله، وهذا هو الذي أجمع عليه السلف وأئمة الأمة: أن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ فقد تكلم الله ـ تعالى ـ به حقيقة، وسمعه جبريل من الله، وألقاه على قلب النبي و؛ قال الله ـ تعالى ـ في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]؛ فبيّن الله في هذه الآية المُنَزِّل، والمُنَزَّل، والنازل به، والنازل عليه، واللغة التي نزل بها؛ خمسة أشياء ؛ فقال:

﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: القرآن المُنَزَّل ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢] هذا المُنَزِّل ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، هذا النازل به ﴿عَلَىٰ

قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]، هذا المُنَزَّل عليه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، هذه اللغة؛ فالقرآن جمع هذه الأوصاف كلها؛ إذن فهو كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- بهذه اللغة، اللغة العربية، والكلام لا أحد يشك في أنه من صفات الكمال؛ فإن المتكلِّم أكمل من الذي لا يتكلم، وبهذا احتجَّ السلف على من قالوا: إن القرآن مخلوق، فإنه لو كان مخلوقًا؛ لم يكن هناك كمال في الله من هذا الوجه؛ فالكلام من الكمال.

٥- **ومن فوائد هذه الآية أيضًا**: الإشارة إلى فضل القرآن؛ حيث إنه كلام الله؛ فإن الكلام يَشْرُفُ بشرف من تكلَّمَ به، ولا سيما إذا كان هذا الكلام متضمنًا لمعاني الأخلاق، وكمال الآداب؛ كما في القرآن الكريم، ولا شك أن القرآن الكريم أصدق الكلام وأكمله من جميع الوجوه من حيث الفصاحة، والجودة، والنفع، والحِكَم، ولو لم يكن منه إلا أنه كلام الله لكان كافيًا في الشرف والفضل.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: فضل رسول الله ﷺ؛ لكونه عبدًا لله، ولا شك أن العبودية لله من أشرف المناقب، بل هي أشرف المناقب، ومن لم يكن عبدًا لله صار عبدًا لهواه؛ لأن الإنسان لا بد أن يكون متذللًا لشيء، فإما أن يكون متذللًا لربه، وإما أن يكون متذللًا لهواه وشيطانه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ لا حقَّ له في شيء من

خصائص الربوبية؛ لأن العبد خلاف الرب؛ فلا شيء لرسول الله ﷺ من خصائص الربوبية، فلا يملك نفعًا لأحد ولا دفع ضرر عنه، ولا يعلم الغيب، وليس عنده خزائن الله، وقد أمره الله ـ تعالى ـ أن يعلن ذلك للملإ؛ فقال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]؛ يعني ما أنا إلا رسول مُبلِّغ عامل بما أوحي إليَّ مبلغ له، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢١ـ٢٣]؛ يعني: لست إلا مبلغًا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ورسولًا من عنده، وأنا لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا، ولو كان يملك شيئًا لملك أن ينقذ من شاء من الهلاك والضلال، ويهدي من شاء، وهذا ليس إليه؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وأمره ـ تعالى ـ أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٨ـ ويتفرع عن هذه الفائدة بيان ضلال أولئك الذين يتعلقون برسول الله ﷺ فيدعونه، ويستغيثون به، ويرجون شفاء المرض، وإزالة الضرر، وحصول المطلوب، ويعرضون بذلك عن رب العالمين ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كما أن بعضهم ربما يظن أن ما عند الرسول ﷺ أقرب مما عند

الله مع أن النبي ﷺ لا يملك من هذا الأمر شيئًا، وقد ضلَّ من هذا الوجه طائفتان: طائفة ادَّعت أن لرسول الله ﷺ شيئًا من خصوصيات الربوبية، وطائفة أخرى كذبت الرسول ﷺ، وقالت: إنه ليس برسول؛ إما أنها نفت رسالته مطلقًا أو نفت عموم رسالته، وكلتا الطائفتين ضالتان، والحق أن رسول الله ﷺ عبد رسول، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، والعبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية عامة، وعبودية خاصة؛ فالعبودية العامة هي التعبد للقدر؛ وهي العبودية الكونية القدرية التي تشمل كل المخلوقات، فما من مخلوق إلا وهو عابد ذليل لقضاء الله وقدره حتى أكفر الخلق؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ فكل الناس عبيد لله بالعبودية الكونية القدرية، وهذه لا يمدح الإنسان عليها؛ لأنها تكون قهرًا عليه وبغير اختيار منه.

أما القسم الثاني فهو العبودية الخاصة؛ وهي التعبد لله ـ تعالى ـ بشرعه، وهذه لا تكون إلا من المؤمنين؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وذكر بقية صفاتهم، وهذه العبودية فيها ـ أيضًا ـ ما هو أخص من مطلق العبودية، وهي عبودية الوحي والرسالة؛ كما في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الفضيلةُ العظيمةُ لرسول الله ﷺ بإضافة عبوديته إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ أي: أن الله أضاف إليه عبودية محمد ﷺ؛ أنه عبده، ولا شك أن في هذا فخرًا لرسول الله ﷺ وعزَّة، ورفعة.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من آداب المحاجة والمناظرة تحدي الخصم؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول هنا: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، ولا شك أن في تحدي الخصم إظهارًا لضعفه، وأنه لا يستطيع المقابلة، والتحدي طريق من طرق المناظرة المفيدة، ولكن ينبغي ألا يتحدى الإنسان أحدًا إلا وهو واثق من أنه عاجز؛ لأنه لو أتى بالشيء على صيغة التحدي، ثم تبين قدرة المتحدَّى صار في ذلك انهزام شديد للمتحدي؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في هذه الآية: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ إشارة إلى أنهم عاجزون عما تُحدُّوا به، ولن يستطيعوا ذلك.

١١ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه؛ لقوله: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: كل من تعبدونه وتستعينون به من دون الله فادعوهم؛ ليكونوا معكم في الإتيان بسورة من مثله.

١٢ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين**: أنه لن يستطيع أحدٌ من هؤلاء المعارضين لرسول الله ﷺ أن يأتي بسورة من مثل ما جاء به الرسول

ﷺ؛ لقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾.

١٣-ومن **فوائدهما**: أنَّ من كابر وأصرَّ على عناده، وكذَّب الرسول ﷺ؛ فـإن النـار مثـواه؛ لقولـه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

١٤-ومن **فوائدهما**: أن يأتي المتكلم بـما يقتـضي التهديـد؛ لقولـه: ﴿ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾؛ فإنـه إذا قيـل: إن النـار وقودهـا الناس؛ فلابد أن يحذر الإنسان منها ويخشى أن يكون من جملة الوقود.

١٥-ومن **فوائد الآيتين**: أن النار موجـودة الآن؛ لقولـه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ فـإنَّ الإعـداد بمعنـى التهيئـة، ولا شـك أنَّ الجنـة والنـار موجودتان الآن؛ كما دلَّ على ذلك القرآن والسنة؛ فقال الله ـ تعـالى ـ في الجنـة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمـران: ١٣٣]، وقـال في النـار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وعرضت الجنة والنار على النبي ﷺ وهو يـصلي بالناس صلاة الكسوف، ورأى في النار من يعذب. وكما أن الجنة والنار موجودتان الآن، فهما باقيتان أبد الآبدين، لا تفنيـان؛ لأن الله ـ تعـالى ـ ذكر التأبيد في عدة آيات؛ فأما التأبيد في الجنة؛ فالآيات في هـذه كثـيرة، وأما التأبيد في النار؛ ففي ثلاث آيات من القـرآن؛ في سـورة النـساء في قولـــه ـ تعـــالى ــ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]. وفي سورة الأحزاب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤ـ ٦٥]، وفي سورة الجن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]؛ ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة اعتقاد أن الجنة والنار موجودتان الآن، وأنهما لا تفنيان أبد الآبدين، وإن كان قد ذكر خلاف في أبدية النار فإنه خلاف مرجوح؛ فالراجح بل المتيقن القول: إن النار لا تفنى كما أن الجنة لا تفنى.

١٦ـ ومن فوائد هاتين الآيتين: أن القرآن الكريم سيبقى آية إلى الأبد لرسول الله ﷺ؛ لأن هذا التحدي الذي وقع به ثابت إلى يوم القيامة، فلن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن إلى يوم القيامة.

١٧ـ ومن فوائد الآيتين: الكريمتين الإشارة إلى أن هذا القرآن سيبقى، وذلك أنه قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، وإذا كان وقودها الناس، وهو يشمل الناس إلى يوم القيامة المخالفين لهذا القرآن؛ دلَّ هذا على أن القرآن سيبقى متحديًّا لجميع الناس إلى يوم القيامة، وأن من خالفه فسيكون وقود النار.

١٨ـ ومن فوائد الآيتين: إثبات الجزاء؛ فيدل على إثبات اليوم

الآخر، وهو أحد أركان الإيمان الستة، التي هي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر: خيره وشره.

* * *

ثــم قــال ـ تعــالى ـ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة لها ارتباط بما قبلها؛ فإن الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ بَيَّـنَ فيما سبق أن النَّار أُعدت للكافرين، وكان هذا القرآن الكريم مثاني تُثَنَّى فيه المعاني؛ فإذا ذُكِرَ الثوابُ ذُكِرَ العقـابُ، وإذا ذُكِـرَ الكفـر ذكـر الإيمان، وهكذا؛ كـما قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي هذه الآيـة الكريمـة يقـول الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهنا الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يتـأتى خطابـه؛ فهـو مأمور بالبشارة، إن كان للرسول ﷺ فكل من خلفه في العلم والـدعوة فإنه يمكن أن يقوم بهـذه البـشارة، والبـشارة فيهـا الإخبـار بـما يـسر، وسُميت بذلك؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره ظهر ذلك عـلى بـشرته، وهنـا المُبَـشَّرُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والمُبَـشَّرُ بـه:

﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، والمُبشِّرُ: الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والآمر بالتبشير هو: الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين جمعوا بين الاستسلام الباطن والاستسلام الظاهر؛ الاستسلام الباطن في الإيمان، والظاهر في عمل الصالحات، وجمعوا ـ أيضًا ـ بين الإخلاص والمتابعة؛ فالإخلاص في القلب؛ وهو أمر باطن، والمتابعة في الجوارح؛ وهو أمر ظاهر؛ فالبشرى لمن جمع بين الأمرين، بين الصلاح في الباطن والصلاح في الظاهر، والصالحات: هي الأعمال التي اشتملت على الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

أما الإخلاص لله؛ فأن ينوي الإنسان بعمله وجه الله، والدار الآخرة، وامتثال أمر الله، وأما المتابعة؛ فأن يكون متبعًا لرسول الله ﷺ فيما يقول، ويفعل، ويذر، ولا تتحقق المتابعة إلا بموافقة العبادة للشريعة في أمور ستة: السبب، والجنس، والقدر، والكيفية، والزمان، والمكان؛ فمن تعبَّدَ لله ـ تعالى ـ عبادة مقيدة بسبب لم ترد به الشريعة؛ فعبادته مردودة عليه غير مقبولة منه؛ كما لو تعبَّد الإنسان لله بذبح شاة؛ تقربًا إلى الله ـ تعالى ـ عند مناسبة لا يشرع فيها ذلك؛ فإن هذا يكون غير مقبول عند الله؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ عملَ عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[1]؛ فإذا ضحَّى الإنسان بفرس؛ لم تقبل منه؛ لأنها ليست من

---

[1] سبق تخريجه ص(٤٩).

جنس مما يُضحَّى به شرعًا، ولو زاد الإنسان في عبادته؛ لم تُقبل منه هذه الزيادة؛ لأنها ليست على أمر الله ورسوله، ولو فعل العبادة على غير الوجه الذي وردت عليه؛ لم تُقبل منه؛ كما لو توضَّأ مُنكِّسًا مثلًا؛ فإن ذلك لا يُقبلُ منه؛ لأنه على خلاف ما جاء عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولو ضَحَّى في غير وقت الأضحية؛ لم تُقبلْ منه؛ لأنها في غير الزمان المعين للأضحية، ولو اعتكف في غير المسجد؛ لم يقبل منه؛ لأنه ليس في المكان الذي خُصِّصَ شرعًا للاعتكاف؛ فإذن لا تتحقق المتابعة لرسول الله ﷺ إلا إذا تضمنت العبادة هذه الأمور الستة.

وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجنات: جمع جنة، وجُمعت لاختلاف أنواعها، وأسمائها، وأحوالها، والأصل في معنى الجنَّة أنها البساتين الكثيرة الأشجار؛ لأنها تجن من فيها؛ لكثرة أشجارها وأغصانها، والمراد بالجنة ـ التي ذكرها الله هنا ـ دار النعيم التي أعدها الله ـ تعالى ـ للمتقين، والأنهار التي تجري من تحتها؛ أي: من أسفلها وتحت القصور والأشجار أربعة أصناف بيَّنها الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ أي: غير متغير ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وبيَّن الله ـ تعالى ـ أنه كلما رزقوا من هذه الثمرات رزقًا قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل؛ لأنه يشبهه في اللون والحجم، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، ولكنهم إذا طعموه

تبيَّـنَ لهم أنه غيره، وهذا من تمام لذة الآكلين إذا أتوا بالطعام أو بالثمرة متشابهًا، ولكنه يختلف في الذوق؛ فصار في هذا شيءٌ من اللـذة؛ ولهـذا قـال: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾، وبـين الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ أنَّ فيهـا أزواجًـا مطهرة، مطهرة الظاهر والباطن؛ فهي مطهرة البـاطن مـن الحقـد عـلى زوجها والكراهة له، وفي الظاهر من كل قذر وأذى، وتمام هـذا النعـيم أنهم فيها خالدون.

فوائد هذه الآية:

١ـ في هذه الآية الكريمة من الحِكَم والفوائـد أنـه ينبغـي أن يُبـشَّر العامل بما يستحق من الثواب؛ لأن ذلك أبلغ في نشاطه ومثابرتـه عـلى العمل.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن البـشرى بالجنـة لا تكـون إلا لمن آمن وعمل؛ فمجرد العقيدة لا تكفي للبشارة بالجنة؛ بل لا بـد مـن إيمانٍ وعملٍ؛ ولهذا يربط الله ـ تعالى ـ دائمًا ـ الإيمان بالعمل الصالح.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه كلـما كـان الإنـسان أقـوى إيمانًـا وأكثر عملًا كان أحق بالبشارة بالجنة؛ وذلـك لأنَّ الحكـم المعلـق عـلى وصف يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعفه.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأعمال الفاسدة لا ترفع صاحبها ولا تنفعه، بل هي حرام عليـه؛ لأنهـا نـوع مـن الاسـتهزاء بـالله ـ عَـزَّ

وَجَلَّ ـ؛ ويتفرع على هذه الفائدة أنه لا يجوز للإنسان ـ مثلًا ـ أن يـصلي بلا وضـوء أو يـصلي بنجاسـة لا يُعفـى عنهـا؛ لأن ذلـك مـن العمـل الفاسد، وإذا فعله صار كالمستهزئ بالله.

٥- **ومـن فوائـد الآيـة الكريمـة:** أن هـؤلاء المـؤمنين العـاملين للصالحات جزاؤهم الـذي يبـشرون بـه هـذه الجنـات العظيمـة التـي تشتمل على كل خير، وقد بـيَّن الله ـ تعـالى ـ في آيـة أخـرى أن فيهـا مـا تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذه الجنات فيها القصور الـشامخة والأشجار العالية؛ لقوله: ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ فإن«التحت» لا بـد أن يكون له فوق، ومعلوم أن هذه الأنهار لا تجري من أسفل أرض الجنـة؛ ولكنها تجري من تحت ما فيها من الأشجار والقـصور، وقـد قـال الله ـ تعـالى ـ في سـورة الـرحمن: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ [الـرحمن: ٧٢]، وبَيَّنت السنة هذه الخيام الجميلة الرفيعة.

٧- **ومن فوائـد هـذه الآيـة الكريمـة:** أن في الجنـة أنهـارًا؛ لقولـه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وأن فيها ثـمارًا؛ لقولـه: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾، ولكن هذه الأنهار وهذه الثمار لا تشبه ـ في الحقيقة ـ ما في الدنيا من الأنهار والثمار؛ فهي تختلـف عنها اختلافًا عظيمًا لا يمكن أن يدركه الإنسان بحسِّه في الدنيا؛ كما قال

الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وكما في الحديث القدسي: «قال اللهُ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١]، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء».

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، النخل، والرمان، والفاكهة موجودة في الدنيا، لكن تختلف؛ كما أن الحياة هناك تختلف عن حياة الدنيا، انظر ـ مثلًا ـ إلى الناس في هذه الدنيا يحتاجون إلى النوم، وفي الجنة لا يحتاجون إلى النوم؛ فلا ينامون، تصيبهم الأمراض والأوصاب في الدنيا، وفي الجنة لا تصيبهم، في الدنيا إذا سقط الإنسان في النار احترق ومات، وفي الآخرة إذا سقط في النار؛ فإنه ـ وإن احترق ونضج جلده من النار ـ لا يموت ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

٨ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن أهل الجنة كما يتنعمون بالطعم يتنعمون أيضًا باللون؛ حيث يؤتى إليهم بهذه الفاكهة المتشابهة،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)؛ ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب صفة الجنة، رقم (٢٨٢٤).

ثم إذا أكلوها صارت مختلفة عما سبق، وهذا يعطـي الإنـسان زيـادة في اللذة وشهوة الطعام.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن في الجنة أزواجًا مطهرة يتلذذ الإنسان بهن ويتمتع بهن؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥ ـ ٥٨]، وقال ـ تعالى ـ في سورة الرحمن: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٢ ـ ٥٦]؛ وهذا يدل على أنهم يتلذذون بهذه الزوجات في الجلوس على الأرائك والاتكاء عليها، مع تقديم الفواكه من الولدان والخدم.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أهل الجنـة خالـدون فيهـا، وقد بينت الآية الأخرى أن هـذا الخلـود خلـود أبـدي ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، ولا يُخْرَجُونَ منها.

١١ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمـة:** الحـث عـلى الإيـمان والعمـل الصالح والتريث فيه؛ لأن الأمـر بالبـشارة في الجنـة لمـن آمـن وعمـل صالحًا يقتضي حث هؤلاء المبشرين على الإيمان والعمل الصالح.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

في هذه الآية يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ أيَّ مَثَلٍ كان؛ وذلك لأن الأمثال التي يضربها الله للناس فيها من العبر والمصالح ما يجعل ضربها من الحكم العظيمة التي ينتفع بها العباد؛ فقد ضرب الله مثلًا بالعنكبوت، ومثلًا بالذباب، وهنا قال: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، والرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يضرب هذه الأمثال من أجل العبر ومصالح العباد؛ ولهذا لا يستحي أن يضرب هذه الأمثال وإنْ قلَّت، قال هنا: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ البعوضة: واحدة البعوض وهو معروف، ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ كالذباب والعنكبوت؛ فالله لا يستحي من ذلك؛ لأنه حق، والله ـ تعالى ـ لا يستحي من الحق؛ لما في هذه الأمثال من المصالح والمنافع العظيمة.

ثم يبيِّـن الله ـ تعالى ـ في هذه الآية أن النـاس انقـسموا نحـو هـذه الأمثال إلى قسمين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ لما تتـضمنه هـذه الأمثـال مـن المـصالح والمنـافع. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، يقولون ذلك استهزاء، وسخرية، واحتقارًا لهذه الأمثال، وبيَّن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه يـضل بهـذا المثـل مـن يشاء، بل يضل به كثيرًا ممن اقتضت حكمته أن يضلوا، ويهدي به كثيرًا ممـــن اقتــضت حكمتــه أن يهتــدوا؛ ولهــذا قــال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله.

في هذه الآية الكريمة إشارة إلى انتفاء استحياء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مـن الحق؛ وهذا يدل على أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يستحي مـن غـير الحـق؛ لأن الحياء من غير الحـق وصـف كـمال، والله ـ سـبحانه وتعـالى ـ مُتَّـصِفٌ بصفات الكـمال؛ ولهـذا جـاء ثبـوت الحيـاءِ لله في حـديث رسـول الله ﷺ: «إنَّ الله حَيِيٌّ كريمٌ، يستحي إذا رفعَ الرجـلُ إليـه يديـه أَنْ يردهمـا صفرًا خائبتين»[1]؛ فالحياء ـ هنا ـ ثابت لله في هذا الحديث نطقًا صريحًا بدلالة المنطوق، وفي الآية الكريمـة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ ثابت لله بطريقة المفهوم، والحياء ـ كسائر صفات الله ـ يجب

(١) رواه أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)؛ والترمذي: كتاب الدعوات، باب رقم (١٠٤)، حديث رقم (٣٥٥٦)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»؛ وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥)؛ والحاكم (١/ ٦٧٥)، وصححه.

على الإِنسان اعتقاد ثبوته لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الله أثبته لنفسه، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بنفسه وبغيره، فإذا أخبر عباده بصفة من صفاته وجب عليهم قبول هذه الصفة، ولا يجوز لهم أن يعارضوها بما يظنونه عقلًا وهو وَهْمٌ في الواقع؛ وذلك لأن كلام الله اجتمع فيه كل الصفات التي تستلزم قبول الخبر؛ فإنه صادر عن تمام العلم، وتمام النصح والبيان، وكمال الفصاحة، وكمال الصدق، فالكمالات التي تكون في الكلام هي هذه الأوصاف الأربعة: العلم، والصدق، وحسن الإرادة والقصد، والفصاحة والبيان؛أما العلم؛ فلا أحد يشك أو ينكر أن الله ـ تعالى ـ أعلم بنفسه من غيره،وأما الصدق؛ فكلام الله ـ تعالى ـ أصدق الكلام،وأما الفصاحة؛ فكلام الله ـ تعالى ـ أفصح الكلام؛ ولهذا عجز العرب ـ مع كمال فصاحتهم ـ عن الإِتيان بمثله.

وأما الإرادة؛ فقد قال الله ـ تعالى ـ:﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء: ١٧٦]؛ أي لئلا تضلوا﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٧٦]، فإذا أخبرنا الله ـ تعالى ـ عن صفة من صفاته؛ وجب علينا قبول هذا الخبر واعتقاد مدلوله، ولا يجوز لنا أن نحرِّف معناه إلى ما يخالف ظاهره إلا بدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وهذه هي الجادة التي بنى أهل السنة والجماعة عقيدتهم عليها.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- **من فوائد هذه الآية**: ضرب الأمثال بتقريب المعقولات؛ لأن الأمثال تكون أمورًا محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة.

٢- **ومن فوائدها**: أنه ينبغي لمن أراد الإيضاح والبيان - وكان ذلك يتوقف على ضرب المثل - أن يبين ذلك بالمثل؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الناس ينقسمون فيما ضرب الله من الأمثال إلى قسمين: قسم مصدق مؤمن موقن بأن ذلك حق، وقسم آخر مستكبر ساخر يقول: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، هكذا أخبر الله في هذه الآية، وهذا هو الواقع، ونظير هذه الآية الكريمة قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فهذا القرآن ينقسم الناس فيه إلى هذين القسمين، فمن اهتدى به فقد وُفِّق، ومن ضلَّ عنه واستكبر فقد حُرِم خيرًا كثيرًا.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الهداية والإضلال بيد الله ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾، وأخبر الله بذلك من أجل أن نلجأ إليه، وهنا فائدة تترتب على ما سبق؛ وهي اللجوء إلى الله ـ تعالى ـ لطلب الهداية منه والعصمة من الضلال، وألا يعتمد الإنسان على نفسه فيزكيها ولا يرى لله عليه فضلًا بالهداية، فالهداية بيد الله ـ عزَّ وجلَّ.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هداية الله وإضلاله مبنيان على الحكمة؛ لأن الله لا يضل إلا من كان أهلًا للإضلال؛ وهم الفاسقون، ونظير هذا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، فمن كان طالبًا للخير، وسَلَكَ الأبواب التي توصله إليه، بل وسلك الطرق التي توصله إليه؛ وُفِّقَ له، ومن فسد وأعرض فلا يلومنَّ إلا نفسه.

٦ـ **ومن فوائد قوله ـ تعالى ـ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ إثبات الإرادة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والإرادة المضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين: إرادةٍ شرعية، وإرادةٍ كونية.

فالإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبة؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، **والإرادة الكونية هي التي** بمعنى المشيئة؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤]، ومثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، والفرق بينهما أن الإِرادة الشرعية تتعلق بما أحبه الله، سواءٌ وقع أم لم يقع، والإِرادة الكونية تتعلق بما قدَّره وقضاه، سواء كان يحبه أم لم يحبه، والفرق الثاني أن الإِرادة الشرعية قد يقع فيها المراد وقد لا يقع، والإِرادة الكونية يقع فيها المراد بكل حال؛ لأن الله ـ تعالى ـ إذا أرد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون، ولا معقب لحكمه وهو السميع العليم.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فكان فسقهم سببًا في إضلال الله لهم.

٨ـ ومن فوائدها: الحذر من الفسق؛ وهو الخروج عن طاعة الله، والفسق قد يكون كفرًا؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ في وصف هؤلاء الفاسقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

هذه من أوصاف أهل الفسق؛ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه؛ وعهدُ الله الذي عهد إلى عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا؛ فقد ركز الله - تعالى - في فطرة كل إنسان أن الربَّ هو الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأنه هو الذي يجب أن يُعبد؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه»(١).

ومن أوصافهم أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من حقوقه وحقوق عباده، فهم لا يبالون بقطيعة شريعة الله والبعد عنها، بل يحرصون غاية الحرص على أن يصدُّوا عن سبيل الله من آمن ويبغونها عِوَجًا، وهم كذلك يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الأقارب، والجيران، واليتامى، والمساكين، وغير ذلك؛ لأنهم لا يؤمنون بما عند الله من الأجر والثواب، ومن فعل منهم شيئًا من هذه الصلات، صلات الخلق، فإنما يفعلها لا من باب التعبد، ولكن من باب العادة أو السجيَّة التي تقتضيها طبيعة المجتمع.

وأما الوصف الثالث من أوصاف أهل الفسق فهو أنهم يفسدون في الأرض بالمعاصي؛ فإن المعاصي سبب الفساد في الأرض؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، رقم (٤٧٧٥)؛ ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، (٢٦٥٨).

بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]؛ فالفساد في الأرض ليس بتكسير الجسور، وحفر الخنادق للسقوط فيها، وما أشبه ذلك من الفساد، ليس بهذا فحسب، بل بكل معصية يعصون الله بها؛ لأنه سبب للفساد في الأرض.

ثم بيَّن الله نتيجة هؤلاء ومآلهم؛ فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، هؤلاء يظنون أنهم على خير، وأنهم رابحون، ولكن الله - تعالى - بيَّن أنهم هم الخاسرون، وحصر الخسران فيهم؛ فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾؛ وذلك لأن الربح إنما يكون لمن اتصف بالصفات الموجبة؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فالإنسان، - كل إنسان - خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- في هذه الآية الكريمة من الفوائد بيان أوصاف الفسقة، بل بيان شيء من أوصافهم، وهو أنهم ينقضون عهد الله بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض.

٢- **ومن فوائدها**: التحذير من هذه الصفات؛ لأنها صفات الفاسقين الذين هم أهل الضلال، وهم المستحقون لإضلال الله إياهم.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الوفاءِ بعهـد الله، ومَـنْ أوفى بعهد الله؛ أوفى الله له بعهده؛ كما قال الله ـ تعالى ـ في بني إسرائيـل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

٤ـ **ومن فوائدها**: وجوب صلة ما أمر الله بصلته، وعلى رأس ذلك صلة الأرحام الشاملة لبر الوالدين، وصلة مَنْ عداهما؛ فالواجب عـلى المسلم أن يصل ما أمر الله به أن يوصل، ولا شك أن في صلة ما أمـر الله به أن يوصل فائدة عظيمة؛ فإن من وصل رَحِمَهُ وصـله الله، ومـن قطـع رَحِمَهُ قطعه الله، فعلى المرء أن يكون قائمًا بالقسط والعدل؛ حتى تحـصل له الصلة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ومن وصله الله فهو على خير.

٥ـ **ومـن فوائـد هـذه الآيـة الكريمـة**: الإشـارة إلى أن الإفـساد في الأرض من صفات الفاسقين؛ وعلى هذا فيكون الإصـلاح في الأرض من أوصاف أهل الخير، والعدل، والاستقامة؛ فيتفرع على هذه الفائـدة أنه يجب على الإنسان أن يبتعد عن كل مـا يكـون سـببًا للإفـساد، وأن يسعى في كل ما يكون سببًا للإصلاح.

٦ــ **ومـن فوائـد هـذه الآيـة الكريمـة**: أن هـؤلاء المتـصفين بهـذه الصفات؛ الفسق وما أضيف إليه من هـذه الأوصـاف هـم الخـاسرون الذين لا ربح لهم في الدنيا ولا في الآخرة.

❊ ❊ ❊

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨].

في هذه الآية استفهامٌ بمعنى التعجب والإنكار لأولئك القوم الذين يكفرون بالله، وهم يعلمون أنهم كانوا أمواتًا فأحياهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كانوا أمواتًا قبل أن ينفخ الله فيهم الروح؛ لأن الإنسان قبل نفخ الروح فيه ميت جماد، فيحييه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بنفخ الروح فيه، ويخرج إلى هذه الدنيا، ويعمل ويكدح، ثم يميته الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ثم يحييه الحياة الآخرة التي ليس بعدها موت، ويرجعه إليه؛ ليوفيه ما عمل، ففي هذه الآية الكريمة الإنكار على أولئك الذين كفروا بالله مع أنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ اعتنى بهم هذه العناية؛ فأوجدهم من العدم، وأحياهم من الموت، وكان من الواجب عليهم أن يقوموا بشكر هذا المُنْعِم عليهم ـ سبحانه وتعالى.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: أن الإنسان قبل أن تنفخ فيه الروح ميت جماد لا يتعلق فيه حكم من أحكام الإحياء؛ ويتفرع على ذلك أنه لو سقط قبل أن تنفخ فيه الروح في بطن أمه؛ فإنه لا يغسل، ولا يكفن، ولا يُصلَّى عليه، ولا يدفن مع الناس؛ لأنه عبارة عن قطعة لحم، يدفن في أي مكان من الأرض، ولا يحتاج إلى تسمية، ولا إلى عقيقة، فإن قال

قائل: متى تكون الحياة فيه؟ فالجواب: أنها تكون إذا تمَّ له أربعةُ أشهر؛ كما يدل على ذلك حديث ابن مسعود ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إنَّ أحدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطن أُمه أربعينَ يومًا، ثُمَّ يكون عَلَقَة مثل ذلك، ثُمَّ يكون مضغة مثل ذلَك، ثُمَّ يبعثُ اللهُ مَلَكًا، ويؤمر بأربع كلماتٍ، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد»[1]، فالأربعون الثلاث تكون أربعة أشهر.

٢- ومن فوائد هذه الآية: بيان قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بإحياء الموتى؛ فإنه لا أحد يستطيع إحياء الموتى إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ولهذا لما حاجَّ إبراهيمُ ذلك الرجل الذي حاجَّهُ في الله، قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فبيَّن له إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن ربه هو الذي يحيي ويميت؛ لأنه لا يملك ذلك إلا الله، وأما قول هذا المحاج: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهذا من باب التلبيس والتمويه؛ حيث زعم أنه يستطيع الإحياء والإماتة، ولما كان هذا أمرًا قد يخفى على الناس، أو يلتبس عليهم، قال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

---

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ـ صلوات الله عليهم ـ رقم (٣٢٠٨).

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تقرير البحث بأحسن حجة، وذلك أن الإنسان كان جمادًا ميتًا، ثم أحياه الله، ثم يميته مرة ثانية، ثم يحييه؛ فالقادر على إحيائه أول مرة قادر على إحيائه في المرة الثانية؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الرجوع إلى الله ـ تعالى ـ للمجازاة على العمل؛ لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٥ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي للإنسان أن يستعد لهذه الرجعة إلى الله؛ لينظر ماذا يقابل به ربه؟ فليحرص على ألا يفقده الله حيث أمره، أو يراه حيث نهاه؛ لأنه سوف يرجع إلى الله وينبئه بعمله.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الموت قد يطلق على الشيء الذي لم تسبق موته حياة؛ لقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾؛ فإن المراد بالميت ـ هنا ـ من لم تنفخ فيه الروح.

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾؛ **أي: أوجده لكم لمنافعكم ومصالحكم؛ عناية بكم ورحمة، و«ما» هنا: اسم موصول عام شامل لكل ما في الأرض، وأكد هذا العموم بقوله:** ﴿ جَمِيعًا ﴾، **ثم بعد خلق هذا** ﴿ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ **علا إليها،** ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾؛ **أي: أتمهن وأكملهن سبع سماوات،** ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾؛ **فهو مع علوه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على هذه السموات السبع لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، بل هو بكل شيء عليم، وهذه الآية لها صلة بما قبلها؛ حيث تدل على عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنا، وتيسيره، وتسهيله.**

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ ـ **أن الخالق هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ** ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾، **وأنه لا خالق إلا الله، وقد تحدَّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الخلق أن يخلقوا شيئًا ولو قلَّ؛ كما في قوله:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، **وكما في قوله ـ تعالى ـ:** ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]،

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢]؛ فالله ـ تعالى ـ هو الخالق لكل ما في الأرض.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأصل في كل ما في الأرض من أعيان ومنافع الحِلُّ والإباحة؛ لأن اللام بمعنى الإباحة هنا؛ فكل ما في الأرض من الأعيان والمنافع الأصل فيه الحل، ومن ادعى تحريم شيء منه فعليه الدليل، وهذه القاعدة قاعدة مهمة نافعة تنفعك في كثير من المسائل، فعندما يختلف اثنان في حِلِّ هذا المأكول أو تحريمه نقول: الأصل الحِلُّ، فمن يدَّعي أنه حرام عليه الدليل، وعندما يختلف اثنان في عمل في الأرض، من حراثة أو غيرها، فإننا نقول: الأصل الحِلُّ إلا ما قام الدليل على تحريمه؛ وعلى هذه القاعدة يجوز للإنسان أن يتمتع بكل ما في الأرض من مأكول ومشروب، ولا حرج عليه في ذلك إلا أن يقوم دليل على التحريم.

ولو تنازع رجلان في حلِّ حيوان، فقال أحدهما: هذا حلال، وقال الثاني: هذا حرام؛ فإن القول: قول من يقول بأنه حلال حتى يُوجِد مدَّعي التحريم دليلًا على أنه حرام.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان فضل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على عباده؛ حيث وسَّع لهم هذه التوسعة البالغة بأن كل ما في الأرض فهو حلال لهم.

٤- ومن فوائدها: أن الأرض خلقت قبل السماء؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾، وهذا هو الذي تدل عليه آية فصلت؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

وأما الآيات في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣] فإنها لا تنافي هذه الآية، ولا آية فصلت؛ لأن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ يدل على أن دَحْوَ الأرض كان بعد خلق السماء، وأما خلق الأرض فإنه كان سابقًا على خلق السماء.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بذاته؛ لقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾، وقد سبق أن ذكرنا هذا، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ فوق عباده، وأن له العلو المطلق، علو الذات، وعلو الصفة؛ فعلو الذات هو أنه ـ سبحانه وتعالى ـ فوق كل شيء، وعلو الصفة هو أن جميع صفاته عليا كاملة، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، وهذا مذكور في عدة آيات من القرآن؛ في قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وفي قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وأما الأرض فلم تذكر صريحة بهذا العدد في القرآن الكريم، ولكن في القرآن إشارة إلى أنها سبع؛ وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]، فإن المثلية هنا ليست في الصفة ولا في الحجم؛ لأن السماء أعظم من الأرض، وأوسع، وأكبر، ولكنها في العدد، وأما السنة فقد جاءت صريحة بأن الأرضين سبع: «مَنْ اقتطع شِبْرًا من الأرض ظُلْمًا؛ طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يوم القيامة من سبع أرضين»[1].

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عموم علم الله، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ عليم بكل شيء، وهذا مكرر في القرآن الكريم كثيرًا؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ

---

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٨)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٠)، واللفظ له.

عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وهذا العلم علم كامل ليس فيه نقص بوجه من الوجوه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة يبيِّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده ما جرى بينه وبين الملائكة حول خلق آدم وذريته، فيقول ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، وهذا التركيب كثير في القرآن؛ أعني: «إذ» التي تُبدأ بها القصة، قال أهل العلم: وهي منسوبة لفعل محذوف تقديره «اذكر».

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، والملائكة هم عالم غيبي خُلقوا من نور، خلقهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لعبادته؛ فقاموا بها؛ فكانوا يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون، وقد ذكر الله ـ تعالى ـ أنه جعلهم رسلًا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، قال لهم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، خليفة لمن سبقه؛ وذلك لأن الجان قد سبق خلقُهُمْ خلقَ آدم؛ كما قال ـ تعالى ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن

صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧].

وكان الجن قد أفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فلما قال الربُّ - عَـزَّ وَجَـلَّ - للملائكـة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قـالوا مستفهمين: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ مستفهمين بهذا الاستفهام؛ لأنهم يعلمون أن الله ـ تعالى ـ لن يفعل شيئًا إلا لحكمة، فقال الله لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: أن عنده ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من العلم ما ليس عند الملائكة، وهو عالم ـ جلَّ وعلا ـ بأن هذه الخليفة سيكون منها الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والصالحون، ونعم الخليفة يكونون لمن سبقهم.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١- إثبات القول لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأنه يقول بصوت مسموع وحروف متتالية؛ لأن هذا هو الكلام المعروف في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، وعلى هذا جرى السلف الصالح ومن تبعهم من الأئمة بأن الله ـ تعالى ـ يتكلم بكلام مسموع بحروف متتالية، وأنه يقول كذلك قولًا بحروف متتابعة، وصوت مسموع، والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عناية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ برسوله

محمد ﷺ؛ وذلك بإضافة ربوبيته ـ تعالى ـ إليه؛ أي: إلى الرسول ﷺ؛ حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، والربوبية الخاصة تقتضي عناية أكثر وأتم؛ وذلك أن ربوبية الله ـ تعالى ـ عامة وخاصة؛ فالعامة الشاملة لجميع الخلق المقتضية للملك والتدبير، تدبير شئون الخلق عمومًا؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ـ٦].

فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، عمومًا الآيات في هذا كثيرة.

وأما الربوبية الخاصة: فهي التي يضيفها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى سادات البشر؛ كالأنبياء ونحوهم.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الملائكة**؛ لقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وأن الملائكة لهم عقول؛ فهم يتكلمون ويحاورون؛ فإن الله ـ تعالى ـ قال لهم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وفي هذا إبطال لقول من قال: إن الملائكة عبارة عن القوى الخيرية أو الخيِّرة، وليست أجسامًا تتكلم أو تسمع؛ فإن هذا قول باطل يرده الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات قيام الأفعال بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ**؛

لقوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ فإن الجعل يقتضي إيجادًا بعد عدم، وهو كذلك، والله -عَزَّ وَجَلَّ- موصوف بصفات الذات اللازمة لذاته، وبصفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وحكمته، هذا هو مذهب السلف وأئمة الأمة.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى أن للأرض عُمَّارًا** قبل آدم وذريته؛ لقوله -تعالى-: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ **أي:** يخلفون من سبقهم.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأمم السابقة على آدم وذريته كان فيهم من الشر، والفساد، وسفك الدماء ما اقتضى أن تسأل الملائكة ربها -عَزَّ وَجَلَّ-: هل يجعل في هذه الخليفة من يكون كمن سبقهم؟ لقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تعظيم شأن الدماء؛ ولهذا** خصَّتها الملائكة بالذكر في قولهم: ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، وإلا فمن المعلوم أن سفك الدماء من الفساد في الأرض، لكن لما عطف على العام وهو خاص؛ دلَّ ذلك على أهميته، وأنه من أعظم الفساد في الأرض.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- قد شغلوا أوقاتهم في تسبيح اللهِ وتقديسه؛ وتسبيحُ اللهِ معناه

تنزيه عن كل عيبٍ ونقصٍ؛ فهو ـ سبحانه وتعالى ـ منزَّهٌ عن العيوب والنقائص، سواء أكان النقص في صفة كماله، أو كان نقصًا مستقلًّا، وكذلك نقول في العيوب؛ فينزه الله ـ تعالى ـ عن الوصف بالعجز، والجهل، والعمى، والموت، وما أشبه ذلك من الصفات الناقصة، وتُنزه صفاته الكاملة عن أن يلحقها شيءٌ من النقص؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فمع خلق هذه المخلوقات العظيمة في هذه المدة القصيرة لم يَلْحقه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لغوب؛ وهو التعب والإِعياء، ويُنَزَّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن مشابهة المخلوقين؛ لأن مشابهة الناقص نقص؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، إذن الذي ينزه الله عنه ثلاثة أشياء: مشابهة المخلوقين، والنقص المجرد، والنقص في صفات كماله. وقولهم ـ أي: الملائكة ـ: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ولم يقولوا: (نقدسك)، يُستفادُ منه إخلاص الملائكة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإن اللام هنا للاختصاص، وإلا فإن الفعل يتعدى بنفسه، لكن عُدِّيَ باللام إشارة إلى إخلاصهم، وأن التقديس خالص لله ـ تعالى ـ وحده.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان كمال علم الله؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها**: إثبات التفضيل في صفاته؛ حيث قال: ﴿أَعْلَمُ

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وفي ذلك ردٌّ على مَنْ إذا مروا على مثل هذه الآية التي فيها اسم التفضيل حولوا اسم التفضيل إلى اسم فاعل. وقالوا: «أعلم»؛ أي: «عالم»؛ فإن هذا صرف للكلام عن ظاهره بلا دليل، وفي الوقت نفسه هو تنقيص من المعنى؛ لأن «**أفعل التفضيل**» تمنع المشاركة في الكمال، لكن «**اسم الفاعل**» لا يمنع المشاركة في الوصف، بل لا يمنع المساواة والمماثلة أيضًا، وفي هذا دليلٌ على نقص علم المخلوق؛ وعلى هذا فإذا أشكل عليك شيء فَكِلْ علمه إلى من هو بكل شيء عليم، وهو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

يخبر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هاتين الآيتين عن تعليمه لآدم ـ وهو أبو البشر ـ الأسماء كلها؛ فقد علَّمه أسماء كل شيء يحتاج إليه البشر، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة؛ فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾؛ أي: أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ ليريهم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مقدار علمه، وأن علمهم ناقص؛ حيث جهلوا أسماء هذه المسميات، فإذا جهلوا أسماء هذه المسميات؛ فإنهم بجهل المستقبل لهذه الخليفة التي أخبرهم

الله ـ تعالى ـ بأنه سيجعلها في الأرض من باب أولى وأحرى، وقال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ ولم يقل: «عرضها»؛ أي: الأسماء؛ لأنه عرض عليهم المسميات؛ كما يدل عليه قوله: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فيما عندكم من العلم، ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: ننزهك أن يكون لدينا علم بشيء، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فوائد هاتين الآيتين:

١ ـ في هاتين الآيتين إظهار الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لفضل آدم؛ حيث علَّمهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أسماء كلِّ شيء يحتاج إليه؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في امتحان الملائكة بعرض هذه المسميات التي عَلَّمَ آدم بأسمائها حتى يتبين نقصان علمهم.

٣ ـ ومن فوائدها: إثبات كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأنه بصوت مسموع وحروف متتابعة؛ كما في قوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٤ ـ تنزيه الملائكة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وتعظيمهم له؛ لقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، وقد سبق ـ فيما مضى ـ ذكر ما ينزه الله عنه من النقائص، والعيوب، ومماثلة المخلوقين.

٥ـ أن جميع العلوم التي عند المخلوقات من عند الله؛ لقول الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وإن كان هذا في الملائكة الذين هم من المزية والفضل ما هم أهل له، فغيرهم من باب أولى؛ ولهذا لا أحد يحيط بعلم الله؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «**العليم**» و«**الحكيم**»؛ **فأما العليم**: فهو ذو العلم الكامل المحيط بكل شيء، وقد سبق لنا بيان إحاطة علم الله ـ تعالى ـ بكل شيء جملة وتفصيلًا، **وأما الحكيم**: فهو من الحكم والإحكام أيضًا؛ فالله ـ تعالى ـ له الحكم في الأولى والآخرة، له الحكم الكوني والشرعي؛ فلا حاكم في الخلق إلا الله، ولا حاكم بينهم إلا الله، وأما الحكمة أو الإحكام: فهو إتقان الشيء بحيث يكون كل شيء في موضعه؛ ولهذا قالوا: الحكمة هي وضع الشيء في مواضعه، وبذلك يتبيّن كمال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في العلم والحكمة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

في هذه الآية ينادي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ آدم، فيأمره أن ينبئ الملائكة بأسماء هؤلاء المسميات؛ من أجل أن يظهر فضل آدم بما أعطاه الله من علم هذه الأسماء ومسمياتها، فلما أنبأهم آدم بأسمائهم؛ أي: بأسماء هذه المسميات، قال الله ـ تعالى ـ مخاطبًا الملائكة: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: ما غاب في السموات والأرض عن مشاهدة غير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ويشمل هذا ما غاب عن المخلوقين في مكان آخر ليسوا فيه، وما غاب عن المخلوقين من علم المستقبل، وكون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يعلم غيب السموات والأرض يقتضي ـ في الأولوية ـ أن يكون عالمًا بالشهادة، وقال: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾؛ أي: ما تبدونه وتظهرونه، وما كنتم تكتمون فلا تبدونه.

من أحكام وفوائد هذه الآية:

١ـ إثبات كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأنه يتكلم بصوت مسموع وحروف متتابعة، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بصوت مسموع وحروف متتابعة، يسمعه المخاطب ويفهمه.

٢ـ وفيها من الفوائد العظيمة: الرد على من زعم أن كلام الله هو

المعنى النفسي القائم بالنفس؛ فإن الكلام بهذا المعنى ليس بكلام ولا يسمع.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: فضل آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما علَّمَه سبحانه وتعالى من هذه الأسماء ومسمياتها.

٤ـ **ومن فوائدها أيضًا**: مِنَّة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الملائكة بما أظهر لهم من عِلْمه، وأنه محيط بكل شيء؛ فإن من تمام نعمة الله على عبده أن يبين له الحق بالطرق التي يطمئن إليها، ولو شاء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لم يبين الحق، ولترك الإنسان يعمه ويضيع في ضلاله؛ ويتفرع على هذا أنه يجب على الإنسان أن يشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما يُعَلِّمُه من الحق الذي قد يضل عنه كثير من الناس.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثباتُ عموم علم الله؛ لقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وذلك أن العالم بالغيب عالم بالشهادة من باب أولى.

٦ـ **ومن فوائدها أيضًا**: تذكير المخاطب بما كان من قبل؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يقرر ذلك ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عليهم؛ ليبين لهم أن ما قاله لهم هو الحق المطابق للواقع.

٧ـ **ومن فوائدها**: عمومُ علمِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما فعله خلقه؛

لقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٨ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن للملائكة إرادة وقدرة على أعمالهم وأفعالهم، وهذا فيه تكذيب دعوى من ادَّعى أن الملائكة ليس لهم عقول، بل الملائكة لهم عقول بلا شك، ولهم إرادات، ولهم قدرة على الأعمال، يُؤخذُ هذا من قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ فإن هذا يدلُّ على أن الملائكة تبدي ما تبدي، وتكتم ما تكتم، وهذا لا يكون إلا عن علم، وإرادة، وقدرة.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

في قوله: ﴿وَإِذْ﴾ كلمة مُقَدَّرةٌ يبينها السياق، والتقدير: «**واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**»؛ يعني: اذكر هذه القضية، منوهًا بفضل آدم ـ عليه الصلاة والسلام؛ حيث أُمرت الملائكة أن يسجدوا له؛ تعظيمًا واعترافًا بما وهبه الله من الفضل، لكن هذا السجود ليس سجود عبادة يكون كسجود المخلوق للخالق، بل هو سجود تعظيم مجرد من التعبد، وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يشمل جميع الملائكة؛ لأن الأصل في صيغة العموم أن تكون شاملة لجميع أفرادها ما لم يكن هناك دليل على التخصيص، أو إرادة التخصيص.

وبَيَّنَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن الملائكة لما أمروا بالسجود لآدم سجدوا

ولم يستنكفوا عن أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلا إبليس؛ فإنـه أَبَـى واسـتكبر؛ أَبَى أن يسجد، واستكبر عن السجود، والجمع بين الإِبـاء والاسـتكبار يدل على أن إباءه لم يكن لعذر أو لمانع يُعذرُ به، وإنما كان عـن اسـتكبار في قلبه، وقد بَيَّن اللهُ ـ سـبحانه وتعـالى ـ في آيـات أخـرى سـبب إبائـه واسـتكباره؛ حيـث قـال: ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

وقوله هنا: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ اختلف أهلُ العلم في هذا الاسـتثناء هـل هو استثناء متصل أم هو استثناء منفصل؟ فمنهم من قال: إن الاستثناء هنا متصل؛ لأنه الأصل في الاسـتثناء؛ أي أن الأصـل في الاسـتثناء أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، ومنهم مـن قـال: إن الاسـتثناء منقطع؛ أي أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه؛ واسـتدل هـؤلاء بقولـــه - تعـــالى - : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهـف: ٥٠]، فقـال: «إن إبلـيس كـان مـن الجـن»، ويقـول النبـيُّ ﷺ: «خُلِقت الملائكةُ من نور، وخُلِقَت الجانُّ مِنْ مارجٍ مِنْ نَارٍ، وخُلِـقَ آدمُ مما وصف لكم»[1]، وهذا القول أرجح، لكنـه يـشكل عليـه كيـف يكون إبليس من غير الملائكة ويصح أن يتوجه إليه الخطـاب في قولـه: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم (٢٩٩٦).

والجواب عن هذا أن نقول: صحَّ أن يتوجه إليه الخطاب؛ لأنه كان في عامتهم؛ أي: أنه كان معهم يعمل بعملهم، ويتعبد كما يتعبدون، لكن غلب عليه الطبع الخبيث، فلما أُمِرَ بالسجود لآدم رأى أنه فوق مرتبة آدم، وأن الأعلى لا يمكن أن يُعظِّم الأدنى، فحمله إعجابه بنفسه، واحتقاره لآدم على أن يستكبر عن أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وبهذا يزول الإشكال، وهنا قال: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ كان من الكافرين بإبائه واستكباره؛ وعلى هذا فلا تكون «كان» هنا دالة على المضي، ومنهم من قال: إنَّ «كان» دالة على المضي، ولكنه كان في علم الله من الكافرين، والأول أصح؛ أي أن المراد بها مجرد بيان اتصاف اسمها لخبرها، وهذا موجود في القرآن كثيرًا؛ أي أن تأتي «كان» مسلوبة الدلالة على الزمن، ويكون المراد بها مجرد تحقيق الصفة، ويقع ذلك كثيرًا في صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ألم تر إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، مع أنه لم يزل ولا يزال كذلك؟

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ ـ بيان فضيلة آدم؛ حيث أُمر الملائكة الكرام بأن يسجدوا له.

٢ ـ أن عبادة الله هي طاعته حتى في الأمر الذي لولا أمره به لكان شركًا؛ فالسجود لغير الله شرك، ولكن إذا كان بأمر الله كان طاعة؛ كما

أن قتل النفس التي حرم الله بغير حق من كبائر الذنوب، وإذا وقع امتثالًا لأمر الله كان من الطاعة؛ فهذا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمره الله أن يقتل ابنه، وقتله من كبائر الذنوب بلا شك، ومع ذلك كان امتثال إبراهيم لهذا الأمر من أرفع المقامات لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لما ابتلاه واختبره بهذا الأمر العظيم، وعلم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنَّ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ منفذ لأمره حتى تلَّه للجبين ليذبحه نزل الفرج من الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنسخ هذا الأمر: ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، أقول: إن في هذه الآية دليل على أن الشيء قد يكون كفرًا أو كبيرة فإذا وقع بأمر الله كان طاعة وقربة.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إجراء الأحكام على الظاهر، وأن من كان متظاهرًا بعمل قوم فهو منهم ظاهرًا؛ ولهذا صحَّ توجه الخطاب من الله للملائكة إلى إبليس مع أنه ليس من جنسهم، لكنه لما كان فيهم يعمل عملهم توجه الخطاب إليه، وهكذا كان الرسول ﷺ يعامل من تلبس بالإسلام ظاهرًا معاملة المسلمين؛ ولهذا لم يقتل المنافقين مع أنهم كفار؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عاملهم معاملة الظاهر.

٤ـ **وفي هذه الآية الكريمة من الفوائد** الحذر من الرجس والسريرة الخبيثة؛ لأن إبليس غلبه ما في قلبه من الرجس والسريرة الخبيثة حتى استكبر وأبى؛ فرجع إلى أصله، فالواجب على المرء الحذر من مثل هذه السريرة التي تكون في القلب، وأن يصقل قلبه دائمًا منها؛ حتى لا توقعه في الهلاك، وقد صحَّ عن النبي ﷺ: أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار؛ ففي الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ «أنَّ رسولَ الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مالَ رسولُ الله ﷺ إلى عسكره، ومالَ الآخرون إلى عسكرِهم، وفي أصحاب رسول الله رجُلٌ لا يدع لهم شاذة ولا فاذة[1]، إلا اتبعه يضربه بسيفه؛ فقالوا: ما أجزأ منا اليومَ أحدٌ كما أجزأ فلان؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «أما إنَّهُ من أهلِ النار»؛ فقال رجلٌ من القومِ: أنا صاحِبهُ، قال: فخرج معه، كُلَّما وقف وقَفَ معه، وإذا أسرعَ أسرعَ معه، قال: فجُرِحَ الرجلُ جرحًا شديدًا، فاستعجلَ الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذُبابَه[2] بين ثَدْييه، ثُمَّ تحامل على سيفه؛ فقتل نفسه، فخرج الرجلُ إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهدُ أنَّكَ رسولُ

---

(١) أي: أنه لا يدع أحدًا؛ على طريق المبالغة، قال ابن الأعرابي: يقال: فلان لا يدع شاذة ولا فاذة إذا كان شجاعًا، لا يلقاه أحد إلا قتله.

(٢) ذباب السيف: طرفه.

الله، قال: «وما ذاك؟» قال: الرجل الذي ذكرت آنفًا أنه من أهـلِ النـارِ، فأعظم الناسُ ذلك، فقلتُ: أنا لكم به، فخرجـتُ في طلبـه، ثُـمَّ جُـرِحَ جرحًا شديدًا، فاستعجلَ الموت، فوضع نصل سـيفه بـالأرض وذُبابَـهُ بين ثَدْيِيه، ثُـمَّ تحامـل عليـه؛ فقتـل نفسه؛ فقـال رسـول الله ﷺ عنـد ذلك: «إنَّ الرجُلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجَنَّةِ فيما يبدو للناسِ وهو من أهـل النَّار، وإنَّ الرجل ليعمل عمل أهلِ النار فيما يبدو للناس وهو من أهـلِ الجنَّة»[1]، وهذا يدل على أن في قلب الرجل سريرة أدت به إلى أن يقتـل نفسه، فالواجب على المرء أن يتفقد قلبـه في كـل وقـت وفي كـل حـين؛ حتى يطهره ويمحصه؛ لئلا تسوء خاتمته.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ترك السجود لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كفرٌ، وقد استدل بهذه الآية من قال: إن تارك الصلاة يكفـر، فقـال: إن إبليس كفر؛ لترك سجدة واحدة أُمر بها لغير الله، فما بالـك بمـن يـترك صلاة أمر اللهُ بها، وأن تكون لنفسه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فيكـون كفـره مـن باب أولى، والاستدلال بهذه الآية على هذه المسألة فيه شيء من البحـث والنظر ـ والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقال فلان شهيد، رقم (٢٨٩٨)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢).

ثـم قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

في هذه الآية الكريمة يخبر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه قال لآدم ممتنًّا عليـه: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾، وزوجه هي حواء التي خلقها الله ـ تعالى ـ من ضلع آدم؛ فهي من آب بلا أم، والمراد بالجنة: إما جنة الخلـد التـي هي مأوى المتقين، وإما جنة في الدنيا، بستان ذو أشجار كثـيرة، للعلـماء في هذا قولان؛ القول الأول: أنها جنة المأوى التي هـي مـأوى المتقـين، والقول الثاني: أنها جنة في الدنيا في الأرض، وهي عبارة عن بستان ذي أشجار كثيرة، والأقرب ـ والله أعلم ـ أنها جنة المأوى، جنة الخلد التـي وعد المتقون؛ لأنها هي المعلومة عند الإطـلاق، والأصـل أنـه إذا كـان للَّفظ معنى مفهوم عند الإطلاق؛ فإنه يُحمَلُ عليه إلا بـدليل يـدل عـلى خلاف ذلك، وهذه القاعدة مفيدة في علم التفسير وغـيره، أن الأصـل في النصوص حملها على ما هو معلوم ومفهـوم حتـى يقـوم دليـلٌ عـلى خلاف ذلك.

وأذن الله لهما أن يأكلا من هذه الجنة رغدًا بطمأنينة، وسعة، وكثـرة حيث شاءا من أي مكان إلا أنه ـ سـبحانه وتعـالى ـ نهاهمـا عـن قـرب شجرة عيَّنها لهما بالإشارة فقـال: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ ـ ولم يبـين الله ـ سبحانه وتعالى ـ جنس هذه الشجرة؛ لأنه ليس هنـاك ضرورة إلى

معرفة جنسها، المهم معرفة القضية ومغزاها، وبَيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أنهما إذا قربا هذه الشجرة وأكلا منها؛ فإنهما يكونان من الظالمين، الظالمين لأنفسهما؛ لتعرضهما لما حصل؛ حيث أَخْرَجَهُما أَكْلُهما من الجنة.

من فوائد هذه الآية:

١ـ إثبات القول لله، وأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يخاطب من شاء من عباده بصوت مسموع وحروف مرتبة ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ الآية.

٢ـ **ومن فوائدها:** امتنان الله ـ سبحانه وتعالى ـ على آدم؛ حيث أسكنه وزوجه الجنة.

٣ـ **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله ـ جلَّ وعلا ـ حيث خلق حواء من ضلعِ آدم من أب بلا أم، قال أهل الجنة: والإنسان باعتبار مبدإ خلقه أربعَة أقسام: قسم خُلق بلا أم ولا أب؛ مثل آدم؛ فإن الله خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فكان، وقسم خلق من أب بلا أم وهي حواء؛ خلقت من ضلع آدم، وقسم خلق من أم بلا أب وهو عيسى ابن مريم، والقسم الرابع مَنْ خلق من أبوين؛ أي: من أم وأب وهم سائر البشر، ومع هذا فإن الله ـ تعالى ـ يخلق ما يشاء ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ

عَقِيمًا ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]، ففي هذه ـ أيضًا ـ أن الناس أربعة أصناف من حيث الإنجاب وعدمه؛ فمنهم من يهبه الله ذكورًا بلا إناث، ومنهم من يهبه الله إناثًا بلا ذكور، ومنهم من يزوجه الله؛ أي: يجعل نسله صنفين، والزوج بمعنى الصنف في هذه الآية، ولها نظائر؛ أي: أن الزوج يُرادُ به الصنف؛ كما في قوله: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص: ٥٨]، وقوله: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي: أصنافهم ونظراءهم، والصنف الرابع من يجعله عقيمًا لا يولد له، وكل هذا بقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإنسان ربما يختار ما هو أدنى على ما هو خير، لما تسول به نفسه له، فهنا آدم وحواء أذن الله لهما أن يأكلا رغدًا من حيث شاءا ومنعهما من شجرة واحدة ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ ومع ذلك حصلت منهما مخالفة.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة** أن التعيين يكون بالإشارة كما يكون بالنطق؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾؛ ولهذا لو قال الرجل: «**زوجتي هذه طالق**»؛ طلقت، وإن لم يسمها، ولو قال الرجل: «**زوَّجتك ابنتي هذه**»؛ انعقد النكاح وإن لم يسمها ما دامت تعينت بالإشارة، فالمهم أن في الآية دليلًا على أن التعيين، كما يكون بالنطق يكون ـ أيضًا ـ بالإشارة.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه إذا أُريد حِمى المحارم نُهي عن قربها، وذلك حيث تدعو النفس إلى فعل هذا المحرم والقرب منه، فإن النهي يأتي عن قربه؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ فإن الزنى قد تدعو النفس إلى قربه وانتهاكه، وكذلك مال اليتيم لما لم يكن له من يحميه فإن النفس قد تتجرأ عليه فَنُهِيَ عن قربه.

٧ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإقدام على المحارم ظلم؛ لقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾، ووجه كونه ظلمًا أن نفس الإنسان عنده وديعة وأمانة فيجب عليه أن يرعاها حق رعايتها، وألا يقدم على شيء يكون فيه مضرتها، فإن فعل فقد ظلمها؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود: ١٠١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾؛ أي: أوقعهما في الزلل، أو أزاحهما، وأزلقهما.

﴿الشَّيْطَٰنُ﴾: علم أو وصف لهذا المخلوق الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَٰبِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وهو من «**شاط**»؛ بمعنى: «**غضب**»، أو من «**شطن**»؛ بمعنى: «**بَعُدَ**»، والاشتقاق الأخير أصحُّ؛ فالنون فيه أصلية، ولا شك أن الشيطان أبعد من يكون عن رحمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾؛ أي: عن هذه الشجرة؛ وعلى هذا تكون «عن» للسببية؛ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]؛ أي: ما فعلته فعلًا صادرًا عن أمري، وهنا تكون ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾؛ أي: إزلالًا صادرًا عن هذه الشجرة، وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ يعود إلى الجنة؛ أي: أزلهما الشيطان عن هذه الجنة؛ بسبب المعصية التي فعلها آدم؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ أي: كان سببًا في إخراجهما مما كانا فيه من النعيم في هذه الجنة؛ وذلك بأن وسوس لهما، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢٠ـ١٢١]، مع أن الله ـ تعالى ـ قد نهاهما عن ذلك، وحينئذ أمرهما الله ـ تعالى ـ أن يهبطا منها فقال:

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، والـضمير في قولـه: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ يعود على آدم وحواء، ووجَّهَ الخطاب إليهما بصيغة الجمع إما لأن أقـل الجمع اثنان ـ كما قيل به ـ، أو لأن الخطاب يـشملهما ويـشمل ذريـتهما؛ فإن ذرية آدم في صلبه، فإذا هـبط هبطـت الذريـة، وقيـل: إن الـضمير يعود على آدم، وحواء، وإبليس، وأن الله أمرهم أن يهبطـوا إلى الأرض بعد أن كانوا في السماء.

وقولـه: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعنـي: أن الـشيطان عـدو لآدم، وزوجه، وبنيه؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقولـه ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ المستقر: موضـع القـرار، والمتـاع: مـا يتمتـع بـه الإنـسان مـن طعـام، وشراب، ولباس، وغيره، ولكن هذا المستقر والمتاع مؤجلان إلى أجل، إلى حين، وهو موت الإنسان؛ فإن الإنسان إذا مات انقطـع متاعـه مـن الدنيا، وانتقل منها إلى دار الجزاء، وهذا «الحين» غير معلوم، لا بالنسبة لكل واحد من الناس، ولا بالنسبة للجميع؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، ومن جهل مكان موته فهو بجهل زمـان موتـه أولى، وقـال ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ عـن الـساعة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فوائد وأحكام هذه الآية:

١- بيان عداوة الشيطان للإنسان؛ لقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا﴾؛ فإن من عداوته أنه كان سببًا في إغواء آدم وزوجه حتى خرجا من هذه الجنة التي أسكنهما الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيها.

٢- إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وسببُ هذا الإخراج أنه لما أكل آدم وزوجه من الشجرة ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[الأعراف: ٢٢]، وأمرهما الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بالخروج منها.

٣- ومن **فوائد الآية الكريمة**: إضافة الشيء إلى سببه، وأن للأسباب تأثيرًا في مسبباتها؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ لأن الذي أخرجهما هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أمرهما أن يهبطا من الجنة، ولكن السبب في هذا الإخراج هو الشيطان، فنسب الإخراج إليه؛ لأنه سببه، ولا ريب أن الأسباب مؤثرة في مسبباتها، ولكن تأثيرها في مسبباتها من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فهو الذي أودع فيها هذه القوة المؤثرة. وقد انقسم الناس في الأسباب على طرفين ووسط؛ فطرف من الناس غلا في إثبات الأسباب حتى جعلها مؤثرة بنفسها، وأنكر ما يخرج عن سنة الأسباب، ومن الناس مَنْ فَرَّط فيها ولم يجعل لها أثرًا في مسبباتها، وقال: إن المُسَبَّب يحدث عند السبب لا بالسبب، وكلا القولين خطأ؛

فإنَّ من المعلوم بالحس والعقل أن الحجر إذا رُميَ على زجاجة انكسرت به، وأن الورق إذا أُلقي في النار احترق بها، ولا أحد ينكر ذلك، ومن قال: إنه احترق عند إلقائه في النار لا بالنار، أو أن الزجاجة انكسرت عند ملامسة الحجر لا بالحجر فقد أبعد النجعة، ولكن نقول: إن الزجاجة انكسرت بالحجر؛ لأن الله ـ تعالى ـ جعل هذه الصدمة سببًا للكسر، والورقة احترقت بالنار؛ لأن الله جعل النار محرقة؛ ولهذا إذا أراد اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يتخلَّف المُسَبَّبُ عن السبب تخلَّف؛ فها هو إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُلقِيَ في النار العظيمة التي أضرمها قومه المكذبون له؛ ليحرقوه بها، فقال الله ـ تعالى ـ للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت بردًا وسلامًا عليه ولم يحترق بها، وهذا دليلٌ على أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يودع في الأسباب ما يجعلها مؤثرة. وأما من قال: إن الأسباب مؤثرة بذاتها، وإنه لا يمكن أن يتخلَّف المسَبَّب عن السبب؛ فقوله ـ أيضًا ـ خطأ؛ فإن هذا يستلزم إنكار خوارق العادات التي يجريها الله ـ تعالى ـ على غير الأسباب العادية، ولا أحد عنده علم بالسمع أو عقل راجح إلا أنكر هذا القول.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن آدم وحواء عوقبا بالإخراج من الجنة؛ بسبب معصية واحدة، فما بالك بمن كان عنده من المعاصي ما لا يعلمه إلا الله؟!! أفلا يكون معرضًا نفسه للعقوبة العظيمة؟! وإن كان

المعلوم في الشريعة الإسلامية أن المعاصي ـ ما عدا المعاصي المخرجة من الإسلام ـ تحت مشيئة الله؛ إن شاء الله عذَّب عليها، وإن شاء عفا عنها وغفر؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات العداوة بين الشيطان وآدم وبنيه؛ لقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ ويتفرع من هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان أن يحترز غاية الاحتراز من كيد الشيطان، وألا يخنع له، وألا يأتمر بأمره؛ لأنه عدو، وكل عدو للإنسان فإنه لن يحمله إلا على أسوأ الحالات؛ ولهذا حذرنا الله ـ تعالى ـ من الشيطان بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأرض هي مستقر بني آدم، بل مستقر آدم وبنيه؛ لقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن هذا المستقر والمتاع لن يدوم، ولن يؤبد؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، وما كان غير دائم ولا مؤبد فهو سريع الانتهاء؛ لأن هذا المؤجل ينطوي بالساعات، بل بالدقائق، بل باللحظات، ولا

يمكن للحظة مرت أن تعود إليك مرة أخـرى؛ ولهـذا قيـل: كـل يـوم يمضي على ابن آدم فإنه يبعده من الدنيا، ويدنيـه مـن الآخـرة؛ فيجـب علينا أن نستعد، وأن ننتهز الفرصة بعمل ما يقربنا إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

* * *

ثم قال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

«التلقي» بمعنى الأخذ عن الغير؛ أي: فأخذ آدم من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كلمات أعلمه الله ـ تعالى ـ بها، ومنها قوله ـ تعالى ـ عـن آدم وزوجـه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعـراف: ٢٣]، ثم قال: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ ﴾؛ أي: تاب الله على آدم، وكذلك عـلى زوجـه؛ لأن قـضيتهما واحـدة؛ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وهـذه الجملة تعليلٌ لما سبق؛ أي: تاب عليه؛ لأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تـواب رحـيم، يتوب على من تاب ويرحمه، حتى يكون ـ أحيانًا ـ بعد التوبة خـيرًا منـه قبل فعل الذنب؛ ولهذا لم يحـصل الاهتـداء لآدم ـ فـيما نعلـم ـ قبـل أن يتوب إلى الله ـ تعالى ـ مما جرى منه من المعصية.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١ ـ مِنَّة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على آدم بما ألهمه مـن هـذه الكلـمات التي كانت بها توبة الله عليه؛ لقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ ﴾.

٢ـ أن ربوبية الله تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة تقتضي تمام الملك، والتدبير، والتصرف في الخلق، وهي شاملة لجميع المخلوقات، وربوبية خاصة تقتضي العناية والتربية الخاصة، وهي التي تكون لعباد الله المخلصين، ومنها قوله ـ تعالى ـ هنا ـ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله ـ تعالى ـ تاب على عبده، بل قد قال الله ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وتوبة الله على العبد تتضمن العفو عن الذنب، وصفحه عن العباد، وعدم المؤاخذة عليهم، وما دمنا في الكلام عن التوبة؛ فإننا نقول: إذا تاب العبد إلى الله توبة نصوحًا؛ تاب الله عليه، والتوبة النصوح هي التي جمعت شروطًا خمسة:

الأول: الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بألا يحمله على التوبة إلا الخوف من الله ورجاء ما عنده من الثواب.

الثاني: الندم على ما وقع منه من الذنوب؛ بحيث يحزن، ويتأثر، ويتمنى أن لم يكن فعل هذه الذنوب.

الثالث: الإقلاع عن الذنب؛ بأن يتخلص منه، فإن كان واجبًا قام به، وإن كان محرمًا فارقه، وإن كان للعباد أدَّاه إليهم.

الرابع: العزم على ألا يعود في المستقبل.

الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الـذي تُقبـلُ فيـه؛ وذلـك بـأن تكون قبل الموت، وقبل طلوع الـشمس مـن مغربهـا؛ لأن الـشمس إذا طلعت من مغربها لا تُقبلُ التوبـة، وإذا حـضر المـوت لم تقبـل التوبـة؛ لقـول الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النـسـاء: ١٨]، ولقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعـام: ١٥٨]؛ «وبعـض الآيات» هي طلوع الشمس من مغربها؛ كما فسرها بذلك النبـي ﷺ[١]، نسأل الله أن يمنَّ علينا بالتوبة وقبولها؛ إنه جواد كريم.

٤ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله؛ وهما **«التواب»** و**«الرحيم»**؛ التواب: هو الذي يُوفِّقُ إلى التوبة، ويقبل التوبة من التائب؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]؛ فهو التواب الذي يوفِّق للتوبة، وهو التواب الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات، وجاءت بصيغة المبالغة

---

(١) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنعام، رقم (٣٠٧١).

«التوَّاب»؛ لأن هذه صفة لازمة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فمن صفاته الكاملة التوبة؛ ولأن المذنبين الذين يتوبون إلى الله كثيرون، وأما «الرحيم» فهو ذو الرحمة الواصلة إلى من شاء من عباده؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

قال أهل العلم: ورحمةُ الله ـ تعالى ـ نوعان: عامة وخاصة؛ **فالعامة:** هي الشاملة لجميع الخلق، فإن كل الخلق داخلون في رحمة الله العامة التي بها قوام البدن وقوام الحياة؛ ولهذا نقول: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد رحم الكفار بما أعطاهم من نعم الدنيا؛ من عقل، وصحة، وطعام، وشراب، ولباس، ومنكح، ومسكن، وغير ذلك، كما أنه راحم للمؤمنين بهذا؛ **وأما الرحمة الخاصة:** فهي التي تكون بها سعادة الدنيا والآخرة، وهذه خاصة بالمؤمنين؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منَّ على المؤمنين بما رحمهم به من العلم النافع، والعمل الصالح، والإيمان، والتقوى، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

واعلم أن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ تتضمن الدلالة على ذاته،

وعلى الصفة، وعلى الأثر والحكم إذا كانت متعدية؛ فالعظيم ـ مثلًا ـ اسم من أسماء الله دالٌّ على ذات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وعلى عظمة الله، والرحيم اسم من أسماء الله دالٌّ على ذات الله، وعلى رحمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وعلى الأثر المترتب على هذه الصفة؛ وهو أنه يرحم من يشاء؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ [العنكبوت: ٢١].

* * *

ثم قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾؛ كالتوطئة والتمهيد لما بعده؛ يعني: اهبطوا من الجنة جميعًا، وسوف يأتيكم الهدى مني.

وينقسم الناس في هذا الهدى إلى قسمين: قسم يتبع هدى الله؛ فهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقسم آخر يكفرون ويكذبون بآيات الله؛ وهؤلاء هم أصحاب النار هم فيها خالدون.

يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾، نقول في الخطاب ـ هنا ـ في قوله:﴿ٱهْبِطُواْ﴾ ما قلناه في الخطاب السابق.

وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾، هذه الجملة شرطية؛ فيها: «إن» الشرطية المدغمة بـ«ما»، وفعل الشرط فيها «يأتينكم»، وجواب الشرط

مركب من قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والمعنى: إن أتاكم مني هدى فإن من اتبع هذا الهدى فليس عليه خوف مما يستقبل، ولا حزن على ما مضى، أما كونه لا خوف عليه في المستقبل؛ فلأنه عمل ما يحصل به الأمن من اتباع هدى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأما كونه لا يحزن؛ فلأنه استغل وقته في طاعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فلا يحزن على ما مضى منه؛ لأنه لم يفرط بل اكتسب فيه خيرًا، والذي يحزن هو الذي يفوته مطلوبه أو يحصل له مرهوبه، وأما الكافر المكذب بآيات الله؛ فهذا جزاؤه أن يخلد في نار جهنم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، وأصحاب النار هم أهلها الملازمون لها، والخلود هو المكث الدائم، هذا هو الأصل في الخلود إلا أن يقوم دليل على أن الخلود مؤقت فيتبع الدليل.

من فوائد هذه الآية:

١ـ أن من حسن التعليم، والتوجيه، والإرشاد التوطئة للكلام والتمهيد له، حتى وإن حصل في ذلك تكرار؛ لقوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، مع قوله فيما سبق: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

٢ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ برحمته وحكمته لم يكل الأمر في عبادته إلى عقول البشر، بل جاءهم بما فيه هدى، وذلك عن طريق الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا

رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

٣- أن ما جاء به الرسل هدى يهتدي بـه النـاس في ظلـمات الجهـل والكفر.

٤- أن الهدى من الله؛ ويتفرع عن هذا ألا تطلب الهدى إلا من الله - عَزَّ وَجَلَّ - فتكون - دائمًا - مُلحًّا على ربك بطلب الهداية حتـى تـستقيم على أمر الله على بصيرة من الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٥- أن الله أضاف هذا الهُدى إلى نفسه؛ لـيُعلَم أن هـذا الهـدى حـق ليس فيه باطل، ولا تناقض، ولا اختلاف؛ قال الله - تعـالى -: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعـام: ١١٥]، وقال - تعـالى -: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

٦- أن من اتبع هدى الله فقـد نجـا وسـلم، وأَمِـنَ مـن الخـوف في المستقبل، ومن الحزن على ما مضى.

٧- أن المؤمن المتبع لهدى الله هو الذي غنم؛ غنم وسلم، فلا يحـزن على ما مضى من زمانه؛ لأنه استغلَّه فيما ينفع، ولا يحزن على ما يستقبل؛ لأنه قد وُعد بالثواب الجزيل، والنجاة من العقاب؛ لاتباعه هـدى الله - عزَّ وجلَّ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة قسيمة للآية التي قبلها؛ فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر في الآية التي قبلها ثواب الذين اتبعوا هدى الله بالإيمان والعمل الصالح، وذكر ـ هنا ـ ما يُقابِلُهم من الكفار الذين جمعوا بين الكفر والتكذيب، بين الكفر وهو الاستكبار عن آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وترك العمل بها، والتكذيب بالخبر؛ فهم كافرون بالأمر، مكذبون بالخبر، مكذبون ما أخبر الله به في كتبه المنزلة، وما أخبرت به رسله، وهؤلاء القوم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله هم أصحاب النار، أهلها الملازمون لها، المخلدون فيها.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١ ـ كمال هذا القرآن؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا ذكر فيه أهل الجنة وثوابهم ذكر بعد ذلك أهل النار وعقابهم في الغالب، وهذا من معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣]. أي: تثنى فيه الأحكام والمعاني، ولا ريب أن هذا من كمال البلاغة؛ فإن الإنسان لو أتاه الخطاب بالرجاء دون التخويف لأدى ذلك إلى الأمن من مكر الله، ولو جاءه الخطاب بالتحذير والتخويف لأدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله، فجاء القرآن الكريم النازل من

عند الله بالتقسيم والمقابلة، إذا ذكـر شـيئًا ذكـر مـا يقابلـه حتـى يبقـى الإنسان دائرًا بين الرجاء والخوف؛ ولهذا قـال الإمـام أحمـد: ينبغـي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا؛ فإن غلب أحدهما هلك صاحبه.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن التكذيب بآيات الله كفـر موجـب للخلود في النار، ولكن التكذيب أحيانًا يـذكر وحـده، وأحيانًـا يـذكر مقرونًا بالكفر، فإذا ذكر مقرونًا بالكفر حُمل على تكذيب الخـبر، وحُمـل الكفر على ترك الأمر.

وآياتُ الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ تنقـسم إلى قـسمين: آيـات كونيـة، وآيات شرعية؛ فالآيات الكونية هي مخلوقات الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ؛ فإن المخلوقات آيات دالة على الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والتكذيب بهـا؛ أي: بالآيـات الكونيـة يكـون بإضـافة هـذه الآيـات إلى غـير الله؛ كالـذين يضيفونها إلى الطبيعة، أو بإثبات مشارك لله فيها؛ كالذين يقولون: هـذا الشيء أوجده الـولي الفـلاني مـع الله، أو باعتقـاد أن لله ـ تعـالى ـ فيهـا معينًا، فكلُّ هذا من التكذيب بآيات الله والإلحاد فيها.

وأما الآياتُ الشرعية فهي ما جاءت بـه الرسـل ـ علـيهم الـصلاة والسلام ـ من الكتب المنزلة من عنـد الله؛ لأن هـذه الكتـب فيهـا مـن التعظيم للخلق في عبـادتهم ومعـاملاتهم مـا يعجـز البـشر عـن مثلـه، والقرآن الكريم قد تحدَّى اللهُ بـه الخلـقَ جميعًـا أن يـأتوا بمثلـه؛ قـال ـ

تعالى ـ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، بل قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، بل تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨].

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكفار المكذبين بآيات الله ملازمون للنار؛ لأنهم أصحابها لا يخرجون منها أبدًا؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [الحجر: ٤٨].

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الخلود في النار، وهو خلود مؤبد ذَكَر الله ـ سبحانه وتعالى ـ تأبيده في ثلاث آيات من كتابه؛ في سورة النساء في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وفي سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وفي سورة الجن في قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]؛ ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة تأبيد الجنة وتأبيد النار أيضًا، وأنه لا فرق بينهما، وإن كان قد وُجِدَ خلاف يسير لكنه مرجوح، والخلاف الذي وقع هو أن بعض السلف رُوي عنهم أن

النار غير مؤبدة، لكنه قولٌ مخالفٌ لصريح القرآن؛ فلا يعوَّلُ عليه، قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٩].

* * *

ثم قال الله ـــ سبحانه وتعـالى ـ: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

الخطابُ هنا موجَّهٌ لبني إسرائيل؛ وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ ويعقوب هو أبو يوسف، وهو أبو بني إسرائيل؛ فإنهم كلهم يجتمعون فيه، ومعنى إسرائيل: العابد لله، ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾؛ يعني: تَذَكَّروها بقلوبكم، واذكروها بألسنتكم؛ لتقوموا بشكرها، فتتبعوا محمدًا ﷺ وتؤمنوا به، ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾؛ يعني: في السابق واللاحق؛ لأن بني إسرائيل أمة واحدة سابقهم ولاحقهم؛ ولهذا يذكر الله ـ تعالى ـ ما أنعم به على بني إسرائيل في عهد موسى ممتنًّا به على بني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ؛ لأنهم أمة واحدة، ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾؛ يعني: أوفوا بعهدي الذي عاهدتكم به؛ وعليه أوفِ بعهدي الذي عاهدتكم به وعليه، وهذا العهد مُبَيَّـنٌ في قوله ـــ تعالى ـــ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا

وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]، فالعهد الذي أخذه عليهم هو قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢].

والعهد الذي لهم على الله أوجبه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على نفسه: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المائدة: ١٢]، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا؛ ولهذا قيل: إنه يُرْجَعُ في تفسير القرآن إلى القرآن، ثم إلى السنة، ثم إلى تفسير الصحابة، ثم إلى تفسير كبار التابعين.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ كما أمرهم أن يوفوا بعهده ووعدهم أن يوفي بعهدهم أمرهم أن يرهبوه؛ حيث قال: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾؛ والرهبة هي أشد الخوف.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ ـ في هذه الآية من الفوائد تذكير بني إسرائيل بنعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم في السابق واللاحق.

٢- **ومن فوائدها**: أنه يجب على المرء أن يذكر نعمة الله عليـه وعـلى من سبقه حتـى يحـدث بـذلك شـكرًا لله عـلى هـذه النعمـة؛ فـإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المتفضل بالنعم أولًا، وهو الذي يتفضل بهـا ثانيًـا؛ بإعانة الإنسان على شكر هذه النعمة التي أنعم الله بها عليه.

٣- **ومن فوائدها**: بيان كرم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث جعل على نفسه عهدًا أن يوفي لمـن أوفى بعهـده؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

٤- **ومن فوائدها**: إثبات الصفات الفعلية لله ـ عَزَّ وَجَـلَّ ـ؛ لقولـه: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

٥- **ومن فوائدها**: توحيدُ الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ بالرهبـة؛ لقولـه: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾، والإنسان لابد له من رغبة ورهبة؛ رغبة فـيما عنـد الله، ورهبة فيما يفعله من أسباب عقوبة الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ؛ فـالله عنـده الثواب العظيم للمحسن، وعنده العقاب الألـيم للمسيء؛ كـما قـال ـ تعــالى ـ: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقــال ـ تعــالى ـ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾.

الخطاب هنا لبني إسرائيل على سياق الخطاب السابق؛ فقد كان في المدينة من بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ ثلاث قبائل: «**بنو النضير**»، و«**بنو قينقاع**»، و«**بنو قريظة**»، فوجَّه اللهُ إليهم هذا الخطاب: أن يؤمنوا بما أنزل مصدقًا لما معهم؛ يعني: لما معهم من التوراة، والتصديق لما معهم له معنيان: **الأول**: أنه جاء مطابقًا لما أخبرت به، **والثاني**: أنه شاهد لها بالصدق؛ فهو مُصَدِّقٌ لها؛ أي: شاهد لها بالصدق، وهو مصدق لها؛ أي: واقع على حسب ما أخبرت به؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد شهد القرآن الكريم بأن التوراة والإنجيل كليهما من عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾، الخطاب ـ هنا ـ من الله لبني إسرائيل؛ حيث ينهاهم عن أن يكونوا أول كافر به،

وقد استشكل بعض أهل العلم قولـه: ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾؛ حيـث كـان مفردًا مع أن الخطاب إلى جماعة، وأجيب عن ذلك بأن المراد: لا تكونوا أول فريق كافر به، والفريق جمع؛ يعني: لا تكونوا أول من يكفر به مـع أن عندكم علمًا بأنه حق؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقـرة: ١٤٦]، فإنـه إذا كنـتم أول فريـق كافر به مع علمكم بأنه حق كان ذلك أشد وأقبح.

ثم قال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: لا تأخذوا ثمنًا قلـيلًا بدلًا عن العمل بآياتي، وذلك بتقديم الرئاسة على ما جاء بـه الرسـول ﷺ؛ فإن بني إسرائيل كانوا يستفتحون عـلى الـذين كفـروا ويقولـون: سيُبعثُ نبيٌّ، ونتبعه، ونغلبكم، ولما بعث محمد ﷺ مـن بنـي إسـماعيل حسدوهم، وقالوا: إن هذا ليس هو النبي الموعود، فاشـتروا بآيـات الله ثمنًا قليلًا؛ ليبقوا عـلى رئاسـتهم، ولكـن صـار الأمـر بـالعكس ـ ولله الحمد ـ؛ فلم يبقوا على رئاستهم، بل فتح المسلمون بلادهـم؛ ففتحـوا بلاد الشام وهي مستوطن الروم النصارى، وفتحوا بلاد العراق وهـي مستوطن المجوس الفرس، واستولى ـ ولله الحمد ـ المسلمون على بـلاد هؤلاء، فأورثهم الله أرضهم، وديارهم، وأموالهم.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾، نقول في هذه الآية مـا سـبق في قوله: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾، وهنا أمرهم بالتقوى؛ والتقوى: اتخاذ الوقاية

من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أن اليهود والنصارى مخاطبون بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ، ملزمون به، وعندهم شاهد على صدقه؛ حيث كان ما جاء به محمد ﷺ مصدقًا لما معهم؛ وعلى هذا فإذا كفروا به لم يكونوا مؤمنين، وإن قالوا: نحن نؤمن بالله واليوم الآخر، فإنهم لا يتم لهم ما أرادوا حتى يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ ولهذا أقسم ﷺ أنه لا يسمع به يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جاء به إلا كان من أصحاب النار؛ حيث قال ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به إلَّا كان من أصحاب النَّار»[1].

٢ـ ومن فوائدها: أن القرآن منزل من عند الله، والقرآن ـ كما نعلم ـ كلام، فإذا كان نازلًا من عند الله وهو كلام؛ فلا يكون إلا بمتكلم به؛ فدلَّ هذا على أن القرآن كلام الله، وهذا ما أجمع عليه سلف الأمة: أن القرآن كلام الله منزل.

٣ـ ومن فوائدها: إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ والإنزال لا يكون إلا من فوق، وإذا كان الكلام كلام الله، وهو صفة من صفاته،

---

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٣).

ووصف بأنه منزَّل؛ دلَّ على أن المتكلم به عالم فوق العباد - سبحانه وتعالى.

٤ـ **ومن فوائدها**: أن الإنسان كلما كان معه الحق يستطيع أن يتبعه، ولكن لو نكص على عقبيه كان أشد لومًا من الإنسان الجاهل؛ لقوله: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ فإن قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ كالبرهان الملزم لهم بالإيمان؛ لأنَّ هذا القرآن لم يأتِ بأمر غريب لا يعرفونه، بل أتى بأمر يعرفونه ويعلمون أنه حلق، لكنهم استكبروا وأبوا؛ حسدًا من عند أنفسهم.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن بني إسرائيل - بما عندهم من العلم بأن ما جاء به محمد ﷺ حق - كان الأليق بهم أن يكونوا أول مؤمن به، ولكنهم كانوا كافرين به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ مع أن قريشًا كانوا كفروا به من قبل، لكن لما كانت قريش ليس معهم كتاب، وهؤلاء معهم كتاب يصدقه ما جاء به محمد ﷺ كانوا أول كافر به مع العلم بأنه حق.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن ما في الدنيا قليل ولو كثر؛ لقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا يجوز طلب العلم الشرعي من أجل الدنيا؛ لأن طلب العلم الشرعي من أجل الدنيا نوع من

الاشتراء بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ طلبَ علمًا وهو مما يبتغى به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عَرَضًا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة»[1].

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوبُ تقوى الله وإفراده بذلك؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾؛ فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، ولا ينافي هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ لأن المراد في قوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ اتقوا ما يكون في هذا اليوم مما يقدره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من الأهوال العظيمة والعقاب لمن كذب.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

فالخطاب هنا لبني إسرائيل؛ لأن السياق واحد، ومعنى قوله: ﴿تَلْبِسُواْ﴾؛ أي: تخلطوا الحق بالباطل حتى يلتبس ويشتبه على الناس، والحق في اللغة: الشيء الحق؛ أي: الثابت الذي لا يتزعزع، والباطل عكسه؛ أي: الشيء الذاهب سدى، الذي لا يثبت، ولا يبقى، والمراد

---

(١) الحديث في أمالي ابن الشجري (١/ ٤٣)؛ وإتحاف السادة المتقين، للزبيدي (١/ ٣٦٣)؛ والمغني عن حمل الأسفار، للعراقي (١/ ٦١)؛ انظر موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف (٨/ ٣٦٩).

بالحق ـ هنا ـ ما جاءت به الرسل من وحي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، والباطل ما خالف ذلك، وبنو إسرائيل عندهم الأحبار والرهبان يخلطون الحق بالباطل كالكُهَّان، يصدقون مرة واحدة ويكذبون مائة مرة؛ فهؤلاء ـ أيضًا ـ يأتون بالحق؛ ولكن من أجل التمويه حتى يقول القائل: هذا الذي قاله حق، ثم يلحق به كل ما قالوه من الباطل؛ فيلتبس الأمر؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ أي: لا تخلطوه به حتى يلتبس ويشتبه.

﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهذه طريقة أخرى من طرقهم أنهم يكتمون الحق، فلا يبدونه؛ خوفًا من أن يتبعه الناس، وهم لا يريدون من الناس أن يتبعوا الحق؛ بل يريدون أن يتبعوا أهواءهم، وجملة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حال من الفاعل في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟﴾، وفي قوله: ﴿وَتَكْتُمُوا۟﴾؛ أي: تعلمون أنكم فعلتم ذلك فكتمتم ولبستم، وهذه الجملة الحالية تفيد بيان مأخذ اللوم عليهم، وأنهم لم يفعلوا هذا الفعل ـ وهو لبس الحق بالباطل أو كتمان الحق ـ عن جهل منهم، ولكن عن علم وإصرار، فيكون هذا أظهر في عنادهم وأَبْيَنَ في استكبارهم عن الحق.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- من فوائدها: تحريم لبس الحق بالباطل؛ لأن الله ـ تعالى ـ نهى عنه بني إسرائيل، وما نُهِيَ عنه بنو إسرائيل مما هو قبيح لذاته يُنهى عنه سائر الأمم؛ ويتفرع عن هذه الفائدة التحذير مما يصنعه أهل البدع من زخارف القول التي يريدون بها أن يمكنوا بدعهم في قلوب الناس، فإنك إذا قرأت كتبهم ظننت أن الحق معهم، ولكن عند التأمل يتبين أنهم يريدون إلباس الحق بالباطل؛ ولهذا تجدهم يأتون بعبارات مجملة؛ فيقولون ـ مثلًا ـ: إن الله ـ تعالى ـ ليس في حيز، وليس في جهة، وليس بجسم، وما أشبه ذلك من العبارات التي يريدون بها التوصل إلى إنكار صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وإنكار علوه على خلقه، فإذا قرأ القارئ مثل هذا الكلام، وما نبهوا به من العبارات التي يحسبها الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، إذا قرأ القارئ هذا الذي كتبوا ظن أن هذا هو الصواب.

٢- ومن فوائدها: أن من سلك هذا المسلك من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود والنصارى، فعليه أن يحذر من ذلك؛ لأن من تشبَّه بقوم فهو منهم.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم كتمان الحق، وكتمان الحق يكون في حالتين: الحالة الأولى: أن يسأل سائل عن الحق فيُكْتَمُ الحق

عنه ولا يُجابُ به؛ لغرض من أغراض الدنيا، **والحالة الثانية**: أن يحتاج الناس إلى بيان الحق وإن لم يسألوا، فإذا رأى العالم الناس محتاجين إلى الحق وجب عليه بيانه، وإن لم يسألوه، والفرق بين الحالتين أن الحالة الأولى التي يكون فيها الكتمان عند سؤال السائل يقع السؤال فيها بلسان المقال، أما الثانية فيقع السؤال فيها بلسان الحال.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه إذا كتم الحق مع العلم به كان أشد قبحًا، أما إذا لم يعلم به الإنسان فإنه لا يجوز أن يتكلم به أصلًا؛ لأنه إذا تكلم بما لا يعلم فقد قال على الله ما لا يعلم، وهذا من المحرم الذي حرمه الله في كتابه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ يعني: ائتوا بها مستقيمة تامة، وليس المراد بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قوموا بالإقامة التي هي إعلام بالقيام بالصلاة.

وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أعطوها لمستحقها، والزكاة هي

جزء معين في أموال مخصوصة تدفع لمستحقها.

﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ أي: اخضعوا لله -عَزَّ وَجَلَّ- مع الخاضعين له، فيكون المراد بالركوع -هنا- مطلق الذل؛ لأن الركوع في اللغة العربية يراد به مطلق الذل؛ كما في قول الشاعر:

ولا تُهِنِ الفقيرَ عَلَّكَ أَنْ تَرْ ... كَعَ يومًا والدهرُ قَدْ رَفَعَهْ

ويحتمل أن يكون المراد به ركوع الصلاة، ويكون تخصيصًا بعد تعميم؛ لأن قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يشمل إقامتها بقيامها، وركوعها، وسجودها، وقعودها.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- وجوب إقامة الصلاة؛ لأن الله -تعالى- أمر بها، والأصل في الأمر الوجوب، ولكن الإقامة -إقامة الصلاة من حيث الواقع- تنقسم إلى قسمين: إقامة واجبة؛ وهي أن يأتي بواجبات الصلاة، وأركانها، وشروطها؛ أي: أن يأتي بما لا تصح الصلاة إلا به، فهذه إقامة واجبة لابد منها، وإقامة غير واجبة؛ وهي أن يأتي بمكملات الصلاة التي تصح الصلاة بدونها، وكله مأمور به، لكن ما لا تصح الصلاة بدونه مأمور به على الوجوب، وما تصح الصلاة بدونه مأمور به على سبيل الاستحباب.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمـة**: وجـوب إيتـاء الزكـاة؛ وهـي المـال المدفوع لمستحقه من أموال معينة معروفة عند أهل العلم.

٣ـ **ومن فوائدها**: أهمية إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأن الله أمر بهما وخصَّصهما بعد قوله: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ مـع أن التقـوى تـشمل فعـل جميع الأوامر وترك جميع النواهي.

٤ـ **ومن فوائدها**: فـضيلة الركـوع في الـصلاة إذا قلنـا بـأن المـراد بالركوع الركوعُ في الصلاة، أما إذا قلنا بأن المراد بالركوع التواضع لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والـذل لـه؛ فـإن في الآيـة فائـدة وهـي وجـوب الـذل لله والخضوع له.

٥ـ ومن فوائدها: ما استدل به بعضُ العلـماء عـلى وجـوب صـلاة الجماعة؛ لأنه قال: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وهذا الاستدلال محـل نظـر وتأمل؛ لأن الآية ليست صريحة في ذلـك؛ إذ يحتمـل أن يكـون المعنـى كونوا معهم في الجملة؛ أي: اركعوا كما يركع الناس، ولا يلزم أن يكون في ذلك مصاحبة، والعلم عند الله.

* * *

ثم قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

الخطاب - هنا - لبني إسرائيل، والاستفهامُ للتوبيخ والإنكار؛ يعني: كيف تأمرون الناس بالبر وتتركون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟!

وقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾؛ البِرُّ هنا: كل ما يقرب إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - من الطاعات، ويدخل في ذلك - أيضًا - ترك المعاصي؛ لأن البر إذا ذكر وحده شمل فعل الطاعات وترك المعاصي، وإذا قُرن بالتقوى صار المراد بالبر فعل الطاعات، والمراد بالتقوى ترك المحرمات.

وقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تتركونها، لا تأمرونها بالبر، ولا تهتمون بها، والحال أنكم تتلون الكتاب المُنَزَّل عليكم، وتعرفون ما فيه من بشاعة هذا المنهج؛ وهو أمركم الناس بالبر مع نسيان أنفسكم، ثم وبَّخَهُم اللهُ مرةً أخرى بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أن فعلكم هذا ليس فعل ذي عقل؛ لأن العاقل يبدأ أول ما يبدأ بنفسه، ثم يثني بإصلاح غيره.

فوائد الآية الكريمة:

١- الإنكار الشديد على من يأمر الناس بالبر ولا يفعله؛ لقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

٢- أن هذا المنهج كما هو مخالف للشرع فهو مخالف للعقل؛ لقوله:

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

٣- أن هذا المنهج يوجب ألا يـأتمر النـاس بـأمر الآمـر ولا ينتهـوا بنهيه؛ لأنهم سيقولون: لو كان هذا خيرًا لكان أول من يفعله، ولو كان شرًّا لكان أول من يجتنبه، فكيف يأمرنـا ولا يفعـل أو ينهانـا ويفعـل؟ فيكون في هذا منع لسلوك الناس سبيل البر.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن الإنسان ينبغي له ـ إن لم نقل يجب عـليه ـ أن يبدأ بنفسه، وقد دلَّت السنة على ذلك؛ قال النبي ﷺ: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك»[1]، ولا ريـب أن أقرب شيء إليك هو نفسك، فكونك تـسعى لإصـلاح غـيرك مـع فساد نفسك، لا شك أن هذا خلاف الشرع وخلاف العقل.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن العالم يلحقه من اللوم ومـن الـذم أكثر مما يلحق الجاهل؛ لقوله هنا: ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كل ما يخالف الشرع فهـو مخـالف للعقـل، لكـن المـراد بالعقـلِ العقـلُ الـصحيحُ الـسالمُ مـن الـشبهات والشهوات، أما العقل الفاسد المغمـور بالـشهوات والـشبهات فلـيس بعقل؛ ولهذا يصف الله الكفار بـأنهم ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقـرة: ١٧١]، مع أنهم أذكيـاء، لكـن الـذكاء شيء والعقـل شيء آخـر؛

(١) رواه مسلم: كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة بالنفس، ثم أهله، ثم القرابة، رقم (٩٩٧).

فالعقل ما يعقل الإنسانَ عما يضره ويمنعه مما يضره، والذكاء هو سرعة إدراك الأمور وفهمها.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

في الآية الكريمة الأولى يأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالاستعانة بأمرين: الصبر والصلاة؛ فالصبر حبس النفس عن التشكي والتسخط، والصلاة هي التعبد لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بالعبادة المعروفة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم، ويبين أن الاستعانة بالصبر والصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، أو أن الصلاة نفسها كبيرة إلا على الخاشعين؛ والخشوع هو الذل، بل هو أعظم الذل وأكمله، والمراد بذلك الخشوع لله ـ عزَّ وجلَّ.

أحكام وفوائد هذه الآية:

١ ـ طلب الاستعانة بالصبر في مكابدة الأمور؛ لأن الإنسان الذي لا يصبر لا يتم له مطلوبه؛ فإن كثيرًا من الأمور لا تأتي الإنسان بسهولة، بل تحتاج إلى تحمل وصبر، وقد ذكر أهل العلم ـ رحمهم الله ـ أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فأما الصبر على طاعة الله فهو أن يقوم الإنسان بأوامر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ غير متضجر ولا ضائق بها صدره، بل

يتقبلها بانشراح وسرور، حتى يقوم بالعبادة وهـو يحـب أن يقـوم بهـا، وأما الصبر عن محارم الله فهو الكف عما حرم الله عليه، سواءٌ أكـان ممـا يتعلق بحقـوق الله، أو مـا يتعلـق بحقـوق العبـاد، فيكـف نفسه عـن العدوان، والظلم، والكذب، وعما هو أعظـم مـن ذلـك مـن الـشرك، والكفر، ونحو هذا، والثالث: الصبر على أقـدار الله المؤلمـة؛ لأن أقـدار الله ـ تعالى ـ قد تكون ملائمة للإنسان يفرح بها، ويطمئن إليهـا، ويُـسَرُّ بها، وهذه لا تحتاج إلى صبر، اللهمَّ إلا إذا صبر على شـكرها، والثانيـة: أقدار مؤلمة شاقة على الإنسان، يتعب منها، فهذه تحتاج إلى مصابرة وإلى تحمل عنائها، فكلما مرَّن الإِنـسان نفـسه عـلى الـصبر والتحمـل؛ ازداد ثباتًا، وحصل له من مطلوبه مـا لم يحـصل لـهِ لـو تـضجر، وهـذا شيء مجرب؛ فإن الإنسان إذا تمـرَّن عـلى الـصبر والتحمـل صـار عنـده مـن مدافعة الأمور ما ليس عند غيره.

٢ـ الاستعانة بالصلاة على مكابدة الأمـور أيـضًا، وقـد ذكـر عـن رسول الله ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر ـ يعني كربه أو شقَّ عليه ـ فـزع إلى الصلاة[1]؛ وذلك لأن الصلاة تنسي الإِنسان الدنيا إذا كان مخلصًا فيها؛ فإن الإنسان يقـف بـين يـدي الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ يناجيـه ويتقـرب إليـه بتعظيمه وتلاوة كتابه، ويناجيه بالدعاء؛ يقول: رب اغفر لي، وارحمني،

---

(١) انظر منتخب كنز العمال (٣/ ١٤٨).

وما أشبه ذلك؛ فيتسلى بها الإِنسان عن أمور الدنيا، وحينئذ يتحمل المشاق؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكُم النساءُ والطيبُ، وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة»[1]؛ فهي قرة عين المؤمن.

ويذكر عن عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ وهو من الفقهاء السبعة الذين اشتهروا في زمن التابعين ـ أنه أصابته آكلة في رجله، وقرر الأطباء أنه لابد من قطعها، ولم يكن في ذلك الوقت بِنْجٌ يُبَنَّجُ به الإِنسان، فقال لهم: إذا دخلت في الصلاة فأتوا واقطعوها؛ لأنه إذا دخل في الصلاة اشتغل بها عما سواها؛ فتقطع رجله وهو لا يشعر؛ لشدة تعلقه بالله ـ سبحانه وتعالى.

ومن فوائدها أيضًا: أن الخاشع المطمئن لأمر الله المُخبت له تسهل عليه الصلاة، ويسهل عليه الصبر، ولا تكون أمرًا شاقًّا عليه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

* * *

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ أي: يتيقنون ذلك؛ كما قال الله ـ تعالى ـ:

---

(١) رواه الإمام أحمد؛ والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)؛ والحاكم؛ والبيهقي؛ ورمز له السيوطي بإشارة الحسن، انظر الجامع الصغير (١/ ٢٢٣).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]؛ فهم موقنون بأنهم ملاقو ربهم، راجعون إليه، وأن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ سيحاسبهم على أعمالهم.

أحكام وفوائد هذه الآية:

١ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات لقاء الله، وأن الإنسان سيلاقي ربَّه، وهو كذلك؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

٢ـ **ومن فوائدها:** الثناء على الموقن بهذا اللقاء؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: يتيقنون.

٣ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن هذا اليقين أو العلم سبب للسعادة وللتَّقَوِّي على الأعمال الصالحة؛ لأن الإنسان إذا علم أنه سيرجع إلى ربه عمل لذلك عمله، بخلاف الإنسان الغافل الذي لا يهتم بما أمامه، فنسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعلنا جميعًا من المهتدين بآياته، القائمين بمرضاته؛ إنه جواد كريم.

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

في هاتين الآيتين يُذكِّرُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بني إسرائيل؛ وإسرائيل هو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُذكِّرُهم بنعمته التي أنعم الله بها عليهم، وما أكثر النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل؛ ومنها أنه فضَّلهم على العالمين؛ أي: على عالم زمانهم، ليس على العالمين إلى يوم القيامة؛ لأن هذه الأمة أفضل الأمم وأكرمها على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم يأمرهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يتقوا ذلك اليوم الذي لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئًا؛ فلا أحد يغني غيره، بل لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه، ولا يقبل من النفس شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل؛ أي: فدية، بل كل إنسان مرهون بعمله لا يُنصر، ولا يقبل منه شفاعة، ولا يؤخذ منه عدل.

ما يستفاد من هاتين الآيتين من صور:

١- بيان نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على بني إسرائيل؛ حيث ذكَّرهم بهذه النعمة: ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾، وهي مفرد مضاف؛ فيشمل جميع النعم التي أنعم الله بها عليهم.

٢- ومن فوائدها: أنه ينبغي لكل داعية أن يذكِّر المدعو بنعم الله؛ لأن التذكير بنعم الله يستلزم أن يقوم المدعو بطاعة المنعِم؛ لأن ذلك هو حقيقة الشكر.

٣ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله فَضَّل بني إسرائيل على غيرهم من العالمين، ولكن هذا خاص في زمانهم كما أسلفنا آنفًا، أما هذه الأمة فهي أفضل من بني إسرائيل.

٤ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** التذكير بيوم القيامة الذي لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئًا.

٥ـ **ومن الفوائد:** وجوب تقوى هذا اليوم؛ وذلك باتخاذ الوقاية من عذابه، ولا وقاية من عذاب يوم القيامة إلا بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ لأن هذا هو الذي يقي من عذاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهذا المعنى الذي ذكرناه للتقوى هو أجمع ما قيل فيها.

٦ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** أنه لا تقبل الشفاعة من النفوس في ذلك اليوم، وهذا عام أريد به الخاص؛ وذلك أن الذين لا تقبل منهم الشفاعة هم الذين لا يرتضيهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأما من ارتضاهم الله؛ فإنَّ الله ـ تعالى ـ يقبل منهم الشفاعة، فيمن يستحق الشفاعة والشفاعة لا تكون إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن الله بها.

والشرط الثاني: أن يكون راضيًا عمن شَفَع وعمن شُفع له؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ

قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٧ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** أنه لا عدل يؤخذ عن الإنسان في ذلك اليوم بخلاف المضايق في الدنيا؛ فإن الإنسان قد يدعو عِدلًا عنه؛ أي: شخصًا يعدله بنفسه وينجو بهذا المعادل، لكن في يوم القيامة لا يمكن ذلك.

٨ـ **كذلك من فوائد هاتين الآيتين:** أن من لا تقبل منه الشفاعة ولا يؤخذ منه عدل؛ لا ينصر أيضًا، فلا يتناصر المجرمون في ذلك اليوم؛ لأن الأمر كله لله.

٩ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** التذكير العام لكل أحد بأهوال هذا اليوم العظيم، الذي لابد أن يصير إليه كل حي، فعليه أن يستعد له، وأن يتأهب له بالأعمال الصالحة المقربة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم﴾، الخطاب لبني إسرائيل.

و﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ هم أتباعه الذين يتولونه ويتوجهون بتوجيهاته؛ فآل فرعون كانوا يسومون بني إسرائيل سوء العذاب؛ يستعبدونهم، يذبحون أبناءهم، يستحيون نساءهم؛ أي: يستبقونهن، وهذه سياسة الجور والظلم؛ فهم يذبِّحون الأبناء؛ لئلا ينشئوا ويقاوموا آل فرعون؛ ولأجل أن يَقِلَّ النسل في بني إسرائيل، ولأجل أن يكونوا أذلة أمام آل فرعون؛ لأن النساء ـ مهما كُنَّ ـ فإنهن في مقام الذل أمام العدو.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ أي: اختبار عظيم لكم، هل تصبرون على ما حصل لكم من الأذى؟ وهل شكرتم لما أنجاكم الله من هذا البلاء؟

ثم يذكرهم الله ـ تعالى ـ بنعمة أخرى؛ وهي أن الله فَرَقَ بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون؛ وذلك حينما خرج فرعون بجنوده تابعًا لموسى وقومه؛ ليقضي عليهم ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٣]، فدخل موسى وقومه في هذا الطريق وعلى أيمانهم وشمائلهم كتل الماء كالجبال، ولما نجوا دخل فرعون وقومه فأمر الله البحر فانطبق عليهم؛ فغرقوا عن آخرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ

﴿تَنظُرُونَ﴾ فكان في هذا نعمتان على بني إسرائيل؛ **إحداهما**: أن الله أنجاهم، **والثانية**: أن الله أغرق عدوهم.

من فوائد هاتين الآيتين:

١- أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نجَّى بني إسرائيل مرتين؛ المرة الأولى من آل فرعون حين كانوا يسومونهم سوء العذاب؛ فيذبحون الأبناء ويستبقون النساء، والمرة الثانية حين فَرَقَ بهم البحر، فأنجاهم من الغرق، وأغرق آل فرعون وهم يشاهدون ذلك.

٢- **ومن فوائد هاتين الآيتين**: بيان شدة بطش آل فرعون لبني إسرائيل حين كانوا يمارسون معهم هذا الإذلال العظيم؛ وذلك بذبح الأبناء واستبقاء النساء؛ فإن ذلك أكبر إذلال للشعوب، أن يذبح رجالها، وتبقى نساؤها.

٣- **ومن فوائد هاتين الآيتين**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبتلي عباده ـ أحيانًا ـ بالمصائب؛ ليعلم من يكون صابرًا ومن يكون ضاجرًا، وأحيانًا بالنعم؛ ليعلم من يكون شاكرًا ومن يكون بطرًا، ولله ـ سبحانه وتعالى ـ في خلقه شئون، والمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له؛ قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا المؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر

فكان خيرًا له»[١].

٤ـ ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات الحكمـة لله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ فـيما يقدره على عباده، وهذا من مقتضى اسمه «الحكيم»؛ فـإن الله ـ سـبحانه وتعالى ـ حكيم فيما يقدره، وفيما يشرعه؛ وبـه نعـرف أنـه لا يمكـن أن يشرع شيئًا عبثًا، أو أن يقدر شيئًا عبثًا؛ قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، ولكـن أحيانًـا تخفـى الحكمـة علينا؛ لقصور أفهامنا، أو لتقصيرنا في طلـب الحكمـة، ولكـن هـذا لا يمنعنا من تمام الإيمان بـأن الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ ذو حكمـة، وأنـه لا يفعل شيئًا ولا يشرع شيئًا إلا لحكمة عظيمة.

٥ـ ومن فوائد هاتين الآيتـين: أن بـلاء الله ـ أي: ابـتلاءه ـ يتنـوع؛ فمنه ابتلاء يسير، ومنه ابتلاء عظيم، وذلك حسب ما تقتضيه الحكمـة؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يبتلي من هو قليل الـصبر وقليـل الـشكر ببلاء يسير يُنَاسِبُ حاله، ويبتلي من هو قوي على الـصبر وعـلى الـشكر ببلاء أعظم؛ ليكون ذلك مناسـبًا لحالـه؛ ولهـذا جـاء في الحـديث عـن رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثُمَّ الأمثلُ، فالأمثـلُ...»[٢]،

(١) سبق تخريجه ص(٣١).

(٢) رواه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٢٣)؛ والدارمي (٢/ ٣٢٠).

والواقع شاهد على ذلك؛ فإن الابتلاء الذي يجريه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الأنبياء أعظم من الابتلاء الذي يجريه على من دونهم.

٦- **ومن فوائد هاتين الآيتين**: بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كيفية إنجاء بني إسرائيل وإغراق آل فرعون؛ وذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل هذا البحر الذي هو من الماء السائل واقفًا كالطود العظيم، في ضربة واحدة من موسى؛ أوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه؛ فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم؛ أي: كالجبل العظيم.

وقد ذكر بعض الناس أن الله جعل في هذه الكتل المائية؛ جعل فيها فرجًا ينظر الناس بعضهم إلى بعض؛ ليطمئن بعضهم على البعض الآخر.

٧- **ومن فوائد هاتين الآيتين**: أنه من كمال طمأنينة العبد أن يرى عدوه أمامه وقد هلك؛ كقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ فإن الله لو أغرق آل فرعون أو أصابهم بعذاب لم يشاهده بنو إسرائيل لم تكن طمأنينة بني إسرائيل على هلاك فرعون وقومه كما لو كانت وهم ينظرون.

٨- **ومن فوائد هاتين الآيتين**: الرد على الذين بهرتهم صنائع أعداء الله اليوم، وغرَّتهم حتى ظنوا أنه لا يمكن الانتصار عليهم، بل ربما

يتهكم بعضهم إذا قيل لهم: إننا لو رجعنا إلى دين الله حق الرجوع لانتصرنا على أعدائنا مهما بلغت قوتهم، فإننا نقول لهم: انظروا كيف كان هذا البحر طريقًا يبسًا في لحظة واحدة، وفتح الله فيه اثني عشر طريقًا بضربة واحدة بعصا موسى ﷺ، ثم بقيت كتل الماء كأنها جبال، وأغرق الله ـ تعالى ـ عدو بني إسرائيل وهم ينظرون إليهم، ثم انظروا ـ أيضًا ـ ما فعل الله ـ تعالى ـ بعادٍ من الريح العاصفة المدمرة، وما فعل الله ـ تعالى ـ بثمودٍ قوم صالح؛ حيث أخذتهم الصيحة؛ فأصبحوا في دارهم جاثمين، فنحن لو صدقنا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لهيأ لنا من أسباب النصر ما لا يخطر على البال.

* * *

ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

في هاتين الآيتين يُذكِّر الله ـ تعالى ـ بني إسرائيل بنعمته عليهم بهذا العفو العظيم؛ وذلك أن الله ـ تعالى ـ واعد موسى ﷺ ثلاثين ليلة، فأتمها بعشر؛ فصارت أربعين ليلة، فلما تأخر موسى ﷺ عن الموعد الذي ذكره لبني إسرائيل؛ فتنوا بعبادة العجل، وذلك أنهم صنعوا من الحلي من الذهب تمثالًا على هيئة العجل، وهو ولد البقر الصغير،

وجعلوه على شكل خوار كخوار العجل، وأضلهم السامري؛ فقال لهم: إن موسى نسي، وإن ربكم هذا العجل، وهو إلهكم وإله موسى؛ فعبدوا العجل وصاروا يعبدونه من دون الله، وذكَّرهم هارون أخو موسى ﷺ بأن إلههم هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقال: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠]، ولكنهم أصروا وأبوا وقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]، فبقوا يعبدون هذا العجل حتى رجع إليهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولما رجع إليهم موسى ﷺ قال: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فجعل الله ـ تعالى ـ من توبتهم أن يجتمعوا جميعًا، ويأخذوا السكاكين والخناجر، ويقتلوا بعضهم بعضًا، ويصبروا على هذه المحنة العظيمة، فلما فعلوا ذلك؛ تاب الله عليهم؛ فهنا يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ معتدون في حق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث اتخذتم هذا العجل الذي صنعتموه بأيديكم إلهًا تعبدونه من دون الله، ولكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ذكَّرهم النعمة عليهم؛ حيث عفا عنهم من بعد ذلك؛ لعلهم يشكرون الله على نعمه، ويتوبون إليه، ويعودون إليه.

فوائد هاتين الآيتين:

١ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ واعد موسى ثلاثين ليلة، ثم أتمها حتى صارت أربعين ليلة، ووعد الله له ثلاثين ليلة مأخوذ من آية أخرى، لكنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مدَّ المدة لحكمة أرادها ـ سبحانه وتعالى.

٢ـ **ومن فوائدهما**: إثبات كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؛ فإن هذا الوعد لابد أن يكون بوحي أو بكلام من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لموسى.

٣ـ **ومن فوائدهما**: أن بني إسرائيل حين اتخذوا العجل من بعد موسى كانوا عالمين بأنهم على غير هدى؛ لأنهم ظالمون؛ فإنهم كانوا يعبدون الله من قبل، وذكَّرهم هارون بأن ربهم الرحمن ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكنهم أصروا واستمروا على ما هم عليه.

٤ـ **ومن فوائدهما**: أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عفا عنهم بعد هذه الفعلة القبيحة والذنب العظيم؛ لعلهم يشكرون الله.

٥ ـ **ومن فوائدهما**: أن الإنسان إذا مَنَّ الله عليه بالعفو ووفَّقه للتوبة فإنه يجب أن يشكر الله على هذا التوفيق، فكم من إنسان حُرم التوبة وأَصَرَّ على ما هو عليه من الذنب حتى هلك.

٦ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين**: إثبات الحكمة لله ـ سبحانه وتعالى ـ

في أفعاله؛ لقوله: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فإن «**لَعَلَّ**» ـ هنا ـ للتعليل، ولا ريب أن جميع أفعال الله مقرونة بحكمته، وكذلك تشريعاته مقرونة بحكمته؛ لأنه ـ جل وعلا ـ لا يفعل شيئًا سفهًا، ولكن الحكمة إما أن تكون معلومة لنا، وإما أن تكون مجهولة؛ لقصورنا عن إدراكها، أو تقصيرنا في طلبها.

وقبل أن أنهي الكلام عن هاتين الآيتين أنبه إلى أننا ذكرنا في أول الكلام عن الفوائد أن فيهما دليلًا على إثبات كلام الله، والحقيقة أن هذا قد لا يؤخذ من هاتين الآيتين على وجه يسلم من الاعتراض، ولكن يؤخذ من القصة في موضع آخر؛ حيث قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ومذهب أهل السنة والجماعة في كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه حق على حقيقته، وأنه ـ تعالى ـ يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء، يتكلم بحرف وصوت يسمعه من كلمه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ولهذا تجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه القصة لما كَلَّمَ موسى قال له موسى: ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وفي هذه القصة دليل على أن كلام الله يتعلق بمشيئته، وليس كما أطلقه بعضهم قديمًا أزليًّا، بل إن الصواب في ذلك أن كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ باعتبار أصله وجنسه ـ أزلي أبدي لم يزل ولا

يزال متكلمًا ـ سبحانه وتعالى ـ، وأما باعتبار آحاده؛ فإنه متعلق بمشيئته متى شاء تكلم بما يشاء، هذا هو الذي مشى عليه أهل السنة والجماعة.

* * *

ثُمَّ قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

في هذه الآية يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن نبي الله موسى ﷺ أنه وعظ قومه هذه الموعظة العظيمة بهذا التلطف العظيم: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾، وأي ظلم أشد من أن يتخذ الإنسان مع بارئه وخالقه إلهًا يعبده؛ فإن هــذا أظلم الظلم؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

فأعظم الظلم أن يجحد الإنسان حقَّ ربه حتى يجعل حقَّه لغيره، فيعبد غير الله مثلما يعبد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على لسان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾؛ أي: ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته، ومن الإشراك به إلى توحيده، ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: ليقتل بعضكم بعضًا، وإنما عَبَّرَ بقتل النفس؛ لأن المؤمن أخو المؤمن، فكأنه هو نفسه؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في قصة الإفك: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ

هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: ١٢]، فأخوك المؤمن بمنزلة نفسك، ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على لسان موسى عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾؛ أي: توبتكم إلى الله بقتل أنفسكم ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾، وكل إنسان يحب أن يكون له الخير عند بارئه ـ تبارك وتعالى ـ؛ لأنه خالقه المدبر له كما يشاء، فلما قتلوا أنفسهم تاب الله عليهم؛ إنه هو التواب الرحيم.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ أن موسى عليه السلام ذكَّر قومه بهذه الفعلة القبيحة، وبما مَنَّ الله عليهم به من التوبة إليه، والتوبة عليهم.

٢ـ **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعية أن يتلطف مع من يدعوه، وأن يذكر الألفاظ التي تكون سببًا في إقبال المدعو على الداعي وتقبله ما يوجهه إليه من النصيحة؛ لأنه قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أنه ينبغي لمن ذكر الداء أن يذكر الدواء؛ فإن موسى ـ عَلَيۡهِ السَّلامُ ـ لما ذكر أنهم ظلموا أنفسهم عرض عليهم الدواء بالتوبة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهكذا ينبغي للداعية إذا ذكر الداء والأمراض التي في المجتمع أن يذكر لهم الدواء وطريق الخلاص منها حتى يجمع بين الأمرين.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية:** بيان سفه بني إسرائيل الذين عبدوا عجلًا صنعوه بأيديهم من الذهب، وعرفوا أنه تمثال، وأنه لا يستحق

من الربوبية شيئًا، ومع ذلك عبدوه، وهذا دليلٌ على سفههم.

٥ـ **ومن فوائد هـذه الآيـة:** وجـوب التوبـة إلى الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾، وله اليوم ـ أيضًا ـ وجـوب التوبـة إليـه؛ حيث إنه هو البارئ الذي خلق؛ فله الحق علينا أن نفر من معـصيته إلى طاعته، والتوبة لابد فيها من شروط خمسة:

الشرط الأول: أن يخلص العبدُ التوبة لله ـ عَزَّ وَجَـلَّ ـ، وأن يكـون الحامل له عليها خوف الله، ورجاء ثوابه، والخلاص من الـذنب الـذي وقع فيه.

الشرط الثاني: الندم؛ بحيث يتحسر على ما حصل منـه مـن ذنـب، فلا يكون الأمر عنده على حد سواء، بل يتأسف ويتندم على ما حـصل منه من الذنب.

الشرط الثالث: أن يقلع عـن الـذنب في الحـال؛ فـإن كـان متلبـسًا بمحرم تركه، وإن كان تاركًا لواجب أتى به إن كان يمكن تداركه، وإن لم يمكن تداركه أتى ببدله إن كان له بدل، وإلا كفته التوبة.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب في المـستقبل، فأمـا إن قال: أنا تائب إلى الله، وفي نيته أنه متى سنحت لـه الفرصـة عـاد إلى الذنب؛ فإنه ليس بتائب حقيقة.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبلُ فيه التوبة؛ وذلك بأن يكون قبل طلوع الشمس من مغربها وقبل حضور الأجل؛ لأنه إذا طلعت الشمس من مغربها فلا توبة، وإذا حضر الأجل فلا توبة؛ قال النبي ﷺ: «لا تنقطعُ الهجرةُ حتَّى تنقطعَ التوبةُ، ولا تنقطعُ التَّوبةُ حتى تطلعَ الشمسُ مِنْ مغربها»[1]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان منة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على هذه الأمة؛ حيث جعل توبة بني إسرائيل بهذا الثقل وهذه الآصار، وأنه لا تتحقق توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، أما هذه الأمة ـ ولله الحمد ـ فإن التوبة تحصل بدون ذلك، تحصل بما ذكرنا من الشروط، وإن لم يحدث الإنسان ضررًا على نفسه.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإقلاع عن الذنب والتوبة إلى الله منه خير من الاستمرار عليه، بل قد يكون الإنسان بعد التوبة خيرًا منه قبلها؛ أي: أن الإنسان إذا أذنب ثم تاب إلى الله؛ فإنه قد تكون حاله بعد التوبة من هذا الذنب خيرًا من حاله قبل أن يذنب؛ ألم تر إلى آدم ـ

(١) أخرجه أحمد برقم (١٦٤٦٣)؛ وأبوداود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

عليه الصلاة والسلام ـ حين أكل من الشجرة، قال الله ـ تعالى ـ في حقه: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، فحصل له الاجتباء والهداية بعد أن تاب من تلك المعصية.

٨ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان منة الله على عباده؛ حيث يقبل منهم التوبة إذا صدقوا الله ـ تعالى ـ في التوبة؛ ولهذا لما صدق بنو إسرائيل في التوبة، وقتلوا أنفسهم؛ تاب الله عليهم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: قَبِلَ توبتهم وعفا عنهم.

٩ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات هذين الاسمين الكريمين لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ وهما «التواب» و«الرحيم»، وأن من مقتضاهما أن يتوب الله ـ سبحانه وتعالى ـ على من تاب ويرحمه؛ فالتواب كثير التوبة على عباده، فما أكثر ما تاب الله على عباده، وما أكثر الذين يتوبون إلى الله؛ فيتوب الله عليهم، أما الرحيم فهو ذو الرحمة المقتضية للإحسان إلى الخلق إحسانًا عامًّا؛ كما في الرحمة العامة، وإحسانًا خاصًّا؛ كما في الرحمة الخاصة.

واعلم أن الرحمة تنقسم على قسمين: رحمة عامة، ورحمة خاصة؛ فالعامة هي الشاملة لكل الخلق، مؤمنهم وكافرهم، بَرّهم وفاجرهم، والرحمة الخاصة هي الرحمة بالمؤمنين؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَانَ

بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وهذه رحمة خاصة تتصل بها سعادة الدنيا والآخرة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات يُذَكِّرُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بني إسرائيل بما جرى منهم، وبما كان من إحسان الله ـ تعالى ـ إليهم؛ فأمَّا الذي جرى منهم، فإنهم قالوا لموسى وهو يكلِّم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما شاء الله من الوحي، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾؛ أي: لن نؤمن لك أنك تكلم الله حتى نرى الله جهرة؛ أي: عيانًا، وهذا غاية في العناد، والاستكبار، والتكذيب، فلما قالوا هذه المقالة العظيمة صعقوا، أخذهم الموت فماتوا جميعًا، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مَنَّ عليهم فبعثهم؛ أي: أحياهم من بعد موتهم؛ لأن موسى دعا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ففرَّج الله عنهم ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ

أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ فبعثهم الله من بعد الموت؛ لعلهم يشكرون هذه النعمة إذا ذكروه.

والشكر هو القيام بطاعة المنعم، وليس الشكر مجرد قول القائل: أشكر الله؛ لأن القول باللسان ـ إن لم يصدقه العمل والاعتقاد ـ صار قولًا لا فائدة منه.

قال أهل العلم: والشكر يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ فأما شكر القلب: فأن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من فضل الله وحده، وليست بحول المرء وقوته، وأما شكر الله باللسان: فالتحدث بهذه النعمة؛ إظهارًا لفضل الله لا افتخارًا على عباد الله، ويشمل ـ أيضًا ـ جميع ما يتكلم به العبد مما يقرب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأما الشكر بالجوارح: فأن يقوم الإنسان بالعمل الصالح بجوارحه: اليدين، والرجلين، والعينين، وغير ذلك من أعضائه وجوارحه، وفي هذا يقول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجب

ثم يذكِّرهم الله ـ تعالى ـ نعمة ثانية بعد أن أحياهم من تلك الصعقة، وهي أنه ظلَّل عليهم الغمام من حر الشمس، فصاروا في ظل بارد؛ والغمام ـ كما قال أهل العلم ـ: هو السحاب الأبيض الحاجب من حر الشمس، ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ فالمن طعام يجدونه

منتشرًا على رءوس الشجر كأنه العسل، فيأكلونه، والسلوى هو الطائر المعروف بالسمانة، وهو من ألذ الطيور لحمًا، وسمي المنُّ منًّا؛ لأنه يحصل بدون تعب ولا مشقة، ومنه الكمأة؛ وهي الفقع؛ لقول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الكمأةُ مِنَ المنِّ، وماؤها شفاء للعين»[1]، وهي وإن لم تكن مِنَ المنِّ الذي نزل على بني إسرائيل، فهي مِنَ المنِّ بالمعنى العام؛ لأنها توجد في الأرض بدون غرس، ولا بذر، ولا تعب في سقي وغيره.

ثم امتنَّ الله عليهم منة ثالثة بأن يَسَّرَ لهم أكل هذه الطيبات؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾، وهذه منَّةٌ ثالثة؛ لأن الإنسان ربما يتيسَّرُ له الطعام والشراب، ولكن لا يتمكن من أكله وشربه لعلة فيه، فلا يحصل به كمال المنة، وربما يحرم من الطعام والشراب لقلتهما، المهم أن إيجاد الطعام أو الشراب نعمة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأَنَّ قدرة الإنسان على تناول الطعام والشراب وتلذذه بذلك، وانتفاعه به من نعمة الله ـ تعالى أيضًا؛ ولهذا قال: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾؛ أي: من طيبات ما أعطيناكم.

ثم قال: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾؛ أي: ما ظلمونا بمعاصيهم؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن يعبأ بأحد، ولن

---

(١) رواه البخاري: كتاب الطب، باب المن شفاء للعين، رقم (٥٧٠٨).

يتضرر بمعصية العاصين، ولن ينتفع بطاعة الطائعين؛ كما جاء في الحديث القدسي:«يا عبادي، إنكم لن تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني»(١).

﴿ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾؛ أي: ولكن كانوا يظلمون أنفسهم؛ فالإنسان المفرط في حق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليس ظالمًا لله؛ لأن الله ـ تعالى ـ لا تنقصه ولا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين، ولكنه قد ظلم نفسه وهضمها ونقصها حقها؛ فإن النفس أمانة عند الإنسان يجب عليه أن يرعاها حق رعايتها، وألا يوقعها في المهالك.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ عتو بني إسرائيل، وشدة عنادهم وتكذيبهم؛ حيث قالوا لنبيهم وهم يسمعون كلام الله:﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾، وهذا غاية ما يكون في الطغيان والعناد.

٢ـ ومن فوائدها: أن الإنسان إذا فعل الجرم العظيم والمنكر الكبير فقد يعاجل بالعقوبة؛ ولهذا عاجل الله بني إسرائيل الذين قالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾، فعاقبهم بالصعق؛ فصعقوا في حال

---

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

قولهم هذا؛ ولهذا جاء بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾.

٣- **ومن فوائدها**: بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - على إحياء الموتى؛ حيث أحيا هؤلاء من موتهم؛ بدليل قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآيات**: أن الصاعقة أخذتهم وهم ينظرون؛ أي: ينظر بعضهم إلى بعض، يقع ميتًا حتى ماتوا عن آخرهم؛ أي: مات جميع من تكلموا بهذا القول، أو رضوا به في ذلك المكان.

٥- **ومن فوائدها**: أنَّ الله - سبحانه وتعالى - ينعم على العبد برفع الضرر عنه؛ من أجل أن يشكر نعمة الله؛ فإن أسباب شكر نعمة الله إما خير يجلبه الله لك، وإما شر يدفعه الله عنك، والذي حصل لهؤلاء دفع شر وحصول خير؛ دفع شر برفع الموت عنهم، وحصول خير بإحيائهم من بعد موتهم.

٦- **ومن فوائدها**: إثبات حكمة الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقد سبق مرارًا ما يدل على إثبات الحكمة في أفعال الله - تعالى - كما هي ثابتة فيما شرعه؛ ولهذا يختم الله - سبحانه وتعالى - كثيرًا من آيات الأحكام بالعلم والحكمة؛ كما في آية قسم الصدقات: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ

وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، وكما في آية المواريث: ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١].

٧ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾؛ ففي هذه الآية من الفوائد: بيان نعمة الله ـ تعالى ـ على بني إسرائيل بتظليلهم بالغمام من الحر، من حر الشمس؛ والغمام هو السحاب الأبيض، وهو من أبرد السحاب ظلًّا.

٨ـ **ومن فوائدها أيضًا**: بيان قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأن كل شيء يكون فبمشيئته؛ فالسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لا يجري إلا بأمر الله وتدبيره ـ سبحانه وتعالى ـ، ولا يخفى على كثير من الناس ما جرى للرجل الذي سمع قائلًا من السحاب يقول: اسقِ حديقة فلان، فنزل المطر على أرض، وسال الوادي إلى هذه الحديقة، فتابعه هذا الرجل الذي سمع الصوت من السحاب حتى وصل إلى صاحب الحديقة، وسأله ماذا يصنع فيها، فقال له: إني أقسم ريعها ثلاثة أقسام: فثلث أعيده فيها ـ يعني: يصلحها به ـ، وثلث لي ولعيالي، وثلث أتصدق به، ثم سأله صاحب الحديقة عن سبب سؤاله إياه، فأخبره أنه

سمع صوتًا في السحاب يقول: اسقِ حديقة فلان، ففي هذا دليلٌ على أن السحاب المسخَّر بين السماء والأرض يسير بإذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأمره.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** ما منَّ اللهُ به على بني إسرائيل من إنزال المن والسلوى، هذا الطعام الطيب اللذيذ الذي يأخذونه بدون كلفة ومشقة.

١٠ـ**ومن فوائدها:** أن الله ـ تعالى ـ أنعم عليهم بتيسير الحصول عليه والتمتع به؛ حيث قال: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾، وهذا الأمر للامتنان والإباحة.

١١ـ **ومن فوائدها:** أنَّ الله إنما أذن لعباده أن يأكلوا من الطيبات دون الخبائث؛ والخبائث كل ما حرمه الله على العباد، فهو خبيث، لا ينتفعون به، ولكن ربما يحرم الله على عباده بعض الطيبات؛ عقوبة لهم؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]، وقد يُحْرَمُ الإنسانُ من الطيبات لا تحريمًا شرعيًّا، ولكن بما يُصابُ به من الأمراض التي تجعله لابد أن يمتنع عن بعض المأكولات والمشروبات، وهذا نوعٌ من التحريم، لكنه تحريم كوني لا شرعي؛ فقد

يبتلى الإِنسان العاصي بأمراض تمنعه من التمتع بالطيبات التي أحلها الله له.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنَّ ما نتمتع به من مأكول ومشروب، فإنما هو رزق من الله، وعطاء منه، ومِنَّة، ليس بحولنا وقوتنا، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى ذلك في سورة الواقعة فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾ [الواقعة: ٦٣ـ ٦٧].

ومن المعلوم أننا لسنا الذين نزرعه وننميه، ولكن الذي يزرعه وينميه هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أما نحن فمنا السبب، والله هو المسبب ـ جلَّ وعلا ـ، ثم قال ـ تعالى ـ في سورة الواقعةُ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٦٨ـ ٧٣]، فإذا علم العبدُ أن ما يتمتع به من النعمة هو من رزق الله؛ أوجب له ذلك الشكر لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على هذه النعم، وأجب له أن يتبرأ من حوله وقوته بإيجاد هذه الأرزاق، وأوجب له أن يعرف قدر نعمة الله عليه بهذه الأرزاق، التي قد يكون كثير من الناس محرومًا منها.

١٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن ينقص ملكه معصية العاصين ولن يضره ذلك؛ لقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ فالإنسان ـ مهما كان عليه من معصية ـ فإنه لن ينقص الله شيئًا، ولن يضر الله شيئًا؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

١٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن العاصي ظالم لنفسه، معتدٍ عليها، غير قائم بما يجب لها؛ لأن نفسك أمانة عندك، فكما أنه يجب عليك أن تتوقى ما يضر بدنك حسًّا، فإنه يجب عليك أن تتوقى ما يضر دينك، ومن المعلوم أنه لا يجوز للإنسان أن يلقي بنفسه إلى التهلكة في الأمور الحسية؛ كالأشياء التي تضره في بدنه؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكذلك ـ أيضًا ـ لا يجوز له أن يلقي بنفسه إلى التهلكة فيما يضره في دينه، بل إن ما يضره في دينه أولى بالمراعاة مما يضره في بدنه؛ لأن ضرر الدين ضرر في الدنيا والآخرة، أما ضرر البدن فهو ضرر في الدنيا فقط.

١٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان قصور الآدمي، وأنه عدو نفسه، يظلم نفسه وهو لا يشعر أنه ظالم لنفسه؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه ينبغـي للإنـسان بـل يجـب عليه أن يتبصر، ويتيقظ، وينظر مـدى الخـسارة العظيمـة التـي تلحقـه بفعل المعاصي أو ترك الواجبات حتى يحمي نفسه من هذا الظلم وهـذا الضرر.

* * *

ثُمَّ قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ اللهُ بني إسرائيل بهذه النعمة التي أنعم اللهُ بها عليهم، ولكنهم كفروها، فيقول لهـم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وهذا القول يحتمل أن يكون قولًا كونيًّا أو قولًا شرعيًّـا، ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ وهي القرية التـي فتحوهـا، قيـل لهـم: ادخلوهـا، ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ حـــلالًا لكـــم، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ سُجَّدًا لله ـ تعالى ـ شاكرين له هذه النعمة العظيمة التي منحكم إياهـا، ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾؛ أي: قولـوا احطـط عنّـا ذنوبنـا، واغفر لنا؛ ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾؛ أي: نغفـر لكـم آثـامكم وذنـوبكم التي ارتكبتموها، وسنزيد المحسنين إحسانًا على التوبة، إذا أحـسنوا في

معاملة الله، ولكن كانت النتيجة أن بدَّل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم.

وقال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ولم يقل: «بدلتم»؛ إشارة إلى أنهم كانوا ظالمين فيما بدَّلوه؛ بدلوا قولًا غير الذي قيل لهم، قيل لهم: ادخلوا الباب سُجَّدًا، ولكنهم لم يدخلوا سُجَّدًا، بل دخلوا على أستاههم؛ أي: على ألياتهم وعجائزهم، وقيل لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾؛ أي: احطط عنا ذنوبنا، ولكن لم يقولوا ذلك، بل قالوا: حنطة؛ أي: سألوا طعامًا يملئون به بطونهم، فلم يسألوه مغفرة لذنوبهم.

قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أنزل على الذين ظلموا؛ أي: عليهم، ولكنه كرَّر الظلم تشنيعًا عليهم، ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: عَذَابًا من السَّماء، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ اللهُ -سبحانه وتعالى- بني إسرائيل بما أنعم عليهم من إباحة دخول هذه القرية فاتحين آكلين مما رزقهم الله أكلًا رغدًا لا شبهة فيه، ويُذَكِّرُهُمْ -أيضًا- بأنه أمرهم بما فيه مصلحتهم وحسن عاقبتهم، وهو أن يقولوا: «حطة»؛ أي: احطط عنا ذنوبنا واغفر لنا حتى يغفر لهم، ثم يذكرهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنهم بَدَّلُوا قولًا

غير الذي قيل لهم، فلم يدخلوا سُجَّدًا، ولم يقولوا: حطَّة ظلمًا، وعدوانًا، وإنكارًا لفضل الله ـ تعالى ـ عليهم ونعمته؛ فكانت عاقبتهم أن أنزل الله عليهم رجزًا من السماء؛ بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

ما يستفاد من هذه الآية الكريمة:

١ ـ مِنَّة الله عليهم؛ أي: على بني إسرائيل بما أباح الله لهم من دخول هذه القرية، وما أباح لهم من أكل ما رزقهم منها رغدًا ليس فيه حرج ولا تبعة.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: أن الله أمرهم بأن يدخلوا الباب سُجَّدًا؛ ويتفرع عن هذا مشروعية السجود، سجود الشكر عند تجدد النعم؛ كما هو المشروع في شريعتنا أن الإنسان إذا تجددت له نعمة، فإنه يُسنُّ له أن يسجد لله ـ تعالى ـ شكرًا؛ وسجود الشكر سجودٌ مجردٌ ليس صلاة، بل يكبر الإنسان ويسجد، ويقول: سبحان ربي الأعلى، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، ثم يثني على الله ـ تعالى ـ بما أنعم به من هذه النعمة، ويشكره عليها، ثم يرفع بدون تكبير ولا تسليم.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه ينبغي للإنسان إذا نصره الله ويسَّر له أسباب النصر ألا يغترَّ بنفسه، وألا يعجب بعمله، بل يسأل الله المغفرة، مغفرة الذنوب؛ حتى لا يشمخ، ويتعالى، ويترفع؛ لقوله

ـ تعالى ـ:﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله ـ تعالى ـ وعد من استغفر وطلب منه مغفرة الذنوب أن يغفر له؛ لقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾، وهذا مشروط بها إذا كانت التوبة نصوحًا، وقد مَرَّ علينا من قبل بيان التوبة النصوح؛ وهي التي جمعت خمسة شروط.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله ـ تعالى ـ يزيد المحسنين من فضله إحسانًا وفضلًا، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وكقوله ـ تعالى ـ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أكرم من عبده وأجزل عطاء؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

٦ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين**: أن بني إسرائيل من أبعد الناس عن شكر نعمة الله؛ ولهذا بدَّلوا قولًا غير الذي قيل لهم؛ فبدلوا قول الله لهم: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ بدَّلوه بأن دخلوا يزحفون على أستاههم وعجائزهم، وبدلوا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ بقولهم: «حنطة»؛ يعني: أنهم لم يهتموا بذنوبهم، وإنما كان همهم أمرًا ماديًّا، وهو أن يشبعوا بطونهم.

٧ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين**: أن من خالف أمر الله؛ فإنه حري بأن

يُعَـذَّبَ ويُعاقـب؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

٨- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبـات الحكمـة والعلـة لأفعـال الله، وأن أفعال الله ـ تعالى ـ مربوطة بحكمها وأسبابها؛ لقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ فـــإن قولـــه: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ كالتعليل لإنزال الرجز؛ أي: أنهم إنـما أُنـزل علـيهم الرجـز لظلمهـم، وعلة أخرى وهي فسقهم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

٩- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات الأسباب في المقتضيات لمسبباتها، وهذا ـ لا شك ـ من تمام حكمة الله أَنْ رَبَطَ الأشياء بأسبابها، وهـو دليل على أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا يخلق خلقًا عبثًا، ولا يشرع تشريعًا باطلًا؛ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

في هذه الآية الكريمة يُذَكِّرُ اللهُ ـ تعالى ـ بني إسرائيـل بهـذه النعمـة

العظيمة التي يجريها على يد نبيه موسى ﷺ؛ فبينما كان موسى وقومه محتاجين إلى الماء استسقى موسى لقومه، فسأل الله ـ تعالى ـ أن يسقيهم، فأمره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ يضرب بعصاه الحجر، فضرب الحجر؛ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، حجرٌ واحد نبعت منه اثنتا عشرة عينًا على عدد أسباط بني إسرائيل؛ فإنهم كانوا اثني عشر سبطًا، هذه العيون توزَّعت، فعلم كل أناس مشربهم، هؤلاء مشربهم هذه، وهؤلاء مشربهم هذه، وهؤلاء مشربهم هذه؛ لئلا يحصل التزاحم بينهم والتقاتل على الماء.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فأباح الله لهم ـ امتنانًا منه وفضلًا ـ أن يأكلوا ويشربوا من رزق الله، وأن يقيدوا هذه النعم بشكرها؛ فلا يعثون في الأرض مفسدين، وإفساد الأرض ليس الإفساد الحسي الذي يكون بتدمير الديار، وتخريب الآبار والحروث، ولكنه بالمعاصي؛ كما قال كثير من السلف في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، قال: لا تفسدوها بالمعاصي، ولا شك أن المعاصي سبب في الدمار والفساد الحسي؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ ولقوله ـ تعالى ـ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ - افتقار الخلق إلى الله، ولو كانوا أعلى أصناف الخلق وهم الرسل؛ ولهذا استسقى موسى لقومه، واستسقى أشرف الأنبياء محمد ﷺ لقومه حين دخل رجلٌ يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: «يا رسولَ الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادعُ الله يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه ورفع الناس أيديهم، وقال: «اللهمَّ أغثنا» ثلاث مرات، قال أنس بن مالك ـ وهو راوي الحديث «والله، ما نرى في السماء من سحابة ولا قزعة[1]، وما بيننا وبين سَلعٍ[2] من بيت ولا دار ـ وسلع جبل صغير في المدينة يخرج من نحوه السحاب ـ قال: فطلعت من ورائه سحابة مثلُ التُّرس ـ والترس شيء يتقي به المقاتل السهام حين القتال حتى لا تصيبه، وهو شيء يشبه الطست فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت»، فما نزل النبي ﷺ عن المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته، الله أكبر! فبقي المطر أسبوعًا كاملًا، وسالت الأودية حتى سال الوادي قناة ـ وهو واد مشهور في المدينة حتى الآن ـ شهرًا كاملًا، وفي الجمعة الثانية دخل رجل أو الرجل الأول والنبيُّ ﷺ يخطب ـ فقال: يا رسول الله، غرق المال وتهدم البناء، فادعُ الله يمسكها

(١) القزعة: هي القطعة من السحاب.

(٢) هو جبل معروف بالمدينة.

عنا، فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: «اللهمَّ حوالينا ولا علينا»، ولم يقل: اللهم أمسكها عنا كما طلب الرجل؛ لأن إمساك المطر ليس من مصلحة الإنسان؛ ولكن من مصلحته أن ينزل المطر على وجه لا ضرر فيه، فقال: «اللهمَّ حوالينا ولا علينا»، وجعل يشير إلى المناحي بيده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيتمايز السحاب حيث أشار النبي و، وخرج الناس يمشون في الشمس»[1].

ففي هذه القصة، وفي قصة موسى ـ صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم ـ دليلٌ على أن الخلق مفتقرون إلى الله مهما بلغت منزلتهم عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإن موسى قال الله عنه: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ومحمد ﷺ أعظم الناس وجاهةً عند ربه، ومع ذلك كل منهما مفتقر إلى الله، يسأله ويلجأ إليه، ويتضرع إليه، فإذا كان هذا مقام الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فما بالك بمقام من دونهم؟

ويتفرع عن هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان إذا أصابه الضر ألا يلجأ إلا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لا يلجأ إلى فلان وفلان من الأحياء أو الأموات فيدعوهم ويستغيثهم، ويسألهم كشف الضر؛ فإن دعوة غير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ شرك، شرك أكبر مخرج عن الملة؛ قال الله ـ تعالى ـ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة، رقم (١٠١٤)؛ ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٦٢]، ليس هناك إله مع الله يستطيع هذا.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان ما حصل من عـصا موسـى من الآيات؛ حيث ضرب بها الحجر فانفجر عيونًا، وهذه العصا حصل فيها ثلاث آيات عظيمة: إحدى الآيات: أنـه إذا ألقاهـا صـارت حيـة تسعى، والآية الثانية: أنه ضرب بها هذا الحجر فـانفجر عيونًـا، والآيـة الثالثة: أنه ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية**: بيان عظم قدرة الله ـ عَزَّ وَجَـلَّ ـ؛ حيـث تفجر من هذا الحجر ـ الذي ضربه موسى بالعـصا ـ اثنتـا عـشرة عينًـا والناس ينظرون، فهذا دليل على كمال قدرة الله، وأنه ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن؛ فيكون، قال أهـــل العلم: وما من آية لنبي إلا كان لنبينا ﷺ مثلها أو أعظم منها، إما على يد النبـي ﷺ مبـاشرة أو على يد أتباعه الذين صدقوا في اتباعه، قالوا: وهذا الماء الذي تفجَّرَ مـن الحجر لموسى ﷺ حصل لنبينا ﷺ ما هـو أعظـم منـه؛ فـإن النـاس في غزوة الحديبية أصابهم عطش وقلـة مـاء، فجـاءوا إلى رسـول الله ﷺ، وكان بين يديه ركوة ـ إناء مـن جلـد صـغير ـ فقـالوا: يـا رسـول الله، عطشنا ـ يعني: شكوا إليه قلـة المـاء ـ، فوضـع النبـي ﷺ يـده في هـذه

الركوة، وجعلت هذه الركوة تفور كأمثال العيون[1]؛ فارتوى الناس كلهم بإبلهم ورجلهم، وكانوا ألفًا وأربعمائة أو قريبًا من ذلك.

فخروج هذا الماء ونبوعه وفورانه من هذه الركوة أعظم من خروجه من الحجر؛ لأن الحجر جرت العادة أن تتفجر منه العيون؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [البقرة: ٧٤]، أما الركوة فلم تجر العادة أن تتفجر العيون منها، ولكن الله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي قسم الماء بين الناس عند الكثرة وتوزيعه عليهم؛ حتى لا يحصل الازدحام والاقتتال، والعداوة والبغضاء بينهم؛ لأن النفوس مجبولة على محبة الاستئثار بالشيء، فإذا توزَّعَ الشيء وصار كل طائفة لهم جهة معينة مخصوصة؛ كان ذلك أقرب إلى السلامة مما يترتب من الآثار السيئة على اجتماعهم على

---

(١) انظر البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٥٢)؛ ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، رقم (١٨٠٧).

مشرب واحد.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان ما امتنَّ الله به على بني إسرائيل من هذا الماء والطعام الذي أذن لهم في أكله وشربه؛ فقال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز إضافة الماء النابع إلى المختص به؛ لقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، وفي هذه الإضافة فائدة وهي أن صاحبه يكون أحق الناس به، ولا يزاحمه أحد عليه، أما جواز بيعه وعدمه فهذا له شأن آخر.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه يجب على المرء -إذا أنعم الله عليه نعمة- أن يجعل النعمة سببًا للقيام بطاعته، لا سببًا للأشر والبطر؛ ولهذا أعقب قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أعقبه بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ لأن الطبيعة البشرية إذا لم يؤيدها الله -تعالى- بالوحي من طبيعتها أن تحملها سعة الرزق على الأشر والبطر؛ ولهذا نَهَى بني إسرائيل عن العثو في الأرض فسادًا، حيث يسَّر لهم الأكل والشرب من رزق الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ ويتفرع على هذا أن يتذكر الإنسان، ويفكِّر فيما منَّ الله عليه من النعم؛ حتى لا يجعلها سببًا للأشر والبطر، ونسيان أوامر الله، والكفر بشريعة الله.

❊ ❊ ❊

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

في هذه الآية يُذَكِّرُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بني إسرائيل بما جرى لهم مع نبيهم موسى ﷺ حين قالوا له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، وهذا الطعام الواحد هو المن والسلوى الذي أنزله الله عليهم بدون كلفة وبدون مشقة، وهو من أطيب أنواع الطعام، لكنهم ـ والعياذ بالله ـ لم يصبروا على هذه النعمة، وطلبوا من موسى ﷺ أن يدعو لهم ربه؛ ليخرج لهم مما تنبت الأرض لا مما ينزل من المن والسلوى.

﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ﴾، كل هذه الأنواع من الأطعمة هي أقل بكثير ودون ما أنزل الله عليهم من المن والسلوى؛ ولهذا قال لهم نبيهم موسى ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾، وهذا الاستفهام للإنكار عليهم؛ يعني: كيف يليق بكم أن تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ أي: أن تأخذوا الأدنى بالأعلى، هذا لا يليق بكم، وإذا شئتم هذا الأدنى؛ فلا

حاجة إلى دعاء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يخرجه لنا.

﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾؛ أي: أيُّ مصرٍ تهبطونه تجدون هذا الشيء؛ لأن هذه أنواع منتشرة، ليست أنواعًا من أطيب الأنواع التي لا توجد إلا في محل دون محل، ولا يقدر عليها إلا واحد دون آخر، بل هي أنواع موجودة مبذولة؛ ولهذا قال: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾، وليس المراد مصر المعيَّنة؛ بل المراد: أيُّ مصر كان تهبطونه؛ فإنكم ستجدون ذلك، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾، ومن أجل عدم الصبر على طعام واحد، ومن أجل المعاصي العظيمة التي ارتكبوها؛ ضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسكنة، الذلة في القلوب، والمسكنة في الجوارح؛ فكانوا أذلَّ الناس، وأجبنهم، وأخوفهم؛ ولهذا تجد اليهود أذل الناس وأجبنهم؛ لأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: رجعوا بغضب من الله عليهم؛ حيث كفروا نعمته، وعصوا رسوله، ولم يصبروا على نعمه؛ قال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، وعلل ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ يكفرون بآيات الله الكونية والشرعية؛ ففي الآية الكونية: لم يصبروا على طعام واحد، ولم يقتنعوا بهذه الآية

العظيمة، ويشكروا الله عليها، أن أنزل عليهم المنَّ والسلوى، وفي الآية الشرعية: قيل لهم: «**قولوا حطة**» فبدلوا وقالوا: «**حنطة**»، وأُمروا فلم يأتمروا، ونُهوا فلم ينتهوا؛ فكفروا بآيات الله، وبسبب هذا الكفر وقتلهم النبيين بغير حق ضُرِبت عليهم الذلة والمسكنة، وكان هذا القتل للنبيين والكفر بآيات الله عصيانًا عظيمًا؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فكانوا عصاة معتدين، نسأل الله العافية.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- **في هذه الآية من الفوائد**: بيان سفه بني إسرائيل؛ حيث لم يصبروا على هذا الطعام الطيب الذي أنزله الله من السماء؛ تكريمًا لهم، وإتمامًا للنعمة، ولكنهم كفروا به وقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾.

٢- **ومن فوائدها**: جواز التَّوَسُّل بدعاء من تُرْجَى إجابته؛ فإن هؤلاء قالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾، وقد قررت شريعتنا هذا النوع من التوسل؛ فإن الناس كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يدعو الله لهم؛ كما في قصة الرجل الذي دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السُّبل، فادع الله يغيثنا[1]، وكما قال عكاشة بن محصن - حين تحدث النبي ﷺ: أنه يدخل من أمته سبعون ألفًا، يدخلون الجنة بلا

(١) سبق تخريجه ص (١٧٤).

حساب ولا عذاب، فقال عكاشة بن محصن: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «أنت منهم»[١].

فالتوسل إلى الله بدعوة من تُرْجَى إجابته جائز، ولكن هل هو أمر مطلوب أم لا؟ نقول: إن كان لأمر عام فهو أمر مطلوب؛ يعني: أنه يُسنُّ للإنسان أن يطلب أو أن يتوسل بدعاء مَنْ تُرجى إجابته في أمر عام للمسلمين؛ كما طلب عمر بن الخطاب -رَضِيَ الله عَنْهُ- من العباس بن عبد المطلب أن يستسقي للمسلمين[٢]، وكما في طلب الرجل الذي قال لرسول الله: «ادع الله أن يغيثنا...»، وأما إذا كان لأمر خاص فإن كان طالب الدعاء يريد بذلك ان ينفع المطلوب إذا دعا لأخيه بظهر الغيب؛ فإنه يكون محسنًا إليه ويُرجى أن تجاب دعوته، ويُعطى مثلها؛ لأن الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب؛ قال الملك: آمين ولك بمثلها[٣]، أما إذا قصد المتوسِّلُ بدعاء من تُرجى إجابته مصلحة نفسه الخاصة فهذا لا ينبغي، بل قد صرح بعض أهل العلم بأنه من المسألة

---

(١) انظر البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم (٦٥٤٢)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، حديث رقم (٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (٢٧٣٢).

المذمومة، وأنت أيها الأخ المسلم إذا أردت الدعاء فادع الله بنفسك، لا تعتمد على غيرك؛ لأن دعاءك الله عبادة، وربما يحدث لقلبك من الإنابة إلى الله، والرجوع إليه، والافتقار إليه ما هو أفضل بكثير من إجابة دعوتك التي تريد.

٣ـ **ومن فوائدها:** إثبات أن بني إسرائيل يؤمنون بأنه لن يقدر على إنبات الزرع وإخراجه من الأرض إلا الله؛ لأنهم قالوا لموسى ـ كما ذكر الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا﴾ الآية.

٤ـ **ومن فوائدها:** التوسل إلى الله ـ تعالى ـ باسم الرب عند الدعاء؛ لقولهم: ادع لنا ربك؛ ولهذا كان قول الداعي: يا رب، يا رب، من أسباب إجابة الدعاء؛ كما أشار إليه رسول الله ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب[1]، وكذلك إذا تأملت الدعاء المذكور في القرآن وجدت كثيرًا منه مصدرًا باسم الرب «يا ربنا».

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** انحطاط همم بني إسرائيل؛ حيث نزلوا من الأعلى إلى الأدنى؛ فطلبوا من موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يدعو الله أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من هذه الأنواع

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥).

التي تعتبر نازلة بالنسبة إلى المن والسلوى؛ ولهذا قال لهم نبيهم ﷺ كما ذكر الله ـ تعالى ـ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، وهذا يدل على سفههم وعدم صبرهم على ما مَنَّ اللهُ به عليهم.

٦ـ ومن فوائدها: جواز تفضيل الأطعمة بعضها على بعـض، وأنـه يجوز للإنسان أن يقول: هذا أدنى من هذا، أو هـذا أعـلى مـن هـذا، أو هذا أردأ من هذا، أو هذا أطيب من هذا.

٧ـ ومن فوائدها: أنه لا يلام الإنسان إذا اختار الأطيب من الطعام، ولا يُعَدُّ ذلك من بـاب الإسراف؛ فقد أقرَّت شريعتنا هذا؛ فإن النبي ﷺ جيء إليه بتمر طيِّب فسأل: «أكل تمر خيبر هكذا؟» قالوا: لا، والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا»[1]، وأرشدهم ﷺ إلى أن يبيعوا التمر الرديء بدراهم، ثم يشتروا بالدراهم تمرًا جيدًا، ولم ينههم عن اختيار التمر الطيب يقدمونه إلى رسول الله ﷺ، فإذا اختار الإنسان من الطعام أطيب الأنواع، وكانت حاله تتحمل هذا، ولا يُعدُّ ذلك سَرَفًا بالنسبة إليه؛ فإنه لا بأس به، ولا يُلامُ الإنسان عليه؛ بل هذا من باب التمتع

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠٢)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، رقم (١٥٩٣).

بنعم الله. والله ـ سبحانه وتعالى ـ يحب من عباده أن يتمتعوا بنعمه، وينهاهم أن يحرموا شيئًا من الطيبات على أنفسهم؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧]؛ وذلك لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ كريم؛ والكريم يحب أن يتمتع من يناله كرمه بكرمه.

٨ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما كان موجودًا مبذولًا لا يحتاج الإنسان أن يدعو الله ـ تعالى ـ لحصوله؛ لأن الدعاء في مثل هذا سفه؛ فإنه موجود بين يديك، ولكن ادع الله ـ تعالى ـ ببقائه، واستمراره، وألا يرفعه عنك؛ لأن هذه الدعوة في محلها، أما أن تقول: اللهم ارزقني كذا وكذا، وهو بين يديك فهذا لا وجه له؛ ولهذا قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾.

٩ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله ضرب على بني إسرائيل الذلة والمسكنة، فهم دائمًا في ذل، ودائمًا في مسكنة، حتى وإن اغتنوا؛ فإن قلوبهم فقيرة؛ ولهذا تجد اليهود أشد الناس طلبًا للمال وفناء في تحصيله؛ يحرصون على تحصيل المال بأي ثمن ولو بالطريق المحرم؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ

أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]؛ فهم أخَّاذون للربا، أكَّالون للسحت، ظالمون للعباد، فهذا دأب اليهود بالنسبة لأخذ المال، هم في مسكنة دائمة، وفي فقر دائم، لكنه فقر قلبي، وإن كان عندهم من الأموال عدد كثير.

١٠ـ ومن فوائد هـذه الآية الكريمة: حلول الغضب على بني إسرائيل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

١١ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله ـ تعالى ـ لا يظلم أحدًا، لكن الذي يظلم هو الإنسان نفسه؛ ولهذا لما ذكر الله عقوبتهم بضرب الذلة والمسكنة وحلول الغضب عليهم بَيَّنَ أن هذا بسبب كفرهم؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾، فكفرهم بآيات الله معصية عظيمة أكبر المعاصي، وكانت سببًا لضرب الذلة والمسكنة عليهم.

١٢ـ ومن فوائد هذه الآية: إثبات تعليل أفعال الله؛ أي: أن أفعال الله مُعللة؛ أي: مقرونة بالحكمة، فما من فعل يفعله الله ولا حكم يشرعه الله إلا مقرون بحكمته؛ ويتفرع على هذه الفائدة أنه كلما مرَّ بنا

شيء مقرون بمشيئة، فيجب أن نعلم أنها ليست مشيئة مجردة، وإنما هي مشيئة اقتضتها الحكمة، ويدل على هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[الإنسان: ٣٠]، فأشار الله ـ تعالى ـ في هذه الآية إلى أن مشيئته مقرونة بحكمته فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[الإنسان: ٣٠].

١٣ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن بني إسرائيل ـ مع عدوانهم في حق الله ـ معتدون على عباد الله؛ فهم يقتلون النبيين بغير الحق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس بغير الحق، وفي قوله: ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ تشنيعٌ عليهم، وأن قتلهم للأنبياء في غير محله؛ لأنه قتل بغير حق؛ فالصفة ـ هنا ـ ليست صفة مقيدة، وإنما هي صفة كاشفة موضحة أن قتل النبيين بغير حق، فيكون في هذا فائدة وهي زيادة التشنيع على بني إسرائيل بقتلهم النبيين.

١٤ – **ومن فوائد هذه الآية:** بيان عصيان بني إسرائيل واعتدائهم، وأنهم أصحاب معصية، واعتداء على الله، وعلى عباد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

في هذه الآية يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مُبيِّنًا كمال عدله، وأنه لا يضيع عمل عامل عَمِلَ صالحًا وآمن؛ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ وهم أتباع رسول الله ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾؛ الذين هادوا: هم أتباع موسى ﷺ، ووصفوا بهذه الصفة؛ لأنهم قالوا: إنا هُدنا إليك؛ أي: رجعنا إليك، والنصارى: أتباع عيسى بن مريم، وسُموا نصارى؛ إما نسبة إلى بلدة تسمى الناصرة، وإما من النصرة؛ لأن عيسى لما قال ـ كما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وأما الصابئون: فهم قوم لهم دين يتدينون به، وقيل: إن الصابئ في الأصل من لا دين له، ولكن الذين هادوا والنصارى والصابئين قُيِّدَ استحقاقهم الأجر بالإيمان بالله ﷺ اليوم الآخر، والعمل الصالح، أما المؤمنون فقد استحقوا هذا الوصف؛ فالقيد إن كان واردًا في حقهم فهو على سبيل التوكيد، وذلك أن الذين بقوا على اليهودية، والنصرانية، والصابئة بعد بعثة الرسول ﷺ ليسوا على حق، ولا يصدق عليهم أنهم مؤمنون بالله ﷺ اليوم الآخر؛ لأنهم لو آمنوا بالله ﷺ اليوم الآخر حقًّا لاتبعوا محمدًا ﷺ ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الذي كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، والذي كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فهم ـ أعني: اليهود، والنصارى، والصابئين بعد بعثة محمد ﷺ لا يصدق عليهم أنهم يؤمنون بالله ﷻ اليوم الآخر، ويعملون صالحًا إلا إذا اتبعوا محمدًا ﷺ؛ يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾؛ الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته؛ فمن أنكر الله فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بربوبيته فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بألوهيته فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بأسمائه وصفاته، فيثبتها على ما جاءت في كتاب الله ﷻ سنة رسوله ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل؛ فليس بمؤمن؛ إذن الإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء: الإيمان بوجوده، وبتوحيده في الربوبية، وبتوحيده في الألوهية، وبتوحيده في الأسماء والصفات.

وأما قوله:﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ فالعمل الصالح: هو الذي اجتمع فيه شرطان:

الشرط الأول: أن يكون خالصًا لله، لا يشوبه إشراك.

والشرط الثاني: أن يكون مُتَّبِعًا فيه رسول الله ﷺ؛ فلا يشوبه ابتداع؛ ولهذا لا يكون العمل عملًا صالحًا إلا إذا كان لله خالصًا، ولشرعه موافقًا؛ فإذا اجتمع الإيمان بالله جل وعلا، واليوم الآخر، والعمل

الصالح؛ ثبت الأجر.

والإِيمانُ باليوم الآخر يتضمَّنُ الإِيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فيشمل الإِيمان بما يكون في القبر من سؤال الملكين الميِّتَ عن ربه، ودينه، ونبيه، ومن عذاب القبر ونعيمه، وكذلك ما يكون يوم القيامة من الجزاء ثوابًا وعقابًا، وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتاب والسنة.

وأما **الأجر**: فهو الثواب على هذا العمل المبني على الإِيمان بالله ﷻ اليوم الآخر، وهو الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن قام بهذين الوصفين: الإِيمان والعمل الصالح؛ فإنه يأمن من كل خوف من مستقبل، وحزن على ما مضى.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأن من قام بالإِيمان والعمل الصالح؛ فإن له الأجر عند ربه، سواء أكان من المؤمنين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، أم من اليهود، والنصارى، والصابئين؛ فاليهود - مثلًا - حين كانت شريعتهم قائمة - إذا اتصفوا بالإِيمان والعمل الصالح - كان لهم أجرهم كاملًا مُوفَّرًا، وكذلك النصارى، وكذلك الصابئون، أما إذا كان دينهم منسوخًا؛ فإن الواجب عليهم أن يتحولوا عنه إلى الدين الناسخ، والملة الجديدة؛ ولهذا يعتبر اليهود كفارًا بالنسبة للنصارى؛ أي: كافرين بعيسى ابن مريم، ويعتبر النصارى كفارًا

بالنسبة لمحمد ﷺ؛ أي: كافرين بمحمد ﷺ، والكافر بمحمد ﷺ كافر حتى بنبيه؛ لأن الأنبياء قد بشروا به؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ـ١٩٧].

فمن كفر بمحمد ﷺ بعد بعثته؛ فإنه ـ حقيقة ـ لم يؤمن حتى برسوله؛ وعلى هذا فاليهود والنصارى والصابئون الموجودون اليوم لو قالوا: إنهم مؤمنون بالله ﷺ اليوم الآخر ويعملون عملًا صالحًا، فإننا نقول لهم: هذا لا ينفعكم؛ لأن الإيمان بالله ﷺ اليوم الآخر يستلزم الإيمان بمحمد ﷺ، والعمل الصالح لا يكون عملًا صالحًا إلا بموافقة شريعة محمد ﷺ، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا من المخلصين له، المتبعين لرسوله.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن العمل لا يثبت فيه الأجر إلا إذا كان عملًا صالحًا، والعملُ الصالحُ ـ كما أسلفنا ـ ما اجتمع فيه شرطان: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ ؛ فمن عمل عملًا يتضمن شيئًا من الشرك؛ فإن عمله ليس بصالح، وليس بمقبول عند الله؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ

(١) أي: القرآن الكريم.

بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ : أن الله قال: «أَنَا أَغْنى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعِي غيري؛ تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ»(١)؛ فمن تعبَّدَ لله عبادة يرائي فيها الناس؛ فإنها لا تُقبلُ منه؛ لأنها ليست عملًا صالحًا، ولكن ـ هنا ـ مسألة يشكو منها كثير من الناس؛ كثير من الناس يقول: إنني إذا هممت بعمل صالح أتاني الشيطان، وقال: إنك مراءٍ؛ فيقعدني عن العمل، فما الحل لهذه المشكلة؟

وجوابنا على هذا أن نقول: الحل لهذه المشكلة أن تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن تنتهي عن ذلك، وأن تستمر في عملك الصالح معرضًا عما يلقيه الشيطان في قلبك من أنك مُريدٌ للرياء، وفكِّر: فلو أنك سئلت هل أنت مراء بهذه العبادة؟ لقلت: لا، إذن لا يصدنك الشيطان عنها بهذه الوسوسة، فاستمر في العمل، ولا يهمنك ما يلقيه الشيطان في نفسك من وساوس.

ويشكو بعض الناس ـ أيضًا ـ أنه يدخل في العبادة ليس في قلبه رياء، ثم يحدث له الرياء في أثناء العبادة، فما الحل؟

جوابنا على هذا: أن يسعى في طرده، والتخلص منه، وأن يقبل على عبادة الله، ويعرض عما ألقى الشيطان في قلبه من الرياء، وهو إذا دافع

---

(١) سبق تخريجه (٢٠).

هذا الرياء؛ فإنه لا يضره، ولا يؤثر على عبادته.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية أيضًا**: أن العمل الذي لا يكون موافقًا لشريعة الرسول ﷺ لا يقبل حتى وإن كان بنية خالصة، ليس فيها شرك؛ لأن النبي ﷺ قال: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[1].

وبناء على ذلك فإن جميع العبادات البدعية التي يتعبد بها أهلها، مهما كثرت، ومهما أثرت من لين القلب ودمع العين فإنها لا تنفعهم عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأنها على غير صراط الله؛ وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فأي إنسان يتعبد لله عبادة قولية كانت أم فعلية فعليه الدليل على أن هذه العبادة ثابتة عن رسول الله ﷺ ، وإلا فإن عمله سيكون هباء، ويكون وبالًا عليه؛ لأنه ابتدع في دين الله؛ فقد قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكُمْ ومحدثات الأمور؛ فإن كلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[2].

والبدع ـ مهما حسنت في قلوب مبتدعيها ـ فإنها سيئة؛ لأن النبي ـ

---

(١) سبق تخريجه (٤٩).

(٢) رواه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)؛ والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢)؛ والدارمي (١/ ٤٤، ٤٥).

عليه الصلاة والسلام ـ قال كلمة عامة شاملة: «**كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ**»، ولم يستثن النبي ﷺ شيئًا، والبدع ـ وإن حسنت في قلوب مبتدعيها ـ فإنها شر؛ تفرق الناس في دين الله، وتجعل كل طائفة من الناس تضلل الأخرى، ويكون كل حزب بما لديهم فرحون، كما هو الواقع الآن؛ لما انتشرت البدع في الأمة الإسلامية، ومنذ زمن بعيد صارت الأمة الإسلامية متفرقة يضلِّلُ بعضها بعضًا، وربما يصل الأمر إلى أن يُكفِّرَ بعضهم بعضًا، فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾، [الأنعام: ١٥٩].

وإنني بهذه المناسبة أوجه النصيحة إلى إخواني المسلمين أن يحرصوا على أن تكون أعمالهم كلها مبنية على شريعة الله، على ما جاء عن رسول الله ﷺ ؛ فإن هديه خير الهدي، وما خرج عن هديه فهو ضلال، وفتنة، وبدعة، وأن يحرصوا ـ أيضًا ـ على الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فلا يفعلوا العبادة من أجل مُرَاءَاةِ الخلق أو سماع الخلق؛ لأن الخلق لا ينفعونهم، فلا ينفعهم إلا الخالق ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٤- **ومن فوائد هذه الآية**: الدليل على عظم الأجر على الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله ـ تعالى ـ أضافه إلى نفسه؛ فقال: ﴿فَلَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وما كان من عند الله فهو من عند الكريم العظيم، وعطاء الكريم العظيم يكون عطاءً عظيمًا.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان نعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على عباده بهذا الثواب؛ حيث جعله بمنزلة الأجر اللازم الذي لابد من إيفائه، وهذا من نعمة الله؛ فهو الذي تكفَّلَ بذلك، وكتب على نفسه أن من عمل صالحًا؛ فجزاؤه عند الله ـ تعالى ـ الأجر الذي يستحقه.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه بالإيمان والعمل الصالح يُطردُ الخوف ويُطردُ الحزن في الدنيا وفي الآخرة؛ ولهذا كان أشرف الناس صدرًا، وأنعمهم بالًا، وأشدهم طمأنينة؛ أي: أشدهم طمأنينة في القلب هم المؤمنون العاملون عملًا صالحًا؛ ولهذا قال بعض السلف: «**لو يعلم الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نَحْنُ فيه لجالدونا عليه بالسيوف**».

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

الخطاب هنا لبني إسرائيل؛ يُذَكِّرُهُم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما أخذ عليهم من الميثاق حين رفع فوقهم الطور ـ وهو الجبل المعروف ـ، وذلك بعد فسوقهم وعصيانهم، وأَمَرَهُم الله أن يأخذوا ما آتاهم من الشرع بقوة لا ضعف فيها ولا هوادة، وأن يذكروا ما في هذا الذي

آتاهـــم من المواعظ والأحكام؛ ليصلوا بذلك إلى تقوى الله ـ عَزَّ وَجَـلَّ ـ، ولكنهم تولوا بعد ذلك، ولولا أن الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ تـداركهم بفضله ورحمته؛ لكانوا من الخاسرين أبد الآبدين.

فوائد هاتين الآيتين:

١ـ تذكير الإنسان بما أنعم الله به عليه من النعم؛ ليذكر هذه النعمة فيشكر الله عليها، ولا سيما مع طول العهد وتناسي هذه النعم.

٢ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أخذ العهد والميثـاق عـلى بنـي آدم أن يوحدوه ويؤمنوا به، وذلك بما ركب فيهم من العقـول، وأنـزل علـيهم من الكتب، وأرسل إليهم مـن الرسـل؛ لقولـه ـ تعـالى ـ:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ﴾.

٣ـ بيان قدرة الله ـ عَزَّ وَجَـلَّ ـ وعظمتـه؛ حيـث رفـع هـذا الجبـل العظيم فوقهم؛ تخويفًا وإنذارًا، وهذه الأمة ـ أعني الأمـة المحمديـة ـ لم يكن فيها مثل هذا الإنذار، ولكن كان فيـهـا إنـــذار من نوع آخر؛ مثل كسوف الشمس، وخسوف القمر؛ فإن النبي ﷺ لمـا كـسفت الـشمس في عهده بيَّـن أن الشمس والقمر آيتان مـن آيـات الله؛ يخـوِّف الله بهـما عباده، وأنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فبـيَّـن النبي ﷺ أن الله يخوِّف بهما العباد؛ من أجـل أن يرجعـوا إلى ربهـم؛ ولهـذا شرع للنـاس الذين يرون الكسوف أو الخسوف أن يفزعوا إلى ذكر الله، واسـتغفاره، والصلاة، والصدقة، والعتق.

٤- **ومن فوائد هاتين الآيتين:** وجوب أخذ الإنسان بشريعة الله على وجه القوة التي ليس فيها ضعف ولا توان؛ لأن الإنسان إذا قابل أوامر الله بالضعف والتواني استولى عليه الشيطان، واستحوذ عليه حتى يوصله إلى تركها، والتواني في أوامر الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: التواني في فعل المأمورات بأن يتكاسل في فعل الواجبات، ويتراخى في فعل المندوبات؛ فيضعف إيمانه بذلك وينقص.

والثاني: الضعف في ترك النواهي؛ بحيث يضعف الإنسان أمام الشهوة الدافعة إلى فعل المعصية، وأعني بالشهوة شهوة الإرادة لا شهوة الجنس، وشهوة الجنس تكون ـ بلا شك ـ أحيانًا ـ من الشيء المحرم إذا كانت على غير الأزواج وما ملكت اليمين، المهم أن الضعف كما يكون في فعل الأوامر يكون كذلك في ترك النواهي؛ بحيث يضعف الإنسان أمام شهوات نفسه؛ فيعجز عن كبحها عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عليه.

٥- **ومن فوائد الآيتين الكريمتين:** وجوب ذكر ما في الكتب المنزلة من الوحي، وذكره على نوعين أيضًا: **النوع الأول:** أن يُذْكَرَ باللسان؛ وهذا يكون بتلاوة ما يُتلى، وتعليم ما يُعَلَّمُ، **والثاني:** أن يُذْكَرَ بالعمل؛ وذلك بالتطبيق؛ فإن تطبيق أوامر الله لا شك أنه ذكر له.

٦- **ومن فوائد هاتين الآيتين:** أن أخذ الشرائع بالقوة وذكر ما فيها على حسب النوعين السابقين يكون سببًا للتقوى؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والتقوى مأخوذة من الوقاية؛ وهي أن يتقي الإِنسان عـذاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد فُسِّرَت التقوى بتفاسير متعددة، لكنها لا تخرج عما ذكرنا؛ وهـي فعـل أوامـر الله ﷺ اجتنـاب نواهيه ـ تبارك وتعالى ـ؛ لأن الوقاية من عذاب الله لا تكون إلا بذلك.

٧- **ومن فوائد الآيتين الكريمتين:** إثبات الأسباب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ فإن «لعل» ـ هنا ـ للتعليل، والعلة: السبب، والناس في الأسباب انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

قسم أَفْرطوا فيها، وقسم فرَّطوا فيها، وقسم وسط.

فأما الذين أفرطوا فيها ـ أي: بالغوا وغالوا ـ؛ فإنهم أثبتوا الأسباب وجعلوها هي الفائدة المؤثرة التي لا يمكن أن يتخلف المُسَبَّبُ فيها عن السبب.

وأمَّا الذين فَرَّطوا في الأسباب؛ فهم الذين قالوا: إن الأسباب ليس لها تأثير في مسبباتها، وإن الذي يحصل بهذه الأسباب لم يكن بها، ولكنـه عندها؛ مثال ذلك: لو انكسرت زجاجة بحجر رُميت به، فعند القـسم الأول الذين أفرطوا في إثبات الأسباب يكون انكسار الزجاجة بها أمرًا طبيعيًّا لابد منه، وعنـد الآخـرين لم يكـن الانكـسار بـسبب اصـطدام الحجر بالزجاجة، وإنها كان عند اصطدام الحجر بالزجاجـة لا بـه، ولا شك أن هذين القولين بعيدان عن الصواب، وأن الصواب هـو القـول الثالث الوسط، الذين أثبتوا الأسباب وتأثيرهـا في مـسبباتها، ولكـنهم

جعلوا ذلك مما خلقه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيها من القوة؛ فهي لم تنفرد بالتأثير، ولكن خلق الله فيها هذا التأثير؛ **ويدل لذلك السمع والعقل.**

فأما السمع؛ فإن الآيات والأحاديث في إثبات الأسباب وتأثيرها لا تكاد تحصى كثرةً.

وأما الواقع أو العقل؛ فإن الحسَّ شاهد بذلك؛ فكل إنسان يعرف أن انكسار الزجاجة لرميها بالحجر، إنما كان بالحجر لا عند اصطدامه بها؛ ولهذا لو وضعت الحجر عليها وضعًا؛ لم يكن له تأثير فيها، ويدل على أن الأسباب لا تفعل بنفسها ولكنها تؤثر بما أودع الله فيها من القوة، أن النار المحرقة الحارة حين أمرها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم كانت بردًا وسلامًا عليه؛ فإن إبراهيم أُضرمت له نار كبيرة عظيمة وأُلقي فيها، حتى إن بعض العلماء قال: إن قومه لما أرادوا أن يلقوه في النار لم يتمكنوا من القرب منها فوضعوه في منجنيق ورموه بواسطته إلى النار، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ فكانت بردًا وسلامًا عليه، ولم تؤثر فيه شيئًا، وهذا يدل على أن تأثير الأسباب ليس تأثيرًا ذاتيًا حتميًا لابد منه، بل بما خلقه الله فيها من القوة المؤثرة لا الفاعلة.

٨ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين أيضًا:** أن بني إسرائيل ـ بعد هذا الإنذار الشديد ـ لم ينتفعوا بما أنذروا به، بل تولوا من بعده، وهذا يدل على قسوة قلوبهم، وأنهم من أشد الناس طغيانًا وضلالًا.

٩ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** إثبات فضل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على بني إسرائيل، وما أكثر نعمه على بني إسرائيل، ولكنهم قوم لا يشكرون، بل كانوا يصفون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما يُنَزَّهُ عنه؛ كقولهم: «**يد الله مغلولة**»؛ قـال الله ـ تعـالى ـ : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[المائدة: ٦٤].

ووصفوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالفقر؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢].

١٠ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** أن الله ـ سبحانه وتعـالى ـ يتـدارك عبده بالفضل، قـال تعـالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

١١ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** تذكير آخر الأمة بما صنع أولها؛ لأنه إن كان خيرًا كان من الفضل أن يتبعوا من سبقهم فيـه، وإن كـان شرًّا كان من الحكمة والعقل أن يبتعدوا عنه، واستنبط بعضُ العلماء من هذا أن صنيع أول أمة يـصح أن ينـسب إلى آخرهـا؛ لأن الله خاطـب بنـي إسرائيل في عهد النبي ﷺ بما صنعه آباؤهم وأجدادهم، وهـذه الفائـدة محل نقاش ومحل تأمل.

١٢ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** أنه ينبغي للإنسان ألا يضيف ما مَنَّ

الله به عليه من فضل إلى مجرد فعله هو؛ فينسى بذلك نعمة الله ﷺ فضله، ويقع في الإعجاب بالنفس الذي هو محط كل شر.

*　*　*

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

يؤكد الله - سبحانه وتعالى - في هاتين الآيتين، في خطاب بني إسرائيل، في عهد النبي ﷺ أنهم قد علموا حال الذين اعتدوا منهم في السبت - وهو اليوم الذي كانوا يعظمونه -؛ وكان الله - سبحانه وتعالى - قد حَرَّمَ عليهم الصيد في هذا اليوم وابتلاهم؛ حيث كانت تأتيهم الحيتان في هذا اليوم شُرَّعًا، طافيةً على ظهر الماء، كثيرة، يسهل أخذها، وفي غير هذا اليوم لا تأتيهم الحيتان؛ فطال عليهم الأمد، وقالوا: لا يمكن أن ندع هذه الحيتان تأتي وترجع دون أن نصيدها، فعملوا لذلك حيلة؛ فوضعوا «شِبَاكًا» في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت وقعت في هذه «الشِبَاك»، وإذا كان يوم الأحد أتوا إلى الشِبَاكِ، فأخذوا ما فيها من الحيتان؛ فعاقبهم الله - تعالى - بهذه العقوبة العظيمة أن جعلهم قردة خاسئين - القردة: جمع قرد، والخاسئ: هو الذليل - بعد أن كانوا بشرًا سويًا ذا عناد ورفعة، فجعل الله هذه العقوبة نكالًا لما بين يديها للأمة المعاصرة لهم، وما خلف هذه الأمة الآتية بعدهم، وجعلها كذلك

موعظة للمتقين؛ أي: سببًا لاتعاظهم، وقد سبق الكلام عن التقوى.

في هاتين الآيتين يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بني إسرائيل الذين كانوا في عهد النبي ﷺ بما حدث لمن سبقهم من بني إسرائيل بما ذكر عن السبت.

فوائد هاتين الآيتين:

١ـ تذكير الأمة بما فعل سلفها؛ ليتخذوا منه عبرة.

٢ـ **ومن فوائدهما**: أن التَّحَيُّل على محارم الله لا يقلبها إلى حلال، بل إنَّ التَّحيُّلَ على المحارم لا يزيدها إلا قبحًا؛ لأن التحيُّل على المحارم فيه محذور فعل المحرم، ومحذور الخداع لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فيكون المُتَحَيِّل جامعًا بين فعل المعصية التي نهوا عنها وخيانة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وخداعه، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فأعظم فائدة تستنبط من هاتين الآيتين: هي أن التحيل على محارم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا يقلبها حلالًا؛ بل إن التحيل على المحارم لا يزيدها إلا قبحًا؛ لأن المتحيل يقع في محظورين:

المحظور الأول: أن يقع بفعل هذا المحرم في المحظور.

الثاني: المخادعة لله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ ولهذا نجد أن المنافقين أعظم ذنوبًا وأكبر جرمًا من الكافرين الصرحاء؛ كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

وبَيَّـنَ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أن المنافقين هم العدو الحقيقي الأكبر للمؤمنين؛ كما ذكره ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة «المنافقون» في قوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ ومن هنا نعلم أن الذين يتحيلون على الربا بالطرق الملتوية أشد إثمًا من الذين يأتون الربا على وجه صريح؛ لما في فعلهم من الوقوع في محظور الربا من وجهٍ ومن مخادعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ من وجهٍ آخر.

وهناك معنى ثالث في المخادعة؛ وهو أن المخادع يظن أنه على صواب، وأنه لم ينتهك المحرم؛ فلا يزال مستمرًا عليه، ولا يحدث نفسه بالتوبة منه، بخلاف الذي يأتي المحرم على وجه صريح؛ فإنه يرى نفسه مذنبًا مُقصِّرًا في حق الله؛ فيخجل من ربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وربما يأتي اليوم الذي يتوب فيه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فيكون الآتي للمحرم صريحًا أقرب إلى التوبة من المخادع الماكر؛ ولهذا لُعِنَ الرجل الذي يتزوج امرأة؛ لتحليلها لزوجها الأول؛ كما جاء في الحديث أن النبيَّ ﷺ «لعن المحلل والمُحَلَّلَ له»[1].

والتحليل هو أن الرجل يتزوج امرأةً طلَّقها زوجها ثلاثًا؛ من أجل

---

(١) رواه أبو داود: كتاب النكاح، باب في التحليل، رقم (٢٠٧٦)؛ والترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في المحلل والمحلل له، رقم (١١٢٠)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»؛ والنسائي: كتاب الطلاق، باب إحلال المطلقة ثلاثًا وما فيه من التغليظ، رقم (٣٤١٦)؛ وابن ماجه: كتاب النكاح، باب المحلل والمحلل له، رقم (١٩٣٤، ١٩٣٥)؛ والدارمي (٢/ ١٥٨)؛ وغيرهم.

أن يجامعها فيحلها لزوجها الأول، وهذا لا شك أنه مُحَرَّمٌ، وأنه لا ينفع؛ ولهذا قال أهلُ العلمِ: إنَّ الرجل إذا تزوج امرأة على سبيل التحليل؛ فإنها لا تحل للزوج الأول ولو أن الثاني جامعها؛ وذلك لأن نكاح التحليل نكاحٌ لا يُرادُ به حقيقته؛ فإنه إنما يريد أن يتزوج هذه المرأة؛ من أجل أن يجامعها ثم تعود إلى زوجها الأول، قال أهلُ العلم: ومع ذلك فإنها لا تحل للزوج الأول؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال في كتابه: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ﴾[1] [البقرة: ٢٣٠]

ونكاحُ التحليل ليس بنكاحٍ شرعي؛ لأنه نكاحٌ غير مقصود؛ فإن من المعلوم أن المقصود بالنكاح هو بقاء المرأة عند زوجها؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل من فوائد النكاح أن يسكن الرجل إلى زوجته وتسكن إليه، فإذا كان النكاح ليس نكاح رغبة، بل إنما تزوجها ليطلقها إذا أحلها للزوج الأول؛ فإن ذلك ليس بنكاح شرعي، وحينئذٍ لا تحلُّ للزوج الأول، وإنما نبهتُ على ذلك ـ وإن كان ولله الحمد قليلًا عندنا ـ؛ لأنه قد يخفى على بعض الجُهَّالِ؛ فيريدون فعل المعروف للزوج الأول، ولكنهم يسيئون إلى أنفسهم، ولا يفيدون الزوج الأول شيئًا؛ لأن الزوجة لا تحل للزوج الأول إذا كان النكاح الثاني نكاح تحليل لا رغبة.

---

(١) طلقها: أي: الطلقة الثالثة.

٣ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين**: أن العقوبة تكون مجانسة للعمل؛ كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فهؤلاء القوم ـ لما تَحيَّلوا على فعل المحرم بما ظاهره الإِباحة؛ حيث نصبوا الشباك في يوم الجمعة، وأخذوا الحيتان الواقعة فيه في يوم الأحد، وظاهر هذا الفعل أنهم لم يصطادوا في يوم السبت، وأنهم فعلوا فعلًا حلالًا؛ قلبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أقرب الحيوانات شبهًا بالإِنسان وهي القردة.

٤ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين**: أن قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينقسم إلى قسمين: قول كوني؛ كما في هذه الآية: ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾؛ فإن هذا القول كوني وليس بشرعي؛ لأنه ليس باستطاعتهم أن يقلبوا أنفسهم إلى قردة، ولكنه القول الكوني الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وأما القول الشرعي؛ فهو ما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فإن قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾: قول شَرعي يُؤمر به العبد ويمكنه امتثاله، والفرق بين القولين ـ الكوني والشرعي ـ أن القول الكوني لابد من نفوذه ووقوعه، أما القولُ الشرعي فإنه قد يمتثل المقول له وقد لا يمتثل، أما القول الكوني فلابد من وقوع مقوله بكل حال.

٥ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين**: إثبات القـول لله؛ فـإن الله ـ سـبحانه وتعالى ـ قائل ويقول، كما أنه متكلم ويتكلم، والكلام وصْفُهُ ـ سبحانه وتعالى ـ القائم به، وهو وصفٌ ذاتي فعلي؛ فـالكلام ـ باعتبـار أصـله ـ وصفٌ ذاتي لم يزل الله ﷻ لا يزال مُتَّصِفًا به، وباعتبـار آحـاده وصـفٌ فعلي يتكلم بما شاء متى شاء، وهذا هو مـا ذهـب إليـه الـسلف وأهـل السنة والجماعة من أن الكلام وصـفٌ لله ـ تعـالى ـ قـائم بذاتـه متعلـق بمشيئته.

٦ـ **ومن فوائدهما**: بيانُ قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث انقلب هـؤلاء البشر من الإنسانية إلى الحيوانية البهيمية؛ لقوله ـ تعـالى ـ: ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾؛ فكانوا قردة، ويبقى سؤالٌ يطرح نفسه؛ وهـو: هـل هـذه القـردة الموجـودة الآن مـن نـسل بنـي إسرائيـل أم هـي جـنسٌ مـن المخلوقات منفرد؟

وجوابنا على هذا أن نقول: هذه القردة الموجودة ـ الآن ـ جنس منفرد من مخلوقات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، مُستقلٌّ بنفسه، أما الَّذينَ قُلِبُوا قردةً من بني إسرائيل؛ فإنه ليس لهم نسلٌ، بل ماتوا، وهلكوا، وبادوا ـ كما قَرَّر ذلك أهلُ العلم ـ؛ وذلك أن بني آدم من آدم، وآدم خلقه الله ـ تعالى ـ من تراب، ثم قال له: كُنْ؛ فيكون؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

٧ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** تكذيبُ من زعم أن البشر أصلهم قردة، ثم تطوروا حتى صاروا بشرًا؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الإنسان قردًا ـ حينما أراد أن يعاقبه ـ؛ لمخالفته أمره، وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة الصريحة على أن آدم خُلِقَ من تراب، وأجمع على ذلك المسلمون، ولم يختلف فيه اثنان منهم، فمن اعتقد أن أصل بني آدم قردة؛ فإنه مُكَذِّبٌ بالكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين، فإن قالها عن جهلٍ ـ لكونه عاش في بيئة لا تعلم سوى ذلك ـ؛ فإنَّه يُعَلَّمُ، فإن أصرَّ على ما كان عليه؛ صار كافرًا، وإنْ لم يقلها عن جهل ـ بأن كان مقيمًا في بلاد المسلمين الذين يقرءون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإنه يكون كافرًا بمجرد قوله: إن بني آدم أصلهم قردة؛ لأن هذا تكذيبٌ صريحٌ لما عُلِمَ من دين الإسلام.

٨ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين:** أن من رام المرتبة بغير استحقاق لها؛ فإنه يعاقب بنقيض قصده؛ لأن هؤلاء الذين اعتدوا، واستكبروا، وتعالوا عوقبوا بنقيض قصدهم؛ عوقبوا بأن حُوِّلُوا إلى قردةٍ خاسئة ذليلة، وهكذا كان من أراد علوًّا في الأرض أو فسادًا؛ فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يصلح عمله، بل يحطه وينزله؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ومن تواضع لله رفعه، ومن تعالى على الله ﷻ ضعه؛ ولهذا كان الإنسان كلما تواضع للحق وللخلق؛ ازداد رفعة عند الله ﷻ عند الخلق ـ أيضًا.

٩ـ ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: إثباتُ العقوبة، وأن العقوبة لابد أن يكون لها تأثير؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، ووجهُ ذلك أن كل من اطَّلَعَ على حال هؤلاء، فلابُدَّ أن ينكل؛ أي: يمتنع عما كان عليه من الإثم والعدوان، سواء كان ذلك بترك الواجب، أو انتهاك المحرم، واعلم أن «الجعل» ـ الذي أضافه الله لنفسه ـ ينقسم إلى قسمين: قسم كوني وقسم شرعي؛ فمن الكوني قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١].

ومن الشـــرعي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ ﴾ [المائدة: ١٠٣]؛ أي: ما شرع هذه الأشياء.

١٠ـ ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أنَّ الموعظة إنما ينتفع بها المتقون؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾؛ فمن ليس بمتقٍ فإنه لا ينتفع بالموعظة، وكلما كان الإنسان أتقى لله كان أوعى للموعظة وأكثر انتفاعًا بها؛ وشاهِدُ هذا ظاهرٌ في المحسوس؛ فإنك تجد الرجل المتمادي في المعاصي، المنهمك فيها لا ينتفع بالموعظة والإرشاد، وتجد الرجل المستقيم المتقي إذا وُعِظَ انتفع، فإنْ كان في اتجاه إلى محرم عَدَل عنه، وإن كان متهاونًا في مأمور اتجه إلى فعله واستبق إليه.

١١ـ ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن للتقوى فوائد؛ منهـا: الموعظة؛ أي: الاتعاظ بما يحصل من الآيات، آيات الله الكونية أو آيات

الله الشرعية، وللتقوى فوائد كثيرة ذكرها الله ـ تعالى ـ في كتابه العظيم:

منها: أنها سبب لتيسير الأمور؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

ومنها: أنها سبب لتفريج الكربات؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ومنها: أنها سبب للهداية والنور؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾ [الأنفال: ٢٩]، فإذا كانت التقوى بهذه المثابة؛ كان لزامًا على العاقل أن يلتزم التقوى؛ حتى تحصل له هذه الفوائد العظيمة التي رُتبت عليها.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۝ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ۝ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا

كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٤].

في هذه الآيات الكريمة يُذَكِّرُ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ بني إسرائيل بهذه القصة الغريبة العجيبة التي وقعت من بني إسرائيل؛ وذلك أنَّهم قتلوا نفسًا، فاختصموا فيها، وتدارءوا فيها، وكل قبيلة تدعي أن القبيلة الأخرى هي التي قتلت هذه النفس، واشتبه عليهم الأمر؛ فارتفعوا إلى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾، ولكن لطغيانهم، وعتوهم، واستبعادهم ما عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ سخروا بموسى وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؛ أي: أتستهزئ بنا، فما شأن ذبح البقرة بهذه المشكلة، فقال لهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ الذين يجهلون حق البشر، أو الذين يعتدون على البشر؛ وذلك لأن الجهل قد يُرادُ به عدم العلم، وقد يُرادُ به العدوان؛ وهو الجهالة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء: ١٧].

ومن ذلك - أيضًا - قولُ النبي - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قولَ الزُّور والجَهْلَ والعَمَلَ بِهِ؛ فَلا حَاجَةَ لله في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ»[1]؛ يعني: الصوم، فالجهالة قد تكون بمعنى السفاهة، وسوء التصرف، والعدوان على الغير، وقد تكون بمعنى عدم العلم، فقول موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يحتمل المعنيين جميعًا، فلما رأوا موسى جادًّا فيما قالَ لم يمتثلوا - أيضًا - امتثالًا فوريًّا يدل على الانقياد التام، ولكنهم عاندوا بالاستفسار، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾؛ أي: ما سنها؟ وما عمرها؟ وهل هي كبيرة أو صغيرة؟

﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾؛ يعني: أنها لا كبيرة ولا صغيرة، ولكنها عوان بين ذلك، ثم أمرهم أن يفعلوا ما أمروا به، ولكنهم لم يفعلوا ولم يمتثلوا أمر نبيهم، بل إن ظاهر الآية الكريمة أن الأمر في قوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ صادر من الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؛ أي: أنهم لم يمتثلوا ولم يفعلوا ما أُمروا به، بل ذهبوا يستفسرون استفسارًا آخر عن اللون،

---

(١) رواه ابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، رقم (١٦٨٩) بهذا اللفظ، ورواه - بنحوه - البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم (١٩٠٣).

فقال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴾، قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إنه ـ أي: الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴾؛ فبيَّن اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنها بقرة صفراء، فاقع لونها ـ أي: واضح الصفار ـ، تسرُّ الناظرين بحسنها وجمالها، ولم يقتصروا على ذلك، بل طلبوا تفصيلًا آخر فقالوا ـ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾؛ يعني: أنهم تشابه عليهم البقر الصفر؛ لأنهم كانوا يشاهدون بقرات صفراء، فقالوا: فماذا يراد منا أن نذبح من هذه البقرات؟ قال موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾؛ أي: أنها بقرة لا تستعمل في الحرث لا سقيا ولا إثارة، لا تثير الأرض بحرثها، ولا تسقي الزرع القائم ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾؛ أي: لا عيب وإنما قال: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ بعد قوله: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾؛ لئلا يظنوا أنها بقرة هزيلة عجفاء ليس بها حراك، فقال: إنها: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾؛ أي: ليس فيها عيب، وحينئذ قالوا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: في هذا الحوار جئت بالحق.

وتأمل ماذا تدل عليه هذه الكلمة من الاستخفاف بموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبيان أنهم لن يقبلوا من أمره إلا ما ظنوا أنه الحق؛ حيث قالوا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ على الوصف الذي بيَّنهُ

اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على لسان موسى عليه السلام، ومع ذلك ذبحوها وهم لم يقاربوا فعل الذبح؛ أي: من أجل تأخرهم، وتوانيهم، وتكاسلهم عن تنفيذ ما أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾؛ أي: ذبحوها بعد أن كادوا؛ أي: قاربوا ألا يفعلوا؛ لأنهم قوم عندهم من الطغيان والعتو على شرع الله ما لا نعلمه صَدَرَ عن أمة سواهم، اللهمَّ إلا ما ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن قوم نوح، حين قال نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

ثم بَيَّن اللهُ القصة فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾؛ أي: قتلتم نفسًا محرمة؛ فاخْتَلفتم فيها، فبيَّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما حصل بواسطة هذه البقرة التي ذُبحت، وذلك بأن يضربوا هذا القتيل ببعضها، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، فضربوا بعضوٍ منها ـ ولا ضرورة لتعيينه ـ، ثُمَّ نطق القتيل، وقال: إنَّ الذي قتلني فلان، فبين الله ـ تعالى ـ ما كانوا يكتمون.

قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

في هذه الآية الكريمة يُبيِّنُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن بني إسرائيل بعـد أن أنعم الله عليهم ببيان قاتل القتيل الذي ادَّارءوا فيه، وكادت تحصل فتنة عظيمة لولا أن الله مَنَّ عليهم بما ذُكر، بعد هذا ـ أي: بعد ما حصل من هذه النعمة الكبيرة ـ قست قلوبهم؛ أي: صَلُبَتْ وعظـم استكبارهم، فكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، وإنما ضرب الله المثل بالحجارة دون الحديد؛ لأن الحديد قد يلين مع النار، لكن الحجارة لا تلين، فهـي كالحجارة أو أشد قسوة، بل إن الحجارة خير من قلوبهم؛ لأن الحجارة يخرج منها ما فيه منافع للناس، ويهبط منها ما يهبط من خشية الله؛ فمن الحجارة ما تتفجر منه الأنهار، ومن الحجارة ما يـشَّقَّقُ ـ أي: يتـشقق ـ فيخرج منه الماء، ومن الحجارة ما يهبط من خشية الله، ثم ختم الله الآية الكريمة ببيان كمال مراقبته وعلمه، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فوائد الآيات الكريمة:

١ـ **من فوائدها:** أن الرجوع إلى الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في الأمور المهمة التي طريقها الشرع كان أمرًا فطريًّا، سار الناس عليه منذ زمن بعيد؛ ويتفرع عن هذه الفائدة: أن الواجب على الأمة إذا أشكل عليهم شيء من أمور دينهم أن يرجعوا إلى أهل العلم بشريعة الله؛ وذلك لأن شريعة الله تعالى لاسيما الشريعة الإِسلامية التي جاء بها محمد ﷺ فيها شفاء لكل داء، وفيها حلٌّ لكل مشكل؛ ولهذا قال الله ـ

تعالى ـ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]؛ أي: إلى كتاب الله، وإلى الرسول ﷺ في حياته، وإلى سنته بعد مماته، ولم يأمرنا الله ـ تعالى ـ بالرجوع إلى الله ورسوله؛ إلَّا لأننا سنجد الحل الشافي الكافي في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما ضَرَّ الأمة وأوجد عندها المشاكل التي لا منتهى لها إلا غفلتهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة**: بيان عتوٍّ بني إسرائيل، وتأخرهم في تنفيذ أوامر الله، وأنهم قوم معاندون متشددون؛ شددوا فشدد الله عليهم؛ لأنهم ذكروا استفصالات كثيرة في هذه البقرة التي أُمروا بذبحها، ولو أنهم ذبحوا أيَّ بقرة حينما أُمروا أن يذبحوا بقرة؛ لحصل لهم المقصود، لكنهم شدَّدوا فشدد الله عليهم.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة**: أن الأمر إذا جاء مطلقًا فإنه لا ينبغي أن يستفصل فيه؛ لأن الاستفصال قد يؤدي إلى إضافة شروط ثقيلة، فإذا جاء أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في زمن الوحي مطلقًا فإن الاستفصال عن قيود من شأن القوم الذين لا يريدون امتثال الأمر على وجه الفورية، أما بعد انقطاع الوحي فإنه لا حرج على الإنسان إذا ورد الأمر مطلقًا أن يبحث عن شيء مقيِّد له؛ وذلك لأن الشريعة قد تمت، ولا يمكن زيادة إضافات إليها، فهنا يُفَرَّقُ بين أن يجد الإنسان أمرًا مطلقًا في القرآن والسنة فيما بعد انقطاع الوحي وفيما كان في زمن

الوحي؛ فما كان في زمن الوحي فإنه لا ينبغي الاستفصال عن قيود فيه؛ لئلا ترد قيود تضيِّق الأمر، وأما بعد زمن الوحي فلا بأس مـن البحـث عن قيود؛ لأن النصوص ـ أحيانًا ـ تـأتي مطلقـة في موضـع، وتُقَيَّـدُ في موضع آخر.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة**: بيان ما عليه بنو إسرائيـل مـن سوء الظن؛ فإنَّ موسى ـ عليـه الـصلاة والـسلام ـ أعظـم أنبيـاء بنـي إسرائيل، ومع ذلك قـال له بنـو إسرائيـل ـ حـين أمـرهم أن يـذبحوا بقرة ـ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

٥ــ **ومـن فوائـد هـذه الآيـة الكريمـة**: تحـريم الاسـتهزاء بـالغير والسخرية منهم؛ لقول موسى ـ عليه الـصلاة والـسلام ـ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ فالاستهزاء بالغير والـسخرية مـنهم جهالـة وعدوان على المُسْتَهْزَأ به، المسخور منه، لا يقع إلَّا من سـفيه أو جاهـل بالشريعة.

٦ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن الأنبياء ـ علـيهم الـصلاة والسلام ـ لا يلجئـون إلَّا لله ـ سـبحانه وتعـالى ـ، وإذا كـان الأنبيـاء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا ملجأ لهم إلا الله؛ فما بالـك بمـن دونهـم؟! ويتفرع عن هذا قطع الشرك الـذي يقـع فيـه كثـير مـن النـاس، حينـما يلجئون إلى الموتى مـن الأنبيـاء، أو ممـن يزعمـونهم أوليـاء، يلتجئـون إليهم، ويستعيذون بهم، ويستعينون بهم؛ فإن الاستعاذة بغـير الله ـ عَـزَّ

وَجَلَّ ـ في أمر لا يقدر عليه المستعاذ به من الشرك، وكذلك الاستغاثة بغير الله في أمر لا يقدر عليه المستغاث به هو من الشرك أيضًا؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الملجأ الذي يلجأ إليه كل مخلوق، ولا عاصم من أمر الله إلا من رَحِمَ.

٧ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن المجمل إذا عُلِمَ المراد منه؛ فلا بأس أن يكون الجواب عليه مُفَصَّلًا، وإن كان هو مجملًا؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ...﴾ الآية؛ فإن قولهم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ﴾ مجمل مبهم؛ لأن الأسماء الموصولة من الأسماء المبهمة المجملة، فلا يُعلم ماذا يريدون بقولهم: «ما هي»؟ لكن إذا كان المخاطب يعلم المراد بهذا المجمل المبهم، فلا بأس أن يكون الجواب على حسب ما فهمه المخاطب؛ ولهذا قال لهم موسى ـ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ إلى آخر الآيات.

٨ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: إثبات قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾.

٩ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مجيب لمن دعاه؛ لأن موسى دعا ربه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبيِّنَ له ما هي؟ فأخبره الله أنها بقرة لا فارض، ولا بكر، عوان بين ذلك.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة**: أن أحسن شيء يُتَقَرَّبُ به إلى

الله ما كان فوق الصغر ودون الكبر الكثير؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «لَا تَـذْبحوا إِلَّا مُـسِنَّةً، إِلَّا أَنْ يَعْـسُرَ علـيكم فتـذبحوا جَذَعَـةً مِـنَ الضَّأْنِ»[1]، فنهى النبيُّ ﷺ عن التقـرب إلى الله بـذبح الـصغيرة، ومـن المعلوم أنه كلما كبرت البهيمة قلَّ شأن لحمها وتردَّى؛ فلهذا يكـون مـا بين الصغيرة والكبيرة هو الأفضل فيما يُتقرَّبُ به إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

١١ـ **ومن فوائد قوله ـ تعالى ـ:** ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾: أنه يجـب على المأمور أن يمتثل ما أُمر به على الوجه الذي أُمر به؛ لقوله ـ تعـالى ـ: ﴿مَا تُؤْمَرُونَ﴾، و«ما» هذه موصولة تـشمل عـين المـأمور ووصـف المأمور، وما أُمـر بـه شرعًـا فـإن الامتثـال لا يحـصل فيـه إلا إذا فعلـه الإنسان على وجه ليس فيه زيادة ولا نقص؛ لأن الزيادة غلوٌّ والـنقص تفريط.

١٢ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن بنـي إسرائيـل عنـدهم من التهاون والتفـريط في تنفيـذ أوامـر الله مـا يتبـيَّن مـن هـذه القـصة وغيرها؛ فهم حين طُلِبَ مـنهم أن يفعلـوا مـا يُـؤمرون لم يفعلـوا، بـل ازدادوا تعنتًا وتشددًا، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ الآيـة، ويستفاد من هذه الآية: شدة تعنت بني إسرائيـل وتـشددهم؛ وإلا فـما

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب سن الأضحية، رقم (١٩٦٣).

شأن اللون بالنسبة للغرض المقصود من ذبح هذه البقرة، ولكنهم لتشددهم وتمنعهم في تنفيذ أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ صاروا يسألون عن اللون، ولعل هذا السؤال من حكمة الله ـ تعالى ـ أن يشدِّد عليهم؛ فإنهم لما شدَّدوا شدَّدَ الله عليهم.

١٣ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن ما كان جميلًا من الحيوان الذي يُتقرَّبُ به إلى الله فهو أكمل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾، فإن قال الإنسانُ: ما شأن هذا أو ما علاقة هذا بما يُتَقَرَّبُ به إلى الله؟ فالجواب عن ذلك أن نقول: إنه لما كانت هذه البقرة مما أمر الله به كانت قربة إلى الله؛ لأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمر قومه أن يذبحوا هذه البقرة؛ فامتثالهم لأمر موسى قربة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وإن كان الغرض من هذا هو الإرشاد فإن فيه شائبة القربة وقد يقال: إنه قربة محضة؛ لأنه يحصل به درء مفسدة وفتنة كادت تقع بين بني إسرائيل لولا أن الله ـ تعالى ـ أبان القتيل بهذه الوسيلة.

١٤ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أنه يجوز أن يحمل المخاطب الشيء المبهم المجمل على ما يظنه من المراد؛ حيث قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ الآيات؛ فإن ﴿مَا هِىَ﴾ هي الصيغة التي وردت في أول القصة في قوله: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾، ومع ذلك كان الجواب هناك بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا

بِكْرٌ﴾ الآيـة، والجـواب هنـا بقولـه: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾، مـع أن جملـة الاسـتفهام واحـدة في صـيغتها، لكـن المخاطب يفهم من كل صيغة ما يقتضيه المقام.

١٥- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن بني إسرائيل لما قـالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وفقهم الله ـ سبحانه وتعـالى ـ للهـدى في النهاية، ولو أنهم قالوا: «**وإنا لمهتدون**»؛ لم يوفقوا؛ أي: ولو أنهم عزمـوا علي أن يكونوا مهتدين بدون أن يقولوا: «**إن شاء الله**»؛ فإنهم حـريٌّ ألا يُوفقوا؛ لأن قرن الخبر بالمشيئة على فعل المـستقبل أمـر مطلـوب؛ فـإن ذلك مما يسهل هذا الأمر؛ وهذا لما قال سليمان ـ عليه الصلاة والـسلام ـ: **لأطُوفَنَّ الليلة على تـسعين امـرأةً[1] كلهـن تـأتي بفـارس يجاهـد في سبيل الله. فقال له صاحبه: قـل: إن شـاء الله، فلـم يقـل: إن شـاء الله. فطاف عليهن جميعًا؛ فلم تحمل منهن إلا امـرأة واحـدة، جـاءت بـشقِّ رجل**»، فقال النبـي ﷺ: «**لـو قـالَ: إنْ شـاءَ اللهُ لكـان دَرَكًـا لحاجتـه، ولقاتلوا في سبيل الله**» [2]، وليس هذا من باب الخبر عن أمر واقـع؛ فـإن الخبر عن أمر واقـع لا يحتـاج إلى قـول: «**إن شـاء الله**»، إلَّا عـلى سـبيل التبرك أو التعليل؛ ولهذا كان القول الراجح في قول الإنسان: أنا مـؤمن إن شاء الله، إذا كان غرضه الإخبار عن الأمر الواقع؛ فإنه لا يحتـاج إلى

---

(١) أي: بالجماع.

(٢) تقدم تخريجه (٢٣).

قوله: إن شاء الله؛ لأن هذا خبر عن شيء حصل إلَّا أن يريد بذلك أن إيمانه حصل بمشيئة الله، أو أنه يريد التبرك بهذا؛ أي: إضافة إيمانه إلى مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وبراءته من حوله وقوته؛ أي: من حول نفسه وقوتها إلى مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإن هذا لا بأس به؛ ومن ثَمَّ كان الاستثناء في الإيمان يختلف، فإن كان الحامل عليه الشك في وجود الإيمان؛ فهذا حرام لا يجوز؛ لأن الإنسان يجب أن يؤمن إيمانًا جازمًا لا شك فيه، وإن كان الغرض من ذلك التبرك أو بيان أن ما حصل واقع بمشيئة الله؛ فإن هذا لا بأس به، وبهذا التفصيل ينجلي الإشكال الذي حصل عند كثير من أهل العلم: هل يجوز للإنسان أن يستثني في إيمانه، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو لا يجوز؟

١٦ ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أنه إذا ذكرت أوصاف في شخص يُخشى منها أن يتوهم المخاطب شيئًا خلاف الواقع فإنه لابد من ذكر قيد يرفع هذا التوهم؛ وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾؛ فإن في قوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ قد يقول قائل: إن فيها عيبًا؛ لأنها لا تقدر على أن تثير الأرض أو تسقي الحرث، فبيَّن الله ـ تعالى ـ أنها ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾، وهذا يسمى بالاحتراز أو بالاحتراس في علم البلاغة.

وقد جاء ذلك في القرآن في مواضع؛ منها: قوله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، فقد قال الله بعد هذا: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]؛ فلما ذكر الله ـ تعالى ـ أنه فهَّم الحكم الصحيح سليمان، وكان ذلك يُخشى منه أن تهبط منزلة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيَّن الله ـ تعالى ـ أنه قد آتى داود وسليمان حكمًا وعلمًا، وأن الله سخر لداود الجبال تسبح معه والطير ... إلخ الآيات.

ومن ذلك ـ أيضًا ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ [الحديد: ١٠]؛ فإن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ﴾ قد يؤدي إلى انحطاط كبير في رتبة الآخرين الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، فرفع الله ذلك في قوله: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، ومن ذلك ـ أيضًا ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ [النساء: ٩٥]؛ فلمّا ذكر الله تفضيل المجاهدين على القاعدين قال: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ لئلا يتوهم واهمٌ نزول رتبة الآخرين نزولًا فاحشًا.

١٧ ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: بيان ما عليه بنو إسرائيل من التعاظم، والترفع، والاستعلاء؛ لقولهم ـ كما في قوله ـ تعالى ـ:

﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ فكأنهم هم الذين يحكمون على موسى -عليه الصلاة والسلام- بل هم الذين يحكمون على ما جاء به موسى من كونه حقًّا أو باطلًا؛ لقوله -تعالى-: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، ومن المعلوم أن موسى -عليه الصلاة والسلام- قد جاء بالحق في ذلك الآن وقبله.

١٨- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أنه يجوز حرث الأرض بالبقر، وسقي الحرث بها؛ لقوله -تعالى-: ﴿ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾.

١٩- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أنه ينبغي ألا نستعمل في حرث الأرض وسقي الزرع إلا ما كان ذلولًا طيعًا؛ وذلك لأن الشموس أو الصعب قد يفسد أكثر مما يصلح، ويمكن أن نفرع عن هذه الفائدة فائدة أخرى؛ وهي ألا نستعمل من الأشياء إلا ما دَلَّت التجارب على أنه صالح فيها؛ حتى لا نقع في الخطأ والزلل.

٢٠- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن بني إسرائيل حين امتثلوا ما أمرهم موسى -عليه الصلاة والسلام- بذبح البقرة مع التشديد، والتعنت، والاستفصال لم يذبحوها عن انقياد تام وتنفيذ فوري؛ وإنما ذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: ما قاربوا الفعل؛ لكونهم متصفين بالعلو والاستكبار.

٢١- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أنه يجوز ذكر المسبَّب قبل ذكر السبب؛ فإن الذبح كان سببه الاختلاف الذي وقع بين بني إسرائيل

بشأن القتيل، ومع ذلك ذكر قبل أن يذكر السبب؛ لأنه هو محل العبرة، وهو الذي يكشف حال بني إسرائيل على وجه الحقيقة، وأنهم قوم لا يمتثلون لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ إلا بعد أن تقبله نفوسهم، وكأنهم يريدون أن يتبع الحق أهواءهم؛ ويدل لهذا قولهم: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٢- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث كان ضرب هذا القتيل سببًا لحياته؛ فإن إحياء الموتى لا يكون إلا بقدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ولهذا لما ناظر إبراهيم مَنْ حاجَّهُ في الله، قال له إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، قال هذا المحاج: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وهو كاذب فيما ادَّعاه؛ فإنه لا يقدرُ على الإِحياء والإماتة إلا الله ـ سبحانه وتعالى.

٢٣- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليم بكل شيء، وأن ما كتمه الإِنسان فإن الله ـ تعالى ـ سيخرجه، ولا سيما إذا كان في خروجه للعباد مصلحة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٢٤- **ومن فوائدها**: أن القاتل لابد أن يخرجه الله تعالى يبينه؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]؛ فإن الآية الكريمة تدل على أن ولي المقتول له سلطان شرعي وسلطان قدري؛ فإن الله ـ تعالى ـ يبين هذا القاتل حتى يُقتل؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣].

٢٥- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: أن هذه القصة قصةٌ من خمس قصص في سورة البقرة، كلها في إحياء الموتى وسنبيِّن ذلك ـ إن شاء الله ـ فيما بعد.

٢٦- ومن فوائد الآيات المذكورة في هذه القصة: جواز الأمر بالمبهم إذا كان يمكن امتثاله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾؛ فإنَّ البعض يتناول أيَّ جزء من أجزائها؛ كاليد، أو الرجل، أو القلب، أو الكبد، أو أيِّ جزء من أجزائها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾؛ وبناء على ذلك لو أنك قلت لشخص: افعل بعض هذه الأشياء وذكرت له أشياء محصورة فإن هذا الأمر صحيح، ويبرأ الإنسان الذي أمرته بفعل بعضه؛ أي بفعل ما شاء، أما إذا كان هذا الإبهام لا يمكن تحقيقه فإن الواجب الاستفسار؛ ولهذا لما قال الله ـ تعالى ـ للقلم: اكتب قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هُوَ كائن إلى يوم القيامة؛ فكتب القلم ما هو كائن إلى يوم القيامة، وذلك قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

٢٧- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على إحياء الموتى، وقد ذكرنا فيما سبق أن الله ذكر خمس قصص في سورة البقرة فيها إحياء الموتى؛ فمن ذلك ما سبق في قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦]، ومنها ـ أيضًا ـ هذه القصة، قصة القتيل الذي اختلف بنو إسرائيل في قاتله، ومنها قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم، ومنها قصة الرجل الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أنى يحيي الله هذه بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، والخامسة: قصة إبراهيم؛ حيث قال ـ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. والله ـــ سبحانه وتعالى ـــ قادرٌ على إحياء الموتى كلهم بكلمة واحدة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

٢٨ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرى عباده من آياته ما يكون به العقل والرشد؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾، وآيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية؛ **فالآيات الكونية**: ما يحصل بخلقه وتقديره؛ مثل السموات والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والشجر، والدواب. **والآيات الشرعية**: ما جاءت به الرسل من الأوامر، والنواهي، وغيرها من أقسام الوحي.

٢٩ـ **ومن فوائد الآيات الكريمات**: أن تدبَّر الآيات سببٌ للعقل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ والعقلُ عقلان: عقل إدراك وعقل تصرف؛ فعقل الإدراك: هو الذي يترتب عليه التكليف ويكون في المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وأما عقل التصرف: فهو ما يحصل به الرشد؛ وهو حسن التصرف في أفعال الإنسان وأقواله، وهذا خاص بمن آتاه الله الحكمة؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]؛ وعلى هذا فلو سألنا سائلٌ: هل الكفار عقلاء؟ فالجواب أن نقول: هم عقلاء من حيث عقل الإدراك الذي يترتب عليه التكليف، وليسوا عقلاء من حيث عقل التصرف الذي يحصل به الرشد؛ ولهذا ينفي الله عنهم ـ أي: عن الكفار ـ كثيرًا سمة العقل؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: ٥٥]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]؛ فالكفار ليس لهم عقل تصرف يوصلهم إلى الرشد، وإن كان عندهم عقل إدراك يترتب عليه التكليف والمؤاخذة.

٣٠ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: إثبات الأسباب في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقد تقدم الكلام فيما سبق عن ذكر اختلاف الناس في الأسباب وبيَّنَّا أن القول الوسط هو إثبات تأثير الأسباب لكن لا

بذاتها، ولكن بما أودع الله فيها من القوة التي تؤثر في المسبَّبات.

٣١ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن بني إسرائيل ـ بعد هـذا كله ـ قست قلوبهم، ولم يزدادوا بهذه الآيات والنعم لينًا للحق وقبـولًا له، ولكنهم قست قلوبهم من بعد ذلك.

٣٢ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: التحـذير ممـا جـرى لبنـي إسرائيل من قسوة القلوب بعد رؤية الآيات التي يرينا الله إياها؛ فمـثلًا إذا رأينا من آيات الله ما تلين به القلوب، ويحـصل بـه الرجـوع إلى الله؛ فإن الواجب علينا أن نقـوم بـذلك ـ أي: بـالرجوع إلى الله ـ وأن تلـين قلوبنا لذكر الله، أما إذا كان الأمر بالعكس؛ لا يزداد الإِنسان من رؤيـة الآيات إلا قسوة قلب وتمردًا في الفعل؛ فإن هذا وقوع فيما كانـت عليـه بنو إسرائيل ـ نسأل الله السلامة.

٣٣ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: التحذير من قسوة القلـب بعد ظهور الآيات؛ لأن هذا أعظم شرًّا وأكبر إثمًا ممـا إذا لم يـرَ الإِنـسان من آيات الله ما تقوم به الحجـة، ومـع الأسـف أن بعـض النـاس بعـد ظهور الآيات لا يزداد إلا كبرًا وعنادًا، فتجـد مـن آيـات الله مـا يظهـر ظهورًا بيِّنًا، سواء أكانت هذه الآيات من الأمور الفلكية، أو الأرضـية، أو الواقعة بين الناس، فإن كثيرًا من الناس لا يهتم بها، ولا يـذكرها إلا على سبيل أنها واقعة فقط؛ فعند كسوف الشمس أو خـسوف القمـر لا نجد كثيرًا من الناس يتأثر أو يقبـل عـلى المـساجد؛ ليفعـل مـا أمـر بـه

الرسول ﷺ من الصلاة، وعند حصول الزلازل والفيضانات والعواصف الشديدة لا نجد كثيرًا من الناس يهتم بها، ويقلق منها، ويخشى أن يصاب بمثلها، بل لا يذكرونها إلا على أنها حوادث وقعت، وكأنها ـ كما يقولون ـ كوارث طبيعية، لا يلتفت إليها، ونجد كثيرًا من الناس تقع بينهم الحروب والفتن، ويعتدي بعضهم على بعض بالقتل، والنهب، وانتهاك الحرمات، ومع هذا لا يعدونها شيئًا يُذكر، بل يذكرونها على أنها حوادث تاريخية، وليست من الآيات التحذيرية التي يحذر الله بها العباد؛ فتجدهم بعد أن تزول هذه الكوارث وهذه الحوادث العظيمة يرجعون إلى غيِّهم، بل ربما يرجعون إلى أكبر من غيهم ـ نسأل الله السلامة. والواجب على المؤمن أن يتخذ من هذه الآيات عبرة، وأن يرجع إلى الله رجوعًا حقيقيًّا؛ حتى لا ترجع هذه الحوادث والكوارث على وجه أكبر مما كانت عليه من قبل.

٣٤- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن قلوب بني إسرائيل التي قست كانت كالحجارة بل أشد.

٣٥- **ومن فوائدها**: أن من الحجارة ما هو خير من هذه القلوب؛ فمنها ما يتفجر منه الأنهار، ومنها ما يشَّقق فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من خشية الله، وقلوب هؤلاء القوم التي قست لا يأتي منها خير، ولا تلين لحق.

٣٦- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: عموم رقابة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ

ـ، وأنه على كـل شيء رقيـب، ولا يفوتـه شيء، ولا يخفـى عليـه شيء؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٣٧- ومن فوائد هذه الآيات: تحذير المرء من العمل الذي لا يرضاه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأنه مهما عمل فالله ـ تعـالى ـ عـالم بـه، مطَّلـع عليـه، رقيب عليه.

٣٨- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: إثبات الوصـف الـسلبي؛ أي: إثبات الصفات المنفية عن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ يعني: الإيـمان بـأن الله موصوف بالإثبات وبالنفي؛ أما وصف الله بالإثبـات: فكثـير جـدًّا في القرآن الكريم والسنة النبوية، وأما وصـف الله ـ تعـالى ـ بـالنفي: فهـو أقل من وصـفه بالإثبـات، ولم يـذكر الله ـ تعـالى ـ أوصـاف النفـي إلا لأسباب تقتضيها؛ مثل توهم النقص في صفاته؛ كما في قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ لأن الشيطان قد يوقع في قلب المـرء ـ إذا علـم أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ـ أن الله ـ تعالى ـ يلحقه تعب أو لحقه تعب في ذلك فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

ومنها أن الصفات المنفية تذكر لدفع ما افتراه الكاذبون في حق الله؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنها أن الصفات المنفية قد تذكر للتهديد؛ كما في هذه الآية: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾؛ فإن المراد بهذه الجملة تهديد

المخاطب ببيان أن الله ـ تعالى ـ لن يغفل عما عمل من خير أو شر، قليل أو كثير، وقد ذكر أهل العلم: أن ما جاء من صفات النفي في حق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليس بنفي محض، بل هو نفي متضمن للإثبات، وهذا الإثبات هو كمال ضد المنفي؛ فمثلًا يقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] المقصود بهذا النفي إثبات كمال قوته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأنه لكمال قوته لم يمسه تعب ولا إعياء، ومثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، يُرادُ بنفي الظلم هنا عن الله إثبات كمال عدله، وأنه لكمال عدله لا يقع في إثباته ظلم إطلاقًا، وكذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، يُرادُ بذلك إثبات كمال غناه عن كل أحد، وإثبات وحدانيته، وأنها وحدانية مطلقة ليس معه فيها إله، وعلى هذا فقِسْ.

فكل ما جاء من صفات منفية عن الله فليس المراد بها مجرد النفي، وإنما المراد بها إثبات كمال الضد مع نفي هذه الصفة المعينة التي جاء النفي عنها، ثم اعلم أن أهل السنة والجماعة ـ وأعني بذلك سلف الأمة ومَنْ تبعهم في هديهم ـ ليسوا كأهل البدع الذين لا يصفون الله ـ تعالى ـ إلا بصفات النفي، فتجدهم يكثرون من صفات النفي في حق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأما صفات الإثبات فإنهم لا يهتمون بها، ولو ذكروها لذكروها على وجه مُؤوَّلٍ تأويلًا بعيدًا عن الصواب، وحقيقته أنه تحريف وليس بتأويل.

٣٩ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن هذا القرآن الكريم جاء تفصيلًا لكل شيء يحتاج الناس إلى تفصيله؛ من أجل أن يكون موعظة تامة في جميع الأحوال؛ فإن في ذكر أخبار من سبق عبرة لمن اعتبر؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

في هذه الآيات يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مخاطبًا رسوله ﷺ وأصحابه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾؛ أي: أهل الكتاب؛ يعني: أترجون أن يؤمنوا لكم، والحال أن فريقًا منهم يسمعون كلام الله ـ وهم العلماء منهم ـ يسمعون كلام الله في التوراة، أو يسمعون كلام الله الذي أوحاه إلى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين اختار من قومه سبعين رجلًا لميقات ربه ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾؛ أي: يصرفونه عن المراد به إلى معانٍ يريدونها هم، فيجعلون معنى كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ

تابعًا لأهوائهم، يفعلون ذلك بعد أن عقلوا المعنى وعرفوه، فهم يفعلون هذا عن عمد، وهم يعلمون أنهم يفعلون ذلك عن عمد، لكنهم يريدون أن يتبعوا أهواءهم، ومن شأن هؤلاء المحرفين أنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض: ﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: أتحدثون المؤمنين بما فتح الله عليكم بما أعلمكم به، وأخبركم به من صفات محمد ﷺ ليحاجوكم به عند ربكم؛ لأنكم إذا ذكرتم أن محمدًا ﷺ جاء وصفه في التوراة، وأنه يبعث ويكون رسولًا إلى كافة الناس؛ فإنهم سوف يحاجونكم به عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ثم يوبِّخ هؤلاء أقوامهم فيقولون: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أفلا تكونون عقلاء، فامتنعوا عن تحديث محمد وأصحابه بشيء يحاجوكم به عند الله، قال الله ـ تعالى ـ رادًّا عليهم: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾، فهم وإنْ أسروا وكتموا صفة محمد ﷺ أو أعلنوها؛ فإن الله ـ تعالى ـ عالم بصنيعهم، وسيجازيهم على ما فعلوا من كتمان الحق، وتحريف الكتاب، هذا هو معنى هذه الآيات، **أمّا ما يستفاد منها من أحكام؛ فإنها تدل على فوائد كثيرة منها:**

١ـ تأييس النبي ﷺ وأصحابه من إيمان هؤلاء المعاندين المحرفين.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن المعاند الذي يعصي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن عناد؛ تبعد هدايته؛ لأنه لا خير فيه؛ ويدل لهذا قوله ـ

تعالى ـ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فالإنسان إذا رَدَّ الحق أول مرة مع علمه به وفهمه لـــه؛ فإنه يبعد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يهديه؛ لأن قلبـــه ـ والعياذ بالله ـ قـــد زاغ؛ قـــال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

٣ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: إثبات كلام الله ـ تعالى ـ وأن الله ـ تعالى ـ تكلم، وأن كلامه يسمع؛ لقولـــه ـ تعالى ـ: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾، وهـــذا يدل على أن كلام الله بصوت مسموع يسمعـــه مَنْ وُجِّهَ الخطاب إليـــه، وهـــذا أمر متفقٌ عليه بين أهل السنة والجماعـــة، ويـــدل عليه القـــرآن والسنة؛ قـــال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]؛ والمناداة والمناجاة لا تكونان إلا بصوت، لكن المناداة تكون بصوتٍ عالٍ لمن بَعُدَ، والمناجاة تكون بصوت خفيٍّ لمن كان قريبًا.

٤ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: ذمُّ تحريف الكلم عن مواضعه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾، قال أهل العلم: تحريفُ الكلم ينقسم إلى قسمين: أحدهما: تحريف اللفظ، والثاني: تحريف المعنى؛ فتحريف اللفظ يكون بتغيير الشكل، أو تغيير بنية الكلمة، وما أشبه ذلك؛ مثل لو قرأ قارئ قولَ الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، فقرأ: «وكلَّم اللهَ موسى تكليمًا»؛ لكان محرفًا

للكلم، ولو قرأ: «الحمدُ لله ربَّ العالمين»؛ لكان محرفًا للكلم أيضًا، لكن الفرق بين هذا والذي قبله أن تحريف قوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ يتغير به المعنى فيكون المُكلِّمُ موسى وليس الله، أما ﴿الحمدُ ربَّ العالمين﴾، فإنه لا يتغير به المعنى، ولكنه لا يجوز ارتكابه؛ لأنه تحريف للكلم.

وأما تحريفُ المعنى فإنه هو الذي وقع فيه كثير من الناس؛ بحيث يصرف معنى اللفظ عن ظاهره بدون دليل؛ مثل تحريف بعضهم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فقال معناه: الرحمن على العرش استولى، ولكنه أبقى اللفظ كما هو؛ فهذا تحريف معنوي، وهو بلا شك محرم؛ لأنه قول على الله بلا علم؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما خاطبنا بالقرآن العربي؛ لنفهمه على مقتضى اللغة العربية، إذا لم ينقل المعنى إلى معنى شرعي، فإذا صرفنا المعنى إلى ما لا تقتضيه اللغة العربية كان ذلك تحريفًا للكلم عن مواضعه.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** شدة لوم هؤلاء الذين حرَّفوا ما سمعوا من كلام الله؛ حيث إنهم حرَّفوه بعد عقله وفهمه.

٦ـ **ومن فوائدها:** أن تحريف الشيء بعد عقله وفهمه أشد من تحريفه إذا لم يكن قد عقله الإنسان؛ لأنه إذا لم يكن قد عقله فقد يكون معذورًا لهذا التحريف؛ لأنه لم يعقله تمام العقل، فإذا كان قد عقله كان تحريفه أشد وأعظم.

٧ـ**ومن فوائد هذه الآيات**: أن هـؤلاء الـذين حرفـوا الكلـم عـن مواضعه بعد ما عقلوه إنما حَرَّفوه وهم يعلمون أنهم مُحَرِّفون له؛ فيكون تحريفهم إصرارًا على عناد، وليس إصرارًا عن جهل أو تهاون، بـل هـو إصرار على خطأ متعمَّد ـ نسأل الله العافية.

٨ـ**ومن فوائد هذه الآيات**: أن هؤلاء ـ وأعني بهـم بنـي إسرائيـل الذين في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومـن سـلك مـسلك النفاق صاروا إذا لقوا الذين آمنوا قـالوا: آمنـا، ولكـنهم إذا خلـوا إلى قومهم صار بعضهم ينكر عـلى بعـض؛ لقولـه: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾؛ أي: آمنا بمحمدٍ ﷺ، لكنهم على خلاف ذلك في الباطن.

٩ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن نبوة الرسول ﷺ كانت معلومة عند بني إسرائيل، وأنهم يعرفونها تمامًا، ويعدونها من الفتح الذي فتحه الله عليهم؛ لقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا أمر معلوم بيَّنهُ الله ـ تعالى ـ في كتابه، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقد بشَّر به عيسى قومه، فقال: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، صلوات الله ﷺ سلامه عليه.

١٠- **ومن فوائد الآيات الكريمات:** بيان أن ما علمه أهل الكتاب من صفة النبي ﷺ هو فتح من الله، فتح الله به عليهم، وقد بين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا قبل بعث الرسول ﷺ؛ أي: أنهم يستنصرون بمحمد ﷺ على الكافرين؛ لأنهم يعلمون فيما علموه من التوراة أنه ﷺ منصور، وستكون له العاقبة، ولكنهم - والعياذ بالله - لما بان الحق واتضح، وبُعث النبي ﷺ صدَّهم الحسد عن الإيمان به ﷺ.

١١- **ومن فوائد هذه الآيات:** أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث؛ لقوله: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، وقد اتفقت الرسالات السماوية كلها على إثبات البعث، وأن الناس سوف يبعثون ويجازون على أعمالهم، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

١٢- **ومن فوائد الآيات الكريمات:** أن الخصومة ستقع بين يدي الله - عَزَّ وَجَلَّ - من المؤمنين والكافرين، يخاصم بعضهم بعضًا، فيفصل الله بينهم، ويقضي بينهم بحكمه؛ ويدل لهذا أيضًا قوله - تعالى -: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١]، وقوله - تعالى -: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وغير ذلك من الآيات الكريمات الدالة على أن أولياء الله ﷺ أولياء الشيطان يختصمون عند الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فيقضي بينهم بحكمه وعدله - جلَّ وعلا.

١٣- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن ما ذهب إليه هؤلاء - الذين يقولون عند المؤمنين: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض أنكر بعضهم على بعض - مخالف للعقل؛ لقوله - تعالى -: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ فإن مقتضى العقل أن الإنسان إذا آمن عن اقتناع آمن به ظاهرًا وباطنًا في حضور الخصم وحضور الولي، أما هؤلاء فكانوا مذبذبين يؤمنون عند المؤمنين، لكنهم إذا رجع بعضهم إلى بعض وخلا بعضهم إلى بعض أنكروا ما حدث.

١٤- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: إثبات عموم علم الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون؛ أي: ما يسرونه من مخالفة الحق وكتمانه، وما يعلنونه عند المؤمنين بقولهم: إنهم آمنوا، وإن صفة النبي ﷺ موجودة عندهم في التوراة.

١٥- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: تهديد المرء وتحذيره عن مخالفة أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - والوقوع فيما يغضبه، سواء أكان سرًّا أم علنًا؛ لقوله - تعالى -: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ فإن المراد بذلك تهديد هؤلاء وأمثالهم ممن يظنون أن الله لا يعلم إلَّا ما كان علنًا.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) ﴾.

يبيِّن الله في هذه الآية الكريمة أن من بني إسرائيل قومًا أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ؛ أي: إلا قراءة؛ فهم يقرءون التوراة، ولكنهم لا يفهمون معناها؛ ولهذا وصفهم الله ـ تعالى ـ بالأمية؛ والأمي هو الذي لا يعرف أن يقرأ أو يكتب؛ نسبة إلى الأم؛ لأن الإنسان إذا خرج من بطن أمه؛ فإنه لا يعلم شيئًا؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، فمن بني إسرائيل قوم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ، إلا قراءة، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ أي: ما هم إلا يظنون ظنًّا.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان أن من بني إسرائيل من لا يفهم المعنى، ولكنه يقتصر على اللفظ.

٢- **ومن فوائدها**: ذمُّ من لا يفهم معنى كتاب الله؛ لقوله: ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾.

٣- **ومن فوائدها**: الحثُّ على تعلُّم معاني كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فقد كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الذين يقرءون القرآن لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل؛ فتعلموا القرآن، والعلم، والعمل جميعًا.

٤- **ومن فوائدها**: الحثُّ على فَهْم كتاب الله، وأنه ينبغي للإنسان أن

يتعلم معاني الكتاب كما يتعلم لفظه، وأن من المؤسف أن واقع أكثر المسلمين - اليوم - على غير هذا المنهج؛ أي: أنهم يقرءون القرآن للتعبُّد بلفظه فقط، دون أن يفهموا معناه، أو أن يطبقوا أحكامه، وهذا - بلا شك - قصور عظيم؛ ولذلك ظهر أثر هذا على المسلمين؛ حيث تخلفوا كثيرًا عما كان عليه السلف الصالح من تطبيق القرآن لفظًا ومعنًى وعملًا؛ ففاتهم بذلك خيرٌ كثيرٌ.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من لا يعلم الكتاب إلا لفظًا يقع في الوهم، والظن، والتخبط بما لا يعرف؛ لقوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ وعلى هذا فينبغي للمسلم أن يكون حريصًا على فهم كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ -، يتلقى تفسيره من كتب التفسير المعتمدة الموثوق بها، أو من أفواه العلماء المخلصين الذين يوثَقُ بعلمهم.

* * *

ثُمَّ قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

ففي هذه الآية الكريمة تَوَعَّدَ اللهُ - سبحانه وتعالى - هؤلاء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، وفي قوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لهذه الكتابة أنها من عند أنفسهم، ثم يقولون للناس: هذا من عند الله، يفعلون ذلك لغرض من الدنيا؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا.

ثم بَين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن هذا الوعيد حاصل على أمرين: الأمر الأول: ما كتبوه، والأمر الثاني: ما كسبوه من هذه الكتابة؛ فإن هؤلاء يكتبون الكتاب ليس من عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكنه من عند أنفسهم؛ من أجل أن ينالوا جاهًا، أو مالًا، أو رئاسة، أو غير ذلك من متاع الدنيا، وهو قليل بالنسبة لمتاع الآخرة؛ فيأثمون على الأمرين: على الكتابة التي يضل بها الناس، وعلى ما كسبوه.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ ـ تحريم أن يقول الإنسان القول من عند نفسه، أو أن يكتبه من عند نفسه، ثم يقول للناس: إن هذا من عند الله؛ من أجل أن يشتري به ثمنًا قليلًا، ووجه التحريم الوعيد الذي رُتِّب على هذا الفعل؛ لأن التحريم يستفاد إما من لفظ التحريم؛ مثل: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣]، وإما من النهي، وإما من ترتيب العقاب عليه، وإما من الوعيد عليه، وللعلم بالتحريم طرق معروفة في أصول الفقه.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من أسلوب القرآن الكريم تأكيد الشيء بما هو معلوم؛ لقوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ومن المعلوم أن الكتابة تكون باليد، لكن هذا من باب تأكيد هذه الكتابة، وأنها ليست من عند الله، بل هي بأيديهم.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن هؤلاء هم الذين كتبوا هذا الكتاب بأيديهم، وقالوا: إنه من عند الله؛ من أجل أن يشتروا به

ثمنًا قليلًا؛ وهو كل ما يكون من متعة الدنيا.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ما يحصل من الدنيا مهما بلغ فإنه قليل بالنسبة إلى الآخرة؛ ولهذا جاء في الحديث: «إنَّ موضعَ سَوْطِ أحدكم في الجنَّةِ خيرٌ من الدنيا وما فيها...»[١].

٥ـ ومن فوائدها: أن العمل إذا ترتب عليه سيئات؛ فإن الإنسان يُعاقب على كل سيئة ترتبت على هذا العمل السيِّئ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، وإذا كان العمل السيئ يترتب عليه سيئات؛ فإنه يأثم به؛ فالعمل الصالح إذا ترتب عليه حسنات؛ فإن الإنسان يُثابُ عليه؛ لأن رحمة الله ـ تعالى ـ سبقت غضبه؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «مَنْ سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أن ينقُص مِنْ أجورِهِمْ شيءٌ...»[٢].

❊ ❊ ❊

ثم قال الله ـ تعالى ـ مُبَيِّنًا ما ادَّعاه هؤلاء المكذبون المفترون ـ: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن

---

(١) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، رقم (٣٠١٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وروى نحوه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم (٤٣٣٠)؛ ورواه الدارمي (٢/ ٣٣٢ـ ٣٣٣).

(٢) رواه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، رقم (١٠١٧).

يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

هذه المقالة من مقالة اليهود؛ ادَّعوا أن النار لا تمسهم إلا أيَّامًا معدودة، ثم يخلفهم المسلمون فيها، وقد كذبوا فيما ادعوه في الأول وفي الثاني؛ فالنار لن تمسهم أيامًا معدودة فحسب؛ بل هم خالدون مخلدون فيها إذا ماتوا ولم يدخلوا في دين محمد ﷺ؛ لقول النبي ﷺ: «والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ ولا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرسِلتُ به؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[1]؛ فهم ـ أعني اليهود ـ من أصحاب النار، مخلدون فيها إذا لم يدخلوا في دين محمد ﷺ، وثانيًا: هم كاذبون في قولهم: إنكم تخلفوننا فيها؛ فإن المسلمين موعدهم الجنة، وهم أصحاب الجنة؛ فكل من مات مؤمنًا بمحمد ﷺ، متبعًا لشريعته؛ فإنه من أهل الجنة، وبيَّن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن هذه الدعوة كذب بطريق السبر والتقسيم، فقال: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾، فإن كان الأمر كذلك؛ فإن الله لن يخلف عهده، ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وإذا كان كذلك؛ فإنَّ هذه دعوى مجردة عن العلم فلا تكون مقبولة.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ ـ بيان كذب اليهود، وأنهم أهل كذب، كما أنهم أهل غدر

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣).

وخيانة، لا يوفـونَ بعهـد، ولا يقومـون بواجـب أمانـة، بـل صـفاتهم الكذب، والحسد، والخيانة، والمكر.

٢-ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حسن استدلال القرآن في مقابلة خصومه؛ حيث قال: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهذه الطريق من طرق الحجج مما يفحم الخصم، ومن نظائرها قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[مريم: ٧٧ـ ٨٠].

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لن يخلف عهده؛ لأنه ـ جلَّ وعلا ـ أصدق القائلين، وأتم المعاهدين، وأقدر على تنفيذ وعده وعهده؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١].

٤- ومن فوائد هذه الآية: أن اليهود لا يبالون إذا قالوا على الله ما لا يعلمون؛ لنيل مآربهم وأطماعهم.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

هذه الآية ردٌّ لدعوى اليهود الذين قالوا: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا

مَعْدُودَةً ﴾؛ بَيَّنَ الله فيها كذب هذه الدعوى، وأنها باطلة؛ لقوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾؛ أي: من كسب سيئة كبرى تكون سببًا لإحاطة خطيئته به حتى لا يبقى له حسنات؛ وذلك مثل سيئة الشرك والكفر، فهؤلاء هم أصحاب النار المخلَّدون فيها، وليسوا المسلمين كما زعم هؤلاء اليهود، وحينئذٍ يكون أحق الناس بالخلود في النار هم هؤلاء اليهود.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- إبطال ما ادَّعاه هؤلاء اليهود الذين ادعوا أنَّهم أولياء الله، وأنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم يخلفهم المسلمون فيها.

٢- **ومن فوائدها**: أن أحكام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الجزائية معلقة بأوصاف لا بأعيان؛ ولهذا قال: ﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾، من أي أحد من الأمم فله هذا الحكم، سواء كان من العرب، أم من بني إسرائيل، أم من غيرهم.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لا يستحق الخلود في النار إلَّا من أحاطت به خطيئته، أما من لم تُحط به خطيئته، بأن كان عنده عمل صالح وآخر سيئ؛ فإنه لا يكون من أصحاب النار المخلدين فيها، ولكنه تحت مشيئة الله، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عاقبه بذنبه، وقد يحول بينه وبين العقوبة شفاعة ممن يشفعون عند الله، أو غير ذلك من الأسباب التي ترفع عنه العقوبة، وهذا هو مذهب أهل السنة

والجماعــة، أن العصاة من المسلمين تحت مشيئة الله إنْ شاء الله عاقبهم على معاصيهم، وإن شاء غفر لهم؛ كما يدل على هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما دون الشرك لمن يشاء.

وهذه الآية يذهب بعض الناس إلى التعلُّل بهـا، فتجـده يعمـل مـا شاء من الـذنوب، ويقـول: إن شـاء الله غفـر لي، والـذي لا يُغفـر هـو الشرك، فنقول له: وهل تعلم أن الله شاء أن يغفر لـك؟ ربـما لا تـدخل أنت تحت مـن شـاء الله أن يغفـر لهـم؛ لأن الله لم يقـل: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وأطلق، بل قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ فأنت لا تعلـم أنـك داخـل في هذه المشيئة، ولا يجوز أن تمني نفسك المحالَ، بـل إن الحـزم والعـزم أن تتجنب معاصي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ خوفًا من أن ينالك عقابه.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن أصحاب النار هم أهلها الذين يبقون فيها؛ لأن مَنْ عُذب في النار بقدر ذنوبه، ثم خرج منها لا يُعَدُّ من أصحابها في الواقع؛ إذ إن المصاحبة هي الملازمة؛ وعلى هذا يكون في الآية دليل على أن أصحاب النار مخلدون فيها تخليدًا أبديًّا؛ كما جاء ذلك في آيات أخرى؛ فقد ذكر الله تأبيد الخلود في ثلاث آيات من كتابه، فقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣]، فهذه آيات ثلاث فيها التصريح بأن أصحاب النار خالدون فيها أبدًا، وبعد هذا التصريح لا يمكن أن نعارض لمجرد أقيسة عقلية، ونصوص عامة؛ لأن اللفظ الصريح لا يرفعه إلا لفظ صريح، ثم إن الظاهر أنه لا يمكن أن يقع لفظ صريح يخالف هذا؛ لأن هذا خبر؛ وخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يناقض بعضه بعضًا، والأحكام الشرعية يمكن أن يدخلها النسخ، أما الأحكام الخبرية فإنها لا يمكن أن يدخلها النسخ؛ لأننا لو جوّزنا نسخ أحد الخبرين بالآخر لزم منه تكذيب أحد الخبرين بالآخر، وهذا محال في كلام الله، وكلام رسوله ﷺ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

هذه هي طريقة القرآن: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا ذكر أصحاب النار وعقوبتهم، ذكر أصحاب الجنة ومثوبتهم؛ لأن القرآن مثان تُثنى فيه الأحكام والمعاني، ولأجل أن يكون الإنسان دائرًا في عبادته بين الخوف والرجاء؛ يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ آمنوا بالغيب الذي يجب الإيمان به، وقد بَيَّنَ النبي ﷺ

أركان الإيمان، حين سأله جبريل عن الإيمان قال: «... أن تُؤْمِنَ بـالله، وملائكتِـهِ، وكُتُبِـهِ، ورُسُـلِهِ، واليـومِ الآخـرِ، والقَـدَرِ كلـه خـيره وشرِه...»[1].

وأما عمل الـصالحات؛ فهـو القيـام بـالأعمال الـصالحة، والعمـل الصالح هو ما جمع بين وصفين: الوصف الأول: الإخلاص لله ـ تعالى ـ بألا يريد بعمله إلا وجه الله ﷺ الدار الآخرة، لا يريد شيئًا من الدنيا. والثاني: المتابعة لرسول الله و؛ بحيث يكون متأسيًا بـه ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ، فإن فُقد الإخلاص صار في عمل الإنـسان إشراك، والله لا يقبل الشرك؛ كما جاء في الحديث الصحيح الـذي رواه النبـي ﷺ عـن ربه: «إن الله قال: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِـلَ عَمَـلًا أَشْرَكَ فيهِ مَعيَ غيري؛ تَركتُهُ وشِرْكَهُ»[2]، وإذا لم يكن متبعًـا فيـه الرسـول ﷺ كان عملًا بدعيًّا؛ والعمل البدعي مردود؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنا هذا ما لَيسَ مِنهُ؛ فهو ردٌّ»[3]، وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لـيسَ

---

(١) رواه ـ عن أبي هريرة ـ البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي و عن الإيمان والإسلام...، رقم (٥٠)؛ ورواه ـ ضمن حديث طويل عن عمر ـ مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان، والإسلام، والإحسان، رقم (٨).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٠).

(٣) رواه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا علـى صلح جور؛ فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)؛ ومسلم:، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

عليه أمرنا؛ فَهُوَ ردٌّ»[١]؛ فالعمل الصالح هو ما جمع هذين الوصفين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

ثم بيَّن - عَزَّ وَجَلَّ - جزاء هؤلاء الذين اتصفوا بهذين الوصفين: الإيمان والعمل الصالح، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ الجنة: هي الدار التي أعدَّها اللهُ للمتقين، وفيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان جزاء المؤمنين الذين عملوا صالحًا، وهو أنهم مخلدون في الجنة.

٢- **ومن فوائدها**: أنه لا يتم دخول الجنة إلا بهذين الأمرين: الإيمان والعمل؛ فالإيمان وحده لا يكفي، والعمل وحده لا يكفي؛ لابد من إيمان وعمل؛ ولهذا ينبغي أن نركز في خطابنا في الوعد والدعوة إلى الله على الأمرين معًا: على الإيمان الذي هو أساس العقيدة، وعلى العمل الصالح الذي به تتم هذه العقيدة.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحًا، وهو ما جمع بين الإخلاص والمتابعة لرسول الله ﷺ كما أسلفنا في تفسيرنا لهذه الآية.

---

[١] سبق تخريجه ص (٤٩).

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بطلان العمل الذي فيه الـشرك؛ لأن الله اشترط لتأثير العمل واستحقاق الجـزاء عليـه أن يكـون عمـلًا صالحًا.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآيـة الكريمـة**: أن أهـل الجنـة مخلـدون فيهـا، وتخليدهم أبدي؛ كما دَلَّت على ذلك آيات كثـيرة، وأجمـع عليـه سـلف الأمة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ﴾؛ الضمير في قوله: ﴿أَخَذْنَا﴾ راجع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وجاء بهذه الصيغة تعظيمًا لله؛ لأنه ـ سبحانه وتعـالى ـ يعبر عن نفسه أحيانًا بصيغة الجمع، وأحيانًا بـصيغة الإفـراد، والتعبـير بصيغة الإفراد ما هو معلوم بأن الله ـ تعـالى ـ واحـد، والتعبـير بـصيغة الجمع للدلالة على العظمة؛ وذلك لأن ضمير الجمع تارةً يُرادُ به الجمع الذي هو العدد، وتارةً يُرادُ به التعظيم؛ كما في هـذه الآيـة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ والميثاق هو العهد، وسُمي ميثاقًا؛ لأنه توثقة بـين المتعاهدين، وبنو إسرائيل هم بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم

أبناء عم للعرب؛ لأن العرب من ذرية إسماعيل، وبنو إسرائيل من ذرية إسحاق؛ وإسماعيل وإسحاق أخوان، أبوهما إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام-، هذا الميثاق هو:

أولًا: ألا يعبدوا إلا الله؛ لا يعبدون ملكًا، ولا رسولًا، ولا حجرًا، ولا شجرًا، ولا غير ذلك مما سوى الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

الثاني: أن يحسنوا إلى الوالدين بالبر إليهما وعدم العقوق.

الثالث: أن يحسنوا إلى ذوي القربى بالصلة وعدم القطيعة.

الرابع: أن يحسنوا إلى اليتامى؛ وهم الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا، ويشمل الذكور والإناث من اليتامى.

الخامس: الإحسان إلى المساكين؛ وهم الفقراء المعدمون، وسموا بذلك؛ لأن الفقر أسكنهم وأذلهم؛ فإن الفقر يوجب سكون الإنسان وذله -نسأل الله أن يغنينا بفضله عن خلقه-.

أما السادس: أن يقولوا للناس حسنًا، وهذا يشمل المخاطبة فيما بينهم وبين الناس، ويشمل ما يدعون الناس إليه مما يكون شريعة؛ بحيث لا يقولون للناس إلا ما هو حسن، ولا يكون المدعو إليه حسنًا إلا إذا كان موافقًا لشريعة الله.

السابع: إقامة الصلاة؛ أي: أداؤها على الوجه الذي أمر الله به.

الثامن: إيتاء الزكاة؛ أي: إعطاء ما يجب إعطاؤه من المال إلى أهله.

ولكن هل هؤلاء الذين أُخذ عليهم الميثاق قاموا بذلك؟ يقول الله

ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾، والخطاب في قوله: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ لبني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ إلا قليلًا منهم فإنهم قاموا بهذا العهد، وآمنوا بمحمد ﷺ؛ مثل عبدالله بن سلام، والنجاشي؛ وعبدالله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، فهذان وأمثالهما ممن لم يتولوا، بل قاموا بالعهد والميثاق على ما عاهدوا عليه، وواثقوا عليه، ثم قال: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: أنهم تولوا وهم معرضون، ليس فيهم شيء من الإقبال على ما جاء به محمد ﷺ.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١ ـ بيان عتو بني إسرائيل، وأنهم مع العهود والمواثيق لا يفون.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** التحذير مما وقع فيه هؤلاء من مخالفة الميثاق، وعدم الوفاء به؛ لأن الله ـ تعالى ـ إذا ذكر أخبار من سبق؛ فإنه لا يذكرها على سبيل التلهي بها والنظر المجرد، ولكنه يذكرها ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ من أجل أن نعتبر بها، وأن نأخذ منها عبرة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الدعوة للإخلاص في جميع الأمم؛ لقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ وهذه الدعوة جاء بها كل الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وكما قال الله ـ

تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٤ - **ومن فوائد هذه الآية**: وجوب الإحسان إلى الوالدين؛ والإحسان يكون بالقول، ويكون بالفعل؛ فالإحسان بالقول معناه أن يُلين الإنسان لهما قوله، وأن يكون قولًا كريمًا طيبًا سمحًا، والإحسان بالفعل يكون ببذل المال، وبخدمة البدن، وغير ذلك مما يكون إحسانًا، والآية مطلقة ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، وليعلم أن أحق الوالدين بالصحبة هي الأم؛ كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين سئل: مَنْ أحقُّ الناس بِحُسْنِ صحابتي[1]؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثُمَّ أبُوك»[2]، ولكن هذا لا يعني ألا نعطي الأب حقه، بل له حق وللأم حق، لكن لما كانت الأم أنثى والغالب عليها الضعف، وأنها تحتاج إلى لينٍ أكثر صارت أحق الناس بصحبة الولد.

والإحسان للوالدين بالفعل: يكون ببذل ما يحتاج إليه الوالدان من المال من نفقة، وكسوة، وغير ذلك بقدر المستطاع، ويكون أيضًا بالبدن؛ وهو القيام بخدمة الوالدين حينما يحتاجان لذلك؛ ولهذا قال

---

(١) الصحابة ـ هنا ـ بمعنى الصحبة.

(٢) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن صحابتي، رقم (٥٩٧١)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم (٢٥٤٨).

الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الإحسان إلى ذي القربى؛ أي: إلى أصحاب القرابة، سواء أكانوا من قبل الأم أم من قبل الأب، والإحسان إليهم يكون كالإحسان إلى الوالدين؛ أي: بالقول وبالفعل، ولكن الإحسان إلى الوالدين أوكد وأعظم؛ لأنهم أقرب القربى إليك.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب الإحسان إلى اليتامى؛ وهم الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا؛ وذلك لأن هذا اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه وراعيه، فكان من رحمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وحكمته أن أوصى بالإحسان إليه.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب الإحسان إلى المساكين عند الضرورة إلى ذلك، ومشروعيته على سبيل الاستحباب إذا لم يكن هناك ضرورة؛ وذلك لأن المساكين قد أسكنهم الفقر وأذلهم؛ فهم بحاجة إلى مَنْ يجبرهم بالإحسان إليهم؛ ولهذا وصَّى الله بذلك، وجعله من العهود والمواثيق على بني آدم.

٨ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوبُ القول الحسن في مخاطبة

الناس، وفي دعوتهم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن القول الحسن إن كان المراد به ما هو ضد القول السيئ؛ فإن القول الحسن هنا يكون واجبًا؛ أي: أنه يجب على الإنسان أن يخاطب الناس بما لا يسيء إليهم، بل بما يكون فيه منفعتهم الدينية والدنيوية، ومن القول الحسن: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله؛ فإن هذا كله من القول الحسن، وضده القول السيئ الذي يكون به الإساءة والعدوان على الناس؛ فإنه مُحَرَّمٌ.

٩ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوبُ إقامة الصلاة؛ أي: الإتيان بها على الوجه المشروع، إلزامًا في الواجبات، وندبًا في المستحبات، والصلاة معروفة؛ وهي موجودة في جميع الملل؛ كما يفيده قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وكما تفيد هذه الآية الكريمة من أن بني إسرائيل قد أُخذ عليهم الميثاق بأن يقيموا الصلاة.

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوبُ إتيان الزكاة، وهي القدر المفروض في المال الزكوي، يؤتى إلى أهل الزكاة لا إلى غيرهم.

١١ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عتوِّ بني إسرائيل، وأنهم ـ مع هذا العهد والميثاق على هذه الخصال الحميدة ـ لم ينقادوا، ولم يفوا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾.

١٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛

وذلك باستثناء هؤلاء القليل ممن تولى؛ إذ لم يحكم بالتولي على جميع بني إسرائيل، وإنما حكم به على من قام به واستحقه، وهذا من كمال عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

١٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن بني إسرائيل ـ مع توليهم ونكثهم لهذا الميثاق ـ كانوا مُعرضين عن الحق، غير متجهين إليه؛ فجمعوا بين الانحراف القلبي والانحراف البدني.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

بَيَّـنَ الله ـ تعالى ـ في هاتين الآيتين أنه ـ تعالى ـ أخذ ميثاقًا آخر على بني إسرائيل؛ وهو عدم عدوان بعضهم على بعض؛ كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾؛ قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ يعني: لا تريقونها بالقتل، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، وإنما أضاف الدماء إليهم

والإخراج إلى الأنفس؛ لأن الأمة الواحدة كأنها نفس واحدة؛ فإخراج بعضهم يكون كإخراج أنفسهم هم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾: أي: من كان منكم من دياركم، ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: أي: أنكم مقرون بهذا الميثاق، شاهدون به، ولكن هل استمروا عليه؟ الجواب: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾، فلم تفوا بالميثاق، بل قتلتم أنفسكم وأخرجتم فريقًا منكم من ديارهم، أخرجتموهم على وجه من العلو والاستكبار عليهم، ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، ومع ذلك إذا أتوكم أسارى فاديتموهم؛ يعني: لو اسرو؛ فإنكم تحرصون على أن تفادوهم مع أن إخراجهم في الأصل حرام عليكم، ففي هذا الفعل تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾؛ مثل إنقاذ من أُسر منكم بالمفاداة ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ؛ مثل قتل بعضكم بعضًا وإخراج بعضكم بعضًا من ديارهم؛ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جزاء؛ أي: مجازاته ومكافأته على عمله، وقوله: ﴿مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ احتراز من العموم؛ لأنه ليس كلهم يفعلون هذا، ولكن من يفعل هذا فهذا جزاؤه الخزي في الحياة الدنيا وبيان عيبه، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وإنما يردون إلى أشد العذاب؛ لنكثهم العهد والميثاق الذي بينهم وبين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ثم ختم الله

الآية ببيان كمال علمه ومراقبته في قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

١- العدول عن الكلام بصيغة الغيبة إلى الكلام بصيغة الخطاب؛ لأنه أشد وأوقع في النفس؛ ففي الآية التي سبقت هاتين الآيتين يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وفي هذه الآية يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾، فعدلَ عن الكلام بالغيبة إلى الكلام بالخطاب؛ لأنه أبلغ وأشد.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: تحريم الدماء في الأمم السابقة كما هو محرم في هذه الشريعة، وقد أعلن النبي ﷺ هذا التحريم في أكبر مجتمع اجتمع به مع أمته، وذلك في حجة الوداع؛ حيث سألهم: «أي يوم هذا؟ وأي شهر هذا؟ وأي بلد هذا؟»، «فإنَّ دماءَكُمْ، وأموالكم، وأعراضكم بينكم حرامٌ؛ كحرمةِ يَوْمكمْ هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»(١).

والدماء من أعظم العدوان حرمة وجزاء؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وأخبر النبيُّ ﷺ بذلك؛ فقال:

(١) رواه البخاري: كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع»، رقم (٦٧)؛ ومسلم: كتاب القسامة، باب تحريم الدماء، والأعراض، والأموال، رقم (١٦٧٩).

«أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة الدماء»[1].

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحريم إخراج الإنسان من بلده إلا بمقتضى الشرع؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** استعمال ما يوجب العطف، والحنان، والرحمة في الخطاب؛ لقوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾؛ حيث جعل دماء الغير كدماء الإنسان نفسه، وجعل إخراج الغير كإخراج الإنسان نفسه.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عتوِّ بني إسرائيل؛ حيث إنهم أقروا بهذا الميثاق، وشهدوا به، ولكنهم لم يقوموا بتطبيقه والعمل به.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من العمل بما عمل به هؤلاء من أخذ الميثاق بين العبد وبين ربه، ثم بعد ذلك ينكثه، ولا يفي به.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن هؤلاء الذين لم يطبقوا الميثاق وصاروا يقتلون أنفسهم، ويخرجون فريقًا منهم من ديارهم

---

[1] رواه البخاري: كتاب الرقاق، كتاب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٣)؛ ومسلم: كتاب القسامة، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، رقم (١٦٧٨).

يعتبرون مؤمنين ببعض الكتاب وكافرين ببعض، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كفر به جميعًا؛ لقوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾؛ وأشد العذاب لا يكون إلا للكافرين؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]؛ فبيَّنَ اللهُ أنَّ هؤلاء الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض كافرون حقًّا، وهذه مسألة خطيرة عظيمة؛ لأن بعض الناس يؤمن ببعض الشريعة ويكفر ببعضها، ثم يقول: إنه مؤمن باعتبار أصل عقيدته، وهذا لا ينفعه؛ إذ لابد في الإيمان من أن يكون إيمانًا شاملًا لكل ما جاءت به الشريعة.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تناقض بني إسرائيل؛ حيث إنهم يخرجون فريقًا منهم من ديارهم متعالين عليهم بالإثم والعدوان، ثم إذا أتوهم أسارى فادوهم، وهذا تناقض؛ كيف يخرجونهم من ديارهم، ثم يفادونهم إذا أتوهم أسارى؟

٩ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة الثانية**: أن عمل بني إسرائيل من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كان سببًا لهذه العقوبة العظيمة، أنهم يخزون في هذه الدنيا، وفي يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة الثانية**: بيان عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في

الاحتراز من العموم إذا لم يكن الحكم عامًّا؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ﴾، ولم يقل: «فما جزاؤكم» مع أن الخطاب في الأول كان للجميع؛ حيث قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾، ثم قال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ﴾، وهذا من باب الاحتراز الدال على كمال عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حتى في التحدث عن الغير.

١١ـ **ومن فوائد الآية الكريمة الثانية:** أنه يجب على الإنسان مراعاة العدل فيما يخاطب به غيره؛ فلا يتكلم عن أمة في مدح أو قدح على سبيل العموم إذا لم تكن كذلك، ولا يتكلم أيضًا عن أفعال الشخص المعين من قدح أو مدح على سبيل العموم إذا لم يكن كذلك؛ لأن هذا هو الحق والعدل.

١٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة الثانية:** إثبات يوم القيامة والجزاء فيه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾.

١٣ـ **ومن فوائدها:** أن العذاب مراتب، بعضه أشد من بعض؛ لقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾.

١٤ـ **ومن فوائدها:** إثبات الصفات المنفية في صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بمعنى أن الله موصوف بالإثبات وموصوف بالنفي، في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، لكن لِيُعْلم أن الصفات المنفية عن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا يراد بها مجرد النفي؛ وإنما يُرادُ بها بيان كمال

ضدها؛ فإذا قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كان دالًّا على كمال علمه، وكمال مراقبته لعباده - عَزَّ وَجَل -، وأنه ليس بغافل عنهم.

١٥- **ومن فوائدها**: بيان كمال الله - عَزَّ وَجَلَّ - في عموم علمه ومراقبته؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأن «ما» من صيغ العموم، والعموم في اسم الموصول أو غيره يدل على السعة والشمول.

* * *

ثُمَّ قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إلى هؤلاء الذين نكثوا العهد من بني إسرائيل، فبيَّن اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أنَّ هؤلاء الذين نكثوا العهد إنما نكثوه لأغراض الدنيا وأعراضها؛ ولهذا قال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ﴾؛ أي: أخذوا الدنيا بدلًا عن الآخرة، وهؤلاء حكمهم في الآخرة أنه لا يُخففُ عنهم العذاب ولا هم ينصرون؛ لأنهم ماتوا وهم ناكثون لعهد الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١- بيان أن من خالف امر الله - عزَّ وَجَلَّ - فإنما يخالفه لغرض من الدنيا.

٢- **ومن فوائدها**: بيان سفه هؤلاء الذين نكثوا عهد الله؛ حيث اختاروا الدنيا على الآخرة مع أن الآخرة خير وأبقى؛ كما قال الله - تعالى -:

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

٣- **ومن فوائدها: التحذير من اختيار الدنيا على الآخرة،** ومن ذلك أن يتعامل الإنسان مع الناس بمعاملات محرمة؛ كالربا، والغش، والكذب، وغير ذلك؛ من أجل أن ينال عَرَضًا من الدنيا؛ فإن هذا من السفه والخطأ؛ لأن الدنيا زائلة فانية، والآخرة هي الباقية، وقد حَذَّر النبي ﷺ من هذه الفتنة في قوله ﷺ: «**إنها ستكون فتن؛ كقطع الليلِ المُظْلِم، يُصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا، يبيعُ دينَهُ بِعَرَضٍ من الدنيا**»[1].

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات العذاب والجزاء، وأن من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة لا يخفف عنه العذاب؛ لأنه اختار الدنيا على الآخرة؛ فيبقى مخلدًا في النار لا يُخفف عنه العذاب، وليُعلَم أن أصحاب النار فيها ـ والعياذ بالله ـ يقولون لمالك: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ويقولون لخزنة جهنم: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٩]، فأما جواب مالك لهم فيقول لهم: ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وأما جواب خزنة النار فيقولون لهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ [غافر: ٥٠].

---

[1] رواه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨).

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أصحاب النار ـ الذين هم أهلها ـ لا تنفع فيهم الشفاعة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، والشفاعة نوع من النصر، ولكن هؤلاء المستحقين الخلود في النار لا تنفع فيهم الشفاعة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر: ٤٨].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذه الآية: إنه أعطى موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ، ويؤكد ذلك الإعطاء بالقسم المقدر، واللام، وقد، وهذا الكتاب الذي أوتي موسى لم يكن آخر كتاب نزل على بني إسرائيل، بل إن الله ـ تعالى ـ قَفَّى من بعده بالرسل، فأرسل إلى بني إسرائيل الرسل تباعًا، وختم رسل بني إسرائيل بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فقال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: الآيات البيِّنات، وهي ما حصل من حمل أمه به من غير أب، ومن نطقه في المهد، ومما جاء به من إخراج الموتى من قبورهم، وإحياء الموتى قبل الدفن، وإبراء الأكمه والأبرص ـ بإذن الله ـ، كل هذه الآيات التي جاء

بها آيات بينات، لكن فيها آيات سبقت وجوده - أي: وجود عيسى -، وآيات بعد وجوده ورسالته، ومع هذا فإن عيسى - عليه الصلاة والسلام - مع أنه أوتي البينات قد أيده الله - تعالى - بروح القدس؛ وهو جبريل - عليه الصلاة والسلام -، أَيَّد اللهُ به عيسى؛ أي: قوَّاه به ونصره، ثم قال مخاطبًا بني إسرائيل وموبخًا لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ يعني: أفتبلغون إلى هذا الحال إذا جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، وإذا جاءكم رسول بما تهوى أنفسكم قبلتم، ولكن هذا الأخير قد لا تدل عليه الآية الكريمة؛ لأن جميع الرسل الذين جاءوا بالحق إلى بني إسرائيل جاءوا بما لا تهوى أنفسهم - أي: أنفس بني إسرائيل -، ثم انقسم بنو إسرائيل - بالنسبة إلى هؤلاء الرسل - إلى فريقين: ففريقًا كذبوا وفريقًا قتلوا، وآخر من كذبوه هو محمد ﷺ؛ فإنهم كذبوه بعد أن جاءهم بالبينات حتى كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم استكبروا، ولم يقبلوا ما جاء به، بل عاهدوه ونقضوا العهد معه، وقاتلوا أصحابه، وما زالوا إلى يومنا هذا أعداء لأتباع محمد ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، فبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - حال بني إسرائيل مع الرسل أنهم على هذين القسمين: إما أن يكذبوا وإما أن يقتلوا؛ فتكذيبهم تكذيب بالحق، وقتلهم قتل بغير حق؛ كما قال الله - تعالى - في آية أخرى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[آل عمران: ٢١].

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١ـ بيان ما منَّ الله به على موسى ﷺ من إتيان الكتـاب، وموسـى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أفضل أنبيـاء بنـي إسرائيـل، والتـوراة هـي أعظم الكتب المنزلة على بني إسرائيل؛ ولهـذا يقـرن الله ـ تعـالى ـ بينهـا وبين القرآن أحيانًا؛ لأن القـرآن أفـضل الكتـب المنزلـة عـلى الأنبيـاء، والتوراة أفضل الكتب المنزلة على بني إسرائيل.

٢ـ **ومن فــوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات نبوة موسى ﷺ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يهمل الخلق بلا رسل؛ فإنه قفَّى من بعد موسى بالرسل تباعًا؛ من أجل هداية الناس، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، فكل أمة خلا فيها نذير؛ لتقوم الحجة على العباد؛ فإن العباد إذا لم يأتهم رسل قد يكون لهم حجة على ربهم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ منع هذا الاحتجاج بإرسال الرسل؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

٤ـ **ومن الفوائد المستنبطة المأخوذة من هذه الآية**: أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قفَّى من بعد موسى بالرسل؛ من أجل أن تبقى آثار الرسالة في العباد.

٥ـ **ومن فوائدها**: إثبـات نبـوة عيـسى ﷺ؛ حيـث قـال: ﴿وَءَاتَيْنَا

عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٦ـ **ومن فوائدها**: أن الله أعطى عيسى ابن مريم بينات من الأمر تبين رسالته، وأنه عبد الله ﷺ رسوله، والبينات هذه شاملة جميع الرسل؛ فما من رسول إلا آتاه الله ما على مثله يؤمن البشر؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

٧ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث إنه ـ جلَّ وعلا ـ إذا أرسل الرسل جعل معهم بينات تشهد لهم بالصدق، وهذا من كمال حكمته، وكمال رحمته أيضًا؛ لأنه لو جاء رسول من الخلق دون أن تكون معه آية تدل على صدقه؛ لم يقبل الناس منه، ولكن الله ـ تعالى ـ بحكمته ورحمته ـ جعل مع كل رسول آية تدل على صدقه، وأنه رسول الله حقًّا.

٨ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: مِنَّةُ الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم؛ حيث أَيَّده بروح القدس جبريل ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ.

٩ـ **ومن فوائدها**: بطلان دعوى النصارى بألوهية عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه أُيِّد بروح القدس، ولو كان إلهًا لم يحتج إلى تأييد أحد، ولكنه عبد الله ورسوله؛ كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسولُهُ، وأن عيسى عبدُ الله ﷺ رسولُهُ، وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم

وروحٌ منه...»[1]، وقد تَبَرَّأ عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من دعوى من ادَّعى أنه إله معبود مستحق للعبادة في قوله ﷺ حين يسأله الله يوم القيامة: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

١٠- **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات الملك الكريم جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي وصفه الله بأنه روح القدس في هذه الآية وفي غيرها؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢].

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن بني إسرائيل لا يقبلون ما جاءت به الرسل، بل كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم ـ أي: بما لا يعتقدون أنه حق ـ استكبروا.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن بني إسرائيل انقسموا في

---

(١) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾، رقم (٣٤٣٥)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب من لقي ربه بالإيمان ـ وهو غير شاك فيه ـ دخل الجنة، رقم (٢٨).

جانب الرسل إلى قسمين: فريق كذبوا الرسل، وفريق قتلوهم؛ لقولـه: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ الضمير يعود على بني إسرائيل؛ لأن هذه الآيات كلها في التحدث عنهم، ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ أي: مغلفة لا يصل إليها ما جاء به محمد ﷺ من الحق، فبيَّن اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بطلان دعواهم هذه في قوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: أن الله طردهم وأبعدهم عن رحمته بكفرهم، فران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وإذا ران على القلب عمل العبد؛ فإنه لن يصل إليه الخير، يُطبع على قلبه فلا يصل إليه الخير، فيظن أن قلبه لم يُخلق منفتحًا لهذا الخير، ويَدَّعي أن قلبه أغلف، ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: أن إيمانهم قليل؛ بسبب لعنة الله لهم بكفرهم.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١ ـ أن بني إسرائيل يدّعون ما ليس بحق حينما يدعوهم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو غيره من أنبيائهم فيقولون: إن قلوبهم غلف؛ يعني: مغلفة لا يصل إليها ما دعوتم إليه، ووجه إبطال هذا قوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: بل ليس الأمر ما يدّعون، وإنما

الأمر أنهم كفروا؛ فلعنهم الله فلا يصل إلى قلوبهم الخير.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عقوبة الله لهؤلاء باللعنة؛ وهي الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

٣- **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ فإن الباء - هنا - للسببية.

٤- **ومن فوائدها:** أن الكفر - والعياذ بالله - يوجب انطماس القلب، والطبع عليه؛ بحيث لا يصل إليه الخير؛ لقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن بني إسرائيل يقل فيهم الإيمان، والقلة هنا إما أن يكون المراد بها العدم، لقوله: ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وإما أن يراد بها أنه قد ترد على قلوبهم أحيانًا واردات يكون فيها شيء من الإيمان، ولكنه شيء قليل لا يصل إلى إزالة الكفر عن هذه القلوب.

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

قول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ المراد به القرآن؛ فهو من عند الله؛ لأن الله - تعالى - تكلم به وتلقاه جبريل، ثم نزل به على قلب النبي ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: أن هذا القرآن مصدق ما معهم من الكتب؛ وتصديق القرآن لما معهم من الكتب على

وجهين: الوجه الأول: أن حكم بصدق هذه الكتب السابقة، وأوجب على الناس أن يؤمنوا بها؛ وهذا يعني أنه قال: إنا صادقة.

والوجه الثاني من التصديق: أن الكتب السابقة أخبرت به؛ فجاء مصدقًا لما أخبرت به مطابقًا له، وكلا الوجهين حق، لما جاءهم هذا الكتاب من عند الله مصدقًا لما معهم.

﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ يعني: أن هؤلاء اليهود كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا؛ أي: يستنصرون عليهم بالرسول الذي وُعدوا به، وكانوا يقولون: إنه سيبعث نبي، وسنكون من أتباعه، وسننتصر عليكم، يقولون ذلك للكافرين، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾؛ أي: جاءهم ما عرفوا أنه الحق، وأنه الرسول الذي كانوا ينتظرونه؛ ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ لم يقبلوا ما جاء به؛ ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ يعني: أن هؤلاء لما كفروا بالرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي عرفوه كما يعرفون أبناءهم استحقوا اللعنة من الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ وهي الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهنا قال ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ولم يقل: «**فلعنة الله عليهم**»، والإظهار في موضع الإضمار له فوائد؛ منها: الحكم على مرجع الضمير بهذا الوصف الظاهر الذي حلَّ محل الضمير، ومنها: إرادة التعميم فمثلًا لو قال: «**فلعنة الله عليهم**» لم تشمل غيرهم، ولكن إذا قال: «**على الكافرين**» شملتهم وشملت غيرهم من الكفار، ثم لو قال: «**فلعنة الله عليهم**» لم

يتبين أنهم كفار بهذا الكفر، ولكنه قال: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾؛ ليحقق بذلك اتصافهم بالكفر.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ أن بني إسرائيل قد امتد طغيانهم وعتوهم وتكـذيبهم للأنبيـاء حتى آخر الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ.

٢ـ **ومن فوائدها**: أن القرآن الذي جاء بـه محمـد ﷺ مـن عنـد الله ليس منقولًا عليه.

٣ـ **ومن فوائدها**: إثبات كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن القـرآن كـلام بلا شك، فإذا كان من عنـد الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ دلَّ هـذا عـلى أنـه كلامه، وهذا هو ما يذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن القرآن كلام الله، حروفه ومعانيه، وأنه منزَّل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

٤ـ **ومن فوائدها**: الثناء على كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ القرآن؛ لكونـه مصدقًا لما سبقه من الكتب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها**: أن الحجة على بني إسرائيل كانت معهـم، وبـين أيديهم؛ فكتبهم كلها ناطقة متحدثة عن هذا القـرآن الكـريم، مـصدقة له، مخبرة به، ومع ذلك كفروا به عتوًّا وطغيانًا.

٦ـ **ومن فوائدها**: بيان الحسد العظيم في بني إسرائيل؛ حيث كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ظنًّا منهم أن النبي الذي تحدثت عنه كتبهم سيكون من بني إسـرائيـل؛ فلمـا تبين أنه من بني إسماعيل

كفروا به؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٧ـ **ومن فوائدها**: أن بني إسرائيل كفروا عن عناد وبيان؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

٨ـ **ومن فوائدها**: أن الكفر عن معرفة أشد من الكفر عن جهل؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾، ولم يقل: «**فلما جاءهم الرسول**»، أو «**جاءهم صاحب هذا الكتاب**»، أو ما أشبه ذلك؛ بل قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾؛ بيانًا لشناعة ما حصل منهم.

٩ـ **ومن فوائدها**: أن بني إسرائيل لما كفروا استحقوا اللعنة التي أوجبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل كافر؛ أي: أن لعنة الله حاقة على كل كافر؛ ولهذا قال: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ مبينًا قبح ما ذهبوا إليه؛ لكونهم اختاروا لأنفسهم الكفر بما أنزل الله؛ حسدًا وبغيًا منهم أن ينزل الله من

فضله على من يشاء من عباده؛ فإنهم حسدوا العرب حينما جاء النبي ﷺ منهم، واختاروا لأنفسهم الكفر على الإيمان، قال الله - تعالى -: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾؛ أي: أنهم أتوا بغضب على غضب، وهذا لا يعني أنهم باءوا بغضبين فقط، بل بأكثر؛ فهم استحقوا غضب الله - عَزَّ وَجَلَّ - بعبادة العجل في زمن موسى - عليه الصلاة والسلام -، وبتكذيب عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام -، وبتكذيب محمد ﷺ؛ فهم باءوا بغضب على غضب؛ أي: رجعوا به - والعياذ بالله - والغضب الذي رجعوا به هو غضب من الله - سبحانه وتعالى -، ثم قال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وهذه عامة وأول من يدخلها هؤلاء الذين كفروا بمحمد ﷺ؛ لأنهم اختاروا لأنفسهم الكفر، وإنما قال: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ لأنهم كفروا استكبارًا وتعاظمًا وعلوًّا؛ فكان جزاؤهم هذا العذاب الذي يهينهم ويلحقهم الذل والهوان.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١ـ بيان قُبح ما اختاره هؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل؛ لقوله: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾.

٢ـ **ومن فوائدها**: إثبات أن ما جاء به محمد ﷺ من عند الله؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها**: أن الذي حملهم على ذلك هو البغي والعدوان،

وهذا من طبيعة بني إسرائيل، أنهم بغاة عتاة متمردون على الحق.

٤- **ومن فوائدها**: بيان أن العلم الذي يهبه الله ـ تعالى ـ للشخص في شريعة الله من فضله، بل هو أعظم فضل يمن الله به على العبد بعد هدايته لدينه أن يرزقه الله ـ تعالى ـ العلم، والعلم أفضل من المال؛ لما فيه من النفع الكثير الواسع؛ وقد جاءت آيات كثيرة، بل وأحاديث كثيرة تدل على بيان فضل العلم، وأنه أعظم نعمة مَنَّ اللهُ بها على العبد.

٥- **ومن فوائدها**: إثبات المشيئة لله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، ومشيئة الله ـ تعالى ـ عامة، عامة في كل شيء، فيما يفعله هو بنفسه، وفيما يفعله العباد.

٦- **ومن فوائدها**: أن هؤلاء الذين اختاروا لأنفسهم الكفر بمحمد ﷺ قد باءوا بغضب على غضب؛ أي: تراكم عليهم الغضب من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهذا يدل على أن الغضب إذا تكرر كان أعظم قبحًا مما إذا كان غير متكرر.

٧- **ومن فوائدها**: إثبات العذاب للكافرين، وأنه عذاب مهين يلحقهم بالذل والهوان؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: لبني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهو هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ لم يقبلوا هذا القول، بل يردونه بقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من الكتب التي نزلت عليهم كالتوراة على اليهود، والإنجيل على النصارى، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، أي: بما سواه، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، يعني: أن الذي كفروا به هو الحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾، والحق هو الشيء الثابت، وضده الباطل الزائل.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾، أي: أن القرآن الكريم صدق ما معهم من كتب، وكان تصديقه لها على وجهين: **الوجه الأول**: أنه بيَّن أنها كتب مشتملة على الصدق، **والوجه الثاني**: أنه صدقها؛ حيث كانت تتحدث عنه، وتبينه، وأنه سيكون فكان؛ يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾، أي: قل لهم يا محمد: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إذا كنتم تدعون أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم، فَلِمَ تقتلون أنبياء الله الذين جاءوا بالوحي من الله؟ وهل هذا إلا كذب منكم وعدوان واستكبار على الحق؟! ولو كنتم مؤمنين حقًّا ما قتلتم الأنبياء الذين جاءوا منكم، وأتوا بالكتب منزلة عليكم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان تعصب اليهود والنصارى لما هم عليه من الطريق، ولو كانت طريقًا خاطئة؛ لأن رسالتي اليهود والنصارى نُسِخَتا بمجيء محمد ﷺ، وصارتا غير مقبولتين عند الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢- **ومن فوائدها**: التحذير من التعصب لما مع الإنسان إذا كان باطلًا؛ لأن الله ذكر هذا عن بني إسرائيل؛ تحذيرًا من طريقتهم.

٣- **ومن فوائدها**: أن هؤلاء ـ أعني: بني إسرائيل ـ إذا عرض عليهم الحق ردوه، وتعصبوا للباطل الذي هم عليه، وكفروا بما سواه؛ لقوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾.

٤- **ومن فوائدها**: أنهم ـ أعني بني إسرائيل ـ يردون الحق المصدِّق لما معهم، وكان الذي يجب عليهم ـ عقلًا وشرعًا ـ أن يقبلوا الحق، ولا سيما أنه مصدق لما معهم، ومبين أنه الحق؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾.

٥- **ومن فوائدها**: إقامة الحجة على كذب هؤلاء، الذين يَدَّعون أنهم يؤمنون بما أُنزل إليهم؛ لأنهم كانوا يقتلون الأنبياء، ولو كانوا صادقين في الإيمان بما أنزل إليهم ما قتلوا الأنبياء.

٦- **ومن فوائدها**: أنه ينبغي عند المحاجة أن يذكر المحاج ما يفحم

به الخصم، ويبيِّــن كذبـه، وبطـلان دعـواه؛ لقولـه: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها**: بيان أن بني إسرائيل لا يقبلون الحق من كل مـن جاء به، ولكن إذا جاءهم ما تهوى أنفسهم سكتوا، وإذا جـاءهم مـا لا تهوى أنفسهم قتلوا أو يكذِّبون ويصرِّحون بالتكـذيب إذا لم يبلغـوا إلى حد القتل كما سبق في آية قبل هذه.

* * *

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة: ٩٢].

في هذه الآية يخاطب الله بني إسرائيل موبخًا لهـم عـلى مـا حـصل منهم؛ حيث إن موسى عليه السلام جاءهم بالآيات البينات الدالة على رسالته، وصدق دعوته، ومع ذلك اتخذوا العجل من بعـده إلهًا وهـم ظالمون؛ أي: ظالمون لأنفسهم بهذا الاتخاذ

وسبب ذلك أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعده الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر؛ فبقي غائبًا عن قومه أربعين ليلة، وكان قد خلف عليهم هارون ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فلمَّا تأخر عن الثلاثين؛ فُتنوا بما صنعه السامري من العجل المكون من الذهب الذي استعاروه، وقال لهم: إن هذا هو إلهكم وإله موسى؛ فعبدوا العجل وهم يعلمون أنه من صنعهم، وأنهم هم الذين صنعوه

وأحدثوه، ومع ذلك اتخذوه إلهًا، وقد نصحهم هارون ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولكنهم ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]، وهذا ـ لا شك ـ دليل على سفههم، وعتوهم، وطغيانهم، أن يتخذوا إلهًا على صورة العجل، هم الذين صنعوه بأنفسهم وهو من جملة القبائح التي هم عليها.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- في هذه الآية بيان واحد من أمور كثيرة تدل على عتو بني إسرائيل، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم.

٢- **وفيها ـ أيضًا ـ من الفوائد**: المناداة إلى سفه هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهًا؛ فعبدوه مع أنه لا يرجع إليهم قولًا، ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا.

٣- **ومن فوائد هذه الآية**: أنهم اتخذوا العجل على حال ظلم؛ لأنهم يعلمون أن هذا العجل هم الذين صنعوه، وأنه ليس إلهًا، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ تعنتوا هذا التعنت، ونصحهم هارون، ولكنهم لم يقبلوا هذا النصح.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦ

إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ٩٣].

هذه الآية خطاب لبني إسرائيل في عهد الرسول و، ولكنهم لما كانوا أمة واحدة مع من سبقهم صحَّ أن يُوجَّه الخطاب إليهم بالشناعة عليهم بفعل غيرهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ ﴾؛ أي: العهد الثقيل الموثق، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾؛ وهو الجبل المعروف، رفعه الله عليهم؛ تخويفًا وإنذارًا حتى صار كالظلة فوق رءوسهم، وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم بقوة؛ أي: أن يأخذوا الكتاب الذي أنزله الله إليهم ـ وهو التوراة ـ بقوة في تصديق أخباره، والعمل بأحكامه، وأمرهم أن يسمعوا، ولكنهم عتوا وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ، وكان الواجب عليهم ـ وهم عباد الله الذين خُلقوا لعبادته ـ أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، وكان هذا العصيان والتمرد نتيجة ـ والله أعلم ـ لما أُشرب في قلوبهم من حب العجل؛ فإن هذا العجل الذي صنعوه وعبدوه تمكَّن في قلوبهم حتى شربته؛ أي: شربت حبَّهُ؛ بسبب كفرهم بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فهم لما عدلوا عن الحق عوقبوا بالإغراء بالكفر؛ لأن القلوب إما على حق وإما على باطل، فإذا انتفى الحق ثبت الباطل؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ ﴾؛ أي: بئس الأمر الذي يأمركم به إيمانكم من عبادة العجل، والطغيان، والعتوِّ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، ومن المعلوم أن من عبد مع الله غيره؛ فليس بمؤمن ولو ادَّعى أنه مؤمن، ولكن هذه الصيغة التي جاءت في آخر الآية من باب

التحدي لهم؛ إذا كانوا مؤمنين فلماذا يعبدون العجل؟! هل الإيمان يأمر بعبادة غير الله؟! لا.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- **من فوائدها:** قدرة الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ حيث نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، مع أن الجبل من الرواسي؛ فإن الجبال جعلها الله -تعالى- رواسي ثابتة في الأرض، ولكنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون.

٢- **ومن فوائدها:** بيان بلوغ الغاية في عتوِّ بني إسرائيل؛ حيث إنهم قيل لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، ولكنهم قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن السمع يطلق على الاستجابة والقبول؛ لقوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾؛ أي: اقبلوا واستجيبوا، لكنهم قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** وجوب الأخذ بقوة فيما نزل على الإنسان من وحي الله، وألا يقابل هذا الوحي بالكسل والضعف؛ يشهد لهذا قول النبي ﷺ: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ واسْتَعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شيْءٌ فلا تَقُلْ: لَو أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قل: قَدَرُ الله

ومَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(١).

٥- ومن فوائدها: أن الإنسان قد يُبْتَلَى بحب الباطل إذا أعرض عن الحق؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٦- ومن فوائدها: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ فإن الباء هنا للسببية.

٧- ومن فوائدها: التحذيرُ من ردِّ الحق، وأن الإنسان قد يُبتلَى إذا ردَّ الحق بمحبة الباطل؛ حتى يبقى عليه، وقد حذَّر اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ من هذا بما ذكره في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فإن الإنسان إذا ردَّ الحق، ولم يستجب له من أول الأمر قد يُبتَلَى بأن يُقلِّب اللهُ ـ تعالى ـ قلبه وبصره؛ حتى يكون في أمر مريج.

٨- ومن فوائدها: تقبيح ما ذهب إليه هؤلاء من محبة العجل، وعصيانهم، وكفرهم؛ لقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٩- ومن فوائدها: أنه ينبغي عند المحاجة أن يسلك المحاج ما فيه التحدي لخصمه؛ حتى يتبين قدرته على المدافعة؛ لأن مقام المتحدِّي أعلى وأقوى من مقام المتحدَّى، وقد جاء في القرآن الكريم كثير من هذا

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز...، رقم (٢٦٦٤)

النوع ـ أعني: التحدي ـ؛ أي: تحدي الخصم حتى يتبين عجزه، وأنه ليس على حق؛ من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]، ومثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي فيها تحدي الخصم حتى يتبين عجزه.

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

الخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ؛ أمره الله ـ تعالى ـ أن يقول لهؤلاء الموجودين في عهده من بني إسرائيل: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾؛ وذلك أنهم كانوا يدَّعون أنهم هم أهل الجنة، وأنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم يخلفهم المسلمون فيها، ويدَّعون أنهم أبناء الله تعالى

أحباؤه، وأنهم خلاصة الله ـ تعالى ـ من البشر، إلى غير ذلك من الدعاوى الباطلة التي يشهد ببطلانها حالهم التي هم عليها، فيقول الله ـ تعالى ـ لنبيه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، ومن المعلوم أنهم لن يتمنوا الموت؛ لأنهم يعلمون أنهم على باطل؛ ولهذا قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر، والظلم، والطغيان، ومن كانت هذه حاله؛ فإنه لا يمكن أن يتمنى الموت؛ لأنه لو تمنى الموت في هذه الحال لكان معناه أنه يتمنى استعجال العقوبة على نفسه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، هذه جملة استئنافية تبين أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أن هؤلاء ظلمة، وأنهم لا يمكن أن يتمنوا الموت؛ لما هم عليه من الظلم، ثم قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾؛ أي: لتجدن هؤلاء الموجودين من بني إسرائيل أحرص الناس على حياة، وإن كانت قليلة، يتمنون أن يبقوا في هذه الحياة الدنيا ولو قليلًا؛ ليتمتعوا بما فيها من اللذات التي لا تنفعهم يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾؛ يعني: ولتجدنهم أحرص الناس على حياة حتى من الذين أشركوا؛ يعني: فهم أحرص الناس على حياة، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ يعني: يحب ويتمنى أن يعمَّر ألف سنة، ولكنه لو عمِّر لم ينفعه ذلك، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾،

وسيجازيهم الله على أعمالهم بما يستحقون.

فوائد وأحكام هذه الآيات الكريمات:

١ ـ تحدي هؤلاء الذين ادَّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة لهم، وأنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، تحديهم بأمر هم قادرون عليه لو شاءوا؛ وهو تمني الموت إذا كانوا صادقين بأن الدار الآخرة لهم.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الموجودين من بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ لا يمكن أن يتمنوا الموت؛ لأنهم يعلمون أنهم على باطل؛ ومن كان يعلم أنه على باطل فلا يمكن أن يتمنى الموت؛ لأنه لو تمناه لكان يستعجل العذاب لنفسه.

٣ ـ **ومن فوائدها:** بيان علم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أنَّ التأبيد إنما يكون بحسب الحال والقرينة، فلا يكون تأبيدًا مطلقًا أبدًا؛ وذلك لأن أهل النار في النار يتمنون الموت؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وهؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل هم من أهل النار؛ كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذهِ الأُمَّةِ يهوديٌّ ولا نَصْرانيٌّ، ثم يَمُوْتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ

بالَّذي أُرسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّار»

٥ـ ومن فوائدها: بيان أن بني إسرائيل أحرص الناس على حياة، وإن كانت حياة زهيدة قليلة؛ لقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾.

٦ـ ومن فوائدها: أن المشركين أحرص الناس على حياة، ولكن هؤلاء اليهود من بني إسرائيل أشد حرصًا على الحياة من المشركين.

٧ـ ومن فوائدها: أن طول العمر لا يغني شيئًا إذا لم يكن الإنسان على حق وعلى خير؛ ولهذا جاء في الحديث: «أن رجلًا قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: مَنْ طَالَ عُمرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، قال: فأي الناس شر؟ قال: مَنْ طَالَ عُمرهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[٢].

٨ـ ومن فوائدها: أن عمر الإنسان حقيقة ما أمضاه في طاعة الله، وليس عمر الإنسان ما طال؛ فإن الإنسان قد يكون قصير العمر، ولكن يجعل الله في عمره بركة؛ ينتفع بنفسه وينتفع غيره؛ كما يوجد من بعض العلماء الذين عمّروا قليلًا، ولكنهم خلفوا خيرًا كثيرًا للأمة.

٩ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي لمن دعا لشخص بطول العمر أن يقرن

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤١)

(٢) رواه الترمذي: كتاب الزهد، باب منه، رقم (٢٣٣٠)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ وأورده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٥٤)، وقال: «رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح؛ والطبراني بإسناد صحيح؛ والحاكم؛ والبيهقي في الزهد وغيره».

ذلك بطاعة الله فيقول: أطال الله عمرك على طاعته؛ لأن طول العمر بدون طاعة لا يفيد الإنسان شيئًا، بل إذا كان في معصية؛ فإنه لا يزيده إلا شرًّا.

- ومن فوائدها: إثبات عموم علم الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وهذا قد دلَّت عليه النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة؛ حيث دلت على عموم علم الله - سبحانه وتعالى - بكل شيء، سواء من أفعاله أو من أفعال عباده، ذكر الله ذلك جملة، وذكره تفصيلًا؛ فذكره جملة مثل قوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والتفصيل مثل قوله - تعالى -: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]. ومثل قوله - تعالى -: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ومفاتح الغيب هي الخمس المذكورة في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، وآيات العلم كثيرة في كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

وكذلك أحاديث النبي ﷺ في علم الله، والفائدة من علمنا بذلك

هي: أن يكون الإنسان مراقبًا لربه، يخشى ربَّه في السر والعلانية، لا يكتم شرًّا، ولا يقول شرًّا، ولا يفعل شرًّا، ولقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ فبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه يعلم ما توسوس به نفس الإنسان؛ تحذيرًا من أن يضمر الإنسان في قلبه ما لا يرضاه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات الكريمات يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لكل من كان عدوًّا لجبريل: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾؛ حيث إن جبريل نزَّل هذا القــرآن على قــلب النبي ﷺ بإذن الله، وأول من صرح بأنه عدوٌّ لجبريل هم اليهودُ؛ وذلك لأن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينزل بهذا الوحي من عند الله، فيفضحهم، ويبين جبروتهم وطغيانهم؛ فكان عدوًّا لهم، فأمر الله نبيه بهذه الآية أن يقول: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، ولا يضر جبريل أن يكون

هؤلاء عدوًّا له، وإنما خصَّ الله التنزيل على القلب؛ لأن القلب هو محل الوعي، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فقد سبق الكلام على معناه، وأما قوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالمعنى: أن هذا القرآن هدى وبشرى للمؤمنين؛ هدى يهديهم، ويبين لهم الحق، ويبشرهم بما أعد الله لهم من الثواب والنعيم المقيم على إيمانهم.

ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، هذه الجملة الشرطية فيها بيان أن من كان عدوًّا لله؛ فإنه يكفر، وكذلك من كان عدوًّا لملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال؛ وجبريل وميكال من الملائكة، ولكنهما خُصَّا بالذكر؛ لأن جبريل يتنزل بما فيه حياة القلوب، وميكائيل مأمور بالقطر والنبات وفيه حياة الأرض.

وفي قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ إذ كان مقتضى السياق أن يقول: فإن الله عدوٌّ له، ولكنه أظهر في موضع الإضمار؛ لبيان حكم من كان عدوًّا لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال؛ فإنه كافر، ولأجل أن يكون هذا عامًّا في كل كافر، سواء أكان كفره بسبب عداوته لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال، أم بسبب آخر، ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ

إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾، يؤكد الله ـ عَزَّ وَجَـلَّ ـ أن الله أنـزل إلى رســـوله ﷺ آيات بينات، وهي هذا القرآن العظيم الذي بيَّـن اللهُ فيه كل ما تحتاجـه الأمـة في معاشـها ومعادهـا، ومـا يكفـر بهـذه الآيـات إلا الفاسـقون الخارجون عن طاعة الله.

فوائد هذه الآيات الكريمات:

١ـ **من فوائدها:** إثبات أن جبريل ـ عليـه الـصلاة والـسلام ـ نـزل بالقرآن الكريم عل قلب النبي ﷺ.

٢ـ **ومن فوائدها:** بيان فضيلة جبريل؛ حيـث كـان مـوكلًا بتنزيـل الوحي على رسول الله ﷺ.

٣ـ **ومن فوائدها:** أن القلب هو محل الوعي والحفظ.

٤ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن نزول جبريل بالوحي على رسول الله ﷺ كان بإذن الله الشرعي والقدري، وقد قسَّم أهل العلم إِذْنَ الله ـ تعالى ـ إلى قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي: فما تعلَّق بالمخلوقات فهو من الإذن الكوني، وما تعلَّق بالوحي فهو من الإِذن الشرعي، ومثال الإِذن الشرعى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله: ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]، ومثال الإذن الكوني قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: بإذن الله الكوني.

٥ـ ومن فوائدها: بيان أن جبريل ـ عليه الصلاة ﷺ السلام ـ وإن كان من الملائكة ـ له أعداء من البشر من بني آدم، ومن أولهم اليهود، كما ذكر ذلك المفسرون.

٦ـ ومن فوائدها: أن هذا القرآن لا يهتدي به وينتفع به إلا المؤمن، ولا يكون بشرى إلا للمؤمن، أما غير المؤمن فإنه لا ينتفع بهذا القرآن، ولا يكون القرآن بشرى له.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ إلى آخر الآية، من الفوائد:

١ـ أن كل من كان عدوًّا لله، أو لملائكته، أو لرسله، أو لجبريل وميكال؛ فإنه كافر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢ـ ومن فوائدها: أن كلَّ كافر هو عدو لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ويشهد لهذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المتحنة: ١].

٣ـ ومن فوائدها: أن كلَّ من كان عدوًّا لله؛ فإنه يجب أن يكون عدوًّا للمؤمنين؛ لأن من أحب أحدًا كان وليًّا لمن والاه، وعدوًّا لمن عاداه.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

هذه الآية فيها تأكيد من ثلاثة وجوه: اللام، وقد، والقسم المقـدر؛ يؤكد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيها أنه أنزل إلى الرسول ﷺ آيات بينات.

من فوائد هذه الآية:

١- **من فوائدها:** تأكيد أن القرآن نزل من عند الله، والآيات في هـذا كثيرة جدًّا.

٢- **ومن فوائدها:** أن القرآن آيات بينات، ليس فيهـا غمـوض ولا إشكال.

٣- **ومن فوائدها:** الرد على من قال: إن في القرآن آيـات مـشتبهات لا يعلم معناها الناس؛ فإن جميع آيات القرآن الكـريم معلومـة المعنـى، وليس فيها شيء مجهول المعنى لجميع الأمة، فلو كان فيهـا شيء مجهـول المعنى لجميع الأمة لم يكن القرآن بيانًا، بل كان بعضه بيانًا وبعـضه غـير بيان.

٤- **ومن فوائدها:** أنه لا يكفر بهذه الآيات التي أنزلها الله على محمـد ﷺ إلا الفاسق الخارج عن طاعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٥- **ومن فوائدها:** أن كل من كـان أطـوع لله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ وأقـوم لطاعته؛ كان ظهور الآيات الكريمات في القرآن أبين عنـده وأوضـح؛ لأن الحكم إذا رُتِّبَ على شيء ـ أي: على وصـف ـ فإنـه يثبـت بثبوتـه، وينتفي بانتفائه.

٦- **ومن فوائدها:** أنه يجب علينا أن نعتني بهذا القرآن الكريم، وأن

نستبين ما فيه من الآيات؛ حتى ننتفع به، وحتى يكون منهجًا نسير عليه في اعتقاداتنا، وفي عباداتنا، وفي معاملاتنا؛ فإن هذا القرآن شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾.

يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذه الآية موبخًا هؤلاء القوم؛ بنبذ فريق منهم لما عاهدوا عليه ـ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾، ثم يبين أن هذا النبذ بالعهد؛ لكون أكثرهم لا يؤمنون ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ توبيخ من عاهد عهدًا فنبذه.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنه إذا وقع الخطأ من بعض قوم؛ فإنه لا يُنسب الخطأ إلى الجميع، بل العدل أن يشار إلى أن هذا الذي حصل إنما كان من فريق منهم؛ لئلا يلحق العار جميع القوم مع براءة بعضهم منه.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن نقض العهد علامةٌ على نقص الإيمان؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أن من خصال النفاق الغدر بالعهد.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

وهذه الآية كسابقتها، فيها التوبيخ لهؤلاء القوم الذين عرفوا الحق، ولكن فريقًا منهم نبذه، وكأنهم لا يعلمون به، فيقول ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، وذلك من وجهين:

الأول: أن القرآن شهد بصدق ما جاء به موسى وعيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

والثاني: أنه صدَّق ما أخبرا به عن هذا الرسول الذي بُشِّرَ به بنو إسرائيل؛ كما قال عيسى ابن مريم: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ويبيِّنُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذه الآية ـ أعني آية البقرة ـ أنه لما جاءهم هذا الرسول المصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله ﷺ راء ظهورهم، ولم يقل: «نبذ فريق منهم» بل قال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ زيادة في التشنيع عليهم؛ حيث أوتوا الكتاب، وعرفوا الحق، ولكنهم نبذوه، والذي نبذه فريق منهم، ومنهم من آمن به وصدقه؛ كالنجاشي ـ رحمه الله ـ وكعبدالله بن سلام ـ رَضِيَ الله عَنْهُ

ـ؛ فالنجاشي كان من النصارى، فلما بلغته رسالة النبي ﷺ آمن به، وعبدالله بن سلام كان من اليهود، فلما قدم النبي ﷺ المدينة أتى إليه، وآمن به، ولم يكن كل اليهود أو النصارى كفروا بمحمد ﷺ ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ثم يبين اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون الحق، كأنهم جُهَّالٌ به وهم عالمون به.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ صدق رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ رسول الله ﷺ مرسل إلى بني إسرائيل، كما أنه مرسل إلى الأميين ـ وهم العرب ـ، بل وإلى الناس أجمعين؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثُمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالَّذي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ

أصحابِ النَّار»[١].

٣- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن رسول الله ﷺ كان مصدقًا لما جاءت به الرسل السابقة؛ أي: مُقِرًّا بأنها صدق، وشاهدًا بصدقها؛ حيث أخبرت به فجاء طبقًا لما أخبرت به.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها**: قيام الحجة على بني إسرائيل؛ حيث كان محمدٌ ﷺ مصدقًا لما معهم، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم من بني إسرائيل نبذوه عن علم؛ لأنهم أوتوا الكتاب، وعرفوا الحق، وقد بيَّنَ اللهُ - تعالى - أنهم يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وهذا أشد لومًا، وتوبيخًا، وجريمة ممن لا يعلم ولم يؤت من الكتاب شيئًا.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن نبذ هؤلاء الفريق من الذين أوتوا الكتاب نبذ لا يُرجى معه إقبال؛ لقوله: ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾، والذي ينبذ كتاب الله وراء ظهره في الدنيا؛ يؤتى كتابه يوم القيامة من وراء ظهره؛ جزاءً وفاقًا.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن من نبذ عن علم أشد قبحًا ولومًا

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤١)

ممن نبذ عن جهل؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: التحذير من رد الحق بعد العلم به؛ لأن الله ساقَ هذه الآية على وجه اللوم والتوبيخ لهؤلاء الذين نبذوا الحق بعد أن عرفوه.

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن من نبذ الحق بعد العلم به؛ ففيه شبه من بني إسرائيل من اليهود والنصارى الذين ردوا الحق بعد أن علموا به.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾.

في هذه الآية يبين الله ـ تعالى ـ أن قومًا من بني إسرائيل اتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان؛ وكانت الشياطين تتلو ما تتلوه من أنواع السحر، بل ومن أنواع الكفر أيضًا، فتمليه على الناس بما تلقيه في قلوبهم من ذلك.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾؛ لأن سليمان - عليه الصلاة والسلام - قد آتاه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وسخَّرَ له الريح، وسخَّر له الشياطين كل بناء وغوَّاص، وسليمان هو ابنُ داود، وهو من أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو من بعد موسى بأزمنة طويلة، يقول - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾؛ يعني: أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - لم يُعَلِّمِ الشياطين ما تتلوه من السحر فيكون بذلك كافرًا، بل هو - عليه الصلاة والسلام - نبيٌّ رسولٌ معصومٌ من الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ ومِنْ كفرهم أنهم يعلمون الناس السحر؛ والسحر - بالشعوذة، ودعاء الشياطين، والاستعانة بهم على إيذاء الخلق - نوعٌ من الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

قال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾؛ يعني: أن ما أُنزل على الملكين ببابل - وبابل اسم مكان -، والملكان أحدهما هاروت، والثاني ماروت، وهما ملكان من الملائكة أنزلهما الله - عَزَّ وَجَلَّ - إلى الأرض؛ من أجل اختبار الناس، يعلمان الناس السحر بأمر الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ولكنهما - كما قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فيتعلم الناس منهما على بصيرة وعلى علم، يتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه من السحر، وهو ما

يسمى بالعطف والصرف، وهو نوعٌ خبيثٌ من أنواع السحر، ومن أشد أنواع السحر ضررًا؛ حيث يفرق به بين المرء وزوجه، ومن المعلوم أن الصلة بين المرء وزوجه من أقوى الصلات؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فهذان الملكان يعلمان الناس، ويقولان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، ولكن بعض الناس يصمم على أن يتعلم، وهذا من اختبار الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لعباده، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أن ما يحصل من الضرر بالسحر صادر عن إذن الله وإرادته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولو شاء الله ـ تعالى ـ لم يؤثر السحر شيئًا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ يعني: يتعلمون من السحر ما هو ضرر لهم في دينهم ودنياهم، ولا ينفعهم، وإنْ قُدِّر أنهم انتفعوا به في الدنيا فإن ضرره أكبر من نفعه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾؛ يعني: علم هؤلاء الذين أصروا على تعلم السحر أن من اشتراه ـ أي: تعلمه ـ ما له في الآخرة من خلاق؛ يعني: ليس له في الآخرة نصيب؛ وذلك لأنه أتى الكفر؛ والكافر ليس له نصيب في الآخرة، إنما يُمتَّعُ في الدنيا كما تُمتَّعُ الأنعام، والنار مثوى له، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ

أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾، في هذا قدح لهذا العلم الذي تعلموه، وأنـه جـدير بالـذم والتقبـيح؛ ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: لبئس ما باعوا به أنفسهم، وهو هذا السحر الذي تعلموه، ثُمَّ قال: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾؛ يعني: لو كانوا مـن ذوي العلـم لعرفـوا قبحـه، وابتعدوا عنه، ولم يحاولوا تعلُّمه، هذا معنى الآية إجمالًا، أما ما يـستفاد منها من الأحكام والفوائد فكثيرة.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سـخَّر الـشياطين لـسليمان، وامـتحن الناس بهم؛ لقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾.

٢ـ **ومن فوائدها:** أن سـليمان ـ عليـه الـصلاة والـسلام ـ لم يكفـر بكفر هؤلاء الشياطين الذين تعلموا السحر، وصاروا يتلونـه ويلقونـه على الناس؛ وذلك لأن الأنبياء معصومون من الكفر والشرك.

٣ـ **ومن فوائدها:** أنَّ العمل بالسحر كفر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾.

٤ـ **ومن فوائـدها:** أنَّ تعلـيم النـاس الـسحر مـن الكفـر؛ لقولـه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾، والسحر نوعان:

النوع الأول: سحر الشياطين الذي يكون بالاستعانة بهم، والتعوذ بهم، والالتجاء إليهم، وهذا كفر لا شك فيه.

والثاني: سحر بالأدوية، والأوراق، والأشجار، وما أشبه ذلك ممـا

لا علاقة للشياطين به، فهذا لا يصل إلى حد الكفر، لكنه مُحَرَّمٌ تحريمًا شديدًا؛ لما يحصل فيه من الأذية والضرر على الغير، وإذا ثبت السِّحر على شخص: فإن كان من النوع الأول فإنه يُقتل كفرًا وردةً، وإن كان من النوع الثاني فإنَّهُ يُقتلُ؛ لاتِّقاء شره وأذيته على المسلمين.

٥- ومن فوائدها: أنَّ الحق ما أذن الله فيه وأمر به، ولو كان في نفسه باطلًا؛ فهذان الملكان نزلا إلى الأرض؛ ليعلما الناس السحر، وتعليم السحر - كما سبق - كفرٌ، لكن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أباح لهذين الملكين أن يعلما الناس من أجل هذا الامتحان الذي حصل بتعليمهما، والشيء قد يكون كفرًا، وقد يكون طاعة، ولو كان واحدًا من نوعه، وأضرب لهذين مثلين:

المثل الأول: السجود لغير الله كفر وشرك، وإذا سجد الإنسان لغير الله بأمر الله كان عبادة؛ ألمْ تر قول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، فهنا نجد السجود لغير الله كان طاعة وعبادة؛ لأن الله أمر به، ويكون شركًا في الحالة التي لم يأمر الله به فيها.

والمثل الثاني: قتل النفس فإنه من كبائر الذنوب، ولا سيما إذا كان المقتول من أقارب القاتل، ومع ذلك كان طاعة يُمدحُ عليه، وذلك كما في قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل؛ فإنَّ إبراهيم رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، فقصَّ الرؤيا على ابنه؛ فقال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ

سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فأسلما أمرهما لله، واستسلما لقضاء الله ﷺ شرعه، فلما تلَّ ابنه للجبين ليذبحه؛ جاء الفرج من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٤ـ١٠٦].

فامتحن الله إبراهيم بأمره بقتل ابنه حتى أسلم لله وانقاد؛ فصار ذبح ابنه طاعة لله، ولكنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تداركه بلطفه وإحسانه فكتب له أجر الممتثل، وقال له: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، فالملكان اللذان نزلا يعلمان الناس السحر نزلا بأمر الله، وبإذن الله، فكان تعليمهما للسحر طاعة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لكنه ـ باعتبار المُعَلَّم ـ كفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾.

٦ـ **ومن فوائدها:** أن الله ـ تعالى ـ قد يسر للإنسان أسباب المعصية؛ ليبلوه هل يعصي الله أم لا يعصى الله؟ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يسر للناس تعلُّم السحر بما أُنزل على الملكين، وبما بذلاه من أنفسهما لتعليم الناس.

٧ـ **ومن فوائدها:** أنه يجب أن يُبيَّن الأمر لطالبه على وجه صريح، لا لبْس فيه؛ فإنَّ هذا من تمام النصح والبيان؛ لأن الملكين لا يعلمان من أحد حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾، فيبينان حالهما، وحال

المتعلَّم منهما؛ يبينان حالهما أنهما نزلا فتنة، ويبينان حال المتعلَّم منهما بأن تعلَّمه كفر.

٨- **ومن فوائدها:** أن من أعظم أنواع السحر التفريق بين الرجل وزوجته؛ لقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾، وهذا ما يسمى بالعطف والصرف؛ فإن من أنواع السحر ما إذا سُحِرَ به الإنسان انعطف على غيره انعطافًا بالغًا شديدًا لا يملك أن يتصرف بنفسه معه، حتى يكون وراء هذا الشخص الذي عُطِفَ عليه؛ كما تكون الشاة وراء الراعي الذي يدعوها، ومن السحر ما يكون بالعكس، يوضع للشخص ليفرق بينه وبين حبيبه؛ مثل أن يفرق بينه وبين زوجته، فيصبح يرى زوجته وكأنها من أعدى أعدائه أو العكس، وهذا من أشد أنواع السحر إيذاء وضررًا.

٩- **ومن فوائدها:** أنَّ ما يقع من تأثير السحر إنما يقع بأمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وإرادته؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** أَنَّهُ متى لَجَأَ الإِنسانُ إلى ربِّه، واستعاذ به، واستغاثه من الأمر الذي نزلَ به؛ فإنَّ الله -سبحانه وتعالى- قادر على أن يصرفه عنه، ولو كان قد نزل به الشر؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١١- **ومن فوائدها:** الإِشارة إلى أنه ينبغي للمسحور أن يلجأ إلى

الله ـ تَعَالَى ـ وأن يسأله رفع ما نزل به بصدق، وإخلاص، وضرورة؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، وقد يكون لجوء الإنسان إلى الله ـ في الحال التي يصاب فيها بالسحر ـ وشدة تضرعه إليه من أقوى الأدوية تأثيرًا إن لم يكن أقوى الأدوية تأثيرًا؛ ولهذا لما سُحِرَ النبي ﷺ بسحر عظيم؛ أنزل الله عليه سورتي المعوذتين: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾؛ فرقاه بهما الملَك؛ فشفاه الله ـ تعالى ـ من ذلك.

١٢ـ **ومن فوائدها:** أنَّ السحر ضرر على الساحر كما هو ضرر على غيره، وإنْ ظنَّ الساحر أنه ينتفع بذلك، وأنه يكسب من ورائه؛ فإنَّ هذا الكسب الذي حصده كسب خبيث لا يزيده من الله إلا بُعدًا، ولا يزيده إلا خسارًا؛ ولهذا قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾.

١٣ـ **ومن فوائدها:** أنَّ الساحر كافر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ﴾.

١٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تقبيح ما حصل من هؤلاء من تعلُّم السحر؛ حيث قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾.

١٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن هؤلاء باعوا أنفسهم وخسروها؛ من أجل تعلم هذا السحر القبيح الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾.

١٦- ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ هؤلاء الذين اختاروا تعلُّم السحر وأهلكوا أنفسهم به كانوا من أجهل الناس، سواء علموا ذلك أو لم يعلموه، مع أن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ يدل على أنهم يعلمون أن الساحر ليس له نصيب في الآخرة، فيكونون قد خالفوا وعصوا على بصيرة - والعياذ بالله.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

في هذه الآية يَعْرِضُ الله - عَزَّ وَجَلَّ - على هؤلاء الذين كفروا بتعلُّم السحر، يَعْرِضُ الله - عَزَّ وَجَلَّ - عليهم الإيمان والتقوى، ويبين أن المثوبة التي عند الله لهم بإيمانهم وتقواهم خير مما يُحَصِّلُونَهُ في الدنيا من جزاء السحر لو كانوا من ذوي العلم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- سَعَةُ فضلِ الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وإحسانه، وكرمه؛ فهؤلاء الذين عتوا وبغوا على الخلق بما يتعلمونه من السحر، ويضرون به الناس يَعْرِضُ الله عليهم أن يؤمنوا ويتقوا؛ حتى يكون لهم المثوبة، وهذا أنموذج من نماذج سعة رحمة الله، وفضله، وإحسانه؛ ومن نماذجه:

أن الله - تعالى - قال في سورة البروج ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]؛

فهؤلاء الذين قتلوا أولياءه وأحرقوهم في النار يَعْرِضُ الله عليهم التوبة فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، فلو تابوا لنجوا من عذاب النار، هؤلاء أيضًا لو أنهم آمنوا ـ أعني: الذين تعلموا السحر وأضروا الناس به ـ لو أنهم آمنوا واتقوا؛ لمحا الله عنهم الآثار السيئة لهذا السحر، وأثابهم على ذلك، وكان خيرًا لهم.

٢- ومن فوائدها: أنَّ ما عند الله من الثواب خير مما يحصل في الدنيا من المكاسب، وهذا ظاهر بالأثر والنظر؛ أما الأثر فقد بيَّن الله ـ تعالى ـ في غير آية أن الآخرة خيرٌ من الدنيا؛ فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال للنبي ﷺ: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ الآية [الشورى: ٣٦]؛ يعني: لمن اتقى، والآيات في هذا كثيرة، وقال النبي ﷺ: «... وموضعُ سَوطِ أحدِكُمْ من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها...» [(١)]، وهنا قال ـ تعالى ـ: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ هؤلاء الذين تعلموا السحر ـ مع علمهم بأن من اشتراه لا خلاق له في الآخرة ـ من ذوي الجهالة،

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

وكأنهم لا يعلمون؛ لذا قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الحث على العلم والعمل به، وأن من لم يعمل بعلمه فهو كالجاهل، بل أشد قبحًا من الجاهل؛ لأن الجاهل قد يُعْذَر، وقد يستقيم إذا علم الحق، بخلاف من خالف الحق مع علمه به؛ فإنه ليس بمعذور، ورجاء رجوعه إلى الحق بعيد.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾.

يخاطب الله ـ تعالى ـ المؤمنين بصفة الإيمان؛ لينهاهم عن هذه الكلمة التي كانت اليهود تقولها لرسول الله ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾؛ يريدونها من الرعونة لا من الرعاية، فتكون ﴿رَاعِنَا﴾؛ يَعني: «إنك ذليل»، وليس المراد الرعاية؛ فنهى الله عباده المؤمنين أن يقولوا هذه الكلمة، ولكنه أرشدهم إلى كلمة خير منها، وهي بمعناها قال: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ يعني: اسمعوا ما نهيتكم عنه، ولا تخالفوه؛ فإن مخالفته من الكفر.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم؛ لأنه شديد ـ والعياذ بالله ـ كما بيَّنَ الله ـ تعالى ـ شدة عذاب النار في آيات كثيرة من القرآن، وبيَّنَها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة من السنة.

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله المؤمنين بوصف الإيمان ويناديهم

بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أن من خصال المؤمن أن يمتثل؛ لأنه مؤمن؛ والمؤمن يهديه إيمانه إلى امتثال أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه ينبغي أن يُنادى الإنسان بأحب الأوصاف إليه، ولا شك أن أحب أوصاف المؤمن إليه أن ينادى بإيمانه.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن مخالفة ما ذكر نقصٌ في الإيمان، وأن موافقته من مقتضى الإيمان؛ ولهذا وُجِّه الخطاب إلى المخاطب بوصف الإيمان.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تحريم الخطاب بالكلمات المحتملة للحق والباطل بالنسبة لرسول الله ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾.

٥ـ **ومن فوائدها:** النهي عن مشابهة غير المؤمنين؛ لأن هذا الخطاب «راعنا» مما يدندن به اليهود إذا خاطبوا النبي ﷺ.

ومن فوائد وأحكام قوله: ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾:

١ـ أنه إذا ذكر باب ممنوع مسدود أمام الناس؛ فإنّ الحكمة تقتضي أن يُذكر لهم ما يستغنون به عنه من الأشياء المباحة؛ ولهذا قال: ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾؛ فهو لم ينههم ويجعلهم عائمين لا يدرون ما يقولون، بل

أرشدهم إلى القولة المباحة؛ وهي قوله: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾، فإذا نهيت الناس عن شيء يحتاجون إليه فافتح لهم بابًا يغني عنه؛ حتى يسهل تركهم لما نُهوا عنه، وفعلهم هذا الذي أُرشِدوا إليه، ونظير ذلك ما ثبت في الصحيح: «أن رسول الله ﷺ أُتِي إليه بتمر جيد؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: كنا نأخذ الصاع بالصاعين، والصاعين بالثلاثة -أي: نأخذ الصاع من هذا التمر بالصاعين من الرديء، والصاعين بالثلاثة- فأخبرهم النبي ﷺ أن هذا عين الربا[1]، وأرشدهم إلى أن يبيعوا التمر الرديء بالدراهم، ثم يشتروا بالدراهم تمرًا جيدًا، ومنعهم من أخذ الصاع بالصاعين أو الصاعين بالثلاثة؛ لأنه ربا؛ فإن بيع التمر بالتمر يجب فيه التساوي في الكيل والتقابض في مجلس العقد، ولما أخذوا الصاع بالصاعين لم يلتزموا بالتقابض؛ فأرشدهم النبي ﷺ وبَيَّنَ لهم أن هذا ممنوع، وأرشدهم إلى البيع المباح بأن يبيعوا التمر الرديء بالدراهم، ويشتروا بالدراهم تمرًا جيدًا، وهذا نظير هذه الآية الكريمة: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ هذا ممنوع، ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾هذا بدل عنه.

٢- **ومن فوائدها:** وجوب السمع والطاعة لأوامر الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول ومن غير علم...، رقم (٧٣٥٠، ٧٣٥١)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلًا بمثل، رقم (١٥٩٣).

٣- **ومن فوائدها وأحكامها:** ثبـوت الجـزاء عـلى العمـل؛ لقولـه: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أنَّ مخالفة أمر الله ورسوله من الكفر؛ لأنه أعقب النهي عن قول: «راعنا» والإذن في قول: «**انظرنا**» ـ أي: الإرشـاد إليـه والأمر بالسماع ـ بقوله: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ فدلَّ هذا عـلى أن المخالفة لأمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نوع من أنواع الكفر.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾.

﴿ مَّا يَوَدُّ ﴾؛ يعنـي: مـا يحـب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ وهم الذين لم يؤمنوا بمحمـد ﷺ ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ يعنـي: ولا الـذين كفروا من المشركين، لا يودون أن ينزل إلى رسـول الله ﷺ وأمتـه مـن خير؛ لأنهم حسدة؛ والحاسد لا يحب أن ينزل الله الخير على غيره؛ ولهذا قـال: ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾، ثـم قـال: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾؛ أي: يخص من شاء من عباده رحمة خاصة غـير الرحمـة العامـة لجميع الخلق؛ لأن رحمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نوعـان: رحمـة عامـة: تـشمل جميع الخلق حتى الكُفَّار؛ فـإن الله ينـزل علـيهم الغيـث، ويخـرج لهـم الزرع، ويكثر لهم المال والولد، وهذه رحمة ـ وكذلك يفعل بالمؤمنين ـ،

والرحمة العامة رحمة متعة فقط، يستوي فيها جميع الخلق حتى البهائم.

أما الرحمة الخاصة: فهي التي قال الله عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ويقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ يعني: فليس لأحد أن يحجر على الله أن ينزل فضله على مَنْ يشاء من عباده.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: صاحب الفضل العظيم، العظيم كميةً، والعظيم كيفيةً، والعظيم شمولًا في المكان، وشمولًا في الزمان، فبيَّن اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذه الآية حقد الكفار من المشركين، واليهود، والنصارى الذي بلغ بهم إلى هذا الحد.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ ـ بيان أن اليهود، والنصارى، والمشركين لا يودون الخير للمسلمين، وهذا ليس خاصًّا بزمن الرسول؛ بل هو عام إلى يوم القيامة؛ لأن الكفار من اليهود، والنصارى، والمشركين أعداء لنا، وأعداء لربنا، وأعداد لكتابنا، وأعداء لرسولنا، ومن كان كذلك فإنه لا يمكن أبدًا أن يحب نزول الخير إلينا.

٢ ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** الحذر من مكر الكفار من اليهود، والنصارى، والمشركين؛ فلا نغتر بما يبذلونه لنا من حلاوة اللسان، وإظهار انشراح الصدر بنا؛ لأنهم إنما يفعلون ذلك من أجل خير عائد عليهم أكثر مما يتحملونه من كراهتهم للخير النازل إلينا؛ أو لأنهم

يتربصون بنا الدوائر حتى يقضوا على ما لنا من الخير.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ من كره الخير للمؤمنين عمومًا، أو لبعض منهم على سبيل الخصوص؛ فإن فيه شبهًا من اليهود، والنصارى، والمشركين.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تحريم كراهة نزول الخير للمؤمنين، وكراهة نزول الخير للغير هو الحسد؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: إنَّ التفسير الصحيح للحسد ليس أن يتمنى الإنسان زوال نعمة الله على غيره، ولكن التفسير الصحيح هو أن يكره الإنسان ما أنزل الله على غيره من الخير، سواء تمنى زواله أو لم يتمنَّ، وهذا التفسير ـ لشيخ الإسلام ـ هو الأقرب.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** بيان ما منح اللهُ هذه الأمة من الربوبية الخاصة؛ ولهذا قال: ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وربوبية الله لعباده المؤمنين ربوبية خاصة، والربوبية نوعان: عامة وخاصة؛ فالعامة: هي الشاملة لجميع الخلق؛ ومنها: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

والخاصة: هي الربوبية المضافة للمؤمنين أو للرسل؛ مثل قوله عن عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

فإن هذه الربوبية خاصة، وقد اجتمع النوعان في قوله ـ تعالى ـ:

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ فقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذه الربوبية العامة، وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هذه الربوبية الخاصة.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ فضل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قـد يختص لأناس دون آخرين؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾.

ولا شك أن ما كان من أفعال الله؛ فإنه صادر عن مشيئة منه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وكذلك ما صدر من أفعال العباد؛ فإنه صادر عن مشيئة منه وإذن منه بذلك؛ كما مرَّ علينا في قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فكل شيء يقع في السموات والأرض ـ من أفعال الله أو أفعال الخلق ـ؛ فإنه واقعٌ بمشيئة الله؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، ولكن هل في هذه الآية وما في معناها من النصوص حجة للعاصي على معصيته؛ بحيث يقول: إن معصيتي لله ليست بمشيئتي ولكنها بمشيئة الله؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، ويقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ويقول:

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]؟.

وجوابنا على هذا أن نقول: ليس للعاصي حجة على معصيته؛ لأن الله ـ تعالى ـ أمدَّه وأعدَّه؛ أمده بالعقل؛ وأعدَّهُ لمعرفة الهدى والحق، وأرسل إليه الرسل، وقد قطع الله الحجة على الخلق بإرسال الرسل؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

فالعاصي ليس له حجة على معصيته، بل ليس له حجة على الله في معصيته؛ لما ذكرنا؛ ولهذا نجد العاصي يختار من الأمور ما شاء، ويُقدم عليه؛ يختار أن يسافر إلى مكة، يختار أن يسافر إلى المدينة، يختار أن يسافر إلى البلد الفلاني أو الفلاني بإرادته وقدرته، ولا يحتج بالقدر على ذلك، فإذا كان هكذا فلِمَ يحتجُّ بالقدر على معصية الله ولا يحتج بالقدر على السفر، والذهاب، والمجيء، والأكل، والشرب، واللباس، وغير هذا؟ ثم إنَّ القدر سرٌّ مكتوم لا يُعلمُ عنه إلا بعد وقوعه، فكيف يحتج العاصي بالقدر على معصيته قبل أن تقع المعصية؟ لماذا لم يقدر هذا العاصي أن الله كتب له أن يكون من المتقين؟ فيتقي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ولهذا أبطل اللهُ هذه الحجة في قوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

فهنا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ﴾، ومن المعلوم أنهم لن يذوقوا بأس الله إلا حين يرتكبون معصيته، وتبطل حجتهم بما احتجوا به من مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٨- **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات أن الله ـ تعالى ـ موصوف بالفضل العظيم؛ حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٩- **ومن فوائدها وأحكامها**: أَنَّهُ لا يليق بالإنسان أن يطلب الفضل من غير الله؛ بل يجب أن يطلب الفضل من الله وحده؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، والإنسان إذا طلب الفضل من الله؛ فقد طلب الفضل من أهله؛ وهو ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، فإذا دعاه الإنسان وسأله من فضله بنية صالحة، وعزم صادق، وافتقار إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ سهَّل اللهُ أمره، وآتاه من فضله.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

قولــه ـ تعــالى ـ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ النــسخ بمعنــى الرفــع والإزالة؛ أي: ما نرفَع آيةً أو حكمهــا؛ إلا أتينــا بخـير منهــا أو مثلهــا؛ وذلك أن النسخ يكون إلى ما هو خير من المنسوخ، أو إلى ما هــو مثلــه، أو إلى ما هو دونه؛ فأما النسخ إلى ما هو خير من المنسوخ فـلا ريــب في أنه خير، والنسخ إلى مثل المنسوخ لا ريب أنه خير؛ لأنــه يكـون ممـاثلًا للمنسوخ من حيث العمل، ولكنه ليس مماثلًا لـه مـن حيـث النتيجـة، والثواب، والأجر ـ كما سنبينه ـ إن شاء الله ـ تعالى ـ؛ وأما النسخ إلى ما هو دونه فإن ذلك لن يكون، ولن يليق بحكمة الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ؛ لأن النسخ إلى ما هو دون المنسوخ يكون تدنيًا من الأعلى إلى الأسفل؛ وهذا لا يليق بجلال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

يقول ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ أي: ننـسخ لفظهــا أو حكمها، ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾؛ أي: ننسها رسول الله ﷺ؛ حتى لا يذكرها، ما يحصلُ هذا إلا أتى الله بخير منها أو مثلها؛ بخير منها عمـلًا وثوابًـا، أو مثلها عملًا وخير منهـا ثوابًـا، ثـم قـال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومن قدرته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يمحو ما يشاء ويثبـت، وينـســخ ما يشاء ويُحكم.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وإذا كـــان لـــه ملك السموات والأرض فهو ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لـه التـدبير المطلـق في هـذا الملك، ولا أحد ينازعه في ملكه، لا تقديرًا ولا تـدبيرًا، ﴿وَمَا لَكُم مِّن

دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ فهو الذي يتولى أموركم، وهو الذي ينصركم إذا استنصرتموه وقمتم بأسباب النصر، هذا هو معنى الآيتين الكريمتين.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين الكريمتين:

١- ثبوت النسخ في آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ وهو رفع الحكم أو اللفظ، أو اللفظ والحكم جميعًا؛ فالنسخ يكون على ثلاثة أقسام: نسخ اللفظ وبقاء الحكم، ونسخ الحكم وبقاء اللفظ، ونسخهما جميعًا؛ فأما نسخ اللفظ وبقاء الحكم فمثَّل له العلماء بآية الرجم؛ أي: بآية رجم الزاني إذا زنى وهو محصن؛ فإنه يُرجم بالحجارة حتى يموت، سواء أكان رجلًا أم امرأة؛ واستدلوا على ذلك بما ثبت في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أنه قال ـ وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ قد بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم؛ قرأناها، ووعيناها، وعقلناها، فرجم رسولُ الله ﷺ ورَجَمْنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقول قائلٌ: ما نجد الرجم في كتاب الله؛ فيضِلُّوا بترك فريضة أنزلها الله، وإنَّ الرجم حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف»[1]، فهنا لا نجد في القرآن الكريم

---

[1] رواه البخاري: كتاب الحدود، باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت، رقم (٦٨٣٠)؛ ومسلم: كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا، رقم (١٦٩١)، واللفظ له.

الذي بين أيدينا آية تـدل عـلى الـرجم في حـق الـزاني المحـصن؛ فهـي منسوخة لفظًا باقية حكمًا.

وأما نسخ الحكم وبقاء اللفظ؛ فمنه: قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦]، فالآية الأولى نُسخت بالثانية، وبقيت الأولى متلوة في كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وأما نسخهما معًا ـ أعني: اللفظ والحكم ـ فمثلوا له بحديث عائشة الثابت في صحيح مسلم، أنها قالت: «كانَ فيما أُنْـزِلَ مـن القـرآن عـشرُ رضعات معلومات يُحَرِّمنَ، ثُـمَّ نُـسِخْنَ بِخَمْـس معلومـاتٍ، فتـوفي رسول الله ﷺ وهُنَّ فيما يُقرأ من القرآن»[1]، ونحن لا نجد هذه الآيـة ـ أعني أن عشر رضعات معلومات يحرمن، لا نجـدها ولا نجـد خمـس رضـعات معلومـات يحـرمن ـ أيـضًا ـ فيكـون النـسخ باعتبـار عـشر رضعات نسخًا للحكم واللفظ، وباعتبـار الخمـس نـسخًا للفـظ دون الحكم، ولا يشكل على هذا قولها ـ رضي الله عنها ـ: «فتوفي رسـولُ الله ﷺ وهُنَّ فيما يُقرأُ من القرآن»؛ لأن الذين يتلونها من القرآن لم يعلمـوا

(١) رواه مسلم: كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، رقم (١٤٥٢).

بالنسخ فصاروا يتلونها؛ فهذه أقسام ثلاثة للنسخ.

فإن قال قائل: ما الحكمة من نسخ اللفظ وبقاء الحكم؟

قلنا: الحكمة في هذا ـ والله أعلم ـ في آية الرجم هي بيان فضل هذه الأمة؛ حيث عملوا بالرجم بشيء لا يجدونه في القرآن، على العكس من أهل الكتاب ـ اليهود ـ الذين كتموا آية الرجم، ولم يعملوا بها مع أنها موجودة نصًّا في التوراة.

وأما نسخ الحكم وبقاء اللفظ: فالحكمة من ذلك أن يتعبد الناس بتلاوته، وأن يذكروا نعمة الله عليهم بهذا النسخ الذي كان فيه التخفيف.

وأما نسخهما معًا: فالحكمة فيما نسخ لفظًا وحكمًا هو أن هذا الذي نسخ لفظًا وحكمًا لم يبقَ له أثر بالنسبة للعمل به، ولا بالنسبة لتلاوته، فصار من الحكمة أن ينسخه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لفظًا وحكمًا.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الله ـ تعالى ـ قد يُنسي الرسول ﷺ الآية من كتاب الله إذا شاء اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ألا يبقى حكمها في عباده؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن النسخ إذا وقع فإنه يكون إلى خير من المنسوخ، لكنه خير منه أو مثله، والخير قد يكون بالنسخ من الأخف إلى الأشد، أو من الأشد إلى الأخف، أو من مماثل لمماثل، وكل ذلك

مطابق للحكمة؛ فالنسخ من الأسهل إلى الأصعب نسخ الصيام؛ حيث كان الصيام أول ما فرض مخيرًا فيه بين الصوم والإطعام، ثم بعد ذلك تعيَّن الصيام؛ فإن التخيير بين شيئين أيسر من تعيُّن أحدهما، ولكن الله بحكمته جعل فرض الصوم متطورًا هكذا؛ ليسهل على النفوس قبوله، والخيرية في النسخ من الأخف إلى الأشد هي استكمال الأجر في هذا الأشد من وجه، وبيان حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في تشريعه لعباده؛ حيث كان يدرجهم من الأسهل إلى استكمال الشرع بأشد.

وأما العكس ـ وهو النسخ من الأشد إلى الأخف ـ ففيه الخير، وهو التيسير على العباد، ومن ذلك ما ذكرناه في آيتي المصابرة؛ حيث فرض الله في الآية الأولى المنسوخة أن يصابر الإنسان عشرة، ثم خفّف ذلك، وأوجب أن يصابر الإنسان اثنين، ولا شك أن هذا تخفيف من الله ـ تعالى ـ على العباد، وتيسير عليهم.

وأما إذا كان النسخ لمماثل ففيه خير ـ أيضًا ـ وهو بيان امتثال المكلَّف؛ ومن ذلك نسخ القِبْلَةِ من بيت المقدس إلى الكعبة؛ فإن هذا النسخ باعتبار عمل المكلف لا يختلف؛ لأن المكلف ليس عنده فرق بين أن يستقبل بيت المقدس أو أن يستقبل الكعبة من حيث تكلُّفِ العمل والمشقة فيه، ولكن فيه خير باعتبار بيان امتثال المكلف، وأنه تابع لأمر الله، إذا أمره بشيء فعله، وإذا نهاه عن شيء تركه، ويشير إلى هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن

يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وعلى هذا يكون المراد بقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾؛ أي: مثلها في العمل، وليس المعنى: أو مثلها في الخيرية؛ لأنه لو كان هذا هو المعنى؛ لكان النسخ عبثًا لا فائدة فيه.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات القدرة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وأن القدرة متقررة عند الإنسان بفطرته.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية:** عموم قدرة الله في كل شيء، في قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ فهو قادر ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الموجود أن يعدمه، وعلى المعدوم أن يوجده.

٦ـ **ومن فوائد الآية الثانية:** تقرير ملك الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ للسموات والأرض؛ لقوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها:** اختصاص ملك السموات والأرض لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لا يملكها أحد سواه؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣]؛ فملك السموات والأرض لله وحده، لا

يشاركه أحد في ذلك.

فإن قال قائل: أليس الله ـ تعالى ـ قد أثبت للإنسان ملكًا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ [النور: ٣٣].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦].

فالجواب: بلى، أثبت الله للإنسان الملك، ولكن ملك الإنسان لما يملكه مُلْكٌ مُقَيَّد؛ مقيَّدٌ من جهة العموم؛ حيث لا يملك الإنسان كل شيء، لا يملك إلا ما كان في حوزته، مقيد من حيث التصرف والتدبير؛ فالإنسان لا يملك أن يفعل في ملكه ما شاء؛ لأنه مقيد بالشرع، فلا يتصرف في ملكه إلا بما تقتضيه الشريعة، مقيَّدٌ من جهة الزمن؛ فملك الإنسان لما يملكه ليس دائمًا، قد يتلف هذا المملوك، وقد يبيعه الإنسان بخلاف ملك الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإنه مُلْك شامل دائم، فلا منافاة بين ما أثبت الله للعبد من الملك، وبين ما أثبته لنفسه من الملك.

٨ ـ **ومن فوائد الآيتين:** بيان أَنَّهُ لا ولي لأحد إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولا ناصر لأحد إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولـيُعْلَم أن ولاية الله عامة وخاصة؛ **فالعامة:** هي تولي أمور الخلق، وهذه عامة لكل أحد حتى للكفار؛ **وخاصة:** وهي الولاية التي تتضمن العناية والتوفيق والسداد، وهذه خاصة بالمؤمنين.

فمن المعنى الأول قوله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ

تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]

ومن المعنى الثاني قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ ﴾.

الخطاب في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ لهذه الأمة، لأصحاب النبي ﷺ والمراد: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ محمد ﷺ، يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: أتريدون أن تسألوا النبي ﷺ آيات تقترحونها كما سُئِلَ موسى من قبل فقيل له: أرنا الله جهرة؟ وهذا الاستفهام للإنكار عليهم؛ يعني: لا تسألوا الآيات وتقترحوها كما فعل ذلك من قبلكم؛ فإن هذا نوع من الكفر؛ لأن الإنسان إذا كان لا يؤمن إلا حيث أُتي بالآيات التي يقترحها صار إيمانه تبعًا لهواه لا تبعًا لهداه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: يأخذ الكفر بدلًا عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأ سواء السبيل؛ وسواء السبيل: وسطه المستقيم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ توبيخ الأمة لو سألت كما سأل أصحاب موسى.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان حال قـوم موسـى مـن التعنُّـت، والتشدُّد، واقتراح الآيات.

٣ـ **ومن فوائـدها وأحكامهـا**: إثبـات أن موسـى ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ رسول.

٤ـــ **ومـن فوائـدها وأحكامهـا**: بيـان أن موسـى ـ عليـه الـصلاة والـسلام ـ قـد أوذي مـن قبـل، وأن إيـذاء الرسـل ـ علـيهم الـصلاة والسلام ـ من ديدن المكذبين الذين أشركوا برسالتهم.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن من أخذ الكفر بديلًا عن الإيـمان؛ فإنه ضال مخطئ مهما ازدهرت له الدنيا، ومهـما زانـت في وجهـه؛ فإنـه ضال سواء السبيل.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ من تبدل الإيمان بالكفر فقد هدي؛ ويتفرع على هذه القاعـدة أنـه إذا مـنَّ اللهُ عليـه بالهدايـة بعـد الـضلال فليحمد الله على ذلك؛ فإنه قد أصاب سواء السبيل.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن جميـع الكفـار قـد أخطئـوا سـواء السبيل، ووقعوا في السبيل المعوج الذي يتيهون به عن طريق الحق.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَدَّ﴾؛ يعني: أحبَّ، والودُّ خالص المحبة، ففي هذه الآية يخبر الله أن كثيرًا من أهل الكتاب يودون أن يردوا أصحاب رسول الله ﷺ كفارًا من بعد الإيمان، وأنه لا يحملهم على ذلك إلا الحسد، حسد المسلمين على ما أنعم الله به عليهم من اتباع محمد ﷺ، وكان هؤلاء اليهود ـ فيما سبق ـ يستفتحون على الذين كفروا ويقولون: سيبعث نبيٌّ وسوف ننصر به عليكم، فلما جاءهم ما عرفوه كفروا به ـ والعياذ بالله ـ؛ حسدًا من عند أنفسهم، وهذا الحسد من عند أنفسهم كان بعد أن تبين لهم الحق، وأن الحق مع ما جاء به النبي ﷺ، وما كان عليه أصحابه، وفي هذه الحال أمر الله المؤمنين أن يعفوا ويصفحوا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أن يعفوا فلا يؤاخذوهم بالذنب ويصفحوا؛ فيعرضوا عما حصل إعراضًا كليًّا.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾؛ وهو الأمر بقتالهم، وهذا حكم مغيَّى بغاية، والحكم المغيَّى بغاية يزول بزوال الغاية وانتهائها، فلما جاء الله بأمره وأمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، صار هذا الحكم ـ وهو العفو والصفح ـ منتهيًا بانتهاء مدته وأَمَدِهِ الذي جعله

الله ـ تعالى ـ له، وبيَّن الله ـ تعالى ـ في ختـام الآيـة أن الله عـلى كـل شيء قدير، فلا يعجزه شيء، ولا يمنعه شيء.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ بيان ما عليه أهل الكتاب من الحسد العظيم لهذه الأمة.

٢ـ **ومن فوائدها:** أن من كان فيه حسد للناس على ما آتاهم الله من فضله؛ فإن فيه شبهًا باليهود.

٣ـ **ومن فوائدها:** الحذر من كيد الأعداء ومخادعتهم؛ لأنهم يودون أن يردونا كُفَّارًا؛ فإنهم لم يألوا جهدًا في سبيل الوصول إلى هـذه الغايـة منذ عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا؛ ولهذا نجد النصارى يرسلون الفـرق والطوائف المنصِّرة إلى البلاد الإسلامية، ولا سيما الـبلاد الفقـيرة التـي يسيطرون عليها من هذه الزاوية؛ ليخرجوا الناس من الـدين الحـق إلى الدين المنسوخ الذي لا يقبله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٤ـ **ومن فوائدها:** أن هذا الحسد من أهـل الكتـاب نـابع مـن عنـد أنفسهم، لم يؤذن لهم فيه، ولم يكن عن رويَّة وتعقُّل.

٥ـ **ومن فوائدها:** الحذر من محبة المسلمين للكفـر، وكـذلك يجـب الحذر من محبة المعاصي أن تنتشر بين المسلمين.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن هـؤلاء الـذين يـودون هـذا لهـذه الأمة يودونه عن عمدٍ وعنادٍ من بعد ما تبيَّن لهم الحق.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** التدرج في معاملة الكفار؛ حيـث أمـر

الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية أن نعفو ونصفح حتى يأتي الله بأمره.

٨ ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ الأحكام التي يحكم الله بها تنقسم إلى قسمين: أحكام مؤمَّدة ـ أي إلى أمد ـ وأحكام مؤبَّدة ـ أي إلى الأبد ـ فمن الأحكام المؤمَّدة: هذه الآية: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]، فهنا قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، وقد جعل الله لهن سبيلًا؛ فقد أعلن ذلك رسولُ الله ﷺ؛ حيث قال: «... البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم»[١].

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ الإنسان يُعذر بجهله إذا خالف الأمر أو النهي؛ لقوله: ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، وهذا الأصل قد دلَّ عليه الكتاب والسنة؛ ففي القرآن يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم (١٦٩٠).

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥]، ويقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وأما السنة: فمن أدلتها أن النبـي ﷺ لم يـأمر المـسيء في صـلاته أن يقضي ما فعله جاهلًا ـ وكان المسيء في صلاته لا يطمئن في ركـوع، ولا سجود، ولا قيام، ولا قعود ـ حتى بيَّن له النبي ﷺ، ولم يأمره بالإعـادة ـ أي: بإعادة ما سبق من الصلوات ـ مع أنـه كـان لا يطمـئن، فـالقول الصحيح الراجح أن من لم تبلغه الدعوة؛ فإنه ليس عليه حـرج فـيما إذا مات وهو مسلم، لكن يفعل ما يخرج من الإسلام جهـلًا، أو يـترك مـا يجب الإيمان به جهلًا.

١٠ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات عموم قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ولا يستثنى من هذه القضية الكلية العامة شيء؛ كل شيء فالله قادر عليه؛ قادر على إيجاد المعدوم، وعلى إعدام الموجود، وعلى تغيير الشيء من حال إلى أخرى، وهنا نذكر ما يقوله بعض الناس عند الحديث عن قدرة الله؛ حيث يقول: إنه على ما يشاء قدير؛ فإن هذا يقتضي تقييد القدرة بما يشاء الله، والله ـ تعالى ـ قادر على ما يشاء وما لا يشاء، وتقييد القدرة بما يشاء تضييق لمعناها العام الذي أراده الله ـ تعالى ـ بها؛ فالواجب أن تجرى على عمومها

بدون استثناء، ويُقال: إن الله على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

في هذه الآية يأمر اللهُ ـ تعالى ـ بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصلاة تشمل الفرض والنفل، وهي معروفة، والزكاة هي الفرض فقط؛ لأن ما سوى الزكاة يسمى صدقة أو نفلًا، أو ما أشبه ذلك؛ والزكاة هي المال الذي أوجبه الله ـ تعالى ـ على عباده في أشياء معينة من الأموال، ويخرج منها الإنسان قدرًا معينًا حسب ما عليه من المئونة؛ ففي الحبوب والثمار: يكون فيما سُقي بلا مئونة العشر كاملًا، وفيما سُقي بمئونة نصف العشر، حسب ما ينظر ولي الأمر في ذلك، ثم بيَّنَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن كل ما نقدمه من الخير فإنما نقدمه لأنفسنا، ونجد ثواب ذلك عند الله ـ تعالى ـ مُدَّخرًا؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ ﴾، ثمَّ بَيَّنَ الله ـ تعالى ـ أنه عليم بكل ما نعمل، بصير به، لا يخفى عليه شيء من أعمالنا.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة يأمر الله ـ تعالى ـ عباده أن يقيموا الصلاة

وأن يأتوا بها مستقيمة بشروطها، وأركانهـا، وواجباتهـا، ويتمـوا ذلـك بمكملاتهـا، وأن يؤتـوا الزكـاة؛ أي: يعطوهـا أهلهـا المستحقين لهـا؛ والزكاة هي المال الواجب أو هي نصيب يقدر شرعًا في مال مخصوص.

ثم يبين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن ما نقدمه لأنفسنا مـن الخـير فإنـه لـن يضـيع، بل سيوجد عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وفي آية أخرى يقول ـ تعالى ـ: ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠].

ويختم الله الآية بأنـه بـصير بـما نعمـل؛ حثًّـا منـه لنـا عـلى العمـل الصالح، واجتناب العمل المحرم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- وجوب إقامة الـصلاة؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهذا ـ أعني: إقامة الـصلاة الواجبـة ـ فـيما هـو واجـب؛ كالـشروط، والأركان، والواجبات، أما ما كان مـستحبًّا؛ فـإن الأمـر بإقامتـه عـلى سبيل الاستحباب.

٢- **ومن فوائدها وأحكامها**: وجوب إيتاء الزكاة؛ لقوله ـ تعـالى ـ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أعطوها مستحقها، وقد بيَّنَت الـسُّنَّةُ كيـف تكون إقامة الصلاة، وكيف يكون إيتاء الزكاة على وجه مبـيَّن مُفَـصَّل؛ فما توفي رسول الله ﷺ إلا وقد أبان للأمة كل مـا تحتـاج إليـه في أمـور دينها ودنياها؛ قال أبو ذر ـ رَضِيَ الله عَنْـهُ ـ: لقـد تـوفي رسـول الله ﷺ

وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا.

٣- **ومن فوائدها وأحكامها**: الحث على تقديم الخير؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها أيضًا**: أن ما نقدمه من الخير لن يضيع، بل سنجده عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - مُدَّخرًا، أحوج ما نكون إليه، ولكن يجب أن ننتبه هنا إلى أن ما نجده يوم القيامة من الخير قد يكون لغيرنا؛ كما قال النبي ﷺ: «أتدرونَ مَا المُفلسُ؟» قالوا: المفلس فينا مَنْ لا دِرهَم له ولا متاعَ؛ فقال: «إنَّ المُفْلِسَ من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاةٍ، ويأتي قد شتمَ هَذَا، وقذفَ هذا، وأكل مالَ هذا، وسَفَكَ دمَ هذا، وضربَ هذا؛ فَيُعْطَى هَذَا من حسناتِهِ، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه؛ أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه؛ ثُمَّ طُرِحَ في النَّار»[(١)].

٥- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الله - سبحانه وتعالى - بصير بكل ما نعمل من خير وشر؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٦- **ومن فوائدها**: تحذير العباد من المخالفة؛ لأن الله - تعالى - إنما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ تحذيرًا من أن نخالف أوامره،

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

وأن نقع في نواهيه، فإننا إن فعلنا ذلك؛ لن يخفى عليه ـ سبحانه وتعالى ـ شيء من أحوالنا.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: اليهود والنصارى: ﴿يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ يقوله اليهود، ﴿أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ﴾ يقوله النصارى؛ يعني: وأنتم أيها المسلمون لن تدخلوا الجنة، لكن الله ردَّ عليهم زعمهم هذا؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾؛ أي: هذه أماني وأوهام باطلة لا تستند إلى شيء من الوحي المنزَّل على الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾؛ أي: قل لهؤلاء القائلين هذه المقولة متحديًا لهم: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾؛ أي: أعطونا حجتكم التي تثبتون بها ما زعمتم من أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون، ومن المعلوم أنهم لن يجدوا حُجَّة لما قالوه؛ ولهذا قال بعدها: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ «بلى»: فيها إبطال لما سبق من دعواهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، ثم يبيِّن اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من الذي يدخل

الجنة؛ حيث يقول: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ أي: جعله مستسلمًا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، مقبلًا عليه.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله؛ والإحسان هو اتباع شريعة النبي ﷺ، فشرط الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمرين:

الأمر الأول: الإخلاص؛ بأن يكون أسلم وجهه لله.

والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ؛ بأن يكون قد أحسن، فهذا له أجره عند ربه؛ أي: ثوابه، وسمَّى اللهُ الثواب أجرًا؛ لأن الله ـ تعالى ـ التزم به لمن عمل صالحًا؛ فصار بمنزلة الأجر الذي يستوفيه المستأجَر على العمل ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل من أمرهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى من أمرهم.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

في الآية الأولى من الفوائد والأحكام:

١ـ بيان دعوى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مثلهم؛ يهوديًّا أو نصرانيًّا.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث والجزاء؛ لأن الجنة إنما يدخلها أهلها بعد البعث يوم القيامة.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن يُقدِّم المناظِرُ الحكم على قول مناظره، ثم يطلب منه الحُجَّة على إثباته؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾

قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، ونظير ذلك أن يقول قائل: هذا واجب لابُدَّ من فعله، فأقول: هذا قولـك فهـات دليلـك إن كنت صادقًا، فيُثْبِت المَناظِر أولًا أن هذا قول المناظر، وأن هذا لـيس لـه أصل، ثم يتحداه بطلب الدليل.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها:** قوة المحاجة في كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ التي تدحض الخصم وتفحمه؛ تدحض حجته وتفحمـه؛ ولهـذا قـال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾، ومن المعلوم أنه لا برهـان لهـم في ذلـك؛ فـإن دخـول الجنـة لـيس معلقًـا باليهوديـة أو النصرانية؛ بل هو مُعَلَّقٌ بما ذكره الله ـ تعالى ـ فيما بعد.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها:** الإنصاف في معاملة الخصم، وإلا فإنه يكفي أن يقول اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هذا باطل، ولكنـه ـ سـبحانه وتعـالى ـ حكم عدل؛ فطلب من هؤلاء المدَّعين أن يأتوا بالحجة والبرهان.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه لا تُقبل الـدعوى إلا ببينـة؛ فمـن ادَّعى حُكمًا من أحكام الله الأخروية أو أحكامه الدنيوية فإنـه عليـه أن يبرهن على ما قال، فإنْ أثبت ما قال بالبرهان والدليل وإلا وجـب ردّه عليه.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ اليهـود والنـصارى لا حُجَّـة لهـم إطلاقًا فيما ادَّعوه من أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نـصارى، وما أكثر دعاوى اليهود والنصارى بأنهم أهل الجنـة، وبـأنهم يُخرجـون

من النار إن عُذبوا بها، وبأنهم أبناء الله وأحباؤه، وكل هذه الدعاوى يبطلها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ويبين كذبها.

أما الآية الثانية ففيها من الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الثواب لا يحصل إلا بأمرين:

الأمر الأول: إسلام الوجه لله؛ وذلك بأن يخلص الإنسان قصده؛ فلا يقصد بعبادة الله ـ تعالى ـ ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا، ولا محاباة لأحد، ولا توصلًا لسلطان أو جاه أو مال، وإنما يقصد بذلك ربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهذا المفهوم من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

الأمر الثاني: أن العبادة لا تقبل ولا تنفع إلا بالإحسان؛ وهو متابعة النبي ﷺ؛ بحيث تكون العبادة على وفق ما جاء عن رسول الله ﷺ.

ودليل هذين الأصلين العظيمين قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الأعمال بالنِّيَّات، ولكلِّ امرئ ما

نوى، فَمَنْ كانت هجرتُـهُ إلى الله ورسـوله؛ فهجرتُـهُ إلى الله ورسـوله، ومَنْ كانت هجرتُهُ لدنيا يـصيبها، أو امـرأةٍ يتزوجهـا؛ فهجرتُـهُ إلى مـا هاجر إليه»[١].

وثبت عنه ﷺ أيضًا أنه قال: «قال الله ـ تعالى ـ: أنا أغنـى الـشركاء عن الشِّرك؛ مَنْ عمل عملًا أشرك فيه معي غيري؛ تركتُهُ وشركَهُ»[٢].

وثبت عنه ﷺ أيضًا أنه قال: «مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ»[٣]؛ فلابد لقبول العمل من شرطين:

أحدهما: الإخلاص لله.

والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ، ولـيُعلم أنَّ المتابعـة لا تتحقـق إلا إذا وافق العمل الشريعة في أمور ستة:

الأول: في الجنس.

والثـــاني : في الصفة والكيفية.

والثالـــث : في القدر.

والرابـــع : في السبب.

والخامس : في العدد.

---

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١)؛ ومسلم: كتاب الجهاد، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٠)

(٣) سبق تخريجه ص (٤٩)

والسادس: في الزمان والمكان.

فمن شرع عبادة لسبب لم يجعله الشارع سببًا لها؛ لم تقبل منه هذه العبادة، ومن تعبد لله بعبادة على سبب لم يجعله الشارع سببًا لها؛ فإنها لا تُقبل منه، ومن تعبد لله بجنسٍ غير ما شرعَ؛ فإنه لا يُقبل منه؛ مثل أن يُضَحِّي الإنسان بفرس؛ فإن ذلك لا يُقبلُ منه أضحية، ولو كان الفرس أغلى؛ لأنه من جنس غير ما أُذن فيه، ولو أنَّهُ خالف الشرع في القدر؛ بأن صَلَّى الظهر خمسًا أو ثلاثًا؛ فإنها لا تُقبل منه؛ لأنه خالف الشرع في القدر، ولو خالف الشرع في الزمن؛ بأن ضَحَّى الإنسان في غير أيام الذبح؛ فإنها لا تقبل منه، أو حجَّ في رمضان؛ فإن ذلك لا يُقبل منه؛ لأنه في غير الزمن المحدد شرعًا، ولو خالف الشرع في المكان؛ لم تُقبل منه العبادة؛ مثل أن يعتكف في غير المسجد؛ فإن هذا الاعتكاف لا يُقبل منه؛ لأنه في غير المكان الذي عيَّنَه الشرع للاعتكاف، وكذلك لو خالفت العبادة الشرع في الهيئة والكيفية؛ بأن صلَّى صلاة منكسة؛ يبدأ بالسجود قبل الركوع، أو يتوضأ منكسًا؛ يبدأ بالرجلين قبل بقية الأعضاء؛ فإن ذلك لا يصح.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ من عمل عملًا مبنيًّا على الإخلاص والمتابعة؛ فإن أجره يثبت له عند الله؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن من وُفِّقَ للعمل على هذا الوجه؛

فإن ذلك من ربوبية الله له، الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٤ـ **ومن فـوائـدها وأحكامها**: أنَّ من قام بالعبادة على هذا الوجه ـ: الإخلاص والمتابعة ـ؛ فإنه لا خوف عليه في مستقبله، ولا حزن عليه في ماضيه؛ لأنه سوف يصل إلى النعيم والسعادة؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ من لم يتَّصف بهـذه الـصفة ـ أي: من لم يسلم وجهه لله وهو محسن ـ فإن عمله هباء، ليس فيه أجـر؛ فلـو عمل الإنسان عبادة أشرك فيها مع الله؛ فهي مردودة عليه، ولـو عمـل عبادة ليست متمشية مع السنة التي جاء بها الرسـول ﷺ؛ فـإن عبادتـه مردودة عليه.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ من لم يتعبد لله بهذين الشرطين: الإخلاص والمتابعة؛ فإنه يحل به الخوف والحزن؛ الخوف في المستقبل، والحزن في الماضي؛ ولهذا يتمنى الكُفَّار يوم القيامة أن يردوا إلى الدنيا؛ ليعملوا عملًا صـالحًا، فيقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ الثواب والأجر الذي يحصل لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ثوابٌ عظيم؛ لأن الله أضافه لنفسه، فقال: ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾، والثواب من العظيم يكون عظيمًا ولا شك.

❊ ❊ ❊

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾.

اليهود هم أتباع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والنصارى أتباع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكل منهما يضلل الآخر؛ كما في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ يضلل بعضهم بعضًا.

﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾، وهم يعلمون من هو على الحق، ولا شك أنَّ النصارى كانوا على الحق حين كانت ملتهم قائمة قبل بعثة الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأنَّ اليهود كانوا على باطل؛ حيث كفروا بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أنه مرسل إليهم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ

بَعۡدِى ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ﴾ [الصف: ٦]، وبعد أن بُعث النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كانوا كلهم على دين منسوخ، وليسوا على شيء؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكانوا أولياء بعضهم لبعض؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ [المائدة: ٥١].

وصارت النصارى كاليهود في كونهم علموا الحق ولم يتَّبعوه؛ قـال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ ﴾؛ أي: قـال أهل الجهل والضلال مثل قولهم؛ أي: في أنهم على الحق، ومَنْ سـواهم على الباطـل، ولـيس عـلى شيء، ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، إذا بُعِثَ الناسُ فإنَّ الله يَفْصِلُ بين الخلق مـن هـو على الحق، ومن هو على الباطل.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان عداوة اليهود والنصارى بعضهم لبعض، وأن كل طائفة منهم تضلل الطائفة الأخرى، ولكن هذه العداوة بعد بعثة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ صارت ولاية؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ [المائدة: ٥١].

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ هـذه المقالـة التـي قالتهـا اليهـود، وقالتها النصارى يقولها أيضًا كلُّ من كان جاهلًا؛ أي: كل مـن كـان ذا جهالة، وليس عنده علم؛ فإنه يقول مثل هذا القول الباطل الذي يريـد أن يدحض به الحق.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات الجزاء يوم القيامة؛ لقـول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

٤- ومن فوائـدها وأحكامهـا: أنَّ الـذين اختلفـوا في الكتـاب وفي الرسل سوف يقضي الله ـ تعالى ـ بينهم يوم القيامة، ويبيِّن من هـو عـلى الحق، ومن هو على الباطل، وقد ذكر الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ في سـورة النساء أنه يحكم بين النـاس، وأنـه لـن يجعـل للكـافرين عـلى المـؤمنين سبيلًا.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات يوم القيامة ـ وهو اليوم الآخـر ـ؛ فالإِيمان به أحد أركان الإِيمان الستة؛ لقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لجبريل حين سأله أن يخبره عن الإِيمان، فقال النبـي ـ صـلى الله عليه وآله وسلم ـ: «الإِيمان أن تؤمِنَ بالله، وملائكتِـهِ، وكتبـه، ورسـله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[١].

* * *

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٣١)

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ يعني: لا أحد أظلم ـ فالجملة استفهام بمعنى النفي ـ؛ فلا أحد أظلم من شخص أو طائفة تمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه؛ أي: تمنع الناس من دخول مساجد الله ليذكروا فيها اسم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بالصلاة وغيرها.

﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾؛ أي: أن مَنْعَ المساجد أنَّ تُدخل ويُذكر فيها اسم الله خرابٌ لها؛ فإن عمارة المساجد إنما تكون بما يُقام فيها من ذكر الله، وبيَّن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن هؤلاء الذين منعوها وكان لهم السلطة سوف تدور عليهم الدوائر حتى لا يدخلوها إلَّا خائفين؛ أي: لا يدخلون هذه المساجد إلا وهم في خوف، وقلق، واضطراب من المؤمنين الذين آلت هذه المساجد إليهم.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ﴾ هذا النفي يحتمل أن يكون المعنى ما كان لهم شرعًا أن يدخلوها إلا خائفين، أو ما كان لهم قَدَرًا أن يدخلوها إلا خائفين، والمعنيان كلاهما صحيح، ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾؛ أي: عار وذُل. ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فينالون بعد العز، والسلطة، والغلبة ذلًّا في الدنيا، وعذابًا عظيمًا في الآخرة.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ تحريم منع مساجد الله من أن يُذكر فيها اسمه.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** الإشارة إلى أن المساجد إنما بُنيت لذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، وقد جاءت السنة مصرحة بذلك؛ ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تزرموه[1] دعوه»، فتركوه حتى بال، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القذر؛ إنما هي لذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والصلاة، وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ »[2].

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** الإشارة إلى أن ما يتعلق بأمور الدنيا من بيع، وشراء، وإجارة، ونحوها لا يحل إيقاعه في المسجد؛ ولهذا قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاعُ في المسجد، فقولوا: لا أَرْبحَ اللهُ تجارتك... فإن المساجد لم تُبنَ لهذا»[3].

---

(١) أي: لا تقطعوه، والإزرام: القطع

(٢) رواه مسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم (٢٨٥)

(٣) رواه مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد، رقم (٥٦٨)، والترمذي، كتاب البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد، رقم (١٣٢١).

٤- **ومن فوائدها وأحكامها**: ذكـر الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ يكـون بـذكر اسمه؛ وذلك يقتضي أن يكون باللسان، وذكـر الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ يكون باللسان، ويكون بالقلب، ويكون بالجوارح.

أما ذكر الله بالقلب: فأن يكون الإنسان متفكرًا متأملًا في آيـات الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ الدالـة عـلى عظـيم سـلطانه، ومـا تقتـضيه رحمتـه وحكمته.

وأما الذكر باللسان: فهو يتناول كل قول يقرب إلى الله ـ عَزَّ وَجَـلَّ ـ من قراءة القرآن، والتسبيح، والتكبير، والتحميد، والتهليل، والأمـر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم، وغير ذلك من كـل قـول يقرب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وأما الذكر بالجوارح: فيشمل كل فعل يتقرب به الإنسان إلى ربـه؛ كالوضوء، والغسل، والصلاة، والصوم، والـصدقة، وغـير ذلـك مـن أفعال الجوارح.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن عمارة المساجد إنما هـي بـذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وما يفعل فيها من الطاعة؛ لقوله: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

والسعي في خرابها كما يشمل منع ذكر الله ـ تعـالى ـ فيهـا يـشمل أيـضًا الخراب الحسي؛ وذلـك بهـدمها حتـى لا يقـام الـذكر في هـذه البقعـة؛ لقوله: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: البشرى للمؤمنين أن هؤلاء الذين

سُلطوا على المؤمنين؛ بمنعهم من مساجد الله أن يذكروا فيها اسم الله سوف تكون العاقبة عليهم؛ أي: على هؤلاء المتسلطين المانعين؛ لقولهُ: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، وهذه العاقبة تؤيدها آيات أخرى؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٧ ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن هـؤلاء المتسلطين على عباد الله؛ بمنعهم من مساجد الله أن يذكروا فيها اسم الله ستنالهم عقوبتان: عقوبة في الدنيا؛ وهي الخزي ـ أي: الذل والعار ـ، وعقوبة في الآخرة؛ وهي العذاب العظيم.

٨ ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: التحذير من هذا العمل ـ أعني: منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ـ بأن الإنسان سوف يعاقب مرتين: مرة في الدنيا، ومرة في الآخرة؛ كما ذكر الله ـ تعالى ـ في هؤلاء.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾؛ أي: له كل شيء؛ لأن كل شيء فهو إما

مشرق وإما مغرب؛ فمغرب قوم يكون مشرق قوم آخرين وهكذا؛ فلله المشرق والمغرب، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾؛ أي: تتجهوا ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فهناك وجه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: محيط بكل شيء، وواسع الصفات، وواسع الهبات، وواسع الفضل، ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: عليم بكل شيء؛ فالله ـ تعالى ـ يبيِّن في هذه الآية أنه ـ تعالى ـ محيط بكل شيء، وأن الإنسان مهما تولَّى؛ فإن الله ـ تعالى ـ محيط به، عالم به.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ عموم ملك الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

٢ـ بيان أن هذا العموم لا يتأتى لأحد سوى الله؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ فإن تقديم الخبر يفيد الحصر؛ كما قرر ذلك علماءُ البلاغة.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الإنسان مهما تولَّى واتجه إلى شيء؛ فثَمَّ وجه الله، واختلف المفسرون في المراد بوجه الله هنا: هل هو وجه الله الذي هو صفة من صفاته أم المراد الجهة؟ فإن الوجه يأتي بمعنى الجهة، فيقال: وُجْهَةٌ، ووجه، وجهة؛ كما يقال: سافر فلان إلى هذا الوجه؛ أي: إلى هذه الجهة، والآية تحتملها جميعًا؛ أي: القولين.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الإنسان إذا صلَّى إلى جهة مجتهدًا

معتقدًا أن هذه الجهة هي القبلة؛ فإن صلاته تصح؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات وجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ والواجب إجراء الآية على ظاهرها، وأن يعتقد المرء أن لله ـ سبحانه وتعالى ـ وجهًا حقيقيًّا يليق بجلاله وعظمته، ولا يماثل أوجه المخلوقين، وهكذا بقية صفاته كاليدين والعينين؛ فإن الواجب على المؤمن إثبات ذلك على حقيقته، لكن بدون أن يكيِّفه؛ أي: بدون أن يتصوَّر له كيفية معينة؛ لأنه مهما بلغ الإنسان في التخيُّل؛ فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعظم مما يتخيَّله، ومن غير تمثيل؛ فلا يجوز أن يعتقد الإنسان أو يتصور أن وجه الله ـ تعالى ـ كأوجه المخلوقين؛ لأنَّ الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات سعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ أي: سعة علمه وإحاطته بكل شيء؛ وذلك أن كل الأشياء بالنسبة إليه ـ تعالى ـ صغيرة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

٧- **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات العلم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وعلمه ـ

تعالى ـ محيطٌ بكل شيء؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦].

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: وجوب الحذر من مخالفة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بترك أوامره أو فعل نواهيه؛ لأنه عالم ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك، وعلمه بذلك يقتضي الحذر من مخالفته.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

﴿وَقَالُوا۟ ﴾ الضمير يعود إلى كل من تفوَّه بهذه المقالة الكاذبة المنكرة من اليهود، والنصارى وغيرهم؛ فاليهود قالوا: عزيز ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، وكل هؤلاء قالوا فرية عظيمة، وإثمًا مبينًا؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ ﴾؛ أي: تنزيهًا له أن يكون له ولد؛ لأن الله غني عن كل شيء، وهو مالك لكل شيء؛ والولد إنما يتخذه من كان محتاجًا مفتقرًا، أما الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فإنه ليس بحاجة إلى أحد؛ لأن له الملك المُطلق، بل له ما في السموات والأرض؛ ولأن كل أحد خاضع لله، ذليل له،

منقاد لأمره الكوني، والمؤمن منقاد لأمره الشرعي؛ لقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ابتداء على غير مثال سابق؛ فهو ـ سبحانه وتعالى ـ الذي خلق السموات والأرض، وهو قادر على كل شيء؛ فكيف تجعلون له ولدًا وقد خلق كل شيء، وبدع السموات والأرض ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾: أي: قضاه قدرًا وكونًا؛ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، كلمة واحدة لا تثنى مرة أخرى يقولها ـ جل وعلا ـ للشيء مهما كان؛ فيكون في الحال، فليس بغريب أن يخلق الله ـ تعالى ـ عيسى ابن مريم بلا أب، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فوائد وأحكام هاتين الآيتين الكريمتين:

ففي الآية الأولى من الفوائد والأحكام:

١ ـ بيان هذه الفرية العظيمة التي افتراها الظالمون على ربهم ـ جل وعلا ـ؛ وهي أنَّ الله اتخذ ولدًا، وقد بيَّنا أن اليهود قالوا: عزيز ابنُ الله، وأن النصارى قالوا: المسيح ابن الله، وأن المشركين قالوا: الملائكة بنات الله.

٢ ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان تنزيه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن كل عيب ونقص؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ ومن ذلك تنزيهه عن اتخاذ الولد.

٣ ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان كمال غنى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن

اتخاذ الولد؛ حيث إنه ـ سبحانه وتعالى ـ مالك السموات والأرض وما فيهما.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن جميع الخلق قانت لله، ومنهم: عزير، والمسيح، والملائكة؛ كل قانت لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ذليل له؛ فلا يمكن أن يكون ولد له ـ سبحانه وبحمده.

وفي الآية الثانية من الفوائد والأحكام:

١ـ بيان أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا ينبغي أن يتخذ ولدًا؛ لأنه خالق السماوات والأرض؛ فهو مستغن عن الولد.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إقامة الدليل على بطلان الشبهة التي احتج بها النصارى على كون المسيح ابن الله؛ حيث قالوا: إنه خُلِقَ بلا أب، فأبوه هو الله، فبيَّن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه خالق السموات والأرض، وهي أعظم من خلق البشر؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وخالق السموات والأرض لا يمتنع عليه أن يخلق البشر.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان كمال قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ الأمر مهما كانت عظمته؛ فإن الله ـ تعالى ـ قادر عليه بكلمة واحدة وهي «كن»؛ فيكون كما أراد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ولهذا لما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: رَبِّ وماذا أكتب؟

قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات القول لله، وأن الله يقول، وأن قوله بحروف؛ لقوله: ﴿كُن﴾؛ فإن هذه الكلمة حروف، وفيه ردٌّ على من يقول: إن كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقوله هو المعنى القائم بنفسه، وليس حروفًا أو أصواتًا تسمع، وإنما كلامه هو المعنى القائم بالنفس، وما يسمع من ذلك فإنه عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، ولا شك أن هذا القول خطأ عظيم فاحش؛ فإن القول الذي يكون في النفس لا يُطلقُ عليه اسمُ القول؛ بلْ لا بُدَّ أن يُقيَّد؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨].

أما القول عند الإطلاق فإنه القول الذي يسمع ويكون من حروف يسمعها مَنْ وجِّه إليه الخطاب، وقد قال الله ـ تعالى ـ في موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وهذا ـ أعني كون كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من حروف وأصوات مسموعة ـ هو قول السلف، وأئمة الخلف، ولا عبرة بمن خالف طريقهم.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن كل شيء يسمع كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا وجّه إليه الكلام؛ لأنه يوجِّه الأمر «كن» إلى الشيء المراد؛ فيكون على ما أراد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: ليس عندهم شيء من العلم، بل هم في جهل وجهالة: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ يقولون ذلك لرسلهم؛ يطلبون آية يقترحونها على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وذلك أن يكلمهم الله ـ تعالى ـ.

﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ﴾ أي: علامة على صدق ما جاءت به الرسل، فبيَّن اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن هذا القول قد قاله مَنْ قبلهم.

ولقد اقترحت قريش على رسول الله ﷺ آيات متعددة، ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٤]

فهم يطلبون آيات يقترحونها مع أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جاءوا بآيات بينات؛ ما من رسول أرسله الله إلا أعطاه من

الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ أي: مثل هذا القول الذي قالوه قاله مَنْ سبقهم، واقترحوا آيات على رسلهم؛ ومن ذلك قول بني إسرائيل لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وإذا تشابهت القلوب تشابهت الأعمال؛ لأن الأعمال تصدر عن القلب؛ لقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «... أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ»[1]، فمتى صلَح القلب صلَحت الجوارح، ومتى فسد القلب فسدت الجوارح، نسأل الله أن يصلح قلوب الجميع، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وإذا تشابهت قلوبهم تشابهت أقوالهم وأعمالهم؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ يعني: قد أظهرنا إظهارًا يبين به الأمر.

﴿الْآيَاتِ﴾؛ أي: العلامات الدالة على صدق الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، لكن لا ينتفع بها إلا الموقن ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أما من ليس بموقن، بل هو في شك وريب؛ فإنه لا تنفعه الآيات؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال ـ تعالى ـ فيمن إذا تليت عليه آيات الله قال: أساطير

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٩).

الأولين: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ بيان عظم عناد الكفار المحادين لله ورسله؛ لقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ ﴾؛ ووجه ذلك أن الله ـ تعالى ـ آتى الرسل آيات يؤمن على مثلها البشر.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان كذب هؤلاء المعاندين؛ لأن طلبهم هذا يتضمن ادعاءهم بأنهم لم تأتهم آيات، وهذا كذبٌ محضٌ؛ فالآيات جاءتهم، وبُيِّنت لهم، لكنهم ـ والعياذ بالله ـ قد حقَّت عليهم كلمة الله، ومَنْ حَقَّت عليه كلمة الله فإنه لا يؤمن؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن القلوب إذا تشابهت تشابهت الأقوال والأعمال؛ لقوله حين حكى عمن سبق أنهم قالوا كما قال المكذبون لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الإشارة إلى أن القلوب هي الموجهة للبدن؛ لقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلَحَتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدت

فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١].

٥- **ومن فوائدها وأحكامها**: تشابه أعمال الكفرة؛ أي: مشابهة لاحقيهم لسابقيهم.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بيَّن وأوضح الآيات التي تدل على صدق ما جاءت به رسله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن هذه الآيات البيِّنَات بنفسها لا تتبيَّن إلا لموقن؛ ويتفرع على هذه الفائدة: أن من كان عنده شك؛ فإن الآيات لا تتبين له ولا تظهر له، بل لا تزيده الآيات إلا عمًى وضلالًا؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

٨- **ومن فوائدها وأحكامها**: الإشارة إلى أنَّ الناس ينقسمون في آيات الله ـ تعالى ـ على قسمين: قسم موقن؛ فهذا ينتفع بالآيات التي آتاها الله الرسل، وقسم غير موقن، بل هو في شك، وأقبح منه من كان في عناد وإنكار؛ فإن هذا لا ينتفع بالآيات؛ لأن الله ـ تعالى ـ خصَّ

---

[١] سبق تخريجه ص (٥٩).

الانتفاع بالآيات لقوم يوقنون، ومن ذلك ما يقوم بقلوب بعض الناس من الشك في نفع بعض الآيات التي رُتِّب عليها فوائد؛ مثل قول النبي ﷺ في آية الكرسي: «من قرأها في ليلة؛ لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح»(١)، وإن بعض الناس يقرأ هذه الآية ولكنه في شك من هذا الخبر، أو يقول: أقرؤها وأجرِّب؛ فإن مثل هذا لا ينتفع بها أبدًا؛ فلا ينتفع بها إلا من أيقن بأنه إذا قرأها لا يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، وهكذا بقية الآيات التي أخبر النبي ﷺ بشيء من فوائدها؛ فإن الواجب على المرء أن يتلوها وهو موقنٌ بصحة ما أخبر به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ حتى يتم إيمانه، وحتى ينتفع بها.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

المُرسِل هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والخطاب للرسول ﷺ؛ فهو الرسول، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يحتمل أن يكون تبيانًا للمُرْسَل به؛ فإنَّ ما جاء به الرسول ﷺ حق، وما سواه باطل، ويحتمل أن يكون تبيانًا للرسالة؛ أي: أن رسالتك حق، ليس فيها شيء من الباطل، والمعنيان صحيحان؛ فرسالة النبي ﷺ حق، وما أُرسِلَ به من العلم، والإيمان،

---

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٥).

والعمل الصالح هو حق.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفتان من صفات الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه بشير وأنه نذير؛ فهو بشير للمؤمنين، وهو نذير للكافرين؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:١ـ٥].

فهو ﷺ بشير للمؤمنين بالثواب العاجل والآجل، ونذير للكافرين بالعقاب العاجل والآجل، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: لا يسألك الله ـ تعالى ـ عن أصحاب الجحيم بعد إذ أنذرتهم؛ فإنَّ سيئاتهم على أنفسهم، أما أنت فقد بلَّغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

٢ـ ومن فوائدها وأحكامها: أن رسالة النبي ﷺ حق؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٣ـ ومن فوائدها وأحكامها: وجوب اتباع النبي ـ صلى الله عليه

وآله وسلم ـ؛ لكونه رسول الله، ولكون ما جاء بـه حقًّا، وضـد الحـق الباطل؛ فمن خالف النبي ﷺ فهو على باطل، ثـم إن هـذا الباطـل قـد يكون شاملًا لجميع أعماله؛ كالكافر بما جاء به الرسول ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ، وقد يكون الباطل في بعض أعمالـه؛ كمـن فعـل معـصية لا تخرجه من الإِسلام؛ فإن هذه المعصية تكون باطلًا وما معـه مـن الحـق يكون حقًّا.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسـلم ـ ليس له حق من الربوبية والتصرف في الخلق؛ إنما هو بشير ونذير.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** الحث على فعل ما يكون بشارة للعبد، وتلك هي الأعمال الصالحة، فإن من عمل عملًا صالحًا؛ فله البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ له البشرى في الحياة الدنيا؛ لأن توفيق الله له لهذا العمل دليل على أن الله يسَّره لليسرى؛ فيبشر بذلك، ويفرح، ويُسر؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «... **من سرته حسنته، وساءته سيئته فذلك المؤمن**»[1]؛ فأنت إذا رأيت الله ـ تعالى ـ قد وفقك للعمل الصالح فأبشر بالخير؛ قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار**»، قالوا: يا رسول

---

(١) رواه الإِمام أحمد في مسنده (١/ ١٨)؛ والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه...» ؛ والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٩١)؛ وانظر المستدرك، للحاكم (١/ ٥٨ ـ ٥٩)

الله، فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «لا، اعملوا؛ فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ إلى آخر الآية [الليل: ٥ ـ ٧][١].

وعلى هذا فينبغي للإنسان إذا رأى أنَّ الله يَسَّره للعمل الصالح، وهداه له، وسهَّلهُ عليه أن يحمد الله على هذه النعمة، وأن يُسَرَّ بذلك؛ قال اللهُ ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «... يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثُمَّ أوفِّيكم إيَّاها؛ فَمَنْ وجدَ خيرًا فليحمد الله، ومنْ وجدَ غير ذلك ـ أو قال: سوى ذلك ـ فلا يلومنَّ إلا نفسه»[٢]، وإذا وجد من نفسه أن العمل الصالح ثقيل عليه، وأن نفسه تنقاد بسرعة إلى العمل السيئ فليرجع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وليتب إليه، وليحذر مما هو عليه.

٦-**ومن فوائدها وأحكامها**: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يُسأَلُ عن ضلالِ الضالين، ومن كان من أصحاب الجحيم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

٧-**ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ الإنسان إذا أدَّى ما عليه من إبلاغ الشرع والدعوة إليه؛ فإنه لا يناله من ضلال الضالين شيء، إنما يضلون

---

(١) أخرجه ـ بنحوه ـ البخاري: كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر، رقم (١٣٦٢)؛ ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)

(٢) رواه ـ ضمن حديث ـ مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

على أنفسهم؛ قال الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٦].

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ أصحاب الجحيم ـ الذين هم أهل الجحيم ـ لا يستفيدون برسالة النبي ﷺ شيئًا؛ لأنهم قد حقَّت عليهم كلمة العذاب ـ والعياذ بالله.

❊ ❊ ❊

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

يقول الله ـ تعالى ـ مخبرًا عن حال اليهود والنصارى، وشدة معاداتهم لما جاء به الرسول ﷺ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾، وقد بينا ـ فيما سبق ـ أن اليهود هم أتباع موسى، وأن النصارى هم أتباع عيسى.

فاليهود أتباع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وشريعتهم التي كانوا عليها نُسخت بشريعة عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ووجب

عليهم أن يؤمنوا بعيسى ويتبعوه، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ أبوا ذلك، وكفروا بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وادعوا أنهم قتلوه وصلبوه، وقد أنكر الله ذلك عليهم في قوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧].

أما النصارى فهم أتباع عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وليس بينه وبين محمد ﷺ رسول، وهم كانوا على دين حق حتى بُعث النبي ﷺ، فلما بُعث النبي ﷺ وجب عليهم أن يتبعوه، فلما كفروا به صاروا كافرين حتى بعيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن عيسى ابن مريم قد بشَّرهم بمحمد ﷺ؛ كما ذكر الله ـ تعالى ـ ذلك في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦]؛ فأحمدُ الذي بَشَّرَ به عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو محمد ﷺ؛ والدليل على هذا قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، ولكنهم كفروا بمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكانوا كافرين بعيسى وبشارته؛ ولهذا لا يقبل الله دينهم، ولا ينفعهم هذا الدين الذي هم عليه يوم القيامة؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾؛ أي: دينهم الذي هم عليه؛ فاليهود يقولون: لا نرضى عنك حتى تكون يهوديًّا، والنصارى يقولون: لا نرضى عنك حتى تكون نصرانيًّا، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ﴾؛ أي: منكرًا عليهم: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، وليس ما أنتم عليه أيها اليهود ولا ما أنتم عليه أيها النصارى، بل هدى الله هو الهدى؛ وهدى الله بعد بعثة الرسول محمد ﷺ هو ما كان عليه محمد ﷺ، وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ضمير فصل، وضمير الفصل يفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه؛ لأنه ـ أعني: ضمير الفصل ـ من أدوات الحصر.

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ يعني: من اتبع أهواء هؤلاء اليهود أو النصارى، وهو ما يريدونه من أن يكون الناس نصارى أو يهودًا، فمن اتبع هذا بعد ما جاءه من العلم برسالة محمد ﷺ؛ فإنه معرض نفسه لهذه العقوبة: ما له من الله من ولي يتولاه؛ فيحيطه بما ينفعه، ولا نصير ينصره؛ فيمنعه مما يضره.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: التحذير الشديد من اليهود والنصارى؛ لأنهم لن يرضوا عن الإنسان حتى يتبع ملتهم.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان أن اليهود والنصارى يرضون

بمن يتبع ملتهم، بل يفرحون بذلك، ويسرون به، ويستبشرون به.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الهدى لا يختص بأمة أو طائفة معينة؛ فليس الهدى لليهود فقط، ولا للنصارى فقط، بل الهدى هدى الله، فمن اتبع هدى الله على أي رسول؛ فقد اهتدى بهدى الله، ومعلوم أن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء، وأنه جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، وأن شريعته نسخت جميع الشرائع؛ وعلى هذا نقول لليهود والنصارى: الملة الصحيحة ما كان عليه المسلمون؛ لأنها هي هدى الله الذي بعث به محمدًا ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: التحذير من اتباع أهواء اليهود والنصارى؛ أي: اتباع ما يهوونه من الباطل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن العقوبات إنما تقع على العبد بعد أن يأتيه العلم، وأما الجاهل فلا عقوبة عليه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ﴾، وهذا الأصل يشهد له آيات متعددة؛ منها: قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال الله ـ تعالى ـ: قد فعلت. ومنها أيضًا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ

ﭐلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهو أنه لا عقوبة إلا بعد العلم.

٦- ومن **فوائدها وأحكامها**: أنه لا أحد يمنع ما أراد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من خير أو من شر؛ ففي الحديث الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في الأذكار التي تقال بعد الصلاة: «... **اللهُمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**»[1]؛ أي: لا ينفع صاحب الحظ والغنى حظُّه وغناه من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بل الله ـ تعالى ـ محيط بكل شيء، وقادر على كل شيء.

٧- ومن **فوائدها وأحكامها**: أنه إذا كان هذا التحذير موجهًا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ إلى آخر الآية؛ فكيف بمن دونه؟! فإن هذا التحذير يشمله وأولى، ولقد قال الله ـ تعالى ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [البقرة: ١٢١]

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أعطيناهم الكتاب، والمراد بالكتاب هذا الجنس؛ فيشمل الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ؛ وهو القرآن، والكتاب الذي أنزله على موسى؛ وهو التوراة، والكتاب الذي أنزله على عيسى؛ وهو الإنجيل.

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ أي: يتبعونه؛ **والتلاوة يُرادُ بها ثلاثة أمور:**

التلاوة اللفظية، والتلاوة المعنوية، والتلاوة الحكمية العملية.

أما التلاوة اللفظية: فأن يقيم الإنسان حروف الكتاب الذي أنزل.

وأما التلاوة المعنوية: فأن يقيم معناه؛ أي: معنى الكتاب الذي أنزل؛ وذلك بأن يفسره بما أراده الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لا بهوى نفسه؛ فلا يحرف الكلم عن مواضعه.

وأما التلاوة الحكمية العملية: فأن يؤمن بأخباره، ويقوم بأوامره، ويتجنب نواهيه.

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ أي: التلاوة الحق، فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ يعني: هؤلاء هم الذين يؤمنون به حقًّا، وأما من لم يتله حق تلاوته، إما في اللفظ أو في المعنى، أو في الحكم والعمل؛ فإنه لم يؤمن به، وقد نقص من إيمانه به بقدر ما نقص من تلاوته، وبيّن ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذه الآية أن من كفر بالكتاب الذي آتاه الله إياه؛ فإنه خاسر؛ خسر الدنيا والآخرة خسرانًا كاملًا إن

كان لم يؤمن به إطلاقًا، وخسرانًا ناقصًا إن كان آمن به على وجه ينقص الإيمان؛ لأن الله ـ تعالى ـ حكم عدل، فمن كان معه الإيمان كله؛ فله الربح كله، ومن كان معه الكفر وليس معه الإيمان؛ فله الخسران كله، ومن كان معه إيمان وكفر؛ فله الربح فيما آمن والخسران فيما كفر.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ الثناء على من آتاه الله الكتاب فتلاه حق تلاوته، وفيها حقيقة الإيمان بالكتاب: أن يتلوه الإنسان حق تلاوته.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن من لم يقم حروف الكتاب فإنه لم يؤمن به حق الإيمان؛ لأنه لم يتله حق تلاوته؛ ويتفرع من هذه الفائدة وجوب تلاوة القرآن على الوجه الذي أنزل من حيث الترتيب، ومن حيث الحروف؛ فلا يُبدلُ حرفٌ بحرف، ولا تُقَدَّمُ آية على آية، ومن حيث الإعراب؛ فلا يفتح ما كان مضمومًا أو مكسورًا ولا العكس.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تحريم تفسير القرآن بالرأي والهوى؛ لأن من فعل ذلك فإنه لم يتل القرآن حق تلاوته باعتبار المعنى؛ ويتفرع على هذا بيان خطر ما ذهب إليه المحرفون لآيات الصفات؛ مثل قولهم: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]؛ أي: استولى. ومثل قولهم: ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ أي: نعمتاه مبسوطتان وما أشبه ذلك؛ فإن هذا ـ بلا شك ـ تحريف للكلم عن مواضعه، وقد يكون هذا أشد من التحريف في آيات الأحكام العملية؛ وذلك لأن باب الصفات

من باب الخبر المحض الذي ليس للعقول مدخل في تفاصيله؛ فيجب تلقيه من كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله ﷺ.

فمن حَرَّفَ نصوص الكتاب والسنة في آيات الصفات وأحاديثها؛ فهو أشد خطرًا ممن حرَّفها فيما يتعلق بالأحكام البدنية؛ وعلى هذا فالواجب إجراء نصوص الصفات في الآيات والأحاديث على ظاهرها اللائق بالله بلا تمثيل ولا تحريف، فنقول: إن معنى قوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]؛ أي: علا على العرش علوًّا يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل، ونقول في قوله ـ تعالى ـ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]: هما يدان حقيقيتان بهما يأخذ وبهما يقبض، ولكنهما لا تماثلان أيدي المخلوقين، وهكذا بقية الصفات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يجب علينا أن نؤمن بها على ظاهرها لكن من غير تمثيل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، ومن غير تكييف أيضًا؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا ﴾ [طه: ١١٠]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ فلا يجوز لأحد أن يمثل لصفات الله بصفات خلقه، ولا يُكَيِّف صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن ذلك قول على الله بلا علم.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن التلاوة تنقسم إلى قسمين: تلاوة تامة؛ وهي حق التلاوة، وتلاوة ناقصة؛ وهي أن يتلوه بعض التلاوة.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن من لم يقم بالعمـل الـصالح الـذي دلَّ عليه الكتاب؛ فإنه لم يتله حق تلاوته، فيكون ناقص الإيمان، وهـذا هو طريق أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيـد بالطاعـة، وينقص بالمعصية أو غيرها من أسباب نقصه.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** الثناء على المتبعـين، بـل عـلى التـالين لكتاب الله حق تلاوته؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الكافر بالكتاب الذي أنزله الله على رسله خاسر في الدنيا والآخرة، حتى وإن ربح في الدنيا أموالًا، وقصورًا، ومراكب، وأنعم عليه بالأهل والبنين؛ فإنه خاسر؛ لإطلاق الخسران في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ولم يقل: في الدنيا، ولم يقل في الآخرة؛ فيكون ذلك عامًّا؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٥ ـ ١٦].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ في سورة البقرة: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [البقرة: ١٢٢].

هذه الآية الكريمة سبق مثلها، بل شـبهها في أول الـسورة؛ ينـادي الله ـ تعالى ـ بنـي إسرائيـل ـ وإسرائيـل هـو يعقـوب بـن إسـحاق بـن

إبراهيم -، يناديهم مُذَكِّرًا إياهم نعمته التي أنعمها عليهم، ويأمرهم بتذكرها، فيقول: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقد أنعم الله على بني إسرائيل بنعم عظيمة؛ منها: الإيمان؛ حيث آمنوا بموسى - صلى الله عليه وآله وسلم -.

ومنها: أن الله أهلك عدوهم (فرعون وقومه)، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

ومنها: أن الله - تعالى - ظلَّلَ عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، ونِعَم الله عليهم كثيرة.

ومنها: أن الله فضَّلَهم على العالمين؛ أي: جعلهم أفضل من العالمين، وذلك في زمانهم؛ فإن بني إسرائيل الذين آمنوا برسلهم أفضل العالمين في وقتهم، أما بعد بعثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - فإن أفضل الأمم أمة رسول الله ﷺ الذين آمنوا به؛ كما قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «نحنُ الآخِرُونَ السَّابِقون يوم القيامة»[1]، يقول الله - تعالى - في هذه الآية مخاطبًا بني إسرائيل ومذكرًا لهم بهذه النعم: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم (٨٧٦)؛ ومسلم: كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (٨٥٥).

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أنه يجب على المرء أن يتذكَّر نعمة الله عليه؛ ليقوم بشكرها، وبشكر النعم تزداد، وبكفرها ترتفع؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه يجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأنه مرسل إليهم، فعليهم أن يتبعوه شكرًا لله ـ تعالى ـ على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي تميزوا بها عن العالمين في وقتهم.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تفاضل الناس؛ فالناس يتفاضلون عند الله في الأعمال، ويتفاضلون في الإيمان؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وسُئِلَ النبي ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؟ فقال: «الصَّلاة على وقتها، قال: ثم أيٌّ؟ قال: بر الوالدين، قال: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله»(١)؛ فالأعمال تتفاضل، والعاملون يتفاضلون

---

(١) رواه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله ـ تعالى ـ أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

بحسب ما عندهم من العلم، والإيمان، والعمل الصالح.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه يجب على من فضَّله الله على غيره بعلم أو مال أو عمل من الشكر ما لا يجب على من هو دونه؛ وذلك أن الناس قسمان: قسم أنعم الله عليهم فابتلاهم بالنعم؛ ليشكروا أو يكفروا، وقسم آخر ابتلوا بالمصائب؛ ليعلم الله ـ تعالى ـ هل يصبرون أم لا يصبرون؟ ولكل فيما ابتلي به وظيفة؛ فمن ابتلي بالخير فعليه وظيفة الشكر، ومن ابتلي بضده فعليه وظيفة الصبر، وكلما عظمت النعم كان الشكر عليها أوجب.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَاتَّقُوا﴾: واحذروا ﴿يَوْمًا﴾: هو يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾: لا تغني عنها شيئًا حتى الوالد لا يغني عن ولده شيئًا، والولد لا يغني عن والده شيئًا؛ كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في سورة لقمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ـ٣٧].

وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: أي: لا يقبل منها ما تدفعه عدلًا؛

أي: فدية عنها ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ والشفاعة هي التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة؛ ففي يوم القيامة لا تنفع الشفاعة أحدًا إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولًا،﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: ولا هم يمنعون من عذاب الله.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ وجوب الحذر من عذاب يوم القيامة؛ لأنه هو المراد بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه في يوم القيامة لا ينفع أحد غيره شيئًا بخلاف الدنيا؛ فإنه قد ينفعه بشفاعة أو غيرها، أما في الآخرة فلا.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب الحذر من هذا اليوم العظيم الذي لا تنفع فيه قرابة، ولا ينفع فيه الفداء، ولا تنفع فيه الشفاعة؛ وإنما الإنسان وعمله.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** نفي نفع الشفاعة لمن ليس من أهلها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾، أما من كان من أهل الشفاعة فإن الشفاعة تنفعه، **وليعلم أن الشفاعة قسمان:** قسم عام، وقسم خاص، والخاص هو الذي لا يقوم به إلا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ وهي الشفاعة العظمى التي يتراجع فيها الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ حتى تصل إلى محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ فإن الناس يوم القيامة يلحقهم من الهم والكرب ما لا يطيقون، فيأتون

إلى آدم يطلبون منه الشفاعة فيعتذر، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، حتى تنتهي إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - محمد؛ فيقوم ويشفع بإذن الله - سبحانه وتعالى -، وهذه خاصة بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -.

وقسم عام: تكون للرسول - عليه الصلاة والسلام - ولغيره من المؤمنين من الملائكة والبشر؛ ومنها: الشفاعة للميت بالصلاة عليه؛ قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «ما مِنْ رجلٍ مُسْلِمٍ يموتُ فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفَّعَهُمُ اللهُ فيه»[1]، وهذه عامة - كما قلنا - تكون للأنبياء والصالحين من البشر، وتكون كذلك للملائكة.

ه - **ومن فوائدها وأحكامها:** قطع آمال المشركين الذين يعبدون الأصنام، ويتخذونها شفعاء عند الله؛ فإنها لا تنفعهم يوم القيامة، خلافًا لما يتوهمونه من أنها تنفعهم؛ حيث يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]. وقال - تعالى -: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]؛ فلا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولًا.

* * *

(١) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨).

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ؛ أي: اختبره؛ وإبراهيم عليه السلام هو ابن آزر، وهو خليل الرحمن ـ سبحانه وتعالى ـ؛ يخبر الله ـ تعالى ـ أنه ابتلاه بكلمات، ﴿وَإِذِ﴾ هنا متعلقة بمحذوف، والتقدير: واذكر إذ ابتلى إبراهيم؛ أي: اذكر للناس هذه القصة العجيبة الدالة على فضل إبراهيم؛ ابتلاه الله ـ تعالى ـ بكلمات؛ والكلمات هذه كلمات شرعية ابتلاه الله ـ تعالى ـ بها؛ وهي الأوامر والنواهي، ولم يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ عين هذه الكلمات ولا نوعها، لكننا نعلم أنها كلمات تكليفية قام بها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الوجه الذي ابتلاه الله ـ تعالى ـ بها حسب ما يرضي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ومن ذلك: أن الله ـ تعالى ـ أمره أن يذبح ابنه إسماعيل بعد أن بلغ معه السعي؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ

هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٦] [(١)].

فابتلى الله - تعالى - إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بكلمات: أوامر ونواهٍ؛ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وهذا هو محل الثناء، لما ابتلي بذلك أتمهنَّ على الوجه الذي يرضى به الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فأثابه الله - تعالى - ذلك الثواب العظيم: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ أي: قدوة يقتدي بك الناس.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾؛ يعني: واجعل من ذريتي إمامًا، أو اجعل من ذريتي أئمة، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فتعهد الله له بذلك إلا أنه استثنى فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ومن أكبر الأئمة - بل هو أكبر الأئمة - من ذريته محمد ﷺ؛ فهو إمام المتقين - صلوات الله وسلامه عليه -، بل هو إمام الأنبياء ﷺ، وإن كان آخرهم؛ كما تبدَّى ذلك في قصة الإسراء والمعراج؛ حيث صلَّى بهم - صلوات الله وسلامه عليه - إمامًا، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: من كان ذا ظلمٍ لنفسه بالإشراك بالله؛ فإنه لا يمكن أن يكون إمامًا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- أنَّ الله أمر نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يذكر للناس ما حصل من الابتلاء لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؛ والفائدة من ذلك: الاقتداء به؛ أي: بإبراهيم؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ

---

(١) أسلما: أي: انقادا لأمر الله - تَعَالَىٰ - وتله للجبين: أي: تله على وجهه؛ ليذبحه من قفاه.

إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

٢ــ **ومـن فوائـدها وأحكامهـا:** فـضيلة إبـراهيم ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ، وأنه إمام؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** شفقة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ذريته؛ حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ﴾، وهذا يشبه من بعض الوجـوه ما سأل موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربـه ـ جـل وعـلا ـ أن يـشرك أخاه هارون في الرسالة.

٤ـ **ومـن فوائـدها وأحكامهـا:** أن الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ أعطـى إبراهيم ما سأل؛ بأن يجعل من ذريته أئمة، لكنه استثنى من ذلك الظالم؛ فإنه لا يكون إمامًا.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن كل من كان أقـوم لله ـ تعـالى ـ بـما أمر به كان أحرى بالإمامة من غيره؛ وذلك لأن إبراهيم ـ عليه الـصلاة والسلام ـ إنما كان إمامًا؛ لأنه أتم ما ابتلاه الله به؛ ولذلك قـال النبـي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله، فـإنْ كـانوا في القراءةِ سواءً فـأعلمهم بالـسُّنَّةِ، فـإن كـانوا في الـسُّنَّةِ سـواء فأقـدمهم هجرةً، فإن كانوا في الهجرة سواءً فأقدمهم سِلْمًا»(١).

---

(١) رواه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة، رقم (٦٧٣).

٦ - **ومن فوئدها وأحكامها**: كراهية الله - تعالى - للظلم؛ ولذلك لم يجعل لظالم إمامة.

* * *

٧ - قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ متعلقٌ بمحذوف تقديره: واذكر إذ جعلنا؛ ومعنى جعلنا: صيَّرنا، والمراد بالبيت: بيت الله الحرام (الكعبة).

﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾؛ أي: مرجعًا يرجعون إليه ويثوبون إليه، ﴿وَأَمْنًا﴾ يأمنون به؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ثم أمر الله - سبحانه وتعالى - أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم - معروف - شرقي الكعبة المعظَّمة، وسُمي مقامًا؛ لأنه قام عليه حين بناء الكعبة؛ لما ارتفع البناء وضع هذا الحجر، فصار يرتفع عليه؛ من أجل إتمام البناء، ومازال هذا المقام محفوظًا إلى يومنا هذا.

وقوله: ﴿مُصَلًّى﴾؛ أي: مكانًا للصلاة، وقد فَسَّر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك بفعله حينما انتهى من الطواف - طواف القدوم -، فتقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ

مُصَلًّى﴾، فصلَّى خلف المقام ركعتين، وبيَّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية أنه عهد إلى إبراهيم وإسماعيل؛ أي: عهد عهدًا ألقاه إلى إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، وإسماعيل هو أكبر أولاد إبراهيم، وهو من سريته هاجر، وقد أبقاهما ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا المكان، أبقاهما؛ أي: أبقى إسماعيل وأمه في هذا المكان حتى شبَّ، وكبر، وأتاه الأولاد الذين هم العرب المستعربة، فكان إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أبيه في هذا المكان، فأمره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يطهر بيته للطائفين، والعاكفين، والرُّكَّع السجود؛ قال: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، وسيأتي ذكر بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة المعظمة.

وقوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ أي: الطائفين بهذا البيت ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾؛ أي: في المسجد ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: المصلين، وإنما بدأ بالطائفين؛ لأنهم أخص بهذا المكان؛ فإن الطواف لا يصح إلا في الكعبة، ولا يشرع إلا بالكعبة، ثم ثنَّى بالعاكفين؛ لأنهم أخص من المصلين ـ وإن الاعتكاف لا يكون إلا في المساجد، فلا يكون في كل أرض، ثم ثلَّث بالركَّع السجود؛ أي: المصلين؛ لأن ذلك أعم؛ فإن الصلاة تصح في كل مكان من الأرض إلا ما استثني من ذلك؛ قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «... وجُعِلَتْ لي الأرضُ مسجدًا

وطهورًا»[1]، وذكر الركوع والسجود؛ لأنهما ركنان من أركان الصلاة؛ قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - للرجل الذي صلَّى ولكنه لم يطمئن في صلاته: «...ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا»[2].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ - أن الله - تعالى - جعل البيت مثابة للناس وأمنًا؛ أي: مرجعًا لهم وأمنًا؛ ومن ذلك أنهم يترددون إليه في كل موسم حج، وفي غير موسم الحج؛ فأفئدة الناس تهوي إلى هذا المكان للحج، والعمرة، وغيرهما من الطاعات.

٢- **ومن فوائدها وأحكامها:** أن مكة بلد آمن، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «... إنَّ مكة حرَّمها اللهُ ولم يحرمها الناس؛ فلا يحل لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يَعْضِدَ بها شجرة...»[3]؛ فلا يحل القتال في مكة لأحد إلا لرسول الله ﷺ حين الفتح فقط، فهي لم تحل لأحد قبله، ولن تحل لأحد بعده؛ ولهذا يحرم القتال في مكة المكرمة إلا على سبيل الدفاع عن

---

(١) رواه البخاري: كتاب التيمم، باب وقول الله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾، حديث رقم (٣٣٥)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب (بدون)، رقم (٥٢١).

(٢) تقدم تخريجه ص (٣٨).

(٣) رواه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)؛ ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم قتلها وصيدها...، رقم (١٣٥٤).

النفس؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** الأمر باتخاذ مصلى من مقام إبراهيم، وقد بيَّنا أن النبي ﷺ بيَّن ذلك بكونه صلى خلف المقام ركعتين، وقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في وجوب هاتين الركعتين؛ فمنهم من قال: إنهما واجبتان؛ لأن الله ـ تعالى ـ أمر بهما، وبيَّنهما النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بفعله، والأصل في الأمر الوجوب.

ومنهم مَنْ قال: إنهما سُنَّةٌ؛ لأنهما من توابع الطواف، والمشروع في هاتين الركعتين أن يخففهما، وألا يمكث بعدهما عند المقام، وأن يقرأ فيهما في الركعة الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي الركعة الثانية بعد الفاتحة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وبهذا نعرف أن ما يفعله بعض الناس من التطوع خلف المقام من غير طواف، أو التطوع بأكثر من ركعتين، أو إطالة الركعتين، أو الجلوس بعدهما في هذا المكان لقراءة القرآن، أو للذكر، أو للدعاء غير مشروع؛ لأن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أحرص الناس على الخير بلا شك، ومع ذلك فقد صلى خلف المقام ركعتين خفيفتين ثم انصرف؛ ولأن هذا المكان يختص بالطائفين الذين يصلون ركعتين، فكون الإنسان يبقى فيه بدون سبب شرعي فيه شيء من الجناية على غيره، ولكن لو سألنا سائل: إذا كان

المطاف مزدحمًا، وكان الطائفون يطوفون من وراء مقام إبراهيم، فهل للإنسان الحق أن يصلي ركعتين بين الطائفين، فيعيق سيرهم ويؤذيهم أم ليس له الحق في ذلك؟

الجواب: أنه ليس له الحق في ذلك؛ لأن حقَّ الطائفين أولى بالمراعاة من حق المصلي؛ إذ إن المصلي يمكنه أن يصلي بعيدًا عن مكان الطواف، فيصلي ركعتين، ويجعل المقام بينه وبين البيت، ولو كان في آخر صحن المطاف، بل ولو كان تحت السقف، لكن الطائف ليس له إلا هذا المكان، وبهذا نعرف خطأ من يفعلون هذا الفعل، تجدهم يصلون خلف المقام مع ازدحام المطاف، واحتياج الناس إلى الطواف، فمثل هؤلاء لا حقَّ لهم في هذا المكان ما دام الطائفون محتاجين إليه.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها**: تعلية شأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ حيث أمرنا الله ـ تعالى ـ أن نتخذ من مقامه مصلى، وهذا من جملة ما يترتب على الإمامة التي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها**: عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل ـ أي: وصى إليهما ـ وأمرهما بأن يطهرا بيته للطائفين، والعاكفين، والركَّع السجود.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: فضيلة إبراهيم وإسماعيل؛ حيث أوكل إليهما هذا الأمر العظيم.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها:** فضيلة الطـواف؛ لقولـه: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾، ولا شك أن الطواف من الأعمال الجليلة الفاضـلة؛ ولهـذا كان ركنًا في الحج والعمرة؛ فـلا يـتم حـج الإنسان ولا عمرتـه إلا أن يطوف بالبيت.

٨- **ومن فوائـدها وأحكامهـا:** وجـوب تطهـير البيـت للطـائفين، والعاكفين، والركّع السجود، وتطهير البيت ينقسم إلى قسمين: تطهـير معنوي، وتطهير حسي؛ أما التطهـير المعنـوي: فـأن يطهـر مـن الـشرك والمعاصي؛ وذلك لأن الشرك نجاسة؛ كـما قـال الله ـ تبـارك وتعـالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨]؛ فلا يجوز أن يركن أحـد في هـذا البيت إلى الإشراك بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ وهـو أن يـدعو نبيًّـا، أو وليًّـا، أو ملكًا، أو غيره من دون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإن الله لا يغفـر أن يـشرك بـه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ ولهذا قال الله ـ تعـالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، فنهى أن يقربوا المسجد الحرام فضلًا عن أن يكونوا في البيت الحرام.

والطهارة الحسية: أن يطهـر مـن الأقـذار؛ مـن البـول، والغـائط، والدم، وما أشبه ذلك من الأشياء النجسة؛ فالواجـب أن يطهـر منهـا، فهذا الحكم ـ أعني التطهير من النجاسة الحسية ـ ثابت للمسجد الحرام ولغيره من المساجد؛ ولهذا لما بال الأعرابي في مسجد النبي ﷺ في المدينة أمر النبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق عليه.

٩- **ومن فوائدها وأحكامها**: الإشارة إلى أن المشروع للطائف أن يكون متطهرًا؛ لأنه إذا أمر بتطهير البيت من أجله فتطهيره بنفسه، وتطهير ما لبسه من الثياب من باب أولى؛ فالمشروع للطائف أن يكون طاهرًا من الأنجاس، كما أن المشروع له أن يكون طاهرًا من الأحداث؛ فلا يطوف وهو محدث حدثًا أصغر أو أكبر؛ ولهذا اختلف العلماء - رحمهم الله - على قولين في هذه المسألة: لو طاف وعليه حدث أصغر؛ هل يصح طوافه أم لا؟ اختار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أن طوافه صحيح، وقال أكثر أهل العلم: إن طوافه غير صحيح.

١٠- **ومن فوائدها وأحكامها**: فضيلة الاعتكاف؛ حيث أمر أن يطهر البيت من أجل العاكفين.

١١- **ومن فوائدها وأحكامها**: مشروعية الاعتكاف في المسجد الحرام؛ لقوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾، وهذا أمر لا إشكال فيه، وقد قال عمر: «يا رسول الله، إني نذرتُ في الجاهليةِ أَنْ أعتكفَ ليلة في المسجدِ الحرامِ، قال: «فأوفِ بنذرِكَ»»[1].

١٢- **ومن فوائدها وأحكامها**: فضيلة الركوع والسجود؛ حيث عبَّر بهما عن الصلاة كاملة؛ قال أهلُ العلم: وإذا عبَّر الله عن العبادة ببعضها دلَّ على وجوب هذا البعض فيها، وقد بيَّنَّا أن الركوع

---

(١) رواه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب إذا نذر في الجاهلية أن يعتكف ثم أسلم، رقم (٢٠٤٣)؛ ومسلم: كتاب الأيمان، باب نذر الكافر وما يفعل فيه إذا أسلم، رقم (١٦٥٦).

والسجود من أركان الصلاة، وحد الركوع أن ينحني القـائم، أن يحنـي ظهره بحيث يكون إلى الركوع التام أقرب منه إلى القيـام التـام، وقيـل: حده أن ينحني بحيث يمكنه مـس ركبتيـه إذا كـان معتـدل اليـدين لا طويلهما ولا قصيرهما، وأما السجود فقد بيَّن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه لابدَّ من الـسجود عـلى أعـضاء سـبعة؛ فقـال: «أُمِـرتُ أنْ أسجدَ على سبعة أَعْظُمٍ: الجبهـة - وأشـار بيـده عـلى أنفـه -، واليـدين، والرجلين، وأطراف القدمين...»(١).

١٣- **ومن فوائـدها وأحكامهـا**: أن تطهـير المـساجد مـن فـروض الكفاية؛ لقولـه: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ فوجَّـه الأمـر إلـيهما، وإن كانت هذه الفائدة، أو هذا الحكـم قـد يكـون مأخـذه مـن هـذه الآيـة الكريمة ضعيفًا، لكنه يؤخذ - أي: وجوب تطهير المـساجد مـن الأذى والقذر - من أمر النبي - صلى الله عليه وآلـه وسـلم - الـصحابة - رضي الله عنهم - أن يريقوا على بول الأعرابي الذي بال في المسجد ذنوبًـا مـن ماء؛ أي: دلوًا من ماء؛ فإن هذا يدل على الوجوب، وعلى أنـه وجـوب كفائي؛ وعلى هذا فإذا رأيت في المسجد قذرًا فأزلـه إن أمكنـك، فـإن لم يمكنك وجب عليك أن تبلغ مَنْ عليه تطهيره.

* * *

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب السجود على سبعة أعظم، حديث رقم (٨١٠)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود...، رقم (٤٩٠)، واللفظ له.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ **متعلقٌ بمحذوف ـ كسابقيه ـ** والتقدير: «واذكر إذ» ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ **ففي هذه الآية الكريمة يأمر اللهُ نبيه محمدًا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يُذَكِّرَ الناس ويبلغهم ما قاله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الدعاء للبيت الحرام وأهله؛ حيث قال:** ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ أي: آمنًا من كل **خوف،** ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ **أي: أعطهم من** الثمرات؛ أي: ثمرات الأشجار من النخيل، والأعناب، وغيرها.

وإنما سأل إبراهيم ذلك؛ لأن مكة بلد غير ذي زرع، فسأل إبراهيم ربه أن يرزقهم من الثمرات؛ فأجاب الله دعاءه؛ كما بينه ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال في آية أخرى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، **ولكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قيَّد ذلك بقوله:** ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ **وهذا من تمام أدبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه سأل الله أن يرزق أهل هذا البيت من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر؛ وذلك تأدبًا من قوله ـ تعالى ـ:** ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ **حيث قال في الأول حين**

قال الله له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فأطلق إبراهيم بسؤال الإمامة، ولكن الله قيَّدها بأنها خاصة بمن ليس بظالم، فهنا قال إبراهيم: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ولكنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بَيَّن أن رزقه لأهل هذا البيت يشمل؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ يعني: وأعطي من كفر من الخيرات التي تجبى لهذا البلد ـ أعني: مكة ـ، أما من كفر: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ أمتعه في هذه الدنيا بما أعطيه من الثمرات والخيرات، لكنه متاع قليل؛ إذ إن الدنيا كلها فانية تمضي لحظة فلحظة، ولا يدري الإنسان إلا وقد بلغ الأجل، وحلَّ به الموت؛ فهي ـ مهما طالت بالإنسان ـ قليلة، ثم إنَّ الدنيا إذا طالت بالإنسان، وأمد له في الأجل؛ فإنه يرجع إلى أرذل العمر، وقد قال الشاعر:

لا طيبَ للعيش ما دامت منغصةً لذاته بادِّكارِ الموتِ والهرمِ

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾؛ يعني: أمتعه قليلًا ثم أدفعه مضطرًا إلى عذاب النار يوم القيامة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]؛ فهم ـ والعياذ بالله ـ يدفعون دفعًا، وكأنهم إذا شاهدوا النار كأنهم يتلكئون ولا ينطلقون؛ فيدعون إلى نار جهنم دعًّا، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هذا قدح وثناء بالشر على مصير أهل النار ـ نسأل الله العافية.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- نُصح إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ للبلد مكة؛ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وقد استجاب اللهُ دعوته؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢- **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سأل الله ـ تعالى ـ أن يرزق أهله من الثمرات، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، فسأل شيئين: الأمن، ورغد العيش؛ فأجاب اللهُ دعوته أيضًا؛ فكانت مكة ـ وإن لم تكن بلدًا زراعيًا ـ تُجبى إليها ثمرات كل شيء من كل قطر؛ فأهلها آمنون، وبالعيش راغدون؛ فكان يجب عليهم من طاعة الله أكثر مما يجب على غيرهم؛ شكرًا لله ـ تعالى ـ على هذه النعمة.

٣- **ومن فوائدها وأحكامها**: حسن أدب إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الإيمان بالله واليوم الآخر من أسباب الرزق والأمن، وكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالله واليوم الآخر كان أكثر أمنًا؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٥- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ الله ـ تعالى ـ قد يعطي السائل أكثر مما سأل؛ لحكمة تقتضي ذلك؛ فإبراهيم سأل أن يرزق الله أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، ولكن الله قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، وهنا قد يرد إشكال: هل قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يقتضي إقرار الكافر على كفره في مكة أم لا؟ والجواب: لا يقتضي ذلك؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨].

٦- **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات الرزق للكافر؛ فالكافر رزقه من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولكنه مسئول عن هذا الرزق يوم القيامة، محاسبٌ عليه؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣]؛ فالكافر ـ وإن نعم برزق الله ـ محاسبٌ على هذا الرزق يوم القيامة.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الدنيا ـ وإن طالت ـ متاعها قليل؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه

قال: «وسوضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها»[(١)].

٨- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن أهل النار يضطرون إلى دخولها اضطرارًا، ويدفعون إليها دفعًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾.

٩- **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات النار، وأنها جزاء للكافرين؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾.

١٠- **ومن فوائدها وأحكامها**: الثناء بالشر على النار ومن كانت مصيرًا له؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجيرنا وإياكم من النار، وأن يدخلنا الجنة دار القرار؛ إنه جواد كريم.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

إبراهيم هو خليل الرحمن ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو أبو الأنبياء بعد نوح ـ عليهما الصلاة والسلام ـ؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، أما ابنه إسماعيل فهو أبو العرب، ومن سلالته خاتمُ الأنبياء محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، و﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ أساس البنيان ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ البيت هنا هو الكعبة، رفعا القواعد وهما يقولان:

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٧٦).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لأن العمل إذا لم يقبل صار تعبًا وضياعًا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ فضل إبراهيم وإسماعيل؛ حيث رفعا قواعد هذا البيت الذي أضافه الله ـ تعالى ـ إلى نفسه في قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: تواضع الأنبياء لشريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وتعظيمهم لحرماته؛ حيث بنى إبراهيم وابنه إسماعيل هذا البيت؛ تواضعًا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وتعظيمًا لحرماته.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ كل أحد مهما عظمت درجته وعلت منزلته مفتقر إلى ربه، وإلى قبوله ـ جلَّ وعلا ـ؛ لقول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: طرد العُجب من النفس، فلا يقول الإنسان: أنا عملت، أنا فعلت، أنا قلت، بل يعمل العمل، وهو مفتقر إلى ربِّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قبوله.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الشأن ـ كل الشأن ـ في قبول العمل، لا في نفس العمل، وإذا كان كذلك؛ فإنه ينبني على هذا أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على ما يكون به القبول؛ وهو الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والمتابعة لشريعته؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ

رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: وجوب الإيمان بهذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما: «**السميع**» ﷺ «**العليم**»؛ السميع لكل مسموع مهما خفي، والعليم بكل معلوم مهما تباعد.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات صفتي السمع والعلم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن السميع والعليم اسمان مشتقان من السمع والعلم؛ فلابد أن يتضمنا هذه الصفة، ولا نقول ـ كما قال أهل البدع ـ: إنه سميع بلا سمع، وعليم بلا علم، وسمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين: سمع بمعنى الإجابة، وسمع بمعنى إدراك الصوت وإنْ خفي؛ فمن الأول قوله ـ تعالى ـ عن إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]؛ أي: لمجيب الدعاء، وقول المصلي: سمع اللهُ لمن حمده؛ أي: استجاب لمن حمده؛ ومن الثاني ـ أي: إدراك الصوت ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

أما في هذه الآية في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. فتحتمل المعنيين جميعًا؛ أي: تحتمل سمع الصوت، وسمع الإجابة، هذا وقد قسَّم العلماءُ سمع الصوت ـ بحسب ما يقتضيه السياق ـ إلى عام وخاص؛ فالعام: هو الذي يتضمنه هذا الاسم الكريم في القرآن أو في غيره، ومقتضاه إدراك كل صوت مهما خفي؛ ولهذا لما نزلت هذه الآية:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية [المجادلة:١]، قالت عائشة: «الحمدُ لله الذي وسع سمعه الأصوات؛ لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها وما أسمع ما تقول»(١).

وأما السمع الخاص فمقتضاه: النصر والتأييد؛ مثل قوله ـ تعالى ـ لموسى وهارون: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

أما العليم فهو ـ كما أسلفنا ـ متضمنٌ لصفة العلم، وعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أزلي أبدي لم يسبق بجهل، ولا يلحقه نسيان؛ قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لفرعون حين سأله: ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥١، ٥٢]، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ واسع العلم، عليم بكل شيء جملة وتفصيلًا، أزلًا وأبدًا، فلم يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد جاء ذكر العلم جملة وتفصيلًا؛ فمن التفصيل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٤٦٠)؛ ومسند الإمام أحمد (٦/ ٤٦)؛ وسنن النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)؛ وسنن ابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

ولكن ما الذي نستفيده من هذين الاسمين الكريمين: السميع، والعليم؟

نستفيد من الناحية المسلكية فائدة؛ وهي أن نحذر من أن نتكلم بما لا يرضي الله؛ لأننا إن تكلمنا سمعه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ونحذر من أن نضمر في نفوسنا أو نعمل بجوارحنا ما لا يرضي الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنا؛ لأنه سوف يعلمه، ثم ينبئنا بما عملنا يوم القيامة.

* * *

ثم يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في ذكر ما قاله إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وهما يرفعان القواعد من البيت ـ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾؛ أي: منقادين لأمرك على وجه الإخلاص لك؛ لأن الإسلام لله يتضمن الإخلاص له والانقياد لأمره ـ جل وعلا.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾؛ يعني: واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك، وهي أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ لأنها هي الأمة التي يصدق عليها أنها من ذرية إبراهيم وإسماعيل، أما بنو إسرائيل فهم من ذرية إبراهيم؛ فهم ليسوا من ذرية إسماعيل، بل هم بنو عمهم.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ أي: مواضع نسكنا، ألهمنا إياها حتى نراها.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ ومعنى التوبة من الله على عباده: أن يوفقهم للتوبة أولًا، ثم لقبولها ثانيًا، والتوبة في الأصل: الرجوع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ التوَّاب: كثير التوبة على عباده مهما عظمت ذنوبهم؛ لقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، فقد نزلت هذه الآية في التائبين؛ والتوبة من الذنوب ـ مهما عظمت الذنوب ـ تهدم ما قبلها؛ لقول النبي ﷺ: «التوبة تهدم ما قبلها»، أو قال «تجب ما قبلها».

والتوبة تكون من أعظم الذنوب في حق الله وفي حق العباد، وتقبل؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧١]، والرحيم ذو الرحمة التي بها حصول النعم واندفاع النقم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ ـ أنَّ كل أحد محتاجٌ إلى ربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بل مضطر إليه في أن يوفقه للاستسلام له ظاهرًا وباطنًا؛ لقول إبراهيم ـ عليه الصلاة

والسلام ـ وابنه إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

٢ـ ومن فوائدها وأحكامها: أن الداعي إذا استمع إليه من يؤمِّن على دعائه؛ فإن الدعاء يكون لهما جميعًا؛ لأن الظاهر أن الذي يدعو إبراهيم، وإسماعيل يؤمِّن، والمستمع المؤمِّن مع الداعي كالداعي تمامًا؛ ودليل ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨ـ٨٩]، فقال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ مع أن الداعي موسى، قال العلماء: لأن موسى يدعو وهارون يؤمِّن.

٣ـ ومن فوائدها وأحكامها: فضل إبراهيم وإسماعيل على هذه الأمة؛ لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

٤ـ ومن فوائدها وأحكامها: أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله له عقبًا صالحًا؛ لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، وهذا كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

٥ـ ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ كل إنسان مهما عظمت درجته وعلت مرتبته مفتقر إلى علم الله له؛ لقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

٦ـ ومن فوائدها وأحكامها: أهمية معرفة موضع العبادة إذا كانت

العبادة مُقيَّدة بمكان معين، وكذلك أهمية معرفة وقت العبادة إذا كانت مقيَّدة بوقتٍ معيَّن؛ وينبني على هذا أنه ينبغي أن نعتني بمعرفة أوقات الصلوات الخمس حتى نؤديها في الوقت الذي حدَّدَهُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لعباده؛ لقوله: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣]؛ ومن ثَمَّ أُحَذِّرُ إخواننا المؤذِّنين من أن يؤذنوا قبل دخول وقت الصلاة، أولًا: لأن الأذان إعلام بدخول وقت الصلاة، والأذان قبل دخول وقتها لا يصح أن يكون إعلامًا بدخول الوقت، وثانيًا: أنهم إذا أذنوا فربما يتعجَّل أحد في البيوت من النساء أو من الرجال الذين لا تلزمهم صلاة الجماعة لعذر شرعي، فيصلون فور انتهاء المؤذن من أذانه، وتكون صلاتهم قبل دخول الوقت، ومن المعلوم أنَّ الإِنسان لو كَبَّر تكبيرة الإِحرام قبل دخول الوقت، ثمَّ أتمَّ الصلاة بعد دخوله؛ فإن صلاته لا تصح؛ يعني: لو تقدَّمت الصلاة بتكبيرة الإِحرام فقط قبل دخول الوقت؛ فإنها لا تصح.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ كل إنسان مهما عَلَت منزلته وارتفعت درجته مفتقر إلى توبة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عليه؛ لقول إبراهيم: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾، وقد مَنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بتوبته عليه؛ فقال: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٧].

والتوبة هي الرجوع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من معصيته إلى طاعته، ولابُدَّ فيها من شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله بألا يحمله على التوبة إلا رضا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وابتغاء ثوابه؛ فلا يحمله عليها خوفٌ من سلطان أو من أناس.

والثاني: الندم على ما فعل من المعصية.

والثالث: الإقلاع عن المعصية في الحال.

والرابع: العزم على ألا يعود في المستقبل.

والخامس: أن تكون التوبة قبل إغلاق زمن التوبة؛ وعلى هذا فلا تصح التوبة إذا حضر الأجل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [النساء: ١٨]، ولا تصح التوبة إذا طلعت الشمس من مغربها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

٨ـ ومن فوائدها وأحكامها: التوسل إلى الله ـ تعالى ـ بأسمائه عند الدعاء؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهنا قال: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وينبغي أن يكون التوسل بالاسم المناسب لما دعوت به؛ فإذا دعوت للتوبة فتوسل إلى

الله باسمه «التواب»، وإذا دعوت للمغفرة فتوسل إلى الله باسمه «الغفور»، وإذا دعوت لطلب الرزق فتوسل باسمه «الرزاق»، وما أشبه ذلك.

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما: «**التواب**» و«**الرحيم**»؛ أما التواب فهو الذي يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، وهو الذي يوفق من يشاء إلى التوبة؛ فيتوب؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، وأما الرحيم فهو ذو الرحمة العظيمة الواسعة؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال عن الملائكة وهم يدعون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقد قسَّم العلماء ـ رحمهم الله ـ رحمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى قسمين: رحمة مخلوقة، ورحمة هي صفته، ومثَّلُوا للرحمة المخلوقة بقوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي ـ للجنة: «**أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي**»[1]، وأطلق عليها اسم رحمته؛ لأنها محل رحمته؛ ولأنها مقر عباد الرحمن، وسكن الرحماء من عباد الله.

والقسم الثاني: رحمة هي صفته ـ جل وعلا ـ وهي غير مخلوقة؛ فإن

---

(١) رواه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وتقول هل من مزيد﴾، رقم (٤٨٥٠)؛ ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

جميع صفات الله غير مخلوقة؛ فإن الله ـ تعالى ـ بصفاته هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، وهذه تنقسم إلى قسمين: رحمة عامة تشمل جميع الخلق من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وعاقل وبهيم، ورحمة خاصة بعباد الله المؤمنين؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومقتضى الرحمة العامة إيجاد ما به تقوم مصالح المرحومين، وتندفع مضارهم، وأما مقتضى الرحمة الخاصة فهو توفيق هؤلاء، وتسديد أمورهم، وإصلاح أحوالهم على وجهٍ أخص مما تقتضيه الرحمة العامة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في الذرية، وأعاد الضمير إليها بالجمع؛ لأن معناها الجمع، والبعث، والإرسال بمعنى واحد؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ

فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هـو محمـد ـ صـلى الله عليـه وآلـه وسلم ـ؛ لأنه من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وليس في ذرية إسماعيل نبـي سوى محمد ﷺ.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾؛ يقرؤها عليهم حتى يفهموها علمًا، وفهـمًا، وعملًا؛ ولهذا قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ الكتاب الـذي هـو القرآن، والحكمة التي هي السنة وما تتضمنه أحكام القرآن والسنة من الحكم والأسرار، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ ينمي أخلاقهـم وأعمالهـم؛ ولهـذا كـان النبي ـ عليـه الـصلاة والـسلام ـ مـتممًا لمكـارم الأخـلاق؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجملة ـ هنا ـ جملة توسلية؛ توسلَ بها إبـراهيم ـ عليـه الصلاة والسلام ـ لقبول ما دعا به وتحقيقه، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يعني: ذا العزة الكاملة؛ وهي عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع؛ فـالله ـ سـبحانه وتعالى ـ له هذه الأنواع من العـزة؛ فهـو ذو قـدر عظـيم، وقهـر بـالغ، وامتناع عن كل سوء وعيب، وأما الحكـيم فهـو ذو الحِكْمَـة والحُكْـم؛ أي: أن الحكيم من الإِحكام، وهو الإِتقان، ومن الحُكْم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ حاجة البشر إلى الرسـل؛ ولهـذا دعـا إبـراهيم ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ أن يبعث في هذه الذريـة رسـولًا مـنهم؛ يتلـو علـيهم آياتـه ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، وهذا أمر معلوم بالضرورة؛ فإن

العقول مهما كَبُرت لا يمكن أن تستقل بمعرفة الله ـ تعالى ـ بأسمائه وصفاته على وجه التفصيل، ولا يمكن أن تتعبد لله ـ تعالى ـ إلا بما شرعه لعباده؛ فهم في أشد الضرورة إلى الرسل.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن هذا الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يتلو عليهم آيات الله، وقد حصل ما دعا به إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان يعلم أصحابه القرآن الكريم، ولا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، ثم ألقوا هذا القرآن الكريم إلى من بعدهم بكل ثقة وأمانة، وهكذا تداوله المسلمون إلى يومنا هذا ـ ولله الحمد ـ، ولم يجرؤ أحد على العدوان على هذا القرآن الكريم، وإذا اعتدى وجد ـ ولله الحمد ـ من يصدُّه ويردُّه على عقبه.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن ما جاء به الرسول ﷺ آيات؛ أي: علامات دالة دلالة قطعية على أنه نزل من عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وعلى أنه شرع الله.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: فضيلة العلم، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ علَّم أمته الكتاب والحكمة؛ ولهذا لم يدع النبي ﷺ شيئًا يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم إلا علَّمهم إياه؛ قال أبو ذر ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ: «**لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يُقلِّبُ جناحيه**

إلا ذكر لنا منه علمًا»[١].

٥-**ومن فوائدها وأحكامها**: أن هذه الشريعة جاءت بالحكمة المطابقة للمصالح؛ ولهذا كانت مبنية على جلب المصالح، ودرء المفاسد.

٦-**ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات القياس في الشريعة الإسلامية إذا كان قياسًا صحيحًا؛ ووجه ذلك أن إلحاق النظير بنظيره في الحكم من الحكمة؛ فيكون داخلًا فيما علمه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أمته، ودلائل هذا كثيرة؛ فكل مثلٍ ضربه الله في القرآن فإنه دليل على ثبوت القياس، وكذلك كل مثل ضربه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإنه دليل على ثبوت القياس، وقد كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يذكر المحسوس ليقاس عليه المعقول؛ فعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ: «أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، وُلد لي غلامٌ أسود، فقال: **«هل لك من إبل؟»**، قال: نعم، قال: **«ما ألوانها؟»** قال: حُمرٌ، قال: **«هل فيها من أورق؟»**[٢]، قال: نعم، قال: **«فأنى ذلك؟»**، قال: لعل نزعهُ عرقٌ، قال: **«فلعلَّ ابنك هذا نزعه»**[٣]؛ فاقتنع الرجل اقتناعًا كاملًا؛ لأن إلحاق النظير بنظيره من الحكمة، لكن أكثر

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٦).

(٢) الأورق: ما لونه بين السواد والبياض.

(٣) رواه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)؛ ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٥٠٠).

ما يحصل في القياس أنه لا يكون صحيحًا؛ حيث يقيس القائس شيئًا على ما لا يماثله؛ وحينئذ يحصل الخطأ، وتكثر مجانبة الصواب.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن نبينا ﷺ بُعِثَ ليتمم لأمته المكارم، وينمي فيها الفضائل؛ لقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وربما تشمل التزكية التعديل الذي هو ضد الفسق، وذلك أن من تمسك بهذه الشريعة؛ فإنه يكون عدلًا مقبولًا.

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات التوسل إلى الله ـ تعالى ـ بأسمائه، ودعاؤه بها؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما: «**العزيز**» و«**الحكيم**».

١٠ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات العزة، والحكمة، والحكم لله؛ فأما العزة فقد سبق الإشارة إلى أنها ثلاثة أنواع: عزة قدر؛ وهي أن الله ـ تعالى ـ ذو قدر عظيم لا يماثله شيء في قدره، وعزة قهر وغلبة؛ وهي أنه ـ سبحانه وتعالى ـ قاهر لكل شيء، غالب على كل شيء، وعزة امتناع؛ وهي أن الله ـ تعالى ـ يمتنع عن كل نقص وعيب؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

١١ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات الحكمة لله؛ والحكمة هي وضع الشيء في موضعه اللائق به، ثم هي نوعان:

حكمة في جعل الشيء على صفة معينة، وحكمة في الغاية من هذا

الشيء، وتكون في الشرع، وتكون في القدر؛ ولنضرب لهذا مثلًا بالقمر؛ القمر وضعه الله ـ تعالى ـ في السماء، وجعله مقدرًا بمنازل، وهذا التقدير يختلف به حجم القمر؛ أي: الحجم المضيء من القمر؛ فكونه على هذه الصفة المعينة يزداد حجم المضيء فيه رويدًا رويدًا حتى ينتهي، ثم يعود في النقص، هذه حكمة بلا شك؛ لأن الإنسان بمجرد أن ينظر إليه، فيجد ضوءه ناقصًا يعرف أنه في الربع الأول من الشهر مثلًا، وإذا وجده ممتلئًا عرف أنه في الأخير من الربع الثاني ـ هكذا ـ، ثم إن الغاية منه هو أن نعرف عدد السنين والحساب، فكان هذا حكمة في كون القمر على صفة معينة وفي غاية تقديره منازل؛ لنعلم ـ بذلك ـ عدد السنين والحساب.

كذلك أيضًا في الصلاة ـ وهي شرعية ـ نجد أن كونها على هذه الصفة المعينة في غاية الحكمة؛ قيام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وتقرُّب إليه بتلاوة كتابه، ومناجاته به، ثم ركوع يفيد قوة التعظيم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ثم قيام بعده حتى يخر الإنسان ساجدًا له ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من أعلى انتصاب له إلى أسفل انخفاض له؛ حيث يضع أعلى ما في بدنه، وأشرف ما في بدنه وهو الوجه على الأرض التي هي موطئ الأقدام وأسفل ما يكونْ إلى الجسم؛ تواضعًا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وتعظيمًا له؛ ولهذا كان العبد إذا سجد أقرب ما يكون من ربه، ثم قعود بعد ذلك وهكذا؛ فكون الصلاة على هذه الصفة في غاية الحكمة، ثم الثمرات المرجوة من هذه الصلاة أيضًا

حكمة عظيمة وهي حكمة الغاية؛ وحكمة الغاية من الصلاة هي سعادة الدنيا والآخرة؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في نفع الصلاة في الأمور الكونية والقدرية: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وفي نفع الصلاة في الأمور الشرعية قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ فأنت ترى أن حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كائنة في الأمور في صفتها التي هي عليها، ثم في الغاية منها.

١٢ ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات الحكم لله، وأن الحكم لله وحده، أما كونًا؛ فإنه لا مشارك له في حكمه، ولا يمكن لأحد أن يشارك الله في حكمه؛ فلا يمكن لأحد أن يمنع الموت إذا حضر، ولا يمكن لأحد أن يخلق شيئًا مهما ضعف؛ يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فحكم الله الكوني لا يمكن لأحد مخالفته، ولا مضادته، ولا معارضته؛ ولهذا نجد أن الفيضانات العظيمة والعواصف المدمرة، والصواعق المحرقة تنزل على أعظم دولة وأقواها صناعة، واقتصادًا، وسلاحًا، وتدمر ما شاء الله أن تدمره، ولا يملكون ردها.

أما الحكم الشرعي: فإنه قد يغيَّر وقد يبدَّل، لكن تغييره وتبديله اعتداء على حكم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، يلقى جزاءه من بدَّل أو غيَّر، ولكن

مع ذلك لو بُدِّل أو غُيِّر فإنه باقٍ، ولا سيما شريعة الإِسلام التي بُعِثَ بها محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ لأنها مكتوب لها البقاء إلى يوم القيامة؛ ولهذا يحاول المبطلون المعتدون الملحدون أن ينالوا من هذه الشريعة، ولكن يقيض الله لها من يكبح جماحهم، ويرد عدوانهم؛ إذن الحكيم من الحكم ومن الحكمة، والحكمة حكمة الشيء على الوصف الذي هو عليه، وحكمة الشيء في الغاية والثمرة المرجوة منه، والحكم كوني وقدري؛ وعلى هذا فيكون الحكم الكوني له حكمتان: حكمة وصف، وحكمة غاية، والحكم الشرعي له حكمتان: حكمة وصف، وحكمة غاية.

١٣- **ومن فوائدها وأحكامها:** الفائدة المسلكية العظيمة؛ وهي أن الإِنسان إذا علم أن الله هو العزيز؛ فإنه لن يستمد العزة إلا من عنده ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والعزة المستمدة من عند الله تكون بأمرين: إذا استقام على دينه، وبدعائه وسؤاله العزة؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

١٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الفائدة المسلكية في أن الإنسان يرضى بما قدره الله عليه، وبما شرعه له؛ لأنه يعلم أنه مبنيٌّ على الحكمة، فإذا علمت أن ما قدره الله عليك صادرٌ عن حكمة؛ فإنك سوف تقتنع؛ لأنك تعلم أن الله أعلم بمصالحك، وكذلك إذا علمت أن شريعة الله مبنية على الحكمة؛ فإنك تنقاد لها، وترضى بهذه الشريعة، وتعلم أنها حق، وأن مخالفتها هو السفه والباطل.

١٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الفائدة المسلكية أيضًا في أنك إذا علمت أن الحكم لله ـ تعالى ـ كونًا وشرعًا؛ فإنك لن تتجاسر على مخالفة أحكامه الشرعية، كما أنك لن تتمكن من مخالفة أحكامه القدرية؛ وحينئذٍ تكون مسلمًا لله ظاهرًا وباطنًا، كونًا وشرعًا.

* * *

ثم **قال الله ـ تعالى ـ**: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠].

لما ذكر الله ـ جل وعلا ـ ما قام به إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الأفعال الجليلة، والأقوال الحميدة، والدعوات المستجابة، والإخلاص التام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾؛ **يعني**: لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم، وهي دينه الذي هو عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ **يعني**:

إلا من رضي لها السفه؛ والسَّفه ضد الرشد؛ وهو ـ أعني: السفه ـ التصرف على وجه الخطأ، وبيَّن اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فضله على إبراهيم في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ فيكون من اتبع ملته مصطفى في هذه الدنيا، ويكون في الآخرة من الصالحين، كما كان إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- الثناء على ملة إبراهيم؛ وهي دينه المبني على الإخلاص لله، والمتابعة لشرعه، ولقد أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يتبع ملة إبراهيم حنيفًا؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

٢- **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ اتباع ملة إبراهيم هو العقل، والرشد، والصلاح.

٣- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن من رغِبَ عن ملة إبراهيم فهو السفيه، الذي أوقع نفسه في السفه، وإذا كان الناس يعدون من تصرف في ماله خبط عشواء سفيهًا؛ فإن من رغب عن ملة إبراهيم أسفه منه وأشد سفهًا.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها**: الثناء على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لكون الله ـ تعالى ـ اصطفاه في الدنيا، ووعده وأكد أنه في الآخرة من الصالحين.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن طريق إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وملته صفوة أعمال الخلق؛ لأنها شريعة الله، ولأنها صادرة عمن اصطفاه الله؛ فتكون هي الصفوة من أعمال الخلق التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات الآخرة؛ وهي اليوم الآخر الذي يقوم فيه الناس من قبورهم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لينالوا جزاء أعمالهم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ الصلاح وصفٌ حميدٌ حتى للرسل؛ فهم ـ أي الرسل ـ قمة الصالحين، والصلاح قد يكون قسيمًا للنبوة والرسالة إذا ذكر أو قرن معهما في الذكر؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، لكن إذا ذُكر الصلاح وحده فهو عام للجميع.

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: جواز وصف النبي ﷺ بالصالح؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وفي حديث المعراج: أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا مرَّ بالنبيِّ في السموات يقول: «مَرْحَبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح»، وإبراهيم قال: «مَرْحَبًا بالنبي

الصالح والابن الصالح»[1].

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة: ١٣١].

﴿إِذْ﴾ هذه متعلقة بشيء محذوف، والتقدير: اذكر ـ منوهًا ومثنيًا على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾؛ أي: أسلم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إسلامًا شرعيًّا؛ كما أنه مسلم له إسلامًا كونيًّا قدريًّا، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكان الجواب جواب مبادرة وفورية، لم يتأخر، ولم يتوانَ، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: «أسلمتُ لربي»؛ لأن قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اعم واشمل، وهو كالتعليل للحكم؛ أي: الإسلام؛ يعني: أسلمت لله؛ لأنه رب العالمين الذي يتصرف في عباده كما يشاء.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ فضيلة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ حيث أضاف الله ربوبيته إليه في قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾.

٢ـ ومن فوائدها وأحكامها: التنويه بذكر إبراهيم وبيان فضله، وهذه من عادة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يضيع أجر من

---

(١) رواه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله و إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٣).

أحسن عملًا؛ فإن الله يرفع ذكر من أحسن عملًا بعد مماته، ويقيض من يبعث حياته وإن كان ميتًا؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي: بهذه الكلمة العظمية؛ وهي الإسلام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإن إبراهيم وصى بها بنيه، ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ أي: وصى بها بنيه أيضًا؛ ويعقوبُ هو ابنُ إسحاق بن إبراهيم؛ فيكون إبراهيم جَدًّا له. ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾؛ اختاره لكم دينًا تدينون به لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، تقومون بحقه وحق عباده؛ ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: استمروا على إسلامكم إلى الموت.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أهمية الإسلام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث إن الأنبياء الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وصوا به أبناءهم.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن البنين الذكور هم أهل القيام بهذه المهمة العظيمة؛ الإسلام لله، والدعوة إليه، ونشره بين الأمة.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تفضيل الذكور على الإناث.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** بيان أن يعقوب ـ وهو ابـنُ إبـراهيم ـ وصَّى بها بنيه أيضًا، ومن أبنائـه: يوسـف الـذي أنـزل الله ـ تعـالى ـ في قصته سورة كاملة.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الله ـ تعالى ـ اصـطفى هـذا الـدين لعباده المؤمنين، واختاره لهم.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب شكر الله ـ تعالى ـ على نعمتـه بالدين الإِسلامي؛ حيث اختاره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لعباده، ثم شـكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن وفق العبد للقيام بهذا الـدين الـذي اصـطفاه الله ـ تعالى ـ له.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجـوب اسـتمرار الإِسـلام لله ـ عَـزَّ وَجَلَّ ـ إلى الموت؛ وهذا يتفرع عنه فائدة أخرى؛ وهي حرص الإِنـسان على الثبات على دينه إلى أن يلقى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهو مسلم له.

❁ ❁ ❁

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ هنا في معنى «بل»، **وهمزة الاستفهام**، والتقدير: «**بل أكنـتم شهداء**» ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، والمقصود بهذا تقرير هذه الوصية التي وصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؛ يعني: أي معبود تعبدونه من بعدي؟ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، وهو الله رب العالمين، وذِكْرُ إسماعيل هنا من باب التغليب والتبعية؛ لأن إسماعيل ليس من آباء يعقوب، ولكنه عمه، وقد قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب: «أما شعرتَ أنَّ عمَّ الرجل صِنو أبيه»[1].

وقوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هذا تأكيد التوحيد؛ يعني: لا نعبد معه غيره، بل نعبده هو ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ﴾؛ أي: لهذا المعبود ـ وهو رب العالمين ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مستسلمون له ظاهرًا وباطنًا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ بيان حرص يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أن يكون بنوه على توحيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والاستسلام له ظاهرًا وباطنًا؛ ووجه ذلك أنه سأل بنيه عن هذا الأمر العظيم وهو في سياق الموت.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: اعتبار قول المحتضر، وأن قوله المعتبر معمولٌ به، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس؛ فمن الناس من إذا احتضر، ونزل الملك لقبض روحه؛ غاب عن شعوره، ولم يدر ما يقول، وهذا لا عبرة بقوله، ومن الناس من يبقى معه فكره وإحساسه وإن

---

(١) رواه مسلم: كتاب الزكاة، باب تقديم الزكاة ومنعها، رقم (٩٨٣).

كان في سياق الموت، وهذا هو الذي يعتبر قوله.

٣- **ومن فوائدها وأحكامها**: حرص الأب على أبنائه، وأنـه ينبغـي أن يورث بعده ذرية طيبة تعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا تعبد غيره.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الآباء والأجداد يكونون أسوة لأبنائهم وأبناء أبنائهم، فإما أسوة حسنة وإما أسوة سيئة، فهؤلاء البنون ـ أعني: بني يعقوب ـ قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾، والكفار الذين عاندوا المرسلين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

٥- **ومن فوائـدها وأحكامهـا**: أنـه ينبغـي للرجـل إذا كـان مبـتلى بمعصية من المعاصي أن يحرص على ألا يشاهده أهلـه عليهـا؛ وأضرب لذلك مثلًا بشرب الدخان؛ فإن بعض الناس يكون مبتلى بهذه المعصية، ثم يشربها أمام أبنائه فيألفون هذا، وربما يشربونها كـما يـشربها أبـوهم، فيكون ـ بذلك ـ دالًّا على سيئة، عليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: إطلاق اسم الأب على الجـد؛ لقولـه: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، وهـــو دليلٌ على القول الراجح من أقوال أهـل العلـم في أن الجـد في المـيراث بمنزلة الأب؛ فيحجب الإخوة، سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها**: إطلاق لفظ الأب عـلى العـم تغليبًـا؛

لقوله: ﴿ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾.

٨ــ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن التوحيد لا يتم إلا باعتقاد وحدانية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ بحيث لا يعتقد الإنسان له شريكًا؛ لقوله: ﴿ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾.

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** فضيلة بني يعقوب؛ حيث قالوا: إنهم يعبدون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ويسلمون له في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يحقق لنا جميعًا الإسلام له؛ حتى نلقاه على أحسن حال يرضى بها عنا.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤].

﴿ تِلْكَ ﴾ المشار إليه مَنْ سبق من الأمم، حيث إن بعض الناس يظن أن انتسابه إلى أحد من الأنبياء أو غيرهم من الأولياء ينفعه عند الله؛ فيقول: أنا أبي فلان، فقال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عما كان يعمل هؤلاء، بل كل يسأل عما عَمِلَ.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ قطع تعلّق الإنسان بالنسب، وأن نسبه لا ينفعه عند الله؛ وإنما الذي ينفعه هو العمل الصالح الذي يكون قرينه في قبره وفي حشره،

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**يتبع الميِّت ثلاثة، فيرجع اثنـان ويبقـى معه واحد؛ يتبعه أهلُـه، ومالُـه، وعملُـه، فيرجـع أهلُـهُ ومالُـهُ، ويبقـى عملُهُ**»(١).

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن كسب الآباء لا ينتفـع بـه الأبنـاء، وأن كسب الأبناء لا ينتفع به الآباء إلا إذا كان ذلك سـببًا؛ فإنـه يـؤجر المتسبب للخير على ما تسبب به؛ لأن الدال على الخير كفاعله، وهـو في الحقيقة من كسبه؛ فمن اقتدى بك في العمل الصالح وانتفع بما عملت؛ فإن أجره ينالك منه؛ لأن الدال على الخير كفاعله.

٣- ومن فوائدهـا وأحكامها: أن الأبناء والأحفاد لا يُسألون عما يعمله الآباء؛ فخطيئة الآباء عليهم، وخطيئة الأبناء عليهم؛ لقوله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤].

* * *

ثم قال: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

قالت اليهود للنبي ﷺ وأصـحابه: كونـوا هـودًا تهتـدوا، وقالـت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، وكذبوا في ذلك؛ فـإن الهدايـة باتبـاع

---

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٤)؛ ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، رقم (٢٩٦٠).

شريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وبعد بعثة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا اهتداء ولا هداية إلا بالدين الذي جاء به رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ وهو ملة إبراهيم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِـۧمَ﴾؛ أي: بل نتبع ملة إبراهيم؛ أي: دينه الذي هو عليه، ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: بدون ميل إلى الشرك والكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ؛ بل كان من المخلصين لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أن أهل الباطل لا يألون جهدًا في الدعوة إلى باطلهم وتضليلهم الناس؛ لقولهم: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن أهل الباطل قد يدَّعون ما يعلمون أنه باطل؛ لقولهم: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾؛ فإن اليهود والنصارى آتاهم الله الكتاب، وهم يعرفون النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما يعرفون أبناءهم؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، لكنهم ـ والعياذ بالله ـ كتموا الحق، وقالوا: الحق معنا، ومن تبعنا فهو الذي قد اهتدى.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه الأمة؛ حيث ردَّ على هؤلاء المضللين؛ اليهود والنصارى بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه يجب على من بيَّن الباطل أن يبين

الحق؛ ليسير الناس عليه؛ لأن الناس لابد لهم من دين يدينون به، ومـن عمل يسلكونه وينهجونه، فإما خير وإما شر؛ ولهـذا قـال: ﴿قُلْ بَلْ﴾؛ أي: بل لا نكون هودًا ولا نصارى، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفًا.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** بيان منقبة عظيمة من مناقب إبـراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ حيث كان على غاية من الإخلاص لله حنيفًا، ولم يكن من المشركين.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ معصومون من الشرك، كيف لا وهم قد جاءوا لإبطال الشرك، والقضاء على أهله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

الخطاب في قوله: ﴿قُولُوٓاْ﴾ لهذه الأمة، لكل من كان مـن بنـي آدم

بعد نزول هذه الآية؛ فالخطاب ـ إذن ـ مُوجَّهٌ لكل أمة الدعوة.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: أقررنا بوجوده، وأذعنَّا لأمره، وقبلنا خبره، والإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ يتضمن عدة أمور؛ يتضمن: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، فمن انتقص شيئًا من هذه الأمور الأربعة؛ فإن إيمانه ناقص، وقد يكون إيمانه معدومًا.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ وهو القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾؛ وهؤلاء كلهم أنزل إليهم، يهتدون به، ويهدون به، وما من رسول إلا أنزل الله عليه كتابًا؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ قيل: إن المراد بهم أبناء يعقوب، وقيل: المراد بالأسباط القبائل التي تفرق إليها بنو إسرائيل؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]؛ أي: ما أنزل على الأسباط بواسطة أنبيائهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ فإن الله ـ تعالى ـ بعث في بني إسرائيل أنبياء كثيرين، وهذا القول أصح من الذي قبله.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾؛ أي: ما أوتي موسى من الآيات، وما أنزل عليه من الوحي، وهو التوراة، وكذلك ما أوتي عيسى من الآيات وما أنزل عليه من

الوحي، وهو الإنجيل .

﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ؛ على سبيل العموم من الآيات التي يؤمن على مثلها البشر؛ فإن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «ما من الأنبياءِ من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشَرُ...» [1]؛ وذلك أنه لابد أن يكون للأنبياء آيات تبين للناس صدق ما بعثوا به؛ لأن الناس لن يصدقوا إذا جاءهم شخص وقال: أنا رسول الله إليكم إلا بآيات تدل على صدقه؛ ولهذا جعل اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لكل نبي آية،﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: لا نفرق بين أحد من هؤلاء الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، والمراد أننا لا نفرق بينهم في أصل الإيمان؛ فإننا نؤمن بأنهم كلهم صادقون فيما جاءوا به من الوحي، وأنهم رسل الله - عَزَّ وَجَلَّ - إلى خلقه، ولكننا نفرق بينهم من حيث الأحكام والشرعة - أي: الشرائع -؛ فإن الله - تعالى - يقول: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ فالشرائع لا تلزمنا - أي: شرائع من قبلنا -، وإنما تلزمنا شريعتنا التي جاء بها نبينا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، أما شرائع من قبلنا فإن وافقت شريعتنا آمنا بها؛ بناء على أن شريعتنا جاءت بها، وإلا فإنها تكون منسوخة بشريعتنا، وقوله - تعالى -: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: ونحن لله مسلمون؛ أي:

---

(١) رواه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد و إلى جميع الناس، رقم (١٥٢).

منقادون لأمره، متبعون لشرعه، وهذه الآية فيها أصول عظيمة؛ ولهذا كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقرأ بها في سنة الفجر أحيانًا؛ يقرأ بها في الركعة الأولى، وفي الركعة الثانية يقرأ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وأحيانًا يقرأ في الركعة الأولى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الركعة الثانية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- وجوب الإيمان بما ذكر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

٢- **ومن فوائدها وأحكامها**: الإيمان على وجه التفصيل بما أنزل إلينا وهو القرآن؛ فنؤمن بأن القرآن كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أنزله على محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بواسطة جبريل الأمين؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢ـ ١٩٥]، ونؤمن كذلك بما تضمنه هذا القرآن الكريم من الأخبار، وأنها أخبار حق، ونؤمن كذلك بما تضمنه هذا القرآن من الأحكام؛ وهي الأوامر والنواهي، وأنها أحكام مبنية على العدل، والرحمة، وتحقيق المصالح؛ ولهذا لا رحمة للخلق أعظم من رحمتهم بهذا الدين الإسلامي.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب الإيمان بما أنزل الله ـ تعالى ـ على الرسل المذكورين؛ كالصحف التي أنزلت على إبراهيم؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وكذلك ما أنزل إلى إسماعيل وإسحاق... إلخ.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن هؤلاء الرسل المذكورين كلهم قد أنزل إليهم، إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط؛ يعني: أنبياء الأسباط على القول الرجح.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب الإيمان بما أوتي موسى وعيسى من الآيات البينات الشرعية والكونية.

فمن آياتها الشرعية: التوراة التي جاء بها موسى، والإنجيل الذي جاء به عيسى، ومن آياتها الشرعية أيضًا: أن مع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عصًا، إذا وضعها في الأرض انقلبت حيَّه، وإذا حملها عادت عصًا، وأنه يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء؛ أي: من غير برص، لكنه بياض نور.

أما آيات عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: فإنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ؛ فهو يبرئ الأكمه والأبرص، وأبلغ من هذا أنه يحيي الموتى ـ بإذن الله ـ؛ يأمر الميت فيحيا، وأبلغ من هذا أنه يخرج الموتى من قبورهم؛ يقول للميت في قبره: اخرج؛ فيخرج، ولكنه ـ بإذن الله ـ؛ لأن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يملك أن يحيي أحدًا من الخلق،

ولا أن يميت أحدًا من الخلق؛ فالذي يحيي ويميت هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكنَّ الله ـ تعالى يجعل قول عيسى سببًا، فإذا قال عيسى للميت: قُمْ حَيًّا وما أشبه ذلك؛ قام حيًّا، وإذا وقف على القبر وقال: اخرج حيًّا؛ خرج حيًّا، وكان أيضًا يخلق من الطين كهيئة الطير ـ؛ صورة الطير ـ، فينفخ فيها فتكون طيرًا يطير بإذن الله، ينفلت من يده طائرًا، وهذا النفخ الذي نفخه عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو نفخ للروح في هذا التمثال الذي كهيئة الطير ـ فتبارك الله رب العالمين.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: وجوب الإِيمان بما أوتي الأنبياء عمومًا من الآيات، وأنها حق، وأنها ليست سحرًا، بل هي تكون بقدرة الله ـ تعالى ـ وإذنه.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها**: أنه يجب علينا الإِيمان بما أنزل على إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، نؤمن بذلك إيمانًا لا نفرق فيه بين واحدٍ وآخر، وهذا من حيث الخبر؛ فيجب علينا أن نصدق أخبارهم، ونؤمن بها، أما من جهة الأحكام؛ فلكلٍّ جعلَ اللهُ شرعة ومنهاجًا، وكل أمة تعمل بما جاء في شريعتها من الأحكام.

٨- **ومن فوائدها وأحكامها**: فضيلة هذه الأمة؛ حيث كانت الآخرة؛ لتصدق جميع الأنبياء السابقين؛ فيكون لها فضيلة الإِيمان بكل الأنبياء السابقين.

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** إعلان الإخلاص لله في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ ﴾؛ يعني: المكذبين للرسل، بل المكذبين لرسول الله ﷺ من اليهود، والنصارى، والمشركين، ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾؛ أي: بالقرآن الكريم، والباء قيل: إنها زائدة، والمعنى: فإن آمنوا مثل ما آمنتم به؛ أي: على صفة ما آمنتم به، ونحن قد آمنا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وآمنَّا بالقدر خيره وشره، والتزمنا بأحكام شريعة محمد و، فإذا آمنوا مثل هذا الإيمان الذي آمنت به هذه الأمة؛﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ ﴾، وهذا مقابل قوله: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ [البقرة: ١٣٥]؛ فيكون الاهتداء حقيقة من كان مسلمًا مؤمنًا بمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾؛ يعني: أعرضوا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به.

﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ﴾؛ أي: في تباعد عن الدين ومنازعة فيه، وهذا لا يضركم، ولكنه يضرهم؛ ولهذا قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: فسيكون الله كافيًا لك بالنسبة لهم، وسينصرك

عليهم، وقد حصل هذا ـ ولله الحمد ـ؛ فإن اليهود والنصارى أذلَّهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لما كان المسلمون أعزَّة بدين الله، قائمين بأمر الله؛ صار اليهود والنصارى أذلاء بين أيديهم، يؤدون الجزية أو يسلمون، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ سبق الكلام عليه عند قول الله ـ تبارك وتعالى ـ عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ فلا حاجة إلى إعادة الكلام عليه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ ـ بيان أنه لا هداية بغير الإيمان بما آمنت به هذه الأمة؛ لقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾. وإذا فات الشرط فات المشروط.

٢ ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن اليهود والنصارى ضالون، تائهون، بعيدون عن الحق؛ لقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾؛ فمفهومه إذا لم يؤمنوا كذلك فلا هداية لهم.

٣ ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: ضلال من ظن أن دين اليهود والنصارى ـ اليوم ـ دينٌ قائمٌ مشتمل على الهداية، مقبول عند الله، ومن زعم ذلك فإنه كافر خارج عن الملة ـ والعياذ بالله ـ، مُكَذِّبٌ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولقول النبي ﷺ: «والَّذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموتُ ولم

يؤمن بالذي أُرسلت به؛ إلا كانَ من أصحاب النَّار»[١]، ومعلوم أن من شهد أو اعتقد أن دين اليهود والنصارى دين حق ـ اليوم ـ سيجعلهم ـ أي: اليهود والنصارى ـ من أصحاب الجنة؛ فإنه يكون بهذا مكذبًا لقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إلا كانَ من أصحابِ النَّار».

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الأمم السابقة قبلنا تبعٌ لنا، يلزمهم أن يؤمنوا بشريعتنا، ويتبعوا شريعتنا، وهذا من نعمة الله ـ تعالى علينا؛ فنحنُ الآخرون زمنًا، السابقون فضلًا، السابقون يوم القيامة حشرًا، ونشرًا، وإعطاء للكتب، وعبورًا على الصراط، ودخولًا للجنة ـ ولله الحمد.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: تهديد المتولين عن شريعة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، وأنهم في شقاق؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾؛ أي: في شق بعيد عن الدين الحق المقبول عند الله.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: البشرى السارة في قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيكفي نبيه كل عدو للمسلمين من اليهود، والنصارى، وغيرهم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: تنشيط المسلم على التمسك بدينه،

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤١).

وأنه على حق، وأنه منصور، ولابد أن الله ـ تعالى ـ كافيه أعداءه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقوله ـ تعالى ـ في آية أخرى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

٨ ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** بيان عظمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وعزته، وقدرته؛ حيث قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهو شامل لكل عدو لرسول الله ﷺ.

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما «**السميع والعليم**»، وإثبات ما دل عليه هذان الاسمان الكريمان من الصفة؛ فهو ـ سبحانه وتعالى ـ موصوف بالسمع، وموصوف بالعلم، فسمعه واسع للأصوات كلها، وعلمه محيط بكل شيء؛ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٨].

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: الزموا صبغة الله؛ أي: دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾؛ أي: لا أحد أحسن من الله صبغة﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾؛ أي: لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وحده ﴿عَٰبِدُونَ﴾؛ أي: متذللون بالطاعة بامتثال أمره، واجتناب نهيه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ فضيلة ما نحن عليه من دين الله؛ حيث أضافه الله إلى نفسه، فقال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن أحسن شريعة يستمسك بها الخلق شريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب إقرار العبد بأنه عبد لله، ومقتضى هذه العبودية أن يكون ممتثلًا لأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ، مجتنبًا لنهيه؛ لأن العبودية مأخوذة من التعبد؛ وهو التذلل محبةً وتعظيمًا.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب إخلاص العبادة لله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة: ١٣٩].

﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمد، ويصح أن يكون خطابًا لكل من يتوجه إليه الخطاب. والاستفهام في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ للإنكار، والمحاجة هي المخاصمة؛ لإقناع الخصم؛ لأن كل واحد من الخصمين يدلي بحجته؛ ليلزم بها الآخر.

وقوله: ﴿فِى ٱللَّهِ﴾؛أي: في دينه وشرعه، فتقولون: نحن الذين على

الحق مع أن الحق مع من اتبع ما جاء به رسول الله ﷺ.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: باتفاقنا واتفاقكم أنه رب الجميع، وإذا كان هذا إقراركم؛ فإن الواجبَ عليكم أن تأخذوا بشرعه الآخِر فالآخِر؛ لأنه رب؛ فهو أعلم بمصالح عباده، فهو الذي يملك ما شاء من أمورهم، فيأمرهم وينهاهم على حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ يعني: أن الرب واحد، وأن لكل ذي عمل عملًا خاصًّا به؛ فعمله خاص به وحده؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

فكيف تحاجوننا في الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ونحن نتفق جميعًا على أنه ربنا، ولكن أنتم تخالفون هذا الرب، فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ثم ختم الآية بذكر الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وإخلاص الشيء تنقيته مما يشوبه؛ فالمعنى: نحنُ له مخلصون في العبادة، لا نعبد غيره، ولا نتخذ ربًّا سواه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ ـ الإنكار على من يحاج في الله بغير علم، بل بما يعلم أن الأمر بخلافه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنه ينبغي عند المحاجة ذكر ما يتفق عليه الطرفان؛ ليكون ملزمًا للآخر فيما يقتضيه هذا الاتفاق؛ لقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، وقد سبق في تفسيرها ما يتبين به وجه ذلك.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: التبرؤ من أعمال المشركين، والاعتزاز بأعمال أهل الحق؛ لقوله: ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنه ينبغي للمؤمن أن يكون له قوة شخصية، يعتز بها في دينه، وفي شرعه، وفي منهاجه؛ لقوله: ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الحذر من التشبه بغير المسلمين؛ لأنه إذا كانت أعمالهم لهم ـ وهذه قضية مسلمة ـ فلا يجب أن نتشبَّه بهم فيما يختص بهم من أعمالهم؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: **«مَنْ تشبَّه بقوم فهو منهم»**[1].

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: فضل هذه الأمة بإخلاصها لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾؛ أي: له لا لغيره.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ

---

(١) سبق تخريجه ص (٣٢).

أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى «بل، وهمزة الاستفهام»؛ أي: بل أتقولون، والاستفهام هنا للإنكار؛ يعني: أن الله ـ تعالى ـ ينكر عليهم هذا القول: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾، وهل هذا يعقل أن يكون إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط المتقدمون هودًا أو نصارى، واليهودية والنصرانية لم تحدثا إلا من بعدهم؟! هذا ليس بالمعقول؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ٦٥].

يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن هؤلاء اليهود والنصارى منكرًا عليهم: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾، ومن المعلوم أن الجواب: بل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو الأعلم، وإذا كان الله ـ تعالى ـ أعلم، وقد بيَّن أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبنيه، ويعقوب وبنيه كلهم كانوا على الحق، كلهم كانوا على الإخلاص، فكيف تأتون أنتم وتقولون: إن إبراهيم كان يهوديًّا أو إن إبراهيم كان نصرانيًّا؟!.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ﴾؛ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ «من» استفهام، والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؛ لأن الواجب على المستشهد أن يشهد ولا

يكـــــتم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ، وتقـــــدير الجواب لهذا الاستفهام أن نقـول: لا أحـد أظلـم مـن هـذا، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ! هذه نافية، ﴿وَمَا﴾ هذه نافيـة، ﴿بِغَـٰفِلٍ﴾ خـبر المبتدأ، ودخلت عليه الباء لزيادة التأكيد؛ فلم يكن الله ـ تعـالى ـ غـافلًا عما يعمل هؤلاء؛ لكمال علمه ومراقبته ـ جل وعلا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان بطلان هذه الدعوة الباطلة الكاذبة من اليهـود والنـصارى الذين قالوا: إن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقـوب، والأسـباط كانوا هودًا أو نصارى.

٢- **ومـن فوائـدها وأحكامهـا:** الإنكـار عليهم، والمنـاداة علـيهم بالجهل؛ لقوله: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

٣- **ومن فوائدها وأحكامها:** اتخاذ هذه القاعدة العظيمة لرد دعوى أهل التعطيل الذين أنكروا ما وصف الله به نفسه، وقالوا: لا يمكـن أن يتصف الله بهذا؛ لأن هذا حادث، أو لأن هذا يقتضي التجـسيم، أو مـا أشبه ذلك، فنقول لهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ فإن قـالوا: نحـن أعلـم؛ فقد نادوا على أنفسهم بالضلال، وإن قـالوا: بـل الله أعلـم؛ قلنـا: إذن أثبتوا ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات على حقيقته، وانفـوا مـا نفى الله عن نفسه من الأسماء والصفات.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب نشر الإنـسان مـا علَّمـه الله ـ

عَزَّ وَجَلَّ ـ من العلم، لاسيما في أعظم الأمور؛ وهو توحيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن من كتم ما علَّمه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإنه من أظلم الناس، وأظلم كتم للشهادة أن يكتم الإنسان ما أشهده ربه عليه.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات كمال علم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ومراقبته؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات صفات النفي في حق الله، ولكن يجب أن نعلم أن النفي المحض في صفات الله لا يوجد؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم ليس بشيء، ولكن لا توجد صفة منفية عن الله إلا تضمنها كمالًا؛ ولهذا نقول: كل صفة نفاها الله عن نفسه فإنها متضمنة لشيئين: **أولهما**: نفي تلك الصفة المذكورة، **وثانيهما**: إثبات كمال ضدها؛ فمثلًا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]؛ فنفى الظلمَ عن نفسه لماذا؟ لكمال عدله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا لعجزه عن الظلم، ولكن لكمال عدله لم يظلم أحدًا، وعلى هذا فقس.

❊ ❊ ❊

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤١].

وقد سبق نظيرها في الآية الرابعة والثلاثين بعد المئة، وتكلَّمنا على

ما فيها مِنْ أحكام، حَسَبَ ما فَتَحَ الله به علينا، ونكتفي بما سبق.

* * *

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

السين في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ للتنفيس، وتفيد أمرين:

الأمر الأول: تحقيقُ مَدْخُولها.

الأمر الثاني: قربُ وقوعِ مَدْخُولها.

و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: جمعُ سفيه، وهو مَنْ جانَبَ الرُّشْد في تَصَرُّفَاته القولية والفعلية، وفي عقيدته أيضًا؛ لقوله تَعَالَى ـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾، يعني: أيُّ شيءٍ ولاهم، أي: صَرَفَهُم عَنْ قِبْلَتِهم التي كانوا عليها، والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس؛ فإنَّ النبي ﷺ لَمَّا قدم المدينة، صار يتَّجِهُ في صلاته إلى بيت المقدس نحو سِتَّة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، ثم أمره الله ـ تَعَالَى ـ أن يولِّيَ وجهه شطر المسجد الحرام، أي: الكعبة ـ كما سيأتي في الآيات إن شاء الله ـ فردَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا الاعتراض مِنْ هؤلاء السُّفَهَاء بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾، أي: هو مالكُ المشرق والمغرب، وله أنْ يتصَّرف في مُلكه بما يشاء، حسب ما تقتضيه حكمته البالغة.

﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وممَّن هداهم إلى الصراط المستقيم هذه الأُمَّة، حيث هداهم إلى القبلة الأصلية، وهي الكعبة؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إنَّ الكعبة كانت قِبْلَةَ الأنبياء، وإنَّ حَرْفَ القبلةَ إلى بين المقدس كان مِنْ تصرُّفِ أتباع أولئك الأنبياء.

وعلى هذا فالصِّراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه هنا، هو الاتجاه إلى الكعبة المشرَّفة في الصلاة.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

عِلمُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما سيكون؛ لقوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ﴾ ومنَ المعلوم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل شيء عليم، وأنَّ عِلْمَهُ ـ سبحانه وتعالى ـ بالأشياء محيطٌ بها جُمْلَةً وتفصيلًا، وعلمُهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أزليٌّ لم يُسبق بجهل، أبديٌّ لا يلحقه نسيان.

أنَّه لا يعترض على شرع الله إلا مَنْ كان سفيهًا؛ وذلك لأن السَّفيه لا يعرف الحكمة، أو يعرفها ويسلك خلافها، ومَن لا يعرف الشيء لا يرتضيه؛ لذلك سوف يعترضون على ما سيفعله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بل على ما سيأمر الله به من الاتِّجاه إلى الكعبة.

أنَّ النبي ﷺ كان يتَّجه ـ قبل أن يُؤمر بالاتجاه إلى الكعبة ـ إلى بيت المقدس، قيل: لأنه كان يُحِبُّ أنْ يوافق أهل الكتاب فيما لم يُؤمَرْ بِخلافِه؛ وهذا كان أول ما قَدِم النبي ﷺ المدينة، كان يُحبُّ أن يُوافق

أهلَ الكتاب فيما لم يؤمر بخلافه، ثُم صار يأمُرُ بِمُخَالَفَة أهل الكتاب.

٤_ عمومُ مُلكِ الله _ سبحانه وتعالى _ لكل شيء: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، أي: هو المالك لكل شيء، وهو المتصرِّفُ فيما يشاء بما يشاء _ عَزَّ وَجَلَّ _؛ على ما تقضيه حكمتُه البالغة.

٥_ أنَّ الهداية بيد الله _ عَزَّ وَجَلَّ _، فهو الذي يهدي مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم، فلا تُطلب الهداية إلا من الله _ عَزَّ وَجَلَّ _؛ وهذا ينفي الإعجابَ بالنفس والافتخار بالعمل.

ولكنْ لو قال قائل: هل هداية الله سبحانه مَنْ يشاءُ بِمُجَرَّد المشيئة، أم أنها مقرونةٌ بالحِكْمَة؟

فالجواب على ذلك أنْ نقول: بل هي مقرونةٌ بالحكمة، وما من شيءٍ يحكم الله به، إلا وهو مقرونٌ بالحكمة، سواءٌ كان ذلك الحُكْمُ الذي حَكَمَ الله به شرعيًّا أم كونيًّا؛ ودليل ذلك قوله _ تبارك وتعالى _: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقوله _ تَعَالَى _: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠]؛ فبيَّن _ سبحانه وتعالى _ أنَّ مشيئته تابعةٌ لِعِلْمه وحكمته.

وهداية الله سبحانه وتعالى نوعان:

هداية دلالة: وهذه عامةٌ لكل أحد؛ للكفار والمؤمنين، والفُجَّار والأبرار.

وهداية توفيق: وهذه خاصةٌ بمن وفَّقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لاتِّباع الحق؛ قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فهذه هي دلالة التوفيق وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى: ٥٢]، وهذه هي الهداية العامة أو هداية الدلالة والإرشاد.

مثال الأولى العامة لكلِّ أحد: قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣]، يعني: الإنسان، وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧]، أي: دَلَلْنَاهُم على الصِّراط المستقيم، ولكنهم استحبُّوا العمى على الهدى.

٦ـ أنَّ طريق الله ـ تَعَالَى ـ مستقيم، ليس فيه اعوجاج ولا انحراف، وكَوْنُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يصِفُ طريقَه بالصراط المستقيم، يدلُّ على أنَّ هذا الطريق واسعٌ، ليس محجورًا على أحد. بل كلُّ مَنْ شاء مِنَ النَّاس دَخلَه، ويدلُّ ـ أيضًا ـ على أنَّ هذا الطريق ليس فيه اعوجاجٌ ولا انحراف، بل هو موصلٌ إلى دار كرامة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بدون انحراف، ولا تردد.

* * *

ثم قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ

إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: مثلما ذُكِرَ مِنْ هدايةِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴿جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: صيَّرنَاكُم أُمَّة وسطًا، أي: عدلاً خيارًا.

والأُمَّة: هي الطائفة من الناس، وتَرِدُ في القرآن على معانٍ مُتعددة:

منها: الطائفة من الناس؛ كما في هذه الآية.

ومنها: الإمام؛ كما في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠].

ومِنْها: الدِّين؛ كما في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: على دينٍ ومِلَّة.

ومنها: الزَّمن؛ كما في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

فهذه أربعةُ معانٍ.

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتَصِيرُوا شهداء على الناس، على الأنبياء والرُّسل وعلى الأُمم؛ فنحنُ آخر الأمم، نشهد على مَنْ سبقنَا، فَنَشْهَدُ لِمَنْ سبقنا مِنَ الرُّسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أَنَّهُم بلَّغُوا رِسَالاتِ ربِّهم، ونشهدُ على مَنْ سبقنَا مِنْ أُممهم أنَّ الرِّسالة

بَلَغَتْهُم، وأنَّ منهم مُكذِّبين، ومنهم مُصَدِّقين، وكذلك نكون شهداء على الناس يوم القيامة؛ كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ.

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

﴿الرَّسُولُ﴾: هو محمد ﷺ؛ لأن (أل) هُنا للعهد الذهني، ولا معهود في الذِّهن حين نزول هذا القرآن مِنَ الرُّسل إلا محمد ﷺ.

﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يشهد عليكم بأنه بلَّغ رسالة ربِّه؛ ولهذا لَمَّا خطبَ الناسَ يوم عرفة، قال: وأنتم تُسألون عنِّي فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلَّغتَ وأدَّيْتَ ونَصَحْتَ، قال: (اللهم اشهد) ثلاث مرات[1].

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾: أي: ما جعلنا القبلة التي كُنْتَ عليها، وهي استقبالُ بيت المقدس قبل أنْ يُؤمر بالاتجاه إلى الكعبة.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: وذلك أنَّه لَمَّا صُرِفَت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، صار عند بعض الناس شكٌّ وارتياب، وربما ارتدَّ عن الإسلام بسبب هذا التوجيه من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ يقول هذا الشاكُّ المتردد: كيف تكونُ قبلتُه بالأمس بيتَ المقدس، وقبلتُه اليوم الكعبة؟

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: هو عالمٌ جل وعلا مِنْ قبلِ أن يحصُلَ

---

[1] رواه مسلم كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

هذا الاتباع والمخالفة، لكنَّ المراد بالعلم هنا - وفيما يشبهه من الآيات الكريمة -: العلمُ الذي يترتب عليه الثواب والعقاب؛ وذلك أنَّ عِلم الله - تَعَالَى - السابق بما يكون من عباده، لا يترتَّب عليه ثوابٌ ولا عقابٌ إلا بعد التكليف؛ إذا كلَّفهم الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ترتَّبَ على هذا التكليف الثوابُ والعقاب؛ الثوابُ لِمَنْ وافق، والعقابُ لِمَنْ خالف. ولا يظنَّ الظانُّ أنَّ عِلْمَ الله - سبحانه وتعالى -، ولا يكون إلا بعد وقوع المعلوم؛ فإنَّ هذا ليس بصحيح؛ فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - عالمٌ بكل شيء قبل أن يكون.

﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ والرَّسولُ هنا هو محمدٌ ﷺ؛ إذْ لا رسول عهده سواه، ويَحتمل أن تكون للعهد الذكري؛ لأنه سبق ذكر الرسول ﷺ، وإذا أتتْ «أل» داخلةً على ما سبق ذكره، فإنهم يقولون: إنها للعهد الذكري؛ كما في قوله - تَعَالَى -:﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولاً ۝ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ ﴾[المزمل:١٥،١٦]. فالرَّسول هنا هو موسى - عَلَيْهِ السَّلامُ -؛ لِسَبْقِ ذِكْرِه.

﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ ﴾؛ أي: مِمَّنْ ينكِصُ إلى الوراء، وذلك بارتداده عنْ دين الإسلام، وعدم رضاه بما وقع.

﴿وَإِن كَانَتۡ﴾، يعني: وإنْ كانتْ هذه الحال، أو هذه القضية.

﴿لَكَبِيرَةً﴾: شاقة.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ ﴾؛ فإنَّ الذين هداهم الله ووفَّقهم للحقِّ

يَسْهُل عليهم كل شيء في موافقة ما أمر الله به ورسولُه، ولا تكون الأوامر كبيرةً وشاقةً إلا على مَنْ ضَعُفَ إيمانه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ هذا التعبير يدلُّ على امتناع الشيء غاية الامتناع، أي: إذا جاءت (ما كان الله ليفعل كذا وكذا)، فهو مُمْتَنِعٌ غايةَ الامتناع.

وقوله: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾، أي: ما آمنتم به، ومنه صلاتهم إلى بيت المقدس سابقًا؛ لأنه قد يقع في قلوب بعض الناس الإشكالُ عما سبق مِنَ الصلوات إلى بيت المقدس، هل تكون باطلة ـ لأن القبلة صُرِفتْ إلى الكعبة ـ أمْ لا؟ فبيَّـن الله ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ الله لا يُضِيعُ ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرءوف: مأخوذٌ مِنَ الرَّأفة، وهي أشدُّ الرَّحْمة، وألطف الرحمة، والرحيم: هو ذو الرحمة التي يكون بها الإحسانُ إلى خَلْقِه، والإنعامُ عليهم.

وفي هذه الآية من الحِكَم والفوائد ما يلي:

١ـ بيان فضيلة هذه الأُمَّة؛ لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

٢ـ أنَّ هذه الأُمَّة ذاتُ شهادةٍ على مَنْ سَبَقَها مِنَ الأمم.

٣ـ تعديلُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لهذه الأُمَّة؛ حيث جعلهم شُهداء على سائر الأمم، ولم يجعلهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ شُهداء إلا لِيُقْبَلَ شهادتهم.

٤ـ أنَّ رسول الله ﷺ كان شهيدًا على أُمَّته، فهو شهيدٌ عليهم ما دام فيهم، أمَّا فيما بعد موته، فإنه تُعْرَضُ عليه أعمال أُمَّته و، كما جاء في بعض الأحاديث[1]، فإذا صحَّت، فإنه يكون شهيدًا عليهم في حال حياته وبعد مماته، وإلا فإنه سيكون شهيدًا عليهم يوم القيامة.

٥ـ أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يبتلي العباد بِشَرْعِ بعض الشرائع ونسخه؛ لقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

٦ـ أنَّ عِلْمَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينقسمُ إلى قسمين:

عِلْمٌ يترتبُ عليه الثواب والعقاب، وهو ما يحصلُ بعد موافقة العبد لأمر الله، أو مخالفته، وهو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب.

وعِلْمٌ سابقٌ: لا يترتب عليه الثواب والعقاب، وهو علم الله ـ تَعَالَى ـ الثابت في الأزل قبل امتحان العبد، فَعِلْمُهُ ـ سبحانه وتعالى ـ يكونُ قبل وجود المعلوم، ويكون بعد وجود المعلوم، فالعِلمُ الأول: لا يترتب عليه الثواب والعقاب، وهو المُراد في هذه الآية وأشباهها.

٧ـ الإشارة إلى أنَّ اتِّبَاع رسول الله ﷺ هو الطريق الصحيح

---

(١) منها: قوله ﷺ: «أكثروا عليَّ مِنَ الصلاة يوم الجمعة؛ فإنَّ صلاتكم معروضَةٌ عليَّ» رواه أحمد (١٥٧٢٩)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي، كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجة، كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم (١٦٣٦).

السليم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

٨ـ ثبوتُ النَّسْخِ، أي: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينسخُ مِنْ أحكامه ما يشاء. والنَّسخ هو: رفْعُ الحُكم السابق، فتارةً يكونُ النَّسخُ مِنْ بدلٍ إلى بدلٍ أخفَّ منه، وتارةً يكونُ مِنْ بدلٍ إلى بدلٍ أثقل منه، وتارةً يكونُ مِنْ بدلٍ إلى بدلٍ مساوٍ له، وتارةً يكونُ إلى غير بدل:

فمثال نسخ الحكم إلى بدلٍ أشقّ منه: نسخُ التخيير بين الصيام والإطعام في رمضان، إلى تعيين الصيام؛ فإنَّ صيام رمضان ـ أول ما فُرض ـ كان يُخيَّرُ فيه الإنسان بين أن يصوم أو يُطْعِم؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٣،١٨٤]؛ فهذه الآية ظاهرة في التخيير بين الصيام والإطعام، وقد ثبت ذلك صريحًا في «الصحيحين» من حديث سلمة بن الأكوع: أن الصيام أول ما فُرِضَ كان يُخيَّر فيه الإنسان بين الإطعام والصيام، ثم نُسخ هذا التخيير إلى وجوب الصيام عينًا[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ رقم (٤٥٠٧)، ومسلم كتاب الصيام، باب بيان نسخ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾، رقم (١١٤٥)..

والحكمة في ذلك: هو أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أراد أن يحكم حكمًا، وكان فيه شيءٌ مِنَ المشقَّة على النفوس، بدأ ـ سبحانه وتعالى ـ بالأخف فالأخفِّ، حتى ترتاح النَّفس، ويسهُلَ عليها قبول الأشقِّ أو الأثقل.

ومثال النَّسخ إلى بدلٍ أخَفَّ منه: قوله ـ تبارك وتعالى ـ في آيتي المُصابرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال:٦٥]، فجعل الله ـ تَعَالَى ـ الصبر مشروطًا بأن يقابل العشرون مِنَّا مئتين، وأن يقابل المئة مِنَّا ألفًا من الذين كفروا، وهذا لا شك أنَّ فيه مشقة، لكنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لطف وخفَّف في قوله: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٦٦]، فصار الصَّبْر يتحقَّق في مقابلة الواحد لِمِثْلَيْهِ.

ومثال النَّسخ إلى بدلٍ مساوٍ: ما نحن فيه الآن، نسخُ استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة شرَّفها الله؛ فإنَّ هذا البدل مساوٍ للبدل الآخر بالنسبة للمكلَّف؛ إذ لا فرق عند المكلَّف من حيث التعبُ البدنيُّ والمشقة البدنية بين أن يستقبل بيت المقدس، أو يستقبل الكعبة المشرفة.

ومثال النَّسخ إلى غير بدل: ما أوجب الله ـ سبحانه وتعالى ـ على

المسلمين مِنَ الصَّدَقَةِ عند مناجاة النبي ﷺ؛ فإن الله أوجب على المسلمين إذا أرادوا أن يناجوا رسول الله ﷺ أنْ يتصدَّقوا[1]، ولكن الله - تَعَالَى - خفَّف ذلك عنهم ونسخ هذا الوجوب.

ولا شك أنَّ النسخ قد يكون سببًا لفتنة بعض الناس، وارتدادِهِ أو شكِّه، ولكنَّ الحقيقة أنَّ النَّسخ يدل دلالة واضحة على أنَّ رسول الله ﷺ، رسولُ الله حقًّا، وأنَّه صادقٌ فيما بلَّغ عن ربه، تبارك وتعالى.

ثم إنَّ في النَّسخ بيانًا لحكمة الله - سبحانه وتعالى - في شرعه وأنَّه - جل وعلا - يتعبَّد عبادَهُ بما شاء، على الوجه الذي يكون به صلاحهم.

٩- أنَّ النسخ يكون شاقًا على كثير منَ النفوس، إلا على مَنْ هداهم الله؛ فإنه يكون يسيرًا عليهم؛ لأنهم يعلمون أنَّ هذا النَّسخ لم يصدر إلا عن حِكمةٍ بالغة، ولا يزيدُهم النَّسخ إلا طمأنينة وثقةً بِشَريعة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله:﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

١٠- لطفُ الله - سبحانه وتعالى - بعباده؛ حيث لم يُهْدِرْ ثواب الأعمال المنسوخة، ولم يُضيِّعْ أجرها على مَنْ تعبَّد لله بها؛ لقوله:﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾.

١١- أنَّ فيها دليلاً لِمَا ذهب إليه أهل السُّنَّة والجماعة، مِنْ أنَّ الأعمال داخلةٌ في مُسَمَّى الإيمان؛ لقوله - تَعَالَى -:﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ

---

[1] كما في سورة المجادلة، آية: ١٢.

إِيمَـٰنَكُمْ ﴾، ووجه دخول الأعمال في مسمى الإيمان، أنها صادرةٌ عن إيمان: فلولا الإيمان ما تعبَّد الناسُ لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لولا إيمان الناس بأن هذه شريعة الله، وأنه يثيب عليها، ما تعبَّدوا لله ـ تَعَالَى ـ بها؛ ولهذا أطلق الله الإيمان هنا على الصلاة إلى بيت المقدس سابقًا.

١٢- إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: «الرؤوف» و«الرحيم»، وإثباتُ ما تضمَّناه من صفة؛ فإنَّ كل اسم من أسماء الله، فإنه مُتَضَمِّنٌ لصفة من صفاته، ولِهَذَا نقول: الصفاتُ أوسعُ مِنَ الأسماء؛ لأنَّ كلَّ اسم مِنْ أسماء الله مُتضمِّنٌ لِصِفَةٍ مِنْ صفاته، وليس كل صفةٍ مِنْ صفات الله يُشتقُّ له منها اسم، فباب الصفات أوسع من باب الأسماء، وباب الأخبار عن الله أوسع من باب الصفات أَيْضًا؛ فالأسماء والصفات أخبار، فمثلاً: الاسم يتضمن الصفة، والصفة لا يُشتق منها الاسم، والأخبار يُخبَرُ بها عن الله بالشيء الذي لا يمكن أن يُوصفَ به، فتقول مثلاً: إن الله شيء، لكن لا تَصِفُه بذلك؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩].

* * *

ثم قال الله ـ جلَّ ذكره ـ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن

رَبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:١٤٤].

﴿ قَدْ نَرَىٰ ﴾: جُمْلة فعلية مؤكَّدة بـ(قد)، والرُّؤية هنا: رؤية بصر، وجاء الفعل بصيغة المضارع دون الماضي، إشارةً إلى تكرار الفعل من النبي ﷺ، فتكررَّتْ رؤيةُ الله ـ تَعَالَى ـ له.

﴿ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ هو أن النبي ﷺ كان يقلِّبُ وجهه في السماء ترقُّبًا لِنُزُول الوحي بأمره بالاتجاه إلى الكعبة المُعظَّمة.

﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾: أي: لنُوجِّهَنَّكَ إلى قبلةٍ ترضاها، أي: تطمئنُّ إليها وتستقر؛ لأنه ﷺ راضٍ بكل ما شرعه الله له، سواءٌ في استقبال الكعبة، أو بيت المقدس، لكنَّ طمأنينته لاستقبال الكعبة أشدُّ؛ ولهذا فرَّع عليها قوله: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾، أي: جهةَ المسجد الحرام، وهو الكعبة، وسُمِّيَ مسجدًا حرامًا لِحُرْمَته وتعظيمه، ولهذا ثبت له من خصائص التحريم ما لم يثبت لغيره.

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾: يعني: في أيِّ مكان كنتم مِنْ مشارق الأرض ومغاربها.

﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾: الخطابُ هنا للأُمَّة عمومًا، والخِطابُ الذي قبله لِرسول الله ﷺ، الخطاب الذي لرسول الله ﷺ خطابٌ له وللأُمَّة، كما سنذكُره إنْ شاء الله قريبًا.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾: الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى.

﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾، أي: ما حَصل مِنَ الاتِّجاه إلى الكعبـة، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ ولكنَّهم قومٌ معاندون مستكبرون؛ ولهذا توعَّدَهُم الله بقولـه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ إثبات رؤية الله ـ تَعَالَى ـ لِمَا يفعلُه العباد؛ لقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢ـ إثبات علوِّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأن النبي ﷺ يقلِّـب وجهـه في السماء ترقُّبًا لِنزُول الوحي من الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وعلُو الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الـسماء أمـرٌ مفطـورٌ عليـه الخلـق، ودلَّت عليه الشرائع والعقول، وقد اجتمعت الأدلة الخمسة: الكتـاب، والسُّنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، عـلى إثبـات عُلـوِّ الله ـ سـبحانه وتعالى ـ فوق خلقه.

وقد قسَّم العلماء ـ رحمهم الله ـ العلو إلى قسمين:

الأول: علوُّ ذات، بِمَعْنَى أنَّ الله ـ تَعَالَى ـ فوق كل شيء.

والثاني: علوُّ صفة، بمعنى أنَّ صفات الله ـ سبحانه وتعـالى ـ هـي أعلى ما يكون مِنَ الكمال.

فأمَّا الأول: فأدلَّته ما أشرتُ إليهـا: الكتـاب، والـسُّنة، والإجمـاع، والعقل، والفطرة، وتفصيل ذلك في كتب العقائد.

وأمَّا الثاني: فَلَهُ أدِلَّةٌ سمعيةٌ وعقليةٌ:

منها: قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل:٦٠]، أي: الوصف الأعلى الأكمل، وهذا دليلٌ سمعيٌّ.

وأمّا الدليل العقلي: فلأنَّ الربَّ لا بد أنْ يكون أكمل مِنَ المربوب، وأعلى مِنَ المربوب، وصفًا وقدرًا، وهذا هو الواقع.

٣ـ وعدُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لِرَسوله ﷺ أنْ يُولِّيه قبلةً يرضاها، وقد فعل ـ جلَّ وعلا ـ فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

٤ـ أنَّ الخطاب الموجَّه للرسول ﷺ خطابٌ له ولأُمَّته، ولكنْ في هذا تفصيل؛ وذلك أنَّ الخطاب الموجَّه إلى رسوله ﷺ، إمَّا أنْ يقوم الدليل على أنَّه موجَّه له وحده، أو على أنَّه موجَّه له ولِلأُمَّة، أو لا يكون هناك دليلٌ، لا على هذا، ولا على هذا:

فأما الأول: فيكون خاصًّا به؛ مثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ [الشرح:١ـ٣]، ومن المعلوم أنَّ هذا خاصٌّ برسول الله ﷺ.

وأمّا الثاني:ـ وهو الذي دلَّ الدليل على عموم الحكم له ولأُمَّته ـ: فمثل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، فَهُنَا صدَّر الخطابَ بِخِطابٍ مُوجَّهٍ إلى الرسول ﷺ، بأداة النداء، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، ولكنَّه جعل الحُكْمَ عامًّا، فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾، ولم يقل: «إذا طلَّقت»؛ وهذا يدلُّ على أنَّه عامٌّ له ولأُمَّته و، ومنه هذه الآية: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾.

وأمَّا القسم الثالث: فكثيرٌ في القرآن الكريم، يكون الكلام بصيغة الخطاب للواحد، وهذا ظاهره أنَّه موجَّه إلى الرسول ﷺ، فقيل: إنه موجَّهٌ له ولأُمَّته، لكنْ خُصَّ الخطاب به؛ لأنَّه قائد الأمة وإمامها، وقيل: بل هو موجَّهٌ لَهُ وحده، وأمته ـ في ذلك ـ يشملها الخطاب مِنْ باب التأسِّي والاقتداء، والخلافُ في هذا لفظي؛ لأنَّ كلا القولين ينصبُّ في أنَّ الأمَّة تفعل ما وُجِّه إلى الرسول ﷺ.

٥- وجوبُ استقبالِ القبلة في أي مكان من الأرض؛ لقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾.

٦ـ أنَّ الواجب الاتِّجاهُ إلى الجهة، لا إصابة عين الكعبة؛ لقوله: ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: جهته، وهذا ما لم يتيسر استقبالُ عيْنِ الكعبة، فإن تَيَسَّر استقبالُ العين، كان واجبًا، ومن المعلوم أنَّ من كان في المسجد الحرام، يتيسَّر له أن يتَّجه إلى عين الكعبة غالبًا؛ لأنه يشاهدها، ومن كان خارج المسجد الحرام، ولا يسعه أن ينظر إلى الكعبة، فإنه لا يمكنه أن يشاهد الكعبة، فيكفيه الاتجاه إلى الجهة. والجهة واسعة، وكلما بعدت المسافة، اتسعت الجهة؛ ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: إنَّه لا يضرُّ الانحراف اليسير عن القبلة، وإنما الذي يضر أن تكون القبلة عن يمينك، أو عن شمالك، أو خلف ظهرك، أمَّا الانحراف اليسير فإنه لا يضرُّ؛ واستدلوا بقول النبي ﷺ: «ما بين

[illegible][1]، قاله لأهل المدينة، ومَـنْ كـان عـلى سَـمْتِهم، ولقوله و: [illegible][2].

[illegible]

[illegible] عندَ الخوف، إذا كان الإنسان هاربًا من عدوٍّ، فإنه يُصلِّي حيثُ كان وجهه.

المسألة الثانية: العجز، إذا كان الإنسان مريضًا، ولا يستطيع أن يتوجَّه إلى القبلة بنفسه، ولا بِمَنْ يُوجِّهُه، فإنه يُصلِّي حيثُ كان وجهه.

[illegible] النَّافلة في السَّفر؛ فإنَّ الإنسان يُصلِّي على راحلته مِنْ سيَّارة، أو بعير، أو طائرة، حيثُ كان وجهه؛ لأن النبي ﷺ كان يفعلُ ذلك.

أما الدليل في المسألتين الأولين، الخوف والعجز: فهو قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿[illegible]﴾ [التغابن:١٦].

[illegible] أنَّ أهل الكتاب يعلمون الحق الذي جاء به النبي ﷺ، ولكنهم معاندون مستكبرون، وقد قال الله ـ تَعَالَى ـ في آية أخرى: إنهم يعرفون

---

[1] رواه الترمذي كتاب الصلاة، باب ما جاء أن ما بين المشرق والمغرب قبلة، رقم (٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤)، وابن ماجة كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة، رقم (١٠١١).

[2] رواه البخاري كتاب الوضوء، باب لا تستقبل القبلة بغائط أو بول، رقم (١٤٤)، ومسلم كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٤).

النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم[١]، وذلك بما ذُكِرَ من أوصافه عندهم التي لا تنطبق على بشرٍ سواه، ومِنْ ذلك قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥]؛فإنَّ هذه الأوصاف منطبقة تمامًا على رسول الله الهاشمي القرشي و، وهم يعلمون ذلك، لكنهم كانوا مستكبرين حسادًا؛ كما قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة:١٠٩].

٨- ذمُّ مَنْ علم الحق ولم يتبعه، وتعريضه نفسه للعقوبة؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾.

٩- إثباتُ أنَّ الله ـ تَعَالَى ـ موصوف بالإثبات، وموصوف بـالنفي؛ فهو ـ سبحانه وتعالى ـ قد جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات، والإثبات أكثر من النفي؛ ولهـذا يـأتي الإثبـات مفـصلاً، ويـأتي النفـي مجملاً، إلا فيما يحتاج إلى التفصيل فيه.قال أهـل العلـم: وصِـفَاتُ الله ـ

---

[١] سورة البقرة، آية: ١٤٦، وسورة الأنعام، آية: ٢٠.

سبحانه وتعالى ـ التي نفاها عنْ نفسه لا يُقصد بها مُجَرَّد النفي؛ لأنَّ مُجَرَّد النَّفي ليس وصفًا كاملاً، ولكن كلُّ صفة نفاها الله عن نفسه، فالمراد بها إثبات كمال ضِدِّها مع النَّفي:

فمثلاً قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يدل على انتفاء غفلة الله عما يعملون مع ثبوت كمال العلم والمراقبة، وفي قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، إثبات كمال العلم والقدرة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، فلا يمكن أنْ تَجِدَ نفيًا مَحْضًا في صفات الله، وتعليله أنَّ النَّفي المحْض عدمٌ مَحْض، والعدمُ المحْضُ ليس فيه كمال، وكلُّ ما نفاه الله عن نفسه، فالمُراد به نفي ما نفاه مع إثباتِ ما تضمنَّه مِنْ كمال الصِّفَة التي هي ضد ذلك النفي، فلم يَنْفِ عنْ نفسه الظلمَ، إلا لِكَمَالِ عدله، ولا العجزَ، إلا لِكَمَالِ عِلمِه وقدرته، ولا الغفلة عن أعمال العباد، إلا لِكَمَالِ عِلْمِه ومُراقبَتِه،،، وهَلُمَّ جرًّا.

* * *

ثم قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:١٤٥].

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ.

﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾، أي: بِكُلِّ دليل على ما أتيتَ به.

﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾؛ وذلك لأنهم لا يريدون الحق، وإنـما يريـدون العُلوَّ والاستكبار.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾؛ وذلك لأنَّ شرع النبي ﷺ نَسَخَ جميع الشرائع، فهم بريئون منك، وأنت بريءٌ منهم، وهذا كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:١ـ٣] إلى آخر السورة.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، يعني: أنَّ أهل الكتـاب ـ أيـضًا ـ مُختلفون، فلا يتَّبعُ بعضُهم بعـضًا في القبلـة والاتجـاه؛ فالنَّـصارى لهـم اتِّجاه، واليهودُ لهم اتِّجاه، ومع ذلك فهم فيما بينهم أولياء ضدَّ المُؤمنين.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، يعني: إنْ قُدِّرَ أنَّك داهنتَهم واتبعتَ أهواءهم ـ مِنْ بعدِ ما جاءك مِنَ العلم ـ لَكُنْتَ مِنَ الظالمين، وهذا التعليق لا يلزم منه وجودُ المُعَلَّق؛ فإنَّ «إنْ» الشرطية تدخلُ على شيء مُتعذِّر، بلْ مستحيل؛ كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، فلا يعني ذلك: أنه يمكن أنْ يكون لله ولد. فـ«إنْ» هنا: داخلةٌ على شيءٍ مُستحيل، وكذلك قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، لا يقول قائلٌ: إنَّ الرسول يُمْكِنُ أنْ يُشرك، بلْ هذا على

فرضِ وقوعِ ذلك، والفرضُ يمكنُ أنْ يَرِدَ على شيءٍ مُستحيل.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ ـ بيانُ تَمَرُّدِ الذين أوتوا الكتاب واستكبارهم، وأنَّهم لو أُتوا بكُلِّ آية ما قَبلُوها؛ لِعنَادِهِم واستكبارِهم.

٢ ـ أنَّ المؤمن بريءٌ مِنْ كلِّ دينٍ يُخالفُ الإسلام، حتى مِنْ دينِ مَنْ يزعمون أنَّهم على دين، كالذين أوتوا الكتاب.

٣ ـ وجوبُ مخالفة المشركين فيما يختص بهم؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾؛ ولهذا حذَّر النبي ﷺ مِنْ مُشَابهةَ الكُفَّار، فقال: «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1]، وقال: «خالفوا المجوس؛ وفِّرُوا اللِّحى، وحفُّوا الشوارب»[2]؛ فلا يحلُّ للمؤمنِ أنْ يتشبَّه بالكُفَّار فيما يختصُّ بهم مِنْ لباسٍ، أو هيئةٍ، يعني: في الجِسْم، كالشُّعور مثلاً، يُصَفِّفُها على ما يُصَفِّفُها الكفار، وغير ذلك؛ لهذا الحديث الذي ذكرتُ، ومن المعلوم أن التشبه بالكفار يؤدي إلى فرحهم وسرورهم، ومن المعلوم ـ أيْضًا ـ أنَّ المُتَشبِّهَ في حالٍ ومرتبةٍ دون المتشبَّهِ به، فَتَشَبُّهُنا بالكُفَّار والمشركين، يؤدي إلى اعتلائهم وترَفُّعِهم علينا، واعتقادهم أننا لهم تَبَعٌ، ولا شك

---

(١) رواه أحمد رقم (٥٠٩٣، ٥٦٣٤)، وأبو داود كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)..

(٢) رواه البخاري كتاب اللباس، باب تقليم الأظفار، رقم (٥٨٩٢)، ومسلم كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩) عن ابن عمر، ولفظُه: «خالفُوا المشركين». ورواه مسلم عن أبي هريرة، رقم (٢٦٠) بِلفظ: «خَالِفُوا المجوس».

أنَّ هذا إهانةٌ وإغاظةٌ للمؤمن، والمؤمن ينبغي أنْ يعتقد بقلبه أنه هو الأعلى؛ لأنَّه يدين لله ـ تَعَالَى ـ بدينٍ عالٍ على كلِّ الأديان؛ كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣، والصف:٩]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩].

٤- بيانُ اختلاف أهل الكتاب، وأنَّ بعضهم لا يَدِينُ بما يَدِينُ به الآخر؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، وهذا هو الواقع، فلننظر الآن إلى اليهودِ ماذا قالوا عن عيسى؟ قالوا: إنه ابن زانية ـ والعياذ بالله ـ وقالوا عن أمِّه: إنها زانيةٌ بَغِيٌّ. وماذا قال النصارى عنه؟ قالوا: إنه ابنُ الله، وقالوا: إنَّ الله ثالثُ ثلاثة: الله، والمسيح، وأمُّهُ، فنجد الطرفين متناقضين بينهما أكثر مما بين المشرق والمغرب، وقال المسلمون في عيسى بن مريم وأمِّه: إنَّ عيسى بن مريم عبدُ الله ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريَمَ وروحٌ منه، وأنَّ أُمَّه مريم صِدِّيقَةٌ، أبعدَ ما تكونُ عمَّا رماها به اليهود.

٥- التحذيرُ مِنْ مُتابعة أهواءِ أهلِ الكتاب؛ لأن الله ـ تَعَالَى ـ حذَّر نبيه منه، وما حذَّر منه الرسول ﷺ، فنحنُ مُحَذَّرُون منه.

٦- الإشارةُ إلى أنَّ ما قاله أهلُ الكتاب مِنَ الحقِّ، فلا حَرَجَ علينا في اتِّباعه؛ لأن الله ـ تَعَالَى ـ قال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، فأما ما جاؤوا به مِنَ الحقِّ فإننا نقبَلُه؛ لأنَّ الحقَّ يُقْبَلُ مِنْ كُلِّ مَنْ جاء به؛ ولِهَذَا لَمَّا

جاء الحَبْـرُ إلى رسول الله ﷺ وقال: «يا مُحمَّد، إنَّا نجدُ أنَّ الله ـ تَعَالَى ـ يجعلُ السَّموات على إصبع، والأَرَضِينَ على إصبع...» وذكر الحديث. ضَحِكَ النبي ﷺ تصديقًا لقوله، وقرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧][1].

٧ـ أنه يُشترط للإثم بالعمل: العلمُ بالتحريم، فلا يأثم العامل بالإثم، وهو لا يعلم أن عمله محرم؛ لقول ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾، فلا يؤثم الإنسانُ بفعلِ شيء هو جاهلٌ به؛ ويدلُّ لِهَذَا الأصْلِ العظيم أنَّ الله ـ تَعَالَى ـ قال: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأحزاب:٥]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، فقال الله ـ تَعَالَى ـ: «قدْ فَعلْتُ»[2].

وقال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقـال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ رقم (٤٨١١)، ومسلم كتاب صفة القيامة، رقم (٢٧٨٦).

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان، باب بيان قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ رقم: (١٢٦).

ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص:٥٩]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤]. والآيات في هذه كثيرةٌ، تدلُّ على أنه لا تأثيم مع الجهل، وهذا مِنْ رحمة الله بالعباد، ألا يُؤثِّمَهُم بما يجهلونه؛ لأنَّ الإنسان بشرٌ ضعيفٌ، وإذا لم يأثم به لم يترتب عليه فديةٌ ولا كفارةٌ؛ إلا ما كان من قتل الخطأ، فإنَّ فيه الكفارة؛ لِعِظَمِ حقِّ النفس المعصومة.

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة:١٤٦].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم اليهود والنصارى.

﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، أي: يعرفون النبي ﷺ.

﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾، أي: كَمَعْرِفَةِ أبنائهم؛ وذلك لِمَا عَلِمُوا مِنْ صفته في التوراة والإنجيل، وخصَّ الأبناء؛ لأنَّ تَعلُّقَ النُّفوسِ بهم أعظمُ مِنْ تعلُّقِهَا بالبنات غالبًا.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ فريقًا منهم، أي: طائفة من هؤلاء الذين أوتوا الكتاب، وهم علماءُ بني إسرائيل.

﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلمونه، ولكنهم يكتمونه

ويخفونه عن الناس؛ إما حسدًا لأمة محمد ﷺ، وإمَّا للخوف على رئاستهم وسلبهم أموال الناس، وإمَّا لِغَير ذلك.

ـ قال الله تعالى ـ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧]:

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا تثبيتٌ للرسول ﷺ: أنَّ الحقَّ مِنْ ربِّك، وقد أتاك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: نهاه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن ذلك، وهو لا يمكن أن يَمْتَرِي؛ لأنَّ الضغوط العظيمة، والكلمات القوية مِنَ الذين أوتوا الكتاب ومِنَ المشركين على رسول الله ﷺ، قد تُطيحُ بالشخص، إلا أنْ يُثبِّته الله ـ تَعَالَى ـ كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤ـ٧٥].

في هاتين الآيتين من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ ـ أنَّ أهلَ الكتاب ـ اليهودَ والنَّصارى ـ يعرفون النبي ﷺ تَمام المعرفة؛ وذلك بما ذكر من أوصافه في التوراة والإنجيل.

٢ ـ تمام عدل الله ـ عز وجل ـ؛ حيث قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل: «وإنهم ليكتمون الحق»؛ لأن منهم من أقر بالحق وآمن؛ كعبد الله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، ولو جاء التعميم: «وإنهم ليكتمون الحق»، لم يكن في هذا

بيان لفضل أولئك الذين آمنوا بالرسول ﷺ. ثم إن في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إشارةً إلى أن النبي ﷺ على الحق؛ لأن فريقًا من أهل الكتاب آمنوا به وصدقوه، فيكون في ذكر «الفريق» دون التعميم فائدتان:

الفائدة الأولى: العدل، وأن لا يهضم الذين آمنوا حقهم.

الفائدة الثانية: إثبات صدق الرسول ﷺ عند أهل الكتاب؛ حيث إن فريقًا منهم آمنوا به وصدقوه.

٣ـ ذم من كتم الحق وهو يعلمه، ويشهد لهذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة:١٥٩].

ولهذا كان واجبًا على أهل العلم أن يبينوا العلم كلما احتاجت الأمة إليه، إما بالسؤال المباشر عن العلم، وإما بلسان الحال، بحيث يقع الناس في أمر يحتاجون إلى بيانه؛ لأن النبي ﷺ توعد من سئل عن علم، فكتمه، والسؤال عن العلم ـ كما أشرت إليه ـ يكون بلسان الحال، ويكون بلسان المقال:

أما بلسان الحال: فأن يقع الناس في أمر يحتاجون إلى التنبيه عليه.

وأما بلسان المقال: فأن يأتيك شخص يسألك عن مسألة شرعية، وأنت تعلمها، فيجب أن تبينها له، إلا إذا علمت أن هذا الرجل لا يريد الوصول إلى الحق، وإنما يريد أن يوقع بين العلماء؛ لأنه ربما يحصل بينهم اختلاف في الرأي، أو يريد الإعنات والمشقة على المسؤول، فحينئذ يكون المسؤول مخيرًا بين إجابته، وترك إجابته.

٤ـ أن الحق من عند الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه صادر من الله ـ تعالى ـ وما صدر من الحق فهو حق، وما خالفه فهو باطل.

٥ـ فضيلة الرسول ﷺ؛ حيث أضاف الله ـ تعالى ـ الربوبية إليه في قوله: ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾، وهذه ربوبية خاصة، تقتضي عناية أخص. والربوبية تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة لجميع الخلق، وربوبية خاصة لمن اجتباهم الله ـ عز وجل ـ، ومن الأمثلة الجامعة للعامة والخاصة: قوله ـ تعالى ـ عن سحرة آل فرعون: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١]، وهذه عامة، ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢]، وهذه خاصة.

٦ـ تثبيت النبي ﷺ وتقويته في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، وهو ﷺ لم يمتر، ولم يشك، ولكن هذا من باب تقويته وتثبيته؛ لأن النبي ﷺ بشر ويحتاج إلى التثبيت والتأييد؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، وقد بين الله ـ تعالى ـ أن ثبات النبي ﷺ كان بفضله ورحمته، فقال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ

تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤ـ٧٥].

٧ـ ورود النهي عما لا يمكن وقوعه؛ لقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾، والامتراء من الرسول ﷺ ليس بواقع، ولا يتوقع ـ أيضًا ـ لأنه ﷺ أقوى الناس إيمانًا بالله ـ تعالى ـ.

* * *

ثم قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾، أي: لكل من المسلمين وأهل الكتاب، وجهة هو موليها، وإن شئت فقل: ولكل، أي: لا بد لكل أحد، من وجهة هو موليها، فمن الناس من يولي وجهه شطر الإيمان والإصلاح.

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾، أي: تسابقوا إلى الخيرات، والخيرات هي: ما جاء به الرسول ﷺ من الحق.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ﴾، يعني: في أي مكان تكونون، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سوف يأتي بكم جميعًا، وذلك إذا حشر الناس؛ فإن الله ـ تعالى ـ يحشر الناس جميعًا، من أي مكان كانوا من قبل، يحشرون كلهم جميعًا كنفس واحدة، يقومون لله ـ عز وجل ـ من قبورهم، قيام رجل واحد؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣ـ١٤].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يأتي بالخلق جميعًا أينما كانوا في الأرض، يأتي بهم جميعًا ويحشرهم في مكان واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فهو قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، بدون عجز ولا ضعف.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ أن كل واحد من الناس له وجهة يتولاها، ويتوجه إليها، وهم فرق متباينة؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢].

٢ـ الأمر بالتسابق إلى الخير؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، ثم إن الخيرات منها ما يجب، ومنها ما يستحب، على حسب ما جاءت به الشريعة.

٣ـ إثبات الحشر يوم القيامة، وأن جميع الناس سوف يحشرون إلى الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾.

٤ـ إثبات اسم من أسماء الله، وهو «القدير»، وما دل عليه من

الوصف، وهو: القدرة، فلله ـ سبحانه وتعالى ـ القدرة التامة في كل شيء﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر:٤٤].

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٩].

وهذه الآية للتوكيد كما سبق؛ لأن المقام مقام عظيم، والأمر مهم جدا، ولا يشعر إنسان بهذا المقام وأهميته، إلا لو كان موجودًا ذلك الوقت ـ أي: حين تحويل القبلة ـ لأنه أمر جلل عظيم، أكده الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية، وفي الآية التي بعدها.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾، أي: من أي مكان خرجت، وإلى أي جهة اتجهت، فلا بد أن تولي وجهك شطر المسجد الحرام، أي: جهته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ﴾، أي: إن ما ذكر من توليك شطر المسجد الحرام، للحق من الله، وهذه جملة مؤكدة بـ«إن»، وبـ«اللام»، وتأكيد الجملة يدل على أهميتها، وأن الأمر فيها يحتاج إلى توكيد وتثبيت في قلوب الناس.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ يقال فيها كما قيل في الآية السابقة، أي: أنه لكمال مراقبته وعلمه، لا يغفل عما يعمله العباد.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- تأكيد الأمور الهامة، حتى ترسخ في النفوس، وتطمئن إليها القلوب، ولا يعد هذا من التكرار الزائد، بل هو من التكرار البليغ؛ لأن الشيء كلما كان هاما، فإن البلاغة في العناية به، والاهتمام به.

٢- أن الإنسان في أي جهة خرج، من بر أو بحر أو جو، فإنه يتعين عليه أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام في الصلاة، ولكن سبق أنه استثني من ذلك مسائل: الخوف، والعجز، والنافلة في السفر.

٣- أن الإنسان لو تبين له في أثناء الصلاة أنه إلى غير القبلة، فإنه يجب أن ينحرف إلى القبلة، فلو أن الإنسان في البر، واجتهد في القبلة، واتجه إلى جهة ما، ثم جاءه رجل أعلم منه بالجهات، وقال له: إن القبلة عن يمينك، أو عن يسارك، وجب عليه أن يتجه إلى ما أرشده إليه هذا الرجل، ولا يلزمه أن يستأنف الصلاة؛ لأن ما حصل منه في أول الصلاة، صادر عن اجتهاد، ولكن لو استمر على الجهة التي هو عليها بدون علم، فإنه يجب عليه إعادة صلاته؛ لأن اتجاهه إلى غير القبلة فيما بقي من صلاته، باطل.

والصلاة لا تتجزأ، فينسحب البطلان إلى أولها، ولهذا لما جاء رجل إلى أهل قباء، وهم يصلون صلاة الفجر، متجهين إلى بيت المقدس،

والكعبة خلف ظهـورهم، قـال لهـم: إن النبـي ﷺ أنـزل عليـه الليلـة القرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فـاتجهوا إلى الكعبـة واسـتقبلوها، وصار بيت المقدس خلف ظهورهم، بعد أن كان قبـل وجـوههم؛ لأن هذا هو الواجب.

٤ـ أن ما جاءت به الشريعة ـ شريعة محمد ﷺ هو الحق؛ وعلى هذا فيكون ما سواه باطلاً، ويتفرع على هذه الفائدة: بطلان البـدع بجميـع أنواعها؛ لأن البدع مخالفة لما جاء به النبـي ﷺ؛ فـإن البدعـة المذمومـة هي: التعبد لله ـ تعالى ـ بما لم يشرعه الله، مـن عقيـدة أو قـول أو عمـل، فكل بدعة فهي باطلة؛ لأنها مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ.

٥ـ كمال علم الله ـ تعالى ـ ومراقبته؛ للمفهوم مـن قولـه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفقنا للعمل الذي يرضيه، وأن لا يعلم منا إلا ما يرضى به عنا؛ إنه جواد كريم.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٠].

وهذه الآية ـ كما هو معلوم ـ هي الآية الثالثة التي كرر فيها وجوب

الاتجاه إلى الكعبة المعظمة، وذلك للتأكيد، وكل جملة منها أعقبت بمعنًى عظيم:

أما الأولى: وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، فأعقبها الله ـ تعالى ـ ببيان أن ذلك هو الحق، وأن الذين أتوا الكتاب يعلمون ذلك.

وأما الثانية، ففيها: بيان الحكمة من تحويل القبلة، وتثبيت المؤمنين على ما يورد عليهم من الشبهات حول هذا الموضوع؛ يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾، أي: من أي جهة خرجت، من أي مكان خرجت.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: جهة المسجد الحرام.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ في أي مكان؛ من بر، أو بحر، أو جو.

﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

ثم بين الحكمة من ذلك بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، أي: لئلا يحتج الناس عليكم، يعني: أوجبنا عليكم ذلك؛ لئلا يحتج الناس عليكم، فمن الذي يحتج؟ يحتج من الناس طائفتان:

الطائفة الأولى: أهل الكتاب.

الطائفة الثانية: المشركون.

أما المشركون: فإن النبي ﷺ لو بقي على الاتجاه لبيت المقدس، لقالوا: هذا الرجل ترك قبلة آبائه، إلى بيت المقدس.

وأما اليهود: فإنهم يقولون: هذا الرجل تـرك قبلتنـا، وأخـذ بقبلـة قومه.

فبيـن الله ـ عز وجل ـ أنه أوجب علينا أن نتجـه إلى الكعبـة؛ لـئلا يحتج هؤلاء وهـؤلاء، فبطلـت حجـة المـشركين، باتجـاه النبـي ﷺ إلى الكعبة، ورجع إلى ما كانت عليه القبلة زمن إبراهيم ـ عليـه الـسلام ـ، وبطلت حجة اليهود الذين قـالوا: يتركنـا ويرجـع إلى ديـن آبائـه؛ لأن النبي ﷺ إنما يفعل ذلك امتثالاً لأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتحقيقًـا لمـا عرفوه هم فيما عندهم من الكتاب؛ ولهذا قـال الله ـ عـز وجـل ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ وهم اليهود والمشركون، على الوجه الذي ذكرنا آنفًا.

ثم نهى الله عباده عن خشية الناس، ولو كانوا ظالمين، فقـال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾، يعني: دعوا خشية هـؤلاء الظـالمين، واخـشوني؛ فإن خشية الله ـ سبحانه وتعالى ـ يندفع بها كل شر، وكل ظلم.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هذه الجملـة معطوفـة عـلى قولـه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، أي: وأمـرتكم بـأن تولـوا وجوهكم شطر المسجد الحرام؛ لأتم نعمتي عليكم بالاتجاه إلى الكعبـة المعظمة، التي هي أول بيت وضع للناس.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ «لعل» هذه: للتعليل، أي: لعلكم تكونون من ذوي الهداية، الذين وفقوا لهداية العلم، وهداية الرشد.

في هذه الآيات الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ تأكيد الاتجاه إلى الكعبة المعظمة ـ وقد سبق الكلام عن ذلك ـ وبيان أن الاتجاه إلى الكعبة المعظمة واجب، من شروط صحة الصلاة، إلا ما استثني من المسائل السابقة.

٢ـ أن أحكام الله ـ تعالى ـ الشرعية، معللة، أي: لها علة وحكمة، وليست لمجرد المشيئة التي ليس لها حكمة ولا علة؛ لقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

وفيها: رد على من يقول من أهل البدع: إن أفعال الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأحكامه لا تعلل بعلل؛ لأنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فنقول: إن القرآن والسنة مملوءان من ذكر تعليل الأحكام بالعلل والمصالح، وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، فهو لا يسأل عما يفعل؛ لكمال أفعاله، ولكونها لا تصدر إلا عن حكمة بالغة. ثم إن هناك أفعالاً لله ـ تعالى ـ وأحكامًا لا تعلم عللها وحكمتها؛ فلا مطعن فيها، ولا معارضة لله ـ تعالى ـ فيها؛ لأن عقول الخلق قاصرة عن إدراك كل حكمة لله ـ تعالى ـ.

٣ـ أنه ينبغي للإنسان أن يتجنب كل سبيل يكون فيه حجة عليه، حتى ولو كانت الحجة من أهل الظلم، ما لم يخالف بذلك شريعة الله ـ تعالى ـ فدرء الإنسان عن نفسه ما يقبح به، ويسب به: أمر مطلوب.

٤ـ أن الظالمين أهل عناد وشقاق، وأنهم يعاندون ويشاقون حتى

فيما تبين فيه الحق؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنۡهُمۡ﴾.

٥- تحريم خشية الناس في إضاعة حقوق الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِى﴾، ويترتب على هذه الفائدة: أنه لا تجوز المداهنة في دين الله ـ عز وجل ـ، بل يجب أن يكون الإنسان قويا، حازمًا، معتزًا بدينه الذي من الله به عليه.

٦- بيان نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه الأمة بإتمام النعمة، حيث قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِى عَلَيۡكُمۡ﴾، وما أكثر نعم الله ـ تعالى ـ على هذه الأمة، الدينية والدنيوية؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

٧- أن امتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهي الله ورسوله، سبب للهداية، وكلما ازداد الإنسان تقوى لله، ازداد هدايةً؛ كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡا۟ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد:١٧]؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

٨- ثم إن الآية الكريمة تشير إلى أن هناك أناسًا ضد الدين الإسلامي، يحتجون على المسلمين، في كل ما جاء من شرعهم، ولكن على المسلمين أن يصمدوا، وأن يثبتوا على ما هم عليه، كما أمرهم الله في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصۡبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وأهل العدوان يحتجون أحيانًا على القرآن

الكريم، وأحيانًا على رسول الله ﷺ، وأحيانًا على ما تضمنته رسالة النبي ﷺ من الشرائع أو الشعائر.

نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعلنا ممن يعتز بدينه، وأن يكفينا شر أعدائنا، وأن يجعل شرورهم في نحورهم، إنه على كل شيء قدير.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة:١٥١ـ١٥٢].

قوله: ﴿كَمَا﴾ «الكاف» هنا: للتعليل؛ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، أي: لهدايته إياكم.

و﴿مَا﴾ مصدرية، وتقدير الكلام كإرسالنا فيكم رسولاً، وهو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: منكم أيها العرب؛ لأنه ﷺ من العرب، فهو هاشمي قرشي، وهو من بني إسماعيل، وليس من بني إسماعيل نبي سوى محمد ﷺ.

﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾: أي: يقرؤها، والمراد بها: القرآن الكريم.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، أي: يزكي عبادتكم، ويزكي أخلاقكم، ويزكي نفوسكم؛ فالدين كله تزكية، على يد الرسول ﷺ.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعلمكم الكتاب ـ وهو القـرآن ـ لفظه ومعناه، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي الـسنة التـي جـاء بهـا رسـول الله ﷺ، وكذلك ما تضمنه القرآن من الحكم والأسرار، في الأحكام التي جاء بها.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾، أي: ما لم تكونوا تعلمـون مـن قبل؛ فإن العرب كانوا قبل الرسالة أمةً أميةً، لا يعرف واحـد مـنهم أن يكتب اسمه، ولكن الله ـ تعـالى ـ مـن علـيهم بهـذا الرسـول الكـريم، فحصل لهم علم وزكاة وحكمة.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ منة الله ـ سبحانه وتعالى ـ علينا؛ حيث أرسـل فينـا هـذا النبـي الأمي، الذي يتلو علينا آيات الله، ويزكينا، ويعلمنا الكتاب والحكمة.

٢ـ أن رسول الله ﷺ حق من عند الله، قام بما يجب عليه من تـلاوة آيات الله علينا وتزكيتنا، وقد علمنا ﷺ كل ما نحتاج إليه في أمور ديننا ودنيانا، حتى قال أبـو ذر ـ رضي الله عنه ـ: «لقد توفـي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علمًا»[(١)].

٣ـ ثبوت التزكية، وإن شئت فقل: ثبوت الزكـاة لمـن اهتـدى بـما يتلوه النبي ﷺ من آيات الله؛ لقوله: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، ومن عرف حـال العرب قبل الإسلام، عرف كيف زكاهم الإسلام، وهـذب أخلاقهـم،

---

(١) رواه أحمد (٢٠٨٥٤، ٢٠٩٢٨).

وأزال عنهم عصبية الجاهلية.

٤ـ الحث على تعلم الكتاب والحكمة، أي: تعلم الكتاب والسنة؛ لأن الله جعله مما من الله به علينا، حيث قال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾. فضل النبي ﷺ على أمته بما يتلوه عليهم من آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لا يعلمون.

٥ـ الإشارة إلى أن من تلا على عباد الله آيات الله، وزكاهم بما يقدم لهم من المواعظ، وعلمهم كتاب الله وسنة رسوله و، كان وارثًا لرسول الله ﷺ، ولهذا كان العلماء الربانيون، ورثة الأنبياء؛ لأنهم يرثونهم في أممهم، يعلمون الأمم ما خلفه الرسل من العلم والهدى، ويدعونهم إلى الخير، ويعينونهم على البر والتقوى.

٦ـ أن القرآن والسنة مشتملان على الحكمة، والحكمة هي: وضع الأشياء في مواضعها، بحيث تكون الأحكام مشتملةً على ما تكون فيه المصالح، وتدرأ به المفاسد.

٧ـ فضيلة العلم؛ لقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾، حتى انتقلت أمة العرب من أمة أمية جاهلية، إلى أمة عالمة متقدمة.

٨ـ أنه ينبغي للإنسان أن يذكر الناس بنعمة الله عليهم في إرسال محمد ﷺ، الذي يتلو علينا آيات الله، ويزكينا، ويعلمنا الكتاب والحكمة، ويعلمنا ما لم نكن نعلم.

❊ ❊ ❊

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

أمر الله ـ تعالى ـ بذكره، وبين ثوابه وجزاءه، فقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾، وهذا أمر بالذكر.

﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، وهذا الثواب والجزاء.

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾، أي: اشكروني على ما أعطيتكم من النعم.

﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ فتجحدوا نعم الله عليكم.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ـ الأمر بذكر الله، وذكر الله ـ تعالى ـ ينقسم إلى قسمين: ذكر واجب، وذكر تطوع ليس بواجب، فالصلاة ـ مثلاً ـ من الأذكار الواجبة، وهي متضمنة لذكر الله ؛ لأن فيها قراءة القرآن، وفيها الركوع والسجود، والقيام والقعود، والتسبيح والتعظيم لله ـ عز وجل ـ، ودعاء الله ـ عز وجل ـ، والنوع الثاني: ذكر تطوع؛ كالتسبيح، والتهليل، والتكبير، والصلوات النافلة.

وينقسم الذكر من وجه آخر إلى قسمين:

ذكر بالجوارح: كالأقوال والأفعال، وهذا يقع من المؤمن والمنافق.

وذكر بالقلب: وهذا لا يقع إلا من المؤمن.

٢ـ أن جزاء الذاكرين لله أن يذكرهم الله، وقد ثبت في الحديث

الصحيح: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: «من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ خير منهم»(١)، وهم: الملائكة.

وعلى هذا فينبغي للإنسان الإكثار من ذكر الله ـ عز وجل ـ، والمؤمن يمكنه أن يكون ذاكرًا لله ـ تعالى ـ دائمًا، وذلك بأن يشاهد نعمة الله عليه؛ فإن نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على العبد لا تحصى، كل نعمة أنعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها عليك، فإنها تذكرك بالله ـ عز وجل ـ، وبإحسانه وبفضله وإنعامه؛ ولهذا أثنى الله ـ تعالى ـ على الذاكرين على كل حال، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٩٠ـ١٩١]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾ [الأحزاب:٤١ـ٤٢].

٣ـ وجوب شكر الله ـ عز وجل ـ، وذلك بالقيام بطاعته، وصرف نعمه إلى ما أمرنا الله بصرفها إليه، فلا نستعين بنعمه على معصيته.

٤ـ تحريم كفر النعمة؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

فنسأل الله ـ تعالى ـ أن يعيننا على ذكره، وشكره، وحسن عبادته؛ إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

* * *

(١) رواه البخاري كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ رقم (٧٤٠٥)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله، رقم (٢٦٧٥).

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣].

قولـه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ هـذا نـداء مـن الله ـ عـز وجـل ـ، وجهه إلى المؤمنين بوصف الإيمان، وهو الوصف العظيم الذي يعتز بـه كل مؤمن، وهو لا شك وصف تكريم وحث وإغراء؛ ولهذا قـال عبـد الله بن مـسعود ـ رضي الله عنـه ـ:«إذا سـمعت الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه»، وإذا صدر الله الخطاب بهـذا النـداء، فإنـه يـستفاد منـه ثلاث فوئد:

الأولى: أهمية ما سيوجه إلى المؤمنين.

الثانية: أن امتثال ما سيوجه إليهم من مقتضيات الإيمان.

الثالثة: أن مخالفته نقص في الإيمان.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾، أي: اطلبـــــوا العون بالصبر والصلاة:

الصبر على الأمور، ومصابرتها: إن كانت من المأمور بها، فأن تصبر على أداء ما أمرت به، وإن كانت من المنهي عنها، فأن تصبر على اجتنابك لها؛ وذلك لأن النفوس ضعيفة، قد تشق عليها الأوامر، فتتراجع وتنسحب، ولا تكمل الواجب، وقد يشق عليها اجتناب النواهي، فتعجز عن الصبر، وتنتهك المحرمات؛ فلهذا أمر الله ـ

سبحانه وتعالى ـ بالصبر: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾، والاستعانة به، وما أعطي الإنسان عطاءً أحسن وأوسع من الصبر؛ فإن الإنسان إذا صبر وعود نفسه على الصبر، خفت عليه الأمور.

وأما الاستعانة بالصلاة: فإن الإنسان يقف بين يدي الله ـ عز وجل ـ يناجيه بكلامه، ويتقرب إليه بالثناء عليه ويدعوه، قال النبي ﷺ: «وأما السجود، فأكثروا فيه من الدعاء؛ فقمن أن يستجاب لكم»[(١)]، فالصلاة تعين الإنسان على شدائده، ويذكر عن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[(٢)].

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ وهذا ترغيب في الصبر؛ لأن الإنسان إذا علم أن الله معه، سهل عليه معالجة نفسه بالصبر.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ـ فضيلة الإيمان، وأنه وصف ينبغي للإنسان أن يعتز به؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢ـ أن يستعين الإنسان على أموره بالصبر.

٣ـ جواز الاستعانة بغير الله، فيما يكون سببًا للعون؛ لأنه قال:

---

(١) رواه مسلم كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم: (٤٧٩) بلفظ: «فاجتهدوا في الدعاء».

(٢) رواه أحمد (٢٢٧٨٨)، عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان رسول الله ﷺ إذا حزَبَه أمرٌ صلَّى)، وأبو داود كتاب التطوع، باب وقت قيام النبي ﷺ، رقم (١٣١٩).

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾، وهذه استعانة مقيدة غير متعبد بها. أما الاستعانة المطلقة المتعبد بها، فلا تكون إلا لله وحده؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

٤- فضيلة الصبر، وأنه عون للإنسان على مهمات أموره، وهذا شيء مجرب؛ فإن الإنسان قد يستثقل أن يقوم في آخر الليل؛ ليتوضأ بالماء البارد ويصلي في البرد، وفراشه أدفأ له، ولكن نقول: اصبر، اصبر على هذا، واحتسب الأجر، وكذلك ربما يشق عليه أن يتردد إلى المسجد، فنقول: اصبر واحتسب، وربما يشق عليه أن يصوم، فنقول: اصبر على الجوع، اصبر على العطش؛ فإن هذا كله خير لك، وكذلك إذا نزلت به مصيبة فصبر وانتظر انكشافها، هانت عليه.

٥- أن الإنسان إذا حزبه أمر، واشتد عليه، فليفزع إلى الصلاة؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٦- فضيلة الصلاة، وفوائدها، ومن تأمل الواقع، وجد أن للصلاة تأثيرًا بالغًا في تنشيط الإنسان وتقويته، وتسهيل الأمور أمامه.

٧- إثبات أن الله مع الصابرين، والمعية هنا لا تقتضي الاختلاط، يعني: لا تقتضي أن يكون معهم في أماكنهم؛ فإن الله ـ تعالى ـ منزه عن ذلك، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ فوق كل شيء، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، لكن هذه المعية تقتضي: النصر والتأييد والتثبيت، وهذه معية خاصة، وأما المعية العامة لكل أحد

فتقتضي: الإحاطة بالخلق؛ علمًا وقدرةً وسلطانًا، وغير ذلك من معاني ربوبيته ـ تعالى ـ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

الترغيب في الصبر؛ لأن قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يراد به ـ مع إثبات المعية ـ الحث على الصبر، والترغيب فيه.

وللصبر فوائد كثيرة:

منها: الأجر الكثير؛ فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

ومنها: ترويض النفس على الانضباط، والحكمة، وعدم الملل؛ وذلك أن الإنسان لا بد أن يفعل، فإذا صبر على الفعل الذي هو متلبس به، لعلمه بفائدة الاستمرار فيه، فقد روض نفسه على معاناة الأمور وتحملها.

ومنها: أن الصبر سبب لحسن العاقبة؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

ومنها: أن الله مع الصابرين، وهذه أعظم فائدة: أن يكون الله معك؛ فإنه من كان الله معه، فإنه منصور.

ومنها: أن الإنسان تهون عليه المصائب، فيما إذا أصيب بمصيبة، ثم صبر واحتسب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «مرها فلتصبر ولتحتسب؛ فإن لله ما أخذ وله ما أبقى، وكل شيء عنده بأجل مسمى»(١).

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٤].

في هذه الآية ينهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عباده المؤمنين أن يقولوا للذي يقتل في سبيل الله: أموات، أي: أن يقولوا في شأن هؤلاء: إنهم أموات، ومعلوم أن من قتل في سبيل الله، فقد مات حتمًا؛ ولهذا يدفن في الأرض، كما يدفن غيره من الأموات؛ لأن روحه فارقت جسده، لكن هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله، في الواقع: أحياء حياةً برزخيةً، ليست كحياة الدنيا المادية الحسية.

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ لأن حياتهم من عالم الغيب، وعالم الغيب لا يمكن أن نشعر به في عالم الشهادة، لكن يجب علينا أن نؤمن بكل ما أخبر الله به من أمور عالم الغيب؛ لأنه صادر عن أعلم العالمين، وأصدق القائلين، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

---

(١) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «لا يُعَذَّبُ الميت ببعض بكاء أهله»، رقم (١٢٨٤)، ومسلم كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣).

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ نهي المسلم أن يقول لمن قتل في سبيل الله: إنه ميت، هذا إذا قلنا: إن القول: قول اللسان، أما إذا قلنا: إن القول قول القلب ـ يعني: اعتقاد القلب ـ فإنه لا حرج أن نعتقد أنه مات ميتةً حسيةً؛ لأن ذلك هو الواقع، لكنهم أحياء عند الله ـ تعالى.

٢ـ فضيلة من يقتل في سبيل الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾، أي: بل هم أحياء.

٣ـ جواز إطلاق الوصف باعتبارين؛ فإن الذين قتلوا في سبيل الله أموات باعتبار الحياة الحسية؛ لأن أرواحهم فارقت أجسادهم، لكنهم أحياء باعتبار الحياة البرزخية، فهم أموات من وجه، وأحياء من وجه آخر، وذلك لاختلاف الأحوال، ولكن لا نصفهم بالوصف الأدنى، وهو الموت.

٤ـ أن علم الآخرة غير مشعور به؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ لأنه أمر غيبي لا يمكن إدراكه حسا.

٥ـ أن عذاب القبر أو نعيم القبر أمر لا يطلع عليه، هذا هو الأصل، لكن قد يطلع الله عليه من شاء من عباده، كما أطلع الله نبيه محمدًا ﷺ، على الرجلين اللذين كانا يعذبان في قبريهما، حيث قال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما: فكان لا يستبرئ من

البـول ـ أو قـال: لا يـستتر مـن البـول ـ وأمـا الآخـر: فكـان يمـشي بالنميمة»[1].

٦ـ قصور علم الإنسان؛ حيث يكون الذي قتل في سبيل الله عنده حيا، وهو لا يشعر بحياته، وهذا يدل على نقص علم الإنسان، وهو كذلك؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

* * *

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

في هذه الآية يؤكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه سيبلو عباده ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ ﴾، كلها فيها الابتلاء والامتحان، ويؤكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك بثلاث مؤكدات: اللام، ونون التوكيد، والقسم المقدر؛ لأن تقدير الكلام: والله لنبلونكم بشيء من الخوف، وهو: الذعر، سواء أكان هذا الخوف من عدو حقيقي ماثل أمام الإنسان، أو من عدو غير معلوم: كالخوف الذي يلقيه الشيطان في قلب الإنسان؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، أي: يخوفكم أولياءه.

---

(١) رواه البخاري كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

﴿وَٱلۡجُوعِ﴾، وهو: نقص الطعام، سواء أكان ذلك بفقد النقود التي يشتري بها الإنسان طعامه، أو بفقد الطعام نفسه، بحيث لا تنبت الأرض، أو لا يجلب إلى البلد.

﴿وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ نقص من الأموال: بما يحدث من الجوائح والفيضانات وغيرها، مما يرسله الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده عند معصيتهم إياه، ونقص الأنفس: بالموت؛ كالأوبئة ونحوها، ونقص الثمرات: أن ما يخرج من الأرض؛ كالأشجار والزروع وغيرها، تصاب بنقص: إما في فساد ثمرتها، أو هلاكها، أو ضعفها، أو ما أشبه ذلك.

وكل هذه مصائب يقدرها الله ـ عز وجل ـ؛ ليبلو عباده: أيصبرون أم لا يصبرون؟ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، أي: أخبرهم بما يسرهم، وهم الذين يصبرون على هذا البلاء: الخوف، والجوع، ونقص الأموال والأنفس والثمرات.

والخطاب في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إما للرسول ﷺ، أو لكل من يصح توجه الخطاب إليه، إلى يوم القيامة.

ثم بين صفةً من صفات الصابرين، يتميزون بها عن غيرهم، وبين ثوابهم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٦ـ١٥٧]:

﴿أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ﴾، أي: من المصائب السابقة في الآيـة قبلهـا، أو غيرها.

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: بألسنتهم، معترفين بها في قلوبهم.

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، أي: له، ملكًا وعبيدًا؛ فله أن يفعل بنا ما شاء.

﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، أي: في جميع شؤوننا، ومنها أننا سنبعث ونلاقيه؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، الـصلوات مـن الـرب عـلى العبد، قيل: إنها، الرحمة، والصواب: أن الصلوات غير الرحمـة؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، والعطف يقتضي المغـايرة، فما هي الصلاة على العبد؟ «الصلاة على العبد» أحسن ما قيـل فيهـا مـا قاله أبو العالية ـ رحمه الله ـ حيث قال: «صلاة الله على العبد: ثناؤه عليه في الملإ الأعلى»، يعني: أن الله ـ تعالى ـ يثني على المـصلى عليـه، في المـلإ الأعلى عند الملائكة.

وعلى هذا: فمعنى الآية: ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، أي: لهم ثنـاء من الله ـ تعالى ـ عند الملإ الأعلى.

﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ أي: رحمـة يحـصل بهـا مطلـوبهم، وينجـون بهـا مـن مرهوبهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: إن الذين إذا أصابتهم مـصيبة، سـلموا الأمـر

لله، وقالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، ﴿هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

و«هم» هذه يسميها علماء اللغة: ضمير الحصر، يعني: أنها تحصر الحكم فيما بعدها، ويتضح هذا بالمثال، فإذا قلت: فلان القائم، أو قلت: فلان هو القائم، صار قولك هو القائم، آكد في الحصر والاختصاص من قولك: فلان القائم؛ ولهذا فهي ـ في الحقيقة ـ مع إفادتها الحصر، تفيد: التوكيد.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، أي: الذين اهتدوا بهداية الله ـ تعالى ـ لهم.

في الآيات السابقة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- جواز التوكيد بالقسم في الأمور الهامة؛ لقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾، ولكن ينبغي أن يعلم أنه لا ينبغي للإنسان أن يكثر من الأيمان، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وإلا فإنه يلقي الخبر على ما هو عليه، بدون توكيد، لكن عند الحاجة لذلك يؤكده بالقسم.

٢- أن الخوف والجوع ونقص الأموال ونقص الأنفس ونقص الثمرات، كلها من المصائب والبلاء.

٣- بيان حكمة الله ـ عز وجل ـ في تدبيره لخلقه، حيث يقدر لهم الضراء والسراء؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملاً؛ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

٤ـ أنه ينبغـي للإنـسان أن يـشعر بقـدر نعمـة الله عليـه، بـالأمن، والعيش الرغيد، ونمو الأموال والأنفس والثمرات.

٥ـ أن نقص هذه الأشياء مصيبة، فتكون زيادة هذه الأمور، نعمـةً ومنحةً، ولا شك أنـه كلـما كثـرت الأمـوال، وصرفـت في طاعـة الله، واستعمل الناس حياتهم في طاعة الله، فإن ذلك خير.

٦ـ أنه ينبغي للإنسان أن يبشر أهل العمل الصالح، بما يكـون مـن ثواب هـذا العمـل؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

والمبتلى بمصيبة من المصائب المذكورة، لا يخلو من أربع حالات:

الحالة الأولى: التسخط والتضجر.

الحالة الثانية: الصبر.

الحالة الثالثة: الرضا.

الحالة الرابعة: الشكر.

هكذا قسم بعض العلماء من يصابون بالمصائب، إلى هـذه الأقـسام الأربعة:

فأما الحال الأولى:

وهي التسخط، فهي حرام، لا يحل للإنسان أن يتسخط على قـضاء الله وقدره، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا يعني ذلـك أن نقـول: إنه لا يحزن، قد يحـزن الإنـسان، ولا يـستوي عنـده المـصيبة وعـدمها،

فتكون المصيبة أشد وقعًا عليه، ويحزن لها، لكن يصبر؛ وإلى هذا يشير قول النبي ﷺ في ابنه إبراهيم حين مات، قال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[1].

الحال الثانية: الصبر، وهو: أن يتجرع ألم المصيبة ويتألم، ولا يستوي عنده وجود المصيبة وعدمها، بل هو متكدر منها، لكنه لا يقول ما يغضب الله، ولا يفعل ما يغضب الله، وهذا واجب، يجب على الإنسان أن يصبر، ولا يجوز أن يتسخط، لا بقوله، ولا بقلبه، ولا بفعله.

الحال الثالثة: أن يرضى بقضاء الله، أي: يرضى بهذه المصيبة التي أصابته، والفرق بين الرضا والصبر: أنه في حالة الصبر، يتألم الإنسان من المصيبة قلبيا، لكن لا يظهر التسخط، لا بقوله، ولا بقلبه، ولا بفعله، لكنه يتألم، إلا أنه صابر عن فعل ما لا يرضي الله، أما في حالة الرضا: فإنه لا يتألم، بمعنى: أن وجود هذه المصيبة عنده كعدمها؛ لأنها من الله، لا يكون في قلبه ألم أو حسرة، ومعلوم أن هذه الحالة أعلى من الحال الأولى، وإن كانت الحال الأولى أشد من جهة المعاناة، معاناة منازعة النفس.

أما الحال الرابعة: فهي الشكر على هذه المصيبة، ولكن قد نقول:

---

(1) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون» رقم (١٣٠٣)، ومسلم كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان، رقم (٢٣١٥).

كيف يشكر الإنسان على مصيبة ألمت به، وأثرت عليـه؟ فنقـول: نعـم، يشكر الله؛ لأن هـذه المـصائب عقوبـات معجلـة عـلى ذنـوب فعلهـا، فيشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عـلى أن عجـل عقوبـة هـذه الـذنوب في الدنيا، قبل أن تكون في الآخرة، وأيضًا: هو يشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما يحصل له من ثواب هذه المصيبة، فيكون شكر الله منه على هذه المصيبة، من وجهين:

الوجه الأول: أن عقوبته عجلـت، والعقوبـة في الـدنيا أهـون مـن عقوبة الآخرة.

والوجه الثاني: أن الله ـ تعالى ـ يثيبه على هذه المصيبة أكثر مما يتوقع.

فهذه أحوال من أصيب بمصيبة.

٧ـ أن من تمام الصبر، تفويض الأمر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عند المصائب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾؛ ولهذا ينبغي لمن أصيب بمصيبة أن يسترجع فيقول: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾، وأن يقول ما جاءت به السنة: «اللهم، أْجُرْني في مصيبتي، وأَخْلِفْ لي خيرًا منها»؛ فإن من قال ذلك، آجره الله في مصيبته، وأَخْلَف له خيرًا منها، قالت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ: إنه حين مات زوجها أبو سلمة ـ رضي الله عنه ـ وهو من أحب النـاس إليـهـا ـ قالت ما ذكره النبي ﷺ قالت: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾، اللهم، أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيـرًا منهـا، فكانت تقـول في نفسهـا: من خيــر من أبي سلمة،

فإذا برسول الله ﷺ يتزوجها بعد أبي سلمة، فأعطاها الله سبحانه خيرًا مما أخذ منها[1].

٨ - أن العباد لله - عز وجل -، خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ فهو يفعل فيهم ما يشاء.

٩ - الإيمان باليوم الآخر؛ لقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

أما قوله - تعالى -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، فمن فوائدها:

١٠ - أن الله - تعالى - يعطي الصابرين هذا الثواب الجزيل.

١١ - علو منزلة هؤلاء الصابرين؛ حيث قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة للبعيد؛ وذلك لعلو مرتبتهم.

١٢ - بيان الثواب العظيم والجزيل للصابرين؛ حيث نالوا من الله - سبحانه وتعالى - الثناء عليهم في الملإ الأعلى؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

١٣ - بيان ضعف القول بأن الصلاة من الله هي: الرحمة؛ وذلك لأن الله - تعالى - عطف الرحمة على الصلوات، والعطف يقتضي المغايرة؛ فدل ذلك على أن الصلوات غير الرحمة، وكما أسلفنا أن أبا

---

(١) رواه مسلم كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨).

العالية ـ رحمه الله ـ قال: «إن صلاة الله على عبده، ثناؤه عليه في الملإ الأعلى».

١٤- أن هؤلاء الصابرين موفقون للهداية؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

نسأل الله أن يجعلنا من الصابرين على البلاء، الشاكرين على الرخاء، المهتدين بهداية الله، إنه جواد كريم.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

الصفا والمروة: جبلان معروفان، شرقي الكعبة المشرفة، ويسمى الأول: جبل أبي قبيس، جبل كبير من جهة غزة، وعليه بيوت الآن!! والثاني: جبل المروة، وكان عليهما صنمان لقريش، فتحرج الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من أن يطوفوا بهما، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

والشعائر: جمع شعيرة، وهي الخصلة المعظمة في كتاب الله ـ عز وجل ـ؛كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ «أو» هنا: للتنويع، يعني: أن من

حج، أو اعتمر، فليسع بينهما: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، ويستفاد من قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أن الإنسان مأمور بالطواف بهما؛ فإن شعائر الله معظمة، ومن تعظيمها أن يطوف المسلم بين الصفا والمروة.

و«الجناح» هنا بمعنى: الإثم، و﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، أي: بينهما.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، أي: من فعل طاعةً؛ فإن الطاعة خير.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يشكر هذا الفاعل، فيعطيه جزاءه: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ـ أن الصفا والمروة من شعائر الله، ويتفرع على ذلك أن الطواف بهما قربة إلى الله ـ عز وجل ـ.

٢ـ أن السعي بين الصفا والمروة، من شعائر الحج والعمرة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾.

أن نفي الجناح لا يمنع أن يكون الشيء مأمورًا به؛ لأنه قد ينفى الشيء، خوفًا من توهمه، مع بقاء أصل المشروعية.

٤ـ أنه لا بد أن يستوعب الإنسان ما بين الصفا والمروة؛ لقوله: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. ولا يمكن تحقق الطواف بهما، إلا إذا استوعب ما بينهما؛ ولهذا قال العلماء: «لا بد أن يستوعب الساعي، ما بين الصفا والمروة». وفي الوقت الحاضر علامة الاستيعاب، هي: منتهى الشبك ـ

الممر ـ الذي جعل للعربات، فإنه بانتهائه يكون انتهاء المسعى القديم.

٤ـ الحث على فعل الطاعة؛ لقول الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٥ـ إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: «الشاكر» و«العلـيم» وإثبات ما تضمناه من صفة، وهي: «الشكر» و«العلم»، ولكن لا شكر إلا على فعل محمود؛ فالله ـ تعالى ـ يشكر من فعل ما يقربه إليه ويرضيه.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ـ١٦٠].

هاتان الآيتان فيمن آتاه الله علمًا فكتمه، توعده الله ـ تعالى ـ بهذا الوعيد الشديد: أن الله يلعنه، ويلعنه ـ أيضًا ـ اللاعنون؛ وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة:١٦١]، إلا أن الله ـ تعالى ـ استثنى من تاب وأصلح وبيـن، ووعد من قام بذلك، أن الله يتوب عليه، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو التواب الرحيم.

في هاتين الآيتين الكريمتين من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ ـ تحريم كتم ما أنزل الله من البينات والهدى، وأنه من كبائر

الذنوب؛ لأن الكاتم مستحق للعنة الله ولعنة اللاعنين.

٢ـ علو الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾،

وعلو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين:

علو ذاتي: بمعنى أنه ـ تعالى ـ بذاته فوق كل شيء.

وعلو معنوي: بمعنى أن صفاته كلها عليا، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠].

٣ـ أن ما أنزله الله ـ عز وجل ـ بيان للناس وهدًى؛ وهذا كقوله ـ تعالى ـ في وصف القرآن: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

٤ـ أن ما نزل من عند الله، فإنه هدًى يهتدي به كل من شاء الله ـ تعالى ـ هدايته؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾.

٥ـ أن الله ـ تعالى ـ بين للناس في الكتب ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم، فما من شيء يحتاجه العباد في عبادة الله، إلا بينه ـ عز وجل ـ، وما من شيء يحتاجونه في المعاملات بينهم، إلا بينه الله ـ عز وجل ـ، حتى يكون الناس على بصيرة من أمرهم، وحتى تقوم عليهم الحجة؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

٦ـ أن أولئك الكاتمين يستحقون اللعنة؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾، ويترتب على ثبوت اللعنة لهؤلاء، أنه يجب على

أهل العلم أن يبينوا للناس ما أنزل الله ـ تعالى ـ من العلم، ولا يكتمـوا شيئًا منه؛ مداهنةً، أو محاباةً لبعض الناس.

٧ـ **ومن الفوائد والحكم في الآية الثانية**، وهي قوله ـ تعـالى ـ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٠]، ما يلي:

٨ـ أن من تاب مـن ذنـب، فـإن الله ـ تعـالى ـ يتـوب عليـه، وهـذا مستفيض مشهور في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، **ولكن التوبة لا بد لها من شروط:**

الشرط الأول: أن تكون بإخلاص، بألا يحمل الإنسان عـلى التوبـة إلا وجه الله، ورجاء ثوابه، لا يريد بذلك جاهًا، ولا رياسةً، ولا مـدحًا من الناس.

الشرط الثاني: أن يندم على ما جرى عليه من المعصية، سواء كانـت المعصية بترك واجب، أم بفعل محرم.

الشرط الثالث: أن يقلع عما هو عليه من الذنب، فـإن كـان إهمـالاً لواجب، قام به، أي: بالواجب، وإن كان فعلاً لمحـرم، نـزع عنـه، وإذا كان حقا لآدمي، فإنه لابد أن يستحله، أو يؤديه حقه.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعـود في المـستقبل، فـإن قـال: إنـه تائب، ولكن من نيته أن يعود، فإن هذه التوبة ليست بصحيحة.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه، وهي

بالنسبة لكل فرد، تنتهي بحضور أجله، وبالنسبة لعموم الناس، تنتهي بطلوع الشمس من مغربها، ودليل ذلك في القرآن الكريم قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [النساء:١٨]، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وذلك يعني: طلوع الشمس من مغربها، فإنها إذا طلعت من مغربها، آمن الناس كلهم، ولكنه: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾.

٩- أنه لابد في التوبة من الإصلاح؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾، فإذا ترتب على فعل المعصية فساد شيء من الأشياء، فلابد أن يقوم التائب بإصلاح هذا ما أمكنه.

١٠- أن من كانت معصيته بذنب، فلا بد أن يأتي في التوبة بما يقابل هذا الذنب، وهؤلاء كانت معصيتهم بالكتمان ـ كتمان ما أنزل الله ـ فلهذا لا بد أن يبينوا؛ ولهذا قال: ﴿وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ﴾، فإن قال: إنه تائب عن كتمان ما أنزل الله، ولكنه لم يبين؟ فنقول: إن هذه التوبة لا تنفعه؛ لأنه لا بد أن يصلح الإنسان ما فسد على يديه بمعصيته، فالكاتم لا يمكن أن تقبل توبته وتكون صحيحة، إلا إذا بين.

١١- أن من تاب من ذنب، فإن الله يتوب عليه، وعد من الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾، وهذا عام في كل

زمان، فمن تاب ـ من أي ذنب كان ـ فإن الله يتوب عليه؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣].

١٢ـ إثبات اسمين من أسماء الله هما: «التواب»، و«الرحيم».

فـ«التواب» هو الذي يوفق للتوبة، ويقبل التوبة؛ والدليل على ذلك: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال ـ في الذين خلفوا في غزوة تبوك ـ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:١١٨]، فقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: قدر لهم التوبة حتى قاموا بها؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾.

أما المعنى الثاني للتوبة فهو: قبول التوبة، ودليله قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى:٣٥].

وأما «الرحيم»، فهو: ذو الرحمة، ورحمة الله ـ تعالى ـ نوعان:

عامة، تشمل كل الخلق، حتى الكفار فإنها تشملهم.

وخاصة: بالمؤمنين، لا تشمل الكافرين؛ ودليلها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٣].

* * *

ثم قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [البقرة:١٦١ـ١٦٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: كفروا بالله، وبما يجب الإيمان به.

والكفر نوعان: نوع جحود، ونوع استكبار.

فالجحود: يتعلق بالأخبار.

والاستكبار: يتعلق بالأوامر والنواهي.

فمن كذب خبرًا من أخبار الله أو أخبار رسوله الثابتة عنه ﷺ، فإنه يكون كافرًا، وكفره هذا كفر جحود وتكذيب، ومن صدق، ولكن استكبر، فإنه يكون كافرًا، إذا استكبر عن جميع ما أمر الله به، وكفره هذا كفر استكبار، ومنه كفر إبليس؛ حيث قال الله له مع جملة الملائكة: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٣٤].

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، يعني: استمروا في كفرهم حتى الموت.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ كل يلعنهم ـ والعياذ بالله ـ كل يتبرأ منهم، بل هم أنفسهم في النار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ﴾ [الأعراف:٣٨].

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾، أي: في اللعنة؛ وهي الطرد والإبعاد من رحمة الله، هم خالدون فيها، والعياذ بالله.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لا يخفف عنهم؛ أي: بقلة ألمهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يمهلون بتأخير العذاب عـنهم، بـل العذاب يعجل ـ والعياذ بالله ـ، ويؤاخذون على ما فعلوه.

في هذه الآية من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ أن الكافر لا يستحق الوعيد إلا إذا مات على الكفر؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، هذه هي القاعدة العامة في الشريعة: أن الإنسان لا يعذب عذاب الكفرة، إلا إذا مات على الكفر، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

٢ـ خلود أهل النار في لعنة الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾، وقد وردت آيات ثلاث تدل على أن عذاب النار مؤبد، ففي سورة النساء قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨ـ١٦٩]، وفي سورة الأحزاب قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤ـ٦٥]، وفي سورة الجن قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]؛ ولهذا لا يعرف عن أهل السنة وأئمة السلف، إلا هذا القول، أي: القول بأن جهنم يخلد فيها أصحابها أبد الآبدين ـ والعياذ بالله.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

والخطاب هنا لجميع البشر: يخبر الله ـ تعالى ـ أنه إله واحد، ويؤكد ذلك بقوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا إله حق إلا هو، والإله بمعنى: المعبود حبا وتعظيمًا.

ويبين ـ عز وجل ـ بعد ذلك أنه الرحمن الرحيم، وفي هذا ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أن ألوهيته وربوبيته مبنية على الرحمة بعباده؛ ولهذا ترى ما أمر الله به أمرًا ليس بشاق على الناس، بل إذا وجدت المشقة، وجد التسهيل؛ لقول النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر»[١]، وقوله ﷺ وهو يبعث البعوث: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»[٢]، وقوله ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»[٣].

في هذه الآية من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ إثبات ألوهية الله، ووحدانيته في هذه الألوهية؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

٢ـ أنه ينبغي في الكلام الهام أن يؤكد بما يؤيده؛ لقوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

(٢) رواه البخاري كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢١٧).

(٣) رواه البخاري كتاب التقصير، باب إذا لم يطق قاعدًا صَلَّى على جنب، رقم (١٠٦٦).

٣ـ إثبات اسمين من أسماء الله، هما: «الرحمن» و«الرحيم»، وإثبات ما تضمناه من صفة، وإذا ذكر هذان الاسمان جميعًا، صار الأول للصفة، والثاني للفعل، وإن أفرد أحدهما شمل الآخر، وعلى هذا فيكون: «الرحمن»، أي: ذو الرحمة الواسعة، و«الرحيم»، أي: الموصل رحمته لعباده، وفي «الرحيم» إثبات أن رحمة الله ـ عز وجل ـ تتعدى للمرحوم؛ ولهذا قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ [الكهف:٥٨].

٤ـ إثبات وحدانية الله ـ تعالى ـ في الألوهية؛ لقوله: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

٥ـ الرد على المشركين الذي يعبدون مع الله إلهًا آخر، والعجب أنهم يعبدون مع الله إلهًا آخر، ويقولون في حق النبي ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، فيقال: إن العجاب كل العجاب، ما أنتم عليه من الشرك، كيف تعبدون مع الله غيره، وهو خالق السموات والأرض، المتفرد بخلقهما؟!

٦ـ تأكيد الجملة الخبرية بما يؤيدها، لا سيما في الأمور الهامة، ولا يعد هذا تكرارًا في الكلام؛ لقوله: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٧ـ الرد على النصارى المثلثين،الذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

هذه جمل تدل على آيات عظيمة، لكن لا ينتفع بهذا إلا أهل العقل؛ لقوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالأول قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، في خلق السموات والأرض آيات عظيمة ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كيف جعل الأرض على هذا الوجه، وأرساها بالجبال؟! وجعل السماء على هذا الوجه، وزينها بالنجوم؟! وكيف تكون هذه الأرض على ما فيها من سعة عظيمة، تكون ملجأً للخائفين، ومزدرعًا للحارثين؟! وكذلك السماء بأفلاكها ونجومها، وشمسها وقمرها، كلها إذا تأملها الإنسان، وجد فيها آيات عظيمة.

وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أيضًا فيه ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. اختلاف الليل والنهار: بالطول والقصر، كذلك ـ أيضًا ـ بما يحدث فيهما من حوادث، وحروب، وأمن، ورخاء، وشدة، وقحط، وغيث، وغير ذلك.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ وهذا ـ أيضًا ـ من

الآيات ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، الفلك: هي السفينة، تجري في البحر، في هذه المياه العميقة الواسعة التي تتلاطم بـالأمواج، وهـذه الفلـك تجـري في البحر بما ينفـع النـاس: بحمـل بنـي آدم مـن جهـة إلى جهـة، وتحمـل الأرزاق من بلد إلى بلد، وغير ذلك مـن الآيـات العظيمـة في ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾.

وقولـــــه: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ هذا ـ أيضًا ـ من آيات الله؛ فهذا المطر الذي ينـزل عـلى الأرض القاحلة الميتة الهامدة، فتصبح الأرض مخضرةً، كل هذا مـن آيـات الله ـ عز وجل ـ، وقـول الله ـ عـز وجـل ـ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾، يعنـي: في هـذا ـ أيـضًا ـ آيـات لقـوم يعقلون، ويريد بالماء الذي ينزل من السماء، يريـد بـه ـ تبـارك وتعـالى ـ المطر، يحيي به الله الأرض بعد موتها، فتجد الأرض هامدةً، يابسة، فإذا بها مخضرة تهتز، في هذا آيات على كمال قـدرة الله ـ عـز وجـل ـ، وعـلى قدرته على إحياء الموتى؛ كما يستدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ذلـك في آيات كثيرة من القرآن.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾، أي: نشر في الأرض من كل دابة من الدواب الكثيرة، التي لا يمكن تعداد أجناسها، فضلاً عن أفرادها، وهذه الدواب كلها رزقها على الله ـ عز وجل ـ؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي

كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦].

والدابة هنا: اسم لكل ما يدب على الأرض، من صغير وكبير، وإنسان وحيوان.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾، يعني: تحريفها من جنوب إلى شمال، ومن شرق إلى غرب، وهناك تصريف آخر: من حارة إلى باردة، وتصريف ثالث: من مثيرة للسحاب، إلى ملقحة له، كل هذا التصريف فيه آيات لقوم يعقلون؛ فإن هذا التصريف للرياح، لو اجتمعت الخليقة كلها على أن تأتي بمثله، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لو جمعت جميع المكائن النفاثات، وبكل قواها، ما استطعت أن تأتي بأدنى ريح من هذه الرياح.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا السحاب الذي ينسحب في الجو حاملاً المياه العظيمة، بل قد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ [النور:٤٣]، هذا السحاب المسخر المذلل بأمر الله ـ تعالى ـ يوجهه حيث شاء.

في هذا كله يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم عندهم عقول، يستدلون بهذه الأشياء وغيرها، على قدرة الله، تبارك وتعالى.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ـ ما أشار الله إليه في آخرها: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾.

٢ـ الإشارة إلى خلق السموات والأرض، وأن خالقهما ـ جل وعلا ـ له من القدرة العظيمة ما يبهر العقول، ولقد بين الله ـ تعالى ـ: أنه خلقها في ستة أيام، وما مسه من لغوب، جل وعلا[1].

٣ـ العبرة باختلاف الليل والنهار على الوجه الذي شرحناه فيما سبق. وفيها ـ أيضًا ـ نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذا الاختلاف، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى ذلك في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

٤ـ بيان نعمة الله ـ تعالى ـ بالفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، حيث تنقل الناس من بر إلى بر، وتنقل الأطعمة وما يحتاجه الناس، حتى ينتفع الصادر منهم ذلك، والوارد إليهم.

٥ـ تمام قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ بإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به.

٦ـ بيان حكمة الله حيث جعل هذا المطر ينزل من علو، ليشمل ما ارتفع من الأرض، وما نزل منها.

٧ـ بيان إحاطة علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل شيء في هذه

---

(١) سورة (ق)، آية: ٣٨.

الأرض: من الدواب الصغيرة والكبيرة؛ حيث إن الله ـ تعالى ـ نشر في هذه الأرض هذه الدواب، حتى إن الإنسان لينزل أحيانًا في أرض قفر ليس حولها أحد، فإذا به يرى النمل، ويرى غيرها مما خلق الله ـ عز وجل ـ.

٨ـ بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ بتصريف الرياح، وهذا التصريف له حكم عظيمة؛ لأنه من فعل الله ـ تعالى ـ وكل فعل من أفعال الله، فإنه مقرون بالحكمة البالغة؛ لأن من أسماء الله: «الحكيم»، وهو: المحكم، المتقن، لكل ما صنع، ولكل ما شرع.

٩ـ أن هذا السحاب مسخر، أي: مذلل، يصرفه الله ـ تعالى ـ حيث يشاء، ولا أدل على ذلك من استسقاء النبي ﷺ في خطبة الجمعة، حيث جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: «اللهم، أغثنا ـ ثلاث مرات ـ فما نزل من المنبر إلا والمطر يتحدر من لحيته»[1].

وكذلك قصة الرجل صاحب الحديقة: حين سمع رجل آخر صوتًا من السحاب يقول: اسق حديقة فلان، فنزل المطر في حدة، ثم جرى في شرج منها حتى أروى تلك الحديقة، فجاء الذي سمع الصوت إلى صاحب الحديقة يسأله: من أنت؟ حتى ذكر له الاسم

---

(١) رواه البخاري كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، رقم (١٠١٣)، ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء رقم (٨٩٧).

الذي سمعه من السماء، فلما سأله صاحب الحديقة: ما شأنك؟ أخبره بأنه سمع صوتًا من السحاب، يقول: اسق حديقة فلان، ثم سأله: ماذا كنت تصنع في هذه الحديقة؟ فأخبره أنه يجعلها أثلاثًا: يجعل ثلثًا للقيام عليها، وثلثًا لنفقته وعياله، وثلثًا يتصدق به(١).

١٠ـ فضيلة العقل، وأن العقل يهتدي به صاحبه إلى معرفة آيات الله ـ عز وجل ـ، وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا يعقل هذه الأمثال، وهذه الآيات إلا العالمون، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

❋ ❋ ❋

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:١٦٥].

في هذه الآية يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن من الناس ـ يعني: أن بعض الناس ـ يتخذ من دون الله أندادًا، أي: نظراء وأمثالاً، يسوونهم بالله ـ عز وجل ـ، في المحبة؛ فيحبونهم كحب الله، ويشير بهذا ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أولئك العابدين لأصنامهم، الذين يحبونها كما يحبون الله ـ عز وجل ـ، فيجعلونها شريكةً مع الله في المحبة.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾، وهذا كالاستثناء

---

(١) رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين، رقم (٢٩٨٤).

الذي يخرج المؤمنين الذين يحبون الله ـ عز وجل ـ، أشد حبا لله من هؤلاء لأصنامهم، أو من هؤلاء لله؛ يعني: أن المؤمنين يحبون الله، ويتعلقون به أشد حبا وتعلقًا من هؤلاء بأصنامهم؛ لأن محبة المؤمنين لله ـ عز وجل ـ، محبة تقتضيها الفطرة والشريعة، أما محبة هؤلاء لأصنامهم كحب الله، فهي محبة لا ترتضيها الشريعة، ولا تقتضيها الفطرة.

ويجوز أن يكون المعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، أي: أشد حبا لله من هؤلاء، وذلك لأن محبة المؤمنين لله، محبة خالصة لا يشركها محبة أحد من الخلق، ومحبة هؤلاء لله ـ تعالى ـ محبة فيها شرك، بحيث يحبون هذه الأصنام كمحبة الله، وإذا كانت الآية تحتمل المعنيين، وأحدهما لا ينافي الآخر، فإن الواجب حملها على المعنيين جميعًا؛ لأن ذلك أعم وأشمل.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، يعني: ولو يرى هؤلاء الذين ظلموا باتخاذهم أندادًا يحبونهم كحب الله.

﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: يشاهدونه، ويعاينونه يوم القيامة.

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وأن أصنامهم ليس لها قوة ولا حول، بل هي أضعف وأهون من أن يكون لها قوة، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا

يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣]، وهنا يقول: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وأنه لا قوة لأصنامهم، فتنقذهم من عذاب الله.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، يعني: ويرون أن الله شديد العقاب.

يعني: لو رأوا ذلك، لتبدلت أحـوالهم، ولعرفـوا أنهـم عـلى خطـأ وضلال.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ تحريم تشريك المحبة لله ـ تعالى ـ مع غيره، بحيث يتخذ أصـنامًا يحبها كحب الله، سواء كانت هذه الأصنام مـن الـشجر، أو الحجـر، أو البشر، فمن أحب أحدًا كمحبة الله ـ عز وجل ـ، فإنه قد أشرك مع الله ـ تعالى ـ في المحبة، ويسمى هذا النوع من الشرك: شرك المحبة.

٢ـ أنه يجب إخـلاص المحبـة لله ـ عـز وجـل ـ، والمـراد بهـا: محبـة التذلل والخضوع والعبادة، وأما المحبة الطبيعية التي تكون من الإنسان وبيـن ما يلائمه، من بشر، أو مأكول، أو ملبوس، أو مركوب، فهذه لا تعلق لها بهذا الباب، وكذلك محبة الإنسان لأبنائه، وبناتـه، وأصـحابه، لا تدخل في هذا الباب؛ لأنها ليست محبةً مع الله، وهي من نوع آخر.

٣ـ شدة محبة المؤمنين لله ـ عز وجل ـ، وأنها محبة كاملة، أكمـل مـن محبة هؤلاء لأصنامهم، ومحبة خالصة، وأخلـص مـن محبـة هـؤلاء لله ـ عز وجل ـ.

٤- الوعيد الشديد لهؤلاء الذين جعلوا لله شريكًا في المحبة، يؤخذ من قوله ـ تعالى ـ:﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

٥- أن هؤلاء الذين جعلوا لله شريكًا في المحبة كانوا ظالمين، أي: ظالمين لأنفسهم، حيث انتقصوها حقها، وهكذا كل عاص لله، فإنه ظالم لنفسه؛ لأن نفسه أمانة عنده، يجب أن يرعاها حق رعايتها، وألا يوقعها في المهالك، فتهلك؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في آيات متعددة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦].

٦- إثبات أن القوة لله ـ تعالى ـ جميعًا، فجميع القوى لله ـ عز وجل ـ، حتى ما يجعله، أو يخلقه في بعض المخلوقات من القوى، فإنه لله، ملكه، لو شاء لسلب ذا القوة قوته؛ ولهذا يقول المؤمن: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

٧- التحذير من عذاب الله؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ في آيات متعددة، أن شدة عذابه إنما تكون لمن يستحقه من الكفار والعتاة، ولكنه مع ذلك غفور رحيم؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال ـ

تعالى ـ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٩٨].

٨ـ أن المحبة تتفاضل، فيحب الإنسان شيئًا أكثر مما يحب الشيء الآخر. وإذا كانت محبة الله ـ تعالى ـ من الإيمان، ومن أفضل العبادات، وكانت تتفاضل، فهو دليل على أن الإيمان يتفاضل، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، فقد صرح أهل السنة والجماعة بأن الإيمان يتفاضل، وأنه يزيد وينقص، وأن من أسباب زيادته: طاعة الله ـ عز وجل ـ، ومن أسباب نقصانه: معصية الله ـ عز وجل ـ، بل إن الإيمان يزيد وينقص حتى في العلم الحاصل في القلب، فإن العلم الحاصل في القلب يتفاوت بحسب الطرق الموصلة إليه، فالإنسان يعلم بخبر الاثنين أكثر مما يعلم بخبر الواحد، وكلما تعدد المخبرون، ازداد الإنسان يقينًا.

٩ـ أن يحذر الإنسان مما وقع لهؤلاء الذين جعلوا لله شريكًا في المحبة، فأحبوا الأنداد كما يحبون الله، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعًا من أحبابه وأوليائه، وأن يهب لنا منه رحمةً، إنه هو الوهاب.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧].

هذه الآية: آية البراءة، أي: براءة أهل الشرك ممن اتخذوهم أندادًا يوم القيامة، وكذلك براءة المتبوعين من أتباعهم يوم القيامة.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾، «إذ»، هذه مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكر إذ تبرأ الذين اتبعوا، وهم: السادة القادة الذين يقودون الناس، سواء قادوهم باسم الشرع، وهم محرفون للشرائع؛ كأئمة اليهود والنصارى ونحوهم، أو قادوهم باسم الإمرة والسلطة؛ كأمراء السوء.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾: يتبرؤون منهم، وذلك أن الذين اتبعوا يحتجون على الذين اتبعوا، ولكن الذين اتبعوا يتبرؤون منهم حين يرون العذاب.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، يعني: أن المتبعين رأوا العذاب، وأنهم على ضلال.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾؛ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: المودة؛ يعني: أن المحاب التي كانت بينهم وبين هؤلاء المتبوعين، تقطعت؛ لأن هؤلاء الأتباع يظنون أن هؤلاء المتبوعين ينفعونهم يوم القيامة، ولكنهم لا ينفعونهم، بل يتبرؤون منهم، وحينئذ يكون عليهم اتباعهم حسرةً؛ لأنهم يندمون حين لا ينفع الندم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾: «لو»، هنا: للتمني، يعني: قالوا: ليت لنا كرةً، أي: رجوعًا إلى

الدنيا، فنتبرأ منهم، كما تبرؤوا منا في الآخرة، ولكن أنى لهم ذلك، بـل لا يزيدهم هذا إلا حسرةً؛ ولهذا قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: هم من أهلهـا الذين لا يخرجون منها.

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ التحذير من اتبـاع أهـل الـسوء؛ لأن هـؤلاء المتبـوعين قـادوا أتباعهم إلى ما وصلوا إليـه مـن العـذاب والحـسرات، ودخـول النـار دخولاً لا يخرجون منها.

٢ـ أن كل من كان بينه وبين شخص علاقة لغير الله، فإنه سوف يندم على هذه العلاقة، ويتبرأ كل من الآخر؛ ويشهد لهذا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

٣ـ أن كل سبب ليس مبنيا على أصل صحيح، فإنه سوف ينقطـع، ولا يوصل صاحبه إلى مقصوده؛ لقولـه ـ تعـالى ـ هنـا: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

٤ـ تتابع الحسرات عـلى هـؤلاء التـابعين، الـذين ضـلوا بـضلال متبـــوعيهم؛ لقولــــه: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾، والحسرة: شدة الندم.

٥ـ بيان أن هؤلاء المتبوعين ليسوا يدعون إلى هدًى وصلاح، وإنـما

يدعون إلى ضلال وفساد، ووجه ذلك: أن الله أخبر بأن هؤلاء التابعين ليسوا بخارجين من النار، فإذا كان التابعون لا يخرجون من النار، فالمتبوعون من باب أولى.

٦ـ الإشارة إلى أن النار مؤبدة؛ لأنهم إذا كانوا لا يخرجون منها ـ وقد ذكر الله ـ تعالى ـ في آيات ثلاث أن أصحاب النار خالدون فيها أبدًا ـ دل ذلك على أن النار لا تفنى؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٨ـ١٦٩].

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعم المؤمنين والكافرين.

﴿كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ الأمر هنا للإباحة، أي: كلوا مما أخرج الله من الأرض حال كونه حلالاً لكم طيبًا، وليس بخبيث، والإشارة في قوله: ﴿طَيِّبًا﴾ إلى أنه يجب على الإنسان أن يكون مكسبه على وجه مباح حلال؛ لأن الكسب المحرم خبيث.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ﴾، أي: لا تتبعوا الشيطان في خطواته، كلما خطا خطوةً، مشيتم عليها؛ فإنه لا يجركم إلا إلى النار، وبئس القرار؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ومن المعلوم أن

عدوك إذا خطا واتبعته، سيوقعك في المهالك.

ثم بين - تبارك وتعالى - ماذا يدعو إليه الشيطان، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾: بالسوء، أي: بالعمل السيئ، وهو ما دون الفحشاء، والفحشاء: العمل الكبير الذي يستفحش في العقول والشرائع.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: وأن تفتروا على الله كذبًا، إما في ذاته، أو في أسمائه، أو في صفاته، أو في أحكامه، أو في أفعاله؛ فإن الشيطان يدعو إلى أن يقول الإنسان على ربه ما لا يعلم، وهذا من المحرمات في جميع الشرائع.

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ وجوب العناية بما ذكر الله - تعالى - فيها من أحكام، ووجه ذلك أن الله - تعالى - صدرها بالنداء، والتصدير بالنداء يدل على أهمية ما وجه إلى المنادى.

٢ـ أن الخطاب في الأكل مما في الأرض يعم المؤمنين والكافرين؛ لقوله - تعالى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وكلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عامة، لكن جاء في آيات أخرى توجيه ذلك للمؤمنين، فقال - تعالى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]، فهل نخصص عموم هذه الآية بالآية الأخرى، ونقول: إن المؤمنين يؤذن لهم بالأكل مما في الأرض، وأما

الكافرون: فإنه لا يحل لهم الأكل مما في الأرض، بل سيحاسبون على ذلك، أو نقول: إن هذه الآية عامة، وأن ما في الأرض يأكل منه الكافرون والمؤمنون، على أنه حلال لا يحاسب عليه الكافر؟ ولكن المعنى الأول أصح، وأن المراد بالناس هنا إما عموم الناس، وخصص بالمؤمنين، أو أن المراد بها الخصوص؛ يعني: عبر بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، والمراد بها:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ويدل لهذا قول الله ـ تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٣]، ومفهوم قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أن غير المؤمنين العاملين للصالحات، عليهم جناح فيما طعموا، ويؤيد ذلك ـ أيضًا ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [الأعراف:٣٢]، وعلى هذا فيكون ما في الأرض حلالاً للمؤمنين، ليس فيه تبعة عليهم، وحلالًا للكافرين، بمعنى: أننا لا نمنعهم من تناوله، ولكن عليهم تبعة، وأنهم سيحاسبون عليه يوم القيامة، فيقال لهم: لم أكلتم نعمة الله وكفرتم به؟

٣ـ أن كل ما في الأرض حلال لنا، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[البقرة:٢٩]، وعلى هذا فيكون الأصل فيما في الأرض أنه حل لنا، فمن ادعى تحريم شيء مما في الأرض، قلنا له: ائت بالدليل، فإن جاء بالدليل، وإلا فالأصل الحل،

ولا فرق في ذلك بين الحيوان والجماد، والأشجار والثمار، وغيرها، والأصل فيها الحل، حتى يقوم دليل على المنع، والحيوانات كلها، الأصل فيها: الحل حتى يقوم دليل على المنع.

٤- الإشارة إلى أنه يجب أن يكون كسب الإنسان لهذا الحلال على وجه طيب، والطيب هنا ضد الخبيث، والخبيث: كل ما يحرم من تصرف؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث»[1]، فيستفاد من هذا أنه يجب أن يكون ما تأكله مما في الأرض من الحلال، مكتسبًا على وجه مشروع.

ويتفرع على هذه القاعدة: أنه لا يحل للإنسان ما اكتسب بوجه محرم، فمن اكتسب مالاً بالغش، أو الكذب، أو الربا، أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يحل له أكله، بل هو حرام عليه، لكن من جاءه موعظة من الله وانتهى وتاب، فقد قال الله - تعالى - في الربا: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٧٥].

٥- تحريم اتباع خطوات الشيطان، فإن قال قائل: بأي طريق نعلم خطوات الشيطان؟ قلنا: بما ذكر الله - عز وجل - في قوله: ﴿ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ [النور:٢١]، فإذا هممت بمعصية صغيرة، فذلك من أمر الشيطان، وإن هممت بمعصية كبيرة

---

(١) رواه مسلم كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب ...، رقم (١٥٦٨).

فاحشة، فذلك ـ أيضًا ـ من أمر الشيطان، فكل معصية تهم بها، فإنها من أمر الشيطان، فإن اتبعت هواك فيها، فقد اتبعت خطوات الشيطان.

٦- التحذير من الشيطان؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، والتحذير من الشيطان يتفرع عنه التحذير من أولياء الشيطان، الذين يأمرون بالفحشاء والمنكر؛ فإن هؤلاء هم أولياؤه، فالواجب على المسلم الحذر من الشيطان؛ لأنه عدو، والحذر من أولياء الشيطان؛ لأنهم ـ أيضًا ـ عدو.

ويدل لهذا قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]، وقوله ـ تعالى ـ في المنافقين: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]، فالواجب الحذر من الشيطان وأتباعه؛ لأنهم أعداء لنا.

٧ـ بيان ما يأمر به الشيطان، وهو: أنه يأمر بالسوء، وهو: المعاصي الصغار، والفحشاء، وهي: المعاصي الكبار.

٨ـ تحريم القول على الله بلا علم، وهذا يشمل تحريم القول عليه في ذاته، وتحريم القول عليه في أسمائه، وتحريم القول عليه في صفاته، وتحريم القول عليه في أحكامه الكونية والشرعية، وذلك من قوله ـ

تعالى ـ: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فإن هذا يـشمل القـول على الله في ذاته، وفي أسمائه، وصفاته، وأحكامه الكونية والشرعية:

أما القول على الله في ذاته: فأن يقول قائل: إن ذات الله ـ تعالى ـ، مثل ذواتنا، يعني: مكونةً من أجزاء، ينفصل بعضها عن بعض، ويبقى بعضها دون بعض، وما أشبه ذلك، وهذا محرم نفاه الله ـ تعالى ـ عن نفسه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ونهى ـ سبحانه وتعالى ـ أن نضرب له الأمثال، في قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤].

أما القول على الله في أسمائه: فيشمل أن يثبت الإنسان لله أسماءً لم يسم بها نفسه، كما سماه النصارى: «أبًا»، فهم يعنون بالأب، يعني: الرب ـ عز وجل ـ؛ لأنهم يعتقدون أن المسيح ابن الله، فيكون قولاً على الله بلا علم، ويشمل القول على الله في أسمائه ـ أيضًا ـ أن ينكر شيئًا من أسمائه، كما فعل أهل الجاهلية، حين قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠]، فأنكروا أن يكون «الرحمن» من أسمائه، وهذا قول على الله بلا علم، بل بما يعلم أن الأمر بخلافه.

ومن القول على الله بلا علم في صفاته: أن نقول: إن صفات الله ـ تعالى ـ كصفاتنا، كما قاله أهل التمثيل، فقالوا: إن كل ما ذكر الله من أوصافه، فإنه مماثل لصفاتنا؛ فالوجه، واليد، والعيـن، كلها مثل ما لنا من ذلك، وقد كذبوا فيما ادعوا، وخالفوا المسموع والمعقول فإن الله ـ

تعالى ـ يقول ـ وهو أعلم بنفسه ـ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

وينهانا ـ سبحانه وتعالى ـ أن نضرب له الأمثال، وأن ذلك لا يمكن؛ لأننا لا نعلم، والله ـ تعالى ـ يعلم أنه لا مثيل له.

ويشمل القول على الله بلا علم في صفاته ـ أيضًا ـ: إنكار الصفات، حيث زعم أهل التعطيل، الذين أنكروا أن يكون لله صفات، أو أثبتوا بعض الصفات وأنكروا بعضها بحجة أن العقل يمنع من ثبوتها لله، فقالوا على الله في ذلك ما لا يعلمون؛ لأننا نقول لهم: أين العقل الذي يمنع أن يكون الله متصفًا بصفات الكمال؟! كل عقل يمنع أن يكون الله متصفًا بصفات الكمال، فهو عقل فاسد، وعقل مريج، وإلا فإن العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات ـ ونعني بالشهوات: الإرادات السيئة ـ لا يمكن أن ينكر ما أثبت الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

ومن القول على الله بلا علم، في أحكامه القدرية: أن نثبت لشيء من الأشياء سببيةً، دون علم من الله، فيقول القائل مثلاً: إذا فعل الإنسان كذا، حدث كذا، وهو لم يعلم ذلك، لا بنص، ولا بتجربة، فيكون قد قال على الله ما لا يعلم، ومن ذلك ما يفعله بعض المشعوذين، بأن يعلق التمائم الشركية على المرضى الذين فيهم المرض في أجسامهم، أو في نفوسهم، ويدعي أن ذلك يزيل هذا المرض، دون

علم من شرع، ولا علم من واقع، فيكون قد قـال عـلى الله في أحكامـه القدرية ما لا يعلم.

وأما القول على الله بما لا يعلم الإنسان، في الأحكـام الـشرعية: فـما أكثرها [اليوم]!! ما أكثـر الـذين يتـصدون للفتـوى،وهم مـن أجهـل الناس!! فيكونون قد قالوا على الله بلا علم، والمفتي لعباد الله، بما يزعم أنه شريعة الله، هو معبر عن الله في الحقيقة؛ لأنه يقول: هـذا حكـم الله، أو هذا حرام حرمه الله، أو ما أشبه ذلك، فلا بد أن يكون على علم مـن كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، أو الإجماع، أو القياس الصحيح، أما أن يفتي بلا علم، فإنـه يـدخل في أوامـر الـشيطان، ويكـون عبـدًا مطيعًـا للشيطان، ولقد كـان الـسلف الـصالح بـورعهم، وتـوقي المـسؤولية، يتدافعون الفتوى، كل واحد منهم لا يريد أن يكون هـو المفتـي، وهـم يعلمون أن هذا المستفتي سيجد من يفتيه بكتاب الله، وسـنة رسـوله و، وإلا فمن المعلـوم: أنـه لا يجـوز للإنـسان إذا سئل عـن علـم يعلمـه، والسائل محتاج إلى بيانه، أن يكتمه، فقد ذكر الله ـ تعالى ـ أن من كتم مـا أنزل الله، فإن عليه الوعيد الشديد.

وعلى هذا فإننا نحذر إخواننـا طلبـة العلـم ـ والعامـة ـ أيـضًا ـ أن يفتوا بلا علم، بل عليهم أن يلتزموا الورع، وأن يقولوا لما لا يعلمـون: لا نعلم؛ فإن هذا ـ والله ـ هو العلم. لكن إذا كان الإنسان عالما بحكـم المسألة من عالم يثق بقوله، وأراد أن ينقل قـول هـذا العـالم للمـستفتي،

فإن هذا لا بأس به، مثل أن يأتيه شخص ويقول: ما تقول في كذا وكذا؟ والمسؤول عامي، لكن يقول: سمعت الشيخ الفلاني يقول: إن حكمه كذا وكذا ـ وهو متيقن أن هذا: ما سمعه من العالم ـ فإن هذا لا بأس به، ويكون هذا راويًا، لا مفتيًا. وعلى كل حال، فإني أعيد وأكرر: التحذير من الفتوى بغير علم، وأقول للإنسان: أنت في حل ـ إذا لم يكن عندك علم ـ أن تصرف المستفتي إلى شخص آخر. وكان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ إذا سئل عن شيء ولا علم له به، يقول: اسأل العلماء.

وهذا يدل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يعين شخصًا معينًا عندما يحيل الناس إلى استفتاء شخص آخر، بل يقول: «اسأل العلماء». اللهم إلا أن يخشى أنه إذا قال: «اسأل العلماء»، أن يذهب هذا السائل إلى شخص جريء يتجرأ على الفتوى بغير علم، فهنا يعين من يحيله عليه، فيقول: اذهب إلى الشيخ الفلاني، فعنده العلم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المتبعين لأهوائهم، المقتدين بكبرائهم، من الآباء، أو غيرهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، «بل» هنا: للإضراب

الإبطالي، أي: بل لا نتبع ما أمرتمونا به، بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا.

﴿أَلْفَيْنَا﴾، أي: وجدنا عليه آباءنا، و«ألفينا»، بمعنى: وجدنا، كقوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾[يوسف: ٢٥]، أي: وجداه عند الباب.

قال الله تعالى ردا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، أي: أيتبعون آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ.

وقوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا ﴾، أي: لا يفهمونه، ولا يفقهونه، وليس المعنى: لا يعرفونه، هم يعرفون الأشياء، وهم أذكياء، لكن ليس عندهم عقول يهتدون بها إلى ما ينفعهم، ويتركون بها ما يضرهم؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ لأنهم وإن كانوا أذكياء، وعندهم علم وفهم، لكن ليس عندهم عقل. وهناك فرق بين العقل وبين الذكاء: العقل يحمل صاحبه على حسن التصرف، وأما الذكاء فقد يحمل صاحبه على حسن التصرف إن كان مقرونًا بالعقل، وقد يحمله على الطيش وعدم حسن التصرف إذا لم يكن مصحوبًا بعقل.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن هؤلاء المخالفين للرسل، معاندون؛ لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾.

٢ـ أنه يجب اتباع ما أنزل الله، فيما نص الله عليه، وفيما أرشد إليه:

أما مــا نص الله عليه: فمثل قوله تعالى: ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [الحج: ٧٨] وأما ما أرشد الله إليه: فمثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء:٥٩، محمد: ٣٣].

وهذا يدلنا على أن ما أمر به الرسول ﷺ، فإنه مطاع كالذي أمر الله به. ومما يدخل في الإرشاد، قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

فأحالنا الله ـ عـز وجـل ـ إلى أهـل الـذكر ـ إذا كنـا لا نعلـم ـ لأن العامي قد لا يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله، ولكن يجب عليـه في هذه الحال، أن يسأل أهل الذكر، أي: أهل العلم.

٣ـ أن الوحي نازل من عند الله؛ لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٤ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ؛ لأن الشيء إذا نزل منه، كان دلـيلًا على علوه.

وهذا ـ أعني: إثبات علو الله ـ هو قول أهل السنة والجماعة، حيـث قالوا: إن الله تعالى علي بذاته، علي بصفاته.

٥ـ قبح التعصب المبني عـلى الجهـل والـضلال؛ لأن الله تعـالى ذم هؤلاء الذين قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾.

٦ـ أن للبـيـئة تأثيرًا، فإذا عاش الإنسان في بيئة صالحة، كان ذلـك من أسباب صلاحه، والعكس بالعكس؛ ويؤيد هـذا قـول رسـول الله ﷺ: «كل مولود يولـد عـلى الفطـرة، فـأبواه يهودانـه، أو ينـصرانه، أو

يمجسانه»[١].

٧ـ توبيخ من اتبع آباءه على غير هدًى وعقل؛ لقولـه تعـالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

٨ـ نعت هؤلاء الآباء بأنهم لا عقول لهم؛ لقوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي.﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

فإن قال قائل: العقل ضده الجنون، فإذا انتفى العقل صار الجنـون، والمجنون غير مكلف، فكيف يكون التوبيخ؟

فـالجواب: أن العقـل، عقـلان: الأول: العقـل الـذي هـو شرط التكليف، فهذا ضده الجنون، والعقل الذي ضـده الـسفه، هـو: عقـل الرشد، أي: أن يكون الإنسان رشيدًا؛ ولهذا لو وجدنا شخـصًا عـاقلًا من حيث التكليف ـ أي: ليس بمجنون ـ لكن لا يحسن التصرف، قلنا: هذا سفيه، ولنا أن نقول: إنه غير عاقل، أي: العقل الـذي يحملـه عـلى الرشد. فأما العقل الذي لا يحمل على الرشـد، فإنـه يـسمى ذكـاءً، ولا يسمى عقلًا؛ ولهذا يجب أن نفرق بين العقل والـذكاء، فنقـول: العقـل عقلان: العقل الذي هو شرط التكليف، وهذا ضده الجنـون، والعقـل الذي هو شرط حسن التصرف، وهذا ضده السفه، وهو المـراد هنـا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

---

(١) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبيُّ فمات...، رقـم (١٣٥٩،١٣٥٨)، ومـسلم كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة...، رقم (٢٦٥٨).

٩ـ أنه ربما يستدل بها على أن الأجداد يسمون: آباء؛ وهذا كثير في اللغة وفي القرآن، أن «الآباء» تطلق ويراد بها الأجداد، والآباء الأدنون. ويتفرع على ذلك مسألة فرضية، وهي: أنه إذا مات الميت وترك جدا من قبل أبيه، وإخوانًا، فإن ماله لجده من قبل أبيه، وليس لإخوانه شيء؛ وذلك لأن جده من قبل أبيه بمنزلة أبيه، بل هو أب حقيقةً والأب لا يرث معه الإخوة شيئًا، وهذا ـ أعني: القول بأن الجد من قبل الأب يحجب الإخوة مطلقًا ـ هو القول الراجح الذي اختاره كثير من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وشيخنا عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ.

* * *

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٧١].

المثل: بمعنى الشبه، وبمعنى الصفة. وكلا المعنيين صحيح، يعني: صفة هؤلاء الذين كفروا كصفة الذي ينعق بما لا يسمع، أو شبه هؤلاء، كشبه الذي ينعق بما لا يسمع. والذي ينعق هو منادي الحيوانات، والذي لا يسمع إلا دعاءً ونداءً هو الحيوان، يعني: كمثل الراعي ينعق للإبل، ينعق للغنم، ينعق للبقر، فتقبل إليه من غير أن تدري ماذا يصنع، حتى إنه ربما ينعق بها ليذبحها، فتأتي وهي لا تدري. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبر أن حال هؤلاء الكفار، وشبه هؤلاء

الكفار، كهذا الذي ينعق بما لا يسمع - أي: ينعق بالدابة والبهائم - لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، لا يدري ما هو، ووجه الشبه: أن هؤلاء الكفار يتبعون من يتبعون من آبائهم وكبرائهم، وهم لا يعلمون أنهم يجرونهم إلى الهلاك؛ ولهذا وصفهم بأنهم صم عن الحق؛ فلا يسمعونه، بكم عن الحق؛ فلا ينطقون به، عمي عن الحق؛ فلا يبصرونه - والعياذ بالله -.

فهم بناءً على فقد هذه الحواس منهم: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: لا يعقلون العقل السليم، الذي يحثهم على الرشد، ويحذرهم من الغي.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد العظيمة والأحكام ما يلي:

١- سوء مثل الكفار، حيث شبهوا بالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، وهم أهل لذلك، بل هم أضل من هذه الأنعام؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

٢- التحذير من التعصب والمتابعة لغير من يعلم، أو يغلب على الظن أنه على هدًى؛ لأن الله تعالى ذم هؤلاء الذين يتبعون الكفار، وبين أنهم كالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

٣- نفي الكمال عمن لم ينتفع به؛ فإن الصمم، والبكم، والعمى، نقص، وهؤلاء الكفار قد يكونون من أقوى الناس بصرًا، وأشدهم سمعًا، وأفصحهم لسانًا، لكن لما كانوا لا يستفيدون من ذلك، صاروا

كالفاقدين له؛ لقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٤-الإشارة البينة إلى الفرق بين العقل والذكاء؛ فإن هؤلاء الكفار الذين يتبعون من يتبعونه من آبائهم وكبرائهم، هم أذكياء، ولا يفوتهم شيء مما يشتهونه ويهوونه، لكنهم غير عقلاء في الواقع؛ لأنهم لم يحسنوا التصرف لأنفسهم، حيث أوقعوها في الكفر والضلال ـ والعياذ بالله ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

هنا وجه الخطاب للمؤمنين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. ونقول حول هذا: تصدير الخطاب بالنداء، يدل على أهميته؛ لأن النداء يستلزم أن يسترعي المنادى انتباهه، وينتبه لما وجه إليه، ثم إن توجيهه إلى الذين آمنوا يدل على فضل الإيمان، وأن المتصف به أهل لأن يلقى إليه الخطاب، ويوجه إليه النداء. ثم إن توجيهه إلى الذين آمنوا يدل على أن هذا من مقتضيات الإيمان، كما إذا قال القائل لشخص ما: يا أيها الكريم، نزل عليك ضيف، يعني: ومن مقتضى كرمك أن تكرم هذا الضيف، كذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: من مقتضى إيمانكم أن تمتثلوا ما أمركم الله به في قوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ومن ذلك ـ أي: مما يتعلق بتصديره بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الإشارة إلى أن

ترك الامتثال ـ ممن وجه إليه هذا النداء ـ إخلال بالإيمان ونقص له.

يقـول ـ عـز وجـل ـ:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ والأمر هنا: ﴿كُلُواْ﴾ للإباحة، ومعنـى ، أي: أعطينـاكم، ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ معطوفة على﴿كُلُواْ﴾، يعنـي: اجمعـوا بيـن الأكـل والـشكر. قـال العلـماء: والـشكر هـو: الاعـتراف بالقلـب للمـنعم، والتحدث بالنعمة باللسان، شكرًا لا افتخارًا، والعمـل بطاعـة المـنعم، تصديقًا للأخبار، وتنفيذًا للأحكام. وعلى هـذا: فالـشكر أمـر عظـيم، ليس بالعمل الهين، ولا يكفي فيه أن يقول الإنسان: أشكر الله، أو: أنـا شاكر لله، بـل لا بـد مـن هـذه الأمـور الثلاثـة؛ الأول: التحـدث بهـا بالقلب. والثاني: الاعتراف بها باللـسان، بأنهـا مـن الله ـ عـز وجـل ـ ونشرها بيـن الناس، لا افتخارًا ولا علوا، ولكـن إظهـارًا لنعمـة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه. والثالث: العمل بالجوارح فيما يـرضي المـنعم ـ عز وجل ـ.

وقولـه: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾، يعنـي: أن مـن مقتـضى العبادة الحقة أن يشكر الإنسان ربه ـ عز وجل ـ.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أهمية هذا الأمر الذي وجه للمـؤمنين، ووجـه هـذا أنـه صـدر بالنداء وبوصف الإيمان.

٢ـ فضيلة الإيمان، حيث كان أهله محلا لإلقاء الخطاب إليهم.

٣- وجوب الأكل من الطيبات؛ لقوله:﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، والأصل في الأمر: الوجوب، ولكن دلت السنة على أن الأكل يكون أحيانًا مباحًا، وأحيانًا يكون مستحبا، وأحيانًا يكون واجبًا؛ فيكون واجبًا إذا ترتب عليه بقاء الإنسان؛ ولهذا نقول: إن الذين يضربون عن الطعام والشراب، حتى يهلكوا: منتحرون، أي: بمنزلة الذين نحروا أنفسهم؛ لأنه ـ أي: الأكل والشرب ـ يجب عند خوف الهلاك.

٤ـ الإشارة إلى أن ما في الأرض من عطاء الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله تعالى:﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وهذا يستلزم أن نشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما رزقنا، وألا نتكل على أنفسنا، وألا نفخر بعملنا، وألا نكون كالذي قال الله عنه:﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعًا شكر نعمته، وحسن عبادته، وأن يزيدنا من فضله.

٥ـ أن الشكر محله القلب، واللسان، والجوارح؛ كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

وبين الشكر وبين الحمد عموم وخصوص، فمن جهة ما يكون به الشكر: فالشكر أعم، ومن جهة مورد الشكر وموقعه: فالحمد أعم؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يحمد على كمال صفاته وكمال إنعامه.

ويشكر ـ سبحانه وتعالى ـ على إنعامه فقط، ويكون الشكر بالقلب

واللسان والجوارح.

٦ـ أن الشكر يكون به تحقيق العبادة لله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وهذه الجملة الشرطية ـ التي يرد مثلها كثيرًا في القرآن ـ تفيد معنى التحدي، أي: إن كنت صادقًا في عبادة الله، فاشكره، ولا تكفر نعمه.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾: التحريم بمعنى المنع، والجملة هنا فيها الحصر بـ﴿إِنَّمَا﴾، يقول العلماء: الحصر هو: إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما عداه.

فقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ بمنزلة قول القائل: ما حرم عليكم إلا الميتة.

و«الميتة» عند أهل العلم: كل ما مات بغير ذكاة شرعية؛ فيشمل ما مات حتف أنفه، وما مات بغير ذكاة شرعية.

﴿وَٱلدَّمَ﴾، وهو ذلك السائل الأحمر الذي يخرج من الحيوان ذي الروح، وهو معروف، لكنه هنا مطلق، وفي سورة الأنعام مقيد؛ حيث قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ

لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥]؛ فالمراد بالدم هنا: الدم المسفوح.

﴿ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ ﴾، والخنزير: حيوان معروف، ولحمه حرام؛ لأنه رجس وخبث.

﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾، أي: ما ذبح لغير الله، أو ذكر عليه اسم غير الله؛ فما ذبح للصنم - مثلًا، فهو حرام، وإن سمى عليه أو لم يسم عليه، وما ذبح للأكل وسمي عليه اسم غير الله، فهو حرام، وإن كان الإنسان لم يقصد به التعبد، لكن أهل به لغير الله. وما سمي عليه غير اسم الله، فمثل أن يقول: باسم المسيح، باسم الرئيس، باسم الشعب، ويذبح على هذا الاسم، فهذا أيضًا حرام لفقد تسمية الله عليه، ولأنه ذبح علي وجه الإشراك بالله - عز وجل -.

وقوله: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ ﴾، أي: من ألجأته الضرورة إلى أكل هذه الأنواع الأربعة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله. واضطر أصلها: «اضتر»، وأدغمت التاء في الضاد، فصارت طاءً، وهي من الضرر، أي: من حصل له ضرر بترك الأكل، وخاف على نفسه المرض أو الهلاك.

وقوله: ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ هذا شرط للضرورة:

﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾، أي: غير باغ للحرام، وغير طالب له.

﴿ وَلَا عَادٍ ﴾، أي: ولا معتد، بحيث يأكل بدون حاجة، بل يأكل

منه ما تدعو الضرورة إلى أكله فقط.

﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾، أي: لا عقوبة: فإن كان باغيًا أو معتديًا فأكل، فعليه الإثم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ غفور: ذو مغفرة، فيتجاوز عن عباده السيئات.

رحيم: رحيم بهم، فلا يحرم عليهم ما اضطروا إلى أكله وكان لهم فيه انتفاع؛ فمن أجل مغفرته ورحمته، رفع الإثم عمن كان مضطرا، كذا معنى الآية:

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن التحليل والتحريم إلى الله ـ عز وجل ـ، لا يملك أحد أن يحرم شيئًا حلالًا، ولا أن يحل شيئًا حرامًا، إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بل قد جاء في الحديث ما يدل على أن من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله[1]؛ ولهذا لما قيل يوم خيبر: إن البقول من البصل والثوم والكراث وما أشبهها قد حرمت، قال النبي ﷺ: «إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي»[2]؛ فإذا كان النبي ﷺ يبرأ من تحريم ما أحل الله، فغيره من باب أولى؛ فالتحريم والتحليل، والإيجاب والكراهة، كل ذلك إلى الله ـ عز وجل ـ وحده؛

(١) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

(٢) رواه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا...، رقم (٥٦٥).

لقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ والضمير ـ كما هو معلوم ـ يعود على الله ـ عز وجل ـ.

٢ـ أن الميتة حرام، وظاهر الآية العموم، لكن قد دل الدليل أن من الميتات ما هو حلال، ومن ذلك صيد البحر؛ فإن ميتته حلال؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: ٩٦]؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «صيده ما أخذ حيا، طعامه ما أخذ ميتًا». وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أحلت لنا ميتتان ودمان: أما الميتتان: فالجراد والحوت، وأما الدمان: فالطحال والكبد»[1]؛ وعلى هذا فميتة السمك: حلال، وميتة الجراد: حلال. والحكمة في حل ميتة الجراد مع أنه صيد بري، أنه ليس فيه دم، والعلة في تحريم الميتة: احتقان الرطوبات والدم فيها؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه، فكلوا إلا السن والظفر»[2].

فدل ذلك على أن الحكمة من إباحة المذكى: كونه قد نزف دمه، ولم يحتقن، ولم يبق في العروق.

---

(١) رواه أحمد (٥٦٩٠)، وابن ماجة كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، رقم (٣٣١٤).

(٢) رواه البخاري كتاب الشركة، باب قسمة الغنم، رقم (٢٤٨٨)، ومسلم كتاب الأضاحي باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر، رقم (١٩٦٨).

٣ـ أن الدم حرام، وقد بينا في تفسيرها أن المراد به: الـدم المسفوح الذي يخرج من الحيوان عند ذبحه وتذكيته، فأما الدم الذي يبقـى بعـد التذكية في العروق، فإنه حلال وليس بحرام؛ كدم الكبـد، ودم القلـب والطحال، وما أشبه ذلـك؛ وذلـك لأنـه مـن مـذكاة، فيكـون حـلالًا كاللحم، أي: اللحم المذكى.

٤ـ تحريم لحم الخنزيـر، والخنزيـر: حيـوان معـروف خبيـث، مـن خصائصه: أنه يأكل القاذورات كالعذرات، وأنه لا غيرة فيه على أنثـاه، وأن في لحمه جراثيم مضرةً، مهلكةً، مفسدةً للطبائع؛ ولهذا حرمـه الله ـ عز وجل ـ فقال: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾.

٥ـ أنه لا يحل من الخنزير أي جزء من أجزائه؛ لعموم قولـه تعـالى: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ فلا تحل كبده، ولا أمعاؤه، ولا كلاه، كل ما فيه فهو حرام.

وننتقل من هذه الفائدة إلى فائدة أخرى تتعلق بالوضوء، وذلك:

أن النبي ﷺ أمر بالوضوء من لحم الإبـل؛ فقـال: «توضـؤوا مـن لحوم الإبل»[1]، وسئل ﷺ: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: «نعم»، قـال: أتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: «إن شئت»[2]؛ فكونه ﷺ يرد الوضوء من

---

(١) رواه أحمد (١٨٦١٧) عن أسيد بن حضير، ورواه ابن ماجة كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٤٩٧) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٠).

لحم الغنم إلى المشيئة، ويجزم بالوضوء من لحم الإبل، دليل على أن الوضوء من لحم الإبل واجب، وأن الوضوء من لحم الغنم ليس بواجب، وهو كذلك.

ولكن ما المراد بلحوم الإبل؟ المراد: جميع أجزائها، كما قلنا في لحم الخنزير؛ فإذا أكل الإنسان شيئًا من لحم الإبل: من الكبد، أو الأمعاء، أو الكرش، أو القلب، أو الفخذ، أو من أي موضع كان، فإنه يلزمه أن يتوضأ، سواء أكل اللحم نيئًا أو مطبوخًا. ولكن لا حرج عليه إذا أكل أن يتوضأ وضوءًا فقط، دون أن يغسل الفرج، بل لا يغسل الفرج؛ لأن غسله في هذه الحال تعنت وبدعة؛ فإن غسل الفرج إنما يجب من بول أو غائط، وإذا لم يكن بول ولا غائط فليس هناك شيء يغسل.

٦ـ تحريم ما ذبح لغير الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

٧ـ تحريم ما ذكر غير اسم الله عليه، وإن كان القصد منه ليس لغير الله؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾. فإذا قال الرجل إذا أراد أن يذبح الذبيحة: باسم الوطن، باسم الرئيس، باسم فلان، أو فلان، فإن الذبيحة لا تحل، حتى وإن كان قد قصد بها شيئًا مباحًا، كما لو قصد بها الأكل، فإنها لا تحل؛ لأنه أهل بها لغير الله.

٨ـ سعة رحمة الله ـ عز وجل ـ حيث أباح هذه المحرمات عند الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

فإن قال قائل: هل تجيزون أن يتداوى الإنسان بالمحرم قياسًا على

أكل هذه الأربعة عند الضرورة؟

قلنا: لا، لا نجيز ذلك؛ وذلك لأن الدواء قد يحصل به الشفاء، وقد لا يحصل، بخلاف أكل الميتة وما عطف عليها للمضطر، فإنه يحصل به الشبع قطعًا، والوجه الثاني من الفروق بين هذه وهذه: أن الشفاء لا يتعين بتناول هذا الشيء المحرم، بل قد يشفى بدون تناوله، أو بتناول شيء مباح، وأما المضطر فيتعين زوال ضرورته بأكله من هذه المحرمات؛ لأنه ليس عنده شيء سواها.

٩- إثبات القاعدة المشهورة عند أهل العلم، وهي: أن الضرورات تبيح المحظورات، كما أن الواجبات تسقط بالعجز؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٠- اعتبار النية والمقاصد؛ لقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾. وهذ أمر معلوم من الشريعة فتجد الرجل يأكل هذه الأكلة ليستعين بها على محرم، فتكون حرامًا، ويأكل هذه الأكلة، ليستعين بها على مأمور، فتكون مأمورًا بها، نعم، الأعمال بالنيات، تجد هذا الرجل يبيع السلاح، يكون مرةً بيعًا حرامًا، إذا باعه في حال فتنة بين المسلمين، على رجل يقتل به مسلمًا، ويكون حلالًا إذا باعه على من يستعمله في الحلال،،، وهلم جرا.

هذه القاعدة المفيدة، مأخوذة من قوله:﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾

١١- أن هذا التخفيف على العباد من مقتضيات كونه تعالى: غفورًا

رحيمًا؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٢ـ إثبات هذين الاسمين لله ـ عز وجل ـ: «الغفور» و«الرحيم». و«الغفور»: هو الساتر لذنوب عباده، المتجاوز عنها؛ فالغفر، بمعنى: الستر والتجاوز، يدل على ذلك اشتقاقه؛ لأنه مشتق من المغفر، والمغفر: ما يوضع على الرأس عند الحرب، لاتقاء السهام أن تقع على الرأس؛ ففيه ستر، وفيه وقاية، وليس الغفر مجرد الستر، فالغفور: هو المتجاوز عن سيئات عباده، الساتر لها. و«الرحيم»: ذو الرحمة، ورحمة الله: عامة، وخاصة. فالعامة: هي التي تشمل المؤمنين والكافرين، والخاصة: هي التي تختص بالمؤمنين؛ ومنها قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

١٣ـ الصفة الكاملة التي تحصل من اجتماع هذين الاسمين: الغفور الرحيم؛ لأن بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب، فبمغفرته ـ سبحانه وتعالى ـ يحدث العفو، وبرحمته يحصل الفضل؛ ولهذا نجد الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقرن بين هذين الاسمين كثيرًا.

١٤ـ جواز أكل هذه المحرمات للمضطر الذي اضطر إلى أكلها، بحيث يخاف التلف إذا لم يأكل.

١٥ـ بيان رحمة الله تعالى بعباده، حيث أحل لهم هذه المحرمات عند الاضطرار، لدفع ضرورتهم.

١٦ـ أنه لا يحل لمن أبيح له أكل هذه المحرمات للضرورة، إلا ما

تدعو الضرورة إليه؛ بحيث لا يتجاوز أكثر ما يحتاج إليه، ولا يزيد عليه. وعلى هذا فلا يأكل إلا ما يسد حاجته فقط، ولا يملأ بطنه بذلك.

ولكن إذا خاف أن تبقى ضرورته، فله أن يتزود من هذه المحرمات، حتى يضطر إلى أكلها مرةً ثانيةً.

١٧ـ الرد على المشركين فيما حرموه من بهيمة الأنعام، وهو ما رده الله عز وجل عليهم في قوله: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

* * *

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

هذه الجملة مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾، فـ﴿إِنَّ﴾ أداة توكيد، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ خبرها.

﴿يَكْتُمُونَ﴾ أي: يخفون.

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الكتاب هنا مفرد، والمراد به الجنس، أي: الكتب، فيشمل ما أنزل الله من القرآن، والتوراة، والإنجيل،

وغيرها من الكتب المنزلة على الرسل.

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ أي: يأخذون به ثمنًا قليلًا؛ لأنهم يخفونه لينالوا الجاه، أو لينالوا المال، أو ينالوا الحظوة عند الزعماء.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ وهذا متعين فيما إذا كتموه من أجل المال، فإنهم لا يأكلون في بطونهم إلا النار؛ لتحريم هذا المال عليهم؛ لأن هذا المال حرام عليهم من وجهين:

الوجه الأول: أنهم أخذوه بغير حق.

والوجه الثاني: أنهم كتموا من أجله الحق.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: تكليم رضًا، ولكنه يكلمهم تكليم إهانة؛ كقوله تعالى حين يقول أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧-١٠٨].

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم من آثامهم؛ لأنهم ليسوا أهلًا لذلك.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- تحريم كتم ما أنزل الله من الكتاب، وهذا يستلزم وجوب بيان ما أنزل الله من الكتاب، ولكنه لا يلزم إلا إذا اقتضت الحال بيانه، إما بسؤال سائل بلسان المقال، أو بسؤال سائل بلسان الحال: أما لسان المقال: فأن يأتي رجل إلى عالم من العلماء، ويقول: ما تقول في كذا

وكذا؟ فيفتيه. وأما لسان الحال: فأن يرى الإنسان شخصًا يتعبد لله تعالى عبادةً على غير وجه صحيح، فيجب عليه في هذه الحال أن يبين له الحق في ذلك.

٢ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣ـ أن الكتب التي جاءت بها الأنبياء منزلة من عند الله.

٤ـ تحريم أخذ العوض على كتمان الحق؛ لقوله: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾.

فإن قيل: وهل يحرم العوض على بيان الحق؟ بمعنى: أن يعطى العالم أجرةً على بيان الحق؟

والجواب على ذلك أن نقول: إن تعين عليه بيان العلم، حرم عليه أخذ العوض عليه، وإن لم يتعين، فله أخذ العوض، ولكن يكون من بيت المال، لا على سبيل الاستئجار.

٥ـ أن كل ما يكون من متاع الدنيا، فإنه قليل؛ لقوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

٦ـ أن كتم ما أنزل الله من الكتاب ليشتري به الإنسان ثمنًا قليلًا، من كبائر الذنوب؛ لوجود الوعيد عليه في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾.

٧ـ إثبات كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأن نفي تكليمه لهؤلاء، دليل على أنه يكلم غيرهم. وأهل الحق من السلف والخلف يثبتون أن الله تعالى يتكلم بحرف، وصوت مسموع، ومن ذلك: القرآن الكريم، فإنه كلام الله تعالى، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، كما قرر ذلك أهل السنة والجماعة.

٨ـ إثبات يوم القيامة، وهو اليوم الذي يبعث فيه الناس من قبورهم. وسمي يوم القيامة؛ لأن الناس يقومون فيه من قبورهم لله ـ عز وجل ـ، ولأنه يقام فيه العدل؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ولأنه يقوم فيه الأشهاد؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

٩ـ أن الله تعالى يزكي من يشاء؛ فإن نفي التزكية لهؤلاء، دليل على ثبوتها لضدهم.

١٠ـ أن هؤلاء ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ لا يزكيهم الله يوم القيامة، بل هم أهل الفسق والجور.

١١ـ أن هؤلاء ـ مع إعراض الله عنهم، وعدم تكليمه إياهم، وتزكيته لهم ـ لهم عذاب أليم، أي: عذاب مؤلم، وذلك عذاب النار؛ لشدته وعظمته ـ نعوذ بالله من النار ـ فإن النبي ﷺ أخبر أن: «نار

جهنم فضلت على نار الدنيا كلها بتسعة وستيـن جـزءًا»[١] أي: أن نـار الدنيا كلها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم.أعاذنا الله وإياكم منهـا، وجعلنا وإياكم من أهل النعيم المقيم في جوار رب رحيم، إنه عـلى كـل شيء قدير.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٥].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ يـشير إلى الـذين يكتمـون مـا أنـزل الله مـن الكتـاب، ويشترون به ثمنًا قليلًا.

﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: اختـــاروا الـــضلالة عـــلى الهدى.

﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ ﴾ اختاروا العذاب بالمغفرة. وهم قد يختارون ذلك عمدًا، وقد يختارون ذلك عمًى؛ لأنهم زاغوا، فأزاغ الله قلوبهم.

﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يعنـي: أن النـار عـذابها ألـيم، وحرهـا شـديد، وهـؤلاء يـصبرون عـلى ذلـك؛ لأنهـم يـتمادون في طغيـانهم وضلالهم.

---

(١) رواه البخاري كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، رقم (٣٢٦٥). ومسلم كتـاب الجنـة، بـاب في شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣).

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمنًا قليلًا، اختاروا هذا اختيار رغبة؛ لأنه شبه اختيارهم إياه، بالاشتراء، والمشتري يرغب ما اشتراه.

٢ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لأنهم لما اشتروا الضلالة بالهدى، صاروا كالذين اشتروا العذاب بالمغفرة، أي: مغفرة الله ـ عز وجل ـ.

٣ـ إظهار التعجب في كلام الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]. وهل يعجب الله ـ سبحانه وتعالى ـ من شيء؟ الجواب: نعم، العجب: صفة من صفات الله تعالى، أثبتها الله تعالى في كتابه، على قراءة من قرأ قوله ـ تعالى ـ بل عجبت ويسخرون، وكذلك النبي ﷺ قال: «ضحك ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره»[1]، وفي حديث آخر: أخبر النبي ﷺ أن الله ـ تبارك وتعالى ـ «يشرف عليكم ـ يعني: عباده ـ آزلين آدلين مشفقين، فيظل يضحك، قد علم أن غيركم إلى قرب»[2].

والعجب الصادر من الله ـ عز وجل ـ، ليس هو كالعجب الصادر من الإنسان؛ لأن العجب الصادر من الإنسان، منشؤه استغراب الأمر، وعدم العلم بمقدماته، أما الله ـ عز وجل ـ، فإنه لا يخفى عليه

---

(١) أخرجه ابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨١).

(٢) رواه أحمد (١٥٧٧٣).

خافية، ويكون عجبه من أجل خروج الشيء عما ينبغي أن يكون عليه.

٤-إثبات عذاب النار؛ لقوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

* * *

ثم قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ ﴾[البقرة: ١٧٦].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما أشار الله إليه من العذاب لهؤلاء، والعقوبات التي ذكرها الله تعالى في الآيات السابقة.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ وإذا كان نزل الكتاب بالحق، فإن الذين يضلون عن الحق سوف يكونون في شقاق بعيد؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ﴾.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١-إثبات أن الله نزل الكتاب.

٢-إثبات علو الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾، والتنزيل لا يكون إلا من أعلى.

٣-أن الكتب نازلة من الله حقا؛ لقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، وأنها نازلة بالحق أيضًا، فقد جاءت بالحق، وهو: الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام.

٤-أن المختلفين في الكتاب، المخالفين له، في شقاق بعيد، أي: في مشاقة ﷺ مباعدة عن الحق. «بعيد»؛ لأنهم يجادلون في الحق بعدما تبين.

٥ـ أن جميع ما تتضمنه كتب الله، فهو حق؛ لأنها أخبار صادقة، وأحكام عادلة.

٦ـ أن نزول الكتب من عند الله، نزول بالحق الثابت، الذي لا مرية فيه.

٧ـ خطر الاختلاف في الكتاب، وأن الإنسان قد يبتلى عند الاختلاف في الكتاب، بالمشاقة البعيدة لله ولرسله.

* * *

ثم قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ «البر» هو: الخير، و«التولي» بمعنى: الاتجاه. و«قبل المشرق» أي: جهة المشرق والمغرب.

يعني: أنه ليس البر في أن يولي الإنسان وجهه قبل المشرق أو قبل المغرب، وإنما البر هو الإيمان بالله ـ عز وجل ـ، والقيام بطاعته ـ سبحانه وتعالى ـ سواء أمر بالاتجاه إلى المشرق أو المغرب، أو إلى

الجنوب، أو إلى أي جهة كانت؛ لأن المقصود هو الإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: أن البر بر من آمن بالله واليوم الآخر.

و «الإيمان بالله» هو: التصديق، وهو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان.

و «الله»: اسم من أسماء البارئ جل وعلا، وهو الاسم الخاص به، الذي لا يسمى به غيره، ولا يستحق أن يوصف بمدلوله أحد سواه.

و ﴿اليوم الآخر﴾ يعني: يوم القيامة، وسمي بـ«اليوم الآخر»؛ لأنه لا يوم بعده.

و ﴿الملائكة﴾: جمع ملك، وهم العالم الغيبي، الذين وصفهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأوصاف وأفعال جاءت في الكتاب والسنة، فالملائكة: عالم غيبي، وعباد لله تعالى، يفعلون ما يؤمرون ، ولهم أعمال وأوصاف مذكورة في الكتاب والسنة.

و ﴿الكتاب﴾: اسم جنس، والمراد به: جميع الكتب المنزلة على الرسل.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: جمع نبي، وهو شامل في هذه الآية للأنبياء والرسل.

﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ﴾: أي: أعطى المال.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: أي: على محبته له، وحاجته إليه.

﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: أي: أصحاب القرابة.

﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾: جمع يتيم، واليتيم هو: الذي مات أبوه ولم يبلغ.

﴿وَٱلۡمَسَـٰكِينَ﴾: هم الفقراء الذين أسكنهم الفقر.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: صاحب السبيل، و«السبيل» هو: الطريق.

والمراد بـ«ابن السبيل»: المسافر الذي انقطع به السفر.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: أي: المستجدين، الذين يسألون الناس.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: أي: وآتى المال في الرقاب، وهم: الأرقاء، يشتريهم ويعتقهم.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أتى بها مستقيمةً، و«الصلاة» هنا: شاملة للفريضة والنافلة.

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي: أعطاها، ومفعول آتى» الثاني محذوف، أي: آتى الزكاة مستحقها.

﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَـٰهَدُواْ ۖ﴾ أي: الذين إذا عاهدوا أحدًا من الناس أوفوا بعهدهم، أي: أعطوه وافيًا لا نقص فيه.

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ ۗ﴾.

﴿ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾: الفقر.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: المرض.

﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ ۗ﴾: القتال والحرب.

﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ﴾: أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات، هم الذين صدقوا، أي: صدقوا مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإخلاصهم

له، وقيامهم بطاعته.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: هم الذين قاموا بالتقوى على حسب ما جاء في كتاب الله تعالى، وما جاءت به رسله.

هـذه الآيـة الكريمـة اشـتملت علـى فوائـد عظيمـة وأحكـام جمة، منها:

١ـ أن البر ليس بالأعمال المطلقة، وإنـما هـو ـ أي: الـبر ـ بـالأعمال الصادرة عن الإيمان بالله، واليوم الآخر . . . إلخ.

٢ـ أن الإيمان بالله من البر. والإيـمان بـالله يتـضمن أربعـة أشـياء: الأول: الإيمان بوجوده، والثـاني: الإيـمان بربوبيتـه، والثالـث: الإيـمان بألوهيته، والرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته. فمن أنكر وجود الله، فليس بمؤمن، ومن أقر به ـ أي: بوجوده ـ ولكنه انتقص شيئًا من ربوبية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن زعم أن ـ لله ـ سبحانه وتعالى ـ، مشاركًا في الخلق، أو الملك، أو التدبير، فليس بمؤمن بـالله. ومـن آمـن بـذلك، ولكنـه لم يؤمن بألوهيته، بـل صرف شـيئًا مـن أنـواع العبـادة لغـير الله، فلـيس بمؤمن بالله. ومن آمـن بـذلك ولكنـه أنكـر أسـماءه وصـفاته، فلـيس بمؤمن بالله. فلا يتم الإيمان بالله إلا بالإيمان بالأمور الأربعة.

٣ـ الإيمان باليوم الآخر ـ وهو يوم القيامـة ـ وهـو يـشمل الإيـمان بوجود هذا اليوم، وأن الناس سيبعثون يوم القيامة، وكذلك الإيمان بما سيكون في هذا اليوم من الأهوال العظام، وما يكون من نـشر الكتـب:

كتب الأعمال، وإقامة الوزن، والصراط، وحوض النبي ﷺ، وغير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة.

٤ـ ومنه ـ أي: من الإيمان باليوم الآخر ـ الإيمان بما يكون بعد الموت، من فتنة القبر، وعذاب القبر، ونعيم القبر؛ فإن الناس يفتنون في قبورهم، فيسأل المرء عن ربه، ودينه، ونبيه؛ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فيقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ونبيي محمد ﷺ، ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وأنت ترى أن الله تعالى دائمًا يقرن بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر، هو الذي يحدو الإنسان إلى العمل؛ وهو الذي يحدو المرء إلى الاستقامة على دين الله، وعلى شرع الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه إذا كان يؤمن بأن هناك عقابًا في ترك الواجب، وفعل المحرم، وثوابًا في فعل الواجب، وترك المحرم، فإنه سوف ينهض ويعمل لهذا اليوم العظيم.

٥ـ الإيمان بالملائكة، والملائكة لهم أعمال، ولهم أوصاف، على حسب أمر الله تعالى لهم؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١].

ومن أجل الملائكة وأشرفهم الملائكة الثلاثة: جبريل، وميكائيل،

وإسرافيل. وكان النبي ﷺ يستفتح صلاة الليل فيقول: «اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1]؛ فجبريل موكل بالوحي، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، فكل واحد من هؤلاء الثلاثة موكل بما فيه الحياة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يستفتح في صلاة الليل بما ذكرنا.

ومن الملائكة: ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وقد ورد في بعض الآثار أن اسمه: عزرائيل، ولكنه لا يصح عن المعصوم ﷺ؛ ولهذا يكفينا أن نقول: ملك الموت، دون أن نسميه باسم آخر.

ومن الملائكة المعينين: «مالك»، خازن النار؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾[الزخرف: ٧٧].

ومن الملائكة: الملائكة الذين يكتبون ما يقوله الإنسان وما يفعله، بل وما يهم به؛ يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠).

ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٧، ١٨].

ومن الملائكة: الملائكة الموكلون بحِلَق الذِّكر، يتتبعونها.

ومن أراد المزيد من ذلك فليرجع إلى كتاب البداية والنهاية» لابن كثير ـ رحمه الله.

٦-الإيمان بالكتب التي أنزلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الرسل التي نعرف منها: القرآن الكريم، وهو أشرفها وأجلها، وهو المهيمن عليها، والتوراة التي أنزلها الله على موسى، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، والزبور الذي آتاه الله داود، وصحف إبراهيم وموسى، والباقي نؤمن به إجمالًا.

٧-الإيمان بالنبيين، وقد ذكرنا في تفسير الآية الكريمة، أنه يشمل الرسل؛ وذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل من عباده رسلًا وأنبياء. والرسل أشرف من الأنبياء، وأشرف الرسل أولو العزم؛ وهم: إبراهيم، ومحمد، ونوح، وموسى، وعيسى. وترتيبهم في الأفضلية: محمد، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى. فمن علمنا رسالته بعينه، آمنا به بعينه، وإلا فنؤمن بهم إجمالًا.

٨-الثناء على من آتى المال على حبه لمن يحتاج إليه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، وهذا كقوله في آية أخرى: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[الإنسان: ٨].

٩-إعطاء ذوي القربى ـ أي: القرابة ـ من المال الذي يؤتيه الله من

يشاء، يعني: أن لـذوي القربـى عليـك حقـا: أن تعطـيهم مما أعطـاك الله.ثم إن حق ذوي القربى قد يكون واجبًا: وهـو فـيمن تجـب عليـك نفقته، وقد يكون تطوعًا: فيما سوى ذلك.

١٠ـ الإحسان لليتامى ـ وإن كانوا أغنياء ـ وذلك جبرًا لما حـصل لهم من انكسار القلب، بفقد أبيهم.

١١ـ الإحسان إلى المـساكين مطلقًـا، وهـم الفقـراء؛ لحـاجتهم إلى ذلك.

١٢ـ الإحسان إلى ابن السبيل؛ لحاجته إلى ذلك.

١٣ـ الإحسان إلى السائل، وإعطاؤه ما سـأل، مـا لم يـسأل محرمًـا، وهذا يحتاج إلى تفصيل: فمن علمنا أنه محتـاج، كـان إعطـاؤه بوصـف واحد وهو: السؤال، ومن علمنا أنه إنما يسأل استكثارًا، فهـذا ننـصحه ونحذره من السؤال؛ لأن من سأل الناس أمـوالهم تكثـرًا، فـإنما يـسأل جمرًا[1]، ولا تزال المسألة بالرجل، حتى يأتي يوم القيامة ومـا في وجهـه مزعة لحم[2]، نسأل الله العافية.

٤ – فـضل بـذل المـال في إعتـاق الرقـاب؛ لقولـه تعـالى:﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾. وهذا يشمل أن يشتـري الرجـل عبـدًا فيعتقـه، أو أن يعين

---

(١) انظر: مسلمًا كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة للناس، رقم (١٠٤١).

(٢) انظر: البخاري كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرًا، رقم (١٤٧٤)، ومسلمًا كتاب الزكـاة، باب كراهية المسألة للناس، رقم (١٠٤٠).

مكاتبًا في كتابته، وغير ذلك من صور الإعانة.

١٥ـ الثناء على إقامة الصلاة، وأنها من البر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٦ـ الثناء على إيتاء الزكاة؛ لقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولكن لا بد أن تكون الزكاة في محلها، أي: في أهلها الذين أمر الله تعالى بصرفها إليهم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]؛ فلا يجوز أن يحابي الإنسان بها قريبًا أو صديقًا، أو غير ذلك. بل يعطيها من هو أحوج وأحوج، وإذا اجتمع شخصان مستحقان للزكاة: أحدهما قريب، والثاني غير قريب، فإنها تعطى للقريب؛ لأن صدقتك على القريب صدقة وصلة.

١٧ـ الثناء على الموفي بالعهد، سواء كان العهد مع مسلم، أو مع كافر.

وإن شئت فقل: إنه يدخل في العهد: القيام بحق الله ـ عز وجل ـ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عهد إلينا ـ بما أعطانا من العقول، وبما أرسل إلينا من الرسل ـ ألا نعبد إلا إياه، وأن نقوم بطاعته على الوجه الذي أمرنا به.

١٨ـ الثناء على الصابرين في الفقر والمرض والحرب؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾؛ فالصبر في البأساء والضراء: صبر على أقدار الله، والصبر في حال الحرب: صبر على طاعة الله، وعلى أقدار الله أيضًا.

١٩ ـ الثناء على هؤلاء السادة الذين اتصفوا بهذه الصفات العظيمة الكاملة، في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾. نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتصفين بهذه الصفات، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ابتدأ الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الآية بنداء المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وابتداء الخطاب بالنداء، يدل على أهميته؛ إذ إن النداء يقتضي تنبيه المخاطب، ثم إن توجيهه إلى المؤمنين يدل على أن امتثاله من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان. وقد قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه».

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ أي: فرض، ويحتمل أن يكون المعنى:

شرع؛ لأن الله تعالى ذكر في هذه الآية العفو، أو يقال: إن «كتب» أي: فرض فيها إذا طلبه صاحب الحق، فإنه فرض على ولاة الأمور تنفيذه.

﴿ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾: «القصاص» في الأصل: تتبع الأثر، والمراد به هنا: أخذ الجاني بمثل جنايته، أي: قتله إن كان قد قتل، أو قطع عضو منه إن كان قد قطع عضوًا، أو ما أشبه ذلك.

﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ يعني: أنه يقتل الحر بالحر، ويقتل العبد بالعبد؛ لتمام المكافأة؛. فالحر مكافئ للحر، والعبد مكافئ للعبد، والأنثى مكافئة للأنثى.

﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: فمن عفي له في القصاص من أخيه شيء - قليلًا كان أو كثيرًا - فإنه يتبع طريقين:

الأول: اتباع بالمعروف، يعني: أن صاحب الحق يتبع من عليه الحق بالمعروف، فلا يمن عليه، ولا يشاقه.

الثاني: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ هذا بالنسبة للمعفو عنه: يجب عليه أن يؤدي بإحسان.

مثال ذلك: إذا عفا عن القصاص إلى الدية، فإن على العافي أن يتبع القاتل بالمعروف في طلب الدية ، وعلى القاتل أن يؤدي إلى العافي الدية بإحسان.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: إن هذا الحكم يتضمن شيئين: التخفيف، والرحمة. فكان تخفيفًا؛ لأن القصاص في بني

إسرائيل كان مفروضًا لا يمكن أن يعفى عنه، وأما في شريعـة عيـسى ـ عليه السلام ـ فقد قيل: إن العفو واجب. ففي التـوراة: العفـو ممنـوع، وفي الإنجيل: العفو واجب، أما هذه الأمة فإنها بالخيار:

تخفيف من الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإسقاط القتل عن القاتل.

ورحمة: بكونه يعطي هؤلاء الذين يطالبون بالحق عوضًا عن ذلك، وهو الدية.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد تمام القـصاص، أو العفـو إلى الدية، أو العفو مجانًا.

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وذلك أن بعض الناس إذا عفـا عـن القاتـل، حمله الشيطان على أن يأخذ بالثأر مرة أخرى، فيعتدي على القاتـل مـرةً أخرى.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- فضيلة الإيمان؛ حيث نوه بفضله بتوجيه الخطاب إلى من اتصف به، في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- وجوب القصاص في القتلى، ولكن له شروط معروفة، وجاءت بها السنة، وتكلم عنها أهل العلم، ببسط واسع، مذكور في المطولات.

٣- أن الحر يقتل بالحر، ولو كان القاتل أفضل من المقتول في علمـه ودينه وخلقه. وظاهر الآية الكريمة: أنه عـام في قتـل المـسلم بالكـافر، والكافر بالمسلم. أما قتل الكافر، فالصحيح: أنه لا يقتل بالكـافر، ولـو

كان للكافر عهد؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا يقتل مسلم بكافر»[(١)].

٤ـ أن العبد يقتل بالحر؛ لأنه إذا كان يقتل بالعبد، فقتله بالحر من باب أولى.

وأما عكسه ـ وهو قتل الحر بالعبد ـ ففيه خلاف بين أهل العلم:

فمنهم من قال: إن الحر يقتل بالعبد؛ لقول الله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقول النبي ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[(٢)]، ولقول النبي ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم»[(٣)].

ومن العلماء من قال: إن الحر لا يقتل بالعبد؛ لأن العبد متقوم، بخلاف الحر.

والصحيح: أن الحر يقتل بالعبد، إذا علمنا أنه قتله عمدًا؛ للأدلة التي ذكرناها.

٥ـ أن العبد يقتل بالعبد؛ لقوله: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾، وظاهر عموم

---

(١) رواه البخاري كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١).

(٢) رواه البخاري كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ رقم (٦٨٧٨)، ومسلم كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦).

(٣) رواه النسائي كتاب القسامة، باب سقوط القود من المسلم للكافر، رقم (٤٧٤٦)، وأبو داود كتاب الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر، رقم (٢٧٥١)، وابن ماجة كتاب الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، رقم (٢٦٨٣، ٢٦٨٤، ٢٦٨٥)، وأحمد (٩٦٢، ٦٩٧٣).

الآية: ولو اختلفا في القيمة، يعني: لو كان المقتول لا يساوي إلا عشرةً، والقاتل يساوي آلافًا، فإنه يقتل به؛ لعموم قوله: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾.

٦ـ أن الأنثى تقتـل بـالأنثى، وهنـا مـسألة: هـل تقتـل بالرجـل؟ الجواب: نعم، تقتل بالرجل، أي: إن الأنثى إذا قتلت رجلًا، فإنها تقتل به. ومسألة أخرى: هل يقتـل الرجـل بـالأنثى؟ الجـواب: نعـم، يقتـل الرجل بالأنثى؛ لعموم قوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾، ولكن الله تعالى ذكـر في الآية: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لتمام المكافأة مـن كل وجه.

٧ـ يستفاد من قوله تعـالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، أنـه إذا عفا أحد من الورثـة عـن القـصاص، فإنـه يـسقط القـصاص في حـق الجميع؛ تغليبًا لجانب الرحمة. ولا فرق بين أن يكون نصيب العافي كثيرًا أو قليلًا. مثال ذلك: لو فرضنا أن المقتول له عشرة إخوة، وهم ورثتـه، فطالب تسعة منهم بالقصاص، وعفا واحد منهم عن القـصاص، فـإن القصاص يسقط، وتجب الدية للجميع. ووجه ذلك قولـه: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ فـإن كلمـة «شيء» نكـرة في سـياق الـشرط فـتعم القليل والكثير.

٨ـ أنه يجب على العافي عن القـصاص أن يتبـع القاتـل بـالمعروف، بحيث لا يشق عليه ولا يضجره؛ لأنه عفا عن القصاص، فلـم يبـق إلا الدية دينًا في ذمة القاتل.

٩-وجوب أداء القاتل للدية بإحسان؛ لأن الذي عفا عنه أحسن إليه بإسقاط القصاص عنه، فكان الأداء إليه بإحسان من مكافأته على هذا العمل الجليل.

١٠- جواز النسخ في شرائع الله، وهو رفع الحكم الثابت بدليل شرعي، بمقتضى دليل شرعي. وقد سبق الكلام في ذلك [عند الكلام] على قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾[1] [البقرة: ١٠٦].

١١- محبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ للتخفيف على عباده؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وهذا أمر ظاهر في جميع الشريعة، فالشريعة مبناها على اليسر؛ لقول النبي ﷺ: «إن الدين يسر»[2]، ولقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقول النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم»[3].

١٢- محبة الله ـ عز وجل ـ لرحمة العباد؛ فإنه جل وعلا أرحم الراحمين بعباده، كما قال يعقوب لبنيه: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ

---

(١) الجزء الأول من كتاب الأحكام، (ص ٣٨٦).

(٢) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨).

﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

١٣ـ تحريم اعتداء أولياء المقتول على القاتل إذا عفوا عنه، وأنهم إذا اعتدوا بعد ذلك، أخذوا بما يقتضيه عدوانهم. فلو أن أحـدًا مـن ورثـة المقتول لم يقتنع بالعفو، فذهب وقتل القاتل، فإنه يقتل، إذا تمت شروط القصاص.

١٤ـ جواز التعبد لله خوفًا من عذابه وعقابه؛ لأن الوعيد بالعذاب، يؤثر في كمال العبادة والتعبد. ويتفرع على هذه الفائدة: غلط من قال من بعض الناس: إن كمال العبادة أن تتعبد لله تعالى حبا فيه، لا طمعًا في ثوابه، ولا خوفًا من عقابه؛ فإن هذا قول ليس بصحيح؛ فقد قال الله تعالى عن أشرف الخلق محمد ﷺ وأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩].

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ﴾ أي: لكم في قتـل القاتـل المتعمـد ـ إذا تمـت الشروط ـ ﴿حَيَوٰةٌ﴾؛ وذلك أن القاتل إذا علم أنه إذا قتـل قتـل، فإنـه سوف يمتنع عن القتل، فتكون الحياة له، ولمن هم بقتله.

﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يا أصحاب العقول.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: فرضنا عليكم القصاص؛ لأجل أن تتقوا القتل الموجب للقصاص.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- بيان الحكمة من وجوب القصاص، وهي الحفاظ على حياة البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾.

٢- الإشارة إلى أن قتل القاتل: عدل، أي: من العدل؛ حيث سماه الله تعالى: قصاصًا، وهو: أخذ الجاني بمثل جنايته.

٣- أن القصاص سبب للحياة، وليس سببًا للموت، خلافًا للظالم المعتدي الذي يقول: «إن القصاص زيادة في الموت؛ فإن القاتل إذا قتل، انضم قتله إلى قتل المقتول، فيكون المقتول نفسين»، فيقال: لكننا إذا قتلنا القاتل، امتنع عن القتل آلاف الناس، فكان في ذلك حياة البشر، ولولا العقوبات التي قدرها الله ـ عز وجل ـ في بعض المعاصي، لانتهك الناس هذه المعاصي، ولم يبالوا بها.

٤- فضيلة العقل؛ لقوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ فجعل الله ـ تعالى ـ العقل: لبا، ومعلوم أن اللب هو المقصود، وأن القشور ما هي إلا غطاء لحفظ اللب.

٥- أنه يجوز الاستدلال بالعقل في بيان حسن الشريعة، فيما أمرت به، وفيما نهت عنه؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن الله تعالى لم يأمر بأمر، فيقول العقل: ليته لم يأمر به، ولم ينه عن شيء، فيقول العقل: ليته

لم ينه عنه.

٦- إثبات التحسين والتقبيح العقليين، بمعنى: أن العقل يشهد بأن هذا حسن، وهذا قبيح، لكن ليس للعقل أن يحلل أو يحرم أو يوجب؛ لأن هذا إلى الله وحده.

٧- إثبات العلل والحكم، فيما شرعه الله؛ لقوله تبارك وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأن «لعل» هنا للتعليل.

* * *

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فرض. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: إذا حل به الأجل، وهو كناية عن قرب أجله، بما يشاهده في نفسه من المرض. ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ «الخير» هنا، هو: المال الكثير.

﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ هذه نائب الفاعل، وعامله: كتب، أي: كتبت عليكم الوصية، وحذفت تاء التأنيث من «كتب»، لوجهين: الوجه الأول: أن الوصية تأنيثها غير حقيقي، والثاني: طول الفصل بينها وبين عاملها.

﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ وهما: الأم والأب.

﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وهم: الإخوة وبنوهم، والأبناء وبنوهم، وإن شئت

فقل: الأبناء والبنات وأولادهم. المهم أن المراد بالأقربين: من كان أقرب فأقرب.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بالوصية، أي: أن يوصي بالمعروف، لا يتجاوز فيسرف، ولا يقصر.

﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿كُتِبَ﴾.

﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: على من اتصفوا بتقوى الله ـ عز وجل ـ ومعنى الآية: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فرض على من ترك مالًا كثيرًا، أن يوصي لوالديه وأقاربه، بالمعروف، وأكد ذلك بأنه حق على المتقين.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ وجوب الوصية للوالدين والأقربين، بالمعروف، بشرط أن يترك خيرًا. ولكن هذا العموم مخصص بقوله ﷺ: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»[1]، أي: أنه مخصص بآيات المواريث. فإن آيات المواريث، جعل الله فيها لكل وارث ما اقتضت حكمته أن يكون له. وعلى هذا: فالورثة لا يوصى لهم؛ لأن الوصية للوارث، تعد لحدود الله ـ عز وجل ـ فمثلًا: إذا أوصى الرجل لأمه

---

(١) رواه الترمذي: كتاب الوصايا، باب ما جاء «لا وصية لوارث»، رقم (٢١٢٠،٢١٢١)، والنسائي كتاب الوصايا، باب إبطال الوصية لوارث، رقم (٣٦٤١، ٣٦٤٣)، وأبو داود كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية لوارث، رقم (٢٨٧٠، ٣٥٦٥)، وابن ماجة كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، رقم (٢٧١٣، ٢٧١٤)، وأحمد (١٧٢١٣، ١٧٦١٧، ٢١٧٩١).

بمال زائد على نصيبها من الميراث، فهذا تعد لحـدود الله؛ لأن الله جعـل للأم السدس، أو الثلث، حسب ما هـو معلـوم في علـم الفـرائض. إذًا هذه الآية عامة، لكنها خصت بالورثة، فلا يوصى لهم. وقيـل: إن هـذه الآية منسوخة وأن الوصية لا تجب للأقارب الـذين لا يرثـون. ولكـن النسخ يحتاج إلى شرط لا يتحقق في هذه الآية، وهـو ألا يمكـن الجمـع بين النصين، فإن أمكن الجمع بين النصين، فإنـه لا نـسخ؛ لأن النـسخ يقتضي إبطال أحد النصين ـ وهو أمر ليس بالسهل ـ فإذا أمكن الجمـع بين النصين فلا نسخ وهنا يمكن الجمع، فنقول: يجب على الإنـسان أن يوصي للأقارب غير الوارثين، إذا ترك مالًا كثيرًا، وأما الوارثـون فهـم على ما فرض الله لهم من الميراث. مثال ذلك: رجل مات عن أمه وأبيـه وأخيه الشقيق. أخوه الشقيق لا يرث؛ لأن أباه يحجبه، فيجب على هذا الرجل أن يوصي لأخيه الشقيق بشيء من المال قليلًا كـان أو كثـيرًا، إن ترك مالًا كثيرًا. أما إذا لم يـترك إلا مـالًا قلـيلًا، فإنـه لا يجـب عليـه أن يوصي له. وهذا القول ذهب إليه جماعة مـن أهـل العلـم، ومـنهم ابـن عباس رضي الله عنهما، أي: أنه يجب على الإنسان إذا ترك مالًا كثيرًا أن يوصي لأقاربه غير الوارثين، بما يشاء، لكن جمهور الأمة على أن الوصية للأقارب غير واجبة.

٢ـ اعتبار قول من حضره الموت، يعني: أن المحتـضر يعتـبر قولـه، لكن بشرط: أن يكون معه عقله، فإن لم يكن معه عقله؛ فلا عبرة بقوله.

٣- أنه إذا اعتبر قول من حضره الأجل، فإن توبته تقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله ـ تعالى ـ يقبل توبة العبد، ما لم يغرغر»[(١)].

٤- أن الأحكام منوطة بأسبابها؛ لقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وهذا كما يقال: على الإنسان الزكاة، إن ملك النصاب.

٥- أن الله ـ تعالى ـ أرحم من الأولاد بوالديهم؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوصى الأولاد، بل فرض على الأولاد أن يوصوا لوالديهم، وهذا يدل على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أرحم من الإنسان بوالده. وفي قوله ـ تعالى ـ في سورة النساء:﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾ [النساء: ١١]. دليل على أن الله أرحم بعباده من الوالدين بأولادهما. فيكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرحم بالأصول من فروعهم، وبالفروع من أصولهم.

٦ـ اعتبار العرف؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾، وهذا في مواضع كثيرة. وقد قال أحد الناظمين:

وكل ما أتى ولم يحدد بالشرع كالحرز فبالعرف احدد[(٢)]

فالعرف يكون مناطًا للأحكام في مواضع كثيرة؛ لقوله: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾.

---

(١) رواه الترمذي كتاب الدعوات، باب رقم (٩٨) حديث (٣٥٣٧)، وابن ماجة كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٣)، وأحمد: (٦١٢٥، ١٥٠٧٣، ٦٣٧٢، ٢٢٥٥٩).

(٢) هو للمؤلف ـ رحمه الله ـ انظر منظومته في أصول الفقه (ص ١٦).

٧- أن التقوى توجب للإنسان أن يقوم بأمر الله - عز وجل -؛ لقوله:﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ولا شك أن التقوى تحمل الإنسان على فعل الطاعات وترك المحرمات، بل إن فعل الطاعات وترك المحرمات هو التقوى حقيقةً.

٨- تأكيد الوصية للوالدين والأقربين؛ حيث قال:﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾، ثم قال: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٩- أن من لم يقم بهذه الوصية؛ فإنه يفوته من التقوى بقدر مخالفته.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨١].

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ ﴾ أي: غيره، أي: غير الوصية التي فرضها الله - عز وجل - في الآية السابقة.

﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ ﴾ أي: علم به، بواسطة السمع.

﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ﴾ وليس على الموصي؛ لأن الموصي قام بما يجب عليه، فصار الإثم على المبدل المغير.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يسمع قول من غير الوصية بقوله، ويعلم حال من غير بقوله أو كتابته أو غير ذلك.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- تحريم تغيير الوصية؛ لقوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾، ولأن تغيير الوصية؛ تصرف في حق الغير بغير حق، إلا أنه يستثنى من ذلك ما سيأتي في الآية التالية.

٢- أن الإنسان إذا عمل الخير، ثم تصرف فيه الغير، بما ليس بخير، فلا إثم على الأول، وإنما الإثم على الثاني؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾.

٣- إثبات هذين الاسمين الكريمين لله ـ عز وجل ـ، وهما: «السميع»، و«العليم». وقد ذكر العلماء ـ رحمهم الله ـ أن السميع» له معنيان: المعنى الأول: إدراك المسموع، والمعنى الثاني: استجابة الطالب السائل. ومثلوا للأول بقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، ومثلوا للثاني بقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]: أي: لمجيبه. وقد سبق لنا تفصيل القول في ذلك. وأما العليم»، فيستفاد منه وصف الله ـ تعالى ـ بالعلم. وعلم الله ـ تعالى ـ محيط بكل شيء، جملةً وتفصيلًا، فيما كان من فعله ـ عز وجل ـ، أو من فعل عباده، فيما كان ماضيًا، [وما كان حاضرًا]، وما كان مستقبلًا. ولهذا لما قال فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، قال موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا

يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يتصف بالجهل ولا بالنسيان.

٤ـأن الإيمان بكون الله سميعًا عليمًا، يستلزم ألا يقول الإنسان قولًا يغضب الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه إن قال، فقد سمعه ـ عز وجل ـ، وألا يعمل عملًا يغضب الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه إن عمل، فقد علمه ـ عز وجل ـ، فيوجب الحذر من المخالفة. وبهذه المناسبة، أذكر إخواني المسلمين أن ينتبهوا إلى هذه المسألة، وهي: أن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ يراد بها الإيمان بها وبمقتضاها، وأن يتعبد الإنسان لله ـ تعالى ـ بذلك.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨٢].

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾ أي: ميلًا عن الحق.

﴿أَوْ إِثْمًا ﴾ أي: تجاوزًا للحق.

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: بين الموصي، ومن وراءه من الورثة.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ ﴾. وهذه الآية كالاستثناء من الآية السابقة في قوله: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨١].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو مغفرة ورحمة، فيغفر لمن فعل جنفًا أو إثمًا، ويرحم من عدل إلى الصراط المستقيم.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن من غير الوصية لكونها تتضمن الجنف أو الإثم، فإنه لا إثم عليه. ونفي الإثم هنا لا يقتضي أنه ليس له أجر، بل له أجر، لكن لما كان في مقابلة ما سبق من الوعيد على من بدل، قال: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾. ونفي الإثم هنا: ليس المراد مطلقًا نفي الإثم، بل المراد أنه يؤجر على ذلك؛ لأنه مصلح.

٢ـ أنه إذا حصل في الوصية جور أو إثم، فإنه يجب أن يعدل. مثال ذلك: رجل أوصى لأحد الورثة، فيجب أن تلغى هذه الوصية؛ لأنها جنف. ومثال آخر: لو أن رجلًا أوصى بأكثر من الثلث، فإنه يجب أن تعدل الوصية إلى الثلث، إلا أن يشاء الورثة.

٣ـ فضيلة الصلح؛ لقوله: ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾، ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨]، كما قال الله ـ عز وجل ـ. ويدخل في جميع المعاملات والحقوق، فمتى أمكن الإصلاح، فهو خير، وإذا لم يكن الإصلاح، رجعنا إلى المحاقة والمطالبة ورفع الأمور إلى الحاكم الشرعي.

٤ـ أن الصلح لا بد فيه من رضا الطرفين؛ لقوله: ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ولا يجوز أن يفرض الصلح على أحد الطرفين دون الآخر.

٥ـ إثبات هذين الاسمين الكريمين لله ـ عز وجل ـ «الغفور»، «الرحيم». فالغفور: ذو المغفرة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه. فيستر الله على عبده فلا يعلم به العباد، ويعفو عنه، فلا يعاقبه عليه؛

لأن «المغفرة» مأخوذة من المغفر، وهو: ما يوضع على الرأس لتوقي السهام.والمغفـــر فيـه الستر والوقاية. وأما «الرحيم»: فهو ذو الرحمـــة. ورحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ: رحمة واسعة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[الأعراف: ١٥٦]. وقالت الملائكة: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر: ٧]. وقد سبق لنا تفصيل القول في الرحمة، وأنها تنقسم إلى [قسمين:] عامة، وخاصة، فليرجع إلى ذلك[1].

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يعمنا بمغفرته ورحمته، وأن يجعلنا من عبـاده الصالحين، وأوليائه المتقين؛ إنه سميع قريب.

* * *

قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣].

يقال في قولـه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾مـا قيـل في سـابقتها مـن أن ابتداء الخطاب بالنداء، يدل على أهميته، وتوجيهه إلى المؤمنين يدل عـلى أن امتثاله من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان.

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾أي: فرض.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾أي: كما فرض عـلى الـذين

---

(1) ص: ١٦٢.

من قبلكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لأجل التقوى.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ وجوب الصيام؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾. ومرتبة صيام شهر رمضان من الدين، أنه أحد أركان الإسلام الخمسة التي بني عليها.

٢ـ أهمية الصيام، وأنه عبادة لا تصلح الأمم إلا بها؛ لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ولا يلزم من كتابته على من قبلنا، أن يكون مماثلًا أو مساويًا لما كتب علينا، قد يختلف في العدد والزمن.

٣ـ تسلية هذه الأمة، بأن هذا الصيام الذي فيه شيء من المشقة، قد كتب على من قبلنا، ومن المعلوم أن الإنسان يتسلى بغيره فيما يناله من مشقة.

٤ـ فضيلة هذه الأمة، حيث التحقت بمن سبقها في الفضائل والأعمال الصالحة؛ لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٥ـ أن الصيام سبب للتقوى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وأن من لم يظهر عليه أثر التقوى بالصيام، فصيامه ناقص؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع

طعامه وشرابه»(١). ففائدة الصيام وحكمة الصيام: تقوى الصائم لله ـ عز وجل ـ، فلا يرفث، ولا يفسق، بل لو قاتله أحد أو شاتمه فليقل: «إني صائم»(٢).

٦ـ إثبات الحكمة في شرع الله ـ عز وجل ـ وأنه ـ جل وعلا ـ لا يشرع شيئًا إلا لحكمة، سواء علمناها أم لم نعلمها، فإن علمناها، فهذا من فضل الله علينا؛ حيث نعرف به كمال الله ـ عز وجل ـ، وكمال شريعته، وتطمئن نفوسنا أكثر، وإن جهلناها، فما علينا إلا التسليم؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[الأحزاب: ٣٦].

٧ـ أن الصيام من مقتضيات الإيمان، حيث وجه الخطاب فيه إلى المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ إلخ.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ١٨٤].

---

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم (١٩٠٣).

(٢)وذلك كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شتم، رقم (١٩٠٤)، ومسلم كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١).

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعني: أن الصوم المفروض ليس شهورًا، ولا سنوات، ولا أيامًا طويلةً. بل هو أيامًا معدودات.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يعني: وشق عليه الصوم.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ عدة: مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فعليه عدة من أيام أخر.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ يعني: على الذين يستطيعونه.

﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي: إذا لم يريدوا الصوم.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ يعني: فمن تطوع خيرًا ببذل الفدية، فهو خير له.

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: إن كنتم من ذوي العلم.

ثم بين هذه الأيام المعدودات في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة:١٨٥].

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ تصوير الأمر الشاق بأمر سهل، حتى تنشط النفوس وتقبل عليه؛ لقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ فإن الله ـ تعالى ـ عرض الصوم هذا المعرض الذي يسهل على المرء أن يقوم بالصيام.

٢ ـ أن المريض لا يلزمه الصوم أداءً، بل له أن يؤخره حتى يبرأ؛ لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ والمرض هنا مطلق، فيقتضي أي مرض

كان، سواء كان المرض في عضو من أعضائه، أو في كـل بدنـه، وسـواء كان بالحمى أو غيرها. لكن هل يشترط أن يكون المرض شـاقا؟ يقـال: نعم. لا بد أن يكـون هـذا المـرض شـاقا عـلى الإنـسان أن يـصوم مـع وجوده، فأما إذا كان لا يشق عليه، فلا وجه لكونه عذرًا. هذا هو الذي عليه جمهور الأمة.

٣ـ أن من كان مسافرًا، فإنه لا يلزمه أداء الصوم، بل له أن يـؤخره إلى وقت آخر. وقد دلت النصوص على أن السفر إن كان لا توجد فيـه مشقة بالصوم، فالأفضل أن يصوم؛ إقتـداءً برسـول الله ﷺ، وتعجـلًا لإبراء الذمة، ولأنه أسهل من القضاء ـ كما هو معروف ـ وأمـا إذا كـان فيه شيء من المشقة، فالأفضل الفطر، وليس من البر أن يصوم.وأما إذا كان فيه مشقة شديدة، فإن الصوم يحرم؛ لأن النبي ﷺ شـكي إليـه مـا يجده الناس من الصوم، فأفطرو والناس ينظرون إليه، ثـم قيـل لـه: إن بعض الناس قد صام، فقال: «أولئك العصاة، أولئك العصاة»(١).

فيكون الصوم في السفر على هـذه الوجـوه الثلاثـة. وللمـسافر أن يفطر وإن لم يشق عليه الصوم؛ لأن الصحابة مع النبـي ﷺ كـان مـنهم الصائم، ومنهم المفطر، ولا يعيب بعضهم على بعض.

---

(١) رواه مسلم كتـاب الـصيام، بـاب جـواز الـصوم والفطـر في شـهر رمـضان للمـسافر في غـير معصية...، رقم (١١١٤).

٤ـ أن الصيام أول ما فرض، كان الناس فيه مخيرين بين الصوم والإطعام؛ لقوله:﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وهذا هو الصحيح من تفسير الآية الكريمة: أنها دالة على التخيير الذي كان في أول الأمر، وقد دل على ذلك حديث سلمة بن الأكوع، الثابت في الصحيحين، قال: (لما نزلت:﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، كان من أراد أن يفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها[1].

وقال بعض أهل العلم: إن معنى قوله:﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ يطوقونه أي: يبلغ طاقتهم، ويتكلفون به، فعليهم فدية، لكن هذا القول ينقضه قوله:﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فإن هذا يدل على أن المخاطب قادر على الصيام. وقال بعضهم: إن معنى﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: لا يطيقونه. وهذا أبعد وأبعد. فالصواب ما ذكرنا: أن الآية دالة على التخيير بين الإطعام والصيام الذي كان جائزًا في أول الأمر، ثم تعين الصيام.

٥ـ بيان حكمة الله ـ عز وجل ـ في التشريع. وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يشرع الأحكام شيئًا فشيئًا خصوصًا فيما يشق على الناس، ألا ترى أنه

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ رقم (٤٥٠٧)، ومسلم كتاب الصيام، باب بيان نسخ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ رقم (١١٤٥).

ـ سبحانه وتعالى ـ حين أراد أن يحرم الخمر، جعل تحريمه متدرجًا، وهكذا الصوم، لما أراد ـ عز وجل ـ أن يفرضه على العباد، جعل فرضه متدرجًا. ففي أول الأمر يخير الإنسان بين أن يصوم أو يفدي، ثم تعين الصوم.

٦ـ أن التطوع بالعبادات خير، سواء كان في أعلى المقامات، أو فيما دونه؛ لقوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٧ـ أن الأعمال تتفاضل جنسًا ونوعًا؛ لقوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٨ـ محبة الله ـ تعالى ـ للصوم؛ لقوله: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٩ـ توجيه الخطاب لذوي العلم؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٠ـ فضيلة العلم، وأن الإنسان يدرك به ما يخفى على غيره.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وسمي بذلك؛ لأنه كان ـ حين التسمية ـ موافقًا لشدة الرمضاء والحر.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾أي: أنزله الله ـ عز وجل ـ فإن الله ـ تعالى ـ أنزل القرآن في ليلة القدر، أي: ابتداء إنزاله، وليلة القدر في رمضان.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾هدىً: مفعول لأجله، أي: أنزل القرآن لأجل هداية الناس.

﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾أي: علامات واضحة من الهدى والفرقان؛ لأن هذا القرآن الكريم يشتمل على التفريق بين الحق والباطل، وبين أهل الخير وأهل الشر.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾شهد، بمعنى: شاهد، ويحتمل أن تكون بمعنى: حضر.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾وسبق القول فيها.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾أي: يحب أن ييسر عليكم، ولا يحب أن يعسر عليكم، فالإرادة ـ هنا ـ شرعية.

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ «الواو»: حرف عطف، والمعطوف عليه محذوف يعلم من السياق، فكأنه قال: لتقوموا بطاعته ولتكملوا العدة. أي: عدة الشهر.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾أي: من أجل هدايته إياكم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـأن الصوم الذي كتبه الله علينـا، معيـــن في وقــت معـين، وهــو شهر رمضان.

٢ـ أن القرآن نزل في رمضان، أي: ابتدأ الله إنزاله على محمد ﷺ في رمضان.

٣ـإثبـات علـو الله؛ لقولـه: ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾؛لأن مـن المعلوم أن القرآن كلام الله، فإذا كان منزلًا، كان الذي تكلم بـه عاليًـا، جل وعلا.

٤ـ أن القرآن هدىً وبيان وفرقان؛ لقولـه: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾.

٥ـ الحث على تدبر القرآن؛ حيث جعله الله ـ عز وجل ـ: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾، ومعلوم أن الإنسان يطلب الهدى من أي مكان كـان، وهـذا يحصل بالتدبر ـ أي: تدبر القرآن ـ فمن تدبر القرآن طالبًـا الهـدى منـه، تبيـن له طريق الحق.

٦ـ وجوب صوم رمضان بمـشاهدة ـ أو شـهود ـ هلالـه؛ لقولـه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾. وقد تبـين بالـسنة أن دخـول شـهر رمضان يثبت بشهادة واحد من الناس، فإن رجـلًا جـاء إلى النبـي ﷺ وأخبره أنه رأى الهلال، فقال لـه: (أتـشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدًا رسـول الله؟ قـال: نعـم. فـأمر بـلالًا أن يـؤذن في النـاس أن يـصوموا

غدًا)[١]. وكذلك ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: تراءى الناس الهلال، فأخبرت النبي ﷺ أني رأيته، فصامه، وأمر الناس بصيامه[٢].

٧ـ أن الهلال إذا شوهد في مكان، ولم يشاهد في مكان آخر، فإنه لا يجب على من لم يشاهده أن يصوم؛ لأن الله ـ تعالى ـ علق وجوب الصوم بشهود الهلال. وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم، فمنهم من قال: إنه إذا ثبتت رؤية هلال رمضان، وجب على جميع الأمة الإسلامية أن تصوم في أي قطر كانت، ومنهم من قال: إذا كان الناس تحت ولاية واحدة، وشوهد في هذه الولاية، وجب على كل أهل الولاية أن يصوموا، ولا فرق بين من رآه ومن لم يره، ومنهم من قال: من رآه وجب عليه الصوم، ومن لم يره لم يجب عليه. قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: تختلف مطالع الهلال، باتفاق أهل المعرفة.

فإن اتفقت المطالع وجب الصوم، وإلا فلا.

وعمل الناس ـ غالبًا ـ اليوم أنهم يتبعون من ثبت الشهر عنده على

---

(١) رواه الترمذي كتاب الصوم، باب ما جاء في الصوم بالشهادة، رقم (٦٩١)، والنسائي: كتاب الصيام، باب قبول شهادة الرجل الواحد على هلال رمضان، رقم (٢١١٢، ٢١١٣)، وأبو داود كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، رقم (٢٣٤٠)، وابن ماجة: كتاب الصيام، باب ما جاء في الشهادة على رؤية الهلال، رقم (١٦٥٢)، والدارمي (١٦٩٢).

(٢) رواه أبو داود كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان رقم (٢٣٤٢)، والدارمي (١٦٩١).

وجه يثقون به.

٨- أن الإنسان إذا فاته الشهر كاملًا، وكان الشهر ناقصًا - أي: كان تسعةً وعشرين يومًا - فإنه لا يلزمه أن يقضي ثلاثين يومًا، بل لا يقضي إلا تسعةً وعشرين يومًا؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. وظاهر الآية الكريمة: أنه لا فرق بين أن تكون هذه الأيام في العام الذي حصل فيه الفطر، أو فيما بعدها، ولكن قد دلت السنة أنه لا يؤخر القضاء إلى ما بعد رمضان الثاني، قالت عائشة - رضي الله عنها -: «كان يكون علي الصوم من رمضان، فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان»[1]. وهذا يدل على أنه لا يؤخر إلى ما بعد رمضان الثاني، وإلا لكان ما بعد رمضان الثاني وما قبله سواء.

٩- أن الله - سبحانه وتعالى - كتب على عباده ما كتب من الفرائض، لا للإشقاق عليهم، ولا لإلحاق الحرج بهم، ولكنه - عز وجل - يريد بذلك التيسير والتسهيل؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الأفضل للمريض الذي يشق عليه الصوم، أو المسافر الذي يشق عليه الصوم، أن يفطر؛ لأن هذا هو الأيسر في حقه.

١٠- أنه إذا تعارضت الأدلة في حكم من الأحكام، ولم يتبين

---

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب متى يقضي قضاء رمضان، رقم (١٩٥٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب قضاء رمضان في شعبان، رقم (١١٤٦).

رجحان أحدها على الآخر، فإن مقتضى إرادة الله اليسر على العباد أن يؤخذ بالأيسر. وهذا هو القول الراجح، أنه إذا تعارضت الأدلة في حكم من الأحكام ـ يعني: بعضها يفيد التحريم، وبعضها يفيد الحل ـ واشتبه الأمر، فإننا نأخذ بالأيسر؛ لأن ذلك هو الموافق لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

١١ ـ الحث على إكمال العدة على الوجه المطلوب؛ لقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

١٢ ـ تكبير الله ـ سبحانه وتعالى ـ عند انتهاء العدة، على هدايته لنا وتسهيل الصوم علينا؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾. وهذا يكون بعد غروب الشمس من آخر يوم من رمضان إلى أن يحضر الإمام لصلاة العيد، فيكبر الناس في الأسواق والمساجد والبيوت، يجهر بذلك الرجال، وتسر به النساء. وصفة التكبير أن يقول: الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، أو يقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر. الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، كل هذا جائز.

١٣ ـ أنه يجب أن نعترف لله بالفضل على هدايته إيانا؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٤ ـ الحث على الشكر، والشكر هو: القيام بطاعة المنعم، عقيدةً وقولًا، وعملًا. نسأل الله أن يعيننا جميعًا على ذكره، وشكره، وحسن

عبادته، وأن ييسر لنا الأمور، رب اشرح لي صـدري، ويـسر لي أمـري. اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كـل بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى ﴾ الخطاب في هذه الآية لرسول الله ﷺ.

والمراد بالعباد هنا: عباد الشريعة، يعني: العباد الذين يتعبدون لله ـ تعالى ـ بما شرع، فهي العبودية الخاصة.

وقوله ـ تعـالى ـ: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ هـذا القـرب حقيقـي، ولكنـه لا ينافي ما ذكر من علوه جل وعلا. فإنه قريب في علوه، علي في دنوه؛ لأنه ـ جل وعلا ـ عال فوق خلقه، مستو على عرشه.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ يعنـي: أن الإنـسان إذا دعـا ربـه، فإن الله ـ تعالى ـ يجيب دعاءه. ولكن لإجابة الدعاء شروط:

منها: الإخلاص لله ـ عز وجل ـ بألا يشرك معه أحدًا في دعائه.

ومنها: حسن الظن بالله، أن يجيب دعاءه.

ومنها: شعور الإنسان بالافتقار إلى الله تبارك وتعالى.

ومنها: اجتناب أكل الحـرام؛ لأن أكـل الحـرام مـن موانـع إجابـة

الدعاء، فقد ذكر النبي ﷺ: «الرجل يطيل السفر، أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام. فأنى يستجاب لذلك!!»[1]. فاستبعد النبي ﷺ أن يستجاب لمن يأكل الحرام، ويتغذى به.

وقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: فليستجيبوا لأوامري، فيقوموا بها، وليستجيبوا لمقتضى نهيي، فيتركوا ما نهيت عنه.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾أي: ليحققوا إيمانهم، بالاستجابة لله ـ عز وجل ـ .

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾: (لعل) ـ هنا ـ: للتعليل، أي: من أجل أن يرشدوا، والرشد: حسن التصرف. ويفسر في كل موضع بما يناسبه.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عالم بما يستقبل، كما هو عالم بما مضى، وبالحاضر. ووجه الدلالة: قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ و«إذا» لما يستقبل من الزمان، وهي تفيد وقوع الشرط.

٢ـ حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على الأسئلة النافعة.

٣ـ فضيلة من تعبد لله بشرعه، ووجه ذلك: إضافة عبوديتهم إلى الله، فقال ـ تعالى ـ: ﴿عِبَادِي﴾. وإضافة العبودية إلى الله ـ تعالى ـ شرف لا يساويه شرف؛ ولهذا يذكره في مقام التشريف كقوله ـ تعالى ـ:

---

(١) رواه مسلم كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥).

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان:١]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف:١]. والعبودية لله ـ عز وجل ـ هي الحرية الحقيقية، وأما من تحرر من عبودية الله، فقد استرق للشيطان. قال ابن القيم ـ رحمه الله في النونية:

هربوا من الرق الذي خلقوا له   وبلوا برق النفس والشـــيطان

٤ـ قرب الله ـ تعالى ـ لمن دعاه، ولهـذا يـشعر الـداعي بقـرب الله ـ تبارك وتعالى ـ كأنه يراه. وهذا من تمام الإحسان. فإن قـال قائـل: هـل قرب الله ـ تعالى ـ ينافي علوه؟ قلنا: لا، لا ينافي علـوه؛ لأنـه ـ سـبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء، في جميع صفاته، كما قال شيخ الإسـلام ابـن تيمية ـ رحمه الله ـ في العقيدة الواسطية: (فإن الله ـ تعـالى ـ لـيس كمثلـه شيء، في جميع نعوته، فهو قريب في علوه، علي في دنوه».

٥ـ إجابة الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ للـداعي؛ لقولـه: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾. وهذا الإطلاق مقيد بألا يدعو بإثم أو قطيعة رحـم، كما جاءت بذلك السنة. ومن الـدعاء بـالإثم: أن يـدعو الإنـسان عـلى شخص لا يستحق الدعاء عليه. فإن قال قائل: ما أكثر من يدعون الله، ولا يجدون إجابةً؟ فالجواب: أن ذلك إما لفـوات الـشرط، أو لوجـود مانع، أو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ادخر ذلك لهم؛ ليكون مثوبـةً وقربـةً إلى الله تعالى.

٦ـ اشتراط الإخلاص في الدعاء؛ لقوله: ﴿إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ يعنـي: ولم

يشرك معي أحدًا.

٧- وجوب الاستجابة لله، والإيمان به؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾.

٨- إثبات العلل، وأن أحكام الله - تعالى - وأفعاله معللة بالحكمة البالغة التي قد ندركها، وقد لا ندركها.

* * *

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ المحلل والمحرم هو: الله - عز وجل - ولا أحد يحلل أو يحرم من دون الله - عز وجل -. والحلال ضد الحرام.

وقوله: ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ يعني: الليلة التي تصومون من غدها.

﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ يعني بذلك: الجماع ومقدماته.

ثم علل هذا الحكم - وهو الإحلال - بأنهن لباس للأزواج، والأزواج لباس لهن. وذلك لأن الزواج ستر للزوج وللزوجة،

بتحصين الفرج، وغض البصر ، وغير ذلك، مما يترتب عليه من السـتر، فقال ـ تعالى ـ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

ثم بين ـ عز وجل ـ أنه أحل ذلـك؛ لأنـه يعلـم أن الإنـسان يختـان نفسه، ويخـدعها، ويمـلي لهـا، [فقـال ـ تعـالى ـ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. وسبب ذلك] أن في الإنـسان نفـسين: نفـس أمارة بالسوء، ونفس مطمئنة.

فالنفس الأولى تـأمره بمخالفـة أمـر الله ورسـوله، والثانيـة تـأمره بطاعة الله ورسوله.

ثم قال ـ تعـالى ـ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ تـاب علـيكم أي: على ما سلف من فعلكم. وعفا عنكم: عما أوجبه عليكم.

وكان الناس في أول الأمر، إذا نام الإنسان قبل صلاة العشاء، حرم عليه الرفث إلى امرأته إلى أن تغرب الشمس مـن الغـد، أو إذا تعـشى، حرم عليه الرفث إلى امرأته إلى غروب الشمس من الغد فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية رخصةً لهـم، وتـسهيلًا علـيهم. وبيـن ـ سبحانه وتعالى ـ أنه تاب عليهم فيما فعلوا قبل التحليل، وعفـا عنهم، فأسقط عنهم وجوب الإمساك إذا ناموا أو صلوا العشاء.

ثم بيـن ـ جل وعلا ـ أنه أباح لنا أن نباشر النـساء، وأن نبتغـي مـا كتب الله لنا.

والمراد بالمباشرة هنا ما دون الجماع، والمراد بـ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

المراد بها الجماع؛ لأن المراد بقوله: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ أي: من الولد، وهذا لا يحصل إلا بالجماع. فأباح الله ـ تعالى ـ أن نباشر النساء ليلة الصيام بما دون الفرج، وبالجماع.

وأباح أيضًا الأكل والشرب، فقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ والخيط الأبيض: بياض النهار، والخيط الأسود: سواد الليل.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ بيان لوقت تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ثم أمر الله ـ تعالى ـ بإتمام الصيام ـ وهو: الإمساك عن المفطرات تعبدًا لله ـ عز وجل ـ من حين أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلى الليل، وذلك غروب الشمس.

ثم نهى ـ سبحانه وتعالى ـ أن نباشر النساء ونحن عاكفون في المساجد، فقال: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ وهذا يشمل الجماع وما دونه.

﴿وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ يعني: والحال أنكم عاكفون في المساجد. والعكوف: هو لزوم المسجد للتفرغ لطاعة الله ـ عز وجل ـ.

وبين ـ عز وجل ـ أن هذا الذي شرعه لنا من حدود الله، ونهانا عن قربانها

فقال ـ تعالى ـ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾.

وليعلم أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾، وأحيانًا يقول: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ قال العلماء: والفرق

بينهما أنه إن كان الحد في المأمورات، فالنهي عن الاعتداء ـ أي: عن تعديها، والخروج منها ـ، وإن كان من المنهيات، فالنهي عن قربانها؛ لأن المنهي عنه منهي عن القرب منه؛ لئلا تسول له النفس أن يقع في الحرام الصريح.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: مثل هذا البيان يبين الله للناس آياته، أي: آياته الشرعية، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: لأجل أن يتقوا الله ـ عز وجل ـ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ إباحة الجماع، والأكل، والشرب، في ليالي رمضان؛ لقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ إلى أن قال: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

٢ ـ بيان ما يحصل بالنكاح من ستر أحد الزوجين للآخر؛ لقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

٣ ـ إثبات علم الله ـ عز وجل ـ بما في نفوسنا؛ لقوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. وعلم الله ـ تعالى ـ عام شامل، للظاهر والباطن، والخفي والجلي، والماضي والمستقبل والحاضر، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

٤ـ سعة عفو الله ـ تعالى ـ وحلمه، حيث تاب علينا وعفا عنا، حين علم ما يقع منا من اختيان النفوس.

٥ـ أنه ينبغي للإنسان في جماعه أن يبتغي ما كتب الله له من الولد. ويتفرع على هذه الفائدة: أن من حكمة النكاح كثرة النسل، لتزداد الأمة؛ لأن بزيادة الأمة القوة والخير، والاستغناء عن الغير.

٦ـ جواز الأكل والشرب والجماع، إلى أن يتبين الفجر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، ويتفرع على ذلك: أنه يجوز للإنسان أن يأكل ويشرب ويجامع، مع الشك في طلوع الفجر؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ولأن الأصل بقاء الليل.

٧ـ جواز صوم الجنب، ووجهه: أن الله إذا أباح للإنسان أن يجامع إلى أن يطلع الفجر، لزم من ذلك ألا يغتسل إلا بعد طلوع الفجر، فيكون صوم الجنب صحيحًا. وقد ثبتت بذلك السنة عن رسول الله ﷺ: أنه كان يصبح صائمًا وهو جنب من جماع أهله[1] ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

٨ـ أن الأصل الثابت لا يزول إلا بيقين؛ لقوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾. وهذه الفائدة قد دل عليها ما ثبت في الصحيح من حديث عبدالله بن زيد، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ

---

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب الصائم يصبح جنبًا، رقم (١٩٢٥)، ومسلم كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، رقم (١١٠٩).

فيمن أشكل عليه هل أحدث أم لا؟ فأمر النبي ﷺ ألا يخرج من المسجد، ولا ينصرف من صلاته، حتى يسمع صوتًا، أو يجد ريحًا[1].

٩- أنه لا يجوز الفطر قبل تحقق غروب الشمس؛ ولهذا لا يجوز للإنسان أن يأكل ويشرب مع الشك في غروب الشمس، ويجوز أن يأكل ويشرب مع الشك في طلوع الفجر. ووجهه من هذه الآية أنه هناك قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، وهنا قال: ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾؛ ولأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، فالأصل في مسألة الفجر بقاء الليل، والأصل في مسألة الفطر بقاء النهار.

١٠- الإشارة إلى مشروعية الاعتكاف؛ لقوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾.

١١- أنه لا اعتكاف إلا في مسجد؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ والمساجد: تشمل جميع المساجد، من حل أو حرم؛ لأن «أل» فيها: للعموم، وليست للعهد، وعلى هذا فيصح الاعتكاف في كل مسجد، سواء كان من المساجد الثلاثة أو من غيرها. وما روي عن

---

(١) وردَ ذلك في حديث أبي هريرة -رَضِيَ الله عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وجَدَ أحدكم في بطنه شيئًا، فأشْكلَ عليه، أَخَرَجَ منه شيءٌ أم لا، فلا يخرُجَنَّ من المسجدِ حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا». وهذا الحديث رواه مسلم كتاب الحيض، باب الدليل على أنَّ من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك، رقم (٣٦٢).

حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى»[١]، فهو حديث ضعيف، وإن صح، فالمراد الاعتكاف التام، وأما الاعتكاف المجزئ، فيصح ويجزئ في كل مسجد.

١٢- أن مباشرة النساء من المعتكف، تبطل الاعتكاف؛ لأنه منهي عنه في نفس الاعتكاف، والمنهي عنه في نفس العبادة، يفسدها كما أفسد الكلام الصلاة؛ لأنه نهي عن الكلام في الصلاة.

١٣- مشروعية الاعتكاف، ووجهه أنه أنيط به أحكام، وهذا يدل على أنه من شرائع الله ـ عز وجل ـ. ولكن ما هو الاعتكاف المشروع المسنون، الذي هو من سنة الرسول ﷺ؟ الجواب: هو الاعتكاف في العشر الأواخر، كما اعتكف النبي ﷺ.

١٤- أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حد لعباده حدودًا، ونهاهم عن قربانها إذا كانت من المحرمات؛ لقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

وإنما حدد الله ـ عز وجل ـ شريعته لعباده؛ لأن ذلك أضبط وأيسر على المكلف، وأبلغ في امتحان المكلف؛ لأن بعض المكلفين قد يهون عليه شيء من الشريعة دون الشيء الآخر، وبعض المكلفين يصعب عليه كل

---

[١] أخرجه البيهقي (٤/ ٣١٩)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٣٧) (٩٦٦٩)، وعبدالرزاق (٤/ ٣٤٧) (٨٠١٤)، والطبراني في الكبير (٩/ ٣٠١) (٩٥٠٩) و(٩/ ٣٠١) (٩٥١٠) و(٩/ ٣٠٢) (٩٥١١)، والذهبي في سِيَرِ أعلام النبلاء (١٥/ ٨١).

أحكام الشريعة، وبعض المكلفين يهون عليه الأحكـام الـشرعية كلهـا، ويقوم بما أوجب الله عليه فيها. فكان في هذا امتحان للعباد.

١٥ـ الحذر من قربان محارم الله؛ لأن النبـي ﷺ قـال: «فمـن اتقـى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقـع في الـشبهات، وقـع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه»[1].

١٦ـ أن الله ـ تعالى ـ بيـن لعباده الأحكام؛ ليتقوه؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

١٧ـ أن في الآية إشارةً إلى أن الإنسان لا يكلف قبل العلـم، وعـلى هذا فلا تقوم الحجة عليه، إلا بعد العلم بالحجة.

١٨ـ أن آيات الله ـ تعالى ـ تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، كما في هذه الآية. وآيات كونية، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

١٩ـ عظم شأن التقوى، حيـث جعلهـا الله ـ تعـالى ـ غايـةً، لبيانـه لعباده؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٢٠ـ جواز النسخ في الشريعة. والنسخ: هو رفع حكـم الـنص، أو لفظه، بدليل. ووجهه من الآية: أن الله ـ تعـالى ـ أبـاح لعبـاده مبـاشرة

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم كتـاب المـساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

النساء، بالجماع وما دونه، والأكل والشرب، حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، بعد أن كان ذلك ممنوعًا إذا صلوا العشاء أو ناموا. والنسخ هنا: نسخ من أصعب إلى أسهل؛ لأن إحلال هذا الشيء للعباد لا شك أنه من التسهيل عليهم.

وقد ذكر العلماء ـ رحمهم الله ـ: أن النسخ يكون من أخف إلى أشد، ومن أشد إلى أخف، ومن مساو لمساو.

فمثاله من الأخف إلى الأشد: أن الله ـ تعالى ـ نسخ التخيير بين الصوم والفطر مع الإطعام، ثم عين الصيام، ومعلوم أن العبادة ـ إذا كان فيها تخيير ـ تكون أيسر من التعيين.

ومثاله من الأصعب إلى الأسهل: هذه الآية.

ومثاله من المساوي لمساويه: نسخ استقبال بيت المقدس، إلى استقبال الكعبة. فإن هذا بالنسبة لعمل المكلف لا فرق بين أن يستقبل بيت المقدس، أو أن يستقبل الكعبة.

والحكمة من ذلك: ابتلاء العباد، وبيان المنة عليهم. فإن كان من أخف إلى أشد، أو من مساو لمساو، فالحكمة فيه: الابتلاء، وإن كان من أشد إلى أخف، فالحكمة فيه: بيان فضل الله ـ عز وجل ـ على العباد، حيث خفف عنهم.

❊ ❊ ❊

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

في هذه الآية ينهى الله ـ عز وجل ـ عباده أن يأكلوا الأموال بينهم، حين يتداولونها بالباطل، وهو ما كان ضد الحق، وينحصر ذلك في شيئين: إما بجحد ما يجب على الإنسان بذله، وإما بدعوى ما ليس من حقه.

فمثال الأول ـ أعني جحد ما يجب على الإنسان بذله ـ: أن يكون في ذمة شخص لغيره ألف درهم، فيدعيه صاحبه، فينكر المطلوب، ويقول: إنك لا تستحق علي شيئًا. ويكون الطالب ليس عنده بينة، ففي هذه الحال: سوف يحكم القاضي ببراءة المدعى عليه، إذا حلف؛ لقول النبي ﷺ: «البينة على المدعي، واليمين على من أنكر»(١).

ومثال الثاني ـ وهو ادعاء ما ليس من حقه ـ: أن يدعي شخص على آخر أن في ذمته له مائة درهم، ويأتي ببينة زور، تشهد بذلك، فيحكم القاضي على المدعى عليه بالباطل، بناءً على هذه الشهادة الباطلة. ومن المعلوم أن القاضي سيحكم بما يظهر؛ لقول النبي ﷺ: «إنكم تختصمون

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي، رقم (١٣٤١)، ولفظه: «واليمين على المدّعى عليه». واللفظ المذكور أخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ١٢٣)، والدارقطني (٣/ ١١٠)؛ وعبدالرزاق في المصنف (٨/ ٢٧٣).

إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له، وإنما أقضي بنحو ما أسمع»[1].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ بيان طريق ما يأكل الإنسان به الباطل، أن يدلي بالأمر إلى الحكام، فيأتي بدعوى باطلة ويؤيدها بشهادة زور، وما أشبه ذلك.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ يحتمل أن تكون اللام للتعليل، أي: تفعلون ذلك لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم.

ويحتمل أن تكون للعاقبة، أي: أن أكلكم المال بالباطل يؤدي إلى هذه العاقبة الوخيمة، وهي أكل فريق من أموال الناس بالإثم.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أنه لا حق لكم في ذلك، وأن أكلكم المال بهذه الطريق أكل بالباطل.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١ـ حماية الأموال، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حمى أموال الناس أن يعتدي بعضهم على بعض فيها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

---

(١) رواه البخاري كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، رقم (٢٤٥٨)، ومسلم كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣).

٢ـ أن الحاكم إذا حكم بما لا يستحقه المحكوم له، فإن ذلك لا ينجيه عند الله؛ لقوله: ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بعد قوله: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾.

٣ـ الإشارة إلى أن الحاكم إذا أخطأ، وحكم بالباطل، فإنه لا إثم عليه؛ لأنه ليس له إلا الظاهر. ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأخطأ، فله أجر، وإن أصاب فله أجران»[1].

٤ـ أن من أكل مال غيره يظن أنه أكله بحق، ولم يعلم أنه أكله بباطل، فإنه لا إثم عليه؛ لقوله: ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولكن متى علم أنه لا حق له فيه؛ وجب عليه رد الحق إلى صاحبه، أو استحلاله منه.

مثال ذلك: رجل ادعى على شخص بمائة ريال، فقال المدعى عليه: إني قد قضيتكها. ومن المعلوم أن دعواه القضاء غير مقبولة إلا ببينة.

ولكن إذا لم يكن له بينة، فإنه سوف يقضى عليه بدفعها إلى صاحبها، ويلزم بذلك. فإذا قدر أن المطلوب قد قضاه، ولكن الطالب نسي، فلا إثم على الطالب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. لكن متى ذكر أن المطلوب قد أوفى، وجب عليه أن يرد ما أخذ منه.

---

(١) رواه البخاري كتاب الاعتصام باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (١٧١٦).

٥ـ أنه قد يؤخذ منها أن أكل مال المعاهد والمستأمن والذمي بالباطل محرم؛ لقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾. وهذا قد جاءت به السنة، بل قد جاء به القرآن، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

* * *

فهارس أحكام من القرآن الكريم

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٢)

أحكام من القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد

(٢ - ٢)

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

مدار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

أحكام من القرآن الكريم

المملكة العربية السعودية
عنيزة - ص.ب : ١٩٢٩
هاتف : ٠٦/٣٦٤٢١٠٧ - ٠٦/٣٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الطبعة الثانية
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس : ٤٧٢٣٩٤١ - ص ب : ٣٣١٠
فرع السويدي : هاتف : ٤٢٦٧١٧٧ - فاكس : ٤٢٦٧٣٧٧
المنطقة الغربية : ٠٥٠٤١٤٣١٩٨ المنطقة الشرقية والرياض : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨
المنطقة الشمالية والقصيم : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨ المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٧
التوزيع الخيري : ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤ - ٢٨٣١٤٥٣ التسويق والمعارض الخارجية : ٠٥٠٦٤٩٥٦٢٥
البريد الإلكتروني : Pop@dar-alwatan.com
موقعنا على الإنترنت : www.madar-alwatan.com

ثـم قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

الخطـاب في قولـه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ لرسـول الله ﷺ، والسـائل هـم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ سألوا النبي ﷺ لم يبدو القمر هلالاً أول الشهر، ثم لا يزال يتزايد حتى يبدر؟ فأجيبوا بهذا الجواب.

وقيل: إن الصحابة سألوا عن الأهلة، يعني: ما الحكمة منها، لا عن كونها تبدو هلالاً في أول الشهر، ثم تبدر في منتصف الشهر، فأجاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن هذا السؤال، حيث أمر نبيه ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾. هذه الحكمة من الأهلة، أن تكون بياناً للوقت للناس في معاملاتهم، وفي عباداتهم؛ لقوله: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾، فعموم قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يعني بذلك: جميع معاملاتهم وأعمالهم التي تتوقف على الشهور.

﴿وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ يعني: أن الحج أيضاً مقيد بالشهور، بالأهلة.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾ وكانوا يعتقدون أن الرجل إذا قدم من حج أو عمرة، فإنه لا يدخل من البيت، وإنما يدخل متسلقاً الجدار، فبين الله ـ تعالى ـ أن هذا ليس من البر، وأن البر هو التقوى؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ

مَنِ اتَّقَىٰ ﴾. والتقوى: أن يتخذ الإنسان وقاية من عذاب الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه. وأما دخول البيوت، فإنما يكون من أبوابها؛ ولهذا قال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾.

ثم أمر ـ تعالى ـ بالتقوى، وبين عاقبتها الحميدة، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١ ـ حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على معرفة حكم الله ـ عز وجل ـ في مخلوقاته ومشروعاته؛ لأن هذا السؤال لا يتعلق بأمور شرعية، وإنما يتعلق بأمور كونية.

٢ ـ أن المواقيت التي وضعها الله لعباده هي: الأهلة، وبناء على ذلك:

يتبين أن المواقيت التي يستعملها كثير من الناس اليوم، والمقرونة بأشهر وهمية، ليست لها علامات أفقية، ليس هو التوقيت الذي وضع الله عليه العلامات الحسية الظاهرة. وعلى هذا: فالتوقيت بالأشهر الهلالية، هو: التوقيت الذي وضعه الله ـ تعالى ـ لعباده، ويؤيد هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [التوبة: ٣٦].

والشهور الاثنا عشر هي: الشهور العربية المعروفة التي أولها المحرم، وآخرها ذو الحجة.

وإنما لزمنا أن نقول ذلك؛ لأنه ليست هناك أشهر حرم إلا في الشهور العربية الهلالية. وأما الشهور الإفرنجية أو الشمسية أو غيرها، فليس فيها أشهر حرم بلا خلاف.

٣- أن الأشياء المقيدة بالشهر، تعتبر بالهلال. وهذا ينبني عليه مسائل شرعية، ومسائل عادية.

فأما المسائل الشرعية: فالصوم حيث فرض الله علينا أن نصوم شهر رمضان. فبماذا نعرف وقت دخوله؟.

الجواب على هذا: أننا نعرفه بالهلال؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾. وكذلك يقال في عيد الفطر: إنه مقيد بالهلال، ولكن السنة بينت أنه مقيد بالهلال، أو بإكمال الشهر الماضي ثلاثين يوما.

ومن ذلك: العدة المقدرة بالأشهر؛ كعدة المتوفى عنها زوجها، وهي غير حامل؛ فإن عدتها أربعة أشهر وعشر؛. فيعتبر ذلك بالأشهر الهلالية. وعدة الآيسة المطلقة، وعدة الصغيرة التي لا تحيض المطلقة، معتبرة بثلاثة أشهر.

والمعتبر بهذه الأشهر: الهلال.

ومنها: الصيام في الكفارة، كفارة القتل، كفارة الظهار، كفارة الجماع في نهار رمضان، حيث إن فيها صيام شهرين متتابعين، فيعتبران بالأشهر الهلالية؛ فمثلا: إذا ابتدأ الإنسان في اليوم الحادي والعشرين من الشهر - في صيام شهرين متتابعين، فإنه ينتهي صيام الشهرين في اليوم العشرين من الشهر الثالث، فإذا قدرنا أنه ابتدأ الشهرين في الحادي والعشرين من شهر محرم، فإنه ينتهي في العشرين من شهر ربيع الأول، وعلى هذا فقس.

٤- إبطال العادات - وإن كانت مستقرة في النفوس - إذا كانت مخالفة للشرع؛ حيث قال - تعالى -: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾؛ فأبطل هذه العادة.

٥- أنه ينبغي للإنسان أن يأتي الأشياء من طرقها وأبوابها الموصلة إليها؛ لقوله: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾. وهذا كما يدخل فيه البيوت الحسية، يدخل فيه الأمور المعنوية، فينبغي للإنسان أن يأتي الأمور من أبوابها؛ كمسائل العلم: يأتي العلم من بابه، من أوله، يتعلمه شيئاً فشيئاً. مسائل المحادثات بين الناس: يتحدث إلى الناس بأقرب الطرق الموصلة إلى المقصود. والرفع إلى ولاة الأمر: يرفع إلى الجهة المباشرة له، ثم هي ترفع إلى الجهة التي فوقها، ثم إلى الجهة التي فوقها،

حتى تنتهي إلى رأس الدولة؛ لأن هذا من إتيان البيوت من أبوابها. وهكذا جميع الأمور، ينبغي للإنسان أن يأتيها من أبوابها، حتى يسهل عليه الولوج والوصول إلى المقصود.

٦ـأن المدار على تقوى الله ـ عز وجل ـ، لا على الصور والهيئات؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

٧ـبيان ما كثر وشاع من أن الكلمتين إذا أفردت إحداهما عن الأخرى، صارتا بمعنى واحد، وإذا جمعت إحداهما إلى الأخرى، صار لكل واحدة معنى. فهنا بين الله ـ تعالى ـ أن البر هو التقوى، لكنه في آية أخرى قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٢]، فجعل التقوى غير البر.

وعلى هذا، فإذا قرن البر بالتقوى، صار البر فعل الخيرات، والتقوى اجتناب المحرمات، وإذا ذكر أحدهما منفردا عن الآخر، شمل الآخر، ودل على الأمرين جميعا: فعل الخيرات، واجتناب المحرمات.

٨ـوجوب تقوى الله؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والتقوى هي أساس الخير كله، وهي التي أوصى الله ـ تعالى ـ بها عباده، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. ولها آثار حميدة، ذكرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم، وذكرها النبي ﷺ في السنة؛ فينبغي للإنسان أن يتتبع هذه

الآثار الحميدة، من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، حتى يعرف مزايا هذا العمل الجليل، وهو تقوى الله ـ عز وجل ـ.

٩ـ أن الأحكام معللة بالعلل المناسبة؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٠ـ إثبات الأسباب، وربط المسببات بها، وهذا هو الحق، خلافا لمن قال: بأن الأسباب فاعلة بنفسها، فغلا في إثباتها، وخلافا لمن قال: إن الأسباب لا تأثير لها في الفعل، فنفى ما فطر الله الخلق عليه، من أن المسببات مرتبطة بأسبابها، وجهه من الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فحكم وعلل، الحكم، هو الأمر بالتقوى، والتعليل أنها سبب للفلاح.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

في هذه الآية أمر الله ـ عز وجل ـ عباده أن يقاتلوا في سبيل الله من يقاتلهم، وألا يعتدوا على أحد بفعل ما لا يحل: من تمثيل، أو تنكيل، أو غدر بعهد، أو ما أشبه ذلك.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ

يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩١].

وفي هذه الآية أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن نقتل المشركين حيث وجدناهم [ودليل هذا قوله تعالى]: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: وجدتموهم.

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ يعني: أخرجوهم من ديارهم، كما أخرجوكم من دياركم.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ يعني: الصد عن سبيل الله الذي يقوم به هؤلاء المقاتلون من الكفار، أشد من قتلكم إياهم. فأنتم إذا قتلتم قتلا، فإما أن يكون مأذونا فيه، أو لا. فإن كان مأذونا فيه فلا لوم فيه، وإن كان غير مأذون فيه؛ فإن الفتنة أشد منه؛ لما يترتب على الفتنة من سوء العاقبة وشمول المضرة.

ثم نهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله، عند المسجد الحرام. والمسجد الحرام، هو مسجد مكة، والمراد به هنا: مسجد الكعبة، والعندية تقتضي ألا نقاتلهم في حمى هذا المسجد، وهو ما دخل في حدود الحرم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ﴾ «حتى» للغاية، أي: لا تقاتلوهم إلى أن يقاتلوكم فيه؛ أي: في المسجد الحرام، أو فيما عند المسجد الحرام ـ

على التعبير الأدق..

﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ﴾ عند المسجد الحرام ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾.

وتأمل الفرق بين التعبيرين، حيث قال في الأولى: ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ﴾، وفي الثانية لم يقل: فقاتلوهم، بل قال: ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾، وهو أشد وقعاً من المقاتلة.

﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: مثل هذه المجازاة، يجزى الكافرون.

في هاتين الآيتين من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١ـ الإخلاص لله ـ عز وجل ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

والمقاتل في سبيل الله، هو الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا يقاتل رياء، ولا شجاعة، ولا حمية، ولا من أجل غنيمة، أو غير ذلك من أمور الدنيا. وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

٢ـ أنه ينبغي ذكر ما يعين المرء على الفعل. فهذه الجملة فيها إغراء

---

(١) رواه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٢٨١٠)، ومسلم كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (١٩٠٤).

لقتالهم، يعني: كما كانوا يقاتلونكم، فلا تتركوهم قاتلوهم.

٣ـ أن من لم يقاتلنا، فإننا لا نقاتله، ولكن المفهـوم ـ كـما يقولـون ـ لا عموم له، إذ يصدق بصورة واحـدة، وعـلى هـذا: فيحمـل هـذا المفهـوم على الكفار الذين بيننا وبيـنهم عهـد. فـإن الـذين بيننـا وبيـنهم عهـد، لا يحل لنا أن نقاتلهم، ما استقاموا لنا.

وليعلم أن المعاهدين، على ثلاثة أقسام: قسم استقاموا لنا وبقوا على عهدهم، ولم نخف منهم خيانة، فهؤلاء يجب إتمام العهد لهم؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وقسم نكث عهده، وغدر وخان، وهذا يجب أن يقاتل؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٣ـ١٥].

القسم الثالـث ـ ممـن بيننـا وبيـنهم عهـد ـ: مـن لم يـستقيموا لنـا عـلى الوجه الأكمل، بل ظاهر حالهم الاستقامة، ولكننا نخاف من غـدرهم، فهؤلاء ينبذ إليهم العهد ويصارحون: بأنه لا عهد بيننا وبينكم.

٤ـ تحريم العدوان، حتى مع الكفار؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. فمن اعتدى على كافر معاهد أو غير معاهد، فقـد

وقع فيما نهى الله عنه، حتى إن رسول الله ﷺ نهى عن أن نمثل بمن ظهرنا عليه من الكفار، فقال: «ولا تمثلوا»[١] ونهى عن قتل الصغار، فقال: «ولا تقتلوا وليدا»[٢]؛ لأن ذلك من العدوان، إذ أن التمثيل لا ضرورة إليه، وقتل الولدان الصغار، والنساء، ومن لم يقاتل، لا حاجة إليه.

٥ـ إثبات المحبة لله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، ووجه ذلك أنه لو لم يكن له محبة، لم يكن لهذا النفي فائدة؛ فإن نفي محبته للمعتدين يدل على إثبات محبته للمقسطين. وقد جاء ذلك صريحا في كتاب الله ـ عز وجل[٣] ـ.

والمحبة صفة من صفات الله ـ تعالى ـ، تقتضي الإثابة، والإنعام، والإحسان.

وليست هي الإثابة، كما فسرها بها بعض الناس؛ لأن الإثابة فرع عن المحبة.

٦ـ تحريم الاعتداء، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: النهي عنه في قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾.

---

(١) رواه مسلم كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث. . . ، رقم (١٧٣١).

(٢) نفس الحديث السابق.

(٣) سورة المائدة آية (٤٢).

والوجه الثاني: في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

أما الآية الثانية، ففيها من الفوائد ما يلي:

١ـ وجوب قتل المشركين والكفار، أين وجدناهم، وهذا له أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، إلا إذا كان بيننا وبينهم عهد بذمة، أو أمان، أو معاهدة، فإنه إن كان بيننا وبينهم ذلك؛ وجب الوفاء لهم بما بيننا وبينهم؛ لأن هذا الدين الإسلامي، دين العدل، وليس دين الغدر والخيانة.

٢ـ ذكر ما يكون به الحث على التزام الحكم؛ لقوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾. فكأنه قال: أخرجوهم لأنهم أخرجوكم، وهذا لا شك أنه يغري المرء بالحكم، ويستوجب أن يقوم به على الوجه الذي أمر.

٣ـ أن صد الناس عن دينهم، أشد من قتلهم. ووجهه: أن صد الناس عن الدين، هلاك يكون به خسارة الدنيا والآخرة، وأما القتل، فهو هلاك يكون به خسران الدنيا فقط؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

٤ـ أنه لا يحل القتال عند المسجد الحرام؛ لقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ويستثنى من ذلك ما إذا كان دفاعا عن النفس، فإن كان دفاعا عن النفس؛ فإنه لا يكون حراما؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰ

يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾. ويستثنى من ذلك ما وقع لرسول الله ﷺ عام غزوة الفتح لكن النبي ﷺ بين أن ذلك من خصائصه، حين تحدث يوم الفتح، عن عظمة مكة وحرمتها، وبين أنه لا يحل القتال فيها، وقال: «إنما أحلت لي ساعة من نهار، ولم تحل لأحد قبلي، ولا لأحد بعده ﷺ»[1]. وقال ﷺ: «وإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله، ولم يأذن لكم»[2]، وهذا نص على أن هذا من خصائص الرسول ﷺ، لكن إن كان القتال دفاعا، فإنه جائز.

٥- أنه إذا جاز قتل الدفاع، جاز قصد قتل من في الحرم، ممن هاجم؛ لقوله: ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾، وهذا أبلغ مما لو قال: (فإن قاتلوكم فقاتلوهم) وهي قراءة مشهورة، لكن هذه القراءة - أي: فاقتلوهم - أبلغ.

٦- بيان ما يجازى به الكافرون من النكال والعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله - تعالى -: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

ثم قال - تعالى -: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢].

---

(١) رواه البخاري كتاب اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة رقم (٢٤٣٤)، ومسلم كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها..، رقم (١٣٥٥).

(٢) رواه البخاري كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)، ومسلم كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها . رقم (١٣٥٤).

يقـول ـ عـز وجـل ـ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي: عـن مقـاتلتكم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: فاغفروا لهم، ولا تأخذوهم بما جرى منهم. وذلـك أن انتهـاءهم عـن ذلـك ـ أي: عـن مقاتلـة المؤمنين، لكـونهم أسـلموا ـ سبب لغفـران مـا سـلف مـن الـذنوب؛ لقـول الله ـ تعـالى ـ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

* * *

ثـم قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

الخطـاب هنـا: للمـؤمنين عمومـا، والـضمير «الهـاء» في قولـه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ يعني: الكفار.

و«حتى» هنا: للغاية. ويحتمل أن تكون للتعليل، فإن كانت للغاية، فالمعنى: قاتلوهم ألا تكون فتنة. وإن كانت للتعليل، فالمعنى: قـاتلوهم لئلا تكون فتنة. والغاية واحدة، سواء قلنا بهذا أو بهذا.

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: حتـى لا يكـون صـد عـن سبيل الله، بحيث ينكف شرهم.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ يعنـي: وحتـى يكـون الـدين لله. أي: يكـون الدين الظاهر، هو دين الله ـ عز وجل ـ، فلا يجتمع دينان في مكان واحد

يتساويان: دين باطل، ودين حق، بل الواجب أن يكون الظاهر العالي، هو دين الحق.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن انتهوا وكفوا عن مقاتلتكم والعدوان عليكم ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فإنما أذنا لكم في مقاتلتهم؛ لأنهم ظالمون. فإذا انكفوا وكفوا شرهم، فإنهم لا يقاتلون، ما دام الدين الظاهر هو دين الله ـ عز وجل ـ.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١ ـ وجوب قتال المشركين وغيرهم من الكفار، حتى لا تكون فتنة في دين الله ـ عز وجل ـ؛ لأن بقاء هؤلاء المشركين والكفار يصدون عن دين الله ضرر كبير.

٢ ـ الإشارة إلى أن الحامل على قتال الكفار هو ألا تكون فتنة وهو أن يكون الدين لله، فلا يظهر في أرض الله من شرائع الناس، إلا شريعة رسول الله ﷺ.

٣ ـ أن الظالم هو المعتدي، وهو المستحق أن يردع عدوانه.

٤ ـ أن الظالم أهل لأن يردع ويمنع من ظلمه، سواء كان ظلمه في الأموال أو في الدماء أو في الأعراض.

* * *

ثـم قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ﴾، يعني: الشهر المحرم، الذي له حرمة ومزية على غيره.

والأشهر الحرم أربعة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ﴾ [التوبة: ٣٦]. وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. و«الباء» في قوله: ﴿بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾، للبدل يعني: أن قتالهم إياكم في الشهر الحرام، أو قتالكم إياهم في الشهر الحرام، بدل عن قتال الآخر، أو أن المعنى: أن العمرة التي فاتتكم في الحديبية في الشهر الحرام ـ وهو ذو القعدة ـ، سوف تقضونها في الشهر الحرام من العام الثاني، ولكن المعنى الأول أليق بالسياق.

﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ أي: مقاصة، فمن انتهك حرمتك، فانتهك حرمته، ولهذا قال: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾.

وقولـه: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ سـمى المجـازاة عدوانا لأن الحامل عليها هو العدوان، أو من باب المقابلة اللفظية دون

المعنوية.

وذلك لأن الجاني أولا هو المعتدي حقيقة، وأما من اقتص لحقه، فليس بمعتد.

ثم أمر الله - تعالى - بالتقوى ورغب فيها، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: معهم بالنصر، والتأييد، والمعونة، وهذه معية خاصة، كما سنذكره في الفوائد والأحكام - إن شاء الله -.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١ - وجوب العدل حتى مع الكفار، ومع الأعداء؛ لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

أي: لا يحملكم بغض قوم، على ترك العدل، بل اعدلوا، فإنه أقرب للتقوى. ولما أرسل النبي ﷺ عبدالله بن رواحة، ليخرص على اليهود ثمر خيبر، واجتمعوا إليه، قال: إني قد جئتكم من عند أحب الناس إلي، وإنكم لأبغض إلي من أمثالكم من القردة والخنازير، وإن حبي إياه وبغضي إياكم، لا يمنعني أن أقول العدل، أو أن أقوم بالعدل. فقالوا

له: بهذا قامت السماوات والأرض)[1]. ووجه ذلك من الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾.

٢ـ إثبات أن بعض الشهور شهر حرام، وبعضها ليس كذلك، وهذا هو الواقع. والأشهر الحرم تختص بخصائص، منها:

ـ أن الذنوب فيها أعظم من غيرها.

ـ أنه يحرم فيها ابتداء القتال ـ ابتداء قتال الأعداء ـ على القول الراجح ـ وقال بعض أهل العلم: بل إن ابتداء القتال فيها نسخ تحريمه، وأن ابتداء قتال الكفار فيها جائز، كما في غيرها. ولكن الراجح أنه محرم ـ أعني: الابتداء ـ إلا أن يبدأنا الكفار، أو يكون القتال إتماما لقتال سابق، فإنه لا بأس به.

٣ـ إثبات القصاص في غير النفس والأطراف؛ لعموم قوله: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾.

وليعلم أن القصاص في النفس ثابت بالقرآن والسنة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقال النبي ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث:

---

(١) رواه مالك (١٤١٣).

الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[1]، لكن لذلك شروط معروفة عند أهل العلم. وأما القصاص في الأطراف والأجزاء، فقد دل عليها القرآن والسنة ـ أيضا ـ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال النبي ﷺ لأنس بن النضر: (كتاب الله القصاص)[2]. فتؤخذ اليد باليد، والرجل بالرجل، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن. حسبما تقتضيه الشريعة من الشروط التي ذكرها أهل العلم ـ رحمهم الله ـ.

٤ ـ أن دين الإسلام، دين العدل، وليس دين الجور؛ لقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

٥ ـ تحريم الزيادة على عدوان الغير؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ **بعد** أن قال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

٦ ـ الغاية الحميدة التي يصبوا إليها كل مؤمن، والتي تحصل بتقوى الله ـ عز وجل ـ، وهي: معية الله ـ تعالى ـ للمتقين، حيث قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. وهذه معية خاصة، ليست كالمعية العامة، في قوله

---

(١) صحيح مسلم كتاب القسامة (٣١٧٥)، والترمذي كتاب الديات (١٣٢٢)، وأبو داود كتاب الحدود (٣٧٨٨).

(٢) رواه البخاري كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، رقم (٢٧٠٣)، ومسلم، كتاب القسامة، باب إثبات القصاص في الأسنان. . . رقم (١٦٧٥).

ـ تعالى ـ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]. فإن المعية العامة: معية الإحاطة بالخلق علما، وسمعا، وبصرا، وسلطانا، وغير ذلك.

وأما المعية الخاصة فهي: معية النصر، والتأييد، وتكون للمؤمنين، وللمتقين، وللمقسطين، وللرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأمثلتها في القرآن كثيرة.

واعلم أن ما ذكر الله ـ تعالى ـ من معيته، لا ينافي ما ذكر من فوقيته، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ مع عباده، وهو فوق عرشه، فوق كل شيء.

كما جمع بينهما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، فبين ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية أنه استوى على العرش. والعرش هو أعلى المخلوقات، ومعنى استوائه ـ تبارك وتعالى ـ عليه، أنه علا عليه، وهذا علو خاص غير العلو الشامل لجميع الخلق. يقول ـ عز وجل ـ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ يعني: في أي مكان كنتم، فالله معكم، لكن ليس المعنى أنه معنا بذاته في الأرض، بل هو ـ جل وعلا ـ معنا، وهو في السماء، ولا غرابة في ذلك،

فها هي العرب تقول: ما زلنا نسير والقمر معنا، ويعدون ذلك كلاما حقيقيا، مع أن القمر موضعه في السماء.

٧ـ أنه ينبغي للإنسان إذا فعل أسباب النصر ـ من التقوى وغيرها ـ أن يثق بوعد الله ـ تعالى ـ، وأن الله معه؛ لأن من لم يثق بوعد الله، لم ينتفع بوعده، إذ أنه يفعل وهو في شك مما قال الله ـ تعالى ـ، أو تردد، وحينئذ لا ينتفع بهذا، بل قد يؤدي ذلك إلى كفره، إذا شك في مدلول خبر الله ـ تعالى ـ.

أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعا من المتقين المؤمنين المفلحين إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

في هذه الآية الكريمة: يأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ بالإنفاق في سبيل الله، وهو: بذل المال في أمر يقرب إلى الله ـ عز وجل ـ، من جهاد وغيره، وينهى ـ جل وعلا ـ أن نلقي بأيدينا إلى التهلكة، أي: أن نأتي ما فيه هلاكنا، سواء كان هذا الهلاك هلاكا حسيا: كقتل النفس. أو معنويا: كالتأخر عن الخير وترك الإنفاق في سبيل الله.

ويأمر الله ـ تبارك وتعالى فيها بالإحسان، ويبين ثمرته وغايته، بأن الله ـ تعالى ـ يحب المحسنين.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١ـ الأمر بإنفاق المال فيما يقرب إلى الله ـ تعالى ـ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وربما يشمل ذلك إنفاق النفس، بإتعاب البدن بما يرضي الله ـ تبارك وتعالى ـ فيكون فيها إشارة إلى الجهاد بالمال، والجهاد بالنفس.

٢ـ الإشارة إلى الإخلاص في العمل؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الشيء لا يكون سبيلا إلى الله، إلا حيث كان على شرعه والعمل بشرع الله ـ تعالى ـ لا يكون مقبولا، إلا إذا توافر فيه الإخلاص، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

٣ـ نهي المرء أن يلقي بنفسه إلى التهلكة، أي: إلى ما يهلكه، من الإحجام عن بذل ما يطلب بذله، أو الإقدام على ما لا ينبغي الإقدام عليه.

٤ـ أن الله ـ تعالى ـ أرحم بنا من أنفسنا، حيث نهانا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة، إذا فهو أشد حرصا منا على أنفسنا، وهذا معلوم من آيات متعددة، منها هذه الآية، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، وهو أرحم بنا من آبائنا، لقوله ـ تعالى ـ:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ١١]، ورأى النبي ﷺ امرأة تبتغي ولدها في السبي، فلما رأته، أخذته وضمته على صدرها، فقال: ﷺ لأصحابه: «أتظنون أن هذه تلقي ولدها في النار؟ قالوا: لا، يا رسول الله، قال: لله أشد رحمة بعباده من هذه بولدها»[١].

٥- الأمر بالإحسان؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ﴾ وفيه تفصيل: فإن كان فيما يجب الإحسان فيه، فالأمر للوجوب، وإن كان فيما الإحسان فيه كمال وليس بواجب؛ فهو للاستحباب. والإحسان في عبادة الله، بينه النبي ﷺ في قوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»[٢].

والإحسان في معاملة الخلق: كف الأذى، وبذل الندى، وطلاقة الوجه، وسهولة القول.

٦- إثبات محبة الله ـ تعالى ـ للمحسنين. ومن المعلوم أن كل واحد، يسعى إلى الوصول إلى محبة الله، والإحسان طريق من طرقها.

---

(١) رواه البخاري كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله. . .، رقم (٥٩٩٩)، ومسلم كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥٤).

(٢) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٥٠/ ٤٤٩٩)، ومسلم كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو، رقم (٩).

٧ـ حسن تعليم القرآن. فإن الله ـ تعالى ـ يذكر الأحكام، ثم يذكر عللها وغاياتها. وهذا مما يحث النفس على قبول الحكم، وامتثاله.

نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعلنا من المحسنين. وإنني بهذه المناسبة، أود أن أنبه إلى ما يفعله بعض الناس في بهائمه ومواشيه، من الإساءة إليها، إما بالجوع، أو بالظمأ، أو بالبرد، أو بالحر، أو بالعنف في الحلب وغيره، مع أن هذه البهائم لنا فيها أجر، كما قال النبي ﷺ: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**»[١]، وأخبر ﷺ «**أن امرأة عذبت في نار جهنم، بهرة حبستها، لا هي أطعمتها حين حبستها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض**»[٢]. فالذي ينبغي على الإنسان أن يحسن إلى ما أمر الله بالإحسان إليه على وجه الوجوب.

* * *

ثم قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ

(١) رواه البخاري كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم (٢٢٣٤، ٢٣٣٤، ٥٦٦٣)، ومسلم كتاب الحيوان، باب فضل ساقي البهائم المحترمة، رقم (٢٢٤٤).

(٢) رواه البخاري كتاب الأنبياء، باب رقم (٥٤) حديث رقم (٣٤٨٢)، ومسلم كتاب الحيوان، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢)..

أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

في هذه الآية الكريمة، أمر الله ـ تعالى ـ عباده أن يتموا الحج والعمرة لله.

والحج هو: قصد مكة لأداء مناسك الحج، والعمرة: قصد مكة لإرادة العمرة.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ فيه الإشارة إلى الإخلاص لله ـ تبارك وتعالى ـ، في هاتين العبادتين.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: منعتم عن الإتمام.

﴿اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليكم ما استيسر من الهدي.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ يعني: إذا أحرمتم بالحج أو العمرة، فإن من إتمامها: ألا تحلقوا رؤوسكم، حتى يبلغ الهدي محله. وبلوغ الهدي محله في العمرة: أن يصل إلى البيت، وفي الحج: أن يكون عيد الأضحى، وهو يوم النحر.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ أي: في حال الإحرام، كان منكم مريضا.

﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ وإن لم يكن مرضا، كالقمل الكثير

ونحوه.

﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ أي: فعليه فدية من صيام، أو صدقة، أو نسك. والمعنى: من كان مريضا، أو به أذى من رأسه، فحلق رأسه قبل أن يبلغ الهدي محله، فعليه هذه الفدية، على التخيير: صيام، أو صدقة، أو نسك. وقد بين النبي ﷺ المجمل من الصيام والصدقة، فبين أن الصيام: صيام ثلاثة أيام، وأن الصدقة: إطعام ستة مساكين، لكل مسكين: نصف صاع. وأما النسك، فهو: ذبح شاة، أو ما يقوم مقامها، من سبع بقرة، أو سبع بدنة.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: زال عنكم الحصر، وأمنتم من الخوف.

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: فإذا أمنتم، وأتيتم بالعمرة والحج، وقدمتم العمرة لتحلوا منها، وتتمتعوا بها إلى الحج.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: لم يجد الهدي ولا ثمنه.

﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج ـ أي: قبل فراغ الحج ـ، وسبعة أيام إذا رجعتم إلى أهليكم، أو إذا رجعتم من مناسك الحج.

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ «تلك»: المشار إليه ما سبق من صيام ثلاثة

أيام في الحج، وسبعة إذا رجع الحاج.

﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وأكدها بـ﴿كَامِلَةٌ﴾؛ لئلا يظن الظان أنها لما تفرقت، كان لكل منها حكم خاص، فبين الله - تعالى - أنها وإن تفرقت، فإنها تعتبر متتابعة، فهي عشرة كاملة.

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ذلك، أي: ما لزم من الهدي أو بدله، لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، وهم أهل مكة، ومن كان داخل أميال الحرم.

والمسجد الحرام، هو: مسجد الكعبة، وحاضره من كان بقربه، بأن يكون داخل أميال الحرم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذابه، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتقه، ومن تقواه تنفيذ ما أمر به في هذه الآية الكريمة.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١- وجوب إتمام الحج والعمرة.

٢- وجوب الإخلاص لله - تعالى - في العبادة؛ لقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ لكن الله - تعالى - ذكر في هذه السورة أنه ليس على الإنسان جناح أن يبتغي

فضلا من الله ـ تعالى ـ، بطلب الرزق، وإن كان حاجا أو معتمرا، لكن يجب أن يكون أصل النية خالصا لله ـ عز وجل ـ.

قال العلماء: وفي ذكر الأمر بإتمام الحج والعمرة بعد ذكر الإنفاق في سبيل الله، إشارة إلى أن الحج والعمرة من الجهاد في سبيل الله، ويؤيد هذا الاستنباط: «أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: يا رسول الله. . هل على النساء جهاد؟ قال ﷺ: نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة»[1]

٣ـ أن من عجز عن إتمام الحج والعمرة، فإنه يتحلل، ولكن عليه ما استيسر من الهدي؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾. واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ: هل المراد: الحصر بالعدو ـ بمعنى: إن منعكم العدو من الوصول إلى البيت، فأحلوا واذبحوا ما تيسر من الهدي ـ أو المراد: الحصر العام أي: إن منعتم عن الوصول إلى البيت بأي سبب، حتى ولو كان مرضا لا يرجى أن يشفى منه قبل فوات الحج، أو ضياع نفقة، أو ضياعا عن الرفقة، أو ما أشبه ذلك ـ؟ على قولين في هذه المسألة، فمن العلماء من عمم الإحصار، وقال: إن الله أطلق، فقال: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ فيشمل كل ما يمنع إتمام الحج

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء، رقم (٢٩٠١)، ورواه البخاري بلفظ آخر كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم (١٥٢٠).

والعمرة، من عدو أو غيره، كمرض، أو ضياع نفقة، أو مشقة شديدة لا تحتمل، وما أشبه ذلك. ومنهم من قال: إنه خاص بحصر العدو فقط؛ لقوله في أثناء الآية: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ إلى آخره. والذي يظهر - والله أعلم - وهو ظهور ليس بذاك القوي: أن الآية عامة في أي حصر كان، وأن ذكر حكم يختص ببعض أفراد العام، لا يقتضي تخصيص العام بذلك. ونظيره قوله - تعالى -: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فإن أول الآية عام، يشمل المطلقات على وجه البينونة والمطلقات على وجه الرجعية. وأثناؤها وهو قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ يقتضي أن المراد بـ«المطلقات»: اللاتي لأزواجهن الرجعة عليهن. ومع ذلك فإننا نقول: إن الآية عامة فيمن طلقت طلاقا بائنا، وفيمن طلقت طلاقا رجعيا. فتكون هذه الآية مثلها، أي: أن الإحصار عام، سواء كان بعدو، أو بغيره.

٤ - أن من أحصر؛ وجب عليه الهدي. لقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾.

٥ - أن هذا الدين الإسلامي، مبني على اليسر في أصوله وفروعه. ففي الصلاة: يصلي الإنسان قائما، فإن لم يستطع، فقاعدا، فإن لم يستطع

فعلى جنب، والصلاة من أصول هذا الدين؛ لأنها أحد أركانه الخمسة.

وهنا مسألة خاصة جزئية: إذا حصل للإنسان موجب، يوجب عليه شيئا في فواتها، فإنه لا يكلف إلا ما استيسر عليه؛ لقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾. وقد دلت الشواهد الكثيرة على أن الدين الإسلامي، مبني على اليسر، فمنها: قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقول النبي ﷺ وهو يبعث البعوث للدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»[1]. وقال ﷺ: «**فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين**»[2]. وهذا لا شك أنه من فضل الله ورحمته على عباده، أن جعل هذا الدين الإسلامي العظيم مبنيا على اليسر والسهولة. والحمد لله رب العالمين.

٦ـ أن المحصر إذا لم يجد الهدي، فلا شيء عليه؛ لأن الله ـ تعالى ـ لم

---

(١) رواه البخاري: كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم، رقم(٦٩)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم(١٧٣٤).

(٢) رواه البخاري: كتاب الوضوء، باب، صب الماء على البول في المسجد، رقم(٢٢٠).

يذكر له بدلا، وذكر بعده هدي التمتع، وذكر له بدلا، فلما سكت عن البدل في هدي المحصر، ودكر البدل في هدي التمتع، دل ذلك على أنه لا بدل له - أعني: دم المحصر - وهذا د ير ¯ ل الله - تبارك وتعالى - في كفارة القتل: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾، إلى توله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢]، ولم يذكر ،له الإطعام، وفي سارة الظهار ذكر الله عتق الرقبة، ثم صيام شهرين ـتتابعين، ث، الإطعام. وقد ذكر العلماء - رحمهم الله -: أنه لا إطعام في ك؛ ' ة القتل؛ لأن الله - تعالى - لم يذكره فيها، ولو كان واجبا، لذكره كما ذكر ذلك في آية الظهار. وسدا هو ا-' ق، أعني: أنه ليس على المحصر صيام ولا إطعام، إذا لم يجد الهدي، ولم يذكر الله - تبارك وتعالى - أن على المحصر حلق الرأس، أو نقصيره، ولكن السنة دلت على أنه لا بد من حلق الرأس أو تقصيره؛ لأن النبي ﷺ أمر بذلك، وغضب حين تأخر الصحابة عنه، حتى خرج إلى الناس، ودعا بالحلاق، فحلق رأسه، وحينئذ تتابع الناس على الحلق[1].

٧ـ تحريم حلق الرأس حال الإحرام، حتى يبلغ الهدي محله؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ﴾. وإنما حرم

---

(١) انظر البخاري: كتاب أبواب المحصر وجزاء الصيد، باب إذا أحصر المعتمر، رقم (١٨٠٩).

الحلـق ـ والله أعلـم ـ لما فيـه مـن زوال الـشعث، الـذي هـو مـن شـعار الإحرام، ولأن شعر الرأس حلقه نسك في الحج والعمرة، فلو حلـق في أثناء الإحرام؛ لفات الحصول على هذا النسك.

٨ـ أنه إذا بلغ الهدي محله: حل حلق الرأس، فهل يكون هذا الحلـق إطلاقا من محظور ـ أي: استباحة لمحظور، بعد أن كـان محظـوراً ـ أو هـو عبادة يتقرب بها الإنسان إلى ربه ـ عـز وجـل ـ؟ اختلـف في هـذا العلـماء على قولين: فمنهم مـن قـال: إنـه إطـلاق مـن محظـور، وأن الإنـسان لـو تركه، فليس عليه فدية، أي: لـو تـرك الحلـق، أو التقـصير، في الحـج، أو العمرة، فليس عليه فدية؛ لأنه إطلاق من محظور، وإذا حصل الإطلاق من المحظور في الإحرام، بأي شيء، فإنه يحصل به المقصود.

ومنهم من قال: إنه عبادة ـ أعني: الحلق أو التقصير ـ ونـسك لا بـد منه.

وهذا القـول هـو الـصحيح، ودليلـه أن النبـي ﷺ دعـا للمحلقـين، فقال «اللهـم اغفـر للمحلقين ـ أو ارحـم المحلقين ـ قالها ثلاثا. ثـم قيـل: يا رسـول الله والمقـصرين؟ ـ في كـل مـرة يـدعو بهـا للمحلقـين ـ فقـال في الثالثة أو الرابعة: والمقصرين»[1]. فدل هذا على أنه عبادة، يتقرب بها إلى

---

(١) رواه البخاري كتاب الحج، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، رقم (١٧٢٧)، ومسلم كتاب الحج، باب تفضيل الحلق على التقصير، رقم (١٣٠١).

الله ـ عز وجل ـ؛ ولهذا دعا النبي ﷺ لفاعلها بالمغفرة والرحمة.

٩ـ جواز انتهاك المحظور، للعذر، يعني: أن الإنسان إذا حظر عليه شيء، واحتاج إليه، فإنه يحل له، ويرتفع عنه الحظر. لكن من المحظورات ما تبيحه الحاجة، ومن المحظورات ما لا يبيحه إلا الضرورة.

وحلق الرأس ـ المحرم في الإحرام ـ مما تبيحه الحاجة؛ لقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾.

١٠ـ أن وجوب الفدية لا يثبت إلا أن يزيل من شعر الرأس ما يحصل به إزالة الأذى، وأما ما دون ذلك، فليس فيه فدية.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة، فقال بعضهم: إذا أزال من شعر رأسه ولو شعرة واحدة فقد ارتكب المحظور، لكن عليه في الشعرة الواحدة إطعام مسكين، وفي الشعرتين إطعام مسكينين، وفي الثلاثة فدية.

ومنهم من قال: إذا أزال ربع شعر الرأس؛ وجبت الفدية.

ومنهم من قال: إذا أزال من الرأس ما يحصل به إزالة الأذى، وهذا مذهب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ وهو أقرب الأقوال إلى الصواب.

وعلى هذا فالشعرة، والشعرتان، والثلاث، والأربع، والخمس

ليس فيها فدية، لكن الإنسان يكون قد ارتكب النهي، وارتكاب النهي شيء، والفدية ـ التي علقت على وصف، أو معنى ـ شيء آخر؛ ولهـذا لما احتـاج النبي ﷺ إلى الحجامة ـ وهو محرم ـ، احتجم في رأسه[1].

والحجامـة تحتـاج إلى إزالـة الـشعر، ولم ينقـل عنـه ﷺ أنـه افتـدى، فأبيح حلق موضع الحجامة للحاجـة، ولا فديـة فيـه، لأنـه لم يـزل شـعر الرأس كله، ولم يزل منه ما يزال به الأذى.

١١ ـ أن النصوص تأتي على وجهين: وجه مبيـن، مفصل، من حـين ورد، وهذا كثير، بل هو الأكثر. ووجه مجمل، غير مبيــن، ولا مفـصل، ثم يبيـن ويفصل بعد ذلك. وهذا قليل بالنسبة للأول، لكـن لـه حكمـة عظيمة، وهي: أنه إذا ورد مجملا، تـشوفت النفـوس إلى بيانـه وتفـصيله وتشوفت إلى ذلـك، حتـى يـأتي التفـصيل والبيـان والقلـوب ظمـأى إلى ورود هـذا البيـان والتفـصيل. ومنـه هـذه الآيـة الكريمـة ـ قـال تعـالى ـ: ﴿فَفِدۡيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٍۚ﴾ فلـم يبـين الله ـ تبـارك وتعـالى ـ الـصيام، ولا الـصدقة ولا الـنسك، ولكـن النبـي ﷺ بيــنه لكعـب بـن عجرة ـ رضي الله عنـه ـ، حـين حمـل إلى النبـي ﷺ في الحديبيـة، والقمـل يتناثر على رأسه، من المرض، فقال له النبي ﷺ: «ما كنـت أرى الوجـع

---

(١) رواه البخاري كتـاب جـزاء الـصيد، بـاب الحجامة للمحـرم، رقـم (١٨٣٥، ١٨٣٦)، ومـسلم كتاب الحج، باب جواز الحجامة للمحرم، رقم (١٢٠٢، ١٢٠٣).

بلغ منك ما أرى»(١)، ثم أمره أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، أو يذبح شاة.

١٢ ـ أن الكفارات عن فعل الذنوب، فدى يفدي بها الإنسان نفسه من النار والمخالفة، فتقع مكفرة لما مضى؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾.

١٣ ـ الحكمة في البداءة بالأيسر والأسهل، فإن الله بدأ هنا بالصيام، وهو أيسر على غالب الناس من الصدقة والنسك، ثم بالصدقة، وهي أيسر من النسك غالبا، ثم بالنسك. وهكذا يكون الأمر غالبا في الكفارات المخيرة. ألا ترى إلى قول الله ـ تبارك وتعالى ـ في آية كفارة اليمين، حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فبدأ بالأسهل فالأسهل، ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾. لكن في الكفارات المغلظة ـ التي على الترتيب ـ يبدأ بالأشد فالأشد، ألا ترى إلى قول الله ـ تبارك وتعالى ـ في كفارة القتل: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾[النساء: ٩٢].

وفي كفارة الظهار بدأ بالعتق، ثم الصيام، ثم الإطعام.

فالغالب أن الكفارات المخير فيها، يبدأ فيها بالأسهل، وأما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الإطعام في الفدية نصف صاع، رقم (١٨١٦).

الكفارات المرتبة، فيبدأ بالأغلظ. ولعل من الحكمة من الأول - أي: في الكفارات المخيرة - أن الإنسان ينبغي له أن يفعل ما هو أسهل.

١٤ـ أن المتمتع بالعمرة إلى الحج، يجب عليه الهدي؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾.

وصفة التمتع: أن يحرم الإنسان بالعمرة في أشهر الحج - أي: بعد دخول شهر شوال - ثم يحل منها، ويحج من عامه. فهنا لولا هذه العمرة، لبقي محرما بالحج من شوال، إلى أن يحل منه يوم العيد، لكنه إذا أتى بالعمرة وحل منها، تمتع بما أحله الله له من محظورات الإحرام، إلى أن يأتي الحج؛ ولهذا جاءت ﴿إِلَى﴾ الدالة على الغاية في قوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾. ويتفرع على هذه الفائدة: أن دم التمتع دم شكران، وليس دم جبران؛ لأنه ليس فدية عن محظور، ولكنه شكر على مشكور، أي: على فعل يشكر عليه الرب - عز وجل -، وهو الرخصة للإنسان بالتمتع بما أحل الله له من محظورات الإحرام من الانتهاء من العمرة إلى ابتداء الحج. وألحق أكثر أهل العلم بذلك القارن الذي يحرم بالحج والعمرة جميعا، ثم لا يحل منهما إلا يوم العيد.

وقالوا: إن هذا نوع تمتع؛ لأن القارن تمتع بسقوط أحد السفرين، إذ لولا تمتعه هذا؛ لوجب عليه أن يأتي بعمرة في سفر، وبالحج في سفر

آخر، أو أن يأتي بالعمرة مستقلة عن الحج، ويحل بينهما، ثم يحرم بالحج. ولهذا كان جمهور العلماء على إلحاق القارن بالمتمتع في ذلك ـ أي: في وجوب الهدي. وأما المفرد ـ وهو الذي أحرم بالحج مفردا ـ فإنه لا شيء عليه، أي: ليس عليه هدي؛ لأنه لم يجمع بين النسكين.

١٥ ـ التيسير على العباد بأن من لم يجد الهدي، أو ثمنه، فإنه يصوم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع. وهذه الأيام الثلاثة يجوز صيامها من حين إحرامه بالعمرة ناويا للتمتع، إلى أيام التشريق، ولا يجوز تأخيرها عن أيام التشريق؛ لأنه لو أخرها عن أيام التشريق؛ لصامها في غير الحج. وعلى هذا فلو أن إنسانا قدم إلى مكة في العشرين من ذي القعدة متمتعا، فأحرم بالعمرة؛ فله أن يصوم من عشرين ذي القعدة، إلى الثالث عشر من ذي الحجة. وبناء على ذلك يحل له أن يصوم اليوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، من ذي الحجة، عن هدي التمتع، كما قالت عائشة وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ: لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لم يجد الهدي. أما السبعة الباقية، فتكون إذا رجع، وله أن يصومها إذا فرغ من أعمال الحج قبل الرجوع إلى أهله. لكن الأفضل ألا يصومها إلا إذا رجع إلى أهله.

١٦ ـ أنه يجوز أن يصوم الأيام الثلاثة متتابعة، ومتفرقة، وكذلك السبعة يجوز أن يصومها متتابعة، أو متفرقة؛ لأن الله ـ تعالى ـ أطلق

الصيام، لم يشترط التتابع. وهكذا كل شيء ورد مطلقا، فإنه لا يجوز لنا أن نضيف إليه شرط تقييد إلا بدليل من الكتاب والسنة. وهذه القاعدة تنفعك في هذا الباب وغيره. ولهذا لما أراد الله التتابع في صيام الشهرين في القتل الخطأ، وفي الظهار؛ ذكر الله التتابع وقيد الصيام بذلك. وبناء على هذه القاعدة العظيمة، نقول: السفر الذي يترخص فيه الإنسان برخص السفر، جاء مطلقا في القرآن والسنة، والجوارب التي يمسح عليها والخفان، جاءت مطلقة في الكتاب والسنة، ومقيدة بأشياء معينة، فلا يجوز أن نزيد في التقييد على ما جاءت به السنة في هذا؛ لأنا نقول: المطلق يبقى على إطلاقه، إلا بتقييد من الكتاب والسنة، والمقيد بشيء في الكتاب والسنة، لا يجوز أن يزاد عليه قيود أخرى، ما لم يكن هناك دليل من الكتاب والسنة.

١٧ـ حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ فيما شرعه لعباده، بذكر ما تطمئن به نفوسهم، حيث قال بعد أن ذكر الصيام في المتعة ـ متعة الحج ـ وأنه متفرق: ثلاثة في الحج، وسبعة إذا رجع، قال: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾؛ ليهدأ البال وتطمئن النفس عن كون هذا الصيام المتفرق في حكم المتفرق، فبين الله ـ عز وجل ـ أنه في حكم المتواصل، حيث قال: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

١٨ـ أن الهدي أو بدله، لا يجب إلا على من لم يكن أهله حاضري

المسجد الحرام؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وعلى هذا، فيقال: هل لأهل مكة متعة أو لا؟ والجواب: أن لهم متعة؛ لأننا لو قدرنا أن أحدا سافر إلى المدينة، وهو من أهل مكة، ثم عاد في أشهر الحج، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة، ناويا حج ذلك العام، فأحرم بالعمرة من ذي الحليفة في ذي القعدة، ووصل إلى مكة وطاف وسعى وقصر، ثم حج من عامه، فإنه متمتع بالعمرة إلى الحج بلا شك، لكن الله ـ تعالى ـ رفع عنه وجوب الفدية في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. وهذا هو القول الذي يؤيده الأثر والنظر. أما الأثر: فإن قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة، واسم الإشارة يرجع حكمه إلى أقرب مذكور، كالضمير. وأما النظر: فإن هذا المكي الذي قدم من المدينة في ذي القعدة، لو أحرم بالحج؛ لبقي ملتزما بمحظورات الإحرام، من إحرامه إلى أن يحل يوم العيد، فإذا أتى بالعمرة، صدق عليه أنه تمتع بالعمرة إلى الحج.

١٩. أن هدي التمتع على الترتيب، ليس على التخيير؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ﴾ ونفي الوجود، يشمل نفي وجود الهدي ـ مثل أن تنفذ بهيمة الأنعام فلا يكون هناك هدي، ونفي وجود النفقة مع المتمتع، فلا يبقى معه من النفقة إلا ما يحتاجه في سفره. فهنا يسقط عنه الهدي، ولو كان موجودا في الأسواق، حتى لو قدر أنه يمكنه أن يقترض من شخص ليوفيه في بلده، فإنه لا يلزمه ذلك؛ لأنه يصدق

عليه نفي الوجود.

تعظيم مكة؛ لأن الله قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وأن لأهلها أحكامًا تخصهم.

٢١ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾. والتقوى: فعل أوامر الله، واجتناب نواهيه، تعبدا له. وقد قيل في تفسيرها أقوال، لكن ما ذكرناه أجمع الأقوال، وإلا فقيل في تفسيرها: إن التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله عنه، على نور من الله، تخشى عقاب الله، وقيل فيها:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

٢٢ـ عظم ما ذكر الله فيها من أحكام وشرائع؛ لأن أمره بالتقوى بعد ذكر هذه الأحكام، كالنص على وجوب اتقاء الله ـ تعالى ـ في هذه الأحكام.

٢٣ـ التحذير من مخالفة الله ـ تعالى ـ وعصيانه، في ترك التقوى؛ لقوله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. ولكنه ـ جل وعلا ـ شديد العقاب لمن خالف أمره. أما من حيث وصفه جل وعلا، فقد قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨].

٢٤ ـ تحذير الناس من المخالفة، بالعذاب. وبناء عليه، يجوز للإنسان أن يدع ما حرم الله عليه، خوفا من عقابه؛ إذ لو لم يكن الأمر كذلك، لكان ذكر العقاب ـ على من خالف الأمر ـ لغوا لا فائدة منه. ولهذا أوجب الله ـ عز وجل ـ إقامة الحدود في الدنيا على من فعل معصية فيها حد. كل ذلك من أجل أن يقوم الناس بشريعة الله، على ما أراد الله؛ لأن من لم يقمه الوازع الديني، فليقمه الرادع السلطاني، والحدود روادع سلطانية، جعلها الله ـ تعالى ـ لأولياء الأمور، يقيمونها على من أوجب الله إقامتها عليه.

* * *

ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ يعني: أن الحج ليس شاملا لجميع العام، ولكنه في أشهر معلومات، وهي: شوال (الذي بعد رمضان)، وذو القعدة (الذي يليه)، وذو الحجة (الثالث) جميع الشهر؛ لأن هذا هو

الأصل في الجمع أن يكون ثلاثة.

وأما من قال: إنها شهران وعشرة أيام؛ فقد قال بخلاف ظاهر الآية، ثم إن فيما قاله نظرا من حيث إن أفعال الحج تمتد أكثر من ذلك. فأيام التشريق: من أيام الحج بلا شك، فيها الرمي، وفيها المبيت، وربما يكون فيها الطواف والسعي، أو فيما بعدها، وهي أعمال في الحج خارجة عن الأشهر المعلومات، إذا قلنا بأنها تنتهي في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة؛ فالصواب أن الأشهر المعلومات هي ثلاثة: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

ولكن هل هذه الأشهر كلها يفعل فيها الحج، أو يفعل في شيء معين منها؟ الجواب: الثاني؛ لأن أفعال الحج لا تفعل في كل الشهور الثلاثة، فإن منها ما هو مقيد بأيام معلومة من هذه الأشهر الثلاثة، أما الإحرام بالحج: فنعم، يمكن أن يحرم الإنسان بالحج من أول يوم من شوال، والإحرام لا شك أنه فعل من أفعال الحج.

يقول ـ عز وجل ـ: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ﴾ أي: معلومات عند الناس؛ لأن الناس لم يزالوا يعلمون أن هذه الأشهر هي أشهر الحج.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي: أوجب الحج. وذلك بالإحرام؛ فإن الإنسان إذا أحرم بالحج أو العمرة، فقد أوجب على نفسه الحج والعمرة؛ ولهذا كان إتمام الحج والعمرة، واجبا على من شرع فيهما، ولو

كانتا نفلا - كما سبق -.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾، ﴿لَا﴾ في هذه الجمل الثلاث: نافية، لكنه نفي بمعنى النهي. أي: فلا يرفث، ولا يفسق، ولا يجادل. والرفث: الجماع وما يتعلق به.

والفسوق: الخروج عن الطاعة، بترك واجب، أو فعل محرم.

والجدال: المماراة. وخص منها الدليل ما كان جدالا لإثبات الحق، وإبطال الباطل، فإن ذلك لا يضر.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي: أي خير تفعلوه، فإن الله يعلمه، لا يخفى عليه، وسوف يثيبكم عليه، إذا فعلتموه تعبدا له.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ أي: افعلوا ما يكون لكم زادا، والزاد: قد يكون زادا في الدنيا، وهو ما يتزود به الإنسان لحفظ بدنه، كالأكل، والشرب، واللباس، والنفقة، وما أشبه ذلك.

و قد يكون الزاد ما يتزود به للآخرة، وهو التقوى.

وأي الزادين خير؟ بين الله ذلك في قوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

أي: تقوى الله - عز وجل -. والتقوى قد تكون في الزاد الدنيوي، فإن الإنسان إذا تنعم بنعم الله شاكرا لله - عز وجل -، معترفا له

بالفضل، كان ذلك زاد تقوى.

وكذلك لو نوى بأكله وشربه حفظ نفسه من الهلاك، كان هذا زاد تقوى؛ لأن الله قال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]. وكذلك ما ينفقه على نفسه من نفقات أخرى، إذا نوى بذلك امتثال أمر الله؛ كان ذلك من التقوى.

وكأن الله ـ تعالى ـ يشير إلى أن الإنسان ينبغي له أن يستحضر بأن جميع ما يتزود به، يستعين به على طاعة الله، حتى يكون من التقوى.

﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أمر الله ـ تعالى ـ أن نتقيه، ثم وجه الخطاب لأولي الألباب، أي: لذوي العقول؛ لأنهم هم الذين يقدرون للتقوى قدرها، ويعرفون أهميتها، أما أهل الغفلة والسهو والسفه، فإنهم لا يقدرون للتقوى قدرها، ولهذا وجه الخطاب ـ أي: خطاب الأمر بالتقوى ـ إلى أولي الألباب.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ أن الحج أشهر معلومات، ويفهم منه أن العمرة ليست أشهرا معلومات؛ ولهذا كانت العمرة تجوز في كل وقت، في هذه الأشهر الثلاثة ـ التي هي أشهر الحج وفي غيرها، بل إن النبي ﷺ قال: «عمرة

في رمضان تعدل حجة»[1].

وبهذه المناسبة أود أن أبين أن العمرة في رمضان تعدل حجة، وهذا أجر عظيم بلا شك، ولكن إذا كان هناك أعمال صالحة أفضل من ذلك فصرف الأموال فيها أولى وأحرى، كما لو احتاج المسلمون إلى المال لمجاعة شديدة، أو لأمراض فتاكة تحتاج إلى علاج، أو إلى قتال الكفار فإن بذل الأموال في ذلك أفضل من العمرة في رمضان. وكذلك إذا ترتب على هذه العمرة إضاعة الأهل وعدم تربيتهم ـ مع علمه أو غلبة ظنه أنهم سوف يضلون إذا غاب عنهم، فإن العمرة حينئذ تكون مرجوحة، وبقاؤه عند أهله وتربيته إياهم، وتوجيههم إلى الخير أفضل وكذلك إذا كان يترتب على هذه العمرة أمور سيئة في مكة، مثل: أن يكون معه شباب أو شابات، يذهب بهم إلى مكة في رمضان، ثم يتسكعون في الأسواق، ذاهبين وراجعين، ويحصل بذلك من الاختلاط والفتنة والشر، ما لا تحمد عقباه، فهنا بقاؤه في بلده أفضل وأحسن.

المهم أنه يجب على الإنسان المقارنة بين الفوائد والمضار، والمصالح والمفاسد، فإن الشيء قد يكون فاضلا، ويكون المفضول خيرا منه؛

---

(١) رواه البخاري كتاب العمرة، باب عمرة في رمضان، رقم (١٧٨٢)، ومسلم كتاب الحج، باب فضل العمرة في رمضان رقم (١٢٥٦).

لأمور أخرى وأسباب أخرى.

٢ـ أن الإحرام بالحج أو العمرة، يجعل الحج والعمرة فرضا، ويلزم المحرم الإتمام؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾.

٣ـ أن الحج لا يصح في غير هذه الأشهر، حينما قال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾، فلم يرتب أحكام الإحرام إلا على من أحرم بالحج في هذه الأشهر. وإلى هذا ذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: أن من أحرم بالحج قبل دخول أشهره، فإن إحرامه بالحج لا يصح. لكن هل يقع باطلا، أو يتحول إلى عمرة؟ يحتمل الوجهين.

٤ـ تحريم الرفث والفسوق والجدال بعد الإحرام بالحج؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾، وسبق معنى الرفث، وهو الجماع ومقدماته؛ ولهذا كان من محظورات الإحرام الجماع. والجماع في الحج قبل التحلل الأول، يترتب عليه أمور خمسة: الأول: الإثم. الثاني: فساد النسك. الثالث: وجوب المضي فيه. الرابع: وجوب قضائه من العام القادم. الخامس: فدية، وهي ناقة تذبح وتوزع على الفقراء.أما بعد التحلل الأول، فإن فديته فدية حلق الرأس، أي: أنه يخير بين صيام ثلاثة أيام، وإطعام ستة مساكين، وذبح شاة.

٥ـ تحريم الفسوق في الحج، سواء كان الفسوق فيما يختص

بالإحرام، أو فيما يكون عاما. فلا يحل للحاج أن يفسق بانتهاك محظورات الإحرام، ولا يحل له أن ينتهك ما كان محرما تحريما عاما، كالغيبة والنميمة والنظر المحرم، وما أشبه ذلك. فإن قال قائل: أليس الفسوق محرما في كل حال، في الحج وغيره؟ قلنا: بلى، لكنه في الحج يتأكد تحريمه؛ لأن الإنسان متلبس بالعبادة. وهنا يجب التنبه إلى أن شرب الدخان وما شابهه، من المعاصي المؤثرة في النسك. ولهذا يجب على المحرم أن يتجنب شرب السيجارة، ويتأكد ذلك في حقه، وليعلم أن هذا ينقص ثواب نسكه. ولو أن الإنسان صبر نفسه في مدة الإحرام، لكان ذلك سببا في أن يدع هذه السيجارة - أي: شرب الدخان -، فيكون هذا من فوائد النسك.

٦- ترك الجدال للمحرم؛ وذلك لأن الجدال يوجب انشغال القلب، ويحدث العداوة والبغضاء، فيصد المرء عما هو متلبس به. وسبق أن المراد بالجدال هنا، الجدال الذي هو مماراة، والذي لا يقصد به الوصول إلى حق، أو إبطال باطل. وأما الجدال الذي لا بد منه في بيان الحق وإبطال الباطل؛ فإنه لا يذم عليه المحرم، بل هو مما يحمد عليه.

٧- عموم علم الله - عز وجل -؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.

ويترتب على هذه الفائدة فائدة أخرى مسلكية، وهي أن يحذر الإنسان من فعل الشر؛ لأن فعل الشر معلوم عند الله كالخير.

ويترتب على ذلك أيضا قوة رجاء الإنسان بالله ـ عز وجل ـ، إذا عمل خيرا؛ لأن الله تعالى يعلمه ولن يضيعه أبدا، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

٨ـ أمر الحاج بالتزود. وقد سبق أن التزود نوعان: تزود يقوم به البدن؛ كالطعام والشراب واللباس، وغيرها. وتزود يقوم به الدين: كالتقوى. وزاد التقوى خير من زاد البدن، بل قد سبق لنا أن زاد البدن قد يكون من زاد التقوى، إذا أراد الإنسان به امتثال أمر الله، وحفظ حياته، وستر عورته، وما أشبه ذلك.

٩- وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱتَّقُونِ ﴾.

١٠- أن تقوى الله ـ تعالى ـ من أكبر الأدلة على عقل الإنسان، وأنه من ذوي الألباب.

١١- أن أولي الألباب هم المنتفعون بخطابات الشرع؛ لأن الله وجه

الخطاب إليهم في قوله: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

١٢ـ أن من لم يتق الله فليس من ذوي الألباب.

١٣ـ الحث على التعقل في الأمور، حتى يصل إلى درجة أصحاب هذا اللقب: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الخطاب: للأمة. والجناح: الإثم.

﴿أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في ابتغائكم فضلا من الله، أي: رزقا. والفضل، بمعنى: الرزق، كما في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] أي: من رزقه، بالبيع والشراء، وغيرهما.

وإنما نفى الله الجناح عمن ابتغى فضلا من الله في الحج؛ لأنهم تحرجوا من كون الإنسان يتجر في الحج، وخافوا أن يكون في ذلك نقص في نسكهم؛ لأنهم عملوا عملا دنيويا؛ فكأنهم قالوا: إذا كان

الإنسان لا يبيع ولا يشتري في المسجد؛ لأنه مكان العبادة، فكذلك لا يبيع ولا يشتري في الحج، لأنه في عبادة ـ متلبس بالعبادة ـ، فنفى الله ـ تعالى ـ الإثم في ذلك، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ إذا أفضتم منها، أي: دفعتم، وهو من الإفاضة، بمعنى: التوسع والامتداد. فشبه الدافع من عرفة بذلك؛ لأن الناس يدفعون من عرفة وكأنهم يتوسعون في السير.

و«عرفات»: اسم جمع، وليست جمعا، يعني: اسم مفرد بصيغة الجمع وليس بجمع؛ بدليل أنها تسمى عرفة، بالإفراد.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ بطاعته؛ لأن كل طاعة فهي ذكر لله ـ عز وجل ـ؛ إذ أن الإنسان في طاعته، يشعر بالإخلاص لله ـ عز وجل ـ، والمتابعة لرسوله ﷺ، وهذا ذكر لله.

والمشعر الحرام، هو: مزدلفة، وسمي مشعرا حراما؛ لأن عرفة: مشعر حلال. ومزدلفة: مشعر حرام. وذكر الله عند المشعر الحرام، يشمل صلاتي المغرب والعشاء، وصلاة الفجر، والذكر الخاص عند المشعر الحرام؛ لأن النبي لما دفع من عرفة، صلى فى مزدلفة المغرب والعشاء، ولما صلى الصبح، ركب ناقته فوقف عند المشعر الحرام ـ وهو جبل معروف بمزدلفة، في آخرها ـ ودعا، ووحد الله، وكبره وهلله،

حتى أسفر جدا، ثم دفع إلى منى.

وعلى هذا، فذكر الله عند المشعر الحرام، يشمل كل عبادة، كالمبيت، والأذان فيها للمغرب والعشاء، والإقامة لها، وكذلك أذان الفجر وصلاة الفجر، والذكر الخاص. فذكر الله - تعالى - يشمل كل تعبد لله - تعالى - في هذا المشعر. ووصف الله - تعالى - المشعر بـ(الحرام)؛ لأنه داخل حدود الحرم، بخلاف عرفة، فإنها خارج حدود الحرم.

﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ كرر الأمر بالذكر، لتأكده.

وقوله: ﴿كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ يحتمل أن تكون الكاف للتعليل، أي: اذكروه لهدايتكم، ويحتمل أن تكون للتشبيه: كهدايتكم، أي: بالذكر الذي هداكم الله له. وكلاهما صحيح.

والآية إذا اشتملت معنيين، كلاهما صحيح، ولا مرجح لأحدهما على الآخر؛ فهي شاملة لهما، توسعا في معاني القرآن الكريم.

وقوله: ﴿كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ يشمل الهدايتين: هداية الإرشاد والبيان، وهداية التوفيق والالتزام.

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ هذه الجملة جملة خبرية مثبتة؛ لأن «إن» هنا مخففة من الثقيلة، وأصلها: إن، واسمها: محذوف. وجملة ﴿كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ خبرها. والمعنى: أن الله

هداكم، وكنتم من قبل ذلك قوما ضالين. ولا شك أن الهداية بعد الضلال، هي التي يتبين بها فضل الهداية؛ لأن من لا يعرف الكفر لا يعرف قدر الإسلام، ولهذا قال عمر ـ رضي الله عنه ـ «إنما ينقض الإسلام عروة عروة من لم يدخل في الكفر. وأما من كان داخلا في الكفر ثم نجا منه، فإنه يعرف قدر الإسلام»(١).

وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: ضالين في علمكم، لا تعلمون من الحق شيئا، ضالين في عملكم، لا تعملون بشرائع الله.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ تيسير الدين الإسلامي، وسعة فضل الله ـ عز وجل ـ، حيث أذن لعباده أن يتجروا في الحج، مع أنهم متلبسون بالعبادة.

٢ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يتلقى الرزق، وقلبه معلق بالله ـ عز وجل ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣ ـ ألا يعتمد الإنسان في طلب الرزق على نفسه [فقط]، وألا يجعل ما كسبه من جراء عمله وشطارته، بل هو فضل من الله ـ عز وجل ـ. ولهذا لما قال الناصحون لقارون: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ

---

(١) رواه مسلم كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨). وجاء بلفظ: «أنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

﴿ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، قال مفتخراً بنفسه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. نسأل الله العافية. والله ـ عز وجل ـ لو لم يسق الرزق إلى عبده، لم يحصل له رزق، مهما بلغ في النشاط والحذق.

٤ـ أن من تمام ربوبية الله لعباده، أنه يتفضل عليهم ـ جل وعلا ـ بالرزق والعطاء؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٥ـ أن الإفاضة من عرفات، بعد الوقوف بها، أمر معلوم عند الناس؛ لقوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

وكان ذلك معروفا عند العرب عامة، إلا أن أهل الحرم لحميتهم الجاهلية كانوا لا يقفون يوم عرفة بعرفة، وإنما يقفون في مزدلفة، ويقولون: نحن أهل الحرم، فلا نقف في الحل، وهذا شذوذ لا دليل له.

٦ـ تأكيد ذكر الله ـ عز وجل ـ في مزدلفة. فإن قال قائل: أليس قد ثبت في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ حين صلى المغرب والعشاء، وكان قد جمعهما جمع تأخير، اضطجع حتى تبين له الصبح؟ وهل النوم من ذكر الله؟ فالجواب على ذلك أن نقول: نعم، النوم الذي يستعين به الإنسان على طاعة ربه، ويعطي نفسه حظها من نصيبها، هو طاعة؛ ولهذا أمر به النبي ﷺ عبدالله ابن عمرو بن العاص،

الذي قال: «لأقومن الليل ولا أنام» فقال له ﷺ: «قم ونم؛ فإن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا. فأعط كل ذي حق حقه»(١). وعلى هذا: فلا إشكال في نوم النبي ﷺ ليلة المزدلفة إلى أن أصبح.

٧- أن مزدلفة مشعر حرام؛ لدخولها في حدود الحرم، بخلاف عرفة، فإنها مشعر حلال؛ لأنها خارج حدود الحرم. وينبني على ذلك أن مزدلفة يثبت فيها من التحريم: تحريم ما يحرم في جوف مكة، من الصيد وقطع الشجر؛ لأنها من الحرم. وأما عرفة، فلا، فعرفة يجوز فيها الصيد لغير المحرم، ويجوز فيها قطع الشجر للمحرم وغيره؛ لأنها ليست حرما.

٨- أن ما أمر الله به من الذكر في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ يكون على **وجهين:**

الوجه الأول: أن يكون شكرا لله ـ تعالى ـ على نعمته وتيسيره.

والثاني: أن يكون ذكرا موافقا لشريعته، [وهذا] يؤخذ من قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾، بناءً على أن [الكاف] هل هي للتعليل أو للتشبيه، وسبق أن الآية تشمل المعنيين؛ لأنه متى كان المعنيان محتملين في الآية، بدون ترجيح بينهما؛ فإن الأولى حملها عليهما جميعا؛ لأن ذلك

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب صوم الدهر، رقم (١٩٧٦)، ومسلم كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، رقم (١١٥٩).

أوسع في معنى القرآن الكريم.

٩ـ منة الله ـ تعالى ـ على عباده بالهداية؛ لقوله: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾، ولا شك أن أكبر نعمة ينعم الله بها على العبد، أن يهديه صراطه المستقيم؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

والهداية نوعان: هداية توفيق والتزام، وهداية بيان وإرشاد.

فأما الأولى: فهي مختصة بالله، لا أحد يمكنه أن يوفق أحدا، فيلتزم. حتى أشرف البشر عند الله وأعظمهم جاها وهو رسول الله ﷺ لم يتمكن من هداية عمه أبي طالب، مع حرصه عليها ومحبته لها؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وأما الثانية وهي هداية البيان والإرشاد: فهي تكون من الله، وتكون من الرسول ﷺ، وتكون من العلماء؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

لكن هؤلاء لا يملكون هداية التوفيق والالتزام؛ لأن ذلك بيد الله ـ

عز وجل ـ.

فإذا منَ الله على العبد بعلم والتزام، فهذا غاية ما يكون من النعم، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

١٠ـ تذكير الإنسان بحاله السابقة التي من الله عليه برفعها عنه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾. وعلى هذا فلو أنك رأيت شخصا التزم بعد أن كان عاصيا مخالفا، فهل تذكره بما كان عليه من قبل، فتقول له: احمد الله الذي هداك من الضلالة، وقد كنت تفعل كذا وكذا، فاحمد الله، أو يقال إن الأفضل ألا يذكره؛ لأنه ربما إذا ذكره بذلك، تحن نفسه إلى ما كان مألوفا عنده من قبل؟. فيقال في هذا: ينظر في المصلحة، إن كان من المصلحة أن يذكر بذلك ذكر، وإن كان ليس من المصلحة فلا يذكر. فإن قال قائل: إذا تردد ولم يتبين له هل الأولى أن يذكر أو لا يذكر، فماذا يفعل؟ قلنا: السلامة أسلم، لا تذكره، بل ذكره بنعمة الله عليه بالالتزام والهداية، وفي هذا كفاية.

١١ـ أن العرب كانوا قبل بعثة الرسول ﷺ، قوما ضالين؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وكما قال ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة: ٢].

نسأل الله لنا ولإخواننا أن يمن علينا بالهدايتين: الهداية العلمية، والهداية العملية، إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

كان أهل مكة لا يقفون في عرفة في الحج، بل يقفون في مزدلفة، ويقولون: نحن أهل الحرم لا يمكن أن نقف إلا بالحرم، فيقفون في مزدلفة، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ أي: من المكان الذي أفاض منه الناس ـ وهو عرفة ـ ولهذا قال جابر ـ رضي الله عنه ـ وهو يصف حج النبي ﷺ: أجاز رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تفعل في الجاهلية ـ ولكنه تجاوزها ﷺ، ونزل بنمرة، ثم لما زالت الشمس، ذهب إلى عرفة، ووقف هناك، فأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ الناس جميعا ـ ومنهم قريش ـ أن يفيضوا من حيث أفاض الناس[1].

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ﴾ يعني: اسألوا الله المغفرة، والمغفرة، هي: ستر الذنب، والعفو عنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

* * *

(١) رواه مسلم كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

ثـم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [البقرة:٢٠٠ـ٢٠٢].

وذلك أن الإنسان إذا فرغ من العبادة، ربما يلحقه كسل أو ملل، فيغفل عن ذكر الله، فأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يذكر الإنسان ربه إذا قضى نسكه.

وهذا كما في قوله ـ تعالى ـ في سورة الجمعة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة:٩، ١٠]، فأمر ـ سبحانه وتعالى ـ بذكره، لأن الإنسان مظنة الغفلة.

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ثم قسم الله الناس إلى قسمين: منهم من يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: ليس له هم في الآخرة.

ومنهم من يقـول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ **ثم قال عن هـذا القسم الثـاني:** ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا

كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة:٢٠٣].

﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ هذه الأيام هي، أيام التشريق الثلاثة، وهي: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، من شهر ذي الحجة.

وهناك أيام معلومات؛ لكنها ليست هذه؛ بل هى عشر ذي الحجة، فعيد النحر محفوف بأيام بعضها معلومات، وبعضها معدودات، فالمعلومات هي: عشر ذي الحجة، والمعدودات هي: أيام التشريق الثلاثة: الثاني عشر، والثالث عشر والرابع عشر.

﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ تَعَجَّلَ ﴾ أي: في إنهاء نسكه في يومين، وهما: الحادي عشر، والثاني عشر.

﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أي: في تعجله.

﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ لكن ذلك ﴿ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ اتقى الله ـ عز وجل ـ في عبادته، فكان فيها موافقا لشريعة النبي ﷺ، والتقوى سبق

الكلام عليها مرارا. ثم أمر الله ـ تعالى ـ بتقواه، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

فمتى اتقى الله، وعلم أنه يحشر إلى الله، فإنه سوف يحقق التقوى تماما؛ لأن مآله إلى الله ـ عز وجل ـ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق:٦]. والناس يحشرون إلى الله ـ تعالى ـ يوم القيامة ـ كما جاءت به السنة ـ حفاة، عراة، غرلا، بهما[١] فالحفاة: الذين لا نعال معهم، والعراة: الذين لا كسوة معهم، والغرل: الذين عادت قطعة الجلد التي قطعت في الختان، يعني: أنهم يحشرون غير مختونين، والبهم: هم الذين ليس معهم مال.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أمر الله ـ تعالى ـ بذكره في أيام معدودات، وذكره في هذه الأيام يتناول التكبير، والتهليل، والتحميد، فيقول العبد: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد ويشمل ـ أيضا ـ المبيت في منى؛ لأن المبيت في منى امتثال لأمر الله، فهو من ذكر الله ـ عز وجل ـ ويشمل رمي الجمرات الثلاث، فهي ترمى في هذه الأيام، بعد الزوال.

٢ـ أن الله يسر على العباد في التعجل والتأخر، فمن شاء تعجل في

---

(١) رواه البخاري كتاب الرقاق، باب الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

اليوم الثاني عشر، ومن شاء تأخر إلى اليوم الثالث عشر، وليس بعد الثالث عشر بقاء في منى، على وجه التعبد.

٣ـ أن من غابت عليه الشمس قبل أن يتعجل؛ وجب عليه البقاء إلى اليوم الثالث عشر؛ وذلك لقوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، و﴿فِى﴾ للظرفية، ولا تتحقق الظرفية في اليومين، إلا إذا تعجل قبل الغروب.

ولكن لو فرض أن الرجل تأهب للتعجل، وحمل متاعه على سيارته، ومشى، ولكن للزحام، غابت الشمس قبل أن يخرج من حدود منى فهل يلزمه البقاء، أو يستمر في سيره؟ نقول: بل يستمر في سيره، حتى لو فرض أنه لم يحمل المتاع، ولكنه قوض الخيام، وجمع المتاع، ولم يبق إلا أن يحمله على السيارة ثم يخرج، فلا حرج عليه أن يكمل ذلك، ويخرج حتى وإن غابت الشمس قبل أن يخرج من حدود منى؛ لأنه يصدق عليه أنه تعجل.

٤ـ الإشارة إلى أن التأخر أفضل؛ لقوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، وقد يقال: إن قوله ـ تعالى ـ: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ قيد لإباحة التعجل، والتأخر، يعني: أن من حمله التعجل على فعل إثم ـ مثل أن يتعجل ليسافر إلى بلد يحرم السفر إليها، وما أشبه ذلك ـ فإن عليه الإثم، وهذا ليس ببعيد من أن قوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ عائد إلى التخيير بين التعجل والتأخر، وأن ذلك منوط بها إذا كان الحامل على التعجل أو التأخر هو التقوى.

٥ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٦ـ وجوب العلم الذي يترتب عليه الاعتقاد بأننا سنحشر إلى الله لقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، وإنما نحشر إلى الله ـ تعالى ـ: ليجازينا على أعمالنا كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق:٦ـ١٤].

٧ـ بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ، وكمال سلطانه؛ حيث تحشر هذه الخلائق إلى الله ـ تعالى ـ يوم القيامة، وتعرض عليها الأعمال في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وهذا الحشر ليس حشرا صعبا على الله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ [ق:٤٤]، ويكون هذا الحشر بكلمة واحدة من ربنا ـ عز وجل ـ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣، ١٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس:٥٣].

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يحشرنا على أكمل الوجوه، وهو راض عنا إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٧].

في هذه الآيات قسم الله ـ تعالى ـ الناس إلى قسمين: قسم منافق ملحد كافر، يعجب الإنسان قوله في الحياة الدنيا، وقسم آخر: مؤمن يبيع نفسه لله ـ عز وجل ـ.

فالأول: يقول الله ـ عز وجل ـ عنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿مِن﴾ـ هنا ـ بمعنى بعض.

﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تستحسن قوله في الحياة الدنيا، بفصاحته وبلاغته، ويأتي بكلام يظنه الإنسان حقا، وهو باطل.

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ يعني: ﴿عَلَىٰ﴾ أنه ناصح، موافق

لشريعة الله.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي: أعظمهم خصومة، وهذا ينطبق تماما على المنافقين. قال الله - تبارك وتعالى - في وصفهم في سورة «المنافقون»: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، فهم محل عجب في المقال والهيئة، تعجب آجسامهم رائيها، ويسحر بيانهم سامعه.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: إذا تولى عنك بعد هذا البيان، وهذه الفصاحة.

﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مشى مشيا حثيثا.

﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ ﴾ يفسد فيها بالمعاصي، والدعوة إليها. ويترتب على ذلك أنه يهلك الحرث والنسل، فيهلك الحرث بحلول الجدب والقحط، من فعله؛ لأن المعاصي يظهر بها الفساد في البر والبحر، كما قال - تعالى -: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١].

ويهلك النسل - أيضا - وذلك بكثرة الأموات من الحيوان والإنسان؛ لأن المعاصي سبب للأوبئة، والقحط والجدب؛ وبهذا تهلك الأموال، وتنقطع السبل.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ وإذا كان لا يحب الفساد، فإنه لا يمكن أن يأذن فيه.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ يعني: أمر بالتقوى.

﴿ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾أي: إذا أمر بالتقوى، اشمأز، ونفر، وانتفخ ـ والعياذ بالله ـ، فأثم في الرد على من أمره بالمعروف، واستكبر، وعبس وبسر؛ فلهذا يقول فيه الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾، وهذا مآله إلى النار ـ والعياذ بالله ـ، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ عنه: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ حسبه: أي كافيه جهنم، فلا يصل إلى الجنة.

﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾أي: بئس المهاد مهاده؛ لأنه سوف يفرش من نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ، ويخلد فيها.

أما القسم الثاني، فقال الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: يبيع نفسه طلبا لمرضاة الله ـ عز وجل ـ، سواء باع نفسه تجاه أعداء الله ورسوله، من الكفار، حيث يخرج إليهم مجاهدا في سبيل الله، فيقتل شهيدا، أو باع نفسه بأن ضحى براحته، وأتعب بدنه في سبيل الله، في طلب العلم، في تعليم الخلق، في الإحسان إليهم، وما أشبه ذلك.

و«يشري» بمعنى: يبيع، و«يشتري» بمعنى: يأخذ. فالشاري:

دافع، والمشتري: آخذ. وعند العامة: أن يشري ويشترى بمعنى واحد.

وليس كذلك، بل بينهما فرق، كما أن بين البيع والابتياع، فرقا. فالبائع: الدافع، والمبتاع: الآخذ أو المشتري. وهذا فرق ينبغي أن يتفطن له الإنسان؛ لئلا يقع في الخطأ. فلو قال لك قائل، وأقر عندك وقال: إني شريت البهيمة: فبماذا تحكم له: أهو دافع، أو آخذ؟ عند العامة: أنه آخذ. ولكنها في اللغة العربية: شريت البهيمة: أي: بعتها. وهذا يترتب عليه أحكام. فينبغي للإنسان أن يعرف الفرق بين الكلمات بمقتضى اللغة العربية. وقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ابتغاء رضوانه، أي: طلبه.

وهذا يعني؟ الإخلاص لله ـ عز وجل ـ.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: رحيم بهم. قال العلماء: والرأفة هي: أشد الرحمة وأرقها والمراد بالعباد ـ هنا ـ: جميع الخلق. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]. لكن رأفته بالمؤمنين رأفة مستمرة في الدنيا والآخرة. وأما رأفته بغير المؤمنين، فهي خاصة في الدنيا، وليس لهم نصيب منها في الآخرة.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يكون رؤوفا بنا في الدنيا والآخرة، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

﴿السِّلْمِ﴾ هو: الإسلام. و ﴿كَافَّةً﴾ بمعنى: جميعا. وهو شامل للأشخاص والأعمال، أي: ادخلوا كلكم في السلم كافة، وادخلوا ـ أيضا ـ في جميع شرائع الإسلام كافة.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: لا تتبعوا ما يأمركم به؛ فإن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: بين العداوة، ظاهرها.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١ ـ توجيه الخطاب إلى المؤمنين يدل على العناية بما سيوجه إليهم، وأنه من مقتضى الإيمان، وأن التفريط فيه مناف لكمال الإيمان.

٢ ـ وجوب الدخول في الإسلام على جميع الناس كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

٣ ـ أنه يجب التزام جميع شعائر الإسلام وشرائعه؛ لقوله: ﴿كَافَّةً﴾.

٤ـ تحريم متابعة الشيطان في خطواته، وهذا يقتضي تحريم التشبه بأولياء الشيطان، وهم الكفار؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من تشبه بقوم، فهو منهم»(١).

٥ـ بلاغة القرآن الكريم، وحسن أسلوبه؛ حيث ذكر الحكمة بعد ذكر الحكم، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

٦ـ التحذير الشديد من متابعة الشيطان في خطواته؛ لأنه من المعلوم أن عدوك لن يدعوك، ولن يدلك، إلا على ما فيه ضرر عليك في الدنيا والآخرة.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ أي: عن سواء السبيل، وانحرفتم يمينا وشمالا، أو تجاوزتم، أو تقاصرتم، فهو يشمل الأمور الأربعة: الانحراف يمينا أو شمالا، والغلو، والتقدم، والقصور والتفريط.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الآيات: البينات التي جاء

(١) رواه أبو داود كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)، وأحمد (٥٠٩٣، ٥٠٩٤، ٥٦٣٤).

بها رسول الله ﷺ، من القرآن والسنة.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿عَزِيزٌ﴾ أي: ذو عزة كاملة، وغلبة قاهرة.

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو حكمة، وحكم، وسلطان.

وختم الآية بهذا، فيه التحذير من الزلل؛ لأن ختم الآية باسمين يدلان على العزة والحكمة والحكم، فيهما التحذير مما ختمت به الآية، أي: مما دلت عليه الآية: ولقد ذكر بعض أهل العلم قصة يناسب ذكرها هنا، وهي: أن أعرابياً سمع قارئا يقرأ قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

فقال الأعرابي: أعد الآية فأعادها القارئ كما قرأها أولا، فقال: أعد الآية فأعادها. وفي الثالثة، أو الرابعة، قال القارئ: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال الأعرابي: الآن أصبت؛ لأنه عز وحكم، فقطع، ولو غفر ورحم، ما قطع.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١ ـ تحذير المؤمنين من الزلل بعد أن قامت عليهم البينة.

٢ ـ أن من زل قبل أن تقوم عليه البينة، فإنه لا عقوبة عليه، ولا إثم

عليه؛ لأن الله ـ تعالى ـ قيد الوعيد بما كان من بعد ما جاءت البينة.

٣ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بيـن الحق بيانا تبين به المحجة، وتنقطـع به الحجة؛ لقوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾.

٤ـ إثبـات هـذين الاسـمين لله ـ عـز وجـل ـ، وهمـا: ﴿ عَزِيزٌ ﴾، و﴿ حَكِيمٌ ﴾. وإثبات ما دلا عليه من المعاني والصفات، فهو عزيز ذو عزة غالبة، وحكيم ذو حكمة بالغة، وذو حكم وسلطان قاهر؟

* * *

ثم قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ ﴾ أي: ما ينظر هؤلاء، والنظر هنـا بمعنـى الانتظـار، أي: ما ينتظر هؤلاء الذين يخالفون أمر الله، ويزلون عنه.

﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي: إلا أن يأتي يوم القيامة، حيث يأتي الله ـ تبارك وتعالى ـ في ظلـل مـن الغمام، وتـأتي الملائكة تنزل من السموات، وتحيط بأهـل الأرض؟ ينـزل كـل ملائكـة سماء، الواحد من وراء الآخر.

﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ ﴾ أي: حينئـذ يقـضى الأمـر، ويفـصل بيــن النـاس. فريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾أي: شـؤون الـدنيا والآخـرة، وأحكـام الدنيا والآخرة.

هذه الآية تتضمن الوعيد لما يحصل لأهل الزلل، من القضاء الدائر بين العدل والفضل، وذلك يوم القيامة.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي.

١ ـ إثبات اليوم الآخر والإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان التي لا يتم الإيمان إلا بها؛ لأن جبريل ـ عليه السلام ـ، سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره، وشره»[١].

٢ ـ إثبات الإتيان لله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهو إتيان حقيقي، يليق بعظمته وجلاله، وليس مماثلا لإتيان المخلوقين؛ لأن الله ـ تعالى ـ أجل وأعظم من أن يماثل خلقه في أفعاله؟ فيجب علينا أن نؤمن بأن لله ـ تعالي ـ إتيانا يليق به، وهكذا يجب علينا أن نؤمن بكل فعل أضافه الله إلى نفسه، أنه مضاف إليه حقيقة ؟ومن أمثلة ذلك، ما يلي. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٣٨] أي: هو الخالق. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] أي: هو الجائي ـ سبحانه وتعالى ـ.

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان. . .، رقم (٥٠/ ٤٤٩٩)، ومسلم كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله: (٩، ١٠).

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]، أي: هو القاضي.

وهكذا كل فعل أضافه الله إلى نفسه، فيجب علينا أن نضيفه إليه، على وجه الحقيقة؟ **إلا أنه يجب أن نتبرأ من طريقين ضالين؟**

أحدهما: التمثيل؟

والثاني: التكييف: فلا نمثل إتيان الله ومجيئه، بإتيان الخلق ومجيئهم؟ ولا نكيف، فنحدث له كيفية معينة؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦].

٥ـ إثبات الملائكة: والملائكة: عالم غيبي، خلقهم الله ـ تعالى ـ من نور، وجعل لهم وظائف معينة، وهم ممتثلون لأمر الله، كما قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩ـ ٢٠]، وهم أقوياء على ما كلفهم الله به، لا يفترون ولا يملون.

٦ـ الإشارة إلى أنه في تلك الحال ـ أي: حال مجيء الله ـ عز وجل ـ والملائكة ـ ينتهي الأمر، ويقضى الأمر، ويرجع كل إنسان إلى مأواه ومثواه الأخير. أهل النار إلى النار، وأهل الجنة إلى الجنة.

٧ـ أن جميع الأمور ترجع إلى الله وحده، سواء أمور الدنيا، أو أمور

الدين، وأمور الآخرة أو أمور الدنيا، كلها ترجع إلى الله ـ تعالى ـ؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي: الشؤون كلها.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

﴿ سَلْ ﴾ بمعنى: اسأل، والخطاب إما للرسول ﷺ، وإما لكل من يصح توجه الخطاب إليه، من البشر.

و«بنو إسرائيل» هم بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء العم للعرب. وقد بعث الله فيهم أنبياء، وجعل فيهم ملوكا، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين، وآتاهم من الآيات البينات ـ التي يؤمن على مثلها البشر ـ ما تقوم به الحجة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم ﴾. و﴿كَمْ ﴾ هنا: للتكرير.

﴿ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ ﴾من التوراة وغيرها، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ [الإسراء:١٠١].

وقوله: ﴿بَيِّنَةٍۗ ﴾ أي: ظاهرة، ظاهرة الدلالة على ما جعلت له، فهل آمنوا أو كفروا؟.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وهذا إشارة إلى أنهم بدلوا نعمة الله ـ عز وجل ـ، ولقد بدلوها حقا، فإنهم كانوا يعلمون أن محمدا رسول الله ﷺ، سيبعث، وكانوا من قبل بعثته: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ **أي:** يستنصرون بمحمد ﷺ على الذين كفروا ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩].

وقد كانوا يعرفون محمدًا ـ وفي التواة والإنجيل. ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

عرفوه حقا، وبشر به آخر أنبيائهم، عيسى ـ عليه السلام ـ، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، فلما جاءهم هذا الرسول الذي بشر به عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وقد هدد الله ـ تعالى ـ بني إسرائيل الذين بدلوا نعمة الله كفرا، بأنه ـ تعالى ـ شديد العقاب، فقال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: شديد المعاقبة والمؤاخذة، على الذنب، وهذا من أبلغ التحذير.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ تحدي بني إسرائيل الذين كذبوا رسول الله ﷺ، بل كذبوا رسلهم أيضا، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، من العلماء وغيرهم.

٢ـ بيان عتو بني إسرائيل، وغلظتهم، وخيانتهم، وتبديلهم نعمة الله كفرا.

٣ـ أن الآيات التي يجعلها الله ـ تعالى ـ على يد الأنبياء آيات بينة، لا إشكال فيها؛ لأن الآيات البينة هي التي تنقطع بها الحجة، وتتبين بها المحجة، فآيات الله تعالى بينة ظاهرة واضحة.

٤ـ أن الشرائع والدين من أكبر النعم؛ لقوله: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾، وهو قال في أول الآية: ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾.

ولا شك أن الشرائع التي شرعها الله ـ عز وجل ـ لعباده على أيدي رسله، من أكبر النعم، بل هي أكبر النعم على الخلق؛ لأن بالتمسك بها سعادة الدنيا والآخرة، والفلاح في الدنيا والآخرة.

٥ـ الإشارة إلى أن بني إسرائيل قد أوتوا من الآيات ما تقوم به الحجة عليهم؛ لقوله: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٦ ــ تحـذير مـن بـدل نعمـة الله كفـرا؛ لقولـه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

والعقاب يعني: المؤاخذة، وسميت المؤاخذة عقابا؛ لأنها تعقب العمل وتكافئه.

* * *

ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: حسنت لهم، وذلك بما يلقيه الشيطان في قلوبهم، وما تهواه نفوسهم. فهم منغمسون في الدنيا؛ لأنها زينت لهم. فلا يرون غيرها مثلها، ولا خيرا منها.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: يتخذونهم سخريا، حيث إن المؤمنين لا يبالون بالدنيا، ولا يهتمون بها، وا تخذوها وسيلة للآخرة فهؤلاء يسخرون منهم، يقولون: هؤلاء متخلفون، هؤلاء لم يذوقوا نعيم الدنيا، لم يصلوا إلى ترفها، وما أشبه ذلك، ولكن هذه السخرية سيعقبها سفول وخذلان وذل، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾؛ لأن الذين اتقوا يكونون في أعلى عليين، في جنات النعيم، وهؤلاء في أسفل السافلين، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱنظُرْ

كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء٢١]، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ﴾ ـ يعني يوم القيامة ـ ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٥]، وفرق بين ضحك المجرمين من المؤمنين في الدنيا، وبين ضحك المؤمنين من الكفار في الآخرة؛ لأن ضحك الكفار من المؤمنين في الدنيا يعقبه الحزن الدائم والكآبة والحسرة، وأما ضحك المؤمنين من الكفار يوم القيامة فلا يعقبه شيء من الكدر والحزن، بل هم يضحكون منهم، كما ضحك هؤلاء الكفار منهم في الدنيا جزاءً وفاقاً.

﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي: يعطي الرزق ـ وهو: العطاء ـ من يشاء بغير حساب، بل يعطيه جل وعلا بكثرة وغزارة.

وقد بين الله ـ تعالى ـ أسباب الرزق المعنوية والحسية، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وهذا سبب معنوي، وهو تقوى الله ـ عز وجل ـ. وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، وهذا سبب حسي للرزق، أن يعمل الإنسان ويتجر

ويكتسب، وقال ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وهذا أيضا سبب للحرث والحشيش وغير ذلك مما يكتسبه الإنسان من الأرض.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ قيد رزقه ـ تعالى ـ بالمشيئة؛ ليتبين أن الإنسان قد يفعل أسباب الرزق، ولكن لا يرزق، بمنع الله ـ تعالى ـ عنه الرزق؛ لحكمة عظيمة بالغة. فإن من عباد الله من إذا رزقه الله ـ تعالى ـ وأغناه، أفسده الغنى. ومنهم من إذا قدر الله عليه رزقه، أفسده الفقر. فالله ـ جل وعلا ـ بحكمته ورحمته بالمؤمن، يختار له ـ سبحانه وتعالى ـ أكمل الحالات؛ سواء كان في كثرة المال، أو قلة المال. ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يرزقنا حلالاً طيباً مباركاً، ينفعنا في ديننا ودنيانا، وأن يهب لنا منه رحمة؛ إنه هو الوهاب.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ الحذر من الانغماس في الدنيا، وإن رأى الإنسان ذلك حسنا؛ لأن هذا طريق الكفار، أن ينغمس الإنسان في الدنيا، وينسى الآخرة، ودليله قوله ـ تعالى ـ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢ـ أن الكافرين يسخرون من المؤمنين. وكلما قوي الإيمان، قويت السخرية؛ لأن لدينا قاعدة مهمة، وهي: أن الحكم المعلق على وصف،

يزداد بزيادة ذلك الوصف، وينقص بنقصه.

٣ـ أن من سخر من المؤمنين، ففيه شبه من الكفار؛ لأن السخرية من المؤمنين، هي طريق الكافرين، فإذا سخر أحد من المؤمنين، كان مشابهاً للكفار في سخريتهم.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه يجب الحذر من السخرية من المؤمنين.

سواء كان ذلك في أخلاقهم، أو خلقتهم، أو في غير ذلك. وأشده وأعظمه أن تكون السخرية من المؤمن، في تمسكه بهدي النبي ﷺ، كالذي يسخر ممن أعفى لحيته، أو رفع ثوبه عن كعبيه، أو ما أشبه ذلك، فإن هذه السخرية، تكون أشد وأعظم.

٤ـ ألا يغتر المؤمن بالكافر؛ فإن الكافر ربما يعامل المؤمن معاملة يظنها المؤمن طيبة ملائمة له، لكن الكافر يتخذه سخريا. فعليه الحذر من الكفار وسخرياتهم.

٥ـ البشارة للمؤمنين بأنهم يوم القيامة فوق الذين كفروا، ومعلوم أن تلك الفوقية، لن يكون بعدها سفل، وأما فوقية الكافر على المؤمن في الدنيا ـ إن وقعت ـ فإنه سوف يعقبها الذل والانحطاط.

٦ـ فضيلة التقوى وأنها سبب للعلو والرفعة؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

٧ـ إثبات يوم القيامة. والإيمان به أحد أركان الإيمان الستة، التي بينها رسول الله ﷺ لجبريل ـ عليه السلام ـ، حين قال له: أخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

٨ـ الإشارة إلى أن التقوى، سبب للرزق؛ لأنه قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، بعد أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾. ويؤيد ذلك ـ وهو واضح صريح ـ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق: ٢ـ٣].

٩ـ سعة فضل الله ـ تعالى ـ وعطائه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١٠ـ إثبات المشيئة لله، وأن الرزق بيده ـ عز وجل ـ. فكم من إنسان عمل الأسباب الكثيرة للرزق، ولم يحصل عليه. وكم من إنسان حصل له الرزق، بلا تعب. لكن لا يعني ذلك أن نكبل أيدي العاملين، وأن نقول: لا تبتغوا الرزق. بل نقول: ابتغوا عند الله الرزق، واعملوا الأسباب، لكن إن لم تصلوا إلى مرادكم، فاعلموا أن الأمر بيد الله، وأنه ـ تعالى ـ يرزق من يشاء بغير حساب.

---

(١) تقدم تخريجه ص(٥٥).

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: فيما مضى، منذ آدم ـ عليه السلام ـ إلى أن بعث الله نوحاً بل منذ خلق آدم إلى أن اختلفوا، كانوا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: على دين واحد، وعمل واحد، ليس بينهم اختلاف، ولا عداوة، ولا شحناء؛ لأنهم لم يكثروا بعد، ولم يتفرقوا في الأرض، ولم تختلف أهواؤهم.

ثم مع كثرتهم وتفرقهم في الأرض، اختلفوا، وحينئذ، صاروا مضطرين إلى الرسالة.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ أي: أرسل.

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والمراد بالنبيين ـ هنا ـ: الرسل، وهكذا كلما جاءت: «النبي» أو «النبيين»، أو ما أشبه ذلك في القرآن الكريم فالمراد بها: نبوة الرسالة.

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ مبشرين من أطاع، بالخير العاجل، والآجل، ومنذرين من عصى، بالعقوبة العاجلة، والآجلة.

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أنزل مع النبيين الكتاب، والمراد به ـ هنا ـ: الجنس؛ لأن كل نبي أنزل عليه كتاب خاص به، مناسب لأحوال أمته؛ لأن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة، ولم يبعث أحد من الأنبياء إلى الناس عامة، إلا رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ، إذاً ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: الكتب، كل رسول له كتابه.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بشرائع الحق، وضده الباطل، وأعظم الحقوق، وأحق الحقوق عبادة الله ـ عز وجل ـ، وإفراده بالألوهية، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿لِيَحْكُمَ﴾ أي: الله ـ عز وجل ـ.

﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: بين الناس المختلفين، فيما اختلفوا فيه. وذلك بما أنزل على النبيين من الكتاب المتضمن للحق.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ يعني: وما اختلف فيه، بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: أوتوا الكتاب.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وهؤلاء هم الذين يلامون؛ لأن الرسل أقامت عليهم الحجة.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: أنهم اختلفوا في ذلك، وبغى بعضهم على

بعض، حتى سلط الكفار على المؤمنين فقاتلوهم، بل سلط الكفار على الرسل فقتلوهم.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هدى الله الذين آمنوا، وهم أتباع الأنبياء.

﴿لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: دلهم على ما اختلف الناس فيه من الحق، فتبين لهم الحق، وجانبوا الناس، والتزموا الشريعة.

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: إذنه القدري، أي: قدر الله لهم هذه الهداية، فاهتدوا.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: يدل من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم، أي: إلى طريق مستقيم، وهو طريق الرسل.

وهذه المشيئة مطلقة ـ هنا ـ، لكن الله بين أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يهدي بذلك من اتبع رضوانه، فقال: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦].

وقال ـ تعالى ـ في ضد هؤلاء: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يهدينا جميعا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١-أن الناس كانوا على دين واحد، هو الذي يدين به أبوهم آدم - عليه السلام - لأنهم كانوا إذ ذاك قلة لم تتفرق بهم الأهواء، ولم ينتشروا في الأرض، ولم يختلف الناس، فكانوا على هذه الملة.

٢-نعمة الله - سبحانه وتعالى - على الرسل - عليهم الصلاة والسلام - حيث اختارهم أن يكونوا رسلا له، ونعمة الله - سبحانه وتعالى - على المرسل إليهم؛ حيث أرسل إليهم من يبين لهم الحق؛ ليتبعوه.

٣-أن وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - هي البشارة، والإنذار بعد بيان ما جاءوا به من الأحكام، والأخبار؛ لقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

٤- أن أحكام الله - عز وجل - قسمان: قسم يصل به العبد إلى غاية السعادة، وقسم آخر: يصل به العبد إلى غاية الشقاوة إذا خالفه؛ ولذلك جاءت الشرائع أوامر، ونواهي ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [البقرة: ٨٣ - والنساء: ٣٦ - والأنعام: ١٥١ - والإسراء: ٢٣]، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وما أشبه ذلك.

٥-أنه ينبغي للإنسان إذا عرض شريعة الله، ألا يعرضها أحكاما غير مقرونة بالبشارة والإنذار؛ لأن البشارة توجب أن يقبل الإنسان

ويقوى ويتشجع، والإنذار يوجب للإنسان أن يحذر مخالفة الله ـ عز وجل ـ.

٦ـ تقديم البشرى على الإنذار؛ لقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، وعلى هذا، فينبغي للإنسان الداعي إلى الله، أن يقدم البشارة على الإنذار.

اللهم إلا أن يكون موضوع كلامه التحذير من مآثم معينة، فحينئذ يبدأ بالإنذار؛ لأن الحال تقتضي ذلك.

٧ـ أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ معهم كتب من الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾، وأن لكل نبي كتاباً فيه الشرائع المناسبة لقومه.

٨ـ أن كل كتاب مع نبي فإنه نازل من عند الله، وليس من قول النبي بل هو من عند الله ـ عز وجل ـ.

٩ـ أن الكتب الإلهية ـ كلها ـ حق، أي: نازلة بالحق، أخبار صادقة، وأحكام عادلة، ومصالح مرموقة ومطلوبة، ومفاسد مرهوبة مخوف منها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

١٠ـ أن الكتب الإلهية التي أنزلها الله على الرسل حق؛ ولهذا كان من أركان الإيمان، الإيمان بكتاب الله ـ عز وجل ـ. ولكن ليعلم أنه ما

من كتاب سبق القرآن، إلا وحصل فيه التبديل والتغيير، والإخفاء والإظهار، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦]. لكن كتابنا الذي نزل على محمد ﷺ، كان محفوظا بحفظ الله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] ولهذا لم يتجرأ أحد من المسلمين ـ حقا ـ أن يزيد فيه أو ينقص، ولم يتجرأ أحد على تحريف معناه، وتأويله على غير مراده، إلا فضحه الله ـ تعالى ـ ويسر له من يرد باطله.

١١ـ وجوب الرجوع إلى كتب الله ـ تعالى ـ التي أنزلها على الرسل؛ لقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾.

١٢ـ أن الحكم بين الناس إلى الله ـ عز وجل ـ، وليس إلى القوانين الوضعية المخالفة لشريعة الله، وليس إلى الأهواء والأمزجة والأذواق، بل هو إلى الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾.

١٣ـ الإشارة ـ ولو على بعد ـ إلى أن إجماع هذه الأمة حق؛ لقوله: ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾، ويفهم من هذا أن ما اتفقوا عليه، من الحق؛ فهو مقبول عند الله. يعني: فيه الإشارة إلى أن ما اتفقت عليه الأمة من

الحق، فهو مقبول عند الله ـ عز وجل ـ.

١٤ ـ أن الذين اختلفوا في الكتاب بعد إنزاله، قد قامت عليهم الحجة؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

١٥ ـ الحذر من الاختلاف في الكتاب، وأن هذا من البغي، والواجب الاتفاق على ما جاء في الكتاب؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

١٦ ـ منة الله ـ عز وجل ـ على عباده المؤمنين؛ حيث هداهم لما اختلف فيه الناس، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ﴾.

١٧ ـ أنه كلما قوي الإيمان ازداد الإنسان هدى؛ ذلك؛ لأن الله ـ تعالى ـ علق الهدى على وصف الإيمان، والحكم المعلق على وصف، يزداد بزيادة ذلك الوصف، وينقص بنقصه. [حيث قال الله ـ تعالى ـ في الآية الكريمة: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ﴾]. ويشير إلى هذا أيضا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

١٨ ـ منة الله ـ عز وجل ـ على العبد إذا هداه، حيث إن هدايته لذلك

بإذن الله ـ عز وجل ـ. ويتفرع على هذا فائدة مهمة عظيمة، وهي: ألا يعجب الإنسان بنفسه، ولا يفخر بنعمة الله، على غيره؛ فإن هذا بإذن الله ـ عز وجل ـ، وفضله، وهدايته.

١٩- أن الله ـ تعالى ـ له الحكم المطلق، في هداية من شاء أو إضلاله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾. ولكن هذا الحكم المطلق، محمول على من علم الله ـ تعالى ـ من نيته أنه يريد الحق، فقد قال الله تعالى عن قوم موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

٢٠- أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله ـ تعالى ـ دائما، في سؤال الهداية؛ لأنه هو الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يهدينا صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

٢١- شدة حاجة الناس إلى الأنبياء والمرسلين؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

٢٢- أنه يجب الرجوع عند التنازع إلى ما جاءت به الرسل؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾

٢٣ـ بيان رحمة الله ـ عز وجل ـ؛ بإرسال الرسل.

٢٤ـ فضيلة العلم والعلماء؛ لأنهم هم المرجع بين الناس، ليحكموا بينهم بما أنزل الله ـ عز وجل ـ. وبهم يكون إرث النبي ﷺ؛ فإن العلماء ورثة الأنبياء، يرثون الأنبياء في أممهم بالعلم، والعبادة، والدعوة.

٢٥ـ أن مضمون الرسالات الإلهية شيئان: البشارة، والإنذار؛ وذلك لأن المآل ـ مآل الخلق ـ إلى دارين، هما: الجنة، والنار. فإما مؤمن يبشر بالجنة، وإما كافر ينذر بالنار.

٢٦ـ أن الكتب منزلة من عند الله ـ عز وجل ـ، وأنه ما من رسول إلا ومعه كتاب أنزله الله ـ عز وجل ـ عليه. وآخر هذه الكتب، وأعمها، وأنفعها، الكتاب الذي نزله الله على محمد ﷺ، وهو القرآن الكريم. نسأل الله أن يجعلنا ممن يتلونه حق تلاوته.

٢٧ـ أن الكتب تشتمل على الحق، فكل ما فيها حق، إن كان خبرا؛ فهو حق وصدق، وإن كان حكما، فهو حق وعدل، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

٢٨ـ اطمئنان العبد لما جاء في شرائع الله، ونزلت به كتبه فمن العدل، ما جاء في شرائع الله، ونزلت به الكتب؛ حيث وصف الله ذلك بأنه حق، والحق مقبول لكل ذي عدل وإنصاف. وعلى هذا فلا يمكن

قبول الاعتراض على شيء من شريعة الله ـ عز وجل ـ؛ لأنها كلها حق. ولكن الحق قد يخفى على بعض الناس، فتخفى عليه الحكمة، فإن كان مؤمناً حقاً، استسلم وأذعن، وكان كما وصف الله ـ عز وجل ـ المؤمنين في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وإن كان ضعيف الإيمان، فقد يقع في قلبه شك من حكم الله ـ عز وجل ـ، وحينئذ يهلك ويضيع.

٢٩ـ أنه كلما كثرت الأمة، كثر الخلاف؛ وذلك أن الناس حين كانوا قلة، كانوا على دين واحد، فلما كثروا، اختلفوا وتنازعوا واحتاجوا إلى الرسالة. وهذا أمر مشاهد؛ لأنه إذا كثرت الأمة، كثرت الأهواء والأغراض الموافقة للشريعة والمخالفة لها.

٣٠ـ أن الذين اختلفوا في الكتاب بعد أن أوتوه، إنما كان اختلافهم بغيا وعدوانا؛ لأنهم عرفوا الحق، فكان الواجب عليهم أن يتفقوا عليه، واختلافهم فيه عدوان وبغي.

٣١ـ التحذير من الاختلاف في الحق؛ حيث كان بغيا وعدوانا. وكل إنسان ـ لا شك ـ يكره البغي والعدوان. فيجب الحذر من الاختلاف في دين الله. ويجب الاتفاق عليه، كما أمر الله به في قوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا

وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى: ١٣]. وبهذا نعرف خطأ من خالف الحق في هذه المسألة العظيمة، وجعل اختلاف الرأي - فيما فيه مساغ للاجتهاد - سببا لاختلاف القلوب، والتفرق، حتى صار يضلل الآخرين، في أمر لهم فيه سعة، فيقول عنهم: إنهم مبتدعة. وربما يتجاوز إلى أكثر من ذلك، فيقول: إنهم كفرة - والعياذ بالله -، في أمر يسوغ فيه الاجتهاد، وليس أحد المختلفين بأولى من الآخر بالصواب إلا ما وافق النص. وليس عند أحدهم وحي يجب اتباعه. بل كلهم مجتهدون.

فالواجب أن تتسع الصدور لمثل هذا الخلاف السائغ، وألا تختلف القلوب به، كما كان ذلك شأن الصحابة - رضي الله عنهم -، حيث يختلفون في الأمور التي يسوغ فيها الاجتهاد، ولكن قلوبهم واحدة لا تختلف.

٣٢- أن ما أنزل الله - تعالى - من الكتب، فهو بين واضح، ولكنه يحتاج إلى شيئين:

الأول: الإخلاص في طلب الحق، وأن يكون رائد الإنسان الوصول إلي الحق، لا إلى أن ينتصر على خصمه، أو يعلو قوله بحق أو بباطل. فإذا كان مخلصا لله - تعالى - في طلب الحق، واتبع السبل التي يهتدي بها للحق، بعناية وعلم، فلا بد أن يوفق إليه؛ لأن آيات الله -

تعالى ـ بينات ظاهرات.

٣٣ـ أن الإيمان سبب للهداية، وكلما ازداد الإنسان إيمانا ازداد هدى؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾.

وهذه من فوائد الإيمان.

٣٤ـ بيان منة الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين، بالهداية لما اختلف فيه من الحق.

٣٥ـ إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها، لكن بإذن الله؛ لقوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾.
فالإيمان سبب لهداية الله، لكنه ليس سببا مستقلا، بل هو بإذن الله ـ عز وجل ـ.

٣٦ـ اللجوء إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ في طلب الهداية، وأنه لا هداية إلا بإذن الله ـ عز وجل ـ وبمشيئته؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٣٧ـ إثبات مشيئة الله، أو إثبات تعلق مشيئة الله ـ تعالى ـ بأفعال الخلق، فيكون في هذا رد على القدرية الغلاة الذين يقولون: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا مشيئة له في هداية الخلق.

٣٨ـ إن دين الله صراط مستقيم، لا اعوجاج فيه ولا انحراف؛

لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. نسأل الله الهداية لنا ولإخواننا، إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

[في هذه الآية] يخاطب الله ـ سبحانه وتعالى ـ عباده المؤمنين، يقول لهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾، بدون أن يحصل لكم أذية، وأذى، وفتنة، وبلاء.

والمعنى: أن ذلك لن يكون، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[العنكبوت:١-٣].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾: ﴿مَّثَلُ﴾ بمعنى: شبه، أي: لما يأتكم مثل ما أتى الذين خلوا من قبلكم.

وبين ما أتى الذين من قبلنا، في قوله: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ أي: الفقر، والتعب، والإعياء. ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي: الضرر في أبدانهم،

وأموالهم.

﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ أي: من المخاوف وغيرها، مما يقلق الإنسان في حياته.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يعني: حتى وصلت بهم الحال إلى أن يقول الرسول والذين آمنوا معه: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ يقولون ذلك استبطاء للنصر، وترقبا له، وليس إنكارا للنصر؛ لأنهم يؤمنون بأن الله ناصر أنبيائه، ورسله، ومن تبعهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١ـ٥٢]. ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ يعني: يقولون ذلك متشوقين له، مستبطئين له، منتظرين الفرج به، من الله ـ عز وجل ـ.

فقال الله ـ عز وجل ـ مجيبا لهم: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ أي: وليس ببعيد.

والنصر قد يكون نصرا للقول وقائله، بحيث يشاهد القائل انتصاره في الدنيا، وقد يكون نصرا للقول فقط، بحيث يموت الإنسان القائل قبل أن يشاهد النصر بعينه، ولكن الله ينصر ما جاء به.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ تسلية الرسول ﷺ، وأصحابه، بأن ما مسهم من البأساء،

والضراء، والزلزلة، حين كانوا في مكة قبل أن يؤذن لهم بالهجرة، قد مس مثله من خلا ومضى، وصبروا حتى نصروا.

٢ـ أن من قام بالدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ، فسوف يمتحن من عند الله، فيبتلى الصالحون، الأمثل فالأمثل. يمتحن لينظر: هل في دينه صلابة، وأنه جاد في دينه، متمسك به تماما، أو أن الأمر بالعكس، وفي هذا يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ أي: عبادة على طرف ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

نسأل الله لنا ولإخواننا الثبات.

٣ـ أن استبطاء النصر، وانتظار الفرج، لا يخل بالتوحيد، ولا بالتصديق؛ لأنه يقع من الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومن المؤمنين بهم؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾.

ولكن الشأن، كل الشأن، بالصبر على هذه الأشياء، هل يصبر الإنسان وينتظر الفرج ـ وانتظار الفرج عبادة ـ أو أنه ـ والعياذ بالله ـ ييأس ويستحسر ويقول: لا انتصار، ولا نصر.

٤ـ أن وعد الله حق، وأن نصره لأوليائه، قريب، وليس ببعيد، ولكن الإنسان خلق من عجل، وكان عجولا، فأصله ووصفه العجلة، يريد أن يكون الشيء عاجلا غير آجل، ولكن المؤمن هو الذي يصبر

وينتظر الفرج من الله ـ عز وجل ـ.

ثـم قـال ـ تعـالى ـ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥].

يكثر في القرآن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾، في حـوالي ثلاثـة عـشر موضعاً[١]، يسألون الرسول ﷺ فيها عن مسائل في دينهم، ومعاملاتهم، لا ليطلعوا عـلى حكمهـا فقـط، ولكـن ليعملـوا بهـا. بخـلاف كثـير مـن الناس اليوم فإنهم يسألون عن الحكم للاطلاع فقـط. وسيأتي ـ إن شـاء الله ـ في الفوائد الكلام على هذا.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ يعني: ما الذي ينفقونه من أموالهم؟ فطوى الله ـ تعالى ـ الجواب عن هذا السؤال مباشرة، وأجاب عما هو أهم: أين ينفق هذا؟. فهنا إنفاق، والإنفاق يتضمن منفقا ومنفقا عليه، والأهم المنفق عليه هل يكون الإنفاق في محله، أو في غير محله؟؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾. فبيـن الله ـ تعالى ـ مصرف هذا الإنفاق، وأما المنفق، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي

---

(١) سـورة البقـرة الآيـات: (١٨٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٠) وسـورة المائـدة: الآيـة (٤)، والأعراف: الآية (١٨٧)، والأنفال: الآية (١)، والإسراء: الآية (٨٥)، والكهف: الآية (٨٣)، طه: الآية (١٠٥)، والنازعات: (٤٢).

من فضل زائد عن حاجاتكم. و«الخير» يطلق على الشيء الزائد والفاضل على غيره، ويطلق على المال، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨]. أي: لحب المال. فعلى هذا، يكون في الآية جواب زائد عن السؤال، حيث بين الله المنفق والمنفق عليه، المنفق في قوله: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾، المنفق عليه، في قوله: ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ وهما الأم والأب.

﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأقرب، فالأقرب: كالجدة، والجد، وجد الأب، وجد الأم، وما أشبه ذلك.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو كل من مات أبوه، وهو صغير لم يبلغ، من ذكر، أو أنثى. وإنما أوصى الله بهم؛ لأنهم أهل للرحمة والشفقة، حيث لا عائل لهم، وحيث انكسرت قلوبهم، يشاهدون الناس أمثالهم فتنكسر قلوبهم، فأوصى الرب الرحيم، الذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، أوصى بهم خيرا.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو: الفقير. وسمي الفقير مسكينا؛ لأنه أسكنه الفقر وأذلة؛ ولهذا تجد الفقراء ـ في الغالب ـ أذلاء أمام الأغنياء.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني: المسافر الذي انقطع به السفر، فالمسافر الذي انقطع به السفر غريب لا يعرف، فيقرض، ولا يعرف

فيستقرض، فهو في حاجة إلى من يعطف عليه، ويحنو عليه؛ ولهذا أوصى به الله ـ تبارك وتعالى ـ خيراً.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ لم يقل ـ سبحانه وتعالى ـ: وما تنفقوا من «خير»، بل قال: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ﴾ ليكون ذلك عاما للإنفاق وغير الإنفاق، فأي خير يفعله الإنسان، فإن الله ـ تعالى ـ به عليم، لا يفوته شيء، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. فلن يفوت الله ـ تعالى ـ شيء، بل هو به عليم، وإذا كان الله به عليما، فإنه لا بد أن يجازي عباده على حسب ما وعدهم، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وفضل الله ـ تعالى ـ واسع.

نسأل الله لنا ولإخواننا المسلمين من فضله، وأن يهب لنا منه رحمة، إنه هو الوهاب.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن تكون أعمالهم مبنية على شريعة الله ـ عز وجل ـ؛ حيث يسألون النبي ﷺ عن كل ما يحتاجون إليه، في معاشهم، ومعادهم؛ لقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾.

٢ـ الكف عن التنطع في السؤال عما لم يرد السؤال عنه، مما يتعلق بأسماء الله وصفاته؛ وذلك لأن معرفة أسماء الله وصفاته، هي أفضل

أنواع المعارف، وأشدها ضرورة، فإذا لم نعلم أن الصحابة سألوا عنها وهم يسألون عما هو دونها بكثير؛ علمنا أن السؤال عنها بدعة؛ ولهذا لما قال رجل للإمام مالك بن أنس - إمام المدينة، وأحد الأئمة الأربعة - يا أبا عبدالله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]. كيف استوى؟ يسأل عن كيفية الاستواء؛ فلعظم السؤال، ونكارته، من هذا الرجل، أطرق مالك - رحمه الله وغفر له - برأسه، وجعل يتصبب عرقاً؛ من شدة وقع هذا السؤال على قلبه، ثم رفع رأسه، وقال قولته الشهيرة، التي جعلها العلماء ميزانا لجميع الصفات، قال له: «يا هذا: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وما أراك - أي: ما أظنك - إلا مبتدعا، ثم أمر به، فأخرج من المسجد»[1].

يقول: «الاستواء غير مجهول»؛ لأنه معلوم في اللغة العربية؛ استوى على كذا: علا عليه علوا خاصا.

و«الكيف غير معقول» أي: لا يكمن أن يدرك بالعقل؛ لأن صفات الله - عز وجل - لا نحيط بها إطلاقا، قال الله - تعالى -: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] وإذا كان غير معقول، ولا منقول - أيضا -، فإن الواجب الكف عنه؛ لأنه لا

---

(١) أخرجه أبو نعيم: في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والصابوني: في عقيدة السلف (١٧ـ ١٨)، وابن عبدالبر: في التمهيد (٧/ ١٥١)، والبيهقي: في الأسماء والصفات (٤٠٨).

يمكن الوصول إليه، إذ ليس فيه دلالة عقلية، ولا دلالة نقلية، إذاً يجب السكوت.

و«الإيمان به واجب» يعني : أن تؤمن بأن الله استوى على العرش واجب؛ لأن الله - تعالى - ذكره في كتابه في سبعة مواضع، يتلوها المسلمون منذ نزلت إلى يومنا هذا، لا يشكون في معناها ولا يرتابون فيها؛ لأن هذا القرآن الكريم، نزل باللغة العربية، فما كان فيه من كلام، فهو على المدلول اللغوي، ما لم يوجد صارف شرعي يصرفه عن مدلوله اللغوي.

فالإيمان باستواء الله على العرش واجب، والسؤال عنه بدعة، وهذا هو الشأن، وهو الذي نريد أن نؤكد عليه، **السؤال عن كيفية استواء الله على العرش بدعة**، من وجهين:

الوجه الأول: أن أفضل الخلق، أفضل هذه الأمة، ما سألوا عنه الرسول ﷺ، مع أنهم إذا وجهوا السؤال إلى الرسول ﷺ ، فقد وجهوه إلى من يمكنه أن يجيب عنه، لو كان عنده علم من ذلك. فكيف يوجه مثل هذا السؤال إلى من هو دون النبي ﷺ بآلاف المرات في العلم بأسماء الله وصفاته؟! إذا: فالسؤال عنه بدعة؛ لأن الصحابة الذين هم أحرص منا، بل هم أحرص الأمة على معرفة ما يجب لله - تعالى - من الأسماء والصفات، لم يسألوا عنه من هو أقدر منا على الإجابة عنه

فكان السؤال عنه بدعة.

وجه آخر في قوله: و«السؤال عنه بدعة» أن السؤال عنه من ديدن أهل البدع، فإن أهل البدع هم الذين يسألون عن كيفية صفات الله؛ لإحراج المثبتين لها، ولكنهم سيبوؤن بالفشل، والخيبة؛ لأن المثبتين لها، لم يتعدوا حدود الله بالتحريف، والتغيير، بل أثبتوها على ما جاءت في كتاب الله، على مراد الله ورسوله.

إذاً نقول: كل ما لم يسأل عنه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، فالسؤال عنه: بدعة. ولهذا تجدهم يسألون الرسول ﷺ، عن أشياء في الصفات، يحتاج الناس إلى فهمها، والعلم بها، فسئل ﷺ: كيف نرى ربنا في آن واحد، ونحن جميع ـ يعني: جمع كثير، وهو واحد ـ فضرب النبي ﷺ لذلك مثلا بالقمر، فقال: [«هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك»[1]. يعني]: كلكم يرى القمر وهو في مكانه، والقمر آية صغيرة من آيات الله ـ عز وجل ـ، يراه الناس كل في مكانه، فالرب ـ عز وجل ـ أعظم وأجل في إمكان رؤيته ـ عز وجل ـ من جميع من ينظر إليه،

---

(١) رواه البخاري كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ رقم (٧٤٣٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢، ١٨٣).

وهو واحد، وهم جميع.

٣ـ أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يسألون عن الشيء؛ ليعملوا به؛ حتى يكون عملهم على بصيرة، وعلى برهان. ولكن هل الناس اليوم، في سؤالهم، يريدون أن يعملوا بما أجيبوا به؟. إن كثيرا من الناس اليوم، يسأل ليضرب أقوال العلماء، بعضها ببعض، فينظر ما عند هذا العالم، وما عند هذا العالم، وما عند هذا العالم.

وهذا وإن كان ـ والحمد لله ـ قليلا بالنسبة إلى عامة الناس، لكن يوجد من تجده يقف عند عتبة باب كل عالم؛ لينظر ما عنده فقط، لا ليعمل بما عنده من العلم. وهذا خطأ عظيم.

ولهذا ننصح إخواننا إذا أشكل عليهم شيء من العلم، أن يختاروا من يرونه أقرب إلى الصواب في علمه، وأمانته، فيسألونه، ثم يقتصروا على ما قال، ولا يسألوا أحدا غيره. لكن لو فرض أنهم سمعوا ـ بعد أن سألوا هذا العالم، وأفتاهم بما عنده، وهم مقتنعون به ـ فيما بعد عالما آخر، يقرر بالأدلة خلاف ما أفتوا به، فحينئذ يجب عليهم الرجوع إلى ما دلت عليه الأدلة. لكن لا مانع من أن يناقشوا العالم الثاني، الذي خالف الأول بالأدلة، فيقولوا: قال لنا بعض الناس ـ ولا يقولوا قال: فلان ـ: إن الحكم كذا وكذا، فما الجواب عن قوله؟. فالعالم بالأدلة لا بد أن يجيب، وإذا لم يكن عنده علم، قال: اعرضوا ما قلت بالأدلة على

الذي أفتاكم أولا، وانظروا ماذا يكون جوابه. والإنسان يجب عليه أن يحتاط لدينه، احتياطا تاما؛ لأن الاحتياط للدين، أشد من الاحتياط للدنيا، أرأيت الإنسان يريد أن يسافر إلى بلد، أليس يسأل عن طريقه من أين يكون؟. وعن طريقه هل هو آمن؟. وعن طريقه هل هو سهل؟. . وما أشبه ذلك. طريق الآخرة ـ وهو شرائع الله ـ يجب أن يحتاط لها، أكثر مما يحتاط لطريق الدنيا.

٤ ـ فضيلة الإنفاق؛ لقوله: ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، ولا شك أن الإنفاق الذي يبتغي به وجه الله خير، قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: «واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت عليها، حتى ما تجعله في فم امرأتك»[1]، أي نفقة تنفقها، تبتغي بها وجه الله، تؤجر عليها، حتى ما يكون واجبا عليك، معاوضة عن منفعة، كالذي تجعله في فم امرأتك، إذا ابتغيت به وجه الله، أجرت عليه.

ولهذا أنصح إخواني بأن يكون على بالهم: نية ابتغاء وجه الله ـ عز وجل ـ، عند الإنفاق، حتى ما تأتي به من الخبز لأهلك ليفطروا به، أو ما تأتي به من اللحم، ليجعلوه في الغداء، أو في العشاء، إذا ابتغيت به

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، رقم (٥٦)، ومسلم كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨).

وجه الله. وما أكثر ما يفوت علينا في هذا الباب، وما أكثر ما نأتي بالنفقة إلى أهلينا لمجرد التمتع بها فقط. نسأل الله أن يوقظ القلوب لما فيه الخير.

٥ـ أن الإنفاق على الوالدين يأتي في الذروة؛ لقوله: ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾. على أن كثيرا من الناس اليوم، يفهم أن الإنفاق على غير الوالدين والأقربين، أفضل. وهذا غلط، الصدقة على القريب: صدقة وصلة، فهي أفضل. ولما حث النبي ﷺ على الصدقة، قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، لأمرأته زينب: أنا وولدك أولى من أنفقت عليه، وأحق من أنفقت عليه. فأشكل عليها الأمر، كيف تنفق على ولدها وزوجها، فيكونون أحق الناس؟ فذهبت إلى النبي ﷺ تستفتيه فيما قال عبدالله بن مسعود، فقال ﷺ: «**صدق عبدالله، هو وولده أحق من أنفقت عليه**»[1]، وهو زوجها وولدها.

٦ـ أنه ينبغي مراعاة الأحق، فالأحق؛ لقوله: ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٧ـ بيان رحمة الله ـ عز وجل ـ، في أنه رحم هؤلاء الذين يستحقون الرحمة، من اليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

---

(١) رواه البخاري كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم (١٤٦٢) بلفظ قريب من هذا.

٨ـ بلاغة القرآن الكريم؛ حيث يأتي الجواب أكثر من السؤال على وجه مختصر واضح بين؛ لأنهم سألوا ماذا ينفقون، فأجيبوا بما ينفقون، ومن ينفقون عليه.

٩ـ الحث على فعل الخير؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

١٠ـ أن الله ـ تعالى ـ عليم بكل شيء، من قليل أو كثير؛ لأن قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم القليل والكثير. وقد أخبر الله ـ تعالى ـ: ﴿بِهِ عَلِيمٌ﴾ وإذا كان الله به عليما، فلن يضيعه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].نسأل الله ـ تعالى ـ أن يعيننا جميعا على ذكره، وشكره، وحسن عبادته، إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾: أي: فرض. والمراد بالقتال، هنا: قتال الأعداء.

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ يعنـي: مكـروه عنـدكم؛ لمـا فيـه مـن المـشقة، والتعرض للهلاك، وغير ذلك مما تكرهه النفوس.

لكـن يقـول الله ـ عـز وجـل ـ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهـذه للتوقـع، يعني: ربـما تكرهـون شـيئا، وهـو خـير لكـم؛ لأنكم لا تعلمون النتيجة، والعاقبة، والمستقبل.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ فكم من إنسان أحب شيئا واستعجله، ولكن صارت العاقبة وخيمة.

ثم قال الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكلـوا العلـم إلى الله ـ عز وجل ـ، وارضوا بما قدر الله، وقوموا بما أوجب عليكم؛ فإن ذلك خير لكم.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ فرضية القتال؛ [وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾] لأن ﴿كُتِبَ﴾ بمعنى: فرض، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] أي: فرض، وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] أي: فرضا ذا وقت.

والقتال ـ أي: قتال الأعداء ـ فرض كفاية، بإجماع المسلمين.

ولا يمكن أن يسقط بأي حال من الأحوال، سقوطا نهائيا، ولكنه

قد يسقط عند العجز عنه إلى حين القدرة.

ويتعين القتال - أي: يكون فرض عين - في أربعة مواضع:

الموضع الأول: إذا استنفره الإمام، يعني: إذا استنفر الإمام أهل القتال، وجب عليهم الإجابة؛ لقول الله - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

الموضع الثاني: إذا حضر الصف، والتقى الجمعان، فيجب عليه الثبات والجهاد، يعني: والقتال؛ لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

وأخبر النبي ﷺ أن التولي يوم الزحف من الموبقات أي: المهلكات[١].

الموضع الثالث: إذا حصره العدو - أي: أحاط به -، وجب عليه القتال، دفاعا عن النفس؛ لأنه يجب على المسلم أن يدافع الكفار عن

---

(١) رواه البخاري كتاب الوصايا، باب قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ رقم (٢٧٦٦)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر، رقم (٨٨).

نفسه؛ لأن الكفار لو قتلوه، فقد هدموا جانبا من الإسلام، بقتل أهل الإسلام.

الموضع الرابع: إذا احتيج إليه، بأن كان عالما بفن من فنون الحرب، لا يعلمه غيره، فحينئذ يتعين عليه هو أن يقوم بهذا الذي لا يعرفه غيره؛ لأنه في هذه الحال، لا يقوم غيره مقامه، مثل أن يكون عالما بتشغيل بعض المعدات العسكرية، ولا يعرفها غيره، فحينئذ يتعين عليه أن يقوم بهذا العمل.

هذه أربعة مواضع، يكون الجهاد فيها فرض عين.

٢ـ أن الواقع لا يغير الشرع، فكراهة الإنسان للقتال، لا تغير فرضية القتال، وإن كان يكرهه.

ويترتب على هذه الفائدة، أنه يتعين على الإنسان أن يقوم بما أوجب الله عليه، ولو كرهته نفسه فليحملها على القيام بالواجب، وليصبر. فإن قال قائل: أيهما أفضل، أن يأتي الإنسان العبادة وهو راض بها، مطمئن إليها، منشرح بها صدره، أو أن يأتي بالعبادة كارها لها وهي شاقة عليه؟. قلنا: الأول أفضل بكثير، وأعلى منزلة، وأسد حالا. والثاني له أجران، لكنهما دون أجر الأول. الأجر الأول: أجر العبادة. والأجر الثاني: أجر المعاناة عليها، ومشقة فعلها عليه، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: **«الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي**

يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»[1]. لكنهما أجران دون أجر الأول؛ لأن الأول أكمل حالاً وأسد من الثاني.

٣ـ أن الإنسان قد يكره الشيء، وهو خير له، وهذا أمر مشاهد فأحيانا تكره عملا عملته، أو تكره أمرا وقع عليك، من عند الله، أو تكره أمرا وقع عليك من عند الناس ـ آذوك مثلا ـ، وإذا بنتيجة هذا الأمر خير عظيم لك في مستقبلك، وحالك. أقول: هذا شيء مشاهد، مجرب. وظيفة الإنسان في مثل هذا الصبر والانتظار، وسوف يجد أن الخير كله فيما اختار الله ـ عز وجل ـ.

٤ـ أن الإنسان قد يحب الشيء، وهو شر له، قد يحب أن يتثبط عن القتال، ويتأخر، فيؤخر نفسه، فيكون ذلك شرا له. وكذلك في أمور الدنيا، قد يحب الإنسان كثرة المال، وكثرة العيال، وكثرة الأهل ـ الأزواج ـ، وإذا بهذه الكثرة تكون شرا عليه. ولهذا يجب على الإنسان سلوك الشريعة، والصبر على ما يحصل، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «المؤمن القوي ـ يعني: في إيمانه وعمله ـ أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا، لكان كذا وكذا؛

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب سورة عبس، رقم (٤٩٣٧)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن...، رقم (٧٩٨).

فإن لو: تفتح عمل الشيطان»(١).

٥ـ أن الإنسان إذا حمل نفسه على ما يكره من طاعة الله؛ فليرتقب الخير؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ﴾.

ـ إثبات علم الله ـ عز وجل ـ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، والمراد: لا تعلمون العاقبة، وإلا فلدينا علم بالشيء الحاضر، والشيء الماضي الذي لم ننسه، وأما المستقبل، فلا علم لنا به، إلا ما علمنا الله ـ عز وجل ـ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾. فعلى الإنسان أن يكل علم المغيبات إلى عالم الغيب والشهادة، وأن يقوم في حاضره بما أوجب الله عليه.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

---

(١) رواه مسلم كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز...، رقم (٢٦٦٤).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يسألون النبي ﷺ.

﴿عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. «قتال فيه» بدل اشتمال من الشهر، والمراد بالشهر الحرام الجنس، أي: الأشهر الحرم، ويحتمل أن تكون «أل» للعهد الذهني، ويكون المراد به شهراً معينا وهو الذي حصلت فيه القضية. وذلك أن الرسول ﷺ أرسل سرية في السنة الأولى من الهجرة، في جمادى الآخرة، وأمر عليهم عبدالله بن جحش ـ رضي الله عنه ـ، وأعطاه كتابا، وقال له: «لا تفتح الكتاب إلا بعد مسيرة يومين» فذهب بسريته ـ وهم نحو سبعة أشخاص ـ فلما مشى يومين فتح الكتاب، وإذا فيه أن رسول الله ﷺ يأمرهم أن يسيروا إلى نخلة بين مكة والطائف، وأن يترقبوا أخبار قريش، فصادفوا عيرا لقريش نازلة من الطائف إلى مكة، فحصل بينهم قتال، فقتلوا منهم رجلا، وأسروا رجلين، وفر الرابع. وكان قتلهم لهذا الرجل في الأول من شهر رجب، وهم يظنون أنهم في آخر جمادى الآخرة، ومعلوم أن رجب شهر محرم، فاستغل المشركون هذه القضية، وقالوا: هذا محمد يزعم أنه يطيع الله، وأنه يعظم حرمات الله، وأصحابه قتلوا الرجل في الأشهر الحرم.

فضاقت صدور أصحاب السرية، وسألوا رسول الله ﷺ عن الشهر الحرام قتال فيه، فأنزل الله ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ يعني: من كبائر الذنوب، وعظائم الأمور؛ لأنه انتهاك لحرمتها.

ولكن الله سلى الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بقوله: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يعني: لو وقعت منكم هذه الكبيرة، فقد وقع من الذين يعيرونكم ما هو أعظم جرما، وهو ما ذكره الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الطريق الموصل إلى شرعه. ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله ـ عز وجل ـ، وهو أعظم ذنب يفعله الإنسان.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ في إعرابها قولان: أنها معطوف على «سبيل الله»، و«كفر به»، وصد عن المسجد الحرام.

والثاني: أنها معطوف على الضمير «به»، فيكون المعنى: كفر به وبالمسجد الحرام، وذلك ظاهر من جعل الأصنام في جوف الكعبه.

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ أي: إخراج الرسول ﷺ وأصحابه؛ لأن الكفار ليسوا من أهل الحرام.

﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: أكبر من القتل في الشهر الحرام.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ أي: الشرك أعظم من القتل.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ﴾

أي: أن الكفار حريصون على أن يخرجونا من ديننا، تفيد أنهم لن يستطيعوا. وهذا الحكم يشمل: اليهود، والنصارى، والمنافقين. فهو

عام لأصناف الكفار.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ اشترط لحبوط العمل الموت على الكفر.

فلو ارتد عن الإسلام ثم أسلم بعد ذلك، لم يحبط عمله السابق فلو أدى الحج قبل ردته، ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام قبل ردته، ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام، فإنه لا يلزمه إعادة الحج.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: الملازمون لها الخالدون فيها.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على التفقه في دين الله ـ عز وجل ـ، وذلك بما يوردونه على النبي ﷺ من الأسئلة، ثم اعلم أن أسئلة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ليست كأسئلة كثير من المعاصرين اليوم، كثير من المعاصرين اليوم، يسألون عن الحكم، ليعلموا الحكم فقط، ومنهم من يطبق، ومنهم من لا يطبق. منهم من يطبق إذا كان الحكم الشرعي، مناسبا له، ومنهم من لا يطبق فيذهب إلى عالم وآخر، لعله يجد من الفتوى ما يناسبه. ولا شك أن هذا ـ أعني: تتبع الرخص ـ أمر منكر، حتى أن أهل العلم قالوا: إن من تتبع الرخص، فقد فسق. والواجب على المرء أن يختار لدينه، من يرى أنه أوثق في علمه، ودينه،

فيسأله، ثم لا يلتفت إلى غيره.

٢- تهوين الشيء على الإنسان بما هو أعظـم منـه، وذلـك يتبـين مـن معرفة سبب نزول هـذه الآيـة. فـإن النبـي ﷺ بعـث سريـة تتلقـى عـيرا لقريش فحصل بينهم قتـال في آخـر يـوم مـن شـهر جمادى الثانيـة فقـال المشركون: «هـذا محمـد ينتهـك الحرمـات، ويقاتـل في الـشهر الحـرام». وجعلوا آخر يوم من جمادى الثانية هو أول يوم من رجب؛ تـشنيعا عـلى رسول الله ﷺ. وخاف الصحابة - رضي الله عنهم - الذين حصـل معهم اشتبـاك مع هذه العير - أن يكونوا قاتلوا في الشهر الحرام، فسألوا النبـي ﷺ عن ذلك، فأجابهم الله.

٣- أن الشهر الحرام يحرم فيه القتـال؛ لقولـه - تعـالى -: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾. والشهر الحرام هو: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

٤- أن القتال في الأشهر الحرام من كبائر الـذنوب؛ لقـول الله - تعـالى -: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾.

٥- أن ما ذكر من الصد عـن سـبيل الله، والكفـر بـالله، والـصد عـن المسجد الحرام، وإخراج أهله منه، أكبر عند الله - عز وجل -، وأن الفتنـة - وهي: الشرك - أكبر من القتل. فيستفاد من هذه الجملـة التـي ذكرتهـا: أن الـصد عـن سـبيل الله مـن كبـائر الـذنوب، مثالـه: أن تـرى شخـصا متجها إلى الاستقامة والالتزام، فتأتي فتصده عن ذلك، وتقول لـه: هـذا

يلزمك بأشياء، وهذا يحبس حريتك ـ على ما تظنه أنت أنه حبس للحرية ـ وإن كان ـ حقيقة الأمر ـ أن التمسك بالدين هو الحرية التامة؛ لأن الإنسان فيه يتحرر من رق الشيطان والهوى. فهذا نوع من الصد عن سبيل الله. ومن ذلك أيضا، أن ترى شخصا مكبا على العلم يراجع، ويناقش، فتثبطه، وتقول له: لا حاجة إلى أن تتعب نفسك، وما أشبه ذلك. فالمهم: أن كل من صد الناس عن دين الله ـ عز وجل ـ، فهو داخل في قوله: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وأعظمه أن يصد الإنسان عن الإيمان بالله ـ عز وجل ـ ليتخذ سبيل الكافرين.

٦ـ أن الكفر بالله أعظم من القتال في الأشهر الحرم، وليس بعد الكفر ذنب.

٧ـ أن الصد عن المسجد الحرام من كبائر الذنوب، كما فعلت قريش حين صدت النبي ﷺ عن إتمام عمرته في عام الحديبية.

٨ـ أن إخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر عند الله ـ عز وجل ـ. ولا شك أن المشركين أخرجوا النبي ﷺ، وهو وأصحابه أهل المسجد الحرام حقيقة، أخرجوهم من مكة، واضطروهم إلى الهجرة إلى المدينة النبوية.

٩ـ أن الفتنة ـ وهي: الشرك الذي كان علية المشركون ـ أشد من القتال في الأشهر الحرم.

١٠ـ أن الذنوب تتفاوت، منها: الكبير، ومنها الأكبر، وكذلك

الأعمال الصالحة تتفاوت، منها: الفاضل، ومنها: الأفضل، ومنها: المستحب، ومنها: الواجب. وبناء على ذلك نقول: إن الإيمان - أيضا - يتفاضل، فهو في بعض الناس، أكمل من بعض؛ لأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

١١ـ بيان عداوة الكفار للمؤمنين، وأنهم لا يزالون يحاربون المسلمين، إما بالأفكار السيئة والعقائد المنحرفة، وإما بالسلاح؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾.

١٢ـ بيان حرص الكفار على ارتداد المسلمين؛ لأنهم يبذلون رقابهم من أجل أن يرتد المسلمون عن دينهم ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾. وتأمل قوله - تعالى - ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ فإنه يفيد الاستمرار، أي: أنهم لا يزالون في كل وقت، وفي كل مكان، يقاتلون المسلمين؛ حتى يردوهم عن دينهم.

١٣ـ أن هؤلاء الكفار، مهما بذلوا من الحرص على ارتداد المسلمين، فإنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا؛ لأن الأمر بيد الله - عز وجل -، ولهذا قال: ﴿إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾، وهذه الجملة، تعني: أنهم لن يستطيعوا ذلك، إلا بإذن الله. وهي كقوله - تعالى -: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، فهي تشبه التحدي لهؤلاء الذين

يريدون أن يردوا المسلمين على أعقابهم، فإنهم لن يستطيعوا ذلك، ما دام الله ـ تعالى ـ لم يأذن به.

١٤ـ أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ يفيد أنه يجب علينا أن نلجأ إلى الله ـ عز وجل ـ، وأن نعتصم به من شر أولئك الكفار الذين يحاولون أن يصدونا، وأن يردونا عن ديننا.

١٥ـ أن الردة عن الإسلام، تحبط العمل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

١٦ـ أن الردة لا تبطل العمل، إلا بأن يموت الإنسان عليها؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾. وهذا القيد يقيد جميع النصوص الواردة بأن الردة تبطل الأعمال. فيقال مثلا: إنها لا تبطل العمل، إلا إذا مات الإنسان عليها.

١٧ـ قبول إسلام المرتد، مهما كانت ردته؛ لقوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾، فإنها تفيد أن المرتد عن الإسلام، إذا رجع إليه قبل الموت، فإنه يقبل منه ذلك. وهذا عام في كل ردة، مهما عظمت، ويدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بدون استثناء، فكل

من تاب من ذنب، توبة نصوحا، فإن الله ـ تعالى ـ يقبل منه، ويرفع عنه أثر الذنب، وحكمه. حتى لو فرض أن المرتد، ارتد بسب الله ـ عز وجل ـ، أو سب رسوله ﷺ، أو سب آياته، ثم عاد إلى الإسلام، وحسنت حاله، فإن توبته مقبولة. لكن التحقيق في هذه المسألة، أن من سب الرسول ﷺ، ثم تاب، فإن توبته تقبل، ويكون من المسلمين، لكن يجب قتله حماية لعرض الرسول ﷺ. ولعل قائلا يقول: كيف تقولون: إنه إذا تاب من سب الله فإنه تقبل توبته إذا حسنت حاله، ولا يقتل، وتقولون أن من سب الرسول ﷺ، ثم تاب، وحسنت حاله، فإن توبته مقبولة، لكن يجب قتله؟! فهل سب الرسول ﷺ أعظم من سب الله؟. جوابنا على هذا: أن سب الله أعظم بلا شك، لكن سب النبي ﷺ، حق له، حق لآدمي، لا نعلم أنه تجاوز عنه وعفا عنه، [أم لا؟] أما سب الله ـ عز وجل ـ، فهو حق لله ـ تبارك وتعالى ـ، وإذا كان حقا لله، فإن الله ـ تعالى ـ قد بين أنه يغفر الذنوب جميعا لمن تاب إليه.

١٨- أن الكافر ـ سواء كان مرتدا، أم كافرا أصليا ـ جميع أعماله حابطة، ليس له منها فائدة إطلاقا، حتى لو عمل من الحسنات ما عمل فإنها لا تنفعه، فلو أن كافرا من الكفار، أو طائفة من الكفار، أصلحوا طرق المسلمين ـ مثلا ـ أو أزالوا المشقات، أو نفعوا المسلمين بطب، أو غيره ـ وإن كانوا يريدون الإحسان في هذا ـ فإنهم لا يثابون عليه؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً

مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، ولقوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ ﴾ ـ أي: عن الكفر ـ ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فدلت الآية على أنهم لو بقوا على ما هم عليه، فإنه لا تغفر لهم ذنوبهم، وهو كذلك.

١٩- إثبات الآخرة، أما الدنيا، فلا حاجة أن نقول فيها: إثبات الدنيا؛ لأن هذا أمر معلوم. لكن الآخرة التي ينكرها من ينكرها من بني آدم، قد ثبتت، والإيمان باليوم الآخر: أحد أركان الإيمان الستة، التي بينها رسول الله ﷺ، حين سأله جبريل ـ عليه السلام ـ، عن الإيمان، فقال ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[١]. والإيمان بالآخرة يتضمن الإيمان بوقوعها، وأنها آتية لا ريب فيها، ويتضمن الإيمان بكل ما أخبر به الله ورسوله ﷺ، مما يكون في ذلك اليوم.

٢٠- أن من مات على الكفر، كان مخلدا في النار؛ لقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. و﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لا تطلق إلا على من لازمها، وبقي فيها أبدا، فهؤلاء ـ أعني: أهل النار ـ مخلدون فيها أبد الآبدين، لا يخرجون منها، وهي باقية أبد الآبدين، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

* * *

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٥).

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

كأن هذه الآية، تتمة لما قبلها، حيث تشمل أولئك القوم الذين حصل منهم قتال الكفار، في آخر يوم من جمادى الآخرة، فخافوا أن يكون ذلك من رجب، وأن تحبط أعمالهم، وأن يكونوا أتوا كبيرة من كبائر الذنوب، فقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾يعني: آمنوا بالله، وآمنوا برسوله وآمنوا بكل ما يجب الإيمان به.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ أي: تركوا بلادهم، مهاجرين إلى الله ورسوله، فارين بدينهم من أعدائهم.

﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: قاتلوا أعداء الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا. ولعل قوله: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يشمل ما هو أعم من القتال.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: يرجون أن يرحمهم الله ـ عز وجل ـ بإيمانهم، وهجرتهم، وجهادهم.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي ذو مغفرة ورحمة.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ فضيلة الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله؛ لما يترتب عليها

من هذا الأجر العظيم.

٢ـ الإشارة إلى الإخلاص في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، لأن الإخلاص: ركن أساسي، وشرط لقبول العبادة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال الله ـ تعالى ـ: في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»[١]. فإذا قال قائل: ما ميزان الجهاد في سبيل الله؟ قلنا: ميزانه ما أجاب به النبي ﷺ، حين سئل عن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[٢].

٣ـ طرد الإعجاب بالنفس، أي: إنك إذا عملت عملا، فلا تعجب به وتقول: الآن نجوت من النار، واستحققت الجنة؛ لقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾، فهم يعملون هذه الأعمال الجليلة، ومع ذلك، فقلوبهم مملوءة بالرجاء، أي: أنهم يعتمدون على قوة رجائهم في الله ـ عز وجل ـ، لا على أعمالهم؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[المؤمنون: ٦٠]، أي: خائفة ألا

---

(١) رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) رواه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٢٨١٠)، ومسلم كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤).

يقبل منهم، وقال النبي ﷺ: «لن يدخل الجنة أحد بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»[1].

٤ـ إثبات الرحمة لله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: يرجون أن يرحمهم الله.

٥ـ إثبات هذين الاسمين الكريمين، وهما: «الغفور» و«الرحيم»، لله ـ عز وجل ـ. وإثبات ما تضمناه من صفة، وهي: المغفرة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿غَفُورٌ﴾. والرحمة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَّحِيمٌ﴾. والمغفرة تتعلق بالذنوب، يغفرها الله ـ عز وجل ـ. والرحمة تتعلق بالطاعات، يرحم الله من يشاء من عباده، فيوفقه للطاعات، ويوفقه لقبولها.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ السائل هم: الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، سألوا النبي ﷺ عن الخمر والميسر. والخمر: كل مسكر، كما قال النبي ﷺ: «كل

(١) رواه البخاري كتاب المرض، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله. . . رقم (٢٨١٦).

مسكر خمر»(1).

والإسكار هو: تغطية العقل، على وجه اللذة والطرب. وإنما قلنا: على وجه اللذة والطرب؛ لأن تغطية العقل، قد تكون على وجه اللذة والطرب، وقد تكون إغماء، وقد تكون عن بنج [مخدر]، وما أشبه ذلك. فالإسكار أن يتغطى العقل على وجه اللذة والطرب؛ ولهذا تجد السكران ـ والعياذ بالله ـ نشوانا، يرى نفسه أنه ملك عظيم. وأنه بيده كل شيء. كما قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملوكا

ولما شرب حمزة بن عبد المطلب ـ عم رسول الله ﷺ الخمر قبل أن تحرم، ومر به ناضحان لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، غنته الجارية، بما يقضي أن يقوم إلى هذين الناضحين، فقام إليهما وبقر بطونهما، فذهب علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى النبي ﷺ، فشكا إليه الحال. فأتى النبي ﷺ إلى حمزة ـ رضي الله عنه ـ وكان قد ثمل ولم يصح بعد ـ فلما كلمه، قال له حمزة ـ رضي الله عنه ـ: «هل أنتم إلا عبيد أبي». فلما رآه النبي ﷺ على هذه الحال رجع. الشاهد قوله ـ رضي الله عنه ـ: «هل أنتم إلا عبيد أبي». فإنه يشعر في تلك الحال أنه عظيم، وأنه ملك، وأنه أكبر من أن يكلمه الرسول ﷺ. فالخمر إذاً: كل

---

(1) رواه مسلم كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، رقم (٢٠٠٣).

ما أسكر، ومعنى أسكر أي: غطى العقل، على وجه اللذة والطرب.

أما الميسر فهو: كل معاملة فيها مغامرة ومقامرة وسميت ميسرا، لتيسر الحصول فيها على الربح. ولهذا تجد المقامرين يدخل الواحد منهم، وليس عنده قرش، ثم يخرج وعنده آلاف الدراهم؛ بسبب هذا القمار.

وهي - أعني: المعاملة بالميسر - مضبوطة - عند أهل العلم - بضابط وهو: كل معاملة، يكون الإنسان فيها إما غارما، وإما غانما، فإنها من الميسر. وسيأتي - إن شاء الله - في ذكر الفوائد ما يتعلق بذلك.

﴿قُلْ﴾ أي: في جواب السائلين.

﴿فِيهِمَآ﴾ أي. في الخمر والميسر.

﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وذلك لأن السكر، يؤدي إلى ما لا يرتضى من القول، وإلى ما لا يرتضى من الفعل. حتى إن السكران ربما قتل ابنه، أو أمه، أو أباه أو زوجته، أو أحدا من أقاربه، وهو لا يشعر. وربما أحرق ماله وهو لا يشعر. وهذا - لا شك - إثم كبير.

الميسر - أيضا - عند المغالبة تحصل المنازعات، والمخاصمات، والعداوات، والبغضاء، وربما يقوم أحد المتقامرين - إذا رأى أنه قد غلب كثيرا - إلى هذا الغالب ويقتله؛ فلذلك قال - سبحانه وتعالى -:

﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾.

فيهما أيضا «منفع للناس» و«منافع» جمع وهي عند علماء اللغة: صيغة منتهى الجموع، أي: منافع كثيرة للناس، منها: الاتجار بالخمر، ومنها: الحصول على الغنى الطائل في الميسر. وغير ذلك مما هو معروف.

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال بعد ذلك: ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ يعني: ما يحصل فيهما من الإثم، أكبر مما يحصل فيهما من النفع؛ لأن الآثار المترتبة عليهما، آثار وخيمة، وخيمة في الدنيا، ووخيمة في الآخرة. فإن شرب الخمر فيه مفاسد عظيمة، منها: ضياع العقل. ومنها: أن الإنسان يفعل أفعالا منكرة. ونشر في بعض الجرائد، منذ خمس عشرة سنة، عن شخص شاب، سكر ثم أتى إلى والدته بعد منتصف الليل، ولم يصح بعد، فطلب منها أن تمكنه من نفسها، فأبت، ولكنه أصر على ذلك، وقال: إن لم تفعلي، فسوف أقتل نفسي، ثم أخذ السكين ليقتل نفسه، فأدركتها شفقة الأم، فمكنته من نفسها ـ والعياذ بالله ـ. وفي الصباح ـ وحين صحا ـ شعر بما جرى، فأتى إلى أمه، يستثبت منها، فأخبرته بالأمر، فدخل الحمام، وأخذ جالونا من الجاز، وصبه على نفسه، ثم أحرق نفسه ـ نسأل الله العافية ـ فانظر ماذا جرى من السكر من العواقب الوخيمة، ولهذا تسمى الخمر أم الخبائث، ومفتاح

كل شر.

أما الميسر: فما أكثر الذين انتحروا حين غلبوا، أو قتلوا من غلبهم، وهذا أمر يعرفه الذين يتعاطون هذه المعاملة السيئة.

ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ لما ذكر الميسر ـ الذي به أكل المال بالباطل، والمغالبة المحرمة ـ ذكر حال من يبذلون المال، فما الذي ينفقون من المال؟ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ يعني: أنفقوا العفو، والمراد بالعفو الزائد على الحاجة، يعني: أنفقوا مما يزيد على حاجتكم. أما ما كنتم تحتاجون إليه، فأنتم أولى به.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ أي: مثل هذا البيان يبين الله لكم الآيات، ويوضحها توضيحا كاملا، يحصل به تمام الإيمان، والاقتناع، والاطمئنان.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لأجل أن تتفكروا.

في هذه الاية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- ما سبق أن ذكرناه في مواضع سابقة، وهو: حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على معرفة دينهم، فهم يسألون الرسول ﷺ عما يحتاجون إليه، في أمور دينهم ودنياهم، وهو ﷺ يجيبهم على هدى من ربه وبيان.

٢- أن الخمر والميسر من كبائر الذنوب؛ لقوله: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾.

٣- أن الشيء قد يجتمع فيه خير وشر، ونفع وضر؛ لقوله: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

٤- أن من الحكمة الموازنة بين الضرر والنفع، وبين الخير والشر، فيغلب أقواهما وأعلاهما، ويكون الحكم له. وهنا: قارن الله - تعالى - بين الإثم والمنافع، وبين أن الإثم أكبر من النفع.

٥- التعريض في الأمور قبل البت في حكمها؛ وذلك ليكون الإنسان حين ينزل البت في الحكم مستعدا لقبوله؛ لأن كل عاقل إذا وازن بين المصالح والمفاسد، والمضار والمنافع، فإنه سوف يأخذ بما هو أكثر، فيكون نزول الحكم البات في الخمر والميسر قد أتى، والنفوس مهيئة لقبوله، مع شدته عليها. ولهذا كانت هذه الآية هي الآية الثانية في بيان حكم الخمر، **فإن الله - سبحانه وتعالى - ذكر للخمر أربع مراتب:**

المرتبة الأولى: **التحليل.**

والثانية: **التعريض بالتحريم.**

والثالثة: **التحريم في وقت معين.**

والرابعة: **التحريم البات.**

أما المرتبة الأولى، فهي قوله - تعالى - في سورة النحل: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ

ﵟٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاﵞ [النحل: ٦٧].

وأما المرتبة الثانية: فهي هذه الآية.

وأما المرتبة الثالثة: فهي قوله ـ تعالى ـ: ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَﵞ [النساء: ٤٣].

وأما المرتبة الرابعة: فهي قوله ـ تعالى ـ: ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَﵞ [المائدة: ٩٠، ٩١]. قال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: «انتهينا، انتهينا»، وأراقوا الخمر من أوانيه، وبعضهم يدار عليهم الخمر، كما في حديث أنس ابن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع مناديا ينادي: «ألا إن الخمر قد حرمت» وكان يسقي القوم الخمر، فقال له ـ أظنه أبا طلحة ـ: اخرج فانظر إلى هذا الصوت. فخرج فقال: إنه يقول إن الخمر قد حرمت، فأخذوا الآنية والكؤوس وأراقوها في الأسواق حتى جرت منها سكك المدينة[1]. ولم يتوقفوا في الامتناع عنها ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ. والخمر والميسر من كبائر الذنوب، واختص الخمر بأن فيه

---

(١) رواه البخاري كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق، رقم (٢٤٦٤)، ومسلم كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، رقم (١٩٨٠).

العقوبة على من شربه؛ لأنه أعظم مفسدة من الميسر ـ من وجه ـ، وأكثر شيوعا في الناس، وأكثر النفوس الدنيئة تطلبه، فلذلك كان لا بد من رادع يردع عن شربه، إذا نقص الوازع الديني الإيماني، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[١].

وعقوبة شارب الخمر جاءت بها السنة، فقد كان الشارب في عهد النبي ﷺ يضرب بالجريد، والنعال، وأطراف الثياب، والأيدي، نحو أربعين جلدة، وجلد أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أربعين جلدة، وجلد عمر ـ رضي الله عنه ـ في أول خلافته أربعين جلدة. لكن لما كثر المسلمون، وانتشروا في مشارق الأرض، ومغاربها، وكثرت الفتوحات، وكثر الداخلون في الإسلام الذين لم يستقر الإيمان في قلوبهم، كثر شرب الخمر، فاستشار عمر ـ رضي الله عنه ـ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: أيبقى على العقوبة الأولى، أم يزيد فيها؟ فاستقر رأيهم على الزيادة، وأن تكون عقوبتها ثمانين جلدة. قال عبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ وهو من جملة الحاضرين في المشورة ـ: أخف الحدود ثمانين، يعني: وأرى أن ترفع عقوبة شارب الخمر إلى ثمانين جلدة[٢].

---

(١) رواه البخاري كتاب الأشربة، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ رقم (٥٥٧٨)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. . . ، رقم (٥٧).

(٢) رواه البخاري كتاب الحدود، باب ماجاء في ضرب شارب الخمر، رقم (٦٧٧٣)، ومسلم، كتاب الحدود، باب حد الخمر، رقم (١٧٠٦، ١٧٠٧).

وقد ورد عن النبي ﷺ قتل شارب الخمر إذا جلد ثلاث مرات فقال ﷺ: «إن شرب فاجلدوه. ثم إن شرب فاجلدوه. ثم إن شرب فاجلدوه. ثم إن شرب الرابعة، فاقتلوه»[1]. فاختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في هذا الحديث: أهو محكم أم منسوخ؟ جمهور العلماء على أنه منسوخ، وأنه لا قتل في عقوبة الخمر، وأخذ أهل الظاهر به، وقالوا: إنه يقتل إذا شرب أربع مرات، وكان يجلد ثلاث مرات قبل الرابعة. وفصل بعض أهل العلم في ذلك، فقالوا: إن لم ينته الناس عن شربه إلا بالقتل في الرابعة، فإنه يقتل؛ لأن من جلد ثلاث مرات، ولم يفد به، فإنه يكون من المفسدين في الأرض، الساعين فيها بالفساد، فيقتل نكالا لغيره. وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فقال: إذا لم ينته الناس بدون القتل في الرابعة، فإنه يجب تنفيذ القتل.والحقيقة أن الأقسام في هذه الحال خمسة: إما أن يكون مصلحة محضة، أو مفسدة محضة، أو مصلحة غالبة، أو مفسدة غالبة، أو متساوي الأمرين (المصلحة والمفسدة).فإن كان مصلحة خالصة؛ فالحكم واضح، أننا نأخذ به، ونعتبره. وإن كان مفسدة خالصة، فكذلك الحكم واضح،

---

(١) رواه الترمذي كتاب الحدود، باب ما جاء من شرب الخمر فاجلدوه، ومن عاد في الرابعة فاقتلوه: رقم (١٤٤٤)، والنسائي كتاب الأشربة، ذكر الروايات المغلظات في شرب الخمر رقم (٥٦٦٢)، وأبو داود كتاب الحدود: باب إذا تتابع في شرب الخمر، رقم (٤٤٨٢، ٤٤٨٤، ٤٤٨٥)، ابن ماجة كتاب الحدود، باب من شرب الخمر مرارا، رقم (٢٥٧٣)، وأحمد (١٠١٦٩، ١٠٣٥١، ١٦٤٠٥)

وهو أن نعتبر بالمفسدة، ونتجنب ما فيه المفسدة. وإذا كانت المصلحة غالبة، أخذ بها، وألغي جانب المفسدة. وإذا كانت المفسدة غالبة، أخذ بها ـ أي: اعتبر جانب المفسدة ـ وألغي جانب المصلحة. وإذا تساوى الأمران، فإن المعتبر، جانب المفسدة احتياطا، وتنزها عن الوقوع فيها.

٦ـ أن المآثم تختلف كبرا وصغرا، وأن العبرة بالأكبر، لا بالأكثر، ولهذا قال ـ سبحانه وتعالى ـ في الخمر والميسر: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾، وفي المنافع قال: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فهي في الكمية أكثر؛ لأن ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ متعددة.

لكن لما كان الإثم كبيراً، صار اعتباره هو الأولى، وصار إثمهما أكبر من نفعهما.

هكذا بدا لنا من الآية الكريمة، وكلمات الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحيط بها أحد من المخلوقين، لكن حسبنا أن نصل إلى ما يمكننا علمه، وكلام الله ـ تعالى ـ فوق كل كلام. نسأل الله ـ تعالى ـ أن يرزقنا جميعا الانتفاع بكتابه، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وقادة مصلحين، إنه على كل شيء قدير.

٧ـ حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على أن يكون إنفاقهم موافقا للشرع، في قدره، ونوعه، وذلك حين قالوا: ماذا ننفق؟، يعني: ما الذي ننفقه من أموالنا؟ أننفق كثيرا، أم ننفق قليلا؟.

٨ـ أن الإنفاق المأمور به هو ما زاد عن الحاجة؛ لقوله ـ تعالى ـ:

﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾، فأما ما دعت إليه الحاجة، فإن دفع الحاجة أهم من نفع الغير، اللهم إلا عند الضرورة، وعلى هذا فمن عنده عيال، ودخله قليل بقدر النفقة على عياله، فإن إنفاقه على عياله أولى من الصدقة بما عنده من المال. فإن قال قائل: ألم يكن أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قد أتى بجميع ماله حين حث النبي ﷺ على الصدقة؟ قلنا: بلى، لكن من مثل أبي بكر في صدق الإيمان والتوكل على الله ـ عز وجل ـ؟!.

٩ـ أن من عليه دين، فإنه لا يتصدق؛ لأن من عليه دين، ليس عنده عفو، أي: ليس عنده زائد من المال؛ إذ إن الواجب عليه أن يبادر بوفاء الدين؛ لقول النبي ﷺ: «مطل الغني ظلم»[1] والمطل هو: تأخير الوفاء. فإذا قدر أن على الإنسان مئة ريال ديناً، وأراد أن يتصدق بخمسين ريالا، قلنا له: لا تتصدق، اقض الدين أولاً، ثم تصدق؛ لأن قضاء الدين واجب، والصدقة من باب المستحبات. وكذلك يقال في من ذهب إلى العمرة، أو للحج، وعليه دين. فإننا نقول: لا تعتمر، ولا تحج، حتى تقضي دينك؛ لأن قضاء الدين واجب، والعمرة والحج مستحبان. وهذا إذا كان الإنسان قد أدى الفريضة في عمرته وحجه، لكن نقول: حتى من لم يؤد الفريضة أيضا، وذلك أن من كان مدينا، فإنه ليس عليه فريضة؛ إذ أن فريضة الحج والعمرة إنما تكون عند

(١) رواه البخاري كتاب الحوالة، باب في المطل، رقم (٢٣٤٥)، ومسلم كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني...، رقم (١٥٦٤).

الاستطاعة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ومن المؤسف أن كثيراً من الناس عليه الديون، يماطل بها أصحابها، ويذهب إلى العمرة، ويذهب إلى الحج، ويتصدق بالمال الكثير، ثم إذا قلت له: لماذا؟ قال: لأن صاحب الدين قد سمح لي. وهذا لا يكفي. صاحب الدين إذا سمح لك، لم يسقط عنك شيء من الدين، سيبقى في ذمتك، ولا تدري متى يفجؤك الموت، فيتعلق الدين بك حتى في مماتك. ولهذا روي عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قالوا: **توفي رجل فغسلناه وحنطناه وكفناه ثم أتينا به رسول الله ﷺ يصلي عليه فقلنا تصلي عليه؟ فخطا خطى ثم قال: أعليه دين؟ قلنا: ديناران. فانصرف. فتحملهما أبو قتادة ـ رضي الله عنه ـ، فأتيناه فقال أبو قتادة: الديناران علي. فقال رسول الله ﷺ: حق الغريم وبرئ منهما الميت؟ قال: نعم. فصلى عليه. ثم قال بعد ذلك بيوم: ما فعل الديناران؟ فقال: إنما مات أمس. قال: فعاد إليه من الغد فقال: لقد قضيتهما. فقال رسول الله ﷺ:** «الآن بردت عليه جلده»[1].

فالدين أمره عظيم، نعم، لو فرض أن الدين مؤجل، وأن الإنسان

---

(١) رواه البخاري كتاب الحوالات، باب إذا حال دين الميت على رجل جاز، رقم (٢٢٨٩)، والرواية المذكورة أعلاه: رواها أحمد، برقم (١٤١٢٧).

قد وثق من نفسه أنه عند حلول الأجل، يقضي الدين، فحينئذ نقول: لا بـأس أن تـصدق، مـا دام الـدين لم يحـل، أمـا إذا كـان قـد حـل، أو أن الإنسان غير واثق من نفسه، فليقدم قضاء الدين.

١٠ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ من على عباده ببيان الآيات لهم؛ حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

١١ـ أن القرآن الكريم ليس فيه ما يخفى معناه على كل أحد؛ إذ لو كان في القرآن الكريم ما يخفى معناه على كل أحد، لم يكن بيانا للناس، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

١٢ـأنه ينبغي للإنسان أن يسعى في تفهم معاني آيات الله الشرعية ـ وهي ما جاءت به الرسل ـ سواء كان ذلك في كتاب الله أو سنة رسـول الله ﷺ، حتى تتبيـن له الآيات؛ لأن تبيـن الآيات للإنـسان يزيـده إيمانـا بـالله ـعـز وجـل ـ. والآيـات نوعـان: آيـات كونيـة: كالليـل، والنهـار، والشمس والقمر، والجبال، والأنهـار، وغيرهـا. وآيـات شرعيـة وهـي: الوحي الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام. وكـل هـذا قـد بينـه الله ـ عز وجل ـ للناس، بيانا شافيا.

١٣ـ الحـث عـلى التفكـر في الآيـات الكونيـة، والآيـات الـشرعية؛

لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٤ ـ إثبات الحكمة فيما أرى الله عباده من الآيات؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾؛ لأن «لعل» هنا للتعليل. ولا ريب أن الله ـ تعالى ـ له الحكمة في آياته الكونية، وآياته الشرعية؛ لأن من أسمائه ـ تعالى ـ الحكيم، أي: ذو الحكمة، وهي: وضع الأشياء في مواضعها.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يؤتينا جميعا الحكمة، فإنه من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا.

١٥ ـ يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن التفكر في آيات الله الكونية أو الشرعية، من الأمور المطلوبة المحبوبة إلى الله ـ عز وجل ـ. وبناء على هذه الفائدة ينبغي للإنسان أن يتفكر في آيات الله ـ تعالى ـ الشرعية أي: في القرآن والسنة، فيتدبر الآيات، ليتبين له من أحكامها ما شاء الله، ثم يتفكر مرة أخرى في الحكم المترتبة على هذه الأحكام؛ لأن الإنسان إذا فتح الله عليه معرفة الحكم من الأحكام الشرعية، ازداد إيماناً ويقيناً، وعرف بذلك سمو الشريعة الإسلامية، وأنها لا تأمر إلا بالخير ولا تنهى إلا عن الشر.

كذلك أيضاً، إذا تفكر في الآيات الكونية، عرف بها عظمة الله ـ عز وجل ـ، ورحمته، وقدرته، وتمام سلطانه، فازداد بذلك إيماناً مع إيمانه.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ ﴾ قال كثير من العلماء: إن قوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ ﴾ متعلق بقوله: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الآية التي قبلها، أي: تتفكرون في الدنيا والآخرة، أي: في أمور الدنيا والآخرة وأحوالهما، حتى ترجحوا ما ترون أنه أحظ لكم، وأنفع لكم، ومن المعلوم أن الإنسان إذا فكر في أمور الدنيا والآخرة، وكان ذا عقل، فسوف يقدم ما كان من مصلحة الآخرة، على مصلحة الدنيا؛ ولهذا أنب الله ـ تعالى ـ من آثر الحياة الدنيا على الآخرة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

ثـم ذكـر الله ـ تعـالى ـ سـؤالا آخـر مـن الـصحابة ـ رضي الله عـنهم ـ فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾. واليتامى: جمع يتيم، ﷺ اليتيم هـو: من مات أبوه، ولم يبلغ.

وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لما نزل الوعيد فيمن يأكل أموال اليتامى، تحرجوا ـ رضي الله عنهم ـ من مخالطة اليتامى؛ خوفا أن ينالهم الوعيد المذكور في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠]،

فقالوا: إن خالطناهم أثمنا وإن بايناهم صار علينا الحرج الشديد. فسألوا النبي ﷺ عن هذا الأمر، وماذا نصنع؟ فقال الله ـ تعالى ـ جوابا عاما شاملا: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ يعني أن الإصلاح لليتامى في أموالهم، وأعمالهم، وكل شيء، خير.

ولم يذكر الله ـ عز وجل ـ المفضل عليه، يعني: لم يقل: «خير من كذا»؛ ليكون ذلك أمرا عاما شاملا. فكل ما فيه إصلاح لليتامى فهو خير.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي: إن تخالطوهم في المال، فهم إخوانكم. فكما أن الإنسان يخالط أخاه بدون حرج، فكذلك يخالط اليتيم بدون حرج، لكن مع مراعاة الإصلاح.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فيعلم من نيته الإصلاح، ويسعى في الإصلاح، ويعلم من نيته الفساد، ويسعى في الفساد.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: ولو شاء أن يعنتكم ويشق عليكم لأعنتكم، ولكنه ـ عز وجل ـ يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو عزة وحكم وحكمة، فلا يمنعه أحد مما أراد لو أراد ـ عز وجل ـ أن يعنت عباده، ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يريد أن يعنت عباده، بل هو لم يجعل عليهم في الدين من حرج.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- الإرشاد إلى أن يتفكر الإنسان في أمر الدنيا والآخرة، تفكيرا جديا؛ ليقدم ما يراه أرجح وأفضل. وإذا فكرنا في ذلك أدنى تفكير، تبين لنا أن الآخرة خير وأبقى، فهي خير في الحاضر، وأبقى في المستقبل. الدنيا: صفوها مشوب بالكدر، الدنيا: صحتها مشوبة بالمرض، الدنيا: فرحها مشوب بالحزن، الدنيا: الاطمئنان فيها مشوب بالقلق، وهكذا كل أمرها الذي فيه المصلحة مشوب بما فيه المفسدة. الدنيا: الإنسان فيها مهدد: إما بهرم يرد فيه إلى أرذل العمر، ويكون الصبيان خيرا منه، وإما بموت يفقد به الدنيا كلها، بما فيها من نعيم وأموال وأولاد، وغير ذلك. وفي هذا يقول الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة   لذاته بادكار الموت والهرم

٢- ايت لي بأحد يبقى مسرور القلب، سليم البدن، لمدة شهر واحد من مائة عام؟. لا تجد هذا. لا بد أن ينال الإنسان من أكداره أكثر مما يناله من صفوها. أما الآخرة: فإن من كان من أهلها وهم أهل الجنة - نسأل الله أن يجعلنا وإخواننا منهم - أما الجنة فإن من يدخلها، فينعم ولا يبأس، ويصح فلا يمرض، ويبقى فلا يموت. كما جاء في الحديث الصحيح: «أنه يؤتي بالموت في صورة كبش، فيوضع بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل النار، يا أهل الجنة، فيشرئبون ويطلعون. فيقال لهم: هل

تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت. فيذبح بين الجنة والنار. ويقال: يا أهل الجنة: خلود فلا موت. ويا أهل النار: خلود، فلا موت»[1]، فيزداد أهل الجنة سرورا إلى سرورهم، ويزداد أهل النار بؤسا إلى بؤسهم ـ والعياذ بالله ـ.

فأنت فكر يا أخي، تجد أن الآخرة خير من الدنيا، وأن أعمال الآخرة أيضاً خير من الدنيا. ولما قال رجل: «يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته، أدخلني الله الجنة، وأنقذني من النار ـ أو كلمة نحوها: يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال ﷺ: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. . »[2]. وهو كما قال النبي ﷺ: عمل يسير. نسأل الله أن يعيننا وإخواننا المسلمين على ذلك، إنه جواد كريم.

٣ـ حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على دينهم، وعلى ما يبرئ ذمتهم ما يبرئ ذممهم؛ حيث تحرجوا من مخالطة اليتامى، فسألوا النبي ﷺ عن شأنهم. وبناء على ذلك، فإنه ينبغي لنا أن يكون لنا فيهم أسوة؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ رقم (٤٧٣٠)، ومسلم كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٩).

(٢) رواه الترمذي كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجة كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، وأحمد (٢١٥١١، ٢١٥٦٣).

فلنسأل عن كل ما أشكل علينا في أمور ديننا ودنيانا، حتى نأتي الأمر على بصيرة وقد كان بعض الناس يتساهل في السؤال عن أمر دينه، فتجده يقول: الأمر سهل. أو ربما يفتي نفسه، بفتوى غلط محض [وإذا قيل له: اسأل العلماء] فيقول: ﴿ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة:١٠١]. وهذا من الغلط العظيم، من ناحية تفسير القرآن؛ لأن الله ـ تعالى ـ لم يرد هذا، ومن ناحية السلوك والمنهج؛ لأن الحازم هو الذي يأتي الأمور على بصيرة.

٤ـ عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ باليتامى الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا؛ لأنهم أهل للعناية.

٥ـ الإشارة إلى أنه كلما كان الإنسان قاصرا، وكلما كان أشد حاجة إلى الرحمة؛ فإن العناية به أولى وأجدر.

٦ـ أن الإصلاح لليتامى خير، فاسلك ما فيه إصلاح لهم، في توجيههم، وتربيتهم، والأنس معهم، والسهولة في معاملتهم، وإصلاح أموالهم، وغير ذلك. إصلاح لهم في كل شيء خير.

وهل يلحق باليتامى غيرهم؟ الجواب: نعم، الإصلاح خير، والصلح خير في أي مكان، وأي زمان، ومع أي إنسان. احرص أخي المسلم على الإصلاح ما استطعت. ولهذا جاء في الحديث أن الكذب

حلال في الإصلاح بين الناس"[1]؛ وذلك لأن الإصلاح تربو منفعته ومصلحته على مفسدة الكذب.

٧ـ جواز مخالطة اليتامى فيما لا بد من الاختلاط فيه: كالطعام والشراب، والفراش، وما أشبه ذلك. فإذا كان عند الإنسان يتامى في بيته، فليس من السهل أن يجعل طعامهم في إناء خاص، وشرابهم في إناء خاص، وفراشهم في مكان خاص هذا من الصعب جدا، ولكن يخالطهم بالقسط والعدل. فمثلا: إذا قدر أن في البيت عشرة أنفار، منهم أربعة يتامى، وأنفق الإنسان على هذا البيت مائة ريال، فيعني ذلك أن لكل واحد منهم عشرة. فيكون على اليتامى الأربعة أربعون ريالا من النفقة. هذا إذا تساووا أو تقاربوا في حاجتهم إلى الأكل والشرب. أما إذا كان اليتامى صغارا، لا يحتاجون إلى مثل ذلك، فبالقسط. المهم أن يعاملهم بالقسط والعدل، ولا حرج أن يكون إناء الطعام واحدا، وإناء الشراب واحدا، وفرش المكان واحدا؛ لمشقة التمييز والانفراد.

٨ـ إثبات الشركة والمخالطة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾.

---

(١) حيث قال ﷺ: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيراً، أو يقول خيراً» رواه البخاري كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، رقم (٢٦٩٢)، ومسلم كتاب البر والصلة، باب تحريم الكذب، رقم (٢٦٠٥).

و«الشركة»، قال أهل العلـم: إنها نوعـان: شركـة أمـلاك، وشركـة عقود. فشركة الأمـلاك، هـي: أن يـشترك اثنـان في استحقاق شيء من الأشياء، كالورثة: يشتركون في تركة الميت.

وشركة العقود: أن يـشترك اثنـان فـأكثر في التـصرف، ومـن ذلـك: المضاربة، وهي: أن يعطي شخصا مالا يتجر به، والربح بينه وبينه على حسب ما اشترطاه. فيقول مثلا: خذ هذه عشرة آلاف ريـال، اتجر بهـا، والربح بيننا أنصافا. أو أثلاثا: لـك الثلـث ولي الثلثـان. أو أرباعـا: لـك الربع ولي ثلاثة أرباع، أو ما أشبه ذلك. المهم أن الدين الإسلامي أثبت مبدأ الخلطة والشركة.

٩ـ لإشارة إلى الحنو والعطف على اليتامى لقولـه: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾، وهذه كلمة تشعر الإنسان باللطف، واللين، والرحمة، واتبـاع المـصالح في حقوق اليتامى؛ لأنهم إخوان.

١٠ـ سـعة علـم الله ـ تعـالى ـ وإحاطتـه بكـل شيء؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾.

١١ـ التحذير من الإفساد؛ لأن الإنسان متى علـم أن الله ـ تعـالى ـ يعلم ذلك، فسوف يحذر غاية الحذر؛ خوفا من عقاب الله.

١٢ـ الحث على الإصلاح؛ لأنه إذا كان الإنسان يعلـم أن الله يعلـم إصلاحه فسوف يسعى بالإصلاح طلبا لثواب الله ـ عز وجل ـ.

١٣ ـ انتفاء العسر والمشقة في هذه الشريعة الإسلامية ـ والحمد لله ـ؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾، أي: لشق عليكم ـ كما سبق في التفسير

والملة الإسلامية هي الملة الحنيفية السمحة، والدين الإسلامي هو دين اليسر، كما قال النبي ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[1]، وقال وهو يبعث البعوث: «يسروا ولا تعسروا. بشروا ولا تنفروا؛ فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[2].

والنصوص في هذا بينة واضحة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال الله ـ تعالى ـ: **«قد فعلت»**: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾. **قال الله ـ تعالى ـ: «قد فعلت»**: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال الله ـ تعالى ـ: «قد فعلت»[3].

فاستجاب الله لنا في هذه الجمل الدعائية. ومنها: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم(٣٩).

(٢) تقدم تخريجه ص(٣٣).

(٣) رواه مسلم كتاب الإيمان، باب بيان قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ رقم (١٢٦).

﴿إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾؛ لأن عدم المؤاخذة على النسيان والخطأ من التيسير.

١٤ـ إثبات هذين الاسمين لله: «العزيز» و«الحكيم»، فبالعزة يكون تمام السلطان، وبالحكمة يكون تمام الفعل؛ لأن أفعال الله ـ تعالى ـ كلها مبنية على الحكمة.

١٥ـ أن الإنسان متى آمن بأن الله عزيز، فسوف يخشى عقابه، ويرجو ثوابه؛ لأن من معنى العزيز: الغالب الذي لا يغلب، القاهر الذي لا يقهر، المجير الذي لا يجار عليه.

١٦ـ أن الإنسان يطمئن لما يقع من أقدار الله ـ تعالى ـ، ويطمئن لما حصل من شرع الله؛ لأنه مبني على الحكمة. ومتى علمت أن الله لا يقدر شيئا إلا لحكمة، اطمأننت إليه، ورضيت به، واقتنعت به. وكذلك إذا علمت أن الله لا يشرع شيئا ـ أي: لا يوجب ولا يحرم ولا يحلل ـ إلا ما تقتضيه الحكمة، فإنك تطمئن إلى ذلك كثيرا، ولا تنازع الله ـ تعالى ـ لا في قدره، ولا في شرعه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعلنا جميعا من المطمئنين بشريعته، الراضين بقضائه وقدره، إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ والخطاب هنا لعامة المؤمنين. و﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ يشمل: المشركات في الربوبية، والمشركات في الألوهية يعني: لو أن امرأة لا تقر بالخالق ـ عز وجل ـ، فإنها مشركة، بل هذه ملحدة، أو تؤمن بالخالق ـ عز وجل ـ لكن تعتقد أن له شريكا في ملكه، مدبرا معه، كالذين يعتقدون أن أولياءهم يدبرون الكون مع الله ـ عز وجل ـ، فإن هؤلاء مشركون، ليسوا من المؤمنين في شيء. أو تكون مشركة في الألوهية ـ أي: في عبادة غير الله ـ تعبد الملائكة مع الله ـ عز وجل ـ، أو تعبد الأنبياء مع الله، أو تعبد الأولياء مع الله، أو تعبد شجرا مع الله، أو تعبد صنما مع الله، فهذه مشركة في الألوهية.

أما الإشراك في الأسماء والصفات، فهذا يحتاج إلى تفصيل ليس هذا موضعه. إذا لا تنكحوا المشركات، لا في الربوبية، ولا في الألوهية، ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وذلك بالتوحيد، بتوحيد الله ـ تعالى ـ في ربوبيته،

وألوهيته.

﴿وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ الأمة المؤمنة هي التي وحدت الله ـ عز وجل ـ، فيما يختص به ـ تبارك وتعالى ـ من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أي: خير من امرأة أو أمة مشركة.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي: ولو أعجبتكم هذه المشركة بجمالها، وشبابها، وخفتها، وعملها، وعلمها، فإن المؤمنة خير منها، ولو كانت أمية لا تقرأ ولا تكتب.

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي: لا تزوجوهم حتى يؤمنوا. ونقول في المشركين ما قلنا في المشركات.

﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي: حتى يوحدوا ويخلصوا.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ لعبد، أي: لرجل مؤمن.

﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ أي خير من رجل مشرك.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي: ولو أعجبكم ـ ذلك المشرك ـ في شبابه، وجماله، وماله، وعلمه، وغير ذلك، فالمؤمن خير منه. ووجه ذلك، أن المشركين أضل من الأنعام سبيلا، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا

كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤]، بل قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ومعنى: من أضل، أي: لا أحد أضل، لا الأنعام ولا غير الأنعام، لا أحد أضل من المشرك ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ يعني: أولئك المشركون والمشركات يدعون إلى النار؛ لأن عملهم هذا دعاء بالفعل؛ لأنه قد لا يكون المشرك يقول للناس: أشركوا، لكن كونه يبقى على الإشراك ويجادل عنه، فهذا نوع من الدعوة. والإشراك من أسباب دخول النار؛ ولهذا قال ـ عز وجل ـ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ ﴾ أي: إلى ما يوصل إلى الجنة من الأعمال الصالحة، وعلى رأسها: الإخلاص والتوحيد. فهذه الأشياء توصل إلى الجنة. فهو ـ عز وجل ـ يدعو إلى الجنة بسلوك طرقها: من الإخلاص، والتوحيد، والأعمال الصالحة.

﴿وَالْمَغْفِرَةِ ﴾ أي: وكذلك يدعو إلى المغفرة، أي: مغفرة الذنوب التي من أكبر أسبابها ألا يشرك بالله شيئا. ولهذا جاء في الحديث: «يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا،

لأتيتك بقرابها مغفرة»[١].

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بإرادته ـ عز وجل ـ. فإن كل شيء يقع بإرادته، سواء سلوك طريق أهل النعيم، أو أهل الجحيم.

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أي: يوضحها حتى تتبين لهم، ويكون فيها دليل على الرب ـ عز وجل ـ. [فالرب ـ عز وجل ـ] يبين آياته للناس عموما ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لأجل أن يتذكروا ويتعظوا.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ تحريم نكاح المشركات، ولو كن من أجمل النساء، ومن أشد النساء، ومن أعلم النساء.

٢ـ أن الإنسان لو تزوج مشركة، فإن نكاحه باطل؛ لأن ما نهى الله عنه ورسوله، لا يمكن أن يقع صحيحا؛ لقول النبي ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢]. فإذا كان العمل الذي ليس عليه أمر الله ورسوله مردودا، فما بالك بالعمل الذي عليه نهي الله ورسوله!!. وعلى هذا: فلو تزوج امرأة مشركة، واستباح منها ما يستبيحه الرجل من المرأة، لكان زانيا. كل قبلة، فهي زنا، كل جماع، فهو زنا، كل نظرة

---

(١) رواه الترمذي: كتاب الدعوات، باب خلق الله مئة رحمة، رقم (٣٥٤٠)، وأحمد (٢٠٨٠٨، ٢٠٨١٤، ٢٠٨٦٠، ٢٠٩٦١، ٢٠٩٩٤)، والدارمي (٢٧٨٨).

(٢) رواه مسلم كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

بشهوة، فهي زنا؛ لأن هذا النكاح لم يصح، فلا يترتب عليه أثره.

ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية عامة، حتى في أهل الكتاب، بمعنى: أنه لا يجوز للإنسان أن يتزوج يهودية أو نصرانية، إذا كانت تعتقد لله شريكا، قال: إن المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، المحصنات اللاتي لا يشركن بالله شيئا. ولكن الجمهور ـ وهو الصحيح ـ على أنه يجوز أن يتزوج الإنسان امرأة يهودية، أو نصرانية، وإن كانت كافرة مشركة؛ لأن سورة المائدة نزل فيها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وفي نفس هذه السورة قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ﴾ [المائدة: ٧٣]، فأباح نكاح نساء أهل الكتاب، مع حكايته عنهم أنهم كفار، بل مع حكمه عليهم أنهم كفار؛ لأنهم اعتقدوا أن المسيح ابن الله، وأن الله ثالث ثلاثة.

٣ـ أن تحريم المشركة، ليس تحريما مؤبدا، كتحريم الأم، والبنت، والأخت، ولكنه محرم إلى أمد، وهذا الأمد، هو: الإيمان، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ﴾.

٤- فضيلة الإيمان، لأن المرأة الواحدة تكون بالأمس حراما أن يتزوجها المؤمن، وتكون اليوم حلالا أن يتزوجها المؤمن، كل ذلك بسبب الإيمان. فالإيمان مطهر، وله أحكام تتعلق به.

٥- أنه يجوز للإنسان أن يتزوج المرأة، ولو كانت عاصية فاسقة؛ لأن النهي إنما هو عن نكاح المشركات. ولكن هناك شيء واحد من المعاصي لا يحل للإنسان أن يقدم على نكاح المرأة إذا كانت متصفة به، وهو الزنا، فالزانية لا يجوز للإنسان أن يتزوجها حتى تتوب توبة ظاهرة بينة؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣]. أما الفسق بما دون ذلك فلا يمنع النكاح، ولكن لا شك أنه كلما كانت المرأة أقوى دينا، فهي أولى؛ لقول النبي ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، وحسبها، وجمالها، ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1].

٦- أن الأمة ـ أي: المرأة ـ المؤمنة، خير من المشركة، ولو أعجبتك ـ أي: المشركة ـ. وهذه الخيرية مطلقة: لم يقل خير منها في كذا أو كذا، فهي خير منها على الإطلاق، خير من المشركة. والإيمان يتفاوت، وإذا كان الحكم معلقا بوصف الإيمان، دل ذلك على أنه كلما كانت المرأة أقوى إيمانا، وأكثر عملا للصالحات، فهي أولى. فيكون ذلك شاهدا

---

(١) رواه البخاري كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم كتاب النكاح، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦).

للحديث الذي أشرت إليه آنفا: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**».

٧ـ أن المرأة المشركة قد تعجب الإنسان، وأن إعجاب الإنسان بما عليه المشرك في أمر تقتضيه الفطرة والطبيعة، لا بأس به، لكن بشرط: ألا يؤدي ذلك إلى محبة هذا المشرك أو مودته. فمثلا لو أعجب الإنسان من رجل مشرك، عثوره ـ أي: عثور هذا المشرك ـ على دواء لمرض عضال لم يتوصل الناس إلى دوائه، فإن هذا لا شك أنه يعجب الإنسان ويقول: إن هذا رجل حاذق. ولكنه لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يؤدي ذلك إلى محبة هذا ا الرجل المشرك وتعظيمه.

٨ـ أنه لا نكاح إلا بولي، أي: أن المرأة لا تزوج نفسها. ويظهر ذلك في اختلاف التعبير في الآية الكريمة، ففي الآية الكريمة قال الله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وهذا خطاب للأزواج، فالزوج هو الذي ينكح نفسه، وأما في النساء، فقال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فدل هذا على أن المرأة لا تملك إنكاح نفسها من أحد، وإنما ينكحها وليها.

وقد جاءت السنة واضحة في ذلك، فقال النبي ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه»[1]، وقال ﷺ: «لا نكاح إلا بولي»[2]،

---

(١) رواه الترمذي كتاب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، رقم (١٠٨٤)، وابن ماجة كتاب النكاح، باب الأكفاء، رقم (١٩٦٧)، والحاكم (٢/ ١٦٤ـ١٦٥).

(٢) رواه الترمذي كتاب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، رقم (١١٠١)، وأبو داود كتاب النكاح، باب في الولي، رقم (٢٠٨٥)، وابن ماجة كتاب النكاح، باب استئمار البكر والثيب، رقم (١٨٨١)، وأحمد (١٩٠٢٤، ١٩٢١١، ١٩٢٤٧)، والدرامي (٢١٨٢).

وقال ﷺ: «لا تنكح البكر حتى تستأذن، ولا الأيم حتى تستأمر»(١).

فدل ذلك على أن المرأة لا تزوج نفسها مهما بلغت من العقل والذكاء والمعرفة؛ فلا بد أن يزوجها وليها. وولي المرأة في النكاح هم العصبات، فذوو الفروض، فليس لهم ولاية، وذوو الأرحام ليس لهم ولاية. وعلى هذا: فالأخ من الأم لا يزوج أخته من أمه، والخال لا يزوج ابنة أخته. إنما الولاية في النكاح للعصبة فقط. لو وجدنا ابن عم بعيدا جدا من المرأة، ووجدنا أخاها من أمها فالذي يزوجها ابن عمها البعيد، ولا يزوجها أخوك من أمها، حتى لو لم يوجد أحد من العصبة، زوجها القاضي، ولم يزوجها أخوها من أمها، إلا أن يوكله القاضي؛ لأن القاعدة لدينا هي أن ولاية النكاح إنما هي للعصبة فقط، دون أصحاب الفروض، ودون ذوي الأرحام. وإذا اجتمع أخوان: أحدهما شقيق، والآخر من الأب، فالشقيق هو الولي؛ لأنه أقوى صلة بأخته، حيث إنه شقيقها من أبيها وأمها، والأخ من الأب إنما يتصل بها بالأب فقط. وإذا وجد عم وابن عم فالعم أولى. وإذا وجد ابن عم بعيد، وعم الأب، فابن العم البعيد أولى؛ لأن ابن العم البعيد، يتصل بالمرأة بالجد، وعم الأب يتصل بأبي الجد، فتكون قرابة ابن العم البعيد أقرب من

---

(١) رواه البخاري كتاب النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر. . .، رقم (٥١٣٦)، مسلم كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق . . .، رقم (١٤١٩).

قرابة عم الأب، والترتيب معروف عند أهل العلم.لكن المهم الذي أحب أن يفهم: أنه لا ولاية لذي فرض، ولا لذي رحم، وإنما الولاية للعصبات فقط.

٩ـ أنه لو تزوجت امرأة مؤمنة بمشرك، فالنكاح باطل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾. وإنما كان باطلا، لأنه وقوع فيما نهى الله عنه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»[1].

فلو أن امرأة مسلمة أعجبت برجل كافر، وطلبت التزويج منه، قلنا: لا نزوجها مهما كان الأمر، حتى لو فرض أنها هددت بأن تقتل نفسها! قلنا: فلتقتل نفسها، وموعدها النار. فإن قالت: إنها ستكفر لتحل لهذا المشرك؟ قلنا: إذا كفرت، فقد ارتدت وحينئذ نأمرها أن تعود إلى الإسلام، فإن عادت وإلا قتلناها. فإن قال قائل: وهل يجوز للمرأة المؤمنة أن تتزوج بفاسق؟ قلنا: نعم، يجوز؛ لأن الفاسق معه أصل الإيمان، إلا في حالة واحدة: إذا كان فسقه بالزنا، فإنه لا يحل لها أن تتزوج به، حتى يتوب؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

وهنا نقف لنوجه نصيحة إلى الأولياء الذين جعلهم الله ـ تعالى ـ أولياء على بناتهم، أو أخواتهم، أو من لهم ولاية عليها: أحذر الأولياء من الخيانة في أمانتهم. فإن بعض الأولياء يتحكم في تزويج ابنته، أو أخته، أو من له ولاية عليها حتى لا يزوجها إلا لمن أعطاه أكثر من المال، ولا يهمه أن يكون صالحا أو غير صالح، ولا أن يكون حسن الأخلاق أم سيئ الأخلاق. وربما يخطبها من هو مستقيم في دينه، مستقيم في خلقه، ولكنه لا يعطيه شيئا من المال، فيمنع تزويجه، مع رغبة المرأة فيه. وهذا لا شك أنه محرم عليه، وفي هذه الحال يجوز للمرأة أن تطلب من الولي الآخر الذي يليه، أن يزوجها. فمثلا إذا قدرنا أن أخاها الشقيق أبى أن يزوجها من خطبها، وهو كفء، مرضي في خلقه، فلتطلب من أخيها من أبيها، أن يزوجها. فإن أبى ـ كما هي عادة كثير من الناس تأخذهم حمية الجاهلية، فلا يتدخلون في هذه المسائل ـ فإن لها أن تتصل بالحاكم ـ أي: القاضي ـ وتطلب منه ذلك، والحاكم في هذه الحال، يجب عليه أن ينظر في الأمر، وألا يهمه أحد، إلا أداء الأمانة في هذه المرأة. وما أكثر النساء اللاتي يشتكين من هذه الحال، من عضل أوليائهن أن يزوجوهن من يرضى دينه وخلقه. كما أن بعض الأولياء يخون الأمانة ـ على العكس من ذلك ـ، بمعنى: أنه يزوج ابنته، أو أخته، أو من له ولاية عليها، يزوجها من لا يرضى دينه وخلقه؛ لأنه أعطاه مالا أكثر، ولا يبالي بالأمانة التي حملها. وهذا أيضا لا شك أنه محرم،

وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٢٧، ٢٨].

فالحاصل أنه يجب على الولي أن يتقي الله فيمن ولاه الله عليهن، وأن يزوج الخاطب إذاكان كفؤا في دينه وخلقه. ورضيته المرأة، وألا يزوج الخاطب إذا لم يكن مرضيا في دينه، وخلقه. ولكن إذا قال قائل: لو أن المرأة رضيت بذلك ـ أي: بمن كان غير مرضي في دينه وخلقه، ولكن لم يصل إلى حد الكفر ـ فهل يزوجها؟. نقول: لا يزوجها، حتى لو رضيت، حتى لو ألحت، فلا يزوجها؛ لأنه وإن رضيت الآن ـ وهو سيئ الخلق، وسيء الدين ـ فإنه ربما تحصل مشاكل كثيرة، تتعب بها هي في المستقبل، ويتعب بها ـ أيضا ـ وليها. وربما لا يحصل الفكاك من هذا الرجل السيئ الخلق، أو السيئ الدين، إلا ببذل أموال كثيرة ترهقهم، ويذهبون يستدينون من الناس. فالمهم أن الإنسان الذي ولاه الله على امرأة يجب أن يؤدي الأمانة: سلبا، وإيجابا، بمعنى أن يزوجها من يرضى دينه وخلقه، وأن يمنعها من الزواج بمن لا يرضى دينه، ولا خلقه، وأن يتقي الله ـ تعالى ـ في ذلك.

١٠ ـ أن العبد المؤمن خير من المشرك، ولو أعجبك. وبناء على ذلك نقول في مسألة العمالة الآن: إن الأولى أن يجلب للعمل عنده من كان

مسلما. فإنه خير من المشرك، ولو أعجبك المشرك. نعم، لو فرض أن رجلا محسنا يقول: «أنا أجلب عاملا كافرا للخدمة في البيت، أو قيادة السيارة، وأدعوه إلى الله ـ عز وجل ـ لعل الله يهديه». فنقول: إذا علم الله ـ تعالى ـ من نيته أن هذا هو الغرض، فإنه قد يعينه على ذلك، لكن إذا كان لمجرد العمل، فنقول اختر المسلم، فإن الله يقول: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

١١ـ أن الكفار يدعون إلى النار، سواء كانوا يدعون بالقول، فيدعون الناس إلى الكفر ـ كما يفعله دعاة النصارى الذين يدعون إلى النصرانية ـ، أو كان ذلك عن طريق الفعل؛ لأن الكافر إذا بقي على كفره، فقد يغتر به السذج من المسلمين، ويقولون: إنه لا فرق بين دين الكتابي، ودين المسلمين. وهذا خطأ عظيم جدا، فمن ادعى أن أهل الكتاب اليوم، على دين صحيح مرضي عند الله، فإنه كافر؛ لأنه مكذب لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]. ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن نعتقد مساواة المسلم لليهودي، أو النصراني، في الدين أبدا.

اليهودي والنصراني ـ بعد أن بعث محمد ﷺ، ليس بينهم وبين غيرهم من الكفار، فرق، إلا في بعض المسائل التي رخص فيها الشرع: كحل النساء، وحل المذكى، وأخذ الجزية، وإن كان القول الراجح أن أخذ الجزية

جائز من اليهود والنصارى وغيرهم. فعلى كل حال، أهم شيء أن نعتقد أن الأديان لا يمكن أن تتفق. لا يمكن أن يوجد دين كفر مع دين إسلام أبدا كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

ولا شك أن دين الإسلام، هو الحق، فإذا ما سواه هو الضلال، ولا يجوز اعتقاد أنه هدى، بأي حال من الأحوال.

١٢ـ أن الله ـ تعالى ـ يدعو عباده إلى الجنة والمغفرة؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] . فالله ـ تعالى ـ يدعو العباد إلى ما فيه منفعتهم في الدنيا والآخرة، لا لينتفع بهم هو، كما قال الله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»[١]. فالطاعة ـ أعني: طاعة الله ـ عز وجل ـ هي مصلحة للعبد، ومنفعة له، وهي من نعمة الله عليه، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾.

١٣ـ إثبات الجنة، وهي الدار التي أعدها الله ـ تعالى ـ لأوليائه المتقين، وفيها من النعيم: «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[٢]. ولا يمكن للإنسان أن يتصور في الدنيا حقيقة نعيم

(١) رواه مسلم كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).
(٢) رواه البخاري كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم كتاب الجنة، باب صفة الجنة، (٢٨٢٤، ٢٨٢٥).

الآخرة أبدا، وإن كان الإنسان يعرف جنسه، لكنه لا يمكن أن يدرك حقيقته. فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨]، وهذا موجود في الدنيا، لكن حقيقة ما في الآخرة، لا تتفق مع حقيقة ما في الدنيا أبدا؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]. ولو كانت حقيقة مما في الآخرة، كحقيقة ما في الدنيا، لكنا نعلم ما أخفاه الله ـ عز وجل ـ.

١٤ـ ألا يعتمد الإنسان على نفسه في سلوك الطريق الموصل إلى الجنة والمغفرة، بل يعتقد أن ذلك بإذن الله، فيتوجه إلى الله ـ عز وجل ـ بسؤال الثبات والتوفيق لطريق الجنة والمغفرة.

١٥ـ أن الله ـ تعالى ـ يبين للناس آياته، ويوضحها، حتى يحصل لهم التذكر والاتعاظ.

١٦ـ أنه كلما تأمل الإنسان في آيات الله ـ سواء كانت شرعية، أم كونية قدرية ـ فإنه يزداد تذكرا، واتعاظا؛ لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.

١٧ـ إثبات الحكمة في أفعال الله ـ عز وجل ـ لقوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، فإن (لعلَّ) هنا: للتعليل.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢، ٢٢٣].

هذا أيضاً من الأسئلة التي أوردها الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على النبي ﷺ، وهو السؤال عن المحيض: ما شأنه؟ وما حكمه؟

والمراد به: الدم الخارج من الأنثى، في أيام معلومة، وهو من طبيعة المرأة وجبلتها.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾ يعني: هل يمنع من مخالطة المرأة؟ هل يمنع من جماع المرأة؟ هل يمنع من الاستمتاع بها؟ وما أشبه ذلك؛ لأن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة، لم يؤاكلوها، [ولم يشاربوها]، ولم يجامعوها وصارت منفردةً وحدها، لا يقربونها، والنصارى ـ على ما قيل ـ بالعكس. فسأل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال الله ـ عز وجل ـ، في الجواب: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ يعني: أن الدم، أذًى، أذًى بالنسبة للزوج، وبالنسبة للزوجة أيضاً. ولا شك أن المرأة يلحقها ـ عند الحيض ـ ما يلحقها من الأذى، من الأوجاع، والنتن، وغير ذلك مما هو معروف للنساء ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى

﴿ٱلۡمَحِيضِۖ﴾ يحتمل أن يكون المراد: في الحيض. أو أن المراد: في مكان الحيض. والآية إذا احتملت معنيين على السواء، ولا منافاة بينهما، فإنها تحمل عليهما جميعاً. وعلى هذا، فنقول: اعتزلوا النساء في مكان الحيض في زمن الحيض. وسيأتي - إن شاء الله - بيان ذلك في الفوائد.

﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ﴾ يعني: لا تقربوا النساء، أي: بالجماع.

﴿حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾ أي: من الحيض.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ﴾ أي: اغتسلن. وتأمل الفرق بين الكلمتين:

في الأولى: ﴿حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾، وفي الثانية: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ﴾، فالأولى: وصف. والثانية: فعل. ولهذا لم يقل «فإذا طهرن»، بل قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ﴾.

وفسر التطهر - هنا - بأنه: الغسل، وهو - حقيقةً - الغسل؛ لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ [المائدة: ٦].

﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ يعني: ائتوهن من المكان الذي أمركم الله أن تأتوهن فيه؛ لأن «حيث»: ظرف مكان. فما هو المكان؟ فسر بالآية التي بعدها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ أي: الراجعين إليه من معصيته إلى طاعته.

﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: المتنزهين بالطهر من الأذى والأحداث.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

﴿نِسَآؤُكُمْ﴾ يعني: زوجاتكم.

﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: بمنزلة الأرض التي تحرثونها؛ من أجل أن تحمل الزروع والأشجار، وتنتفعوا بحملها.

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أي: مكان الحرث، وهو: الفرج.

﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ من حيث شئتم. وهذا هو الذي أراده الله ـ عز وجل ـ، في قوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: نأتيهن من جهة الحرث، وهو: الفرج، أي: القبل.

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: قدموا لأنفسكم خيراً، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠، المزمل: ٢٠].

ومن ذلك أن يقدم لنفسه في هذا الموضع: أن يحرص الإنسان على الجماع بإنزال، حتى يقدم لنفسه الولد.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: الزموا تقوى الله ـ عز وجل ـ، وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ أي: اعلموا علم يقين وثبات، أنكم ملاقوا الله. وذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سوف يلاقي العبد يوم القيامة، ويقرره بذنوبه، ويعترف العبد بذلك، ثم إن شاء غفر له، وإن

شاء عاقبه.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لما قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾، أعطى المؤمن بشارةً، وأنه في هذه الملاقاة، سوف يجد ما يسره. جعلنا الله وإياكم منهم.

في هاتين الآيتين من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على السؤال عما يعنيهم، ويهمهم من أمور دينهم ودنياهم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ﴾.

٢ـ أن الحيض أذًى؛ لقوله: ﴿قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾. وهل هو أذًى للزوج أو للزوجة؟ نقول: هو أذًى للزوجة أولاً، ثم للزوج إن جامع في حال الحيض ثانياً.

٣ـ وجوب اعتزال النساء في المحيض، أي: في مكان الحيض في زمن الحيض؛ لقوله: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِۖ﴾.

٤ـ جواز استمتاع الرجل بزوجته الحائض، على كل وجه، إلا الوطء في الفرج، ولهذا قال النبي ﷺ: «اصنعوا كل شيء، إلا النكاح»[1].

---

(١) رواه مسلم كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها...، رقم (٣٠٢).

«وكان ﷺ يأمر عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن تتزر، فيباشرها، وهي حائض»[1]. وعلى هذا: فيجوز للرجل أن يستمتع بزوجته، وهي حائض، بالتقبيل، والضم، والجماع بين الفخذين، وغير ذلك مما أباح الله له؛ فإنه لا يحرم إلا الجماع.

٥ـ ألا يجامع حتى تطهر، فإذا طهرت بقي شيء آخر، وهو: الاغتسال. أما كونه لا يجامعها حتى تطهر، فهذا أمر واضح؛ لأن الدم يسيل ويجري، ولا يمكن للإنسان أن يجامع في هذه الحال، لما يلحقه هو والمرأة، من الأذى والضرر. وأما بعد الطهر، وقبل الطهارة؛ فلأن آثار الدم باقية، فلا بد أن يحدث تلويث، ولا بد أن يرى الإنسان ما تشمئز منه نفسه، من آثار الدم، وهذا قد يولد في قلبه كراهيةً للمرأة. ولهذا كان الرسول يأمر أهله أن تتزر، حتى لا يرى منها ما يكره.

٦ـ أن المرأة لو استحيضت ـ والاستحاضة هي: استمرار الدم معها ـ فإنه يجوز لزوجها أن يجامعها، ولو كان معها الدم، لكن في غير مدة الحيض، أما في مدة الحيض، فإنه لا يجامعها. وقد أمر النبي ﷺ المستحاضة أن ترجع إلى عادتها، ثم تغتسل وتصلي.

٧ـ لطف الله ـ تبارك وتعالى ـ بعباده؛ حيث حرم على الرجل أن

---

(١) رواه البخاري كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض، رقم (٣٠٠)، ومسلم كتاب الحيض، بباب مباشرة الحائض فوق الإزار، رقم (٢٩٣).

يجامع زوجته في حال الحيض، وأباح له أن يأتيها بعد التطهر.

٨- إثبات محبة الله. أي: أن الله يحب. ومحبة الله - عز وجل - صفة من صفاته، المتعلقة بإرادته ومشيئته، الثابتة لمن هو أهل للمحبة. وقد وردت المحبة خاصةً بالشخص بعينه، وعامةً. فمن تخصيصها بالشخص بعينه قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥].

وقول النبي ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً»(١)، وقول النبي ﷺ يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»(٢) فأعطاها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -. أما المحبة العامة: فمثل قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:٤، ٧]، و﴿ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥، آل عمران: ١٣٤، ١٤٨، المائدة:١٣، ٩٣]، و﴿ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨]، وما أشبه ذلك. وأهل السنة والجماعة يقولون: إن محبة الله صفة من صفاته، المتعلقة بإرادته، حيث كان الشخص من أحباب الله - عز وجل -.

٩- أنه لا يجوز للرجل أن يطأ زوجته في الدبر؛ لأن الله - تعالى - إنما أمرنا أن نأتي الحرث، والدبر ليس موضعاً للحرث. ووطء المرأة في

---

(١) مسلم كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد فوق القبور...، رقم (٥٣٢).

(٢) رواه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في لواء النبي ﷺ رقم (٢٩٧٥)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب، رقم (٢٤٠٤).

دبرها قال عنه كثير من أهل العلم: إنه من كبائر الذنوب؛ وأن الرجل إذا عرف بممارسة ذلك، ولم يتب، وجب أن يفرق بينه وبين زوجته؛ لأنه فعل بها ما لا يجوز.

ولا يجوز للمرأة أن تمكن زوجها من وطئها في دبرها؛ لأنها إن فعلت ذلك فقد أعانت علي الإثم والعدوان، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢].

١٠ ـ محبة الله ـ عز وجل ـ للتوابين. والتوبة هي: الرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ من معصيته إلى طاعته، **ولها شروط خمسة:**

الشرط الأول: أن تكون خالصةً لله ـ تعالى ـ، بألا يريد الإنسان بتوبته التقرب إلى المخلوقين، أو أن ينال بذلك رتبةً أو مرتبةً دنيويةً؛ لأن الإخلاص فواته يبطل العمل، قال الله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»[1].

الشرط الثاني: الندم على ما فعل، بحيث يتأثر الإنسان نفسيا بما جرى منه من الذنب.

الشرط الثالث: الإقلاع عن الذنب في الحال، فإن كان الذنب بترك واجب، أتى بالواجب، وإن كان الذنب بفعل محرم، أقلع عن المحرم. ومن الإقلاع أنه إذا كان الذنب متعلقاً بالمخلوق، فإنه لا بد أن يستحله

---

(١) تقدم تخريجه.

ويتخلص منه، فإن كان مالاً دفعه إليه، وإن كان عرضاً استسمحه منه، حتى تتحقق التوبة.

الشرط الرابع: العزم على ألا يعود إلى الذنب في المستقبل؛ لأنه لو تاب ومن نيته أن يعود عند وجود الفرصة، لم يكن تائباً حقا.

الشرط الخامس: أن يكون ذلك في زمن تقبل فيه التوبة، بأن يكون قبل حضور الأجل، وقبل طلوع الشمس من مغربها. فإن كان بعد حضور الأجل، فإن التوبة لا تقبل؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، ولأن الله ـ تعالى ـ لم يقبل توبة فرعون حين أدركه الغرق فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]. وأما طلوع الشمس من مغربها، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة. ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[1]. ويؤيد ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ

---

(١) رواه أبو داود كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩)، وأحمد (١٦٧٤، ١٦٤٦٣)، والدارمي (٢٥١٣).

إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام:١٥٨]، فقد فسر النبي ﷺ ذلك بطلوع الشمس من مغربها.

وقوله: ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾، يعني: المتطهرين من الأخباث، وهي: النجاسات. وكذلك المتطهرون من الأحداث: من حدث أصغر، أو جنابة. فجمع الله ـ تعالى ـ هنا ـ بين الطهارة من الذنوب بالتوبة، والطهارة من الأنجاس والأحداث بالتطهر.

١١ـ أن النساء حرث للرجال؛ لأن إيداع النطفة في الرحم كإيداع الحبة في الأرض؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾.

١٢ـ أن محل الجماع هو: الفرج الذي يكون به إلقاء النطفة، حتى تنشأ جنيناً؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾.

١٣ـ أنه يجوز للإنسان أن يجامع زوجته في فرجها، من أي جهة أتاها؛ لقوله: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾.

١٤ـ أنه ينبغي للإنسان أن يجعل من نيته في جماعه أن يقدم لنفسه نسلاً وذريةً؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ﴾.

١٥ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾. وقد سبق الأمر بالتقوى في كتاب الله ـ عز وجل ـ، مراراً كثيرةً؛ لأن التقوى هي: فعل ما يقي من عذاب الله، بالقيام بطاعته، واجتناب نواهيه.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المتقين، وأن يحفظنا في ديننا ودنيانا. إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ **قيل فيها قولان:**

الأول: لا تكثروا الأيمان به؛ لأجل أن تكونوا من أهل البر والتقوى.

والثاني: لا تجعلوا اليمين حاجزاً يمنع عن البر والتقوى والإصلاح.

وقوله: ﴿وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾، الإصلاح بين الناس من البر، والتنصيص عليه بعد التعميم، يدل على الاهتمام به، والعناية به. ولا ريب أن الإصلاح بين الناس، من الأمور الهامة؛ لما فيه من رأب الصدع، ولم الشعث، وجمع الشمل. وهذا خلاف من فعل ما يوجب القطيعة بين الناس، مثل النميمة، ولهذا قال ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»[1]، وهو: النمام.

---

(١) رواه البخاري كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، رقم (٥٧٠٩)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، (١٠٥).

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١-النهي عن كثرة الأيمان، وهذا على القول الأول في تفسير الآية.

٢-وجوب تعظيم الله -عز وجل-؛ لقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ وهذا على القول الأول في تفسير الآية.

٣-أن الإنسان إذا حلف على يمين، ورأى غيرها خيراً منها، فإنه يفعل الخير، ويكفر عن اليمين؛ لقوله: ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

٤-الحث على البر.

٥-الحث على التقوى، وعلى الإصلاح.

٦- إثبات اسمين من أسماء الله -تعالى-، وهما: «السميع» و«العليم»، وما تضمناه من صفة، وما تضمناه من حكم وأثر.

٧-تحذير الإنسان من المخالفة، ووجهه: أنه إذا كان سميعاً عليماً، فإياك أن تخالف ما أمرك به.

* * *

ثم قال -تعالى-: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

قوله: ﴿يُؤَاخِذُكُمْ﴾، يحتمل معنيين:

أحدهما: المؤاخذة، بمعنى: العقوبة.

والثاني: المؤاخذة، بمعنى: الإلزام بالكفارة. وكلاهما صحيح.

وقوله: ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ المراد به ـ هنا ـ: ما لم يقصده الإنسان في قلبه، والدليل على ذلك آية المائدة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [المائدة:٨٩]. ومثاله قول الإنسان: (لا والله، بلى والله) في عرض حديثه. فإذا لم يقصد الإنسان اليمين، فلا كفارة عليه، للآية الكريمة، ولقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[1]. وأما إذا حلف على نفسه، لقصد إلزام نفسه، مثل أن يقول: «**والله لأفعلن غداً كذا**»، ثم لا يفعل، فهنا عليه الكفارة، إذا تمت الشروط.

وقولـه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: هـذه قاعـدة عامـة، وليسـت في الأيمان فقط، فكل ما كسبت القلوب، فإننا مؤاخذون به.

ومعلـوم أن الكسب لا بـد فيـه مـن عمـل، فلـيس مجـرد مـا يقـع في القلب يكـون مؤاخـذاً بـه، حتـى يكـون هنـاك عمـل، وحركـة للقلـب، وميل، وإرادة.

وبم يؤاخذنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ؟. الجواب: بالعقوبة، والكفارة، إذا كانت اليمين تقتضي العقوبة.

---

(١) رواه البخـاري كتـاب بدء الوحـي، باب كيـف كان بـدء الوحي، رقـم (١)، ومسلم كتاب الجهاد، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**»، رقم (١٩٠٧).

وختم الله الآية بهذين الاسمين الكريمين: «الغفور» و«الحليم»، إشارةً إلى أنه لمغفرته، وحلمه، لم يؤاخذنا باللغو في الأيمان، ولو شاء الله لأعنتنا.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١- نفي مؤاخذة الإنسان باللغو في اليمين.

٢- أن المدار على القلوب؛ لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

٣- أن الحلف على ما يغلب على الظن، غير مؤاخذ به، ولو تبين خلافه.

٤- إثبات هذين الاسمين الكريمين لله - عز وجل -، وما تضمناه من وصف، وهما: «الغفور» و«الحليم».

٥- أن للقلب كسباً وعملاً؛ لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

والقلوب لها أعمال، ولها أقوال. فأقوال القلب: إقراره واعترافه. وأفعال القلب: حركاته، من المحبة، والإرادة، والخوف، والخشية، وما أشبهها.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي: لـلأزواج الـذين يؤلـون مـن نسائهم، أي: يحلفون على ألا يجامعوا نساءهم.

﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: انتظار أربعة أشهر.

﴿فَإِن فَآءُو﴾ ورجعوا إلى معاشرة الزوجات، على الوجه الذي يجب عليهم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر لهم تلك اليمين التي آلوها ألا يجامعوا نساءهم.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ ـ حماية حقوق الزوجات، بالنسبة لأزواجهم. وذلك أن الواجب على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف، كما أن الواجب على المرأة أيضاً أن تعاشر زوجها بالمعروف؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩]. ولا يحل للرجل، ولا للمرأة، أن يخل بهذا الواجب؛ لأن ذلك من الجور والعدوان. فمن حماية حقوق المرأة، بالنسبة للزوج: أن من الأزواج من يحلف ألا يجامع زوجته، لمدة أربعة أشهر، أو أكثر، أو أقل، فبين الله ـ تعالى ـ حكم هذه المسألة، فإذا آلى الإنسان من زوجته أقل من أربعة أشهر، فهذا أمر يرجع إليه، لكنه لا يحل له ذلك، إلا إذا كان هناك سبب شرعي، يوجب أن يولي بألا يجامعها، مثل أن تسيء عشرته، فيريد أن يؤدبها، فيحلف ألا يجامعها،

لمدة شهرين، أو ثلاثة، أو أدنى من أربعة، وأما ما زاد عن الأربعة فلا يجوز؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ضرب الأربعة أشهر، أجلاً، لاختيار الرجل: فإما أن يرجع، وإما أن يطلق. فيستفاد من هذه الآية الكريمة أنه لا يجبر المرء على جماع زوجته، إذا آلى ألا يجامعها، إلا إذا مضت أربعة أشهر.

٢ـ كراهة الإيلاء، وأنه لا ينبغي للزوج أن يولي؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. والإشارة بذكر المغفرة والرحمة، تدل على أن ما فعلوه فهو مستحق عقوبة فاعله.

الإشارة إلى أن الإيلاء إلى هذا الحد محرم؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، كما ذكر أولاً. فإن قال قائل: هل يجوز للزوج أن يدع جماع زوجته، لمدة ثلاثة أشهر وتسعةً وعشرين يوماً مثلاً ـ أي: لأقل من أربعة أشهر ـ؟. قلنا: لا يحل له ذلك؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وليس هذا من المعروف. فإن المرأة شقيقة الرجل في إرادة النكاح، فإذا كان هو لا يرضى أن تمتنع عنه زوجته لهذه المدة، فكيف يرضى أن يمنع نفسه منها لهذه المدة؟!فالواجب عليه أن يعاشر بالمعروف. وقول من قال من العلماء: إن له أن يدع الجماع لأقل من أربعة أشهر، قول ضعيف؛ لأن الله ـ تعالى ـ إنما جعل الأربعة أشهر للرجل الذي آلى وحلف، وأما رجل ليس

عنده حلف فإن الواجب عليه أن يعاشر بالمعروف.

٣ـ حكمة الله ـ تعالى ـ في ضرب أربعة أشهر أجلاً للإيلاء؛ لأن أربعة أشهر هي ثلث العام، وقد قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: «**الثلث، والثلث كثير**»[1].

٤ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: «**الغفور**» و«**الرحيم**».

فالغفور: يدل على المغفرة. والرحيم: يدل على الرحمة. وذلك أن الإنسان محتاج إلى الأمرين جميعاً، أي: إلى المغفرة، والرحمة. فبالمغفرة: تزول عن العبد آثار الذنوب والمعاصي. وبالرحمة: يحصل له المطلوب، والثواب بفعل الطاعات.

* * *

ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. [البقرة: ٢٢٧].

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ أي: بعد مضي أربعة أشهر، إن عزموا أن يطلقوا، فلهم ذلك. لكن ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يدل على كراهة الطلاق.

---

(١) رواه البخاري كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، رقم (٢٧٤٢)، ومسلم كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨).

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ ـ كراهة الطلاق، ولهذا قال أهل العلم ـ رحمهم الله ـ: إن الطلاق ينقسم إلى أقسام ـ والأصل فيه الكراهة ـ:

أولاً: يباح للحاجة، إذا كان لا يمكن أن يبقيا ـ أي: الزوجان ـ على حال مرضية.

ثانياً: يستحب إذا طلبت المرأة ذلك؛ لسبب شرعي، كألا تستطيع معاشرة الزوج، فتطلب الطلاق، فيستحب له أن يجيبها.

ثالثاً: يحرم الطلاق في حال الحيض، وفي حال الطهر الذي وطئها فيه.

رابعاً: يجب الطلاق في الإيلاء، إذا مضت أربعة أشهر وعشرة أيام، فإنه يجبر على أحد أمرين: إما أن يعود إلى أهله، ويجامع ويعاشر بالمعروف، وإما أن يطلق. وإنني بهذه المناسبة، أود أن أحذر إخواني القراء من التسرع في الطلاق، فإن بعضهم ـ هدانا الله وإياهم ـ يطلق على أدنى سبب، ربما يأتي إلى البيت، وقد قال لأهله: «اطبخوا لي غدائي»، أو «أصلحوا الشاي» أو ما أشبه ذلك، ثم يرجع ويجدها لم تفعل ما طلبه بعد، فيطلق في الحال. وهذا لا شك أنه من السفه، ومن مجانبة الحكمة.

وما أكثر الذين يندمون إذا طلقوا على هذا الوجه، ثـم يـذهبون إلى كل عالم، يقرعون عليه بابه، لعله يجد لهم فرجاً ومخرجاً. فـالطلاق لـيس بالأمر الهين، والحصول على امرأة ـ في زماننـا هـذا ـ لـيس بـالأمر الهـين، فكيـف تهـون المـرأة عنـد زوجهـا إلى هـذا الحـد؟. فليحـذر هـؤلاء من التسرع في الطلاق.

٢- إثبـات اسـمين مـن أسـماء الله، وهمـا: «الـسميع» و«العلـيم». والعليم أعـم؛ لأن العلـم يتعلـق بكـل شيء، والـسمع يتعلـق بالأشياء المسموعة.

٣- التحذير من مخالفة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، بالقول، أو بالفعل، أو بهما جميعاً، بل وبالنية أيضاً؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

واعلم أن السمع المضاف إلى الله ـ عز وجل ـ، ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: بمعنى الاستجابة، مثل قوله ـ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقول المصلي: «سمع الله لمن حمده»، أي: استجاب.

الثاني: بمعنى إدراك المسموع، مثل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١].

وكلاهما حق ثابت لله ـ تبارك وتعالى ـ.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ لفظ عام، يشمل أي مطلقة.

﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ أي: ينتظرن.

﴿بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ﴾ أي: ثلاث حيض يعني: إذا طلقت المرأة، فإنها تنتظر، وتحبس نفسها عن النكاح، حتى تحيض ثلاث مرات، فإذا حاضت ثلاث مرات، انقضت العدة.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ يعني: أن ذلك حرام. إذا كانت المرأة حاملاً، ولم يتبين حملها للناس، فإنها قد تخفي ما في رحمها لغرض من الأغراض، لكن الله ـ تعالى ـ حذر من ذلك، فقال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ فإن من آمنت بالله واليوم الآخر لا يحل لها أن تكتم ما في رحمها؛ لأي غرض من الأغراض.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أي: أزواجهن.

﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أي: إلى النكاح، أي: أن الزوج أحق برجعتها، ما دامت في العدة، ولهذا قال: ﴿فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ أي: إن أراد الأزواج إصلاحاً، وذلك بالتئام النكاح، ورجوعها إلى حظيرة الزوجية. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: للنساء على أزواجهن مثل الذي عليهن بالمعروف. وذلك بالمعاشرة الحسنة الطيبة، التي تؤدي إلى الألفة والمحبة، والاجتماع، ولهذا قال النبي ﷺ: «تزوجوا الودود الولود»(١)، الودود: التي تتحبب إلى زوجها، فيحبها.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما يتعارفه الناس بينهم، وهذا يختلف باختلاف الأزمان والأماكن.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: للرجال عليهن فضل، وذلك بأن الرجل هو القائم على المرأة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو عزة وحكمة بالغة.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ أن المطلقة يجب عليها أن تعتد بثلاث حيض كاملة، بعد

---

(١) رواه أبو داود كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، رقم (٢٠٥٠)، والنسائي كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، رقم (٣٢٢٧)، وأحمد (١٢٢٠٢، ١٣١٥٧).

الطلاق. وليس العبرة بالأشهر، كما يظنه الكثير من العامة؛ لأن المرأة قد تحيض في شهرين مرةً واحدةً، فتستغرق [الثلاث حيض]: ستة أشهر، وقد تحيض في الشهر والنصف مرتين، فلا تتم ثلاثة أشهر. فالعبرة بالحيض، إذا حاضت بعد الطلاق ثلاث مرات، انتهت العدة.

ويستثنى من ذلك المرأة المطلقة قبل الدخول والخلوة، فإنه ليس عليها عدة، لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٤٩]. ويستثنى من ذلك ـ عند بعض العلماء ـ المطلقة طلاقاً بائناً، فإنه ليس عليها إلا حيضة واحدة. قال ذلك بعض أهل العلم، مستدلاً بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، فإن المطلقة ثلاثاً لا يمكن لبعلها أن يراجعها. ولكن جمهور العلماء على خلاف ذلك، وأن المرأة إذا طلقت فعليها أن تعتد بثلاث حيض، سواء كانت مطلقةً طلاقاً بائناً، أو طلاقاً رجعياً.

٢ـ تحذير المرأة ـ التي وجبت عليها العدة ـ من أن تكتم ما خلق الله في رحمها، أي: أن تكتم خبر الجنين الذي في بطنها؛ لأنها ربما تكتمه إما لتطويل العدة، أو لتقصيرها. فإن كان الباقي من حملها أكثر من مدة الحيض الثلاث، فإنها ربما تكتمه من أجل الإسراع في انقضاء العدة، أو

لسبب آخر.

٣ـ أن المرأة يرجع إليها في عدتها، فإذا ادعت أنها انقضت عـدتها في زمن يمكن أن تنقضي فيه، فـإن القـول قولهـا؛ لقـول الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ إلى آخـره. لكـن يـشترط أن يكون ذلك في زمن ممكن، فإن كان في زمن لا يمكن فإنه لا يقبل قولها.

٤ـ إثبـات أن الله ـ سبحانه وتعـالى ـ هـو الخـالق للأجنة في بطـون أمهاتهم؛ لقول الله ـ تعـالى ﴿أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾.

٥ـ إثبات اليوم الآخـر؛ لقولـه: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾. واليوم الآخر هو يوم القيامة. وسمي بـاليوم الآخـر؛ لأنـه آخـر الحيـاة؛ لأن الإنـسان لـه أربـع مراحـل: المرحلـة الأولى: في بطـن أمـه. والمرحلـة الثانيـة: في الـدنيا بعـد خروجـه. والمرحلـة الثالثـة: في القـبر. والمرحلـة الرابعة والأخيرة: في يوم القيامة.

٦ـ تحذير المرأة ـ التحذير البالغ ـ من كتم ما خلق الله في رحمهـا، وأن كتمها فيه إخلال بالإيمان بالله واليوم الآخر.

٧ـ أن الـزوج أحـق بزوجتـه في إرجاعهـا في العـدة، إلا البـائن ـ كـما سبق.

٨ـ أن الـزوج المطلـق هـو زوج مـا دامـت امرأتـه في العـدة؛ لقولـه ـ

تعالى ـ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾. ولهذا قال أهل العلم: إن الرجعية في حكم الزوجات، إلا فيما يتعلق بالمعاشرة على الفراش. ولهذا يجوز للمرأة المطلقة طلاقاً رجعيا، أن تبيت عند زوجها وحدها، ويجوز لها أن تكشف وجهها، ويجوز أن تتزين، وتتطيب، وتعمل كل ما يفعله النساء اللاتي لم يطلقن.

٩ـ الإشارة إلى أنه يجب على الزوج أن يكون مريداً للإصلاح، حين مراجعته زوجته المطلقة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾. فأما إن أراد الإضرار، فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣١]. ولكن هل إذا أراد الزوج الإضرار بمراجعة الزوجة في عدتها، هل تصح هذه الرجعة، أو لا تصح؟. الجواب: ظاهر الآية الكريمة ـ التي نتكلم عليها الآن ـ أنه ليس له الحق، فيما بينه وبين الله؛ لأنه اشترط في كونه أحق من غيره، أن يريد الإصلاح. فإن أراد الإضرار، فإنه وإن راجع، وحكمنا له بصحة المراجعة ظاهراً، فإن هذه المراجعة ـ عند الله تعالى ـ لا تفيده شيئاً؛ لأن الله اشترط لهذا الحكم، أن يكون الزوج مريداً للإصلاح. وما أكثر الذين يطلقون ويراجعون بقصد الإضرار بالزوجات. وهذا حرام عليهم، بل الواجب أن يريدوا الإصلاح، وألا يريدوا الضرر.

١٠ـ أن النساء ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾، فكما أن الزوج يريد أن

تأتي زوجته بكل ما له من حقوق، فالواجب عليه أن يؤدي إلى زوجته كل ما لها من حقوق.

١١- إقامة العدل في هذه الشريعة الإسلامية؛ لقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

١٢- الرجوع إلى العرف فيما نحتاج فيه إلى العرف. والعرف هو: العادة المطردة بين الناس. وهو يختلف باختلاف الأماكن والأزمان. فيرجع في حقوق الزوجين ـ عند التحاكم ـ إلى ما يتعارفه الناس. وهنا إشكال، وهو: أن الله ـ تعالى ـ أحال ـ في هذه المسألة ـ إلى العرف. فهل يكون في هذا شاهد لهؤلاء القوم الذين إذا تكلموا عن الأمور المشروعة ومخالفتها، قالوا: هذا خلاف تقاليدنا، وعاداتنا؟. فنقول: ليس في هذا شاهد لما يدعيه هؤلاء، من الأمور الشرعية، أنها أمور تقليدية. كمسألة الحجاب ـ مثلاً ـ نجد بعض الذين يتكلمون عن الحجاب، من الذين يكتبون في الصحف، إذا تكلموا عنه، تكلموا عنه وكأنه أمر تقليدي، أي: يقلد الناس فيه بعضهم بعضاً، دون أن يرجعوا فيه إلى حكم الله ـ عز وجل ـ. ولا شك أن هذا: إما جهل بالشريعة الإسلامية، وإما تجاهل بها، والواقع أن هذه المسألة ليست من باب التقاليد، ولكنها من باب التعبد الذي نتعبد لله ـ تعالى ـ باتباعه وامتثاله. وكذلك الاختلاط بين الرجال والنساء في حقل التعليم ونحوه، يقول بعض الناس: إن

منع الاختلاط من باب التقاليد. وهذا غلط عظيم، بل هو من باب الأمور المشروعة؛ لأن القاعدة الشرعية: أن كل شيء يؤدي إلى الفتنة بين الرجال والنساء، فإنه ممنوع. وقد حذر النبي ﷺ منه، حيث قال: «ما تركت بعدي فتنةً أضر على الرجال، من النساء»[1].

وقال ﷺ: «إنما كانت أول فتنة بني إسرائيل في النساء، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»[2].

١٣- أنه إذا كان يجب على الرجل أن يؤدي حق المرأة، وعلى المرأة أن تؤدي حق المرأة، وعلى المرأة أن تؤدي حق الرجل، فإن ذلك لا يعني أنهما متساويان، بل الرجال أفضل وأكمل وأعلى؛ لقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾. ولقد ضل قوم يريدون أن يساووا بين النساء والرجال، في الأمور التي فرق الله بينهما فيها. وظنوا أن ذلك هو المدنية والحضارة. ولكنه في الحقيقة الجاهلية المحضة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فرق بين الرجال والنساء خلقاً وشرعاً. فطبيعة الرجل في خلقته وخلقه، ليست كطبيعة المرأة. وكذلك الأحكام الشرعية فرق الله فيها بين الرجال والنساء، فيما اقتضت الحكمة التفريق بينهما فيه. ولا يمكن أن يكون الرجل الذي يختلف عن المرأة في طبيعته، وأخلاقه،

---

(١) رواه البخاري كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٥٠٩٦)، ومسلم كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، رقم (٢٧٤٠).

(٢) رواه مسلم كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، (٢٧٤٢).

وتحمله، وصبره، لا يمكن أن يكون هذا الرجل مثل المرأة، أو المرأة مثله في كل شيء، بل لا بد أن يكون بينهما تمييز، حتى في الأحكام الشرعية، فيما يليق بكل واحد منهما.

١٤ـ أن المرأة المطلقة طلاقاً رجعيا، لا يحل لها أن تتزوج في أثناء العدة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾. فإن فعلت، فإن النكاح باطل، بإجماع العلماء؛ لأنها ـ أي: المطلقة طلاقاً رجعيا ـ في حكم الزوجة.إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: «العزيز» و«الحكيم».

أما العزيز، فهو: ذو العزة التامة. والعزة لها معان، منها: الغلبة. مثل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ عن المنافقين: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾، فقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨]. فهو ـ سبحانه وتعالى ـ الذي له الغلبة. وفي ذلك يقول الشاعر الجاهلي:

أيـن المفـر والإلـه الطالـب والأشرم المغلوب ليس الغالب

١٥ـ وأما الحكيم، فهو مشتق من الحكم، ومن الحكمة. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده له الحكم، لا معقب لحكمه، وهو السميع العليم.

وهو ـ سبحانه وتعالى ـ ذو الحكمة، أي: ذو الإتقان في كل ما خلق، وكل ما شرع. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل:٨٨]. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ له الحكمة في

كل ما قدره كوناً، وله الحكمة في كل ما شرعه تعبداً، يعبده عباده به. فإذا جرت الأمور الكونية على وجه يظن الإنسان أن في ذلك ضرراً، فإن هذا الظن الذي ظنه، إنما هو من سوء فهمه. فالأمور وإن حصل فيها ما حصل من المضار، فعاقبتها عاقبة حميدة. انظر إلى قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ حيث قال: مبيناً سبب هذا الفساد: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾، ثم بيـن الغاية من هذا الفساد، فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كثير من الناس إذا حصلت النكبات العظيمة، من فيضانات، وزلازل، وغيرها، ظنوا أن هذا جور من الله ـ تبارك وتعالى ـ. ومنهم من يقول: هذا من الطبيعة، وما أشبه ذلك. وكل هذا لا شك أنه نوع من أنواع الكفر. وإن كان الإنسان قد لا يخرج به من الإسلام، لكن يجب على الإنسان أن يعتقد بأن كل ما جرى في السماء والأرض، فإنه من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولحكمة بالغة، قد نفهمها الآن، وقد نفهمها في المستقبل وقد لا نفهمها أبداً؛ لأن عقولنا، مهما كانت، فهي قاصرة. فعليك ـ يا أخي المسلم ـ أن تستسلم لقضاء الله وقدره وتعلم أن ذلك ﴿ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾. وكذلك لقضاء الله ـ تعالى ـ وحكمه الشرعي عليك أن تقوم بما أوجب الله، وأن تترك ما نهى الله عنه، فإن ذلك خير لك في الدنيا والآخرة.أسأل الله أن يرزقنا جميعاً الاستقامة على دينه،

وأن يجعلنا من الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ يعني: أن الطلاق الذي يمكن أن يرجع فيه الإنسان إلى زوجته ـ وهو المستفاد من قوله في الآية التي قبلها: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ﴾ ـ، هو الطلاق أول مرة، والطلاق ثاني مرة. أما إذا طلقها الثالثة، فإنها لا تحل له ـ كما سيأتي في الآية التي بعدها ـ حتى تنكح زوجاً غيره. فإذا طلق الرجل امرأته أول مرة فله المراجعة، ثاني مرة له المراجعة. ولهذا قال: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ فعلى الزوج إمساك بمعروف، إن أحب أن يراجع. أو تسريح أي: إطلاق للمرأة بإحسان أي: بدون أذية.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾: والخطاب للأزواج.

﴿أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ أي: مما أعطيتموهن من مهر، أو غيره.

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بأن خافت الزوجة أن تقصر في حق زوجها، أو خاف الزوج أن يقصر في حق زوجته، فحينئذ يجوز الفداء. ولهذا قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: على الزوج والزوجة.

﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: فيما دفعته فديةً عن نفسها؛ ليطلقها زوجها.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الأحكام التي ذكرها ـ سبحانه وتعالى ـ حدوده التي حدها لعباده، وبينها لهم.

﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: فلا تخرجوا عنها مخالفين لها.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الظالمون لأنفسهم، المعتدون عليها. فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ أن الطلاق الذي تحصل به المراجعة، هو: طلاق الطلقة الأولى، والطلقة الثانية؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾.

وهل يشترط أن تنفصل الطلقة عن التي قبلها، بحيث يكون بينها وبين التي قبلها مراجعة في العدة، أو نكاح جديد بعد انتهاء العدة؟ أو

تقع الطلقة الثانية ولو كانت في العدة من الطلقة الأولى؟

مثال [المراجعة في العدة من الطلقة الأولى] ذلك رجل قال لزوجته: أنت طالق، وفي أثناء العدة قال لها: أنت طالق، فهل هذه الطلقة تكون هي المرة الثانية؛ أو نقول: إنه لا تكون طلقة إلا بعد رجعة؛ لأن الطلقة هي إطلاق من إمساك، وإذا لم يراجع الرجل زوجته، فإنه لم يمسكها، ولم يردها إلى حظيرة الزوجية؟الجواب: في هذا خلاف بين العلماء، أكثر العلماء على أن الطلاق يقع إذا ردف طلاقاً سابقاً، وعلى هذا فيكون الرجل الذي طلق زوجته مرةً أخرى في أثناء العدة للطلقة الأولى، يكون مطلقاً مرتين. هذا قول جمهور العلماء. حتى وإن كان في مجلس واحد، فإن الطلقة الثانية، تعتبر واقعةً. مثل أن يقول لزوجته: أنت طالق، أنت طالق. ولم يرد بذلك التوكيد. فإنه يقع الطلاق مرتين.

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إلى أن الطلاق لا يصح إردافه بطلاق آخر. بمعنى أنه إذا طلق زوجته مرة، ثم طلقها أخرى، ولم يراجعها من الطلقة الأولى، فإن الطلقة الثانية لا تقع. فإذا قال لزوجته: أنت طالق، ثم قال: أنت طالق. وأراد به الطلاق، فإنه لا يقع الطلاق الثاني، نظراً إلى أنها ما زالت في عدة الطلاق الأول. لكن جمهور العلماء على وقوع الطلاق. وهذه المسألة ترجع إلى الفتوى، حسب ما

يفتي به أهل العلم في كل زمان ومكان، بحسبه.

٢- بطلان ما كان عليه الناس في الجاهلية. فإن الناس في الجاهلية كان الرجل منهم يطلق زوجته، فإذا شارفت على انقضاء العدة راجعها، ثم طلقها، فاستأنفت عدةً جديدةً. فإذا شارفت على انقضاء العدة من الطلقة الثانية راجعها، ثم طلقها، فاستأنفت عدةً ثالثةً، للطلقة الثالثة، وهلم جرا، يفعل بها ذلك، حتى تصبح المسكينة ليست مطلقةً، ولا متزوجةً. ولا شك أن هذا ظلم على النساء. ولكن الإسلام ـ ولله الحمد ـ جعل ذلك مقيداً بثلاث، أي: إن له أن يراجع في طلقتين فقط، أما الثالثة فلا.

٣- أن الواجب على المطلق أحد أمرين: إما رد المرأة بالمعروف، ويعاشرها بالمعروف. وإما أن يسرحها بإحسان. ففيه إشارة إلى أنه ينبغي له إذا لم يراجع، أن يحسن إليها بما يجبر قلبها، من هدية، أو مال، أو ما أشبه ذلك.

٤- أنه يحرم على الزوج أن يأخذ شيئاً مما أعطاها إذا طلقها، أو أن يرغمها على بذل شيء مما أعطاها؛ ليطلقها.

فهاتان مسألتان:

المسألة الأولى: إذا طلقها فإنه لا يحل له أن يأخذ منها شيئاً، مما أعطاها من مهر أو غيره.

المسألة الثانية: ألا يلجئها إلى طلب الطلاق، والفداء. كما يفعله بعض الناس، حيث إنه إذا كره المرأة، أساء عشرتها، من أجل أن يلجئها ويضطرها إلى أن تبذل شيئاً من مالها؛ لتفتدي به نفسها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

٥- جواز الخلع إذا خيف عدم القيام بالواجب، من الزوج، أو الزوجة؛ لقوله: ﴿أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾. فإذا ساءت العشرة بين الزوجين، وتعذر الجمع بينهما، إلا على مضض، وتعب، وشقاء، فحينئذ تبذل المرأة مما أعطاها، ما تفتدي به نفسها. كما فعلت امرأة ثابت بن قيس بن شماس، حيث أتت إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن ثابت بن قيس، لا أعيب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام. فقال لها النبي ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم. فقال له النبي ﷺ: «اقبل الحديقة، وطلقها تطليقةً»[1].

وهنا مسألة: لو أن المرأة كرهت البقاء مع زوجها لخلل في دينه، لكونه لا يحافظ على الصلوات، أو لكونه يشرب الخمر، أو لغير ذلك من الأمور الدينية التي يخل بها. فهل لها أن تطلب الطلاق؟ الجواب: نعم، لها أن تطلب الطلاق؛ لحديث امرأة ثابت بن قيس، حيث قالت:

(١) رواه البخاري كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، رقم (٥٢٧٣).

«لا أعيب عليه في خلق ولا دين». فإذا كرهت المرأة زوجها؛ لخلل في دينه فلا حرج عليها أن تطلب الطلاق. ولكن لا بد من فداء يتفقان عليه. وكذلك أيضاً إذا عابته في خلقه، بأن أساء خلقه معها، فلها أن تطلب الطلاق، لكن بفداء تفتدي به نفسها. فإن قال قائل: إذا كان لا يمكن أن تفتدي نفسها؟ قلنا: إذا كان لا يمكن أن تفتدي نفسها، فلا يمكن أن نفرق بينها وبين زوجها بدون العوض الذي أعطاها. ولهذا قال النبي ﷺ لامرأة ثابت: «أتردين عليه حديقته؟» فدل هذا على أنه لا بد أن يعاوض الرجل عن زوجته التي طلبت الفراق.

٦- أنه لا يحل للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها بدون سبب، حتى وإن بذلت له ما تبذله من المال؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾. فإذا كانت العشرة قائمةً، ولكن المرأة في يوم من الأيام، غضبت على زوجها، ثم طلبت الطلاق، فإن ذلك لا يحل لها. نعم، لو أنها كرهت الزوج، وعجزت عن تحمل كراهته، فهذا عذر بلا شك. فلها أن تطلب الطلاق. وما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «من سألت زوجها الطلاق، من غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة»[1]، يدل على أنه إذا

---

(١) رواه الترمذي كتاب الطلاق، باب ما جاء في المختلعات، رقم (١١٨٧)، وأبو داود كتاب الطلاق، باب في الخلع، رقم (٢٢٢٦)، وابن ماجة كتاب الطلاق، باب كراهية الخلع للمرأة، رقم (٢٠٥٥)، وأحمد (٢١٨٧٤، ٢١٩٣٤)، والدارمي (٢٢٧٠).

كان هناك شيء يحتاج فيه إلى الطلاق والفراق، فإنه لا بأس أن تسأل الطلاق.

٧ـ أنه يجوز للزوج إذا طلبت المرأة الطلاق، أن يطلب منها فديةً أكثر مما أعطاها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾. فمثلاً إذا كان قد أعطاها عشرة آلاف مهراً، وهدايا بمقدار خمسة آلاف، فالجميع خمسة عشر ألفاً. فإذا قال: أنا لا أطلق إلا بعشرين ألفاً، فظاهر الآية الكريمة ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ جواز ذلك؛ لأن (ما) اسم موصول، تعم القليل والكثير.

ولكن بعض أهل العلم يقول: لا يحل له أن يأخذ، أو أن يطلب فديةً أكثر مما أعطاها؛ لأن قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ أي: مما أعطاها، حيث قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ أي: مما أعطاها. والقول الوسط في هذا: أنه يكره للرجل أن يطلب فديةً من المرأة أكثر مما أعطاها، لما في ذلك من نوع الظلم؛ لأن الرجل استمتع بها، واستحل فرجها، وتمتع بها مدةً من الدهر، فلا يمكن أن يضيع هذا الاستمتاع بدون عوض. فكيف يطلب شيئاً أكثر مما أعطاها؟ هذا فيه شيء من الظلم. والخلاصة أنه إذا ساءت العشرة بين الزوجين، ولا يمكن الاتفاق بينهما، فإنه لا

حرج أن يأخذ مما آتاها. وحينئذ إما أن يطلب دون ما أعطاها، وهذا لا شك في جوازه. أو يطلب بقدر ما أعطاها، وهذا أيضاً جائز. أو أن يطلب أكثر مما أعطاها، وهذا فيه خلاف بين أهل العلم.

٨ـ أن المرأة إذا بذلت شيئاً ليطلقها زوجها، فإنه ليس له عليها رجعة؛ لأن الله سمى ذلك فداءً، وإذا كان فداءً، فإنه لا يمكن الجمع بين الفدية وما افتدي بها عنه. وعلى هذا، فإذا طلق الإنسان زوجته على عوض ـ ولو عشرة ريالات ـ فإنه لا يمكن أن يراجعها إلا بعقد جديد؛ لأن الله ـ تعالى ـ سمى ذلك فديةً، وإذا كان فديةً فإنها تملك نفسها بهذه الفدية، ولا يملك الزوج أن يراجعها.

٩ـ أن ما ذكر من الأحكام حدود حدها الله ـ عز وجل ـ. فيجب علينا أن نقف عندها، ولا نتعداها. ولهذا قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: ما ذكر من هذه الأحكام العظيمة حدود من عند الله ـ عز وجل ـ، فلا يجوز لنا أن نتعداها.

١٠ـ عناية الله ـ تبارك وتعالى ـ بالعباد، في الأحوال الشخصية؛ حيث جاء فيها هذا التفصيل البالغ، والإجمال فيها لا يحتاج إلى تفصيل؛ لأنه يتبع المصلحة. ففي هذه الحدود ما يرجع فيها إلى العرف؛ لأن المصالح تختلف باختلاف الأعراف. وفيها حدده الله لا يمكن أن يتجاوز، فلو أراد إنسان أن يجعل العدة ـ بدلاً من ثلاثة قروء ـ أربعة

قروء، فإنه لا يملك ذلك. أو يجعلها اثنين، فإنه لا يملك ذلك؛ لأن هذا أمـر إلى الله ـ عز وجل ـ. أما: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، و﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾، وما أشبه ذلك، مما جعله الله ـ تعالى ـ عائداً إلى العرف، فهذا هو الذي يخضع للعادات وأحوال الناس.

١١ـ أن المتعدي لحدود الله ظالم؛ لقوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾. لكنه ظالم لمن؟ ظالم لنفسه في الواقع. كما قال في آية أخرى: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١].والظلم هو: نقص الحق، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تنقص منه شيئاً.

١٢ـ تحريم تعدي حدود الله؛ لقولـه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، والظلم محرم، كما قال ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»(١).

أعاذنا الله جميعاً من الظلم، وجعلنا من أهل العدل والإحسان، إنه على كل شيء قدير.

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن

---

(١) رواه مسلم كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

﴿ فإن طلقها ﴾ أي: طلق الزوجة بعد الطلقتين السابقتين؛ لأن قوله: ﴿ الطلاق مرتان ﴾ إلى آخره، عطف عليه ﴿ فإن طلقها ﴾ أي: المرة الثالثة.

﴿ فلا تحل له ﴾ أي: لمطلقها.

﴿ من بعد ﴾ أي: من بعد هذه الطلقة.

﴿ حتى تنكح زوجا غيره ﴾ أي: حتى يطأها زوج غيره.

﴿ فإن طلقها ﴾ أي: الزوج الثاني.

﴿ فلا جناح عليهما ﴾ أي: على الزوج الأول والزوجة.

﴿ أن يتراجعا ﴾ أي: أن يرجع كل منهما إلى الآخر، ولكن بشرط: ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ يعني: إن ظنا أنهما إذا عادا إلى النكاح ـ بعد طلاقها من زوجها الأول ثلاث مرات، ثم زواجها برجل آخر، ثم طلاقها منه ـ أن يقيما حدود الله بينهما، فتقوم هي بما يجب للزوج، ويقوم هو بما يجب للزوجة، فحينئذ لا إثم عليهما. أما إذا ظنا أن الحال لن تتحسن، وأنها سترجع إلى ما سبق، فإن ظاهر الآية الكريمة أن عليهما الجناح.

﴿ وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾ أي: تلك شرائع الله ـ عز

وجل - يبينها لذوي العلم، حتى يفهموها، ويعملوا بها.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ - أن الرجل إذا طلق زوجته الطلقة الثالثة فإنها لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره. فإذا طلق مرةً، ثم راجع، ثم طلق مرةً، ثم راجع، ثم طلق مرة، فهذه هي الثالثة، ولا تحل له بعد هذا، حتى تنكح زوجاً غيره. وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: حتى يطأها الزوج الثاني. واسم النكاح لا يطلق على الوطء، إلا في هذه الآية الكريمة. وإنما أطلق على الوطء؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، فالنكاح سابق على هذا الوطء.

إذاً: من فوائدها أن الرجل إذا طلق المرأة، الطلقة الثالثة، فلا تحل له حتى يتزوجها زوج آخر، ثم يطؤها ويطلقها.

فإن قال قائل: إذا طلقها ثلاثاً بكلمة واحدة، أو بكلمات متعاقبات في مجلس، أو بكلمات متعاقبات في مجالس، فما الحكم؟ قلنا: لا بد أن نعرف الأمثلة قبل.

الأول: إذا طلقها بفم واحد، فقال: أنت طالق ثلاثاً.

الثاني: إذا قال: أنت طالق. وفي نفس المجلس، قال: أنت طالق، أنت طالق.

الثالث: إذا قال: أنت طالق، ثم تركها أسبوعاً، أو أسبوعين، ثم قال: أنت طالق، قبل أن يراجع.

فهل تعتبر الطلقة الثانية، طلقةً جديدةً، أو لا؟

الجواب: في هذا خلاف بين العلماء، منهم من قال: إن هذه الصور كلها تعتبر ثلاث طلقات، وتبين بها المرأة، فلا تحل له ـ أي: للزوج المطلق على هذا الوجه ـ حتى تنكح زوجاً غيره. وهذا الذي عليه عامة أهل العلم.ومن العلماء من قال: إن طلقها ثلاثاً بفم واحد فهي طلقة واحدة، وإن تفرقت الكلمات فهي بحسب الطلقات.

ومنهم من قال: إذا طلقها ثلاثاً بدون أن تحصل مراجعة، أو عقد نكاح جديد، فإنها تعتبر واحدةً على كل حال.

وهذا الأخير هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ.

وهذه المسألة ـ كما قلنا سابقاً ـ ترجع إلى ما يفتي به العلماء، وحسب البلدان، وحسب الأزمان.

٢ـ أن المطلقة ثلاثاً لا تحل للزوج الأول حتى تتزوج بآخر بعقد صحيح. ودليل اشتراط أن يكون العقد صحيحاً قوله: ﴿زَوْجًا﴾. لأنه لا يصدُقُ على العاقد أن يكون زوجاً، إلا إذا كان العقد صحيحاً. وبناءً على ذلك: لو تزوجها الزوج الثاني بنية التحليل للأول وليس نكاح

رغبة، فإنها لا تحل للأول، ولا تحل للثاني أيضاً؛ لأن نكاح التحليل نكاح باطل؛ إذ أن الزوج الثاني لم يرد أن تكون هذه المرأة زوجاً له، وإنما أراد أن تكون زوجةً للأول؛ ليجامعها وليطلقها. وقد جاءت امرأة رفاعة القرظي ـ الذي طلقها ثلاث مرات ـ فتزوجت بعده برجل ـ هو عبد الرحمن ابن الزبير ـ ولكنه لم يكن فيه قوة على الجماع، فأتت إلى النبي ﷺ تقول له: يا رسول الله، إن رفاعة القرظي طلقني فبَتَّ طلاقي، وإني تزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وليس معه يا رسول الله ـ إلا مثل هدبة الثوب، وأخذت بطرف ثوبها تشير به ـ تعني: أنه ليس به قدرة على الجماع ـ. فقال لها النبي ﷺ: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟». قالت: نعم. قال لها: «لا، حتى تذوقي عسيلته، ويذوق عسيلتك»[1]. فالمهم أنه لا بد أن يطأها الزوج الثاني، وأن يكون عقد النكاح صحيحاً. والحكمة من ذلك أن تمام الرغبة في المرأة لا تكون إلا بعد الجماع، فإن طلقها قبل الجماع، فإنه يوشك أن يكون تزوجها من أجل أن يحلها للأول، لا لرغبة فيها. والنكاح يراد للبقاء والدوام، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]. ومن ثم قال بعض أهل العلم: إنه لا يحل للرجل الغريب، أن يتزوج بنية الطلاق؛ لأن هذا

---

(١) رواه البخاري كتاب الشهادات، باب شهادة المختبئ، رقم (٢٦٣٩)، ومسلم كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره...، رقم (١٤٣٣).

خلاف المقصود الشرعي في النكاح؛ إذ أن المقصود الشرعي في النكاح، أن تكون الزوجة سكناً لزوجها، وأن يكون النكاح مستديماً. كما أن الرجل لو تزوج امرأةً، وحدد النكاح بمدة معينة، فإنه لا يصح النكاح، وهو ما يسمى بنكاح المتعة، وهذا ـ أعني: نكاح المتعة ـ محرم بالسنة وإجماع أهل السنة. فإن النبي ﷺ بين في الحديث الصحيح، حديث سبرة بن معبد الجهني: «أن المتعة حرام إلى يوم القيامة»[1].

ونشير إلى قولنا: من تزوج بنية الطلاق، وهذا فيما إذا تزوج الغريب امرأةً ليحصن فرجه، وهو قد اغترب عن وطنه، لغرض صحيح: إما تجارة، وإما علم، وإما غير ذلك، وخاف من عنت العزوبة، فتزوج امرأةً، ونيته أن يطلقها إذا غادر هذا البلد، فهذا اختلف فيه العلماء قديماً وحديثاً. لكن استخدمه بعض السفهاء ـ الذين ليس عندهم خوف من الله، وليس لهم هم إلا إشباع رغباتهم، في بطونهم وفروجهم ـ فصار بعضهم يذهب إلى بلاد أخرى، من أجل أن يتزوج بنية الطلاق. ليس له غرض إطلاقاً، ولا يريد تجارةً، ولا طلب علم، لكن يذهب من أجل أن يتزوج. وقد حدثنا بعض الناس عن هذا أحاديث مزعجةً مرعبةً، حتى إن الواحد منهم ربما يتزوج عدة نساء في سفرة واحدة. يتزوج امرأةً، ثم إذا أخذها معه أسبوعاً، طلقها. ثم إن

---

(1) رواه مسلم كتاب النكاح، باب نكاح المتعة...، رقم (١٤٠٦).

كانت هي الرابعة انتظر حتى تنتهي عدتها، ثم تزوج أخرى. وإن كانت هي الثانية، أو الأولى تزوج في الحال. وصاروا يتلاعبون في النكاح، فصار فكأنه زناً ـ والعياذ بالله ـ. ونحن نقول لهؤلاء: إن عملكم هذا لا ينطبق على الخلاف المعروف؛ لأن الخلاف المعروف إنما هو في رجل ذهب إلى خارج بلده لغرض صحيح شرعي، ثم خاف عنت العزوبة، فتزوج بنية الطلاق. وأما أنتم فقد ذهبتم إلى النكاح بنية الطلاق، وهذا ليس موضع الخلاف. بل أظنه موضع إجماع بين العلماء، أنه لا يجوز. فليحذر هؤلاء من تعدي حدود الله ـ عز وجل ـ؛ فإن الله ـ تعالى ـ يملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، وتلا ﷺ حين تكلم بهذا ـ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢].

نسأل الله لنا ولإخواننا الاستقامة، والثبات على الحق، إنه على كل شيء قدير.

٣- قطع ما كان عليه أهل الجاهلية في تكرار الطلاق على المرأة دون تحديد، فيطلقها، فإذا قاربت على انتهاء العدة طلقها، فإذا اعتدت وقاربت انتهاء العدة، راجعها، ثم طلقها، وهلم جرا، أبد الآبدين. فحدد الله ـ تبارك وتعالى ـ ذلك بثلاث تطليقات.

٤- أن الخلع ليس بطلاق؛ لأنه لو كان طلاقاً لكان قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ في الآية التي تليها ـ، هو الطلقة الرابعة.

والخلع هو: فراق الرجل زوجته بعوض، تبذله هي أو غيرها له. يعني: أن يفارقها على عوض. فإن كان بلفظ الخلع أو لفظ الفداء، أو ما أشبههما فإنه خلع، أعني: فسخاً لا ينقص به عدد الطلقات. وإن كان بلفظ الطلاق، فقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل يعتبر طلاقاً يحسب عليه، أو يعتبر فسخاً لا يحسب عليه؟. مثال ذلك: امرأة كرهت البقاء مع زوجها؛ لعذر شرعي، وطلبت الفراق. فاتفق معها على أن تبذل له شيئاً من المال ويطلقها. فهنا: إما أن يقول: خالعت زوجتي بعوض قدره كذا وكذا. أو فسخت زوجتي بعوض قدره كذا وكذا. أو: فاديتها بعوض قدره كذا وكذا، فهذا لا يحسب من الطلاق. وإما أن يقول: طلقت زوجتي، بعوض قدره كذا وكذا، فهنا قال بعض أهل العلم: إنه فسخ لا ينقص به عدد الطلقات، حتى لو وقع بلفظ الطلاق. وهذا اختيار شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ وهو أيضاً مذهب عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وقال بعض أهل العلم: إنه لما وقع بلفظ الطلاق صار من الطلاق، فيحسب عليه. فإذا كان هذا آخر مرة، بأن يكون طلقها قبل ذلك مرتين، ثم طلقها هذه الثالثة التي فيها الفدية، فإن قلنا: إنه طلاق، حرمت عليه، حتى تنكح زوجاً غيره. وإن قلنا: إنه ليس بطلاق، فإنها لا تحرم عليه؛ لأن هذا فسخ. هذا إذا وقع بلفظ: طلقت امرأتي على عوض قدره كذا وكذا. ولذلك نقول

لإخواننا الذين يكتبون مثل هذه الأشياء: إنه إذا أتاهم زوجان يريدان أن يتفارقا على عوض، ينبغي للكاتب بينهما أن يلاحظ هذا، بأن يقول: حضر عندي فلان وفلانة، ففارقها على عوض قدره كذا وكذا، أو: فخالعها على عوض قدره كذا وكذا، أو: فاداها على عوض قدره كذا وكذا، ولا يقول: طلقها. وذلك من أجل ألا يحسب عليه من الطلاق - [على قول من قال بأنه يحسب من الطلاق] -. وهذه مسألة لا يتنبه لها، إلا من كان عنده علم.

ومن ثم أقول: ينبغي لجميع الذين يكتبون وثائق الناس، أن يكون لديهم علم فيما يكتبون، من ذلك هذه المسألة.

ومن ذلك، أن بعض الناس عندما يكتب الوصية لشخص أوصى في بيته أن يكون في أعمال البر - مثلاً -، بعض الكتاب يكون عنده شيء من الجهل - فيكتب: «إني وكلت فلاناً بعد موتي، بكذا وكذا، أو على كذا وكذا..». وهذا غلط؛ لأن الأمر بالتصرف بعد الموت لا يسمى وكالةً، وإنما يسمى وصيةً، فيقول الكاتب: أوصيت إلى فلان بعد موتي بكذا وكذا، يصرفه في أعمال البر، في المساجد، في أي عمل خيري يريده. فالمهم أنه يجب أن يعرف الكاتب الفرق بين الوصية، وبين الوكالة.الوكالة، قال العلماء: إنها تنفسخ إذا مات الموكل، والوصية لا تكون إلا بعد موت الموصي، فبينهما فرق عظيم.

٥- إطلاق اسم الرجعة على العقد الجديد؛ لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي: فلا جناح على الزوج الأول، والزوجة المطلقة من الزوج الثاني أن يتراجعا، أي: الزوج الأول والزوجة. ففيه إطلاق اسم الرجعة على العقد الجديد، ولكن هذا في اصطلاح الفقهاء، لا يسمى رجعةً، الفقهاء يرون أن الرجعة هي: رد المرأة الرجعية - وهي: المطلقة، على غير عوض، دون الثلاث - إلى النكاح. لكن لا شك أن القرآن حاكم لا محكوم عليه.

ننتقل من هذا إلى حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -، حين طلق زوجته وهي حائض، فقال النبي ﷺ لأبيه عمر - رضي الله عنه -: «مُر عبد الله فليراجعها»[1]. فمن العلماء من قال: إن قوله: «فليراجعها» يعني: بعد الطلاق، ويقع طلاق الحائض.

ومنهم من قال: «فليراجعها» أي: فليردها إلى النكاح الأول، وليس المراد الرجعة من طلاق. وعلى هذا فالطلاق في الحيض لا يقع.

وهذه المسألة فيها خلاف بين العلماء - رحمهم الله -: هل يقع طلاق الحائض، أو لا يقع؟. فالأئمة الأربعة، وجمهور علماء الأمة، يرون أن الطلاق في الحيض واقع، وأنه لا فرق بين طلاق الحائض والطاهر.

---

(١) رواه البخاري كتاب الطلاق، باب قول الله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الآية، رقم (٥٢٥١)، ومسلم كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض، (١٤٧١).

ومنهم من يرى أنه لا يقع.

ولكـن هنـا مسألة، وهـي: أن بعـض النـاس إذا طلـق زوجتـه آخـر طلقة، جاء يستفتي، ويقول: طلقتها في المرة الأولى ـ قبل عشر سنوات ـ وهي حائض؟. يريد أن يبطل الطلقة الأولى، لكي يتمكن من المراجعة. نقول: سبحان الله!! لـك عـشر سنوات، وقـد طلقتهـا وهـي حـائض، وتأتي اليوم تقول: إنك طلقتها، وهي حائض!!

أرأيـت لـو أنهـا تزوجـت بعـد أن تمـت عـدتها مـن طلقتـك الأولى، أتقول للزوج الثاني: إنها زوجتي؟!

هو لا يقول هذا، لا شك. لكن لما ضـاقت بـه الحيـل، جـاء يقـول: إني طلقتها الطلقة الأولى، وهي حائض، وربما يقول: طلقتها الطلقـة الثانيـة في طهر جامعتها فيه، وربما يقول: طلقتهـا الثالثـة في لحظـة شـدة غـضب، ثـم يبقى لم يطلق حتى الآن!!. وهذا لا شك أنه مـن بـاب التلاعـــب بأحكـام الله ـ عـز وجـل ـ. فعـلى المرء أن يتقـي الله ـ تعـالى ـ في نفسه، وألا يتعـدى حدود الله وألا يتطلب ما يكون فيه الرخص على غير وجه شرعي.

٦ـ أنه لا بد من ملاحظة هذا الأمر في النكاح، وهو أن يظن كل من الـزوجين أن يقيـا حـدود الله. يعنـي: إذا طلـق الإنـسان زوجتـه ثـلاث مرات، ثـم تزوجها زوج آخر بنكاح رغبة، ثم طابت نفسه منها، فطلقها بعد الجماع، فإنهـا تعتـد لـه، ثـم إذا اعتـدت لـه، جـاز لزوجهـا الأول أن

يراجعها. لكن يجب أن يلاحظ هذا الشرط الذي اشترطه الله، وهو: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، فإن ظنا ألا يقيما حدود الله، فلا يتزوجها، يعني: إن ظن أن الحال الأولى، التي حصل بها الفراق ستعود، فلا يتزوجها؛ لأن في ذلك مفسدةً، وضياعاً للوقت، وإتلافاً للمال.

أما المفسدة، ما يكون بين الزوجين بعد الرجوع، من التنافر، والتباغض، والتعادي. وكذلك بين أهليهما.

وأما ضياع الوقت، فهو واضح.

وأما ضياع المال، فهو أيضاً سوف ينفق عليها مهراً، ونفقات أخرى، بدون أي فائدة. فإذا ظن أنه إذا تزوجها بعد الزوج الثاني أن الحال الأولى ستعود، فإننا نقول: لا تتزوجها. اطلب امرأةً غيرها، ولعل الله أن يأتي بالخير.

٧- أنه يجب على المرء، وعلى المرأة، أن يحرصا غاية الحرص، على إقامة حدود الله ـ تعالى ـ، وهي: أحكامه الزوجية، التي جعلها بين الزوجين، أن يقيمها كل واحد منهما؛ لقوله: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

٨- أنه إذا رجعت إلى زوجها الأول ـ بعد تزوجها بنكاح صحيح، ووطء زوجها الثاني لها ـ فإن الواجب عليهما أن يقيما حدود الله، ما داما قد ظنا ـ حين العقد ـ أنهما سوف يقيمان حدود الله.

فإن قال قائل: إذا رجعت إلى زوجها الأول ـ بعد الطلاق ـ فهل تعود إليه بعدد جديد من عدة الطلقات، أو بطلقة واحدة؟ بمعنى: أنه إذا طلقها بعد أن تزوجها عقب الزواج الثاني، هل له الرجعة في الطلاق الأول، والثاني، وكأنه ابتدأها زوجةً من جديد، أو نقول: ليس له إلا طلقةً واحدةً؟. الصواب: أنه يرجع إليها على ثلاث طلقات، بمعنى. أن له أن يطلق ويراجع، ويطلق ويراجع، فإن طلق الثالثة بانت منه، كما بانت في الأول. بخلاف الرجل إذا طلق امرأته الطلقة الأولى، ثم انتهت عدتها، وتزوجت بآخر، ثم طلقها وانتهت عدتها، ورجعت إلى زوجها الأول، فإنها ترجع على ما بقي من طلاقها.

مثال ذلك: رجل طلق امرأته مرتين، ثم تزوجت رجلاً آخر، وبعد دخوله بها، وجماعه إياها، طلقها، وبعد انقضاء عدتها رجعت إلى الزوج الأول، فإنه يبني على ما سبق من عدد الطلقات، بمعنى أنه لو طلقها مرةً واحدةً، بانت منه. وهذه مسألة ينبغي للإنسان أن يتفطن لها، وهي: أن المرأة إذا عادت إلى زوجها الأول، وقد بقي من طلاقها شيء، فإنها ترجع على ما بقي من الطلاق. أما إذا رجعت إلى زوجها الأول، بعد أن أتم عدد الطلقات، وتزوجت بآخر بنكاح صحيح، وجامعها، ثم طلقها، ورجعت إلى الأول، فإنها ترجع بالعدد الكامل من الطلقات. فله أن يطلق ويراجع، ويطلق ويراجع، ثم إذا طلق الثالثة بانت منه.

٩ـ أن ما ذكره الله من الحقوق الزوجية في هذه الآيات، هو: حدود الله ـ عز وجل ـ، وأحكامه التي يجب على العبد أن يقوم بها على الوجه الأتم.

١٠ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يترك شيئاً نحتاج بيانه إلا أبانة لنا، ولهذا قال: ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. وهذا هو المتقرر عند المسلمين: أنه ما من شيء في الدنيا يحتاجه الناس، إلا وفي القرآن بيانه، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. كل شيء يحتاجه الناس في أمور دينهم، أو دنياهم، فإن القرآن قد بينه ـ والحمد لله ـ على وجه تحصل به الفائدة.

١١ـ أنه لا ينتفع بالقرآن في معرفة معناه إلا أهل العلم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. فأما من ليس من أهل العلم، فإنه قد يقرأ الآية، والآيتين، والثلاث، والصفحة، والصفحتين، ولم يعرف معنًى واحداً منها. لكن أهل العلم لا شك أنهم يفهمون من آيات الله ـ تعالى ـ، ما لا يفهمه غيرهم. ولهذا كلما كان الإنسان أعلم؛ كان بمعرفة القرآن أقوى.

ومن ثم أوصي إخواني بتفهم معاني القرآن الكريم؛ لأنه قد بين فيه كل شيء؛ ولأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الذين كانوا يقرؤون القرآن، لا يتجاوزون عشر آيات، حتى يتعلموها، وما فيها من العلم،

والعمل. بمعنى أنهم ـ رضي الله عنهم ـ يقرؤون عشر آيات، ثم يتفهمون معناها، ثم يعملون بها، عكس كثير من الناس اليوم، الذين ليس لهم هم إلا حفظ الآية لفظاً فقط، دون أن يرجعوا إلى معناها، أو العمل بها. والواجب حفظ اللفظ، ولو عن طريق القراءة في المصحف، ثم التدبر، ثم العمل. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

جعلنا الله وإياكم ممن يتدبرون كلام الله، ويعملون به، ولا يتعدون حدوده، إنه على كل شيء قدير.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣١].

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ الأجل: سبق ذكره في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [البقرة:٢٢٨]. فإذا بلغت القروء الثلاثة، وحاضت ثلاث مرات:

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ﴾ يعني: بعد الطهر من الحيضة الثالثة، إن شاء الزوج استمر في فراقها، وإن شاء ردها. كما

أنه لو فعل ذلك قبل الطهر من الحيضة الثالثة نفعه، كذلك إذا فعل ذلك بعد الحيضة الثالثة ـ ولكنه قبل أن تغتسل ـ فله أن يراجع، هذا إذا قلنا أن معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انتهت عدتهن. ومن العلماء من قال: إن معنى ﴿إِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي: قاربن بلوغ الأجل ـ وهي العدة ـ، وأنها إذا انتهت العدة بثلاثة قروء فإنه لا رجعة. وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان ذلك في الفوائد.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ردوهن إلى حظيرة الزوجية.

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ أي: أطلقوهن واتركوهن، وهذا معنى قوله ـ تعالى ـ في سورة الطلاق: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٢].

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ يعني: إذا أمسكتموهن، ورددتموهن إلى حظيرة النكاح، فلا تفعلوا ذلك ﴿ضِرَارًا﴾ أي: مضارةً بالمرأة. وقد سبق أن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقوله: ﴿لِتَعْتَدُوا﴾ أي: لتكون عاقبتكم العدوان، وليست اللام هنا للتعليل؛ لأنه لا أحد يفعل ذلك لأجل العدوان. ولكن المآل هو العدوان. فتكون اللام للعاقبة، كما في قوله ـ تعالى ـ في قصة موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فهم لم يلتقطوه لهذا الغرض، لكن التقطوه، فكانت العاقبة

أن كان لهم عدوا وحزناً.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يعني: من يمسكهن ضراراً.

﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ وذلك لعدوانه على المرأة.

والظلم في الأصل هو: النقص، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص منه شيئاً.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ ﴾؛ أي: لا تجعلوها هـزواً بالتلاعـب بها وعدم الالتزام بها.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عـلى سـبيل العمـوم، فـإن نعـم الله لا تحصى. والإنسان إذا ذكـر نعـم الله، لـزم مـن تـذكره، أن يطيـع الله ـ عـز وجل ـ، فيمتثل أمره، ويجتنب نهيه.

﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ ﴾ يعنـــــــي: واذكروا ـ أيضاً ـ ما أنزل الله عليكم من الكتاب والحكمة.

والكتاب هو: القرآن. والحكمة هي: السنة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ ﴾ [النساء: ١١٣]. وربما يراد بالحكمة أسرار الشريعة، وحكمها، التي لا يعقلها إلا العالمون. فيكون المراد بالحكمة، هنا: السنة، وما تضمنته أحكام القرآن

من الحكم والأسرار.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي: يخوفكم به.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: الزموا تقوى الله ـ عز وجل ـ، وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فإذا لم تتقوا الله في حال غيبتكم عن الناس، فإن الله ـ تعالى ـ يعلم ذلك؛ لأنه عالم الغيب والشهادة، والله بكل شيء عليم.

في هذه الآية من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ ـ أنه يجوز للرجل إذا طلق زوجته وانتهت عدتها ـ يعني: حاضت ثلاث مرات ـ أن يمسك بمعروف أو يسرح بمعروف. والحد الفاصل في ذلك ـ على ما قاله العلماء ـ هو: الاغتسال. فما دامت لم تغتسل، فله أن يراجعها. ولكن إلى متى؟ فربما تبقى المرأة لا تغتسل، رجاء أن يراجعها زوجها؟. فيقال: إذا أتى عليها صلاة واحدة بعد الطهر، ولم تغتسل لها، ولم تصل، فإنها في هذه الحال، لا يحل له أن يراجعها. وذلك لأنها مأمورة شرعاً أن تغتسل من الحيض إذا أرادت الصلاة. فإذا فرطت في ذلك رجاء أن يراجعها زوجها، فإننا نقول لها: أنت لم تتق الله، فلم يجعل لك مخرجاً. وحينئذ لا يحل للزوج أن يراجعها، إذا مضى وقت صلاة ولم تغتسل لها.

ومـن العلـماء مـن قـال: إن قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن بلوغ أجلهن، أي: قاربت أن تطهر من الحيضة الثالثة. وعلى هذا القـول: إذا طهـرت مـن الحيـضة الثالثـة، امتنعـت مراجعتهـا، سـواء اغتسلت أم لم تغتسل.

٢ـ عناية الله ـ تبارك وتعـالى ـ بالمعـاشرة بيـن الـزوجين، وأن تكـون بـالمعروف؛ لأنــه حتــى في الفــراق قــال: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

٣ـ أنه لا يجوز للزوج بعد المفارقة، ولا للزوجة ـ أيضاً ـ أن يحدث كل واحد منهما، بما جرى بينهما من أسباب الطلاق، وغيره، اللهم إلا أن يكون ذلك لبيان العذر، إذا ليم على هذا الشيء، وقيل له: لماذا تطلق زوجتك؟. فأراد أن يبين السبب حتى يعذره الناس. وهـذا إنـما يكـون فيمن يستحق أن يعتذر إليه من ذلـك، كـالأب، والأخ، والقريـب. أما عامة النـاس، فإنـه لا ينبغـي أن يحدثهم بـما حـصل؛ لأن ذلـك خـلاف المعروف.

٤ـ أن من راجع من أجل المضارة ـ ولـو في حـدود الطلقتـين ـ فإنـه معتـد؛ لقـول الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾. ولكـن إذا راجع في هذه الحال، فهل تصح الرجعة؟ نقول: إنها لا تـصح الرجعـة؛ لأن الله ـ تعـالى ـ إنـما جعـل للـزوج الحق إذا أراد الإصـلاح، ونهـى أن

يراجعها ليضر بها، فتكون مراجعته هذه أمراً لم يكن عليه أمر الله ورسوله، وقد قال النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد»[١]. وعلى هذا فلا تصح الرجعة، إذا قصد بها الإضرار.

٥ـ أن من أمسك امرأته ـ أي: راجعها في العدة ـ للإضرار بها، فإنه قد ظلم نفسه. وظلم النفس محرم؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»[٢].

٦ـ أن الرجل إذا أعاد زوجته بالرجعة؛ للإضرار بها، فإنه قد يظن أنه قد انتصر وكسب، فرد الله ذلك، وبين أنه ظالم لنفسه.

٧ـ أن الإنسان قد يسعى لنفسه في الشر، من حيث لا يشعر؛ لأن المراجع لزوجته، يظن أنه يتشفى منها، بإرادة الإضرار، ولكنه في الحقيقة قد ظلم نفسه من حيث لا يشعر.

٩ـ تحريم اتخاذ آيات الله هزواً؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ فإن قال قائل: هل كل ظلم يظلمه الإنسان نفسه، يكون من اتخاذ آيات الله هزواً؟

فالجواب: لا شك أنه إذا أراد الاستهزاء بآيات الله، فإنه هزو،

---

(١) تقدم تخريجه في الجزء الأول ص (٤٩).

(٢) تقدم تخريجه.

وكفر بالله ـ عز وجل ـ، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] أما إذا لم يرد الاستهزاء، فإنه لا يكفر، لكنه بمنزلة من ا تخذ آيات الله هزواً، حيث لم يقم بها أوجب الله عليه، ولم يترك ما حرم الله عليه.

١٠- أنه يجب على المرء أن يذكر نعمة الله عليه. ونعم الله لا تحصى: نعم بدنية، مالية، أهلية، علمية، أنواع كثيرة، لا تحصى. انظر الآن إلى النفس الذي يصعد وينزل، لا تحس به، مع أنه دائم، ومع أن الحياة تتوقف عليه. فهل منا أحد يستطيع أن يحصي أنفاسه في يوم واحد؟. لا يمكن، وإذا كان كذلك، فإن نعم الله لا تحصى. هذا في النفس فقط، فكيف بحصول الشرب، والأكل، واستساغتهما، وتصريفهما في البطن والأمعاء، وغير ذلك مما لا يحصى، لذلك نقول: إنه يجب على الإنسان أن يذكر نعمة الله عليه.

والفائدة من ذكر النعمة: شكر المنعم ـ عز وجل ـ، وشكر المنعم هو طاعته ـ تبارك وتعالى ـ، دليل ذلك قوله ﷺ: «إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا ۖ ﴾ [المؤمنون:٥١]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن

طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢])[1].

فالرسل أمروا بالأكل من الطيبات والعمل الصالح، والمؤمنون أمروا بالشكر: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾، فدل ذلك على أن الشكر هو: العمل الصالح. وعلى هذا فالإنسان إذا تذكر نعمة الله عليه، ازداد طاعةً لله ـ عز وجل ـ، وقياماً بأمره، واجتناباً لنهيه.

١١ـ أن أكبر النعم التي أنعم الله بها علينا: ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة. وجه ذلك أن الله ـ تعالى ـ خصها بالذكر، مع أنها من النعم، وتخصيصها بالذكر، يدل على أنها أشرف هذه الأنواع، ودليل ذلك قوله ـ تعالى ـ في ليلة القدر:﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٤]، فإن الروح هو جبريل ـ عليه السلام ـ. وجبريل من الملائكة ـ بلا شك ـ ولكنه نص عليه، لأنه أشرف الملائكة. وأيضاً قوله ـ تعالى ـ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، فالصلاة الوسطى، من الصلوات ـ وهي: صلاة العصر ـ لكنه ذكرها بعد التعميم؛ لأنها أفضل الصلوات.

١٢ـفنقول إذاً: ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة، هو أفضل النعم، ولا شك في هذا. فإن الإنسان إذا وفق لشكر هذه النعمة العظيمة ـ وهي إنزال القرآن والحكمة ـ حاز على خير كثير.

---

[1] رواه مسلم كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الحلال، رقم (١٠١٥).

١٣ـ أن القرآن كلام الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾، وهذا الذي أجمع عليه سلف الأمة: أن القرآن كلام الله. دليل هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] أي: حتى يسمع القرآن.

١٤ـ علو الله ـ تبارك وتعالى ـ، لقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم﴾. فإذا كان القرآن كلامه، وكان نازلاً، دل على أن المتكلم به عالياً. وهذا ـ أعني: علو الله ـ تعالى ـ بذاته ـ هو الذي دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع السلف، والعقل، والفطرة. كما أن علوه المعنوي قد دل عليه أيضاً: الكتاب، والسنة، وإجماع السلف، والعقل، والفطرة. فيجب على الإنسان ـ عقيدةً ـ أن يؤمن بأن الله ـ تعالى ـ نفسه فوق كل شيء، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، وأنه ـ جل وعلا ـ استوى على العرش. والعرش هو: سقف المخلوقات كلها، وهو أعظمها، وأوسعها، وأكبرها، والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد استوى عليه، أي: علا عليه علوا يليق بجلاله وعظمته، وليس كاستواء الإنسان على الفلك، أو على بهيمة الأنعام؛ لأنه لا مماثلة بين الخالق والمخلوق، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠] وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

١٥ـ إطلاق اسم الكتاب على القرآن؛ لأن القرآن مكتوب، فهو مكتوب بين أيدينا، وكذلك ـ أيضاً ـ مكتوب في الصحف التي في أيدي الملائكة، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [عبس:١١ـ ١٥]. وهو كذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢١، ٢٢].

١٦ـ اشتمال الشريعة الإسلامية على الحكمة، وأنه ليس فيها شيء إلا مقرون بالحكمة. فكل ما شرعه الله ـ عز وجل ـ، في كتابه، فإنه مبني على حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾.

١٧ـ أن الموعظة ـ حقيقةً ـ إنما هي في الكتاب والسنة؛ لقوله: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾. ولا واعظ أشد من واعظ القرآن.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. ولا واعظ أوقع في النفوس من القرآن.

١٨ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والتقوى هي: اتخاذ وقاية من عذاب الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

١٩ـ أنه يجب علينا أن نعتقد بأن الله بكل شيء عليم؛ لقوله ـ تعالى ـ:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾. وعلمه - تبارك وتعالى - محيط بكل شيء؛ لقوله - تعالى -: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال - تعالى - عن الذين يحملون العرش ومن حوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا وإياكم ممن تابوا واتبعوا سبيله، إنه على كل شيء قدير.

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

لما كان بعض الأولياء، إذا طلقت موليته، ثم انتهت عدتها، منعها أن تعود إلى زوجها الأول؛ لأنه يرى أن في تطليق زوجها إياها، وتركها إلى أن تنتهي العدة إذلالاً لها ولأهلها، فيمنعها من أن تعود إلى زوجها. فلهذا نهى الله تعالى - في هذه الآية - الأولياء عن هذا الفعل.

في هذه الآية من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ - أنه إذا أراد الزوج المطلق أن يعود إلى زوجته - بعد انتهاء العدة -

فإنه لا يحل لأوليائها أن يمنعوها من الرجوع إليه، إذا وافقت، لقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

أنه لا يمكن أن ترجع إلى زوجها الأول ـ بعد انتهاء العدة ـ إلا بعقد؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾، والنكاح هو العقد. وقد سبق لنا: أنه لا يراد بالنكاح الجماع إلا في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وبينا السبب في أنه في تلك الآية، أريد بالنكاح الجماع؛ لأنه قال: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، ولا زوج إلا بعقد. أما إذا جاء لفظ النكاح في القرآن فيما سوى تلك الآية فإنما يراد به عقده. إذاً لا بد أن ترجع المرأة إلى زوجها الأول ـ بعد انقضاء العدة ـ بعقد جديد.

٢ـ أنه إذا راجعها الزوج الأول قبل بلوغ الأجل، فإنه يرجع بلا عقد؛ لقوله: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ﴾، حيث قال: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾. فإذا أراد الرجوع إليها ـ أي: الزوج المطلق ـ قبل أن تنتهي العدة ـ فإنه يرجع إليها بلا عقد.

٣ـ الإشارة إلى اعتبار الولي في النكاح؛ لقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾. ووجه ذلك أنه لو لم يكن اشتراط الولي لكان منعه وعدمه سواءً، إذ يمكنها أن تتزوج بدونه. ولكن ليس هذا بشيء صريح، ولهذا قلنا: «الإشارة»، ولم نجزم بأنه دال على ذلك؛ لأنه ربما

يعضلها، فيقول: لا تتزوجي فلاناً، ثم يكرهها على ألا تتزوج. وليس يعني ذلك أنها لو تزوجت بدونه لما صح. على كل حال، الولي لا بد منه في عقد النكاح، دلت على ذلك نصوص أخرى، إذا لم نسلم بدلالة هذه الآية على ذلك.

٤- أنه لا بد من الرضا في عقد النكاح: رضا الزوج، والزوجة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم﴾. واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في البكر إذا زوجها أبوها، هل يشترط رضاها أو لا؟ والصواب: أنه يشترط رضاها، وأنه لا يمكن أن تزوج المرأة بدون رضاها أبداً. سواء كانت بكراً أم ثيباً، وسواء كان المزوج أباها أم غيره؛ لقول النبي ﷺ: «لا تنكح البكر حتى تستأذن. ولا تنكح الأيم حتى تستأمر»[1]. وفي لفظ: «البكر يستأمرها أبوها»[2]. فنص على البكر، ونص على الأب. وهذا دليل واضح على أنه لا يجوز للإنسان أن يزوج ابنته إلا برضاها، سواء كانت ثيباً أم بكراً. فإن زوجها بدون رضاها، ثم رضيت بعد ذلك، فإن العقد يصح. وإن لم ترض فإنه يفسخ العقد؛ لأنه لا يصح نكاح إلا برضا الزوجين.

٥- أن المهر يرجع فيه إلى الزوجين، لا إلى غيرهما؛ لقوله: ﴿إِذَا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه النسائي كتاب النكاح، باب استئمار الأب البكر في نفسها، رقم (٣٢٦٤)، وأبو داود كتاب النكاح، باب في الثيب، رقم (٢٠٩٨).

تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾.

وعلى هذا: فلا يحل للأب، ولا لغير الأب، من الأولياء، أن يتحكم في المهر، فيقول للخاطب: لا أزوجك إلا بكذا وكذا، بل إذا رضيت المرأة أن تتزوج به بأدنى ما يكون من المهر، فليس لأحد حق الاعتراض عليها. فلو أن المرأة رضيت أن تتزوج هذا الرجل الخاطب بمائة ريال، ومهر مثلها عشرة آلاف ريال، فإنه ليس لأحد أن يعترض عليها؛ لأن الحق لها، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ﴾ أي: مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ [النساء:٤]، فأضاف المهور إليهن، لا إلى غيرهن. وما يفعله بعض الأولياء من التحكم خطأ، خطأ على المرأة، وخطأ على الرجل؛ لأن الله ـ تعالى ـ جعل الأمر إلى الزوجين، فقال: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٦ـ الإشارة إلى وجوب الوفاء بالشرط، أي: بالشروط التي تقع بين الزوجين؛ لقوله: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم﴾. فمتى اشترطت المرأة حقا لنفسها ـ وهو غير محرم ـ وجب على الزوج أن يفي به. وإذا شرط الزوج على امرأته شيئاً ـ وهو غير محرم ـ وجب عليها أن تفي به.

وقولنا: «وهو غير محرم»، أردنا به الاحتراز من الشرط المحرم، كما لو اشترطت المرأة على الزوج أن يطلق زوجته التي معه. فإن هذا الشرط باطل وحرام؛ لقول النبي ﷺ: «لا تسأل المرأة طلاق أختها،

لتكفأ ما في صحفتها»(١).

٧- أن الشروط تكون بالمعروف، أي: بما عرفه الشرع وأقره. فإن كانت مما يخالف الشرع، فإنها مرفوضة، غير مقبولة؛ لقول النبي ﷺ: **«كل شرط ليس في كتاب الله، فهو باطل، وإن كان مئة شرط»**(٢).

٨- أن الأحكام الشرعية ـ سواء كانت أوامر، أم نواهي ـ موعظة من الله ـ عز وجل ـ، يعظ الله بها عباده؛ لأن فعل الأوامر سبب للنجاة من أهوال يوم القيامة، ومن عذابه، وويلاته، ومخالفة تلك الأوامر سبب للعقوبة، والشر، والبلاء. ولهذا ينبغي للإنسان كلما دعته نفسه إلى ترك واجب، أن يتذكر اليوم الآخر، ذلك الموقف العظيم الذي يفر فيه المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته، وبنيه، يتذكر ذلك اليوم الذي طوله خمسون ألف سنة، يتذكر ذلك اليوم الذي تدنو فيه الشمس من الخلائق قدر ميل، يتذكر ذلك اليوم الذي يعرق فيه الناس، فيبلغ العرق منهم إلى الكعبين، إلى الركبتين، إلى الحقوين، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً. يتذكر ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيباً، السماء منفطر به، يتذكر ذلك اليوم الذي تسير فيه الجبال سيراً، تكون هباءً منثوراً.

---

(١) رواه البخاري كتاب البيوع، باب لا يبع على بيع أخيه، رقم (٢١٤٠)، ومسلم كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن أو يترك، رقم (١٤١٣).

(٢) رواه البخاري كتاب المكاتب، باب ما يجوز من شروط المكاتب، رقم (٢٥٦١)، ومسلم كتاب العتق، باب «**إنما الولاء لمن أعتق**» رقم (١٥٠٤).

على الإنسان إذا حدثته نفسه بالمخالفة، أن يتذكر ذلك اليوم. وما ذلك اليوم ببعيد؛ لأنه ليس بين الإنسان وبينه إلا أن يموت. فإذا مات، انتقل إلى عالم الجزاء، انتقل إلى الآخرة. فليتق الله في نفسه. ولهذا جعل الله ـ تبارك وتعالى ـ الأوامر والنواهي من المواعظ التي يتعظ بها الإنسان، فيستقيم على أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ.

أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلني وإياكم من المتعظين بآياته، الممتثلين لأمره، المجتنبين لنهيه. إنه على كل شيء قدير.

٩ـ أهمية الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنه هو الذي تحصل به الموعظة، بل هو الذي يحصل به الاتعاظ؛ لقوله: ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ لأن من آمن بالله ـ حقا ـ خاف منه، فكل من كان بالله أعرف، كان منه أخوف. ولهذا كان النبي ﷺ أشد الناس مخافةً لله ـ تبارك وتعالى ـ، حتى إنه إذا رأى سحاباً، أو ريحاً، صار يدخل ويخرج، ويتغير وجهه عليه الصلاة والسلام. فيقال له في ذلك؟ ـ يعني: إن هذا الشيء معتاد، أو ما أشبه هذا فيقول: «وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح»[1]، يشير إلى قوم عاد الذين أرسل الله عليهم الريح العقيم، التي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ رقم (٤٨٢٨)، ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ من رؤية الريح، رقم (٨٩٩).

أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾، حيث كانوا قد أصابهم القحط قبل ذلك، فاستبشروا حين رأوا هذه الريح العظيمة في السماء، كأنها قطع السحاب المظلم، فقالوا: هذا عارض ممطرنا، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ أي: من العذاب، حين استكبرتم عن طاعة الله، ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥]. فدمرت كل شيء، حتى كانت تحمل الإنسان إلى فوق، ثم تعيده إلى الأرض ـ والعياذ بالله ـ. فأصبحوا كأنهم أعجاز نخل خاوية، وأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

وإنني بهذه المناسبة أود أن أحذر إخواننا المسلمين الذين يؤمنون بالله، مما يدور على الألسنة ـ أحياناً ـ إذا أصيب الناس بزلزال، أو بعواصف أو بفيضانات، قالوا: هذا أمر طبيعي، وهذا أمر لا يهم، فإن هذا ـ لا شك ـ دليل على قسوة القلب، وعدم اتعاظه بهذه النوازل العظيمة. فإن الواجب على الإنسان أن يعلم بأن هذا ليس بمقتضى الطبيعة، بل هذا من الله ـ عز وجل ـ، يبتلي به من شاء من عباده؛ ليتعظ الناس، ويخافوا من الله. لكن لما قست القلوب، صار الناس كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾ أي: إن يروا عذاباً في السماء ساقطاً ﴿ يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور: ٤٤]. فالواجب علينا أن نتعظ بهذه الآيات، وأن نخشى، وأن نحذر، فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

٠ أهمية الإيمان باليوم الآخر. واليوم الآخر ـ في الأصل ـ هو: يوم القيامة، الذي يقوم فيه الناس من قبورهم لله ـ عز وجل ـ؛ لأنه لا يوم بعده، هو النهاية: إما إلى الجنة، وإما إلى النار. ومن تدبر ما في القرآن، من ذكر الأهوال في هذا اليوم، تبين له أنه يوم عظيم، وأنه يجب على الإنسان أن يستعد له، أتم استعداد.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ، مما يكون بعد الموت».

وعلى هذا فالإيمان بفتنة القبر، من الإيمان باليوم الآخر. وفتنة القبر: أن الإنسان إذا مات، وتولى عنه أصحابه، أتاه ملكان يسألانه عن ثلاثة أشياء: عن ربه، ودينه، ونبيه. فيقولان له: من ربك؟ فيقول المؤمن: ربي الله. ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. من نبيك؟ فيقول: نبيي محمد ﷺ. أما المنافق، أو المرتاب ـ أعاذنا الله وإياكم من ذلك ـ فإنه يقول: هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً، فقلته؛ لأنه ليس عنده إلا ما نطق به لسانه فقط، وقلبه خال من الإيمان ـ نسأل الله العافية ـ. فيضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحةً يسمعها كل شيء إلا الثقلين.

فالإيمان بهذا، من الإيمان باليوم الآخر، لكن اليوم الآخر الحق هو:

يوم القيامة. وإنني بهذه المناسبة، أنبه على كلمة يقولها كثير من الناس، إذا مات الميت يقولون: ثم نقل إلى مثواه الأخير. أو: واروه في مثواه الأخير. وهذه الكلمة خطيرة جدا، فلو أن الإنسان اعتقد مقتضاها، لكان كافراً؛ لأنه إذا اعتقد أن المثوى الأخير، هو دفنه، فهذا يستلزم ألا يكون هناك بعث؛ لأن البعث بعد الدفن. فهي كلمة خطيرة جداً. لكن الناس يتناقلونها من غير أن يفكروا في معناها. وما أكثر الكلمات التي يتناقلها الناس، واحداً بعد الآخر، من غير أن يتأملوا في معناها.

ولهذا أنصح إخواني إذا أتتهم الكلمات التي ليست في الكتاب ولا في السنة، ولا في كلام الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ولا في كلام السلف الصالح، أن يحذروا منها وأن يتأملوا معناها أولاً، هل هو صحيح أو غير صحيح؟ فإن كان صحيحاً، أخذوا به، وإن كان غير صحيح، رفضوه، مهما كان المتكلم بها.

١١ـ أنه إذا اتعظ الإنسان بموعظة الله، كان ذلك أزكى له، وأطهر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

١٢ـ أن الناس يختلفون في الزكاء والطهارة؛ لقوله: ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ لأنها اسم تفضيل، واسم التفضيل يدل على أن هناك مفضل عليه، ومفضلاً على غيره؛ لذلك نقول: إن الناس يختلفون في الزكاء والطهارة. وهذا ينبني عليه أنهم يتفاضلون في الإيمان، ويتفاضلون في

الثواب. وهذا هو الأمر الواقع الذي لا شك فيه. وأما من قال: إن الناس لا يتفاضلون في الإيمان، فإن قوله غير صحيح، بل الناس يختلفون في الإيمان: زيادةً، ونقصاً، وقوةً، وضعفاً.

١٣ ـ نقص علمنا؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. فهنا نفى عنا العلم، ومن المعلوم أنه ليس نفياً مطلقاً، بمعنى أننا لا نعلم شيئاً، بل إننا نعلم شيئاً، ولكن يفوتنا أشياء. فعلينا أن نعلم أن الأصل فينا الجهل، وعدم العلم. لكن ما علمناه ـ مما علمنا الله ـ عز وجل ـ، بمقتضى الفطرة، أو بالوحي الذي نزل ـ فإنه قليل بالنسبة إلى المعلومات.

ولهذا لما سألوا النبي ﷺ عن الروح، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كأنه يقول هل فاتكم من العلم إلا علم الروح، حتى تسألوا عنها، وتلحوا في المسألة فيها؟! [فالجواب] إنه فاتكم شيء كثير: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦، ٢٣٢، آل عمران:٦٦، النور:١٩].

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم، علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، ورزقاً طيباً واسعاً، يغنينا به عن خلقه، ولا يغنينا به عنه، ـ تبارك وتعالى ـ. إنه على

كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٣].

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ هذا خبر من الله - تبارك وتعالى -، ولكنه بمعنى الأمر: أن الوالدات يرضعن أولادهن. والأولاد تشمل الذكور والإناث، كما قال الله - تعالى -: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء:١١]، فدل هذا على أن كلمة «أولاد» تعني: الذكور والإناث، من البنين والبنات.

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ﴾ المراد بالحولين: حولان هلاليان؛ لأن التوقيت الشرعي إنما يكون بالأهلة، لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]. فيكون المراد بقوله - تعالى -: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ﴾ أي: هلاليين. وهكذا كل ما جاء موقتاً

شرعاً، فالمراد بذلك الأشهر الهلالية. كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ [النساء: ٩٢] فالمراد بالشهرين الأشهر الهلالية، وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ [الطلاق: ٤] فالمراد الأشهر الهلالية. وقوله: ﴿ كَامِلَيْنِ ﴾ أي: غير ناقصين. والكمال ـ هنا ـ يكون في العدد، ويكون في الصفة. أما في العدد فهو: إكمال الحولين. وأما في الصفة، فالمعنى: ألا تقصر الوالدة في الإرضاع في هذه المدة، بل ترضع ولدها كلما احتاج إلى الإرضاع.

﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ يعني: ذلك الحكم، لمن أراد أن يتم الرضاعة. أما ما زاد عن الحولين، فالغالب أن الولد لا يحتاج إليه، فيكون الفطام.

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ المولود له هو: الزوج، أو السيد. عليه رزقهن: من طعام، وشراب، وعليه كسوتهن بالمعروف. وسكت عن السكنى؛ لأن المرأة تكون مع زوجها في سكناه، سواء كانت زوجةً، أم أمةً.

وقوله: ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي: بما عرفه الناس، واعتادوه، فلا تطالب بأكثر من الإنفاق المعتاد، ولا تنقص عن المعتاد في الإنفاق.

﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي: أن الله ـ تعالى ـ لا يلزم أحداً بشيء إلا بقدر طاقته. وهذا إشارة إلى أنه إذا كان المولود له فقيراً، فإنه

لا يلزم إلا بنفقة فقير.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ تضار: صيغة فعل مضارع، يصح أن يكون مبنياً للفاعل، ويصح أن يكون مبنيا لما لم يسم فاعله. فإن كان مبنياً للفاعل ففك الإدغام فيه: لا تضارر والدة بولدها، والمعنى: أنه لا يجوز للمرأة أن تضار بولدها، فتمتنع من إرضاعه التام؛ للضغط على الأب.

وإن كان مبنياً لما لم يسم فاعله، ففك الإدغام فيه: لا تضارر والدة بولدها. والمعنى: لا يضارها الأب، بالشح في الإنفاق عليها، أو ما أشبه ذلك. ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ يعني: ولا يضار المولود له ـ وهو: الزوج، أو السيد ـ بولده، بل على كل منهما أن يعامل صاحبه بالحسنى، بدون مضارة.

﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ﴾ أي: على من يرث الولد ـ إذا لم يكن له أب ـ «مثل ذلك» أي: مثل ما على الأب من الإنفاق بالمعروف، وعدم الإضرار.

ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: إن النفقة واجبة على كل قريب يرث قريبه، إذا كان الوارث غنياً، وكان الموروث فقيراً؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ﴾.

﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا﴾ أي: أراد الأبوان ـ الام والأب ـ فصالاً، أي:

فصل الولد عن الرضاع.

﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ يعني: أرادا فصالاً صادراً عن تراض منهما، أي: أن الأب رضي بفطم الطفل، والأم رضيت بذلك. «**وتشاور**» أي: مراجعة فيما بينهما، فلا يكفي التراضي؛ لأنهما قد يتراضيان على ما فيه ضرر للرضيع. فلا بد من التشاور، ولا بد من التراضي.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلا جناح على الوالد، ولا على الوالدة في فصل المولود عن الرضاعة.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ الخطاب ـ هنا ـ: للأزواج، أو الأسياد.

﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ﴾ أي: تطلبوا من يرضعهم من غير أمهاتهم.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فلا حرج، ولا إثم. وهذا فيما إذا امتنع الإرضاع من الأم: إما لقلة اللبن، وإما لمرض أصابها، أو لسبب من الأسباب، أما إذا كانت الأم على استعداد لإرضاعه، فإنه لا يعدل إلى غيرها، بدلاً عنها.

﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يعني: أنكم إذا استرضعتم امرأةً أخرى، فلا بد أن تسلموا ما أعطيتموهن من الأجرة على وجه المعروف، من غير مماطلة، ولا مناكرة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقايةً من عذابه، وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: فاحذروا ذلك؛ فإن الله ـ تعالى ـ بصير بكل ما نعمل، من خير، أو شر، ظاهر، أو باطن. وهذا يستلزم أن نخشى الله ـ تبارك وتعالى ـ، في السر والعلانية، لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ عالم بنا.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن الرضاع الأكمل ما استوعب الحولين الكاملين؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾.

٢ـ أن الأم يجب عليها إرضاع ولدها، في هذين الحولين الكاملين، ما دام محتاجاً إلى الإرضاع.

٣ـ الحكمة في كون الأم هي التي ترضع الولد؛ لأن في لبنها من المنفعة ما ليس في لبن غيرها من النساء. ولأن إرضاعها إياه يدعو إلى قوة الشفقة عليه، ومحبته، ورحمته؛ لأنه يبقى في حضنها، ويلتقم ثديها، ويرضعه، ويحصل لها بذلك متعة. فكان من الحكمة أن الأم هي التي تتولى إرضاع ولدها.

٤ـ أنه كما كانت الأم تعطي ولدها ما تقوم به حياته من اللبن، فعلى

الأب أن يعطي الأم ما تقوم به حياتها. ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: بما جرى به العرف والعادة.

فيجب على الأب أن يعطي الأم نفقتها وكسوتها بالمعروف. وهل هذا ثابت للأم، سواء كانت في عصمة الزوج، أو بعد فراقه؟ أو هو فيما إذا فارقها؟ الصواب: أنه في حال كونها في عصمته، وبعد فراقه. لكن إذا كانت في عصمته، اكتفي بالإنفاق عليها باسم الزوجية، عن الإنفاق عليها عوضاً عن الرضاع. وإذا كانت خارج عصمته، فلها الإنفاق على المولود له؛ من أجل الإرضاع.

٥ - أن العرف مرجع يرجع إليه في الأحكام؛ لقول الله - تعالى -: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. واعلم أن كل ما أتى في الكتاب والسنة مطلقاً، بدون قيد شرعي، فإنه يرجع فيه إلى العرف.

وعلى هذا يقول الناظم:

وكل ما أتى ولم يحدد ... بالشرع كالحرز فبالعرف احدد

- الحرز: يعني: حرز الأموال. وهذا يحتاج الإنسان إليه في باب الحدود، وفي باب الإجارة، وفي باب العارية، وفي باب الوديعة، وغير ذلك. يعني: أن الحرز - حرز الأموال - هو ما تحفظ به الأموال في العادة.

ومن المعلوم أن الشرع لم يرد بتحديده، فلم يقل: حرز الغنم: كذا.

وحرز الإبل: كذا. وحـرز الـذهب: كـذا. وحـرز الفـضة: كـذا. وحـرز اللؤلؤ: كذا. حرز الأواني: كذا. لا، لم يرد، فيرجع في ذلك إلى العـرف. كذلك هنا: الرزق، يعني: الطعام، والشراب، والكسوة، بـالمعروف، لم يحـددها الله ـ عـز وجـل ـ، فيرجـع في ذلـك إلى العـرف. ويختلـف هـذا بـاختلاف الأحـوال العامـة، والخاصـة. مثـل أن يكـون البلـد ضـعيف الاقتـصاديات، مـن الـبلاد الفقـيرة، فيكـون عـلى المولـود لـه، مـن رزق المرضـعة، وكـسوتها، مـا يليـق بـأحوال البلـد. وقـد يكـون هـذا مختلفاً باختلاف الحال الخاصة، بأن يكـون البلـد بلـداً غنيـا، لكـن يكـون هـذا الرجل المعيـن فقيراً، فيعتبر بحاله. ولهـذا قـال ـ عـز وجـل ـ: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ إشارة إلى أن الرزق الذي يجب على المولود له يكـون بحـسب حـاله.

٧ـ كمال ـ رحمة الله تبارك وتعالى ـ؛ حيث لا يكلف نفساً إلا طاقتها. وهذا شامل في أمور العبادة، وأمور المعاملة، وغيرها، أن الإنسان لا يكلف إلا ما يطيق؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٦]، «قد فعلت»[1]. فكل ما لا يطيقه الإنسان فإنه ساقط عنه. فإن كان في حق

(١) تقدم تخريجه.

الله: فالأمر واضح. وإن كان في حق الآدميين: فإذا سقط عنه، فلصاحب الحق أن يأخذ بحقه، على حسب ما تقتضيه الشريعة.

٨ـ تحريم المضارة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾. وقد قال النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[1]. فإن قال قائل: ما الفرق بين الضرر والضرار؟ قلنا: الضرر: ما حصل عن غير قصد.

والضرار: ما حصل بقصد. وكلاهما ممتنع. لكن الضرار أشد؛ لأنه يحصل بقصد، والضرر بغير قصد. لكن لا يجوز الإبقاء على الضرر، بل الضرر منفي شرعاً. أنه قد يحصل من الوالدة، أو من الوالد: مضارة، وهذا خارج عن طبيعة الإنسان، ومقتضى الفطرة، لكنه واقع. فإن من الناس، من يضار ولده، ومن النساء من تضار ولدها. ولكننا نقول: مضارة القريب لقريبه أشد من مضارة البعيد للبعيد؛ لأن مضارة القريب لقريبه يحصل بها مفسدتان: المفسدة الأولى: المضارة، والمفسدة الثانية: قطيعة الرحم.

٩ـ عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالضعفاء، ومن لا يستطيعون أن يأخذوا الحق بأنفسهم؛ حيث إنه ـ تبارك وتعالى ـ، لم يرخص في فطام الرضيع إلا إذا وقع عن تراض بين الوالدين، وتشاور؛ لقوله: ﴿فَإِنْ

---

(١) رواه أحمد (٢٨٦٢، ٢٢٢٧٢)، وابن ماجة كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، رقم (٢٣٤٠، ٢٣٤١)، ومالك (١٤٦١).

أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ وهذا يدل على عناية الله - تعالى - بالضعفاء، والأمثلة على هذا كثيرة.

١٠- جواز استرضاع امرأة أخرى للمولود؛ لقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. ولكن هذا ما لم تطلب الأم إرضاعه، فإن طلبت إرضاعه فلا يحل للمولود له أن يمنعها من ذلك، ويسترضع امرأةً أخرى.

١١- جواز أخذ الأجرة على الإرضاع؛ لقوله: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. وقد نص الله على ذلك نصا صريحاً في قوله - تعالى -: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٦]. والأجرة - هنا - لا شك أنها على الإرضاع الذي مقصوده الأول والأخير: اللبن، فيكون فيه دليل على جواز تأجير الأعيان، إذا كانت تؤخذ شيئاً فشيئاً، كتأجير الشاة لأخذ لبنها، مدة شهر، أو أسبوع، أو نحو ذلك. وذلك لأن الأعيان التي يخلف بعضها بعضاً، بمنزلة المنافع، والإجماع منعقد على جواز الاستئجار لاستيفاء المنافع المباحة.

١٢- أن الاستئجار للإرضاع يكون بالمعروف. بمعنى: ألا يماطل المولود له، بالأجرة، ولا يجحد شيئاً منها، بل يسلمها تامةً؛ لقوله: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

١٣- وجوب تقوى الله، والتحذير من مخالفته.

٤ ـ أن الله ـ تعالى ـ محيط بكل ما نعمل، عالم به. وهذا يترتب عليه فائدة، وهي: الحذر من مخالفته؛ لأننا مهما كتمنا، فالله يعلمه. فيجب علينا أن نحذر من مخالفة أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ وأبهم المتوفي، ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ بين في القرآن الكريم، في عدة آيات: من المتوفي.

فمرةً قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، ومرةً قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، ومرةً قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]: فأضاف التوفي إلى نفسه، وإلى رسله، وإلى ملك الموت. والجمع بين هذا الاختلاف: أن الله متوف للأنفس حين موتها، لأن وفاتها بأمره ـ تبارك وتعالى ـ، وهذا كما يقال: بنى الأمير قصره، وهو قد أمر ببنائه، ولم يباشر بيده. وأضاف الله ـ تعالى ـ الوفاة إلى الرسل؛ لأنهم يأخذون الروح، بعد أن يقبضها ملك الموت، فيكفنونها بالكفن الذي جاءوا به، ويحنطونها بالحنوط الذي جاءوا به. وأضاف الوفاة إلى ملك

الموت؛ لأنـه هـو الـذي يقبض الـروح مـن الجسد. قـبض الله أرواحنـا وأرواحكم على خير ما يكون.

وقولـــه: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي: يـــدعون أزواجـــاً بعـــد مـــوتهم. وأزواجاً، بمعنى: زوجات.

﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ هذا خبر المبتدأ، وهـو قولـه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾. وهـو خـبر بمعنـى الأمـر أي: تـتربص الأزواج بأنفـسهن، مـن غـير أن يخرجن إلى الأسواق، أو إلى بيوت أخرى، بل تنطوي على نفسها.

﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أربعـة أشـهر هلاليـة؛ لأن الأشـهر في لـسان الشرع هي: الهلالية، التي جعلها الله ـ تعالى ـ مواقيت للناس والحج.

﴿وَعَشْرًا﴾ أي: عشر ليال وعـبر بالعـشر عـن الأيـام؛ لأن العـرب تتوسع في هذا فتعبر بالليالي عـن الأيـام، وبالأيـام عـن الليـالي. والمـراد: عشرة أيام بلياليها.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انتهت عدتهن.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: لا جنـاح عليكم في أن تخرج المرأة من البيت، وتتجمل بما شاءت.

لكن بالمعروف، أي: في حدود الشرع، وفي نطاق الشرع.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: ذو علم ببواطن الأمور وظواهرها.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ أنه يجب على المرأة ـ إذا توفي عنها زوجها ـ أن تتربص أربعة أشهر وعشرة أيام، من حين وفاته، لا من حين علمها؛ لأن علمها قد يتأخر عن الوفاة. ولهذا: لو قدر أن إنساناً توفي عن زوجته، ولم تعلم بوفاته، إلا بعد شهرين من وفاته، فإنها تعتد ما بقي من العدة، وهي: شهران وعشرة أيام، في هذا المثال.

٢ـ أن المرأة المتوفى عنها زوجها، يجب عليها العدة، وإن لم يدخل بها؛ لأنها تكون زوجةً من حين العقد الصحيح. فلو تزوج امرأةً، وقبل أن يدخل بها، توفي عنها، وجبت عليها العدة؛ لأنها صارت ـ بالعقد ـ زوجةً.

٣ـ أنه لو كان للإنسان عدة زوجات، فتوفي عنهن، وجب على كل امرأة منهن أن تعتد بأربعة أشهر وعشراً. ويستثنى من هذا: الحامل، فإن المرأة الحامل، تنتهي عدتها بوضع الحمل، طالت المدة أم قصرت. وعلى هذا، فإذا توفي الرجل عن امراة حامل، ووضعت بعد موته بساعات، فإنها تنقضي عدتها.

ولو تأخرت عدتها إلى ستة أشهر، أو عشرة أشهر، فإنها تبقى في العدة، حتى لو انقضت الأربعة أشهر وعشر؛ لعموم قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤]، ولأن

سبيعة بنت الحرث الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بليال، فأذن لها رسول الله ﷺ بأن تتزوج[1].

٤ـ أن المرأة إذا توفي عنها زوجها، فإنها تبقى في البيت، لا تخرج منه، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإنها تخرج في النهار. ومن الحاجات: أن تحتاج إلى طعام، وليس عندها من يأتي لها بالخبز ـ مثلاً ـ، فلها أن تخرج وتشتري الخبز لنفسها، ولأولادها الصغار، الذين لا يمكنهم أن يذهبوا فيشتروا الخبز. ومن ذلك أن يكون لها غنم تحتاج إلى رعايتها في النهار؛ لأنه ليس لها راع. فلا حرج أن تخرج، ولكنها ترجع قبل الليل.

ومن ذلك أن يكون لها عمل: تدريس، أو دراسة، فتحتاج إلى الخروج، فتخرج في النهار، دون الليل. ومن ذلك أن يكون لها بستان، يحتاج إلى عمل، فتخرج إليه في النهار، ولكنها ترجع في الليل. المهم أنها لا تخرج في النهار إلا لحاجة، والحاجات تختلف.

ومن الأحكام المتعلقة بالمرأة المتوفى عنها زوجها:

- أنها لا تتجمل، فلا تلبس ثياباً فيقال: إنها متزينة، متجملة، وتلبس

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ رقم (٤٩٠٩)، ومسلم كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل، رقم (١٤٨٥).

ما عدا ذلك، مما شاءت، من أخضر، أو أصفر، أو بني أو غير ذلك.

- أنها لا تتحلى بالذهب، لا بالخواتم، ولا بالأسورة، ولا بالقلادة، ولا بالأزرة، ولا بغير ذلك.

- أنها لا تتطيب. لا ببخور، ولا بدهن، إلا إذا طهرت من الحيض، فلها أن تتطيب بالبخور.

وأما كلامها مع الناس في الهاتف، أو عند مخاطبة من استأذن عند الباب، أو مخاطبة معارفها، الذين يدخلون إليها، فهذا لا بأس به، تخاطب من شاءت على العادة، بشرط ألا تخضع بالقول، فيطمع الذي في قلبه مرض.

وأما خروجها إلى ساحة البيت، كالحوش، أو إلى سطح البيت، فلا بأس به. وأما اغتسالها كل أسبوع، فلا أصل له، تغتسل كالعادة. وأما تسريح شعرها، فلا بأس به، أي وقت كان.

- تخفيف الشريعة الإسلامية في عدة الوفاة؛ لأنهم كانوا في الجاهلية، إذا مات زوج المرأة، بقيت لمدة سنة، في حفش في بيتها - خيمة صغيرة ضيقة - ولا تمس ماءً، ولا تقرب طيباً، ويكون لها من الروائح المنتنة من دم الحيض وغيره، ما لا يطاق. فإذا خرجت بعد السنة، أخذت بعرةً، ورمت بها، إشارةً إلى أن كل ما مضى أهون عليها من رمي هذه البعرة. فجاء الدين الإسلامي - ولله الحمد - بهذه العدة

اليسيرة السهلة.

٦ـ العناية بحقوق الزوج، حتى إن المرأة منعت من أن تتزوج بعده إلا بعد مضي أربعة أشهر: التي هي ثلث الحول، وعشراً: التي هي ثلث الشهر.

٧ـ أن المرأة المتوفى عنها زوجها إذا أتمت العدة، عادت إلى ما كانت عليه قبل وفاة زوجها، من التجمل، والخروج، والتحلي، وغير ذلك، لكن بالمعروف.

٨ـ أن المرأة المتوفى عنها زوجها إذا أتمت العدة، لا تحتاج إلى أن تتصدق بشيء ـ كما يظنه بعض العوام، يقولون: إنها إذا تمت عدتها، فإنها تخرج، وأول إنسان يمر بها، تهدي عليه هديةً، أو تتصدق عليه ـ فإن هذا بدعة لا أصل لها. ولكن إذا انقضت العدة، فقد انقضى الحجر عليها، بمعنى: أنه أبيح لها ما كانت ممنوعةً منه في وقت العدة، ولا تحتاج إلى خروج.

٩ـ أن علينا مسئوليةً، بالنسبة للنساء؛ لأنه قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ﴾، ولم يقل: «**فلا جناح عليهن**»، مع أن السياق في خطاب النساء، حيث قال: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. وهذا إشارة إلى أن على الرجال رعاية النساء، ويصدق هذا قول النبي ﷺ: «الرجل

راعٍ في أهله، ومسئول عن رعيته»(١).

١٠ ـ ألا يخرج الإنسان فيما يفعل عن المعروف شرعاً وعرفاً؛ لأنه إذا خرج عن المعروف شرعاً فقد وقع في المنكر شرعاً، وإذا خرج عن المعروف عادةً وعرفاً، فقد خرج عما تقتضيه المروءة، وهي: موافقة الناس في أحوالهم، وعاداتهم. ولهذا نهي عن ثوب الشهرة، الذي يشتهر به الإنسان، ويشار إليه بالأصابع، ويقال: فلان لباسه كذا وكذا.

١١ ـ عموم علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكل ما نعمل، وأن علمه ـ جل وعلا ـ شامل لما ظهر وبان، ولما خفي عن الأعيان؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. ويترتب على هذا حسن سلوك المرء في عبادة الله، بحيث لا يفعل فعلاً لا يرضاه الله ـ عز وجل ـ، ولا يترك أمراً أوجبه الله عليه؛ لأنه لو فعل ذلك، لم يغب عن علم الله به، وخبرته، فليحذر المخالفة.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ

---

(١) رواه البخاري كتاب النكاح، باب قوله: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ رقم (٥١٨٨)، ومسلم كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل...، رقم (١٨٢٩).

يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

في هذه الآية الكريمة بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ متى تجوز خطبة النساء المعتدات، ومتى لا تجوز، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: النساء المعتدات من الوفاة. والتعريض أن يقول: إني أرغب في الزواج بمثلك، أو يقول: إذا انقضت العدة فأعلميني أو يقول: إني أبحث عن امرأة صفتها كذا وكذا، أو ما أشبه ذلك. وضده التصريح، وهو أن يقول: أخطبك إلى نفسي.

فالتعريض أباحه الله ـ عز وجل ـ في خطبة المعتدة من الوفاة وإذا أكن ذلك في نفسه ولم يعرض فلا بأس أيضاً، بمعنى أنه أخفى في نفسه أنه يريدها، ولكنه لم يعرض لها بالخطبة.

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: أنكم ستذكرون هؤلاء المعتدات فيما بينكم، أو ستذكرونهن في نفوسكم. وهذا يقع كثيراً. كثيراً ما يقال: فلانة خلفها زوجها، وهي امرأة فيها كذا وكذا من الصفات الحميدة، التي ترغب من أجلها.

ولكنه قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: لا تواعدوهن بالنكاح سرا، فيما بينكم وبينهن. وذلك بمشافهة المرأة بالخطبة.

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ والقول المعروف هو: التعريض.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: لا تعقدوا النكاح.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي: حتى تتم العدة.

﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ما في قلوبكم.

﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ أي: احذروا أن تضمروا في نفوسكم ما لا يرضاه الله ـ عز وجل ـ.

﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: ذو مغفرة ورحمة.

والمغفرة تتعلق بالذنوب والمعاصي، والرحمة تتعلق بالتوفيق للاستقامة.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ ـ جواز التعريض بخطبة المتوفى عنها زوجها، وينبني على ذلك تحريم التصريح. والحكمة من هذا، حماية حق المتوفى، حتى لا يعتدي أحد على حقه في العدة؛ لأنه إذا جاز التصريح، فربما يقدم على العقد.

وهل يلحق بالمعتدة لوفاة المعتدة من طلاق أو فسخ؟

الجواب على هذا أن نقول: أما المطلقة الرجعية ـ التي يملك زوجها أن يراجعها بلا عقد ـ فهذه لا يجوز التعريض ولا التصريح في خطبتها؛ لأنها في حكم الزوجة. فكما أن الإنسان لا يجوز أن يأتي لزوجة إنسان،

ويقول: أخطبك إلى نفسي، فكذلك المعتدة الرجعية. وأما إن كانت بائناً ـ بمعنى: أنها لا تحل لزوجها، إلا بعقد جديد ـ فهذه يجوز التعريض في خطبتها، ولا يجوز التصريح. هذا إن كان الخاطب غير الزوج، أما إن كان الخاطب الزوج، فيجوز أن يصرح ويعرض، وأن يعقد.

مثال ذلك: امرأة طلقها زوجها على عوض، بأن قال: إن أعطيتني ألفاً، فأنت طالق، فأعطته ألفاً، فإنها تطلق، ولا يملك الرجعة عليها إلا بعقد. فإذا أحب أن يرجع إليها، فله أن يخطبها تعريضاً، أو صريحاً، وأن يعقد النكاح عليها؛ لأنها زوجته. وأما غيره، فلا يحل له أن يخطبها تصريحاً، ولكن له أن يخطبها تعريضاً. وأما البائن بالطلاق الثلاث، فلا يجوز لزوجها أن يخطبها، لا تصريحاً، ولا تعريضاً؛ لأنها لا تحل له إلا بعد زوج آخر، وأما غيره فيجوز أن يخطبها تعريضاً، لا تصريحاً.

فتبين بذلك الآن: أن المطلقة، إذا كانت رجعيةً، فإنه لا يحل لغير الزوج أن يخطبها، لا تصريحاً، ولا تعريضاً. وإن كانت بائناً ـ بغير الثلاث ـ جاز لزوجها أن يخطبها تصريحاً، وتعريضاً، وجاز لغير زوجها أن يخطبها تعريضاً، لا تصريحاً. وإن كانت بائنةً بالثلاث، جاز لغير الزوج أن يخطبها تعريضاً لا تصريحاً، ولا يجوز لزوجها أن يخطبها تعريضاً ولا تصريحاً؛ لأنها لا تحل إلا بعد زوج.

٢ـ تيسير الأمور الشرعية؛ حيث رخص ـ تبارك وتعالى ـ في خطبة

المرأة تعريضاً، إذا كانت بائنةً من زوجها؛ لأن الإنسان قد يحتاج إلى ذلك، قد تكون امرأة ذات منصب، وجمال، وعلم، فيخشى أن يسبقه أحد إليها، فيعرض لها، حتى تكون على علم من أن هذا الرجل يريدها، لكن لا يصرح.

٣- أن ما أكنه الإنسان في نفسه، فإنه لا يؤاخذ عليه؛ لقوله: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم»[1]. فلله الحمد، والمنة، والفضل، لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه.

٤- جواز خطبة المرأة المعتدة سرا، إذا قال قولاً معروفاً، أي: إذا خطبها على وجه مباح، وإن لم يعلم الناس بذلك. وهل يجوز عقد النكاح - على من يجوز عقد النكاح عليها - سراً؟ الجواب: هذا على قسمين:

الأول: أن يتواصى الزوج، والمرأة، ووليها بكتمان النكاح، فيعقد النكاح بالشهود، وبتمام الشروط، ويوصي بعضهم بعضاً ألا يخبروا به. فقد ذهب بعض العلماء إلى بطلان النكاح، إذا تواصوا بكتمانه، والمشهور من مذهب الإمام أحمد أنه لا يبطل بالتواصي بكتمانه.

---

(١) رواه البخاري كتاب العتق، باب الخطأ في العتاقة والطلاق، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس...، رقم (١٢٧).

القسم الثاني: أن يكتموه بلا تواص فلا شك أن هذا خلاف المشروع؛ إذ المشروع إعلان النكاح؛ لأن النبي ﷺ **أمر بإعلان النكاح**[1]؛ لما في ذلك من تشجيع الناس على النكاح، وإظهار هذه الخصلة الفاضلة. ولأجل أن يتبين إن كان هناك رضاع محرم بين الزوجين، في وقت مبكر؛ لأنه إذا لم يعلم به، فربما يكون بين الزوجين رضاع محرم، ولا يطلع عليه إلا بعد سنة أو سنتين، وربما تكون المرأة قد ولدت من الزوج فحينئذ تصبح المسألة مشكلةً.

٥ـ أنه يحرم العقد على المعتدة حتى تتم العدة ويستثنى من ذلك الزوج إذا أبان زوجته ـ بغير الثلاث ـ فإنه لا باس أن يعقد النكاح عليها. مثال ذلك: رجل كان بينه وبين زوجته مشاكل، فافتدت نفسها منه، وخالعته على شيء من المال، وفي أثناء العدة، طلب منها أن يتزوجها، فوافقت، فيجوز العقد حينئذ؛ لأن العدة للزوج، فيجوز العقد له؛ لأنها زوجته.

٦ـ الإشارة إلى أن الطلاق ينبغي أن يكتب؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ﴾.. وذلك لأن في كتابته ضبطاً للعدة، ويحقق ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ فإن إحصاءها ضبطها. **ويترتب على هذه**

---

(١) ورد ذلك صريحاً في الحديث الذي رواه الترمذي كتاب النكاح، باب ما جاء في إعلان النكاح، رقم (١٠٨٩)، وابن ماجة كتاب النكاح، باب إعلان النكاح، رقم (١٨٩٥).

الفائدة: بيان عناية الشرع بأحكام النكاح لما يترتب عليها من الأمور العظيمة، وحتى لا تختلط الأنساب وتشتبه، وهذا من حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ.

٧ـ عموم علم الله ـ تبارك وتعالى ـ بالظاهر والخفي، حتى ما يكنه الإنسان في نفسه؛ لقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾. وقد بين الله ـ تعالى هذا في عدة آيات، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٦، ١٧].

فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ من جميع الخواطر. لكن من نعمة الله ورحمته، أنه تجاوز عن هذه الأمة ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل، أو تتكلم.

٨ـ تحذير الله ـ تبارك وتعالى ـ إيانا أن نضمر في أنفسنا ما لا يرضاه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾. فإن قال قائل: إن الشيطان قد يوسوس للإنسان، بما لا يرضي الله ـ عز وجل ـ. فما هي الحيلة؟. فالجواب: أن الحيلة إزالة ما يكون سبباً في هذا، ولهذا لما خرج النبي ﷺ وهو معتكف ـ من أجل أن يصحب زوجته صفية ـ رضي الله عنها ـ، مر به رجلان من الأنصار، فأسرعا حياءً من النبي ﷺ، أن يرياه ومعه أهله في الليل ـ كما يخجل سائر الناس في مثل هذه الحال ـ فقال لهما النبي ﷺ:

«على رسلكما» ـ يعني: تمهلا ولا تسرعا ـ إنها صفية ـ فقالا: سبحان الله!! يعني: تنزيهاً لله ـ عز وجل ـ أن يظن برسوله ما لا يليق ـ ثم قال النبي ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خفت أن يلقي في قلوبكما شراً ـ أو قال: شيئاً ـ»[1]. فهذا مما يزيل الوساوس. كذلك ـ أيضاً ـ مما يزيل الوساوس:

ما أرشد إليه النبي ﷺ أصحابه، حين ذكروا له أنهم يجدون في نفوسهم ما يحبون أن يكونوا حممةً ـ أي: فحمةً محترقةً ـ ولا يتكلمون به. فأخبرهم النبي ﷺ أن ذلك لا يضر، وأمرهم أن يستعيذوا بالله ـ تعالى ـ من الشيطان، وأن ينتهوا[2]. وهذا الأمر الواقع من الصحابة، واقع في عصرنا اليوم، فما أكثر الذين يلتزمون، ثم يأتيهم الشيطان بوساوس عظيمة ـ لا يستطيع الإنسان أن يتكلم بها ـ ليفسد عليهم التزامهم. وهذه الوساوس كانت لا تأتيهم حين كانوا على غير استقامة، لكن لما استقاموا أراد الشيطان أن يفسد أمرهم، فجعل يلقي في نفوسهم هذه الوساوس، ولكن نبشرهم بأن ذلك لا يضرهم، ولله الحمد.

---

(١) رواه البخاري كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، رقم (٢٠٣٥)، ومسلم كتاب السلام، باب ما يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له...، رقم (٢١٧٥).

(٢) رواه أبو داود كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، رقم (٥١١٢)، وأحمد (٣١٥١).

وقد قيل لابن عباس ـ أو ابن مسعود ـ إن اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في صلاتنا ـ يعني: ما نفكر في شيء ـ فقال: صدقوا، وما يفعل الشيطان بقلب خراب؟! يعني: أن الشيطان لا يأتي القلب الخرب، ليخربه ـ فهو خارب ـ، لكن يأتي القلب العامر، ليخربه. فليبشر هؤلاء الذين وفقهم الله للاستقامة، أنهم على خير، وليدافعوا ما يقع في نفوسهم من هذه الوساوس، بالأمرين الذين ذكرهما النبي ﷺ، وهما: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والكف عن هذه الوساوس، والإعراض عنها، فإنها لا تضرهم شيئاً ـ بإذن الله ـ.

٩ ـ أنه يجب على الإنسان أنْ يعرف أسماء الله وصفاته، حتى يتعبد لله بما تقتضيه هذه الأسماء والصفات؛ لقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فأمرنا أن نعلم أسماءه، وصفاته؛ لنتعبد لله ـ تعالى ـ بها. فإذا علمنا أنه غفور تعرضنا لمغفرته، وفعلنا الأسباب التي تكون بها المغفرة من الاستغفار، وفعل الأعمال الصالحة، التي تغفر بها الذنوب، وما أشبهها. وإذا علمنا أنه حليم ـ سبحانه وتعالى ـ: فإننا نؤمل منه الخير، ولا نيأس، ونستعتب منه ـ تبارك وتعالى ـ: نسأله أن يعذرنا، وأن يعفو عنا. فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لسعة حلمه، لا يعاقب الناس عقوبةً عاجلةً، بل يمهلهم لعلهم يرجعون إليه، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ [فاطر:٤٥].

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ﴾ يعني: ليس عليكم جناح إذا طلقتم النساء قبل المسيس ـ يعني: قبل الجماع ـ، وقبل أن تفرضوا لهن فريضةً. مثل أن يتزوج امرأةً، ويعقد عليها دون أن يسمي لها مهراً، ثم يبدو له أن يطلقها، قبل أن يجامعها، فليس عليه شيء. يعني: ليس عليه إثم في أنه طلق، قبل الدخول، وقبل أن يقدر الصداق. ولكن في هذه الحال، يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يعني: أعطوهن متاعاً: نقوداً، أو ثياباً، أو سيارات، أو بيوتاً، أو غير ذلك مما يحصل به المتعة.

﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ أي: على الغني قدره، وعلى الفقير قدره، بحسب حال الزوج، فالغني تكون متعته كثيرةً، والفقير تكون متعته يسيرةً، على حسب حاله. والمعتبر حال الزوج.

قال: ﴿مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ﴾ يعني: حال كون هذا التمتيع متاعاً بالمعروف لا وكس ولا شطط.

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ حقا أي: واجباً. على المحسنين أي: على ذوي الإحسان.

ومعنى الآية: إذا طلق الإنسان الزوجة التي عقد عليها، ولم يسم لها صداقاً، فلا حرج عليه. ولكن يجب عليه أن يمتعها، بحسب حاله: إن كان غنيا، فمتعة تليق به، وإن كان فقيراً، فمتعة تليق به.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١- جواز تطليق المرأة قبل الدخول عليها، وقبل تسمية الصداق لها. فإن طلقها بعد أن خلا بها، لكنه لم يجامعها، فإنه يثبت لها المهر كاملاً؛ لأن الصحابة - رضي الله عنهم - جعلوا الخلوة بالمرأة بمنزلة الجماع؛ لأن هذا أمر يعسر الاطلاع عليه، فعلق الحكم بمظنته؛ لأنه ليست الخلوة كالجماع.

٢- أن المهر فريضة لا بد أن يفرضها الزوج، ولكنه إذا تزوجها بدون تقدير مهر فلا بأس. كما تدل عليه الآية.

٣- أنه إذا طلق قبل الدخول، وقبل فرض المهر وجبت عليه المتعة، أي: يجب أن يمتعها؛ لقوله - تعالى -: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٤- أن هذه المتعة تكون بحسب حال الزوج: إن كان غنيا، فكثيرة. وإن كان فقيراً، فقليلة. فإن قال قائل: لماذا لا تكون بحسب حال الزوجة؟ فالجواب: أنهم لما رضوا بهذا الزوج، رضوا به فقيراً، فلا يلزمه أكثر مما يلزم الفقراء، قال - تعالى -: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق: ٧].

٥ـ العناية التامة بعقد النكاح، وأنه ليس كالعقود الأخرى، فله شروط عند الدخول فيه، وله شروط عند الخروج منه، وله آثار عظيمة بالغة. ولهذا كانت العناية به في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ أكثر من سائر العقود.

٦ـ حكمة الشريعة الإسلامية، في إيجاب الفرائض على كل أحد بحسبه. وهذا مطرد حتى في العبادات. فالمريض يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب.

٧ـ الرجوع إلى العرف؛ لقوله: ﴿مَتَـٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. ويكون في كل موضع بحسبه. فالمعروف ـ هنا ـ ألا يكون وكس، ولا شطط، وألا يحصل مماطلة من الزوج، بهذه المتعة التي أوجبها الله عليه.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

هذه هي الحال الثانية من الطلاق قبل الدخول. فالحال الأولى في الآية السابقة: أن يطلقها قبل أن يمسها، وقبل أن يفرض لها صداقاً، فتجب المتعة. والحال الثانية: أن يطلقها قبل أن يمسها، وقد فرض لها

فريضةً، فيجب عليه نصف ما فرض.

مثال ذلك: رجل تزوج امرأةً بصداق قدره ألف ريال. ثم طلقها قبل أن يدخل عليها. فالطلاق واقع، ولكن عليه نصف المهر؛ لأنه فرضه، وسماه فيجب عليه النصف.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: الزوجات، فإذا عفون عما يجب لهن من الصداق ـ وهن من ذوات الرشد ـ فلا بأس، يسقط عن الزوج النصف.

﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ يعني: الزوج، فإذا عفا الزوج عن نصفه، وجب للزوجة كل المهر الذي أعطاها. فالذي بيده عقدة النكاح هو: الزوج.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يعني: أن عفوكم أقرب للتقوى. والخطاب ـ هنا ـ: للزوجات، وللأزواج.

﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، لما فيه من الإحسان، وبراءة الذمة.

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا الفضل والإحسان في التعامل بينكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ ـ أنه لا حرج على الإنسان أن يطلق زوجته قبل الدخول والخلوة.

٢- أنه إذا طلقها وقد فرض لها فريضةً - أي: سمى لها صداقاً -، وطلقها قبل الدخول، فإن لها نصف المهر، ونصفه للزوج؛ لأن الفرقة جاءت من قبل الزوج، فيجب عليه النصف. وسبق أن ذكرنا أن الخلوة بها كالجماع، كما قضى به الخلفاء الراشدون - رضي الله عنهم -.

٣- أن المهر حق للزوجة، فليس حقا لأبيها، ولا لأخيها، ولا لعمها، ولا لأحد من أوليائها، المهر حق لها. ويدل لهذا - أيضاً - قوله - تعالى -: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ٤]. وما يحصل من بعض الناس من التحكم في مهر المرأة، بحيث يشرط على الزوج أن يكون له منه كذا وكذا، فهو باطل، وليس له حق في هذا الاشتراط؛ لأن المهر للزوجة. فهو لها بما استحل الرجل من فرجها.

٤- أن للزوجة أن تعفو عن نصيبها من المهر؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾. لكن هذا الإطلاق مقيد بما تدل عليه الأدلة الشرعية، من اشتراط أن تكون الزوجة ممن يصح تبرعه، بحيث تكون رشيدةً - أي: بالغةً عاقلةً - تحسن التصرف في مالها.

٥- أنه إذا عفا الزوج عن النصف الذي آل إليه بالطلاق، وجعل المهر كله للمرأة، فلا بأس؛ لقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ﴾.

٦- أن الذي بيده عقدة النكاح هو: الزوج؛ لأنه في مقابل قوله -

تعالى ـ: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ وأما من ذهب إلى أن المراد به: ولي المرأة، فقوله ضعيف. أولاً: لأنه إذا كان ولي المرأة، صار العفو ـ هنا ـ من جانب واحد، وهو: جانب الزوجة، ووليها، وإذا كان المراد به الزوج، صار العفو من الجانبين.

ثانياً: أن ولي المرأة ليس له الحق أن يعفو عن شيء من مهرها.

فالصواب أن المراد بقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ الزوج.

٧- أنه لا يملك أحد أن يطلق زوجة المرء منه، حتى ولو كان الأب. فالأب لا يملك أن يطلق زوجة ابنه، اللهم إلا إذا كان الابن ناقص عقل ورأى أبوه أن من مصلحته أن يطلق زوجته، فهنا نقول: إنه يملك أن يطلق زوجة ابنه ـ غير العاقل ـ لمصلحة الابن؛ لأن الأب في هذه الحال قد يرى أن هذه المرأة قد أساءت إلى زوجها، وابتزت ماله، ولعبت به، فيرى من المصلحة أن يطلقها. ففي هذه الحال لا بأس أن يطلقها أبوه. فإن كان الأب غير موجود، فإن وليه يرفع الأمر إلى المحكمة، وتتولى فسخ النكاح.

٨- أن النكاح من جملة العقود؛ لقوله: ﴿عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾. وإذا كان من جملة العقود، فإنه يجب الوفاء به، وبالشروط المباحة التي اشترطت فيه. ولهذا قال النبي ﷺ: «إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به

الفروج»[1]. فيكون الوفاء بشروط النكاح داخلاً في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ المائدة:١].

٩-أن العفو بالتنازل عن الحق أو بعضه أقرب للتقوى. ولكن هل العفو أقرب للتقوى، وأفضل في كل قضية؟ الجواب: لا، العفو أفضل وأقرب للتقوى، إذا كان في ذلك مصلحة، أما إذا لم يكن هناك مصلحة، فالأخذ بالحق أولى.

مثال ذلك: رجل وجبت عليه دية، وجاء أولياء القتيل يسألون: هل الأفضل أن نعفو عنه، أو أن نأخذ بالحق؟ الجواب: ننظر، إذا كان هذا الرجل الذي وجبت عليه الدية من أهل الصلاح، وأن القتل الذي حصل خطأً لا يقع من مثله؛ لأنه رجل متزن، وعاقل. فهنا قد نقول: إن العفو أفضل. أما إذا كان الذي وقع منه القتل خطأً معروفاً بالتهور، والشر، والفساد، وعدم المبالاة، فالعفو ـ هنا ـ لا ينبغي، بل الأخذ بالحق أولى.

ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[الشورى: ٤٠]، فقيد العفو بالإصلاح، فإذا كان العفو إفساداً، فإنه لا ينبغي.

١٠-حث المتصاحبين، الأصدقاء، على ألا ينسوا الفضل بينهم،

---

(١) رواه البخاري كتاب الشروط، باب في المهر عند عقدة النكاح، رقم (٢٧٢١)، ومسلم كتاب النكاح، باب الوفاء بالشروط في النكاح، رقم (١٤١٨).

وأن يتسامحوا في الأمور، وأن يتبادلوا الهدايا بينهم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾. ومن ذلك الزوج إذا عقد على امرأة، وطلقها قبل الدخول، فلا يقل: هذه امرأة طلقتها، ولا علاقة لي بها. لا ينسى الفضل بينه وبينها، بل يذكر أن هؤلاء القوم أجابوه، وقدروه، وزوجوه، فلا ينس مثل هذا الفضل.

١١. عموم علم الله ـ تعالى ـ، لكل ما نعمل، لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ويترتب على هذا، أن من آمن بذلك، فسوف يراقب الله ـ تعالى ـ، بحيث لا يفقده الله حيث أمره، ولا يجده حيث نهاه.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

﴿حَافِظُوا﴾ من المحافظة، وهي: العناية بالشيء.

﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ عموماً.

﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ خصوصاً. والصلاة الوسطى، هي: صلاة العصر. كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ[1].

---

(١) رواه البخاري كتاب الجهاد، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة رقم (٢٩٣١، ٦٠٣٣)، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب التغليظ في تفويت صلاة العصر، رقم (٦٢٧، ٦٢٨، ٦٣٠).

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ أي: في الصلاة.

﴿قَـٰنِتِينَ﴾ أي: خاشعين، صامتين، لا تتكلمون إلا بما كان من أقوال الصلاة.

في هذه الآية سؤال، وهو: أن موضوع الآية خارج عن موضوع الآيات التي سيقت قبلها، والتي بعدها؟. وهذا مما يدل على أن ترتيب الآيات توقيفي، ليس للعقل فيه مجال. وكان النبي ﷺ إذا نزلت الآية، قال: [1].

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ الأمر بالمحافظة على الصلوات عموماً. وقد أثنى الله على الذين يحافظون على صلواتهم، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١ـ٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ١٩ـ ٣٤].

٢ـ عظم شأن الصلاة؛ حيث أمر الله ـ تعالى ـ بالمحافظة عليها،

---

(١) رواه الترمذي (كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة رقم (٣٠٨٦)، وأبو داود كتاب الصلاة، باب من جهر بها، رقم (٧٨٦)، وأحمد (٤٠١، ٥٠١، ١٧٤٥٩).

وأثنى على المحافظين عليها. ولا أحد يشك في أهمية الصلوات، فإن الصلوات الخمس، فرضها الله ـ تعالى ـ على نبيه ﷺ بدون واسطة، بل كلمه بها ـ تبارك وتعالى ـ كفاحاً، وفرضها أول ما فرضها خمسين صلاةً. فقبل النبي ﷺ ذلك، ورضي به. ثم إن الله ـ تعالى ـ خفف عن العباد، فجعلها خمساً لكن بخمسين[1]. أي: إننا ـ ولله الحمد ـ إذا صلينا خمس صلوات، فكأننا صلينا خمسين صلاةً. والنصوص من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، كثيرة في بيان فضلها وأهميتها.

٣ـ فضيلة صلاة العصر؛ حيث خصها بالذكر بعد التعميم. واختلف العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ إذا ذكر الله ـ تعالى ـ شيئاً خاصا بعد العام، وهو مما يدخل في أفراد العام، هل يكون ذكر مرتين؟ أو مرةً واحدةً ويكون اللفظ العام الذي قبله قد استثني منه ما نص عليه بعده؟ على قولين: **القول الأول**: إنها داخلة في العموم، فتكون ذكرت مرتين: مرةً عن طريق العموم، ومرةً عن طريق الخصوص. **والقول الثاني**: إنها مستثناة من العموم، وذكرت وحدها. وهذا يدل على ميزتها وفضلها. ولكن على كل حال، سواء قلنا بهذا، أو بهذا، فإن تخصيصها بالذكر، يدل على ميزتها وفضلها. ولا شك أن صلاة العصر أفضل

---

(١) رواه البخاري كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)، ومسلم كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات، رقم (١٦٣).

الصلوات. فقد أخبر الرسول ﷺ أن: «من ترك صلاة العصر، فكأنما وتر أهله وماله»[١]. يعني: كأنما فقد أهله وماله. والمحافظة على العصر مع الفجر، من أسباب رؤية الله - تبارك وتعالى -، ودخول الجنة، فقد قال النبي ﷺ: «من صلى البردين، دخل الجنة»[٢]. والبردان هما: الفجر - لأنه يقع في غاية برد الليل -، والعصر - لأنه يقع في برد النهار -. فمن صلاهما، دخل الجنة. وقال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته. فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، فافعلوا»[٣]. والصلاة التي قبل طلوع الشمس، هي: الفجر، والتي قبل غروبها، هي: العصر. وقال النبي ﷺ يوم الخندق، وقد صلى العصر بعد غروب الشمس، قال: «شغلونا عن الصلاة الوسطى: صلاة العصر. ودعا عليهم بذلك»

٤- وجوب القيام في الصلاة؛ لقوله - تعالى -: ﴿ وَقُومُواْ ﴾. وهو ركن من أركان الصلاة، لا تصح الصلاة إلا به. لكنه ركن في صلاة

---

(١) رواه البخاري كتاب مواقيت الصلاة، باب إثم من فاتته العصر، رقم (٥٥٢)، ومسلم كتاب المساجد، باب التغليظ في تفويت صلاة العصر، رقم (٦٢٦).

(٢) رواه البخاري كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٥)، ومسلم كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٥).

(٣) رواه البخاري كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).

(٤) تقدم تخريجه.

الفريضة فقط. أما النافلة، فللإنسان أن يصلي قائماً، وقاعداً، لكنه إذا صلى قاعداً، بلا عذر، فله نصف أجر صلاة القائم. أما الفريضة، فإنه إذا صلى قاعداً، مع قدرته على القيام، لم تصح صلاته، إلا إذا صلى وراء إمام يصلي قاعداً، فإنه يصلي قاعداً، ولو كان قادراً على القيام. دليل ذلك في وجوب الصلاة قائماً في الفريضة عند القدرة، قول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»[1]. ودليل كون القادر على القيام يصلي قاعداً، خلف الإمام الذي يصلي قاعداً، أن النبي ﷺ صلى بأصحابه ذات يوم قاعداً، فصلوا خلفه قياماً، فأشار إليهم أن اجلسوا، ثم بين لهم بعد ذلك أن الإمام إذا صلى قاعداً، فإنهم يصلون قعوداً[2].

٥ـ وجوب الإخلاص لله ـ عز وجل ـ في الصلاة لقوله: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾. ولا شك أن الإخلاص من أعظم ما يشترط في العبادة؛ لأن من لم يخلص في عبادته، لم تقبل منه؛ لقوله ـ تبارك وتعالى ـ في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»[3].

---

(١) رواه البخاري كتاب التقصير، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب، رقم (١١١٧).

(٢) رواه البخاري كتاب الأذان، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به، رقم (٦٨٩) (٦٥٦)، ومسلم كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، رقم (٤١٢).

(٣) تقدم تخريجه.

٦ـ أنه ينبغي للمصلي أن يشعر وهو قائم أنه قائم بين يدي الله؛ لقوله: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾. كأنما قمت تعظيماً لله ـ عز وجل ـ، ولا شك في هذا. ولهذا أخبر النبي ﷺ: أن الرجل إذا قام، فإنما يقوم بين يدي الله ـ عز وجل ـ يناجي ربه[1]. وهذا يدل على كمال قرب المصلي من الرب ـ عز وجل ـ. وأقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد. كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ[2].

٧ـ وجوب القنوت، وهو: السكوت عن كلام الناس، في حال الصلاة. لقوله: ﴿قَـٰنِتِينَ﴾. فإنَّ «قانتين»: حال من «الواو» في قوله: ﴿وَقُومُواْ﴾، أي: حال كونكم قانتين. ولهذا لما نزلت هذه الآية الكريمة أمر الصحابة بالسكوت، ونهوا عن الكلام. أمروا بالسكوت، يعني: عن كلام الناس. ونهوا عن الكلام[3]، أي: كلام الناس.

فإن تكلم ـ وهو يصلي ـ ناسياً، أو جاهلاً، فصلاته صحيحة، ولا حرج عليه. والدليل على هذا نوعان: عام، وخاص.

أما العام، فقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ

---

(١) رواه البخاري كتاب الصلاة، باب لا يبصق عن يمينه في الصلاة، رقم (٤١٢)، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد...، رقم (٥٥١).

(٢) رواه مسلم كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

(٣) رواه البخاري كتاب العمل في الصلاة، باب ما ينهى من الكلام في الصلاة، رقم (١٢٠٠)، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٩).

أخطأنا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فقال الله ـ تعالى ـ: «قد فعلت»[1].

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. وهذا عام في كل محرم يفعله الإنسان عن جهل، أو نسيان، فإنه لا يؤثر: لا يترتب عليه إثم، ولا بطلان، ولا فدية، ولا كفارة.

وأما الدليل الخاص في مسألة الكلام في الصلاة، فهو ما حدث مع معاوية بن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه ـ، حيث قال: بينا أنا أصلي، مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثكل أمياه. ما شأنكم تنظرون إلي؟!. فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت. فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله، ولا بعده، أحسن تعليماً منه ـ فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني. قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن»[2]. ولم يأمره النبي ﷺ بالإعادة. ولو كان كلامه ـ وهو جاهل ـ مبطلاً للصلاة، لأمره بالإعادة، كما أمر الذي جعل يصلي، ولا يطمئن، وهو جاهل: أمره أن يعيد الصلاة. فقد دخل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

رجل والنبي ﷺ في أصحابه في المسجد، فصلى صلاةً لا يطمئن فيها، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فرد عليه السلام، ثم قال: ارجع فصل، فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى، كصلاته الأولى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال له: ارجع فصل فإنك لم تصل، في الثالثة قال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أحسن غير هذا، فعلمني. فعلمه النبي ﷺ، وقال له: «إذا قمت للصلاة فأسبغ الوضوء. ثم استقبل القبلة، فكبر. ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن. ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً. ثم افعل ذلك في صلاتك كلها» .وفي لفظ في غير الصحيحين بعد الركوع، قال: «ثم ارفع حتى تطمئن قائماً»[1]. فأمره أن يعيد الصلاة، وهو لا يحسن - لا يدري - لكن معاوية بن الحكم، لم يأمره النبي ﷺ أن يعيد الصلاة؛ لأنه لم يخل بمأمور، ولكنه فعل محظوراً. وكل من فعل محظوراً - ناسياً أو جاهلاً - فليس عليه إثم، ولا يترتب عليه حكم.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ

---

(١) رواه البخاري كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم (كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يعني: كنتم في خوف، من عدو، أو سبع، أو حريق، أو غرق.

﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: فصلوا الصلاة: رجالاً، أي: ساعين على أرجلكم. أو ركباناً، أي: راكبين على رواحلكم.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وزال الخوف.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اذكروا الله، ومن ذكره الصلاة على الوجه الذي علمنا إياه.

﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ تيسير الشريعة الإسلامية، وأنها في هذه العبادة العظيمة، إذا خيف من بعض واجباتها أن يقع فيه حرج، فإنه يعفى عنه.

٢ـ جواز الصلاة حال الهروب من العدو، ولو كان الإنسان راجلاً، مع أنه في هذه الحال، سيحصل له حركة كثيرة.

٣ـ سقوط استقبال القبلة في حال الخوف، فيتجه حيث كانت منجاته. سواء كانت القبلة أمامه، أو عن يمينه، أو عن يساره، أو خلف ظهره.

٤ـ أن أهم الشروط محافظةً عليه، هو: الوقت. ولهذا أمر الله ـ تعالى ـ، أن يصلي الإنسان في الوقت على أي حال كان، وإلا لكنا نقول: إن خفت فأجل الصلاة إلى الأمن. فلما أمر الله ـ تعالى ـ أن نصلي الصلاة على حسب الحال، في وقتها، علم أن الوقت أهم شروط الصلاة محافظةً عليه.

٥ـ جواز الصلاة على الراحلة عند الخوف؛ لقوله: ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾. فأما إذا لم يكن خوف، فإن الفريضة لا تصح على الراحلة؛ لأنه لا يتمكن من القيام، ولا من السجود، ولا من الركوع، إلا بالإيماء. لكن يستثنى من ذلك الخائف، كما هنا. ويستثنى ـ أيضاً ـ النفل في السفر، فإنه يجوز للإنسان أن يصلي على راحلته صلاة النافلة في السفر، ويتجه حيث كان وجهه. فإن قال قائل: هل يجوز أن يصلي في السيارة في السفر، صلاة النافلة؟

فالجواب: نعم يجوز، لكننا لا نفضل أن يصلي قائد السيارة؛ لأنه إذا صلى ـ وهو يقود السيارة ـ فإما أن ينشغل قلبه بالقيادة، وحينئذ يقع في النهي، فقد قال النبي ﷺ: «**لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان**»[1]. وإما يشتغل بالصلاة عن القيادة، فحينئذ يكون على خطر. فلا نحبذ لقائد السيارة أن يتنفل وهو يقود السيارة. أما غيره فلا

---

(١) رواه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام...، رقم (٥٦٠).

بأس، ويكون اتجاهه قبل وجهه، أي: حيث كان وجهه في السفر، ويومئ بالركوع والسجود. فقد كان النبي ﷺ يصلي على راحلته صلاة النافلة، حيث كان وجهه(١).

٦- أن الحكم يدور مع علته: وجوداً، وعدماً. فما دام سبب الحكم باقياً، فالحكم باق. وإذا زال السبب، زال الحكم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا أصل متفق عليه: أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.

٧- أن الصلاة ذكر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾. ولهذا ينهى العبد أن يصلي، وقلبه مشغول؛ لأنه إذا صلى وقلبه مشغول، صار ذكره لربه ذكراً ظاهريا فقط، بالجوارح دون القلب. والذكر النافع للعبد، هو ذكر القلب، مع ما يشترط له من متابعة الجوارح للقلب؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، ولم يقل ـ تبارك وتعالى ـ: «من أمسكنا لسانه، أو جوارحه عن ذكرنا». بل قال: من أغفلنا. فتمام الذكر ـ بلا شك ـ يكون بذكر القلب، وإذا خلا عن ذكر القلب كان ناقصاً جداً.

٨- الإشارة إلى تذكر العبد نعمة الله عليه بالعلم؛ لقوله: ﴿كَمَا

---

(١) رواه البخاري كتاب التقصير، باب الإيماء على الدابة، رقم (١٠٩٦)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت، رقم (٧٠٠).

عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. فلذلك نقول: إذا توضأت فاحمد الله ـ تبارك وتعالى ـ أن هداك للوضوء، ولولا أن الله بين الوضوء في كتابه، وفي سنة رسوله ﷺ، ما فهمته، ولا علمته. وكذلك يقال في الصلاة، وغيرها من العبادات: أن تذكر نعمة الله عليك، حيث هداك لها، فكم من أناس ضلوا عنها.

٩ـ بيان تفضل الله ـ تبارك وتعالى ـ على عباده، بأن علمهم ما لم يكونوا يعلمون، فالأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

١٠. حث الإنسان على طلب العلم، وأن يسأل الله من فضله، لأنه ـ تبارك وتعالى ـ هو المعلم. فلا يعتمد على حوله، وقوته، وذكائه، وفطنته. فكم من إنسان ذكي، فطن، حرم الوصول إلى العلم النافع. وكم من إنسان دونه، وفق للوصول إلى العلم النافع.

فعليك يا أخي المسلم باللجوء إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، لطلب العلم. قل: اللهم يا معلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني.

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[البقرة: ٢٤٠].

سبق الكلام على قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾.

أما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي: يتركون أزواجاً.

وهذا يصدق في الزوجة الواحدة، والزوجات المتعددات.

﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ يعني: عليهم أن يوصوا لأزواجهم وصية بالمتاع إلى الحول، أي: يبقين في بيوت الأزواج، إلى سنة كاملة، يمتعن بالنفقة، والكسوة، حتى يتم الحول. لكن هذه نسخت بالآية التي قبلها، وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

هذه وجهت للأزواج قبل أن يلزم الله النساء بأربعة أشهر وعشراً، أن الزوج يوصي لزوجته بهذا. لكنها نسخت بهذه، وربما يقال ـ أيضاً ـ: إنها نسخت بآية المواريث، أن الزوجة لها نصيبها المفروض.

وقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ يعني: إن خرجن باختيارهن قبل انتهاء الحول، فلا جناح عليكم، فيما فعلن في أنفسهن من معروف أي: فلستم آثمين إن تركتم لهن الخيار؛ لأنهن أعلم بأنفسهن، قد ترى من المصلحة أن تخرج عن بيت زوجها، ولا تبقى فيه كل الحول، فلا تمنع.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو عزة، وحكمة، وحكم، فله العزة، ولرسوله، وللمؤمنين. وله الحكم في الأولى، والآخرة، وله الحكمة فيما شرع، وصنع.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ وجوب توصية الزوج إلى أهله، أن يمكنوا الزوجة من السكنى في البيت، والنفقة عليها لمدة حول. لكن هذا نسخ بالآية السابقة[1].

٢ـ إثبات النسخ في كتاب الله، أي: إن الله ـ تعالى ـ يحكم بحكم، ثم ينسخ هذا الحكم. وقد دل على ثبوت النسخ الكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين، إلا نفراً قليلاً خالفوا في التسمية فقط. ودليل ذلك قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾ [الأنفال:٦٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وفي السنة قال النبي ﷺ: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»**[2].

وما زال المسلمون يثبتون النسخ. لكن غالى بعض العلماء في

---

(١) أي الآية (٢٣٤) من سورة البقرة.

(٢) رواه مسلم كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٧).

النسخ، فصار كلما تعذر عليه فهم آية، أو تناسبها مع آية أخرى، قال: هذه منسوخة. والنسخ لا تجوز الصيرورة إليه إلا بشرطين:

الشرط الأول: تعذر الجمع والترجيح بين الدليلين.

والشرط الثاني: العلم بتأخر الناسخ.

٣ ـ أن من له الحق، فهو بالخيار بين الأخذ به، وبين تركه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾. لكن في آية سورة الطلاق، قال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١] فنهى عن إخراجهن ـ أي: المطلقات طلاقاً رجعياً ـ وعن خروجهن، أما هنا: فلم ينه عن خروجهن، بل قال: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾.

٤ ـ أن على المرأة ألا تخرج عن المعروف فيما تفعل بنفسها، من لباس، أو كلام، أو خروج، أو تطيب، أو غير ذلك.

٥ ـ إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله، وهما: «العزيز» و«الحكيم». فالعزيز: من له العزة والغلبة. فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا غالب له، بل هو الغالب على كل شيء. ولما قال المنافقون: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[المنافقون:٨] يعني: ولا عزة للمنافقين.

وأما الحكيم: فهو ذو الأحكام، والحكم. فالحكم لله ـ عز وجل ـ في الدنيا والآخرة، في الأمور الشرعية، والأمور القدرية. والحكمة فيما شرع الله أو قدره، حكمة ثابتة، بالغة عظيمة، لم يفعل شيئاً عبثاً، ولم يشرع شيئاً عبثاً. وإنما كان شرعه، وفعله، لحكمة، وغاية، محمودة. ـ فسبحانه وتعالى ـ عما يقول الظالمون علوا كبيراً. فجميع أفعال الله: حكمة. وجميع شرع الله: حكمة. وإذا آمن الإنسان بهذا، فإن من فوائده: أن يرضى بقضاء الله ـ تعالى ـ، وبشرع الله، وألا يبغي بالشرع بديلاً. فمثلاً: إذا قدر الله ـ تعالى ـ على الخلق عواصف، وزلازل، وقواصف، فإننا نعلم أنه إنما قدر ذلك لحكمة. وقد أشار الله إلى هذا في قوله: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]. وإذا حكم الله بالشيء، فإننا نعلم أنه لحكمة، حتى وإن كنا لا ندرك هذه الحكمة. فمثلاً أوجب الله ـ تعالى ـ على الحائض أن تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة. فقد يقول قائل: الصلاة آكد من الصوم. فلماذا لا تقضى، والصوم يقضى؟. فجوابنا المسدد الذي لا يمكن النزاع فيه: أن الله ـ تعالى ـ أمر بقضاء الصوم، ولم يأمر بقضاء الصلاة، على لسان النبي ﷺ. وبهذا أجابت عائشة ـ رضي الله عنها ـ، حين سئلت: ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة؟! فقالت: «**كان يصيبنا ذلك ـ يعني: في عهد**

النبي ﷺ **فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة**»[1]. كذلك لو قال قائل: لماذا كانت الصلوات خمساً، ولم تكن عشراً ـ مثلاً ـ، أو ستا، أو ثلاثاً؟. فنقول: هذا أمره إلى الله، لكن نعلم أن ذلك لحكمة عظيمة، لا تدركها عقولنا.

وأشياء كثيرة من هذا النوع. وهذا النوع من الأحكام، يسميه بعض العلماء: «**تعبديا**»، أي: أن موقفنا منه، موقف المتعبد، الذي لا يهمه أن يعلم الحكمة، أو لا يعلم.

٦ـ أن الحكم لله وحده، فأي حكم يعارض حكم الله، فهو باطل. وبهذا نعرف أن القوانين الوضعية التي وضعها البشر، إن وافقت حكم الله، فهي مقبولة؛ لأنها حكم الله، لا لأنها وضع فلان، أو فلان. وإن لم توافق حكم الله، فهي مرفوضة؛ لأن الحكم لله وحده.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤١، ٢٤٢].

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ﴾ أي: من طلقت قبل الدخول، ومن طلقت بعد الدخول. وذلك لأن من طلقت قبل الدخول: سبق الكلام عليها، بأنها

[1] رواه البخاري كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

تمتع، إذا لم يسم لها مهر، وأن لها نصف المهر، إذا سمي لها مهر. أما هذه فالآية مطلقة: للمطلقات، بل هي عامة تشمل أي مطلقة. لكن يقال: أما من طلقت قبل الدخول، فقد سبق بيان الواجب لها. وهذه الآية فيمن طلقت بعد الدخول.

وقوله: ﴿مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ أي: ما تتمتع به من كسوة، أو أكل، أو سكنى، أو غير ذلك.

﴿حَقًّا﴾ أي: أنه أوجبه الله ـ تعالى ـ.

﴿عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: على من يتقون الله ـ عز وجل ـ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا البيان.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يظهرها، حتى تعرفوها، وتستدلوا بها على ما تدل عليه من كمال الله ـ تبارك وتعالى ـ.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: لعلكم تكونون من ذوي العقول. والمراد بالعقل ـ هنا ـ: عقل الرشد، لا عقل الإدراك. وذلك لأن العقل نوعان:

النوع الأول: عقل إدراك، وهو الذي تترتب عليه الأحكام، وهو الذي يذكره الفقهاء في قولهم: «**يشترط لوجوب الصلاة العقل**» ـ مثلاً ـ. أي: عقل الإدراك.

وأما النوع الثاني: فهو: عقل الرشد، وهو إحسان التصرف، بأن

يكون الإنسان في تصرفه، رشيداً. لا يتصرف تصرف السفهاء. ولهذا لو سئلنا: ما تقولون في أذكياء الكفار، أهم عقلاء أم لا؟. فجوابنا أن نقول: أما عقل الإدراك، فهم عقلاء ـ لا شك ـ، وأما عقل الرشد، فليسوا عقلاء، لأنهم لو كانوا عقلاء حقيقةً ـ أي: عقلاء رشد ـ لكانوا مسلمين. فكل كافر ليس بعاقل ـ يعني: عقل رشد ـ. لكنه عاقل عقل إدراك: يدرك الأشياء.

في هاتين الآيتين من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ وجوب المتاع للمطلقات. وقد ذكر كثير من العلماء، أن هذا المتاع الذي أوجبه الله ـ هنا ـ منسوخ بالآية السابقة، وأنه: إن كانت المرأة قد دخل بها الزوج، فلها المهر: إما المسمى إن سمي، أو مهر المثل.

وأما المتعة، فليست بواجبة. وذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية محكمة، وأنه يجب على من طلق زوجته، أن يعطيها ما يجبر قلبها؛ لأن الطلاق كسر لقلب المرأة، فتعطى ما يطيب به قلبها. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ وهو الأرجح عندي ـ أن كل من طلق زوجته، فإنه يجب عليه أن يمتعها بشيء يطيب به قلبها.

٢ ـ التصريح البين بوجوب ذلك؛ حيث قال: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٣ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بين لنا آياته الدالة على كماله ـ عز وجل ـ.

٤ـ رأفة الله ـ تعالى ـ، ورحمته، بعباده، حيث بين لهم ـ سبحانه وتعالى ـ ما يهتدون به.

٥ـ أن من كان أعرف بآيات الله، فهو أعقل؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٦ـ إثبات العلل، والحكم؛ لأن «لعل» ـ هنا ـ: للتعليل، أي: لأجل أن تعقلوا. وهذا ـ أعني: إثبات العلل والحكم في أحكام الله ـ تعالى ـ الكونية، والشرعية ـ أمر لا إشكال فيه؛ لأنه هو مقتضى كونه حكيماً. فسبحان العلي الحكيم، والحمد لله رب العالمين.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب يحتمل أن يكون للنبي ﷺ، ويحتمل أن يكون لكل من يتأتى خطابه، ويصح أن يتوجه إليه الخطاب.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، وهؤلاء الذين خرجوا من ديارهم، وهم ألوف كثيرة؛ خرجوا خوفاً من الموت، وفراراً من الموت، فأراهم الله ـ عز وجل ـ أنه لا مفر من قدر الله، وأن الله ـ تعالى ـ بكل شيء محيط، فقال لهم: ﴿مُوتُواْ﴾ أي: أمرهم أمراً كونيا

أن يموتوا.

﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ أي: بعد موتهم. حتى يتبين لهم أنه لا مفر من قضاء الله وقدره، وأن الأمر أمره ـ تبارك وتعالى ـ.

ثم بين ـ تبارك وتعالى ـ أنه ذو فضل على الناس، فقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: ذو إحسان إليهم، في جلب النعم، ودفع النقم.

ومنها: أنه يريهم ـ عز وجل ـ آياته في الآفاق، وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: أكثر الناس لا يشكرون الله ـ عز وجل ـ.

وشكر الله ـ تعالى ـ هو: القيام بطاعته: والدليل على هذا قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال النبي ﷺ: «إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ

﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢])[1]. فدل هذا على أن الشكر هو: العمل الصالح.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ تعجيب العبد في بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني: ألم تعجب إلى الذين خرجوا. يعني: ألم تعجب في حال هؤلاء.

٢ـ أنه لا مفر من قدر الله. إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، لكن النبي ﷺ أمرنا (**إذا سمعنا الطاعون بأرض قوم، ألا نقدم عليه. وإذا وقع ونحن بأرض، ألا نخرج منها فراراً منه**)[2]؛ لأننا وإن فررنا، فالله ـ تعالى ـ من ورائنا محيط بنا.

٣ـ بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ؛ حيث قال لهم: ﴿مُوتُواْ﴾ فماتوا، بكلمة واحدة ـ جل وعلا ـ؛ لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون.

٤ـ أن الله قادر على إحياء الموتى؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾.

٥ـ أنه ينبغي للعبد ألا يعلق قلبه بأحد غير الله، في السراء والضراء، في الصحة، والمرض؛ لأن الله ـ تعالى ـ هو الذي بيده ملكوت السماوات

---

(١) رواه مسلم كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥).

(٢) رواه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (٥٤) حديث رقم (٣٤٧٣)، ومسلم كتاب الطب، باب الطاعون والطيرة والكهانة وغيرها، رقم (٢٢١٨).

والأرض، ينجي من يشاء، وهو الذي يهلك من يشاء قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦، ٢٧].

٦ـ الاستدلال بهذه القصة ـ وأمثالها ـ على إمكانية البعث، الذي كان ينكره المشركون المكذبون؛ لأن القادر على إحيائهم في الدنيا، قادر على إحيائهم في الآخـرة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ ـتصاح بهم ـ ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]. كل العالم، بصيحة واحدة، يحضر إلى الله ـ عز وجل ـ.

٧ـ بيان فضل الله على العباد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

٨ـ أن بيان الآيات الكونية، والشرعية، للخلق، من فضل الله ـ تعالى ـ. وهذا أمر لا شك فيه. فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا فتح على العبد، من آياته ما يزداد به إيمانه، كان ذلك من أفضل النعم عليه.

٩ـ أن فضل الله ـ تعالى ـ عام للناس كلهم، غنيهم، وفقيرهم، كافرهم، ومؤمنهم، ذكرهم، وأنثاهم، صغيرهم، وكبيرهم؛ لأن الآية عامة: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ـ حتى الكافر، نراه يتمتع في الدنيا

بالنعمة والترفه، بالأمن بالعقل الإدراكي ـ وإن كان ليس له عقل إرشادي، لكن له عقل إدراك ـ الصبي يتمتع بنعم الله: بالصحة، بالنمو، وتيسير الكافل له، من أم، وأب، وقريب. كل الناس يتمتعون بفضل الله ـ عز وجل ـ.

١٠ـ أنه مع عموم الفضل، لا يعم الشكر، فأكثر الناس لا يشكرون. فاحذر يا أخي، فتش في نفسك، هل أنت من الأكثر أو من الأقل؟.

١١ـ الإشارة إلى أن بني آدم أكثرهم من أهل النار؛ لأن من لا يشكر النعمة، لا يدخل الجنة. وهذا هو الواقع، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ: «أن الله ـ تعالى ـ يقول يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: أخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. ـ أي: واحد في الجنة، والباقي من الألف في النار ـ فعظم ذلك على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله: أينا ذلك الواحد؟ فقال ﷺ: أبشروا، فإنكم في أمتين، ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج. منهم ألف، ومنكم واحد. ـ يعني: واحد في الألف ـ فكبر الصحابة، وفرحوا. فقال ﷺ: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبروا. فقال: أرجو أن تكونوا شطر أهل

الجنة. فكبروا»[1]. وقد جاء في السنن: «أن الجنة مئة وعشرون صفًّا، منها ثمانون من هذه الأمة»[2]. جعلنا الله وإياكم منهم.

أخيراً أحث إخواني المسلمين على تدبر القرآن، وتفهم معانيه، فمن كان من أهل إدراك المعنى، فهو منهم، ومن لم يكن كذلك فليسأل العلماء. فتح الله علينا وعليكم من فضله وزادنا معرفةً بآياته واتباعاً لمرضاته. إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

﴿وَقَـٰتِلُوا۟﴾ أي: قاتلوا أعداء الله.

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الطريق الموصل إليه، وذلك بأن تقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا؛ لأن هذا هو القتال في سبيل الله، فقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل حميةً، ويقاتل شجاعةً، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في

---

(1) رواه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم أخرج بعث النار..» رقم (٢٢٢٩).

(2) رواه الترمذي كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أهل الجنة، رقم (٢٥٤٦)، وابن ماجة كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ، رقم (٤٢٨٩)، وأحمد (٢٢٤٣١، ٢٢٤٩٣، ٢٢٥٥٢)، والدارمي (٢٨٣٥).

سبيل الله»[١].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ ينبه الله ـ تبارك وتعالى ـ عباده إلى أنه سميع عليم. سميع لكل ما يقولون، مما ينطقون به. سواء كان جهراً، أو سرا. عليم بما في القلوب، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ الأمر بالقتال في سبيل الله. ومراتب الدعوة ـ أعني: دعوة الكفار ـ: أن ندعوهم أولاً إلى الإسلام. فإن أبوا: دعوناهم إلى الجزية. يعني: يبقوا على دينهم، ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. فإن أبوا: قاتلناهم؛ لأنهم صاروا محاربين. والأمر بالقتال، كغيره من الأوامر، مقيد بالقدرة والاستطاعة. ولذلك لم يوجب الله ـ تبارك وتعالى ـ الجهاد على المسلمين حين كانوا في مكة، وليس لهم دولة قائمة يحتمون بها ويصدرون عن رأيها. وبهذا نعرف أنه لا ينبغي لنا أن نخوض غمار الحرب، حتى يكون لدينا ما نتمكن به من هزيمة أعدائنا.

٢ـ الإشارة إلى الإخلاص؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهو أن يقاتل الإنسان، لا ليغلب عدوه، ولكن لتكون كلمة الله هي العليا. فمن قاتل حميةً، أو عصبيةً، كالقتال لأجل العروبة، أو الوطنية، أو ما أشبه ذلك، فليس في سبيل الله. الذي يقاتل في سبيل الله، هو:

---

(١) تقدم تخريجه ص (٩١).

الذي يقاتل لشيء واحد: أن تكون كلمة الله هي العليا.

٣ـ التنبيه المشرب بالتحذير، على سمع الله وعلمه. فإذا علمت أن الله سميع لأقوالك ـ سرا أو جهراً ـ فإنك تحذر من أن تسمع الله ما لا يرضاه منك. والتنبيه الأعم وهو بعلم الله ـ عز وجل ـ، أن الله ـ تعالى ـ يعلم كل شيء، كل شيء يقال، كل شيء يفعل، كل شيء يضمر.

الصادر من الإنسان: إما باللسان، فيكون مسموعاً. وإما فعل بالأركان، فيكون مرئيا. وإما اعتقاد بالجنان في القلب، يكون خفيا على الناس، لكنه غير خفي عن الله. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦ـ١٨] ملكان كريمان، عن يمين الإنسان، وعن شماله، يكتبان كل ما يقول، كل ما يفعل.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ يعني: أي قول يلفظ به، فلديه رقيب يراقب، عتيد حاضر لا يتعداه.

وذكر أن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ دخل عليه أحد أصحابه، وهو مريض، فوجده يئن من شدة المرض، فقال: يا أبا عبد الله، إن طاووساً ـ وهو أحد كبار التابعين ـ يقول: إن الملك يكتب حتى أنين المريض. فسكت ـ رحمه الله ـ عن الأنين خوفاً من أن يكتب عليه. ولا شك أن

أنين المريض ـ الذي ينبئ عن السخط، وعدم الرضا بقضاء الله ـ يكتب على الإنسان، أما الأنين الذي تقتضيه الطبيعة، ويأتي عفواً، فإنه لا يكتب عليه؛ لأنه ليس باختيار منه.

٤ـ الحذر من إضمار المرء شيئاً لا يرضاه الله ـ عز وجل ـ: من الرياء، أو الشك أو البغضاء للمسلمين، أو الحسد لهم، أو كراهة ما أنزل الله، أو غير ذلك، من الأمور المحظورة. فإياك يا أخي المسلم، أن تضمر في قلبك ما لا يرضى ربك. وإن العاقل، هو الذي يلاحظ صدأ القلب، قبل صدأ الجوارح؛ لأن الإنسان قد يعمل في الظاهر، كل إنسان يستطيع أن يصلح ظاهره. حتى المنافقون: يصلحون ظاهرهم. لكن الباطن إصلاحه صعب. ولهذا قال بعض السلف: ما جاهدت نفسي على شيء، مجاهدتها على الإخلاص.

وفي صحيح البخاري: أن النبي ﷺ كان في غزاة ـ أي: في غزوة ـ وكان معهم رجل شجاع مقدام، لا يدع لهم شاذةً ولا فاذةً إلا اتبعها يضربها بسيفه. فقال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه من أهل النار ـ أجارنا الله منها ـ. فعظم ذلك على الصحابة ـ يعني: قالوا: كيف يكون هذا الرجل الشجاع الذي لا يدع للعدو شاذةً، ولا فاذةً. كيف يكون من أهل النار؟ ـ فقال رجل من القوم: أنا صاحبه. قال: فخرج معه، كلما وقف،

وقف معه. وإذا أسرع، أسرع معه قال: فجرح الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه، فقتل نفسه. فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أشهد أنك رسول الله. قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به. فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه في الأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه، فقتل نفسه. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك ـ كلمةً مخيفةً، تخيف كل مؤمن ـ: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة)[1]. أجارنا الله وإياكم من ذلك. فالأمر شديد. فاحرص يا أخي المسلم، احرص على تطهير القلب. داو قلبك كل يوم من كل مرض، وطهر قلبك كل يوم من كل صدأ. واذكر قول ربك ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٨، ٩] تختبر السرائر. واذكر قول ربك ـ عز وجل ـ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ [العاديات: ٩ـ١١].

---

(١) رواه البخاري كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤٢٠٣)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل المسلم نفسه.. رقم (١١٢).

ولا يفوتني أن أحث إخواني المسلمين على تدبر كتاب الله ـ عز وجل ـ، وتفهم معانيه، والعمل به، فإنه النور المبين، والشفاء لما في الصدور، والأخذ به من أعظم أسباب تطهير القلب. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ الاستفهام ـ هنا للتشويق، يعني: أي إنسان يقرض الله؟!! والمراد بإقراض الله ـ تبارك وتعالى ـ: التقرب إلى الله ـ عز وجل ـ، ببذل المال، وبذل البدن، والجاه لله ـ عز وجل ـ. فبذل المال أن يتصدق الإنسان بالمال، وبذل البدن أن يعين ضعيفاً، وبذل الجاه أن يشفع للمحتاج. كل ذلك داخل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وإن كان الأول أظهرها، وهو: بذل المال.

وشبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ البذل من أجله بالقرض؛ لأن المقرض يستوفي قرضه بكل حال، فكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل هذه

الأعمال قرضاً عليه، أي: التزم ـ جل وعلا ـ بوفائها. وإلا فمن المعلوم أن الرب ـ عز وجل ـ غني عن العالمين لا يحتاج إلى قرض.

وقوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ الحسن، ما جمع شيئين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، بأن يكون خالصاً لله، طيباً، مؤدياً على الوجه المشروع. فمن نوى ببذله المال رياءً وسمعةً، فليس له إلا الرياء والسمعة. كما جاء في الحديث: «من راءى راءى الله به. ومن سمع سمع الله به»[1]. ومن أخلص النية، لكن من كسب حرام لم يقبل منه. ومن أخلص النية من كسب طيب، لكن صرفه فيما لا يرضي الله لم يقبل منه: يعني: صرفه في غير محله وأهله، لم يقبل منه. وإذا أقرض الإنسان ربه قرضاً حسناً، فإن الله يضاعفه، كما جاء في الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»[2]، وقال النبي ﷺ: «ما تصدق أحد من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الله ـ عز وجل ـ أو: إلا وقعت في كف الرحمن ـ فيربيها، كما يربي أحدكم فلوه ـ الفلو، هو: الحصان الصغير ـ حتى تكون مثل الجبل»[3]، أصلها تمرة، تكون كالجبل. كم

---

(١) رواه البخاري كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، رقم (٦٤٩٩)، ومسلم كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٦).

(٢) رواه مسلم كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥).

(٣) رواه البخاري كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، رقم (١٤١٠)، ومسلم كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من انكسب الطيب، رقم (١٠١٤).

ضـوعفت؟ ضـوعفت أضـعافاً كثـيرةً. ولهـذا قـال هنـا: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾.

يعني: لا تبخل على نفسك، وتقول: إن تصدقت نقص مالي؛ فإن الله هو القابض الباسط ـ جل وعلا ـ، إن شاء قبض وقتر على هذا رزقه، وإن شاء بسط ووسع له في الرزق. والصدقة لا تنقص المال، قال النبي ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال»(١)، يعني: أن الـصدقة لا تـنقص المـال. وإن نقصته عدداً، فإنها تزيده بركةً، وحمايةً.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إليــه لا إلى غـيره. ترجعــون: يــوم القيامــة، فيحاسبكم ـ عز وجل ـ على ما تقتضيه رحمته ـ عز وجل ـ، ويقتضيه عدله.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ بيان فضل الله ـ عز وجل ـ على عباده، حيث يرغبهم، ويـشوقهم إلى البذل في سبيله، وأنهم سيجازون على ذلك أضعافاً مضاعفةً.

٢ ـ بيـان كـرم الله مـن وجـه آخـر: أن مـا أنفقـه العبـد لله، فـإن الله ـ تعالى ـ قد التزم به ـ أي: بثوابه ـ كما يلتزم المقترض بوفاء قرضه.

٣ ـ أن القرض لا يقبل إلا إذا كان حسناً، وهو ما جمع الإخـلاص، والمتابعة، وأن يكون من كسب طيب. وكونه من كسب طيب داخـل في

---

(١) تقدم تخريجه.

المتابعة.

٤ـ أن الله لا يقبل قرضاً ليس بحسن، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»[1].

٥ـ أن الله يضاعف للمقرض قرضه أضعافاً كثيرةً. وقد أخذ بعض العلماء من هذا، أنه لا رباً بين العبد، وبين ربه؛ لأن الله سمى هذا العمل قرضاً، وأخبر ـ جل وعلا ـ أنه يضاعفه أضعافاً كثيرةً. وأخذ بعضهم أنه لا رباً بين العبد وسيده. فإذا كان العبد له مال يبيع ويشتري فيه، وجرى بينه وبين سيده رباً، فليس برباً؛ لأن العبد وما ملك للسيد. كذلك نحن وما ملكنا لله ـ عز وجل ـ. ولهذا نقول: إن هذه الكلمة صادقة: لا ربا بين العبد وبين ربه.

٦ـ بيان فضل الله ـ عز وجل ـ وإحسانه؛ لأن الذي وفقك للقرض ـ أي: لإقراض الله قرضاً حسناً ـ هو الذي يضاعفه لك. فلولا أن الله أعانك، ما أنفقت، ولا أعطيت. ولولا أن الله رزقك، ما أنفقت ولا أعطيت. فهو الذي رزقك، وأعانك على البذل، وأثابك على ذلك هذه المضاعفة الكثيرة. وما أحسن قول الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

---

(١) رواه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم(١٠١٥).

٧ـ يعني: إذا أنعم الله عليك نعمةً، وشكرته، فإن شكرك إياه نعمة تحتاج إلى شكر. وهذا الشكر يحتاج إلى شكر. وهكذا دواليك. ولهذا نقول: سبحانك لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

٨ـ أن جميع الأمور بيد الله ـ عز وجل ـ. هو الذي يقبض، وهو الذي يبسط. وما أكثر ما نرى فقيراً اغتنى، وغنيا افتقر. فالله هو القابض والباسط.

٩ـ أن الرجوع إلى الله وحده؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وكما ذكرنا في تفسيرها: أننا نرجع إلى الله يوم القيامة. ولكن قد يقال بأن هناك معنًى أعم، وهو: أننا نرجع إلى الله ـ تعالى ـ يوم القيامة بعد البعث، فيحاسبنا، وكذلك نرجع إليه في أمور ديننا ودنيانا، فلا نحكم إلا بشريعته، ولا نتعبد له إلا بشريعته.

ويستفاد من هذه الفائدة أن جميع البدع مردودة، وأن كل حكم مخالف لحكم الله، فهو باطل؛ لأن المرجع لنا في العبادات والأحكام، هو الله ـ عز وجل ـ. والآية لا تأبى هذا المعنى، والقاعدة العامة في تفسير القرآن الكريم: أن الآية كلما كانت أشمل وأعم، كان تفسيرها بذلك أولى. وإذا احتملت الآية معنيين على السواء، ولا ينافي أحدهما الآخر، وجب حملها على المعنيين جميعاً؛ لأن كلام الله ـ تبارك وتعالى ـ واسع. وإذا شئت أن تعلم هذا فانظر إلى التفاسير، تجد مجلدات في

تفسير الآيات، ولم يصلوا إلى غايتها. ففيها من ألطاف المعاني، والحكم والأسرار، ما لا يحصى. ولكن دلالة القرآن تكون بالتصريح، وبالتلميح، وبالمفهوم الأولوي، وبالمفهوم المخالف، وبالإشارة.

يذكر أن رجلاً من النصارى أراد أن يمتحن عالماً من علماء المسلمين. وكان في مطعم في بلاد أوروبية، فجاء النصراني إلى هذا العالم، وقال له: يا فلان، إن كتابكم ـ يعني: القرآن ـ تبيان لكل شيء، ـ وهذا حق. فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] ـ فأين معرفة كيف تصنع هذا الطعام ـ وأشار إلى نوع من الطعام ـ؟ فقال له العالم المسلم: نعم، هو في القرآن. ثم دعا العالم المسلم صاحب المطعم، وقال: أخبرنا كيف تصنع هذا الطعام؟ فقال: أصنعه كذا وكذا، فقال العالم: هكذا قال القرآن، لأن الله قال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]. فالله أرشدنا إلى أن الذي لا نعلمه نسأل عنه أهله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ

عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب إما للرسول ﷺ، أو لكل من يصح أن يتوجه إليه الخطاب، يعني: ألم تر أيها السامع، أو أيها المخاطب.

﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ أي: إلى القوم. والملأ في الأصل: أشراف القوم.

﴿مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إسرائيل هو: يعقوب - عليه السلام - بن إسحاق بن إبراهيم. ولقب بـ «إسرائيل» لكثرة عبادته؛ لأن معنى «إسرائيل»: عبد الله، واسمه العلم: يعقوب.

﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ موسى - عليه السلام - أشهر أنبياء بني إسرائيل، وهو وهارون أخوان من أم وأب. أما قوله - تبارك وتعالى - عن هارون يخاطب موسى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ﴾ [طه: ٩٤] فلا يدل على أنه أخوه من أمه، لكنه لما كانت الرأفة والحنان في الأم أكثر من الأب، خاطبه فقال: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ هذا محل العجب، والتعجيب.

﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ يعني: اعهد إلى ملك يحكمنا، حتى نقاتل في سبيل الله، أي: حتى نجاهد في سبيل الله. فقال

لهم هذا النبي: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ يعني: أنه يخشى عليهم، إن كتب عليهم القتال ألا يقاتلوا.

﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: أي شيء يمنعنا من القتال في سبيل الله.

﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ يعني: أخرجنا بما معنا من الدين والإيمان، من ديارنا وأبنائنا. فلا بد أن نقاتل؛ لنخرج الذين أخرجونا من ديارنا وأبنائنا. كما قاتل النبي ﷺ أهل مكة، الذين أخرجوه، وأخرجوا من معه، من ديارهم وأموالهم.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ يعني: فرض عليهم، وأتاهم الملك.

﴿تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن القتال، ولم يقاتلوا.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: فصار أكثرهم ـ وهم الذين طلبوا القتال ـ متولين، [معرضين].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: عليم بهم وهم ظلمة؛ لأنهم هم الذين طلبوا، فألزموا أنفسهم ما لم يلزمها، ومع ذلك تولوا.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ الاعتبار بقصص من مضى، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

٢ـ أن الإنسـان لا ينبغي لـه أن يعـرض نفسه بالتزام ما لم يلزمـه الله به. ولهذا نهى النبي ﷺ عن النـذر، وقـال: «إنـه لا يـأتي بخـير»[١]، وقـال ﷺ: «إنه لا يرد شيئاً»[٢].

ولهذا حرم النذر طائفة من العلماء، وقالوا: يحرم على الإنسان أن ينذر حتى ولو كان مريضاً، ونـذر إن عافـاه الله أن يتصدق. وقول هؤلاء قوي جدا ـ أعني تحريم النذر ـ؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه، وعلل النهي، ونفى أن يكون فيه خير، ونفى أن يرد القضاء، ما أراده الله ـ عز وجل ـ فسيقع: سواء نذرت أم لم تنذر. ولهذا قل من نذر إلا وندم، وما أكثر الذين يسألون، ويلحون في السؤال، تجدهم نذروا، ويحبون أن يتخلصوا منه، ولم يتمكنوا. منهم من ينذر أن يصوم شهرين، أو أن يصوم سنةً، أو أن يصوم الدهر كله. ومنهم من ينذر أن يذبح بعيراً، أو بعيرين، أو ما أشبه ذلك من الأمور التي يندمون أن نذروها. وقد قال النبي ﷺ «من نذر أن يطيع الله فليطعه»[٣]. وليحذر الإنسان إذا نذر لله ـ تعالى ـ طاعةً ـ في مقابلة نعمة ـ من الإخلال، وليتذكر قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

---

(١) رواه مسلم كتاب النذر، باب النهي عن النذر، رقم (١٦٣٩).

(٢) رواه البخاري كتاب القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، رقم (٦٦٠٨)، ومسلم كتاب النذر، باب النهي عن النذر، رقم (١٦٣٩).

(٣) رواه البخاري كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، رقم (٦٧٠٠).

مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [الآيات: ٧٥-٧٧]. **فالمسألة خطيرة، وإني أحذر إخواني المسلمين من النذر،** وأقول: إذا كنتم مرضى، فادعوا الله ـ تعالى ـ بالشفاء، وإذا كنتم فقراء، فادعوا الله ـ تعالى ـ أن يغنيكم. أما أن تنذروا لله، وكأنكم تظنون أن الله لا يعطيكم إلا إذا شرطتم له، فسبحان الله!. وما أصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «إنه لا يرد قضاءً». فأنت أيها المريض: إن كان الله أراد لك شفاءً، شفيت، سواء نذرت أم لم تنذر. وإن لم يقدر لك الشفاء، لم تشف، سواء نذرت أم لم تنذر. وانظر إلى هؤلاء الملأ لما طلبوا ملكاً ليقاتلوا معه في سبيل الله، ثم لما حصل ذلك، وكتب عليهم القتال، تولوا. نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية. وأن يرزقنا امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، من غير نذر، ولا إقسام.

٣ـ أن الجهاد لا بد له من قيادة؛ لقولهم: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾، ولم يقولوا: «ائذن لنا نقاتل»؛ لأن قتالاً بلا قائد عام، موجه، يحل ويربط، ويعاهد، لا يكون إلا قتال عصابات، قد ينجح، وقد لا ينجح. فلا بد من قائد عام.

٤ ـ أن الإنسان إذا أخبر عما في نفسه من إخلاص، فإنه لا يعد

مرائياً فإذا قال عن نفسه: سأقاتل في سبيل الله، أو سأطلب العلم لنفع عباد الله، أو ما أشبه ذلك، من المقصودات شرعاً، لا يريد بهذا أن يمدحه الناس عليه، لكن يريد أن يخبر عما في نفسه، فإن هذا لا بأس به. وقد يكون خيراً، إذا قصد أن يتأسى به غيره.

٥- أنه ينبغي لمن استشير في شيء يخشى من الفشل في آخره، أن يبين للمستشير النتيجة، والعاقبة، حتى يكون على بصيرة؛ لقوله: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن من فوائد التحذير من العاقبة، أن المستشير يدخل على بصيرة، فإما أن يقدم، وإما أن يحجم.

٦- النظر إلى المفاسد التي تترتب على ما فيه مصالح ومفاسد، فيقدم أنفعها وأقومها. ولهذا لا نقول: إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، من كل وجه، لا، بل نقول: إذا تكافأت المصالح والمفاسد، قدم درء المفاسد على جلب المصالح، أما إذا انغمرت المفاسد في جانب المصالح، فلتؤت المصالح.

٧- أنه لا ينبغي للإنسان أن يغتر بنفسه؛ لأن هؤلاء لما اغتروا بأنفسهم، وقالوا: ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾، حصلت لهم ردة فعل ـ كما يقولون ـ.

٨- أنه قد يقال: إن هؤلاء لما كان قتالهم من أجل أنهم أخرجوا من

ديارهم وأبنائهم، فيكون كأنه انتقام، وليس لإقامة دين الله، فابتلوا بالتولي، إلا قليلاً منهم. هذا إن لم نعول على ما ذكرنا في التفسير: أنهم أخرجوا من ديارهم، وأبنائهم، لكونهم متمسكين بالدين، فيكون قتالهم لإنقاذ ديارهم وأبنائهم؛ من أجل رجوع الديار إلى الإسلام، وإنقاذ الأبناء من الكفر، والله أعلم بالنيات.

٩- أنه لا ينبغي للإنسان أن يذل نفسه، فيتعرض لما لا يمكنه القيام به؛ لأن هؤلاء تعرضوا لأمر تولوا عنه، ولم يقوموا به. فالإنسان لا ينبغي أن يقدم إلا على شيء يعرف من نفسه أنه سيقوم به على الوجه الأكمل. وانظر إلى قصة عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -، حين قال: «لأصومن ولا أفطر، ولأقومن ولا أنام». فبيَّن له النبي ﷺ أنه لا يستطيع ذلك، وعرض عليه عدة أمور، انتهت إلى أن يصوم يوماً ويفطر يوماً، كصيام داود - عليه السلام -، ومع ذلك لما كبر - رضي الله عنه -، قال: «يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ»، وصار يعجز أن يصوم يوماً ويفطر يوماً[1]. فكان يصوم خمسة عشر يوماً متتابعةً، ويفطر خمسة عشر يوماً متتابعة.

١٠- إثبات علم الله - تعالى -؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ

---

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب حق الأهل في الصوم، رقم (١٩٧٤، ١٩٧٦)، ومسلم كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر منه، رقم (١١٥٩).

بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

١١ـ أن من نذر شيئاً، ثم تولى ولم يف به، فهو ظالم.

١٢ـ أن الظلم ينقسم إلى قسمين: إما تفريط في واجب، وإما انتهاك لمحرم. وهذا النوع الذي معنا. تفريط في واجب. فمن ترك الصلاة مع الجماعة ـ حال وجوبها عليه ـ فهو ظالم، وظلمه من باب ترك المأمور. ومن شرب الخمر؛ فهو ظالم، وظلمه من باب فعل المحظور.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧].

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ﴾، انظر إلى حسن الأدب مع الله، لم يقل: «إني بعثت»، بل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾. وكأن الله أوحى إلى هذا النبي أن اجعل فلاناً ملكاً لهم.

﴿طَالُوتَ﴾ طالوت علم على شخص، في لغة بني إسرائيل.

﴿مَلِكًا ۚ﴾ الملك، هو: الذي له التدبير الذي لا ينازع فيه. ولكنه بالنسبة للمخلوق بحسب ما تقتضيه الولاية الشرعية، أو العرفية.

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ أنى بمعنى: كيف، فهي للاستفهام، وهم قالوا: أنى يكون له الملك علينا، ولم يقولوا: أنى يكون له الملك لنا، فجعلوا المسألة من باب السلطة فقط، لا من باب رعاية المصلحة.

ثم قالوا معززين لاستبعادهم هذا الشيء: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾، كأنهم يرون الملك لا يكون إلا كابراً عن كابر، وأن هذا لم يسبق لأحد من آبائه أن تولى الملك، بخلافنا نحن. فإن الملوك كانوا منا. فكيف جاءه الملك؟ وأيضاً عززوا استبعادهم هذا الشيء بقولهم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، فهو فقير، أو ليس عنده مال واسع ننتفع منه.

فذكروا علتين:

إحداهما: من حيث التوسط بمجتمعه.

والثانية: من حيث المال.

فأجابهم نبيهم: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فضله عليهم. فهو مفضل عليهم، بما أعطاه الله ـ تعالى ـ.

﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ بسطةً، معناها: السعة. والمراد بالعلم: علم تدبير الملك. فعنده من الحنكة، والرأي، ما جعله مختاراً عليهم، من الله ـ عز وجل ـ.

وأيضاً «الجسم»: فزاده الله بسطةً في الجسم، مع العلـم. فـاجتمع في حقه، القوتان: المعنوية، والحسية.

والــسبب الثالــث: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يعطـي ملكه من يشاء؛ لحكمة يعلمها الله ـ عز وجل ـ أنه مستحق للملك.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أطلق ـ سبحانه وتعـالى ـ أنـه واسـع، ولم يقـل: واسع في علمه، أو فضله، أو كرمه فيشمل كل صفاته.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن نبيهم استجاب لهم، حيث طلبـوا ملكـاً. وكانـت اسـتجابته، بسؤال الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك، وإجابة الله له.

٢ـ أن الملك لا ينال بالوراثة، وإنما بالأحقية والأفضلية.

٣ـ أن الملك تتوطد أركانه، إذا كان للملك مزية في حسبه، أو نسبه، أو علمه، أو قوته.

٤ـ بيـان أن أفعـال الله فـوق كـل تـصور؛ لقولـه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾.

٥ـ أنه كلما كان الولي ذا بـسطة في العلـم، وتـدبير الأمـور، والجسم وقوته، كان أقوم لملكه، وأتم لأمرته.

٦ـ أن ملك بني آدم، ملـك لله؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ

مَن يَشَآءُ ﴾.

٧ـ إثبات المشيئة لله.

٨ـ إثبات أفعال الله الاختيارية؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُؤْتِى مُلْكَهُۥ﴾. فإن إتيان الملك للإنسان، يتجدد، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦].

٩ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: **«واسع»** و**«عليم»**. فالواسع: المحيط بكل شيء. الواسع: الذي صفاته لا نهاية لها في الكمال. الواسع: الذي غناه لا حد له. وهكذا كل ما تشمله هذه الكلمة من معنًى، فإنه يدخل فيها. ولهذا يعتبر هذا الاسم، وهذه الصفة، شاملين لجميع الأسماء والصفات.

وعليم، أي: محيط بكل شيء علماً. ولهذا تقترن كلمة «واسع» بكلمة «عليم» لأن كلا منهما فيه الشمول والإحاطة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

يظهر ـ والله أعلم ـ أن هؤلاء القوم الذين اعترضوا على نبيهم، حين قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ طلبوا من نبيهم آيةً، فقال لهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ أي: علامة ملكه، أي: علامة كونه جعله الله ملكاً عليهم ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، وكان هذا التابوت قد أخذه العدو، وعجز هؤلاء عن استنقاذه منهم. فقال لهم نبيهم: إن آية ملكه، أن يأتي هذا التابوت، الذي فقدتموه.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: طمأنينة، إذا حمله المجاهدون معهم ازدادوا سكينةً وطمأنينةً.

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ أي: من ميراث النبوة. ففيه السكينة، وفيه العلم والتوجيه، لبني إسرائيل.

﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لأن البشر لا يقدرون على أن يستنقذوه من عدو أكثر منهم عدداً، وأقوى منهم عدداً.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ أي: لعلامةً واضحةً، على كون طالوت ملكاً.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن كل دعوى لا بد فيها من بينة، تظهر الحق وتبينه.

٢ـ أن البينة لا بد أن تكون مقنعةً، يقتنع بها الخصم، ومن كان عنده شك.

٣ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا جعل الآيات للملك؛ لإثبات ملكه، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يجعل الآيات البينات للرسول؛ لإثبات رسالته. ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من نبي بعثه الله إلا آتاه الله من الآيات، ما يؤمن على مثله البشر»[1].

٤ـ أن بني إسرائيل عندهم شيء من التبلد، حيث لا يقنعهم إلا الأمر المحسوس، وذلك ظاهر في كونه جعل الآية إتيان التابوت.

٥ـ إثبات الملائكة، وبيان قوتهم. وهذا أمر معلوم بما ذكره الله ـ تبارك وتعالى ـ، من صفاتهم، وأعمالهم. والملائكة ـ عليهم السلام ـ عالم غيبي، خلقهم الله ـ تعالى ـ من نور، وأعطاهم قوةً وعزيمةً، فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩،٢٠]، وقال النبي ﷺ: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»[2].

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، رقم (٤٩٨١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢).

(٢) رواه الترمذي كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» رقم (٢٣١٢)، وابن ماجة كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، رقم (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٠٠٥).

سبحان الله العظيم.

٦ـ أن الإيمان يحمل العبد على التصديق بالآيات؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩].

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ طالوت، هو: الملك الذي جعله الله عليهم. فصل بها، أي: انفصل، واتجه إلى العدو، يعني: انفصل من مكان قراره، واتجه إلى العدو.

قال للجنود: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي: مختبركم به. وكانوا عطاشاً، فأراد الله ـ عز وجل ـ، أن يبتليهم بهذا النهر، فقال لهم: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ وهذا الابتلاء من أجل أن يعلم الصابر منهم من غير الصابر؛ لأن من شرب منه فإنه لم يصبر، فلا يكون أهلاً للجهاد، ولا لاتباع هذا الملك الصالح.

﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ يعني: وسيكون عضداً لي، ونصيراً.

إلا أنه استثنى، فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِۦ﴾ غرفةً واحدةً بيده، فشرب، بل ريقه، أطفأ حرارة معدته فهذا يسامح عنه فما الذي حصل؟ يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فصار أكثرهم لا يصلح للجهاد، ولا يصبر عليه؛ لأنهم شربوا من هذا النهر، إلا القليل منهم، ولكنه جاز بهم هذا النهر.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وهم الذين لم يشربوا، أو شربوا غرفةً باليد.

﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ اختلف المفسرون فيمن قال هذا القول: هل هم الذين جاوزوا النهر، ولم يشربوا، أو شربوا غرفةً واحدةً باليد؟ أو أنهم الذين تخلفوا عن امتثال الأمر وشربوا من النهر؟. لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يبين هل هؤلاء الذين شربوا؛ جاوزوا النهر، نكلوا عن الجهاد فيما بعد؟ أو أنهم لم يجاوزوا؟ فاختلف المفسرون: هل هم جاوزوا أو لا؟ فمنهم من قال: إنهم جاوزوا وجعل هذا القول ـ أي: أنهم لا طاقة لهم على القتال ـ من أقوالهم. ومنهم من قال: إنهم لم يجاوزوا، وإنما الذين جاوزوا هم الذين لم يشربوا من النهر، أو شربوا منه غرفةً باليد، وأن هؤلاء الصابرين على العطش، لما جاوزوا النهر، ورأوا العدو، استكثروه، واستقلوا أنفسهم، وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وانقسموا إلى قسمين:

منهم من قال هذا الكلام، ومنهم من قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. فأدخلوا عليهم العزيمة والنشاط، وقالوا: إن الكثرة، لا يلزم منها الغلبة.

قد يغلب القليل الكثير، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فشجعوهم على الصبر، ثم خاضوا المعركة.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبتلي العباد بما شاء، ليعلم الصابر من غير الصابر، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

٢ـ أن الإنسان ينبغي له أن يلاحظ هذا الابتلاء: أن الله ـ تعالى ـ يبتليه بالشيء، لينظر ماذا تكون العاقبة؟ فليصبر، وليعزم على الرشد.

٣ـ أن النفوس مجبولة على تناول الشهوة التي تشتهيها؛ لأن هؤلاء الذين كانوا يقولون: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، نكص أكثرهم؛ لنيل الشهوة، التي هي اشتهاء الماء.

٤ـ أن الصابر قليل، كما أن الشاكر قليل، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

٥ـ أن الضرورة تبيح المحظور، ولكن بقدر الحاجة؛ لقوله: ﴿وَمَن

لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ ولهذا لو اضطر الإنسان إلى أكل الميتة، بحيث لم يجد غيرها، فإنه يأكل منها، ولكن بقدر الحاجة. ولكن هل له أن يشبع؟. قال بعض أهل العلم: ليس له أن يشبع، بل يأكل ما يسد رمقه. وقال آخرون: بل يشبع. والصواب: أن في ذلك تفصيلاً، إن كان يستطيع أن يحمل منها شيئاً، فإنه لا يشبع، ويحمل معه من هذا الطعام، ما يحتاج إليه. وإن كان لا يستطيع أن يحمله، فله أن يشبع.

٦ـ أن المؤمن قد يرد عليه من الخواطر ما يشك معه في النصر والغلبة؛ لقوله: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾. هذا إن قلنا: إن الضمير في قوله: «قالوا» يعود على الذين جاوزوا النهر، بدون شرب، أو شربوا منه غرفةً باليد فقط.

٧ـ أن الإيمان بلقاء الله، يوجب على المؤمن العزم والتصميم؛ لأنه يعلم أنه ملاق ربه، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سوف يجازيه.

٨ـ إطلاق الظن على اليقين؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾.

يعني: معنى الظن ـ هنا ـ: اليقين. إذ لا يكفي في الإيمان باليوم الآخر: الظن.

٩ـ إثبات ملاقاة الله ـ تعالى ـ، وبينت ذلك السنة، حيث قال النبي

ﷺ: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم. أي رب. حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك، قال الله ـ عز وجل ـ له: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم..»(١). اللهم اجعلنا منهم.

١٠ـ أنه لا عبرة بالكثرة، العبرة بنصر الله ـ عز وجل ـ. قد يكون العدد كثيراً، ولا يكون النصر، لا سيما إذا أعجب الإنسان بكثرته، كما جرى ذلك للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في غزوة حنين، حين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة. فأراهم الله ـ عز وجل ـ أن الكثرة لا تغني شيئاً، ولاقوا العدو، ففر المسلمون، مع أن عدوهم كان ثلاثة آلاف وخمسمائة، وهم كانوا اثنى عشر ألفاً. حتى إذا عرفوا أنفسهم، عاد الله ـ عز وجل ـ عليهم بالنصر.

١١ـ أن النصر من عند الله، والعزة من عند الله؛ لقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

١٢ـ فضيلة الصبر، وأن الله ـ تعالى ـ يكون مع الصابر، فينصره، ويؤيده، ويثيبه.

١٣ـ إثبات معية الله ـ تبارك وتعالى ـ. وقد قسم العلماء ذلك ـ أعني:

---

(١) رواه البخاري كتاب المظالم، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ رقم (٢٤٤١)، ومسلم كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨).

معية الله ـ إلى: عامة، وخاصة.

فالعامة: كالتي في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. وهذه المعية تقتضي الإحاطة والعلم، وأنه ـ عز وجل ـ لا يخفى عليه شيء، توجب للعبد مخافة الله ـ تعالى ـ، وألا يفقده الله حيث أمره، ولا يجده حيث نهاه.

وأما المعية الخاصة: فمثل قوله ـ تعالى ـ في محمد ﷺ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠]،

وكما في قوله ـ تعالى ـ لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

ومن مقتضيات هذه المعية النصر، والتأييد، والتثبيت. وقد تكون هذه المعية الخاصة مقيدةً بأوصاف، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩. الأنفال:٦٦]، فتعم كل صابر.

وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾

[النحل:١٢٨]، فتعم كل متق، وكل محسن.

وهذه المعية لا تنافي أن الله ـ تعالى ـ فوق العرش، فوق كل شيء؛ لأن الله ـ تعالى ـ ليس كمثله شيء، في جميع صفاته. وطريق السلف الصالح في آيات الصفات: أن يمروها، كما جاءت، فيثبتون لها المعاني اللائقة بالله؛ دون تكييف، ولا تمثيل.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعاً، من أتباع السلف الصالح، وأن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين. إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

﴿بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي: ظهروا، والتقى الجمعان.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ﴾ أي: عندما حدث ذلك، لجأوا إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ بالدعاء، فقالوا:

﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾: فبدؤوا ـ في الدعاء ـ أولاً: بطلب الصبر من الله: أن يفرغ عليهم الصبر. والإفراغ ـ في الأصل ـ: صب الشيء على الشيء، والمعنى: أن يعمهم بالصبر، عموماً كاملاً.

ثانياً: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: طلبوا بعد ذلك تثبيت الأقدام، يعني: الوقوف أمام العدو، بحزم، ونشاط، وقوة، فلا فرار، ولا انصراف.

ثالثاً: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا هو الغاية: أن ينصرهم الله على القوم الكافرين، وذلك بالاستيلاء عليهم، والظهور عليهم، حتى يخذل الأعداء.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: أنهم لما لجأوا إلى الله ـ عز وجل ـ، وسألوه هذه المطالب الثلاثة، استجاب الله دعاءهم، فهزموهم، يعني: أصحاب طالوت، بإذن الله ـ عز وجل ـ، أي: بقضائه، وقدره.

﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ وكان جالوت زعيم العدو، فقتله، وإذا قتل الزعيم ـ زعيم القوم ـ، حصل الفشل، والانهيار، وولوا الأدبار.

﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني: آتى الله داوود ـ الذي قتل جالوت ـ الملك، والحكمة، فكان ملكاً نبياً. ملكاً بقوله ـ تعالى ـ:

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، ونبيا بقوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ ومما علمه ما ذكره الله ـ تعالى ـ، في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ يعني: لولا أن الله يدفع هؤلاء بهؤلاء، لفسدت الأرض، واستولى الأشرار على الأخيار، ولم يبق لله في الأرض طاعة. لكن الله ـ تبارك وتعالى ـ، يبتلي هؤلاء بهؤلاء، حتى يتبين الحق، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وهذا أمر مشاهد، يعني لو كانت السيطرة على العالم، لدولة واحدة، لفسدت الأرض، واسترق هؤلاء الأقوياء رقاب الضعفاء، وحصلت الإهانة والفوضى. ولكن الله ـ تبارك وتعالى ـ، يدفع هؤلاء بهؤلاء. وقد بين الله ـ تعالى ـ نوعاً من هذا الفساد، في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ولكن الله بحكمته، يتفضل على الجميع، فهو ذو فضل على العالمين، يدفع بعضهم ببعض، حتى تستقيم الأمة، وتقوم الملة.

في هاتين الآيتين من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ أن الإنسان ينبغي بل يجب عليه عند الشدائد، أن يلجأ إلى القادر على تفريجها ـ عز وجل ـ، وهو الله؛ لقوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ إلى آخره.

٢ ـ أن الإنسان إذا لجأ إلى ربه، وعرف قدر نفسه، ـ رحمه الله ـ، وأجاب دعاءه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٣ ـ أنه لا يقدر أحد على الصبر، إلا بتوفيق الله، قد يكون الإنسان أشجع إنسان، وأقوى إنسان، وأحسن إنسان، فإذا أصيب بمصيبة خارت قواه، وعجز عن تحملها، إلا بمعونة الله ـ عز وجل ـ.

٤ ـ أن يدعو الإنسان بهذا الدعاء، عند ملاقاة العدو: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

٥ ـ أن النصر من عند الله ـ عز وجل ـ، ليس بقوة السلاح، وليس بقوة العزيمة، وليس بكثرة العدد، وإنما هو من عند الله ـ عز وجل ـ: ولهذا طلبوا النصر من الله، فقالوا: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

٦ ـ استجابة الله ـ تبارك وتعالى ـ للدعاء. وهذه يترتب عليها فائدة أخرى وهي: علم الله ـ عز وجل ـ بحال الداعي. وفائدة أخرى، وهي: سمع الله لدعائه. وفائدة ثالثة، وهي: قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ على

الإجابة، وأنه على كل شيء قدير. ولهذا كان من طرق إثبات وجود الباري ـ عز وجل ـ: استجابة دعاء من دعاه. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

ولقد جرت قصة في عهد النبي ﷺ تدل على هذا المعنى: فقد دخل رجل يوم الجمعة، والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل. فادع الله يغيثنا. فرفع النبي ﷺ يديه إلى السماء وقال: «اللهم أغثنا» ثلاث مرات. فأنشأ الله سحابةً، توسعت، وانتشرت في السماء، ورعدت، وبرقت، ولم ينزل النبي ﷺ من على المنبر، إلا والمطر يتحادر على لحيته ﷺ. وبقي المطر أسبوعاً كاملاً، ثم دخل رجل آخر ـ أو الرجل الأول ـ في الجمعة الثانية، وقال: يا رسول الله، غرق المال، وتهدم البناء، فادع الله يمسكها.. فرفع يديه، وقال: «اللهم حوالينا، ولا علينا، اللهم على الآكام، والظراب وبطون الأودية، ومنابت الشجر» ـ فرأى الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ السحاب يتمايز في الحال، فما يشير النبي ﷺ إلى ناحية إلا انفرجت، وخرج الناس يمشون في الشمس[1]. وهذا يدل دلالةً واضحةً على إجابة الله ـ تبارك وتعلى ـ

---

(١) رواه البخاري كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

دعاء المضطر، وأنه ـ تعالى ـ على كل شيء قدير.

٧ـ إباحة قتل العدو الكافر؛ لقوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾، وهذا في مقام المدح والثناء.

٨ـ أنه ينبغي الحرص على قتل قائد العدو؛ لأنه إذا قتل القائد، تبعثر القوم، وتلجلجوا، وعجزوا عن الإقدام.

٩ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أتم النعمة على داوود ـ الذي قتل جالوت ـ حيث آتاه الله الحكمة، والملك، والعلم.

١٠ـ أن علم البشر، محدود، وليس شاملاً، ولا يمكن أن يكون شاملاً؛ لقوله ـ تبارك وتعالى ـ هنا ـ: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾. و«من» ـ في قوله: مما ـ للتبعيض. ويدلك على أن علم الإنسان قاصر، قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

١١ـ إثبات المشيئة لله، وهي مما لا شك فيها، فيما يتعلق بأفعال الله. ولا أظن أحداً من أهل القبلة يخالف فيها. لكن فيما يتعلق بفعل العبد: هل لله مشيئة في فعل العبد؟ اختلفت أقاويل أهل القبلة إلى ثلاثة أقاويل:

منهم من قال: إنه لا مشيئة لله في فعل العبد، وأن العبد مستقل

بعمله، ولا إرادة لله فيه، ولا مشيئة. وهؤلاء هم المعتزلة، الذين سموا: مجوس هذه الأمة؛ لأنهم جعلوا للحوادث خالقين: فالحوادث التي من الإنسان، يخلقها الإنسان، والحوادث التي هي من فعل الله، يخلقها الله؛ ولهذا سموا مجوس هذه الأمة.

طائفة أخرى، قالت: إن لله ـ تعالى ـ مشيئةً في العبد، ولكن العبد لا مشيئة له إطلاقاً، وأنه مجبر على عمله، وأن عمله الإرادي الاختياري، كعمله الاضطراري الإكراهي. وهؤلاء: الجبرية من الجهمية، وغيرهم. وقد ضلو ضلالاً بعيداً. ولا يمكن أن يستقيم قول على هذا أبداً؛ لأننا لو قلنا: إن الإنسان مجبر، لفعل الإنسان كل ما يريد من المعاصي، أو بعبارة أصرح: لفعل كل شيء من المعاصي، والعدوان على الخلق، ثم يقول: أنا مجبر على هذا. ويذكر أن أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ، قدم إليه سارق، فأمر بقطع يده، فقال السارق: مهلاً يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت هذا إلا بقدر الله. فقال له أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ: ونحن لا نقطع يدك إلا بقدر الله.

أما القول الثالث، فهو: قول أهل السنة والجماعة أهل العدل والحق، حيث قالوا: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له مشيئة في فعل العبد، وللعبد مشيئة، لكن إذا شاء العبد شيئاً، وفعله، علمنا أن الله ـ تعالى ـ قد شاءه. ولا يمكن أن يقع في ملكه، ما لا يريد. وهذا هو الحق، واستمع

إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

١٢- بيان حكمة الله في تسليط الناس بعضهم على بعض، وأنه لولا ذلك، لفسدت الأرض.

لو قدرنا أن أمةً من الأمم، سيطرت على الأرض كلها، لفسدت الأرض، ولكانت هذه الأمة تتحكم في عباد الله. ولكن الله ـ عز وجل ـ بحكمته، جعل الناس يدفع بعضهم بعضاً، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

١٣- أن فساد الأرض، يكون بالعدوان، والسيطرة على الخلق بغير حق.

١٤- أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له الفضل التام على العالمين جميعاً، وهذا الفضل على المؤمنين: فضل دنيوي، وأخروي. وأما على الكافرين، فهو فضل دنيوي، وأما الأخروي، فالرب ـ جل وعلا ـ، يعاملهم بالعدل.

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

﴿تِلْكَ﴾ أي: المشار إليها فيما سبق ذكره من قوله: ﴿﴾ إلى آخره.

﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني: العلامات الدالة على علمه، - تبارك وتعالى - وقدرته، وسلطانه.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي: نقرؤها عليك، لكن بواسطة جبريل ي، كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧-١٩].

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والعدل، فلا كذب في هذه الآيات ولا جور. ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بـ (إن)، وبـ (اللام).

أي: إنك يا محمد لمن المرسلين. وآية رسالته ﷺ: هذا الوحي الذي أوحي إليه، وهو قبل ذلك، كما وصفه الله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩].

في هذه الآية الكريمة من الفوائد، والأحكام، ما يلي:

١- أن هذا الوحي، الذي نزل على النبي ﷺ، من آيات الله.

٢- إضافة التلاوة إلى الله - عز وجل - على محمد ﷺ، مع أن المراد

غيره؛ لأن المراد جبريل ـ عليه السلام ـ، لكن لما كان يتلوها بأمر الله، صحت إضافة التلاوة إلى الله ـ عز وجل ـ.

٣ـ أن ما جاء به الرسول ﷺ حق، وأن الوحي إليه حق، وأن رسالته حق.

٤ـ إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٥ـ أن النبي ﷺ ليس وحده هو الرسول. بل هو من المرسلين، والرسل غيره كثيرون. وقد بين الله ـ تعالى ـ أن منهم من قصه الله علينا، ومنهم من لم يقصصه علينا، ولكن علينا أن نؤمن بجميع الرسل، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾، حين قال لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، بين أن هؤلاء الرسل الكرام قد فضل الله بعضهم على بعض، فضله بالقرب منه ـ عز وجل ـ، وبكثرة الأتباع، وغير ذلك من جهات التفضيل.

ومن هذا التفضيل أن الله خص خمسة منهم بـ «**أولي العزم**»، وهم المذكورون في قوله ـ تعالى ـ في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي سورة الشورى قوله ـ تعالى ـ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣].

هؤلاء هم أولو العزم، أفضلهم محمد ﷺ، ثم إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ثم موسى ـ عليه السلام ـ، ثم عيسى ـ عليه السلام ـ، ثم نوح ـ عليه السلام ـ. وبعضهم فضل نوحًا ـ عليه السلام ـ على عيسى ـ عليه السلام ـ، وبعضهم توقف، فالله أعلم.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: من هؤلاء الرسل من خصه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالكلام، مثل موسى ـ عليه السلام ـ، كما في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٤، ١٦٥] وكلم الله ـ تعالى ـ أيضًا محمدًا حين عرج به إلى السماء

السابعة، فكلمه.

وقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾: لفظ الجلالة بالرفع، لأنه فاعل كلم، وأما المفعول فمحذوف يعود على (من) وتقدير الكلام بدون حذف: منهم من كلمه الله.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: الله ـ عز وجل ـ، رفع بعضهم على بعض درجات، وهو معطوف على قوله «فضلنا». ومن المعلوم أن فضلنا جاء الفاعل فيها باسم مضمر متصل، وهنا جاء باسم مضمر مستتر غير ظاهر، وهذا أسلوب عربي فصيح بلا شك، والفائدة منه الانتباه ـ أعني: انتباه المخاطب ـ لأن الكلام إذا جاء على نسق واحد قد يغفل المخاطب، وإذا تغير الأسلوب انتبه.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أعطيناه البينات؛ أي: الآيات البينات، آيات شرعية: كالأحكام والأخبار التي تضمنها الإنجيل، وآيات كونية: كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. فالبينات هنا صفة لموصوف محذوف، والتقدير: «الآيات البينات».

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾، أي: قويناه بروح القدس، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل:١٠٢]، فروح القدس هو جبريل ـ عليه السلام ـ أيد عيسى ـ عليه السلام ـ، بأمر الله ـ عز وجل ـ في مواضع الضنك والضيق.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾؛ يعني: لو شاء الله لجعل الذين من بعدهم على ملة واحدة وعلى دين واحد فلا يختلفون في الدين، وحينئذ لا يقتتلون.

﴿وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾؛ كما في قول الله - تعالى - في سورة الصف: ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ [الصف:١٤] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾؛ يعني: لو شاء الله - تعالى - أن لا يقتتلوا، ما اختلفوا في الدين ولم يقتتلوا. ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. وفعله ما يريد مبني على الحكمة، فإنه - جلا وعلا - يفعل ما يشاء ويفعل ما يريد، لكن لا بد أن يكون لهذا الفعل حكمة بالغة اقتضت هذا الفعل.

في هذه الآية من الفوائد ما يلي:

١- بيان أن الرسل على طبقات، منهم من فضله الله في الدنيا ورفعه درجات في الآخرة.

٢- أن الفضل بيد الله - عز وجل -، لقوله - تعالى -: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٣- إثبات كلام الله - عز وجل -، وأنه - تعالى - يتكلم بكلام مسموع، يسمعه المخاطب به، ولا يمكن سماعه إلا أن يكون بصوت، ولا يمكن فهمه إلا أن يكون بحرف، واذكر قول الله - تبارك وتعالى -

عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]؛ ناديناه على بعد، وناجيناه على قرب، قال أهل العلم: المناداة للبعيد، والمناجاة للقريب.

٤ـ الرد على طائفتين مبتدعتين:

(الطائفة الأولى): المعتزلة، الذين قالوا: إن الله لا يتكلم، وأن كلامه مخلوق من جملة المخلوقات، وأن إضافته إلى الله إضافة تشريف، كإضافة المساجد إلى الله، في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٤]، وإضافة الناقة إلى الله في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [الشمس: ١٣]، وإضافة البيت «الكعبة» إلى الله كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ [الحج: ٢٦].

(الطائفة الثانية): المبتدعة، قالت: إن كلام الله غير مخلوق، لكن ما يسمعه المخاطب مخلوق، أما الكلام فهو المعنى القائم بنفس الرب ـ عز وجل ـ، وما يسمع فهي أصوات مخلوقة، خلقها الله لتعبر عما في نفسه.

وكلتا الطائفتين ضالة في هذا، فالكلام إنما يضاف إلى من تكلم به، والكلام لابد أن يكون مسموعًا، وإذا أريد الكلام النفسي، فإنه يقيد، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة: ٨]. المهم أنه يجب على المؤمن أن يؤمن ويعتقد بأن الله يتكلم بكلام مسموع.

٥ـأن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ليسوا في درجة واحدة، فإن الله رفع بعضهم درجات.

٦ـإثبات نبوة عيسى ـ عليه السلام ـ وأنه نبي، وليس بإله، وأن الله أعطاه من الآيات ما تبين بها رسالته، وفيها الرد على النصارى الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة.

٧ـأن جبريل ـ عليه السلام ـ يؤيد من شاء الله أن يؤيده من عباده، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

٨ـإثبات مشيئة الله في أفعال العباد، لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ إلخ الآية.

٩ـ الرد على الجبرية، حيث أضاف الفعل إلى العبد فقال: ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾والجبرية لا يرون إضافة الفعل إلى العبد، لأن العبد ليس له اختيار، ويرون أن إضافة الأفعال إلى العباد على وجه المجاز. ولكن قولهم باطل بالكتاب والسنة وإجماع السلف والنظر الصحيح.

١٠ـإثبات أن أفعال العبد تحت مشيئة الله، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ﴾ خلافًا للقدرية المعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، ولا علاقة لمشيئة الله في عمل العبد إطلاقًا، ولا شك في قولهم أنه باطل، فإن الله يقول﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، والمشيئة

وصف قائم بالعبد، والعبد مخلوق لله؛ فتكون أوصافه مخلوقة لله ـ عز وجل ـ.

١١ـ وفي قوله: ﴿مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم﴾ رد على الجبرية الذين ينكرون أن يكون للعبد فعل اختياري، ويرون أن جميع أفعال العباد أفعال إجبارية، وهذا أيضًا باطل، ولا يمكن أبدًا أن تستقيم به أمة أو تقوم به ملة؛ لأنه لو قلنا: إن الإنسان مجبور على عمله، أمكن لكل فاسق أن يفسق، ولكل ظالم أن يظلم، ولكل كافر أن يكفر، ويقول: هذا ليس مني، هذا وقع مني إجبارًا، بل أمكن كل واحد أن يقتل البريء، ويزني بالعفيفة، ويقول: هذا ليس مني، فيكون الفساد الظاهر. أن وقوع القتال بعد الآيات البينات أشد ملامة؛ لأنه يقع دون أن يكون للإنسان عذر، لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

١٢ـ أن الناس يختلفون حتى فيما قامت البينة عليه؛ لأنه لا بينة أوضح ولا أقوم ولا أبين من بينة الدين التي قامت الأدلة على ثبوتها، ومع ذلك ينقسم الناس فيه إلى مؤمن وكافر.

١٣ـ أن الاختلاف في الدين يؤدي إلى التقاتل، يعني: إلى المقاتلة، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾.

١٤ـ تأكيد أن اقتتالهم بمشيئة الله، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

﴿اقْتَتَلُوا﴾؛ يعني: لو شاء الله ما كفروا وما اقتتلوا، وذلك بأن يجعلهم الله أمة واحدة لا عداوة بينها ولا اختلاف.

١٥- أنه ينبغي لنا إذا رأينا اختلاف الأمة أن نفزع إلى الله ونلجأ إليه بأن يجمعهم على الحق، ويزيل ما بينهم من اختلاف، لأننا علمنا أن هذا الاختلاف كان بمشيئة الله، وما كان بمشيئة الله فلن يرفعه إلا مشيئة الله ـ عز وجل ـ.

١٦- أن أفعال العبد من أفعال الله ـ عز وجل ـ، يعني أن فعل العبد خلق لله ـ عز وجل ـ؛ لأن الإنسان إنما يفعل ما يفعل بأمرين: القدرة والإرادة، فمن قدر ولم يرد لم يقع منه شيء. ومن أراد ولم يقدر لم يقع منه شيء.

وإذا سألنا سائل: القدرة والإرادة من خلقها في العبد؟

فالجواب: أن الذي خلقها هو الله. وعلى هذا فيكون فعله مخلوقًا لله ـ عز وجل ـ، مفعولًا له، لأن خالق السبب التام خالق للمسبب. لكنه ليس هو فعل الله الذي هو فعله المباشر، فالإنسان إذا صام لا نقول: إن الصائم هو الله، وإذا أكل لا نقول: إن الآكل هو الله، وإذا أنفق لا نقول: إن المنفق هو الله. لكن نقول: هذا الصوم وهذا الأكل وهذا الإنفاق حصل بإرادة العبد وقدرته، وخالق إرادته وقدرته هو الله ـ عز وجل ـ، ولو شاء الله ما فعل. ولذلك تجد الإنسان أحيانًا يعزم

على الشيء ويتهيأ له تهيؤًا كاملًا، وإذا به يصرف عنه، إما باختيار شيء آخر، وإما بعدم الاختيار، وإما بأن يصرف عنه قهرًا عليه، لأن الله لم يشأه.

١٧ ـ إثبات الإرادة لله ـ عز وجل ـ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، والإرادة هنا بمعنى المشيئة، وإرادة الله ـ تعالى ـ تنقسم إلى قسمين:

إرادة بمعنى المشيئة، وإرادة بمعنى المحبة. فإن كان المراد محبوبًا لله فهو إرادة محبة، وإن كان غير محبوب إلى الله فهو إرادة مشيئة. مثال إرادة المحبة: قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء:٢٧] هذه إرادة محبة، لكن قد تقع وقد لا تقع. قد يتوب الله على الإنسان فييسر له التوبة، وقد لا يكون كذلك، وكذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] يريد هنا: إرادة محبة، فالله ـ تعالى ـ لا يحب لعباده العسر، وإنما يحب لهم اليسر، وتسمى الإرادة التي بمعنى المحبة: إرادة شرعية، والإرادة التي بمعنى المشيئة: إرادة كونية، ومنها قوله هنا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ أي: ما يشاء. ويدل على أن الإرادة هنا بمعنى المشيئة، قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

يخاطب الله المؤمنين بوصفهم مؤمنين ليأمرهم بالإنفاق مما رزقهم، أي: مما أعطاهم من المال، وإن شئت قل: ومن العلم أيضًا، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرزق المال ويرزق العلم. والمراد بالرزق هنا العطاء.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾؛ لأن الإنسان إذا مات انتقل إلى اليوم الآخر، الذي ليس فيه بيع فيشتري الإنسان ما يفدي به نفسه.

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾؛ أي: صداقة، فيطلب من صديقه أن يساعده.

﴿وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ﴾؛ أي: وساطة، فيطلب أن يتوسط له أحد، لكي ينجو بذلك من عذاب الله. كل الوسائل التي تكون سببًا للإنقاذ منتفية في ذلك اليوم.

﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ الكافرون بالله ـ عز وجل ـ، المستكبرون عن عبادته، هم الظالمون: يعني: الذين هم أظلم الناس. وكما ترى أيها الأخ الكريم الآية فيها ضمير الفصل ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ وضمير الفصل الذي يقع بين المبتدأ والخبر يفيد ثلاثة أشياء: التوكيد، والحصر، والتمييز بين كون ما بعده خبرًا أو وصفًا، فإذا قلت: (**زيد هو القائم**) استفدنا من هذه العبارة تأكيد قيام زيد، وتأكيد أنه هو القائم لا غيره،

والتمييز بين كون «القائم» صفة لزيد، أو خبر، لأن ما بعد ضمير الفصل يقع خبرًا، أما نفس الضمير فلا محل له من الأعراب، لأنك لو قلت «زيد القائم» قد لا يفهم المخاطب أن «القائم» خبر لزيد، قد يتوقع مجيء الخبر، وأن الخبر محذوف، فإذا قلت: «هو القائم» تعين أن يكون القائم هو الخبر، ففي هذه الآية ضمير الفصل فائدته ما ذكرنا: التوكيد، والحصر، والتمييز بين الخبر والوصف.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ إكرام الله ـ تعالى ـ للمؤمنين حيث يوجه لهم الخطاب بوصف الإيمان.

٢ـ أنه إذا صدر الخطاب بمثل هذا: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كان ذلك دليلًا على أن ما بعده من تمام الإيمان ومقتضيات الإيمان، سواء كان خبرًا فيصدق، أو طلبًا فيمتثل.

٣ـ أن المخالفة نقص في الإيمان. كأنه يقال: إن لم تأت بهذا أو لم تصدق بهذا، فإنك لا تستحق أن توصف بالإيمان.

٤ـ الأمر بالإنفاق مما رزقنا الله ـ عز وجل ـ، وهذا الأمر قد يكون واجبًا، كالزكاة، وتعليم العلم الواجب تعليمه، والإنفاق في الحج، والإنفاق في الجهاد الواجب، والإنفاق في النفقات الواجبة. وما عدا الواجب فهو تطوع؛ لأن القول الراجح من أقوال الأصوليين: أنه يجوز

استعمال الاسم المشترك في معنييه.

٥ـ أن المطلوب أن تنفق من مالـك، لا أن تنفـق كـل مالـك، لقولـه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾؛ لأن أكثـر النـاس قـد لا يـصبر إذا أنفـق جميـع مالـه؛ فيحوجه ذلك إلى تكفف النـاس وسـؤال النـاس. ولهـذا لما نـذر بعـض الصحابة أن ينفق ماله، أمره النبي ﷺ أن ينفق ثلث المال.

٦ـ بيان أن الله ـ تعالى ـ أمرك بأمر هـو الـذي مـن بـه عليـك: ﴿مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ ليس شيئًا كسبتموه بأيديكم بدون الله، بل هو الـذي رزقـك وأعطاك، ثم أمرك أن تنفق لمصلحة نفسك.

٧ـ أن الرزق مـن عنـد الله ـ عـز وجـل ـ. وإذا كـان مـن عنـده، كـان الواجب على العبد أن يعتمـد عـلى ربـه في رزقـه، لا عـلى فـلان وفـلان، يعتمـد عـلى الله. وإذا صـدق اعـتماده عـلى الله صـارت هـذه الأشـياء وسـائل: الوظيفـة وسـيلة، فـتح المتجـر وسـيلة، الاشـتغال بالـسيارة في الطرقـات وسـيلة. والأصل الأول والأخير هـو الله ـ عـز وجـل ـ، لأنـه هو الذي رزقك وهو الذي أعطاك.

٨ـ أن لا منة للعبد على ربه إذا أنفق ما أمـر الله بإنفاقـه، لأن الله هـو الذي رزقه، وهو الذي أعطاه ـ عز وجل ـ.

٩ـ أن الإنفاق ينجي مـن أهـوال يـوم القيامـة، لقولـه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ ولهـذا جـاء في الحـديث: «كـل امـرئ في ظـل صـدقته يـوم

القيامة»[١] وقال النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[٢].

١٠- ومنها أن ذلك اليوم - وهو يوم القيامة - ليس فيه بيع فيفتدي الإنسان بما يشتري، وليس فيه صداقة تنفع، وليس فيه شفاعة تنفع. أما الأول «لا بيع فيه» فظاهر، وأما الثاني فكذلك ظاهر، قال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان:٣٣] وقال الله - تبارك وتعالى -: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] وقال الله - تعالى -: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. كذلك الصداقة لا تنفع، ليس فيه خلة نافعة، بل ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وذلك اليوم ليس فيه شفاعة. والمراد: ليس فيه شفاعة للكافر، أما عصاة المؤمنين فلهم شفاعة، كما ثبتت بل تواترت به الأحاديث عن النبي ﷺ، وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أن الشفاعة نوعان: عامة وخاصة. عامة لكل

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٨٨٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم (١٤٢٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

الناس، وخاصة فيمن اقترف إثمًا ودخل في النار، فيأذن الله للشافع فيشفع.

أما العامة: فهي التي بينها النبي ﷺ أن الناس يوم القيامة يلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، لأنه يوم مقداره خمسون ألف سنة، لا ماء ولا طعام ولا ظل، إلا من أظله الله ـ عز وجل ـ، فالناس في ذلك اليوم يلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، فيقولون: ـ يعني ـ: فيقول بعضهم لبعض ـ: اطلبوا شافعًا يشفع لنا عند الله يريحنا من هذا الموقف، فيأتون إلى آدم، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، ثم إلى محمد ﷺ فيشفع عند الله أن يقضي بين العباد، فيأذن الله له، ويقضي بين العباد[1].

أما الخاصة: فهي الخاصة بالمؤمنين الذين اقترفوا السيئات، ليخرجوا من النار. وهذه للنبي ﷺ ولغيره من الأنبياء والصدقين والشهداء والصالحين. وهذه الشفاعة الخاصة لا يمكن أن يؤذن بها للكافرين أبدًا، لأن الله لا يرتضيهم، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. إلا واحدًا فقط، وهو أبو طالب عم النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ أخبر أنه شفع له، حتى كان في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿يَزِفُّونَ﴾ رقم (٣٣٦١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه[١]. نسأل الله العافية.

أن الظالم حقيقة هو الكافر، ظالم لنفسه، ظالم في حق ربه. أما ظلمه لنفسه فواضح؛ لأنه عرضها لعقوبة الله -عز وجل-، وأما ظلمه في حق ربه، فلأنه جعل لله ندا وهو خلقه، وهذا أعظم الظلم. قال بعض أهل العلم: الحمد لله الذي لم يقل: (**والظالمون هم الكافرون**)؛ لأنه لو قال هذا، لكان كل ظالم كافرًا، لكن قال: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾. فإن قال قائل: ألا يوجد ظالم غير كافر؟ قلنا: بلى، لكن الظلم الأكبر الفظيع القبيح هو ظلم الكفر -والعياذ بالله- والظلم درجات كما أن الإيمان درجات والعمل الصالح درجات.

* * *

ثم قال الله -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هذه آية عظيمة، هي أعظم آية في كتاب الله. (سأل النبي ﷺ أبي بن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠).

كعب: أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: يا رسول الله، آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ﴾. فضرب النبي ﷺ على صدره، وقال: «ليهنك العلم أبا المنذر»[1]. وإنما ضرب على صدره لأن الصدر محل القلب، والقلب محل الوعي.

وهذه الآية لها خصائص، منها:

١ـ أنها أعظم آية في كتاب الله.

٢ـ أن فيها اسم الله الأعظم (الحي القيوم).

٣ـ أنها اشتملت على جمل عظيمة، كل جملة تحمل أسفارًا.

٤ـ أن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح. جاء ذلك في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ فإن النبي ﷺ استحفظه على زكاة الفطر، فجاء شخص بصورة إنسان فقير، فأخذ من الطعام، فأمسكه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فادعى هذا الشخص أنه فقير وذو عائلة، فرق له أبو هريرة، وتركه. فلما أصبح أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ ذهب إلى النبي ﷺ فقال له ـ أي النبي ﷺ:«ما فعل أسيرك البارحة؟» لأن أبا هريرة أمسكه ـ أي: أسره ـ. قال: يا رسول الله، ادعى أنه فقير وذو عيال

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم (٨١٠).

فأطلقته. قال: «إنه كذبك وسيعود». يقول أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: فعلمت أنه سيعود؛ لأن النبي ﷺ قال: سيعود، فعاد في الليلة الثانية، وصارت الليلة الثانية كالأولى، ولم يأت به أبو هريرة إلى النبي ﷺ، لأن النبي ﷺ لما أخبره أنه سيعود لم يقل له: إن عاد فأت به. فعلم أبو هريرة أن الأمر واسع، فأطلقه الليلة الثانية.

وفي الليلة الثالثة ـ والعادة أن الثلاث يثبت بها الأمر ـ أمسكه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ وقال: لابد أن أرفعك إلى النبي ﷺ. فقال له الشيطان: ألا أدلك على آية تقرؤها فلا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح؟ قال: بلى. قال: آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فلما أصبح أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أتى النبي ﷺ فأخبره أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ بما جرى، فقال له النبي ﷺ: «أما إنه صدقك وهو كذوب»[1] أي: أخبرك بالصدق، وليس من عادته الصدق، لكن الله ـ تعالى ـ أنطقه به وهو كذوب.

ففي هذا دليل على أن الإنسان إذا قرأ هذه الآية لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان، وليت الناس انتبهوا لهذا واستمروا في قراءتها حتى يكون عليهم من الله حافظ، ولا يقربهم الشيطان حتى يصبحوا.

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، رقم (٥٠١٠).

نعود إلى تفسير كلماتها: يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حق إلا هو، فكل ما عبد من دون الله فهو باطل، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] فمن عبد حجرًا أو شجرًا أو شمسًا أو قمرًا أو نبيا أو غيره، فقد عبده بغير حق.

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الحي: لم يقل: الله لا إله إلا هو حي قيوم. قال: الحي، و«ال» تفيد الكمال والعموم، أي: الكامل الحياة. فهو ـ جل وعلا ـ حي لا يموت، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] وهو ـ سبحانه وتعالى ـ أزلي، أي: لم يزل حيا. حياته أيضًا كاملة من حيث الصفات، فهو كامل في سمعه، في بصره، في علمه، في قدرته، في كل شيء من صفاته. إذن فحياته كاملة من جهة الابتداء والانتهاء والصفات. في الابتداء: لا ابتداء له. في الانتهاء: لا نهاية له. في الصفات: كل صفاته كمال.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: من قام، أي: القائم بنفسه، القائم على غيره. فهو قائم بنفسه لا يحتاج إلى أحد أبدًا؛ لا يحتاج إلى أحد في طعام ولا شراب ولا غير ذلك، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] يعني: كمن لا يستطيع ذلك؟ من القائم على كل نفس بما كسبت؟ هو الله ـ عز وجل ـ، فهو قائم على غيره، كما أنه قائم بنفسه،

فلا يحتاج إلى أحد، وكل أحد محتاج إليه.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: لا تأخذه: أي: لا يمكن أن ينام، ولا أن ينعس، قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام»[1].

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: له وحده، وإنما قلنا وحده لأن «له» خبر مقدم، و«ما» مبتدأ مؤخر. قال العلماء: وتقديم ما حقه التأخير من خبر أو مفعول أو متعلق يفيد الحصر. فعلى هذا يكون: له، أي: لا لغيره.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ما في السموات من أعيان وأوصاف، ولهذا جاءت (ما) دون (من) للإفادة أن كل ما في السموات وما في الأرض من أوصاف أو أعيان فهو لله ـ عز وجل ـ. والسموات أوسع من الأرض بكثير، وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من موضع أربع أصابع من السماء إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد[2].

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ هذا استفهام بمعنى النفي. يعني: لا أحد يشفع عند الله ـ مهما كانت منزلته عند الله ـ إلا بإذن الله.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن الله لا ينام» رقم (١٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، رقم (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٠٠٥).

حتى الوسطاء الذين يريدون الخير لغيرهم لا يمكن أن يحصل لهم ذلك إلا بإذن الله ـ عز وجل ـ، وذلك لكمال سلطانه وملكوته وعظمته، لا أحد يتكلم حتى فيما فيه خير للغير إلا بإذن الله ـ عز وجل ـ.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ «ما» موصول يفيد العموم، أي: كل ما بين أيديهم يعلمه الله ـ عز وجل ـ، والمراد به الحاضر والمستقبل، فالحاضر بين يديك، والمستقبل بين يديك.

﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما مضى، فبعلمه ما مضى لا ينسى، وبعلمه ما يستقبل لا يجهل، كما قال موسى ـ عليه السلام ـ حين سأله فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢]. إذن ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الحاضر والمستقبل. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: الماضي. وما شأن علم الإنسان إذا كان علم الله محيط بكل شيء؟

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ لا يحيطون: يعني الخلائق. ﴿بِشَىْءٍ﴾ أدنى شيء من علمه. ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾؛ أي: إلا بالذي يشاؤه ـ جل جلاله ـ، فالله ـ تبارك وتعالى ـ هو الذي يعلم من شاء من عباده من أمور الغيب وأمور الشاهد.

وقوله: ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾؛ أي: إلا بما شاء أن يحيطوا به، فيعلمهم به.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني: أحاط بها، بالسموات والأرض. والكرسي فسره ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بأنه موضع القدمين، أي: قدمي الرب ـ عز وجل ـ، فهو بالنسبة للعرش كالمقدمة. وسع كرسيه السموات والأرض، وإذا كان الكرسي وسع السموات والأرض، فالعرش من باب أولى، لأن العرش أعظم وأكبر من الكرسي.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ لا يئوده: أي لا يثقله. ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي: حفظ السموات والأرض. وذلك لسعة علمه وكمال عظمته ـ جل وعلا ـ، فإن ما في السموات وما في الأرض لا يثقل الله ـ سبحانه وتعالى ـ حفظه، بل ذلك سهل عليه، يسير عليه ـ سبحانه وتعالى.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ العلي: من العلو، يعني العالي فوق عباده، العالي المنزلة، فهو عالي المكان عالي المنزلة ـ جل وعلا.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني: ذو العظمة والسلطان وكمال القدرة والحول وما إلى ذلك.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - إثبات توحيد الله ـ عز وجل ـ في ألوهيته، لقوله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وتوحيد الألوهية أخل به كثير من الناس اليوم، فتجد الرجل يقول: إنه مسلم، وتجده يصلي، ويصوم، ويحج ويعتمر، لكن لا يقبل

منه، لأنه مشرك، ولهذا لا يغفر الله الشرك إلا بتوبة، ولا يقبل الله عملًا مع شرك إلا بتوبة من الشرك.

٢ـ إثبات هذين الاسمين العظيمين: «الحي القيوم»، قال أهل العلم ـ وأظنه قد ورد فيه حديث ـ إنهما اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى(١).

٣ـ إثبات ما دل عليه هذان الاسمان، وهي الحياة والقيومية، وذلك لأن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ كلها مشتملة على المعاني والأوصاف العظيمة الحميدة. وإثبات حياة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقيوميته تتضمن أوصافًا كثيرة: كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والحكمة، والعزة، والقوة، وغير ذلك، لأن كل هذه من كمال الحياة، الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿ٱلۡحَيُّ﴾، أي: ذو الحياة الكاملة.

٤ـ أنه يجب على المرء أن يرجع إلى ربه في جميع أموره، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ يعني: القائم بنفسه، القائم على غيره ـ عز وجل ـ فإذا كان هو القائم عليك، فلا تلجأ إلا إليه ـ عز وجل ـ في جلب المنافع ودفع المضار، ولا تتخذ ربا سواه، أفرد الله ـ تعالى ـ بالتوكل، أفرد الله ـ تعالى ـ بالإنابة، بالخشية، بكل ما يختص الله به.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٧٠٦٤).

٥ـ كمال حياة الله ـ عز وجل ـ وكمال قيوميته؛ لقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. ومن المعلوم أن انتفاء السنة والنوم دليل على كمال الحياة؛ لأن الذي يحتاج إلى النوم ويأخذه النوم ناقص الحياة. فنحن نحتاج إلى النوم لنستريح من عناء التعب السابق، ولنستجد القوة للتعب اللاحق، ولهذ كان أهل الجنة لا ينامون؛ لأنه لا يمسهم فيها نصب ولا لغوب.

٦ـ إثبات الصفات التي يسمونها الصفات السلبية، يعني: المنفية؛ لقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. ومعنى إثباتها: أن الله يوصف بالنفي كما يوصف بالإثبات. لكن يجب أن نعلم أن النفي الذي يتصف الله به، إنما ينفي عنه لكمال ضده. فمثلًا إذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فالمعنى: أنه لا يظلم لكمال عدله، لا لأنه عاجز عن الظلم، لو شاء لظلم، لكن لكمال عدله لا يظلم، ولهذا جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا» [1]. كذلك حين يقول هنا: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، هل المراد نفي النوم عن الله ـ عز وجل ـ والسنة التي هي النعاس؟ أو المراد لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم ـ عز وجل ـ؟ الثاني هو المتعين؛ يعني: أنه لكمال حياته وقيوميته لا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

تأخذه سنة ولا نوم ـ جل وعلا ـ.

٧ـ إثبات الشفاعة بإذن الله، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾.

٨ـ أنه لا أحد يشفع عند الله إلا بعد أن يأذن الله له، فيدل ذلك على كمال سلطانه ـ عز وجل ـ، وأنه لكمال سلطانه لا أحد يستطيع أن يتكلم ولو بما ينفع الغير إلا بإذن الله. الملوك مهما عظمت منزلتهم لهم أصحاب وأصدقاء يستطيعون أن يشفعوا لأحد دون أن يستأذنوا من السلطان. لكن الرب ـ عز وجل ـ مهما كان الشافع في منزلته، ومهما كان المشفوع له في حاجته، لا أحد يستطيع أن يشفع عند الله إلا بإذنه ـ عز وجل ـ، لكمال سلطانه ـ تبارك وتعالى.

٩ـ علم الله ـ عز وجل ـ بكل ماض وحاضر ومستقبل، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾.

ويترتب على هذه الفائدة أنك متى علمت أن الله ـ عز وجل ـ عالم بما بين يديك وما خلفك، فإنك سوف تحذر من مخالفته ـ عز وجل ـ، لأنك مهما خالفت في سر أو إعلان أو ظهور أو خفاء، عندك أحد أو ليس عندك أحد، فإن الله ـ تعالى ـ عالم به، فاحذر أن يعلم الله منك ما يخالف ما يريد منك.

١٠ـ أنه لا علم لنا إلا ما علمنا ـ عز وجل ـ، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا

﴿ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ فنحن لا نعلم عنه ولا عن صفاته إلا بما شاء، ونحن لا نعلم عن مخلوقاته إلا ما علمنا، فهاهنا شيئان: الأول: ما يتعلق بذات الله ـ عز وجل ـ وصفاته. والثاني: ما يتعلق بمخلوقاته. وكلاهما لا نعلمه إلا بما علمنا ـ عز وجل ـ. ولذلك يجب علينا الكف عن الكلام في ذات الله ـ تعالى ـ وصفاته إلا ما وصل إلينا علمه، ويجب علينا الكف عما يتعلق بمخلوقاته إلا بما وصل إلينا علمه.

١١ ـ عموم ملك الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأن له ما في السموات وما في الأرض من الأعيان وما ينتج عنها من أفعال وغير ذلك، ويترتب على هذه الفائدة: أنه لا حكم في السموات والأرض إلا لله ـ عز وجل ـ، لأنه هو المالك، والمالك يدبر ملكه على ما يشاء.

١٢ ـ أن الله وحده هو الذي له ملك السموات والأرض، أما غير الله ـ تبارك وتعالى ـ فلن يملك شيئًا من السموات والأرض إلا ما ملكه الله ـ عز وجل ـ، ومع ذلك فملكه ناقص من حيث الشمول، ناقص من حيث التصرف، فقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ [النور: ٦١] أثبت للعباد ملك المفاتيح، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ [المؤمنون: ٦] أثبت للعباد ملك اليمين. لكن هل هذا الملك للإنسان ملك عام لكل ملك يمين؟ لا. فلان يملك عبده، وفلان يملك عبده، وليس أحدهما يملك عبد الآخر.

كذلك أيضًا ملك الإنسان لما ملكه الله - عز وجل - ليس حرًّا فيه يفعل ما شاء، بل هو ملك مقيد، لا يتصرف فيه إلا حيث أذن الله له فيه. أما الملك الشامل العام المطلق فهو لله رب العالمين.

١٣- إثبات أن السموات جمع، لقوله: ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، وهذا الجمع قد بين في القرآن الكريم أنه سبع سماوات. قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] وقال الله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. أما الأرض فجاءت في القرآن مفردة لكن يراد بها الجنس، والمفرد الذي يراد به الجنس يعم كل جنس، لكن ظاهر قول الله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يقتضي أن الأرضين سبع، لأن المماثلة - أعني مماثلة الأرض للسماء في غير العدد غير ممكنة، لأن السماء أعظم وأوسع، وهي محيطة بالأرض، فتعين أن يكون قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾؛ أي: مثلهن في العدد. أما السنة فصريحة في أن الأرضين سبع، كقول النبي ﷺ: «من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين»(١).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١١٢).

١٤- أنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذن الله، وذلك لكمال سلطانه - عز وجل -.

١٥- إثبات الشفاعة، لأنه لولا ثبوت الشفاعة لم يكن لقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فائدة، فالشفاعة ثابتة، ولكنها بإذن الله - عز وجل -، فيؤخذ منه إثبات الشفاعة، وقد سبق أن قلنا: إن الشفاعة نوعان، فليعاود ما ذكرناه سابقًا.

١٦- إثبات علم الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، وإثبات عمومه في الماضي والمستقبل والحاضر، لقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

١٧- أن الخلق لا يحيطون بشيء من علم الله إلا بما شاء. ويتفرع على هذه القاعدة أنه لا يحل لنا أن نتكلم عن كيفية صفة من صفات الله إذا لم يبين لنا ذلك في الكتاب والسنة. فلو أن أحدًا قال: إن الله استوى على العرش. كيف استوى؟ فإنا نقول: لا يحل لك أن تسأل هذا السؤال، لأن هذا من التعمق في الدين والتنطع فيه. وقد قال النبي ﷺ: «هلك المتنطعون» ثلاث مرات[1]. ولما سئل الإمام مالك - رحمه الله - عن قوله - تعالى -: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ أنكر هذا السؤال، وقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول،

(١) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». وأصاب في إنكاره ـ رحمه الله ـ، لأنه لو كان السؤال عنه من الحق، لكان أولى به صحابة رسول الله ﷺ، لأنهم أحرص الناس على معرفة الله وأسمائه وصفاته، ولأن عندهم من إذا سألوه أجابهم، وهو الرسول ﷺ، فيما عنده فيه علم.

١٨ـ إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ويتفرع على ذلك أنك إذا سألت العلم فاسأل الله، علق قلبك بربك ليزيدك علمًا، ولكن لا يعني ذلك إبطال الأسباب التي يحصل بها العلم كالأخذ من العلماء أو من الكتب الموثوقة أو ما أشبه ذلك.

١٩ـ إثبات الكرسي، وأنه عظيم شامل للسماوات والأرض، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

٢٠ـ أن الله ـ تعالى ـ ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾؛ أي: لا يثقله ـ سبحانه وتعالى ـ، حفظ السموات والأرض، لا حفظها بذاتها ولا حفظه ما فيها من مخلوقات الله. وتصور السموات والأرض، لا يمكن أن تحيط بهما، ومع ذلك فالله ـ تعالى ـ لا يثقله حفظهما لكمال قوته ـ عز وجل ـ.

٢١ـ إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ العلي بذاته، العلي بصفاته، فهو نفسه فوق كل شيء، وصفاته كلها عليا، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ ﴾[النحل: ٦٠]. وهو كذلك علي في صفاته ليس في صفاته نقص بوجه من الوجوه. العظيم: يعني ذو العظمة، فلا شيء أعظم من الله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر: ٦٧].

وأحث إخواني المسلمين على قراءة هذه الآية كل ليلة؛ لأنه إذا قرأها الإنسان في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح. وإذا كان الإنسان يبذل الشيء الكثير لمن يحرسه من البشر. مع أن البشر لا يستطيعون حراسته من شياطين الجن؛ فليقرأ هذه الآية بدون بذل مال. ثم هو في قراءته لها يؤجر، كل حرف بحسنة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وأوصي إخواني أن يقرءوها بتمهل وتدبر حتى يتبينوا عظمة هذه الآية التي أقر النبي ﷺ أبي بن كعب حين سأله: «أي آية أعظم في كتاب الله؟» قال: آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ وأوصي أيضًا بتدبر ما فيها من صفات الله ـ عز وجل ـ العظيمة وأسمائه الحسنى الكريمة حتى يزداد بذلك إيمانًا بالله وتعظيمًا له ولكتابه. وأسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لي ولإخواني المسلمين أن يجعلنا من المتدبرين لكتابه المعظمين له ـ عز وجل ـ القائمين بأمره ليلًا ونهارًا،

وسرا وجهارًا، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

*　*　*

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

هذه الآية يظن بعض الناس أنها من آية الكرسي، وليس كذلك. آية الكرسي آية واحدة مستقلة، وهذه آية أخرى مستقلة فليست منها.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾؛ أي: لا أحد يكره في دين الله. بل من دخل في دين الله دخله اختيارًا، لأنه قد تبين الرشد من الغي، فأي إنسان يتأمل الإسلام بمحاسنه عبادة وأدبًا وخلقًا لابد أن يدخل الإسلام مختارًا؛ لأنه فطرة الله، ولهذا قال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾، وهذه الجملة تعليل للحكم السابق، أي: لا إكراه في الدين؛ لأنه تبين الرشد من الغي، فمن دخل في الدين دخله اختيارًا لا بإكراه، وليس معنى الآية كما يظن بعض الناس: لا إكراه على الدين، وأن هذه الآية قد نسخت لوجوب الجهاد. لأن الآية لا تدل على هذا المعنى، بل الجهاد قائم لمن عاند واستكبر، وأما من تمشى على الفطرة فلا يحتاج إلى جهاد، ولا إكراه على الدين، والمراد بالدين هنا دين محمد ﷺ؛ لأنه هو الدين المقبول عند الله. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٩]،

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾؛ أي: ظهر واتضح. و﴿ٱلرُّشْدُ﴾: سلوك طريق الصواب. و﴿ٱلْغَيِّ﴾: مجانبة الصواب.

﴿تَّبَيَّنَ﴾: هنا فيها نوع من تضمير التمييز. يعني: تبين وتميز الرشد من الغي. ثم ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ أنه بعد تبين الرشد من الغي، انقسم الناس إلى قسمين: ذكر أحدهما، وطوى ذكر الآخر، فقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾؛ أي: من ينكر الطاغوت ويبتعد عنه.

والمراد بالطاغوت: كل ما خالف حكم الله ـ عز وجل ـ، فإنه طاغوت. ويختلف، هو على درجات، بل هو على دركات، ودليل قولنا: إن الطاغوت كل ما خالف حكم الله، قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠].

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، أي: إيمانًا حقيقيا خاليًا من الكفر، خاليًا من الشك، خاليًا من الشرك. وقدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ليرد الإيمان على قلب خال من الشوائب. ولهذا يقال: التخلية قبل التحلية، يعني. خل المكان من الشوائب ثم حله وزينه. ولهذا جاء النفي في كلمة

التوحيد قبل الإثبات: لا إله إلا الله.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾؛ استمسك: بمعنى تمسك. وزيدت الهمزة والسين للمبالغة، أي تمسك تمسكًا قويا. والعروة الوثقى: هي ما يتمسك به الإنسان، كالعرى التي تكون في جوانب البركة أو البئر لمن أراد السباحة. الوثقى: يعني الوثيقة، التي يطمئن المتمسك بها اطمئنانًا كاملًا غير خائف من الغرق.

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾؛ أي: لا انقطاع، يعني عروة وثيقة لا تنقطع.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: سميع لكل قول، عليم بكل فعل، بان أو خفي.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أن الدين الإسلامي دين الفطرة، يقبله كل ذي فطرة سليمة، وأما المعاند المستكبر فهذا يصدق عليه قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

٢- أن الدين الإسلامي رشد، وما سواه غي، فالدين الإسلامي حلم وما سواه سفه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا

مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٣. أن من التبس عليه الرشد بالغي بعد تبينه، فهو أضل من بهائم الأنعام، وقد قال الله ـ تعالى ـ عن المكذبين: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤].

٤ـ أنه لا يتم الإيمان بالله حتى يتم الكفر بالطاغوت. ولكن هل يجتمع هذا مع هذا؟ الجواب: أما الكفر المطلق فلا يمكن أن يجتمع مع الإيمان. وأما مطلق الكفر فيمكن أن يجتمع مع الإيمان الناقص، دليل ذلك قول النبي ﷺ:«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[1]. فجعل قتال المؤمن كفرًا، لكنه كفر يجتمع مع الإيمان، بدليل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]، فجعل الله الطائفتين المقتتلتين إخوة لنا في الإيمان، مع أن النبي ﷺ قال: «قتاله كفر»، فمطلق الكفر يمكن أن يجتمع مع مطلق الإيمان، أما الكفر المطلق فلا يمكن أن يجتمع مع الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم (٦٠٤٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» رقم (٦٤).

٥ـ أن من كفر بالطاغوت وآمن بالله، فالنجاة مضمونة له، لقوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ وهو كذلك. قال النبي ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة؛ فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»(١).

٦ـ إثبات اسمين من أسماء الله، هما: السميع والعليم. فبسمعه ـ جل وعلا ـ يسمع كل شيء، كل صوت وإن خفي، يعلم السر وأخفى ـ عز وجل ـ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، أي: أخفى من السر، وهو ما حدث الإنسان به نفسه، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦، ١٧].

٧ـ إثبات علم الله المستفاد من الاسم الكريم ﴿عَلِيمٌ﴾. لأن أسماء الله كلها تدل على معان، ليس فيها اسم جامد لا يدل على معنى أبدًا، كل أسمائه تدل على ما تضمنته من المعاني، قال العلماء: وكذلك أسماء النبي ﷺ كلها تدل على ما تضمنته من المعاني، وكذلك أسماء القرآن. واعلم أن علم الله ـ تبارك وتعالى ـ محيط بكل شيء، جملة وتفصيلًا، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٤).

يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢] وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقال ـ تعالى ـ في تفصيل علمه: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وإذا آمن الإنسان بهذا العلم، لزم أن يخشى الله ـ عز وجل ـ. لأنه إن تكلم علم الله به، وإن فعل علم الله به، وإن ترك شيئًا مأمورًا به علم الله به، وإن أسر شيئًا في نفسه علم الله به، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فمتى آمن الإنسان بهذا الاسم وما تضمنه من الصفة، فلابد أن يحدث له خوفًا من الله وخشية منه، حتى لا يعلمه على وجه لا يرضى به عنه.

* * *

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾: أي: يتولاهم في الدنيا والآخرة. هذه الولاية الخاصة؛ لأن ولاية الله ـ عز وجل ـ نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: في مثل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٣٠]. أما الولاية الخاصة: ففي مثل هذه الآية، وفي مثل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١]. ومن ولايته ـ عز وجل ـ للمؤمنين تلك الولاية الخاصة، ما أفاده قوله ـ تعالى ـ:

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ أي: من ظلمات الشرك والمعاصي، إلى نور التوحيد والطاعة. ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم.

﴿كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾؛ يعني: يتولاهم الطاغوت، وهم شياطين الإنس والجن، يتولون الكفار ويحرضونهم على الغي والضلال.

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ﴾ فتجد هؤلاء ينحرفون بعد الطاعة إلى المعصية، وبعد الإيمان إلى الكفر ـ والعياذ بالله.

ومآل الذين ينحرفون من الإيمان إلى الكفر، ما ذكره في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١. بشرى للمؤمنين: أن الله ـ تعالى ـ وليهم، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.. ولو لم يكن من آثار الإيمان إلا هذا لكفى أن يتولاك الله في الدنيا والآخرة.

٢. أن الإيمان سبب للعلم وسبب للاستقامة، لقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٣. من حكم هذه الآية أنه جمع الظلمات وأفرد النور، لأن النور واحد، وهو ما جاء به القرآن الكريم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وهو طريق واحد. وأما ما خالفه فهو طرق، ملل شتى، ومناهج متعددة: هذا وثني، وهذا ملحد لا يؤمن بشيء، وهذا يهودي، وهذا نصراني. فالظلمات كثيرة، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٤. ومن حكمها أنه أفرد ولاية المؤمنين ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأنه ـ عز وجل ـ واحد، وجمع أولياء الكفار لأنهم كثيرون، فهذا إمام لهم في الشرك، وهذا إمام لهم في الفسق، وهذا إمام لهم في الانحراف، وهكذا.

٥. أن الذين كفروا مولاهم الطاغوت، يتولاهم ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا

فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

٦ـ أن الكفار في ضلال، في ظلمة، حتى لو استناروا بعض الشيء، فإن مردهم إلى الظلمات، ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾؛ أي: من نور الهدى والإسلام إلى ظلمات الضلال والكفر.

٧ـ أن الكفار مخلدون في النار، لقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾. ولم يذكر ثواب الذين آمنوا، لأن الأشياء تعرف بضدها، فإذا كان الكفار أصحاب النار هم فيها خالدون، فالمؤمنون أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

أسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يجعلنا جميعًا من أصحاب الجنة خالدين فيها نتمتع برؤية الله ـ عز وجل ـ وبصحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إنه جواد كريم.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام للتعجب والإثارة والانتباه.

والمخاطب هنا: إما أن يكون الرسول ﷺ، وإما أن يكون غيره ممن يصح أن يوجه إليه الخطاب.

﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾؛ أي: جادله، والمحاجة هي المجادلة بالحجة التي يدلي بها كل واحد من المتجادلين. وإبراهيم هو أبو الأنبياء ـ عليه السلام ـ، الخليل، خليل الرحمن، وهو أفضل الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾؛ أي: في الله ـ عز وجل ـ، والضمير في ﴿رَبِّهِ﴾ يعود إلى إبراهيم؛ لأن الرجل الآخر لا يؤمن بذلك.

وقوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ هذه الجملة تعليل لمحاجة الرجل الآخر، يعني: أن هذا الرجل حاج إبراهيم وقال: أنا لي الملك وأنا الرب، فأين ربك يا إبراهيم؟

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿الْمُلْكَ﴾ المراد الجنس، وليس كل ملك الأرض والسموات.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ هذا تفصيل المحاجة: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يحيي الميت ويميت الحي. ومن إحياء الموتى إنشاء الحي، أو إن شئت فقل: إنشاء الحياة فيما ليس بحي. دليل ذلك

قوله - تعالى -: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. ولا أحد يقدر على أن يحيي ويميت، لكن هذا ادعى دعوى باطلة، قال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾، فادعى ما ليس له. ولا حاجة أن نقول: إنه أراد أنه يقدم إليه الرجل يستحق القتل فيبقيه، أو يقدم إليه الرجل البريء فيقتله - لا. حاجة لذلك، هو ادعى دعوى كاذبة، قال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾. ولما كان هذا أمرًا قد يخفى، انتقل إبراهيم - عليه السلام - إلى الأمر الأجلى الذي لا يمكن لهذا أن يدعيه، قال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، حينئذ ما يستطيع أن يقول: آتي بها من المغرب، ولو ادعى ذلك لكذبه كل واحد.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ بهت: غلب وانخذل الذي كفر وعجز أن يرد على إبراهيم هذه البينة.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يهدي من قضى بظلمهم. وأما الظالم الذي لم يقض الله عليه بالظلم إلى الممات فقد يهديه.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ الدعوة إلى الاعتبار فيمن مضى؛ لأن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يدل على هذا، كما ذكرنا في التفسير.

٢ـ أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يجادلون ويؤذون في الله،

وهم صابرون في ذلك مثبتون للحق.أن النعمة قد تطغي الإنسان حتى يتجاوز حده، لأن هذا لما آتاه الله الملك ادعى أنه رب.

٣ـ قوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، حيث قال أمام هذا الرجل الطاغية: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾. وهذا يتضمن الكفر بهذا الذي آتاه الله الملك. وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون شجاعًا حازمًا، لا سيما في مقام المناظرة التي إذا انخذل الإنسان فيها، كان سببًا لانخذال الحق.

٤ـ أنه ينبغي للمناضل المجادل أن لا يذكر من الحجج ما يمكن للخصم أن يدعي مثله أو أن يميل يمينًا وشمالًا. وإن ذكر ذلك فليذكر ما لا يمكن أن يدعيه الخصم. ووجه ذلك أن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ عدل عن مناضلة هذا الرجل بالطرق الخفية إلى مناظرته بالطرق الجلية.

٥ـ أن الشمس هي التي تسير، وهي التي يؤتى بها، وهي التي تغيب، وهي التي تغرب، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧]. أربعة أفعال أضافها الله إلى الشمس: إذا طلعت تزاور، إذا غربت تقرض. وإضافة الفعل تقتضي قيامه بمن أضيف إليه.

وأما دعوى أن الشمس ثابتة، وأن الحركة للأرض، فهذه تحتاج إلى

نظر. فإن ثبت ذلك قطعًا فإننا نقبله، ويمكـن أن نـصرف الآيـات عـن ظاهرهـا، ونقـول: صرفهـا عـن ظاهرهـا بمقتـضى الـدليل الحسي؛ لأن القرآن الكريم لا يمكن أن يخالف شيئًا محسوسًا أبدًا؛ لأن دلالة الحس قطعية الثبوت على مدلولها، والقرآن قطعي الثبـوت سـندًا ومعنًـى. فـلا يمكن أن يكون هناك قطعي الثبوت الحسي مناقـضًا لقطعـي الثبـوت في القرآن الكريم أبـدًا. لا يمكـن. ومعلـوم أننـا عنـد التعـارض المطلـق نقـدم دلالات الكتاب والسنة؛ لأنها صدرت من عند الخالق ـ عز وجـل ـ، وهـو أعلم بما خلـق. لكـن عنـدما يكـون ظـاهر القـرآن يمكـن أن يـؤول إذا دل الحس على المعنى المؤول إليه فإن هذا ممكن.

٦ـأنه ينبغي للمجـادل المحـاج أن يـأتي بالـضربة القاصـمة التـي لا مجال ولا محاولة للتخلص منها؛ لأنـه لمـا قـال إبـراهيم ـ عليـه الـسلام ـ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، بهـــــت الذي كفر، ما استطاع الرد.

٧ـ أن الظالم ـ والعياذ بالله ـ لا يوفق للهدى، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فانتفاء هداية الله لحكمة، وهي أن هذا الذي انتفت عنه الهداية ليس أهلًا لها. ويدل لهذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥]. فإذا علم الله ـ تعالى ـ من الشخص أنه ليس أهلًا للهداية، لم يهده؛ لأن هداية من ليس أهلًا لها نوع من العبث،

لا فائدة منه. وإذا علم الله أن هذا الشخص ـ مثلًا ـ أهل للهداية هداه الله. ولهذا نجد كثيرًا من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا من أئمة الكفر فهداهم الله ـ عز وجل ـ، لأنه ـ عز وجل ـ يعلم أن هذا أهل للهداية فيهديه.

* * *

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

هذه الآية فيها عبر، وفيها نعم. فمن العبر ما تضمنته من إحياء الموتى. ومن النعم أن الله ـ عز وجل ـ أراد أن يبين لهذا الشاب الذي خفي عليه إحياء الله ـ تعالى ـ لهذه القرية، قال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ يعني: أو لم تر كالذي مر على قرية. يعني بعد أن ضرب الله مثلًا فيما سبق في قصة محاجة إبراهيم والرجل الكافر، ذكر في قصة أخرى الذي: ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: يابسة هامدة أشجارها وزروعها، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني: كيف يحييها

الله وهي ميتة هامدة؟ أراد الله ـ عز وجل ـ أن يبين له قدرته على كل شيء. أماته ـ جل وعلا ـ مئة عام، فمات مئة سنة، ثم بعثه بعد مئة سنة، قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يومًا أو بعض يوم. قال بعض المفسرين: إنه قال: يومًا أو بعض يوم لأنه مات في أول النهار، وبعث في آخر النهار. فقال إنه لبث يومًا إذا كان مات بالأمس، أو بعض يوم إذا كان قد مات في اليوم. وهو قد بقي مئة عام. قال الله له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾. «بل» هذه للإضراب الإبطالي. يعني: أن الله أبطل ما قاله هذا: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وقال: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾: مئة سنة، يعني أربعمائة فصل، قال: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾. فهذه آية من آيات الله: أن الله أماته ثم بعثه. ثم أراه الله ـ تعالى ـ آية ثانية، فقال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ طعام وشراب بقي مئة سنة لم يتسنه، أي: لم يتغير ـ سبحان الله ـ فالشراب لم ييبس، والطعام لم تفسده الرياح والشمس، بقي ما تغير؛ لأن الله حفظه، وهو خير حافظًا ـ عز وجل ـ. أراه الله ـ تعالى ـ آية ثالثة قال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ وكان معه حمار فمات الحمار. ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾: عظام الحمار. ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ سبحان الله العظيم القادر، العظام رآها، شاهدها بعينه، يلتصق بعضها ببعض، ثم ينشز الله بعضها ببعض بالأعصاب، تلتحم بعضها ببعض بواسطة الأعصاب. ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ رأى اللحم بعينه يكسى. كل هذا بلحظة. عظام متناثرة

تقاربت، كانت متفاصمة فالتحمت، عارية فكسيت باللحم. حينئذ أقر ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه. تبين الأمر واضحًا: أن الله قادر على أن يحيي القرية التي مر عليها وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا من نعم الله على العبد أن يريه من الآيات ما يزداد به يقينه، ويكمل به إيمانه.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ ـ الدعوة إلى النظر والاعتبار.

٢ ـ أن الإنسان لا يلام إذا استغرب شيئًا قبل أن تظهر له البينة. ولهذا عذر الله هذا الرجل، وأراه آيات توجب له اليقين.

٣ ـ أن الأرض توصف بالحياة وبالموت، وهو كذلك، فإذا كانت أشجارها يابسة وزروعها هامدة، فهي ميتة، وإذا قامت أشجارها ونمت زروعها، فهي حية. قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ ـ يعني: هامدة ـ ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ اهتزت بالزروع والأشجار، وربت: نمت ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

٤ ـ أن الله ـ تعالى ـ قد يمن على عبده، فيظهر له من الآيات ما يزداد

به إيمانه ويقينه؛ لأن الله من على هذا الرجل بهذا المثل الذي حصل له.

٥ـ سرعة الزمن في الموت، يعني أن الإنسان إذا مات يسرع ذهاب الزمن في حقه. وإذا شئت أنت أن يتبين لك ذلك، فانظر إلى النائم: ينام الساعتين والثلاث والأربع والعشر، وكأنها دقائق. مع أن الروح لم تفارق البدن مفارقة تامة. وهذا يدل على أن الموتى الذين لهم مئات السنين أو آلاف السنين ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]. ولا تظن أن أصحاب القبور كأصحاب الدور. أصحاب الدور يراقبون الساعات والدقائق والأيام والشهور والأعوام، لكن أولئك لا يرقبون هذا. فالزمن فيهم سريع، سريع جدا. ويدل على ذلك هذه القصة. مئة عام: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾. وأصحاب الكهف ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥] مع أنهم نيام، ولما استيقظوا قال بعضهم لبعض: ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف: ١٩]. الله أكبر وسبحان الله العظيم.

٦ـ تلك الآية العجيبة، طعام وشراب بقي على ظهر الأرض عرضة للشمس والرياح والأمطار، لم يتغير، لا نقص ولا زيادة ولا فساد.

٧ـ ما حصل لهذا الحمار، بقيت عظامه مئة سنة، مع أنه في العادة لا تبقى على ظهر الأرض العظام مئة سنة، تذوب وتتفتت. لكن هذا

حفظه من له ما في السموات وما في الأرض ولا يئوده حفظهما - عز وجل -.

٨- أن العصب تعتبر هي الرباط الذي يربط المفاصل بعضها ببعض، لقوله - تعالى -: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ والأمر كذلك. ولذلك إذا انهارت الأعصاب انهار الجسم، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يقف. قال الله - تعالى -: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]؛ أي: ربطهم: قويناه. ولعلنا نأخذ من هذا فائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يمرن دائمًا أعضاءه على العمل، حتى تشتد الأعصاب وتقوى وتتكيف مع العمل.

٩- أن العظام للجسد بمنزلة الأعمدة والجسور التي يبنى عليها، لقوله ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

١٠- حكمة الله - عز وجل - حيث كسا العظام لحمًا والعصب؛ لأنها لو بقيت هكذا بدون أن تكسى لحمًا، ما تمكن الإنسان من العمل، لكن من حكمة الله - عز وجل - أنه كساها.

١١- أن اللحم يعتبر كسوة للبدن. ولهذا يعبر بعض الناس فيقول في الرجل السمين: عليه ثياب من نسج أضراسه، أي من أكله.

١٢- أن هذا الرجل الذي من الله عليه بمشاهداته أقر واعترف أنه يعلم أن الله على كل شيء قدير. وهو كان في الأول يقول: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِـ

هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

١٣ ـ عموم قدرة الله ـ عز وجل ـ. فهو ـ جل وعلا ـ على كل شيء قدير. قادر على إيجاد المعدوم، وعلى إعدام الموجود، وعلى تغيير الصفات؛ لأن الأمر كله بيده، والقدرة الشاملة قدرته ـ تبارك وتعالى ـ. ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٤ ـ الرد على القدرية الذين يدعون أن الإنسان مستقل بعمله؛ لأنه إذا استقل بعمله فلا علاقة لقدرة الله فيه. مع أن الله يقول: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: قال المفسرون المعتنون بالإعراب: «**إذ**»: ظرف لعامل محذوف. والتقدير «**واذكر إذ قال إبراهيم**». لأن «**إذ**» ظرف، والظرف لابد له من متعلق.

إبراهيم: هو إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ، إمام الحنفاء وأبو

الأنبياء. سأل ربه -جل وعلا- قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾. ليطلع على كيفية إحياء الموتى. هو لم يشك أبدًا، بل هو مؤمن. ولهذا قال النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[1]. يعني: إن كان إبراهيم شاكا فنحن أولى منه. والمعنى: أنه لم يشك، كما أننا لم نشك نحن.

﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ يعني: اجعلني أرى كيف تحيي الموتى.

قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ قال ﴿بَلَى﴾ أؤمن بأنك تحيي الموتى، لكن أحب أن أنظر كيف؟

﴿قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ يعني: يستقر، ويعرف كيف كان إحياء الموتى. لأنه ليس الخبر كالمعاينة. لو أن أحدًا من أصدق الناس خبرًا أخبرك بخبر، ولم تر المخبر به، ثم رأيته، فلا شك أنه يزداد يقينك. ولهذا جاء في الحديث: (ليس الخبر كالمعاينة)[2].

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾

يعني: اذبحهن. ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يعني اضمم إليك أجسادهن،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ رقم (٣٣٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، رقم (١٥١).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٤٥، ٢٤٤٣).

واجعل على كل جبل منهن جزءًا، جبال حوله، أربعة. فعل هذا ـ عليه السلام ـ وجعل على كل جبل جزءًا، ثم دعاهن: قال: هلم أو أقبلن أو ما أشبه ذلك مما يفيد الدعوة.

﴿يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ أتين إليه يسعين سعيًا، ليس طيرانًا، سعيًا خلاف ما كان معروفًا من الطيور.

﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ عزيز: أي: غالب قاهر لكل شيء ـ عز وجل ـ. ولهذا قال الشاعر الجاهلي:

أيـن المفـر والإلـه الطـالـب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: ذو عـزة بالغـة. قـال العلـماء: العـزة في الأصـل: الامتنـاع. ومنـه: أرض عـزاز، أي قويـة تمتنـع مـن تـأثير المعـاول فيهـا. فالعزيز هو ذو الامتناع الذي يمتنع عليه النقص والعيب والذل ـ عز وجل ـ.

﴿حَكِيمٞ﴾ مأخوذة من الحكم ومن الحكمة. الحكم: هو القضاء بالشيء. والحكمة: هي وضع الأشياء في مواضعها.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ أنه لا حرج على الإنسان أن يطلب في يقينه ما يزداد به يقينه؛ لأن إبراهيم سيد الحنفاء طلب ما يزداد به يقينه.

٢ـ إثبات كلام الله ـ عز وجل ـ، لأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ إلخ الآية. ففيها نص صريح على أن الله يتكلم بكلام مسموع مفهوم، ولا يكون مفهومًا إلا إذا كان بلغة المخاطب. وعليه يكون كلام الرب ـ عز وجل ـ بحرف وصوت. وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة، ولهم في ذلك أدلة ليس هذا موضع بسطها، إذ إنها موجودة في كتب العقائد ـ ولله الحمد.

٣ـ الاستفصال في مقام الاحتمال. يعني إذا سألك سائل سؤالًا يحتمل أكثر من معنًى، فاستفهم واستفصل، ولا تحكم على الشيء بظاهره، إذا كان يحتمل أشياء متعددة. دليل ذلك قوله ـ تعالى ـ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ يعني: أنك مؤمن كيف تسأل؟.

٤ـ أن اليقين يزيد وينقص، لقوله: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وهذا أمر مشاهد، اليقين يزيد وينقص. فلو أخبرك مخبر بشيء وهو ثقة عندك.. قبلت هذا الخبر. فإذا أخبرك آخر بمثله ازداد قبولك إياه. وثالث.. يزداد أكثر. ورابع.. يزداد أكثر. تحس بنفسك أن يقينك يزداد. والمشاهدة أقوى سبب لليقين. ولهذا قال ـ عز وجل ـ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٦ـ٨].

٥- أن القلب له أحوال: حال استقرار وثبات، وحال قلق وشك، وحال إنكار. والموفق من كان قلبه مطمئنًا. اللهم ارزقنا طمأنينة القلوب وانشراح الصدور يا رب العالمين.

٦- بيان قدرة الله - تبارك وتعالى -. حيث إن إبراهيم - عليه السلام - قتل هذه الطيور ووزعها على الجبال ثم دعاها، فأتت تسعى. وهذا لا شك أنه دليل على قدرة الله - عز وجل -. وفيه إحياء الموتى في هذه الدنيا.

وفي سورة البقرة عدة حوادث فيها إحياء الموتى:

منها: قوم موسى أخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله من بعد موتهم.

ومنها: صاحب البقرة، ضرب القتيل ببعض البقرة فحيي بإذن الله.

ومنها قصة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها.

ومنها: قصة إبراهيم - عليه السلام - هنا، فإن الله - تعالى - أحيا له الطيور بعد موتها.

٧- أن الطيور تفهم الدعوة؛ لقوله: ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾، لا يقال: إن هذا خاص بهذه القضية، لأن المشاهد أن البهائم تدعى وتحضر، كما قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي

يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١].

٨ـ أنه يجب أن نعلم أن الله عزيز حكيم، وأنه ـ جل وعلا ـ لا يغلب. بل هو الغالب على كل حال، وأنه الحكيم الذي له الحكم، وله الحكمة التامة ـ سبحانه وبحمده. فلا حاكم إلا الله، ولا حكم أحسن من حكم الله، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠]، والحكمة وأنواعها والحكم وأنواعه له موضع آخر إن شاء الله ـ تعالى ـ وقد سبق شيء منه.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

يضرب الله ـ تبارك وتعالى ـ الأمثال في القرآن الكريم تقريبًا للمعقول بالمحسوس. ولا يعقل هذه الأمثال وما ترمي إليه من المعاني إلا أهل العلم، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. في هذه الآية ضرب الله مثلًا للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، أي: في دين الله وشريعته، ابتغاء وجه الله ـ عز وجل ـ، فهم جامعون بين الإخلاص لله والمتابعة لشريعته ـ تبارك وتعالى ـ على لسان رسوله محمد ﷺ، كمثل حبة أنبتت

سبع سنابل. بذرها في الأرض فأنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، فالجميع سبعمائة. ومع ذلك لا يقتصر على هذا العدد، بل إن الله يضاعف لمن يشاء، ولهذا جاء في الحديث. «إن الله يضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»(١). ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: واسع في سلطانه، واسع في قدرته، واسع في عطائه، واسع في كل صفاته ـ جل وعلا ـ.

عليم: أي ذو علم. وعلم الله ـ تبارك وتعالى ـ شامل لكل شيء، جملة وتفصيلًا، قال الله ـ تعالى ـ:﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء:١٧٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ ضرب الأمثال. ولا شك أنه ـ أعني ضرب الأمثال ـ من الصيغ التي تقرب المعاني إلى الأفهام.

٢ـ ومنها عظمة القرآن الكريم في بيانه وإيضاحه، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من همَّ بحسنة أو سيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت...، رقم (١٣١).

٣ـ أن من أنفق في سبيل الله ما ليس مالًا له، وليس له ولاية عليه، فإنه غير مقبول منه، لقوله: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾. فلو أن أحدًا سرق من شخص مالًا وتصدق به، لم يقبل منه. ولو أنه غصب مالًا فتصدق به، لم يقبل منه.

٤ـ الإشارة إلى الإخلاص والمتابعة في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فمن لم يخلص لم يقبل منه، كالذين ينفقون أموالهم رئاء الناس. ومن لم يكن على شريعة الله لم يقبل منه، كالذين ينفقون أموالهم فيما حرم الله ـ عز وجل ـ.

٥ـ أن فضل الله ـ تبارك وتعالى ـ لا حد له، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ولم يحدد، ولهذا جاء في الحديث: (**إلى أضعاف كثيرة**).

٦ـ إثبات هذين الاسمين الكريمين لله، وهما: «**واسع**» و«**عليم**»، وما تضمناه من صفة: وهي السعة في كل ما يتصف الله به، والعلم في كل شيء.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٦٢].

هذه الآية جاءت عقب الآية الأولى، لأن فيها الإشارة إلى أن

الإنفاق يجب أن يكون مسبوقًا بالإخلاص والمتابعة. ومتلوا بعدم المنة والأذى فيمن ينفق عليه.

يقول - عز وجل -: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: نقول فيها كما قلنا في الآية قبلها.

﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾؛ أي: منا على من يعطونه بأن يظهر منهم الكلام الذي يدل على أنه مان على المعطى.

﴿وَلَآ أَذًى﴾ بأن يقول له ما يتأذى به. مثل أن يقول أمام الناس: لقد أعطيت فلانًا كذا وكذا، وهو حاضر فيتأذى بذلك.

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هذه الجملة هي خبر المبتدأ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: لهم ثوابهم عند الله - عز وجل -. وسمى الله - تعالى - الثواب أجرًا، لأنه في مقابلة عمل.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يستقبل.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مما مضى.

فلا يخافون أن يضيع عملهم الذي عملوه لله - عز وجل -، ولا يحزنون على ما أنفقوه في سبيل الله، لأن نفوسهم طيبة به.

وفي الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أن الإنفاق في سبيل الله قد يتبعه ما يبطله، وهو المن على المعطى،

كما قال - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم» كررها ثلاثًا، فقالوا: يا رسول الله، خابوا وخسروا، من هم؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»[1].

٢- تحريم المن والأذى؛ لأن المعطي قد أضاع ماله إذا أتبعه المن والأذى. وإضاعة المال محرمة؛ لأن النبي ﷺ نهى عن إضاعة المال.

٣- أن الله - سبحانه وتعالى - أضاف الأجر عنده له، فقال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهو - سبحانه - لا يظلم أحدًا، لا بنقص من حسناته، ولا بزيادة في سيئاته.

٤- عظم منة الله - عز وجل - حيث سمى الثواب أجرًا، وكأنه أمر أوجبه الله - تعالى - على نفسه كأجر الأجير الذي يجب على مستأجره.

٥- أن أولئك الذين يتصدقون على هذا الوجه، وينفقون أموالهم على هذا الوجه، لن يلحقهم خوف من أن تضيع نفقاتهم سدى، ولا يلحقهم حزن فيما أنفقوا؛ لأنهم إذا أنفقوا، فما أنفقوا هو الربح في الحقيقة؛ لأنه لا يبقى للإنسان من ماله إلا ما قدمه لله - عز وجل -، أما

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، رقم (١٠٦).

ما خلفه فهو للورثة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مبتدأ و﴿خَيْرٌ﴾ خبر المبتدأ. والقول المعروف هو الذي ليس فيه سب ولا شتم ولا منكر.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: مغفرة لما قد يصدر ممن منع فلم يعط؛ لأن الإنسان إذا منع أحدًا من العطاء فقد يتكلم عليه ويسبه. فالمغفرة لهذا المتكلم مع قول المعروف خير من صدقة يتصدق بها عليه ثم يتبعها أذى يتقدم به إلى هذا المعطى.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ غني ـ جل وعلا ـ فهو قادر على أن يمن على هذا الذي ليس عنده شيء فيغنيه. حليم: فلا يعاجل بالعقوبة ـ جل وعلا.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ ـ أن الإنسان إذا لم يتمكن من الإنفاق فليقل قولًا معروفًا، وليتحمل ما يصدر ممن حرمه العطاء إن تكلم عليه بما يسوءه، لقوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ﴾.

٢- أن الإنسان قد يبطل عمله وثوابه فيما ينفقه لله - عز وجل -، إذا أتبعه أذى للمعطى.

٣- أن الصدقة صدقة وإن تبعها أذى، لقوله: ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾. ولكن هذا الأذى قد يبطل الأجر، كما سيأتي - إن شاء الله - في الآية التالية.

٤- إثبات أن الله غني حليم. غني: فلا ينفد ما عنده. حليم: فلا يعاجل بالعقوبة - جل وعلا. وفي الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «يد الله ملأى سحاء، الليل والنهار». ملأى، أي: ممتلئة. سحاء، أي: كثيرة العطاء. الليل والنهار: أي: في الليل والنهار. «لا يغيضها نفقة» أي: لا ينقصها نفقة. ثم ضرب مثلًا فقال: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه»[1] هكذا قال النبي ﷺ. وهذا يدل على سعة غنى الله - تبارك وتعالى - وأنه لا نهاية له.

٥- حلم الله - تبارك وتعالى - وأنه - جل وعلا - حليم، يحلم على عبده فلا يعاجل بالعقوبة. ويؤيد ذلك قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾رقم (٧٤١٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة، رقم (٩٩٣).

[فاطر: ٤٥].

٦- إثبات هذين الاسمين لله - تبارك وتعالى -: **الغني**: فيعطي عند العمل ويثيب عليه. **الحليم**. فيصفح ويتجاوز عن العبد ويمهله لعله يحدث توبة إلى الله - عز وجل.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تتكرر كثيرًا في القرآن العظيم، والمقصود منها التنبيه والحث والإغراء على قبول ما يلقى؛ لأن المؤمن إذا نودي بهذا الوصف الجليل انتبه. ولهذا قال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -: (**إذا سمعت الله يقول**: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ **فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه**).

﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾؛ أي: لا تضيعوها سدى لا تنفعكم. ﴿بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾؛ أي: بالمن على المعطى، والأذى للمعطى. وهذا - أعني إبطال الصدقة بعد أن يتصدق الإنسان - يمن ويؤذي.

هناك شيء قبل أن يتصدق يبطل الصدقة أيضًا، قال: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: كالذي ينفق ماله مراءاة للناس، أي: ليراه الناس ويقولوا: ما أكرم هذا الرجل، ما أكثر عطاءه، أو يقولوا: ما أدينه وما أحبه للصدقة. فهذا تبطل صدقته بما قارنها من الرياء، والأول تبطل صدقته بما أتبعه من المن والأذى.

﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ يعني: ليس عنده إيمان كامل بالله واليوم الآخر. هذا إذا كان مؤمنًا، فإن إيمانه ناقص إذا راءى بعمله. وأما المنافق الذي يرائي بعمله، وهو أصلًا ليس يعمل إلا رياءً، فهذا ينتفي عنه الإيمان بالكلية.

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾؛ أي: مثل هذا الذي ينفق رئاء الناس.

﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ الصفوان: الحجر الأملس الذي لا يقر عليه التراب، ويتفرق منه. فإذا اجتمع عليه تراب، ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾؛ أي: مطر قوي، قال: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾؛ أي: تركه خاليًا من التراب. يذهب كل التراب الذي عليه، لأنه حجر أملس والمطر ينزل بغزارة، فيزول.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾؛ لأنه ضاع عليهم، فلا يقدرون عليه. وحينئذ تفوت الأرض الخصبة بزوال هذا التراب الذي على الصفوان، فلا ينبت شيئًا.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: لا يهدي من كتبهم في الكفار. كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ أن المن والأذى يبطل ثواب الصدقة. وهذا إبطال بعد وجودها.

٢ـ التحذير من المن والأذى بالصدقة؛ لأنه إذا أخرج ماله ثم أتبعه منا وأذى، بطل ثوابه فخسر الدنيا والآخرة.

٣ـ أن عمل المرائي غير مقبول، ولا نافع له. ولكن هل يسلم من الإثم؟ الجواب: لا يسلم من الإثم. هو لا شك أنه محروم من الأجر، لكن مع ذلك لا يسلم من الإثم؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذم المرائين وبين أن الرياء من صفات المنافقين. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «قال الله ـ تعالى ـ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1].

٤ـ أن المرائي إما فاقد الإيمان بالله واليوم الآخر كالمنافق، وإما ناقص الإيمان كالمؤمن يرائي الناس في بعض الأعمال، فيكون إيمانه ناقصًا.

٥ـ إثبات اليوم الآخر، وهو اليوم الذي يبعث فيه الناس للجزاء

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

على أعمالهم.

٦- أن من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يمكن أن يقع منه الرياء؛ لأنه يعلم أن الرياء مبطل للعمل، فلا يرائي. لكن كما قلنا: إن راءى فإنه ينقص إيمانه، ما لم يصل إلى حد النفاق.

٧- ضرب الأمثال حتى يقرب المعقول إلى أفهام المخاطبين، لقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ الخ الآية.

٨- أن المرائين إذا أرادوا الثواب لا يحصل لهم، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾.

٩- أن من قدر الله ـ تعالى ـ كفره، فإنه لا هادي له مهما كان ومهما بلغت معه الدعوة؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾. ويؤيد هذا آيات عديدة، منها قوله ـ تعالى ـ لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

١٠- أن الهداية بيد الله ـ عز وجل ـ، وإذا آمن الإنسان بهذا فإنه لا يسأل الهداية إلا من الله ـ تبارك وتعالى.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ

مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

هذا المثل ضربه الله ـ عز وجل ـ بعد أن ضرب مثلًا للمرائي، لأن حال هؤلاء عكس حال المرائين.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: طلبًا لمرضاة الله، لا يريدون بهذا شيئًا من الدنيا. لا مدحًا، ولا رئاسة، ولا جاهًا. إنما يريدون بذلك مرضاة الله ـ عز وجل.

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: اطمئنانًا من أنفسهم، إنفاقًا غير مقرون بشح أو بخل؛ لأنهم إنما أنفقوا وهم موقنون بثواب هذا الإنفاق. لذلك قال: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فهم ينفقون مطمئنة نفوسهم، لأنهم واثقون بالخلف العاجل وبالثواب الآجل.

مثلهم ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾؛ أي: بستان كثير الأشجار.

﴿بِرَبْوَةٍ﴾؛ أي: بمكان مرتفع قد تبين للشمس والهواء.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾؛ أي: مطر كثير.

﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾؛ يعني: زادت ثمارها بسبب هذا الوابل الذي أصابها.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾؛ أي: مطر خفيف يحصل به ري الأرض.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: عليم بكل ما نعمل ـ سبحانه وتعالى.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أن القرآن الكريم مثاني، يعني أنه تثنى به الأحوال والمعاني. فيذكر مثلًا أصحاب النار وأصحاب الجنة، أحوال أهل النار وأحوال أهل الجنة، أحوال المخلصين وأحوال المرائين.. وهلم جرّا.

والحكمة من ذلك أن يكون الإنسان سائرًا إلى ربه سيرًا معتدلًا، لأنه لو غلب جانب التخويف والوعيد، لقنط الإنسان من رحمة الله. ولو غلب جانب الرجاء والوعد، لأمن الإنسان من مكر الله. فصار هذا القرآن يربي الناس التربية الوسط بين اليأس والرجاء.

٢- الإشارة إلى الإخلاص، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وهكذا ينبغي في جميع الأعمال أن يقصد بها الإنسان رضا ربه ـ عز وجل.

٣- إثبات صفة الرضا لله ـ عز وجل ـ وهي صفة حقيقة، ولكنها ليست كرضا المخلوقين، الذي قد يخرج الإنسان بالرضا إذا قوي جدا إلى أمور لا تحمد عقباها. بل هو رضا تام كامل ـ أعني رضا الله ـ عز وجل.

٤ـ أنه ينبغي للإنسان إذا أنفق شيئًا أن يثبت نفسه بأن يبذله بنفس مطمئنة مؤمنة بالخلف العاجل والثواب الآجل، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩] أي: يأتي بخلفه، وهو خير الرازقين.

٥ـ الحكمة العظيمة، وهي ضرب الأمثال، لينتقل الذهن من المحسوس إلى المعقول.

٦ـ الإشارة إلى أنه كلما كان البستان في مكان مرتفع فهو أكثر لإنتاجه ونمائه؛ لأن الله ـ تعالى ـ ضرب الأعلى فيما يحصل به النماء والثمرة.

٧ـ أن الماء سبب لنمو الثمار وكثرتها، لا سيما السيل. فإن الله ـ تعالى ـ قال في كتابه العزيز: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ـ١١].

٨ـ أن الجنات والبساتين قد يكفيها الطل بدلًا عن الوابل. وهذا شيء مشاهد، بل أحيانًا تشرب الأشجار بعروقها من ندى الأرض الأسفل. فإنه يوجد في بعض الصحاري أشجار تبقى أشهرًا لا يأتيها المطر، ومع ذلك تهتز خضراء.

٩ـ عموم علم الله ـ تبارك وتعالى ـ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ﴾.

١٠ ـ التحذير من المخالفة؛ لأن الإنسان متى علم أن الله ـ تعالى ـ بصير بعمله، فإنه لن يخالف ربه ـ عز وجل ـ خوفًا من عقابه.

١١ ـ الترغيب في العمل الصالح، وأن الله ـ تعالى ـ يعلم به ولا يضيع عليك. بل يثيبك عليه ثوابًا عاجلًا وثوابًا آجلًا. أسأل الله ـ تعالى ـ أن يثيبنا وإخواننا المسلمين الثواب الجزيل في جنات النعيم إنه على كل شيء قدير.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

هذا استفهام لتقرير الحال التي يريدها الإنسان. فيقول ـ عز وجل ـ: أيحب أحدكم أن تكون له جنة، أي: بستان عظيم، من نخيل وأعناب ومياه تجري من تحتها.

﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من النخيل والأعناب والفواكه وغيرها.

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أصــابه الكــبر: لا يــستطيع أن يعمل فيها. وله ذرية ضعفاء: لا يقومون بما ينبغي لهذه الجنة.

﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ إعصار يحمل حرارة شديدة فاحترقت. هل أحد يود هذا؟! إن الجواب معلوم: أن أحدًا لا يود هذا؛ لأنه سيفقد هذه الجنة التي هي محط رزقه، تدر عليه بعد أن كبر وصــار عنــده الذريــة الــضعفاء. لا يــستطيع أن يكتــسب لهــم، ولا يستطيعون أن يكتسبوا له، لا أحد يود هذا. فالذي ينفق ماله رئاء الناس يشبه هذا، والذي يبطل صدقاته بالمن والأذى يشبه هذا. كأنه قضى على نفقته بريائه أو بمنه وأذيته؛ ولهذا قال ـ عز وجل ـ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ بلاغة القرآن الكريم في ضرب الأمثال التي تشد الذهن إلى الإصغاء لما يلقى.

٢ـ أن الإنسان ينبغي له عند الإقناع أن يعرض المسألة التي يريد الإقناع بها بصيغة الاستفهام المقررة؛ حتى لا يستطيع المخاطب أن يحيد يمينًا أو شمالًا.

٣ـ أن أعظم ما يكون حسرة هو أن الإنسان تزهو له الدنيا إلى أبعد الحدود، ثم يصيبه ما لا يستطيع أن يدرك به ما يفوته من هذه الدنيا، ثم

يصاب هذا الذي أدركه بجائحة تقضي عليه.

٤ـ أن الله ـ تبارك وتعالى ـ بين لعباده بيانًا شافيًا واضحًا. وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

٥ـ الإشارة إلى أن الإنسان كلما بانت له الآيات بالتفكر، فإنه يزداد عقلًا وفهمًا؛ لقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

٦ـ إثبات حكمة الله ـ عز وجل ـ، وأنه لا ينزل الآيات إلا لحكمة، ولا يقضي قضاءً شرعيا ولا كونيا إلا لحكمة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

٧ـ الثناء على التفكير، وأنه ينبغي للإنسان أن يكون مفكرًا، لكن يجب أن يكون تفكيره مبنيا على آيات الله ـ عز وجل ـ، لا على أفكار منحرفة؛ لأن الإنسان قد يكون عنده ثقافة وتفكير لكنه مبني على أفكار منحرفة، فيزداد ضلالًا. وإنما التفكير النافع ما كان في آيات الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

٨ـ أن القرآن آيات لله ـ عز وجل ـ لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا يستطيع البشر أن يأتوا بعشر سور منه. ولا يستطيع البشر أن يأتوا بسورة منه، ولا يستطيع البشر أن يأتوا بآية منه. كل هذا موجود في القرآن. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

[الإسراء: ٨٨] وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ [هود: ١٣] وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٨] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ ۝ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٤]. فلن يستطيع أحد أن يأتي بمثل القرآن، بآية، ولا بسورة، ولا بعشر سور مثله، ولا بكل القرآن، أي بمثل كل القرآن.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

هذه الآية لها علاقة بما قبلها، وهي الأمر بالإنفاق. فبعد أن مدح الله المنفقين ابتغاء مرضاة الله، وأثنى عليهم، وضرب لهم الأمثال، يأمر الله عباده المؤمنين أن ينفقوا من طيبات ما كسبوا. ويعني بذلك **«الأموال التجارية»** التي يتكسب بها الناس، ويسميها العلماء **«عروض التجارة»** لأنها أموال تعرض ثم تزول، لا يقصد بقاؤها، وإنما يقصد ربحها.

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾؛ يعني: وأنفقوا مما أخرجنا لكم

من الأرض. و«من» هنا للتبعيض، أي: بعض ما أخرجنا لكم من الأرض، مثل: الحبوب والثمار.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾؛ يعني: لا تقصدوا الرديء. فالخبيث هنا بمعنى الرديء. أي: لا تقصدوا الرديء تنفقون منه، وتبقون لكم الجيد؛ لأنكم لو كان لكم حق عند شخص، فأعطاكم الرديء، لم تأخذوه إلا على وجه الإغماض، والإغماض: يعني الحياء والخجل وما أشبه ذلك.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؛ يعني: فلم يطلب منا ـ جل وعلا ـ أن ننفق لأنه محتاج للنفقة، بل هو غني عن كل ما سواه ـ سبحانه وتعالى.

﴿حَمِيدٌ﴾؛ أي: محمود على ما تفضل به. فهو الذي تفضل بهذا المال الذي طلب منا أن ننفق منه. فكيف تبخلون؟!

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ ـ العناية بما طلب منا، وهو الإنفاق. وجه ذلك أنه صدر هذا بالنداء، وبوصف الإيمان للمنادى.

٢ ـ وجوب زكاة عروض التجارة، يعني الأموال التي أعدها الإنسان للتجارة. وعروض التجارة قاضية على غيرها، وليس غيرها

قاضيًا عليها. بمعنى أنه لو كان عند الإنسان سائمة من الإبل أو البقر أو الغنم، قد أعدها للتجارة، فإنها تزكى زكاة تجارة، وإن كانت سائمة. كرجل عنده عشر من الإبل يرعاها، لكنه لم يتخذها تنمية، وإنما اتخذها للتجارة، فنقول: زكاتها زكاة تجارة. بمعنى أنه إذا جاء وقت الزكاة يقدر قيمتها ويخرج ربع العشر منها. لكن لو كانت سائمة، لقلنا عليه فيها شاتان، قلت قيمتها أم كثرت.

إذن عروض التجارة تقضي على غيرها، وغيرها لا يقضي عليها. ثم هي أيضًا - أعني عروض التجارة - شاملة لكل ما يباع ويشترى للتكسب، من قماش وأواني ومعدات وآلات وغيرها، أراضي وعقارات، كل شيء يعده الإنسان للربح لا يقصد بقاءه عنده إلا لانتظار الربح، فهذا عروض تجارة، والزكاة فيه واجبة من أي نوع كان من المال، من ذهب أو فضة أو نحاس أو رصاص أو غير هذا؛ لعموم قوله - تعالى -: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾.

فإن قال قائل: ما مقدار زكاتها؟

قلنا: مقدار زكاتها مقدار زكاة ما يراد منها، وهو الذهب والفضة «النقد»، ففيها ربع العشر، أعني: واحدًا من أربعين. وإن شئت فقل: اثنين ونصف في المئة.

فإن قال قائل: وكيف أقدر قيمتها؟

قلنا: إذا جاء وقت الزكاة كما لو كانت زكاتك في رمضان، قومها أول يوم في رمضان، كم تساوي، وأد الزكاة.

فإن قال قائل: أخشى أن أحابي نفسي وأقدر القيمة أقل من الواقع؟

قلنا: استعن بغيرك من أهل الخبرة.

فإن قال قائل: هل أعتبر ما اشتريت به، أو ما أبيع به، أو ما يساوي في نظر الناس في وقت وجوب الزكاة؟

قلنا: بالثالث، خذ بالثالث. أي: بما تساوي عند وجوب الزكاة في نظر الناس. سواء بعتها بعد ذلك بأكثر أو بأقل، وسواء كان السعر أكثر مما اشتريت أو أقل. فالمعتبر وقت وجوب الزكاة.

فإن قال قائل: هل يشترط تمام الحول فيما اشتراه للتجارة؟

قلنا: لا. ما اشتراه للتجارة مبني على حول ماله. فمثلًا لو كان عند الإنسان عشرة آلاف ريال، باقية في الصندوق، زكاتها في رمضان. ثم اشترى في شعبان شيئًا للتجارة، فإنه إذا جاء رمضان يزكيه، مع أنه لم يمض عليه إلا شهر واحد. لأن عروض التجارة ينبني بعضها على بعض في تمام الحول.

٣. أن من أنفق مالًا لم يكتسبه، بأن سرقه أو نحو ذلك، فإنه غير

مأمور بذلك، فلا يقبل. ولكن لو كان الإنسان لا يعرف صاحبه وتاب إلى الله، فماذا يصنع؟ نقول: يتصدق به عن صاحبه تخلصًا منه، لا تقربًا به إلى الله. لأنه لو تقرب به إلى الله لم ينفعه. فإن الله ـ تعالى ـ طيب لا يقبل إلا طيبًا. فإذن لابد أن يتصدق به عن صاحبه، وحينئذ تبرأ ذمته. لكن لا يتعجل بالصدقة به، بل يتأنى حتى ييأس من صاحبه. فإذا أيس من صاحبه تصدق به. ثم إذا جاء صاحبه فيما بعد خيره بأن يقول له إنه قد تصدق بالمال، فإن أجازه فالأجر له، وإن لم يجزه فالأجر للمتصدق به، ويضمنه لصاحبه.

٤ـ وجوب الزكاة فيما يخرج من الأرض؛ لقوله: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾. وتأمل الحكمة في قوله: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ فأضاف الكسب إليهم، لأن هذا الكسب كان بعملهم وكدهم، وقوله: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ لأن ما أخرج الله به من الأرض لا يستطيع أحد أن يخرجه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

٥ـ أن جميع ما يخرج من الأرض فيه الزكاة، لكن لا يستوعب الزكاة جميعه؛ لقوله: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾، وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم، وقال: الأصل أن كل ما خرج من الأرض ففيه الزكاة، إلا ما دل عليه الدليل. وقال بعض أهل العلم: بل لا زكاة إلا

فيما يكال ويدخر فقط، كالتمر والحبوب والزبيب وما أشبه. وأما ما لا يكال ولا يدخر فلا زكاة فيه، كالبرتقال والرمان والباذنجان والبطيخ وما أشبه. وهذا هو المشهور من مذهب الحنابلة ـ رحمهم الله ـ: أن المدار على كونه مكيلًا مدخرًا، وما سوى ذلك لا زكاة فيه.

٦- تحريم إخراج الرديء عن الطيب أو الوسط؛ لقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾، لأن هذا ظلم لمستحق الزكاة.

٧- أن الإنسان لو أخرج الطيب فلا لوم عليه، بل هو محمود على ذلك. وإخراجه الطيب من ماله داخل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

٨- أنه يجوز إخراج الوسط، الذي ليس الأجود ولا الرديء؛ لقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ ويؤيد هذا أن النبي ﷺ قال: «لا يؤخذ في الصدقة هرمة، ولا تيس، ولا ذات عوار»[1]، وقال لمعاذ: «إياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[2]. ثم اعلم أيها الأخ المسلم أن ما تنفقه لنفسك وليس

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣) وأبو داود، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، رقم (١٥٧٢)، والترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في زكاة الإبل والغنم، رقم (٦٢١)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب زكاة الإبل، رقم (٢٤٤٧)، وابن ماجه، كتاب الزكاة، باب صدقة الغنم، رقم (١٨٠٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ـ تَعَالَى ـ ورسوله...، رقم (١٩).

لغيرك. فأنت إذا أعطيت الفقير الطيب، فإنما أعطيت نفسك، لأنك ستجد هذا مدخرًا عند الله ـ عز وجل ـ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ ﴾ [محمد: ٣٨].

٩ـ ضرب المثل المقنع للإنسان، وذلك بقوله: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ ـ يعني: لو كان الحق لكم وأعطاكم الإنسان الرديء بدل الجيد أو الوسط، لم تأخذوه إلا على إغماض. ومثل هذا المثل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ في سورة النساء: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء:٩]. يعني أن الإنسان يجب عليه أن يرحم اليتيم، كما لو أنه هو ترك من خلفه ذرية ضعافًا خاف عليهم، فكذلك يجب أن يعرف حق اليتيم. وهذا من حسن تعليم القرآن الكريم وفصاحته وبيانه.

١٠ـ الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به؛ لقوله: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾.. وقد جاء عن الرسول ﷺ ما يؤيد ذلك، فقال ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة؛ فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»(١) وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى

(١) تقدم تخريجه.

يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]. فينبغي لك إذا أردت أن تعامل غيرك بمعاملة أن تقيس ذلك في نفسك، فإن أحببت أن تعامل بها، فعامل بها غيرك. وإن كرهت أن تعامل بها، فلا تعامل بها غيرك. وهذا الميزان من العدل، وهو الذي يوجب محبة الناس للشخص واحترامهم له؛ لأن من لم يحترم الناس لم يحترمه الناس. ومن احترم الناس احترمه الناس.

١١- أن الله تعالى غني حميد. غني: واسع الغنى - عز وجل - حميد: محمود على غناه، حيث إنه - جل وعلا - يجود على عباده بهذا الغنى. حميد على عدم احتياجه لأحد، لأنه غني بذاته عن جميع مخلوقاته.

١٢- العناية بمعرفة العبد لأسماء الله وصفاته، لقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فأمرنا بالعلم أن الله غني حميد؛ وذلك لأهمية معرفة أسماء الله وصفاته - عز وجل -. فإن معرفة أسماء الله وصفاته يزداد بها الإيمان ويقوى، ويعبد الله - تعالى - بها على بصيرة.

* * *

ثم قال الله - عز وجل -: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب نفي الإيمان عمن لا يحب لأخيه وجاره ما يحب لنفسه، رقم (٤٥).

الشيطان عدو الإنسان، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]. ومن عداوته لنا، أو من عداوته لبني آدم أنه يعدهم الفقر، كلما أراد الإنسان أن يجود بماله قال: لا تخرج فتبقى فقيرًا. فيبخل الإنسان، لأن الشيطان وسوس له ووعده إذا أنفق بالفقر.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ قال بعض العلماء: يأمركم بالبخل؛ لأن السياق يقتضيه. والصواب أنه أعم من ذلك: أنه يأمر بني آدم بالفحشاء.. بكل فاحشة.. من البخل والزنا واللواط وغير ذلك. فهو حريص عليبني آدم أن يمنع عنه الخير، وأن يملأه بالشر.

ثم بين الله ـ عز وجل ـ الوعد الحقيقي النافع لبني آدم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ بالإنفاق، لأن النفقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.

﴿وَفَضْلًا ۗ﴾ أي: زيادة على ما عندكم؛ لقول النبي ﷺ: **«ما نقصت صدقة من مال»**(١).

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ سبق لنا مثل هذه الجملة أن معنى قوله واسع: أي: واسع الصفات، واسع العلم، واسع السلطان، واسع القدرة، كل

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

صفاته ليس فيها نقص، كلها واسعة شاملة. والعليم: الذي لا يخفى عليه شيء.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ أن الشيطان له إرادة، لقوله: ﴿يَعِدُكُم﴾، ﴿وَيَأْمُرُكُم﴾ وهذا لا يصدر إلا ممن له إرادة. وماذا يريد الشيطان من بني آدم؟ يريد إغواءهم وإهلاكهم.

فإن قال قائل: ما هي العلامة؟

قلنا: العلامة إذا أحسست من نفسك من داخلها ما يحثك على الفساد وعلى المحرم، فهذا هو أمر الشيطان، فاحذر. وقد أخبر النبي ﷺ أن «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[1]، وأخبر ﷺ أن «الحلم من الشيطان». وهو أن يرى الإنسان في منامه ما يكره. فإن الشيطان يري الإنسان في منامه ما يكره حتى يقوم حزينًا مغمومًا. ولهذا أمر الإنسان إذا رأى في منامه ما يكره أن يتفل عن يساره ثلاث مرات، ويستعيذ بالله من شر الشيطان، ومن شر ما رأى، وأن يتحول إلى الجنب الآخر إن أراد الاستمرار في نومه»[2]. لأن الشيطان له لمة في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، رقم (٢٠٣٥)، ومسلم، كتاب السلام، باب أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة...، رقم (٢١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب النفث في الرقية، رقم (٥٧٤٧)، ومسلم، كتاب الرؤيا، باب في كون الرؤيا من الله، رقم (٢٢٦١).

قلب ابن آدم.

٢- أنك متى أحسست عند الإنفاق الخشية من الفقر، فاعلم أن هذا من وعد الشيطان؛ لقوله: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾.

٣- أن أوامر الشيطان كلها شر؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ فاحذر الشيطان فإنه عدوك أيها الإنسان، كما قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] أعاذنا الله وإياكم منه.

٤- أن ما يعد الله به عباده دائر بين المغفرة والفضل. المغفرة للذنوب، والعطاء بزيادة المطلوب؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ فكيف كان ذلك بالنسبة للإنفاق؟

الجواب: أن النبي ﷺ أخبر أن: «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»[1]، وبذلك تحصل المغفرة. وأخبر ﷺ أن الصدقة لا تنقص المال، وهذا يعني أنها تزيده، وهذا معنى قوله - تعالى -: ﴿وَفَضْلًا﴾. وكثير من الناس الذين ينفقون ابتغاء وجه الله يجدون ذلك ظاهرًا في أموالهم، بالبركة فيها، ودفع الآفات عنها. حتى إن الرجل يقول: كيف لم أنفق في هذا الشهر إلا كذا، أو في هذا الأسبوع إلا كذا. يتقال ما

(١) أخرجه أحمد (١٤٠٣٢، ١٤٨٦٠)، والترمذي، كتاب الجمعة، باب ما ذكر في فضل الصدقة، رقم (٦١٤)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

أنفق؛ لأن الله أنزل فيه البركة. وبركة الله - تعالى - لا نهاية لها. فإذا أردت أن يزيد مالك وتكفر سيئاتك فعليك بالصدقة. أعانني الله وإياكم عليها.

ه. أن الله واسع عليم، فيعطي على العمل أكثر مما يستحق العامل لسعة فضله وعلمه - عز وجل - بمن هو أهل لذلك. وإذا كان الله - تعالى - يعلم حيث يجعل رسالته، فهو يعلم حيث يجعل امتثال هذه الرسالة، يعني يعلم من هو أهل للهداية فيهديه، ومن ليس أهلًا فلا يهديه - نعوذ بالله من ذلك.

* * *

ثم قال الله - عز وجل -: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿ يُؤْتِى ﴾، يعني: الله - عز وجل - ﴿ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ هي: الإتقان. إتقان الأمور وتنزيلها منازلها، والتأني فيها، وعدم إصدار الأحكام إلا بعد ثبوت مقتضياتها، والقيام بما يجب على المرء أن يقوم به بالنسبة لحق الله وحق العباد. والله - سبحانه وتعالى - يؤتي الحكمة من يشاء ولكن إتيان الحكمة من يشاء، مبني على حكمة أخرى: وهي أن الذي أوتي هذه الحكمة أهل لذلك، لكون الله - تعالى - يعلم استعداده لما يؤتى من

الحكمة، فيوفقه لها. ولهذا لما قالت قريش: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١] يعني غير محمد ﷺ. والمراد بالقريتين: الطائف ومكة ـ قال الله ـ عز وجل ـ منكرًا عليهم: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف:٣٢] الجواب: لا. وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وكذلك هو أعلم حيث يجعل إرث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ. جعلنا الله وإياكم من أهله.

﴿مَن يَشَآءُ ﴾؛ يعني: من يشاء من عباده. ولكن إذا اقتضت الحكمة أن يؤتى هذا الحكمة؛ لأن من الناس من لا تقتضي الحكمة أن يؤتى الحكمة. فمشيئة الله تابعة لحكمة الله ـ عز وجل ـ.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾؛ يعني: من يعط الحكمة ويوفق لها فقد أوتي خيرًا كثيرًا؛ لأنه سيسير على منهاج سليم.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾؛ أي: ما يتعظ بمواعظ الله ـ عز وجل ـ، إلا أصحاب العقول.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمن على من يشاء من عباده بالحكمة، فتجد الرجل حكيمًا في قوله، وفي فعله، وفي تركه، وفي إقدامه، وفي جميع أحواله، متأنيًا مطلعًا إلى المستقبل، وإلى الآثار، فيزن بعضها ببعض،

ويقدم حيث كان الإقدام خيرًا، ويحجم حيث كان الإحجام خيرًا.

٢ـ إثبات مشيئة الله ـ عز وجل ـ، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾.

٣ـ تفاضل الناس في هذا: أن منهم من يؤتى الحكمة، ومنهم من يحرم الحكمة.

٤ـ أن من أوتي الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا. فأموره تكون مرتبة، قد تأنى فيها، وقد علم كيف يضع قدمه. فتجده قليل الزلل ـ وإن كان الإنسان ليس معصومًا ـ لكن من أوتي الحكمة فهو أقل زللًا من غيره.

٥ـ أنه لا يتذكر بالقرآن إلا أصحاب العقول. والمراد العقول الرشيدة. فالعقل هنا عقل الرشد، وليس عقل الإدراك؛ لأن عقل الإدراك يكون عند الكفار وغير الكفار. قد يوجد في الكفار من له عقل إدراك أكثر من كثير من المسلمين؛ لكن المراد هنا عقل الرشد، يعني حسن التصرف. فهؤلاء هم الذين يتعظون بكلام الله ـ عز وجل ـ وينتفعون به.

٦ـ أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله وحده الحكمة؛ لأنه إذا كان الذي يؤتي الحكمة هو الله، فإلى من نلجأ إذا أردنا الحكمة؟! إلى الله ـ عز وجل ـ. فأنت يا أخي المسلم إذا أردت الحكمة فاطلبها ممن يقدر على إعطائك إياها. ولكن مع هذا نقول: إن التجارب لها دور عظيم في

الوصـول إلى الحكمـة، وإن مـصاحبة العقـلاء أيـضًا لها دور عظـيم في تحصيل الحكمة. فاعمـل أنـت أيها المسلم بـدعاء الله ـ عـز وجـل ـ أن يعطيك الحكمة، وكذلك أيضًا بالأسباب الأخرى الحسية حتى تصل إلى مرادك.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعًا من الحكماء العلماء العقلاء إنه على كل شيء قدير. والحمد لله رب العالمين.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

الجملة هذه شرطية. يعني: مهما أنفقتم من نفقة، قليلة أو كثيرة، فإن الله ـ تعالى ـ يعلمها. وكونه يعلمها ـ تبارك وتعالى ـ يعني أنه سيجازي عليها، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وهو ـ سبحانه وتعالى ـ غني كريم يجازي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾؛ أي: قمتم به من واجب؛ لأن الواجب في الشرع يسمى نذرًا. كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال ـ تعالى ـ في

وصف الأبرار والأخيار: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧].

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ لا يخفى عليه، سواء أعلنتموه للناس أو أخفيتموه عنهم.

﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾؛ أي: ليس للظالم الذي ظلم نفسه، ـ بتفريطه في الواجب أو انتهاكه للمحرم، سواء في حق الله أو في حق العباد ـ من أنصار ينصرونه، أي: يمنعونه من عذاب الله.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ ـ الحث على الإنفاق في الخير، وأن ذلك لن يضيع.

٢ ـ الحث على القيام بما أوجب الله ـ عز وجل ـ، وأن ذلك لن يضيع؛ وليعلم أن القيام بالواجب أحب إلى الله ـ تعالى ـ من القيام بالتطوع، لما في الحديث الصحيح القدسي أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[1]. وكثير من الناس يظنون أن النوافل أفضل من الواجبات، وهذا غلط، بل الواجبات أفضل، لكن النوافل مكملات للواجبات، تكمل بها الفرائض يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).

وليعلم أن هذه الآية ليست في النذر المعروف، الذي هو إلزام الإنسان نفسه بطاعة الله ـ عز وجل ـ. فإن هذا النذر الذي هو إلزام الإنسان نفسه بطاعة الله، عقده مكروه، نهى عنه النبي ﷺ، وقال: «إنه لا يأتي بخير، ولا يرد شيئًا»(١). ولكن مع ذلك لو نذر طاعة وجب عليه الوفاء بها، اي: بما نذره من الطاعات، لقوله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»(٢). سواء علق هذه الطاعة على حصول مطلوب أو اندفاع مكروه، أو نذر نذرًا مطلقًا غير معلق بشيء. فمن قال: إن رد الله علي ضالتي، فلله علي أن أصوم شهرًا ـ مثلًا ـ. فرد الله عليه ضالته، وجب عليه أن يوفي بالنذر. ومن قال: إن شفاني الله، فلله علي نذر أن أصوم شهرًا. فعافاه الله، وجب عليه أن يصوم شهرًا. ومن قال: لله علي نذر أن أصوم شهرًا؛ وجب عليه أن يصوم شهرًا. لكن أصل عقد النذر مكروه، لنهي النبي ﷺ عنه.

وإنني أنصح إخواني المسلمين الذين كثيرًا ما ينذرون إذا أيسوا من حصول مطلوبهم أو اندفاع مكروههم، يظنون أن هذا يجلب الخير أو يدفع الشر، وهذا غلط. وما أكثر الذين ينذرون معلقين نذورهم على شيء ما، فيحصل لهم ما يريدون، ثم يذهبون إلى باب كل عالم يسألونه

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب الوفاء بالنذر، رقم (٦٦٠٨)، ومسلم، كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا، رقم (١٦٣٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦).

التخفيف، لعله يسقط عنهم ما يجب عليهم بالنذر. وهذا شيء مشاهد. فالحذر الحذر من النذر. واعلم أيها الأخ المسلم أن المريض إذا أراد الله شفاءه شفاه بدون نذر، وإذا أراد الله ألا يشفيه لم يشفه بالنذر. وكذلك حصول المطلوب كحصول النجاح أو غير ذلك، ليس الذي يأتي به النذر؛ لأن الرسول ﷺ قال: «إنه لا يأتي بخير»[1].

أن علم الله ـ تعالى ـ واسع، متعلق بأفعال العباد وأفعاله ـ جل وعلا ـ. فهو يعلم ما كان وما يكون لو كان كيف يكون. سواء من أفعاله أو أفعال العباد.

٣ـ التحذير من الظلم، وأن عاقبته وخيمة، وأن الظالم لن يجد له ناصرًا؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: تظهروها وتبينوها للناس.

﴿فَنِعِمَّا هِىَ ۖ﴾؛ أي: فنعم ما هي الصدقة، فهي خير على كل

(١) سبق تخريجه ص (٢٩٦).

حال. سواء أبداها الإنسان أو أخفاها.

﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ خير لكم من وجهين:

الوجه الأول: أن إخفاء الصدقات أبعد من الرياء، وأدل على الإخلاص.

الوجه الثاني: أن الفقراء لا يبدو للناس أنهم فقراء يتصدق عليهم، فتنكسر قلوبهم. فإذا أعطيت الفقير الصدقة خفية، كان هذا أطيب لقلبه وأبعد عن ذله. ولهذا قال:

﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾؛ أي: خير لكم من إبدائها. لكن الصدقة كلها خير.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ﴾؛ أي: يكفر من سيئاتكم بصدقاتكم. كما قال النبي ﷺ: «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل»[1] يعني تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.

ثم ختم الله - عز وجل - الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٤٠٣٢، ١٤٨٦٠، ٢١٥١١، ٢١٦٢٨)، والترمذي، كتاب الجمعة، باب ما ذكر في فضل الصلاة، رقم (٦١٤)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣، ٤٢١٠).

أي: عليم. والخبرة أبلغ من مجرد العلم؛ لأن الخبرة هي العلم ببواطن الأمور. فيخبر - عز وجل - أنه عليم ببواطن الأمور كما أنه عليم بظواهرها.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ الحث على الصدقات، وأنها خير بكل حال؛ سواء أبديت أو أخفيت.

٢ـ تفاضل الأعمال، وأن الأعمال تتفاضل بحسب أعيانها وأوصافها. فمثلًا الفريضة أفضل من النافلة، والصلاة أفضل من الزكاة، والصدقات المخفاة أفضل من الصدقات المبداة؛ ولهذا قال: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. والصدقة هي بذل المال تقربًا إلى الله - تبارك وتعالى - للفقراء المحتاجين لها.

٣ـ أن إخفاء الصدقات أفضل من إظهارها. لكن إن ترتب على إظهارها مصلحة أكبر من مصلحة إخفائها، صار إظهارها أفضل. مثل أن يكون الرجل أسوة للناس يتأسون به في أفعاله، فإذا أبدى الصدقة على فقير ما، تسابق الناس إلى هذا الفقير وأعطوه. فحينئذ يكون إبداؤها أفضل من إخفائها، لما يترتب عليه من مصلحة الفقراء.

٤ـ أن الصدقات تكفر السيئات. والإنسان لا يخلو من سيئة، كل

بنـي آدم خطـاء، وخـير الخطـائين التوابـون. وثبـت عـن النبـي ﷺ أن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل(١). يعني تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.

٥- أن الإيمان يزيد وينقص، ووجه ذلك: أن الأعمال من الإيمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع السلف. وإذا كانت الأعمال من الإيمان، فإنها إذا ازدادت ازداد الإيمان، إذا ازدادت كمية أو كيفية، ازداد الإيمان بلا شك.

٦- سعة علم الله - تعالى - وشموله لظواهر الأمور وبواطنها. ومناسبة ذكر اسمه «الخبير» هنا، من أجل أن يبين - جلا وعلا - لعباده أن ما أخفوه من الصدقة، حتى صار أمرًا باطنًا لا يعلمه إلا الفقير، فإن الله - تعالى - عليم به، خبير لا يخفى عليه شيء.

٧- التحذير من مخالفة أمر الله - عز وجل -. ووجهه: أنك إذا آمنت أن الله - تعالى - خبير بما تعمل، فإنه لا يمكن أن تخالفه؛ لأنه مهما عملت فالله عليم به وسيجازيك.

٨- أن الإنسان إذا علم بأن الله - تعالى - عليم بجميع أحواله اعتمد عليه - تبارك وتعالى - في جميع أحواله، ورضي بما قدر عليه، إن خيرًا

---

(١) تقدم تخريجه.

شكر عليه، وإن كان سوى ذلك صبر عليه. ولهذا قال النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[1]. اللهم اجعلنا من المؤمنين المتقين.

* * *

ثم قال ـ تبارك وتعالى ـ مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾؛ يعني: لا يجب عليك أن تهدي الناس، لا يمكنك ذلك. ولكن المراد بالهداية هنا: هداية التوفيق. وأما هداية الدلالة والإرشاد فهي على الرسول ﷺ؛ لأن هداية الدلالة والإرشاد من البلاغ، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٨٢].

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾؛ أي: هدي الخلق. والمراد هداية التوفيق.

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ هو الذي يهدي ـ عز وجل ـ

---

[1] رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

ويوفق من يشاء. والمشيئة هنا تابعة للحكمة. أي: لحكمة الله. وهكذا كلما جاءتك آية فيها تعليق الحكم بالمشيئة، فاعلم أن ذلك مبني على الحكمة؛ لأن الله ـ تعالى ـ لا يشاء الشيء سفهًا، بل هو ـ عز وجل ـ لا يشاء إلا ما هو غاية الحكمة. قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ ﴾؛ أي: أي شيء من الخير تنفقونه فهو لأنفسكـــم، لا ينتفع الله به. كما قال الله ـ عز وجل ـ ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [لقمان: ١٢].

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ ﴾؛ أي: ما تنفقون نفقة تنفعكم إلا ما كان يبتغى به وجه الله. يعني: النفقة المبنية على الإخلاص وابتغاء وجه الله. فإن ذلك إنفاق حقيقة، إنفاق غير ضائع.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾: أي خير تنفقونه ـ قليلًا كان أو كثيرًا ـ يوف إليكم؛ أي: تعطونه وافيًا من غير نقص.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ حاشا لله أن يظلم أحدًا من عباده ـ جل

وعلا ـ. فلن يظلم أحدًا بنقص حسنة من حسناته، ولا بإضافة سيئة إلى سيئاته. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢].

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ ـ أن النبي ﷺ لا يملك هداية الخلق، وليس عليه هداية الخلق؛ لأن ذلك بيد الله ـ عز وجل ـ. وانظر أيها القارئ الكريم إلى ما بذله النبي ﷺ من محاولة لهداية عمه أبي طالب، الذي نصره ودافع عنه، فحاول ﷺ أن يهديه الله، ولكن الله ـ تعالى ـ قد قدر عدم الهداية. (فإنه لما حضرته الوفاة ـ أعني أبا طالب عم رسول الله ﷺ كان عنده النبي ﷺ ورجلان من قريش. فقال: «يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله». وكان جليسا السوء من قريش عنده يقولان له: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ وملة عبدالمطلب مبنية على قولهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. اللهم اختم لنا بخاتمة السعادة.

ولا شك أن هذا يؤثر على النبي ﷺ أن يكون عمه أبو طالب الذي دافع عنه، وناضل عنه، وشاركه حياته، تكون غايته هذه الغاية السيئة. فقال: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا

كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في تسلية النبي ﷺ قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦][1] أي: أعلم بمن هو أهل للهداية فيهديه. نسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يهدينا وإخواننا المسلمين صراطه المستقيم، وأن يمن علينا جميعًا بالتوبة والإخلاص لله ـ عز وجل ـ.

٢ـ أنه إذا كان النبي ﷺ وهو المكلف بإبلاغ الرسائل، ليس عليه أن يهدي عباد الله ويوفقهم، فمن دونه من باب أولى. فإذا حرص الإنسان مثلًا في دعوة أقاربه للحق ودعاهم وبذل ما يستطيع، ولكن لم يحصل مراده، فلا يحزن عليهم، لو شاء الله لهداهم. لكن لا ييأس من هدايتهم. فكم من إنسان دعا شخصًا مرة بعد أخرى، وكرة بعد كرة، ثم هداه الله ـ عز وجل ـ. فلا ييأس الداعية من هداية عباد الله ـ عز وجل ـ.

٣ـ أن الهداية بيد الله، ويتفرع على هذا أنه ينبغي للإنسان أن يكثر من سؤال الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يهديه. ولهذا فرض الله علينا فرضًا حتمًا أن نسأله الهداية في كل صلاة، ففي سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قوله: لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

٤ـ إثبات أن عمل الإنسان يكون بمشيئة الله، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾. وإذا كان بمشيئة الله فإن ذلك يحمل العاقل على أن يسأل الهداية من الله وحده.

٥ـ إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ فيما يتعلق بأفعال العباد. فكل من فعل فعلًا، فإننا نقول: هذا بمشيئة الله، ولو شاء الله لم يكن. ولهذا أجمع المسلمون على هذه الكلمة، وهي: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

٦ـ أن ما ننفقه من الخير لا يعود إلا إلينا، لا إلى الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾. أما الله ـ تبارك وتعالى ـ فقد قال عن نفسه في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني»[1].

الحث على إنفاق الخير. فإن الإنسان متى علم بأن ذلك لنفسه، فكل إنسان يحب الخير لنفسه، أكثر من الإنفاق.

٧ـ أن مال الإنسان ما قدمه، وأما ما خلفه بعد حياته فليس ماله؛ لقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾. ولهذا سأل النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

أصحابه قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه فقال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر»[١].

٨ـ الحث على الإخلاص؛ لقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾. وأما من أنفق رياءً وسمعة فإنه خاسر، ليس له في إنفاقه أجر. وفي الحديث الصحيح أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[٢]. والمتصدق لمراءاة الناس من أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، فإنه يقال له: «إنما تصدقت أو أنفقت ليقول الناس: هذا كريم، أو هذا جواد. وقد قيل»[٣] يعني: فجزاؤك ما سمعت من الناس.

٩ـ إثبات الوجه لله ـ عز وجل ـ. وهو كثير في القرآن. مثل قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ١٩، ٢٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، رقم (٦٤٤٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب من قاتل للرياء والسمعة، رقم (١٩٠٥).

فلله ـ تعالى ـ وجه عظيم، وجه كريم، موصوف بالجلال والإكرام، وجه لا يماثل أوجه المخلوقين ـ جل وعلا ـ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]. حجابه ـ جل وعلا ـ النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ـ أي: بهاؤه وعظمته ـ ما انتهى إليه بصره من خلقه. أي: لأحرق كل شيء؛ لأن بصر الله ينتهي إلى كل شيء. فلو كشف الله حجاب النور عن وجهه؛ لأحرق كل شيء. ولكن ليعلم أن هذا في الدنيا. أما في الآخرة فإن الله ـ تعالى ـ يخلق أجسامًا أو يعيد الأجسام إلى قوة عظيمة تتحمل النظر إلى وجه الله ـ تعالى ـ ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة التي دل عليها الكتاب والسنة، وأجمع عليها سلف الأمة، أن الله ـ تعالى ـ يرى في الجنة رؤية حقيقية بالبصر، كما قال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته»وفي لفظ: «لا تضامون في رؤيته»يعني: لا ينضم بعضكم إلى بعض ليريه الآخر. لأنه ظاهر لا يحتاج أن نقول: انظر إليه. كما يتضام الناس في رؤية الهلال، ليري بعضهم بعضًا ما رآه. قال ﷺ: «لا تضامون في رؤيته. فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا»[1]، ويعني بهاتين الصلاتين: صلاة الفجر وصلاة العصر؛ لأن هاتين الصلاتين أفضل الصلوات

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

الخمس. والعصر أفضل من الفجر؛ لأنها الصلاة الوسطى التي نص الله ـ تعالى ـ على المحافظة عليها في قوله: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

١٠-. إثبات الجزاء، وأن الجزاء من جنس العمل، لقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ أي: تعطونه وافيًا غير ناقص، بل زائد، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

١١- أن العامل لن يظلم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾. والظلم نوعان: إما نقص حق واجب، إما إضافة شيء سيئ لم يقم به الإنسان. فإذا اكتسب الإنسان عشر حسنات، أعطي عشر حسنات، ولن تنقص. ومن عمل سيئة، لم يجاز بأكثر، ولا يضاف إليه سيئة إلا واحدًا وهو من ظلم الناس، فإنه يؤخذ من حسناته، فإذا فنيت أخذ من سيئات من ظلمهم فطرح عليه ثم طرح في النار. ـ نسأل الله العافية ـ. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

أسأل الله أن يمن علينا جميعًا بالإخلاص وابتغاء وجه الله. إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ

التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

لما بين - جل وعلا - الإنفاق وحث عليه ورغب فيه وذكر ثوابه، ذكر محل الإنفاق، وهو أمر مهم أن تعرف أين تضع ما تنفقه من المال، حتى لا تضعه في غير أهله. فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾؛ يعني: أن الإنفاق يكون لهؤلاء الموصوفين. وهذا أعلى أنواع المحل. ولنتأمل أوصافهم:

الوصف الأول: أنهم فقراء جديرون بالصدقة عليهم.

الوصف الثاني: ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منعوا من الذهاب يمينًا وشمالًا في سبيل الله؛ لأنه لا قدرة لهم. وذلك أمثال المهاجرين الذين هاجروا إلى المدينة وهم فقراء.

الوصف الثالث: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يستطيعون سفرًا؛ لأن الضرب في الأرض هو السفر، لقول الله - تعالى -: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١] وقول الله - تعالى -: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. لا يستطيعون ضربًا في الأرض، أي: سفرًا فيها.

الوصف الرابع: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾؛ يعني: أن الجاهل بحالهم الذي لا يدري عنهم يظن أنهم أغنياء لتعففهم وعدم تعرضهم للسؤال، ولكونهم يظهرون مظهر الأغنياء، فمن لا يدري

عن حالهم يحسبهم أغنياء.

الوصف الخامس: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾؛ يعني: ليس هناك علامة ظاهرة تبين أنهم فقراء، ولكن علامة خفية يعرفها صاحب الفراسة.

الوصف السادس: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾؛ أي: لا يسألون الناس، وإن اضطروا لم يسألوا سؤال إلحاف أي سؤال إلحاح.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وسبق نظيرها قريبًا.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أنه ينبغي للإنسان إذا أنفق أن يتحرى أحق الناس بالنفقة، حتى تقع موقعها.

٢- ومنها أن المتصفين بهذه الصفات هم أحق الناس: فقراء، أحصروا في سبيل الله، لا يستطيعون ضربًا في الأرض، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافًا. ست صفات.

٣- أن من لا يستطيع السفر ولا الذهاب يمينًا وشمالًا، هو الذي يستحق الإنفاق. فيعلم بذلك أن من يستطيع أن يتكسب وإن لم يكن عنده شيء من المال ليس أهلًا للإنفاق عليه، ولهذا قال النبي ﷺ في الصدقة: «إنها لا تحل لغني ولا لقوي مكتسب»[1] يعني الزكاة. فقال:

---

(١) أخرجه أحمد (٨٦٩١)، والترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في من لا تحل له الصدقة، رقم (٦٥٣)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها، رقم (٢٥٩٧)، وابن ماجه، كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى رقم (١٨٣٩)، كلهم بلفظ «ولا لذي مرة سوي».

«ولا لقوي مكتسب»، لو لم يكن عنده دراهم، لأن هذا غني بعمله. وهنا يقول: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾.

٤ـ الإشارة إلى أن الأسفار من أسباب الكسب والغنى. وما أحسن ما قيل:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

الشاهد هو: اكتساب معيشة. فالأسفار لطلب الرزق من أسباب الرزق.

٥ـ أن انحباس الإنسان في البلد في سبيل الله، يعني للعلم والعمل والعبادة والتهيؤ للجهاد، من أفضل الأعمال؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ﴾.

٦ـ الإشارة إلى أن الإنسان إذا تفرغ لطلب العلم أو للجهاد كان جديرًا بالمعونة.

٧ـ أن الناس يختلفون في الفراسة؛ لقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾. والناس في هذا يختلفون اختلافًا عظيمًا ـ أي: في الفراسة ـ فمن الناس من يستدل بثياب الإنسان من أي بلد هو؟ أو بخشونة يديه، أو نعومة يديه، من أي الصناع هو؟ وبعض

الناس يستدل بحركة حدقة العين على حال الإنسان من خوف أو طمأنينة أو ما أشبه ذلك. فالناس في هذا يختلفون اختلافًا عظيمًا. ولكن هذا لا يوجب أن يسيء الإنسان الظن بعباد الله.

٨ـ أنه ينبغي للإنسان أن يظهر الغنى في لباسه وهيئته ويتفرع على ذلك بيان جهل الذين يلبسون خشن الثياب ووسخ الثياب، ولا يبالون بثيابهم. يزعمون هذا تعففًا. فإن ذلك من خطئهم. ولما قال الصحابة ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله، كلنا يحب أن يكون نعله حسنًا وثوبه حسنًا؟ قال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال ـ يعني: يحب أن يتجمل الإنسان في ثيابه ونعله وهيئته ـ الكبر بطر الحق وغمط الناس»(١). وهنا قال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾.

لو قال قائل: هذا في الواقع تشبع بما لم يعط. كيف يظهر نفسه بمظهر الغني وهو فقير؟

نقول: ليس كذلك. الرجل هنا لا يريد مراءاة الناس. لكن يريد أن يعز نفسه ويرفعها عن الذل ورؤية أنه فقير وما أشبه ذلك.

٩ـ الإشارة إلى الفراسة؛ لقوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ وأشرنا إلى

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

ذلك في التفسير، وأن الناس يختلفون اختلافًا عظيمًا في هذا.

١٠ـ الثناء على من لا يسأل الناس إلحافًا ولو أحوجته الحاجة، بل يسأل بطمأنينة وهدوء إذا اضطر. وأما مع عدم الضرورة فالمسألة حرام، إلا من سأل حقا فلا حرج عليه.

١١ـ الحث على إنفاق الخير؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾. فأخبر ـ جل وعلا ـ أنه عليم بذلك، ليحث عباده على الإنفاق في الخير. نسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يجعلنا من أهل الجود والكرم، وأن يمن علينا جميعًا بمنه وكرمه. إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

يخبر الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية الكريمة عن قوم ينفقون أموالهم ليلًا ونهارًا، حسب ما تقتضيه الحاجة والمصلحة.

﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ كذلك. أي: ينفقونها أحيانًا سرا وأحيانًا علانية. وقدم السر على العلانية؛ لأنه أفضل وأقرب إلى الإخلاص. ولكن إذ

اقتضت الحال أن يكون في العلانية خير، صارت العلانية أفضل من هذه الناحية. ولا بد من قيد مهم في هذا، وهو أن يكون الإنفاق ابتغاء وجه الله. كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فينوي الإنسان بالإنفاق في وجوه الخير وجه الله ـ عز وجل ـ، لا يريد أن يمدحه الناس، ولا أن يحترموه. وإنما يريد شيئًا واحدًا، وهو وجه الله ـ تبارك وتعالى.

يقـول: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أتـى بالفـاء في خـبر المبتـدأ؛ لأن الاسـم الموصول يشبه الشرط في العموم، فجاز أن يدخل في خبره حرف الفاء، لمشابهته له في العموم. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ثوابهم. وسمى الله ـ تعالى ـ الثواب أجرًا؛ لأنه عوض عن عمل. وهو من كرمه ـ جل وعلا ـ. فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يسر العمل للعامل، ومع ذلـك جعل ثوابه أجرًا للعامل، كأنه استحقه بكسبه.

وقولـه: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هـذه العندية تقتضي أن يكـون هـذا الأجـر عظيمًا؛ لأن ما كان عند العظيم فهو عظيم، وهو كـذلك. وهـذا الأجـر: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في مستقبل أمرهم.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى مـن أمرهم؛ لأنهـم لم يخسروا هـذا الوقـت الـذي مـضى علـيهم. فهـم لا يحزنـون عـلى ذهابـه، لأنهـم

اغتنموه بالأعمال الصالحة.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ الحث على الإنفاق في سبيل الله ـ عز وجل ـ. وهو أنواع: منه الواجب الذي يكون ركنًا من أركان الإسلام، وهو الزكاة. ومنه الواجب لحق الغير، كالإنفاق على الزوجة وعلى الأقارب الذين تجب نفقتهم. ومنه الإنفاق الواجب على الكفاية، كالإنفاق في الجهاد في سبيل الله. ومنه المستحب، والمستحب يتفاوت: فهو على القريب صدقة وصلة، وعلى الجار صدقة وإكرام جار، وعلى سائر الناس صدقة. وتتفاوت هذه في أجرها تفاوتًا عظيمًا.

٢ـ أنه لا يتقيد الإنفاق في وقت معين، بل يكون ليلًا ونهارًا، على حسب ما تقتضيه الحكمة والحاجة. قد يقرع عليك الباب رجل محتاج في الليل، فتنفق عليه. وقد يمر بك رجل محتاج في النهار، فتنفق عليه.

٣ـ أن الصدقة مكفولة، وفيها ثواب، سواء كانت سرا أم علانية. بشرط الإخلاص لله ـ عز وجل ـ.

٤ـ أن صدقة السر أفضل؛ لأنها أقرب إلى الإخلاص، وأرفق بالمتصدق عليه، حيث لا يخجل أمام الناس. فإن كثيرًا من الناس لا يرغب أن تتصدق عليه أمام الناس.

٥ـ أن العلانية قد تكون خيرًا من السر، ولكن هذا مشروط بحسب ما يؤدي إليه الإعلان. فقد يكون الإنسان معلنًا صدقته ليقتدي الناس به ويتأسوا به، فيكون قد سن في الإسلام سنة حسنة؛ لأن النبي ﷺ حث على الصدقة ذات يوم، فأتى رجل بصرة معه وضعها في حجر النبي ﷺ، فقال ﷺ:«**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده**» (١).

٦ـ ترتيب الثواب على العمل، لقوله:﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾.

٧ـ أن أجر الإنفاق أجر كبير عظيم؛ لأن الله أضافه إلى نفسه، فقال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾. والشيء يعظم بعظمة من أضيف إليه. ولهذا جاء في حديث أبي بكر - رضي الله عنه - لما قال للنبي ﷺ: علمني دعاءً أدعو به في صلاتي؟ قال: قل«**اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**» (٢).

٨ـ أن الله أضاف ربوبيته إلى هؤلاء: ﴿رَبِّهِمْ﴾،لأن هذه ربوبية خاصة، مقتضاها توفيق العبد بالقيام بالعمل الصالح، وإلا فإن الله -

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم (١٠١٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالدعاء، رقم (٢٧٠٥).

تعالى - رب العالمين، وقد أشار الله إلى هذا في قوله: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ [النحل:٩١].
فالربوبية لهؤلاء المنفقين في سبيله لا يعني أنه ليس ربا لغيرهم، بل هو رب العالمين - عز وجل.

٩- تطمين أولئك المنفقين بأنه لا خوف عليهم في المستقبل، ولا يحزنون عما مضى، لقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وقدم نفي الخوف لأنه يتعلق بالمستقبل، والحزن يتعلق بالماضي قد تجاوزه الإنسان وعرف ما هو عليه. لكن الشأن كل الشأن في مستقبل أمره.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ والربا يعني: الزيادة. تقول: ربا المال، أي: زاد. وقال الله - تعالى -: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]؛ أي علت. والعلو: الزيادة.

و ﴿يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ أي: يكسبون الربا. لكنه عبر بالأكل بناء

على الأعم الأغلب؛ لأن أشد شيء يحتاجه الإنسان في ماله هو الأكل.

﴿لَا يَقُومُونَ﴾ هذا خبر المبتدأ. أي: هؤلاء لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. (لا يقومون) هذا فعل، ولم يبين الله ـ تبارك وتعالى ـ وقته. فقيل: المعنى: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. وقيل: المعنى: لا يقومون لاتجارهم بالربا وتكالبهم عليه، إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. يعني كأنهم لجشعهم وطمعهم في تصرفهم للوصول إلى الربا، كأنهم مجانين، ليس عندهم إدراك ولا عقل. فهذان قولان:

القول الأول: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كالمجانين.

والقول الثاني: لا يقومون لاكتساب الربا، يعني في تجاراتهم وسعيهم وذهابهم وإيابهم إلا كالذي يتخبطه الشيطان من المس؛ لأنهم لشدة جشعهم وطمعهم كأنهم مجانين. ومعنى التخبط: الضرب على غير اتزان. فيضربه الشيطان فيصرع ويختل توازنه وتفكيره.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ أي: ذلك الحال الذي يحصل لهم، أو ذلك الأمر الذي يحصل لهم، بسبب أنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، فألحقوا الواضح بالمشكل. يعني ألحقوا الحلال الواضح وهو البيع، فجعلوه مماثلًا للربا. والواقع يقتضي العكس. فإن حل البيع أمر لا إشكال فيه. لكن هذا من شدة مجادلتهم،

ادعوا أن البيع مثل الربا، فإن كان الربا حرامًا فليكن البيع حرامًا، وإن كان البيع حلالًا فليكن الربا حلالًا. فقالوا: أي فرق بين أن أتعامل بالربا أو بغير الربا؟ أي فرق؟ كله أخذ وعطاء؟ رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾. وهذه مقنعة لكل أحد. أحل الله البيع فهو حلال، وحرم الربا فهو حرام. وله ـ عز وجل ـ الحكم وإليه المرجع. ولا يمكن لأي إنسان يقر بالخالق أن يعارضه في حكمه.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ الموعظة: هي الخبر المقرون بالترغيب والترهيب. وقد يراد بالموعظة: الحكم كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨]. فمن جاءه موعظة من الله فاتعظ: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾؛ أي: ما مضى مما تعامل به من الربا؛ لأنه تاب إلى الله ورجع إليه. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾؛ أي: ما مضى.

﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: شأنه إلى الله ـ عز وجل ـ. فيحاسبه ـ سبحانه وتعالى ـ على ما تقتضيه حكمته ورحمته.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾؛ أي: رجع إلى الربا.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: فأولئك العائدون أصحاب النار. أي: الملازمون لها، هم فيها خالدون. وأعاد

الضمير في قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾إلى «من» مفردًا، باعتبار لفظها. وجاء اسم الإشارة بلفظ الجمع: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باعتبار المعنى.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ ـ تحريم الربا. وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن الله شبههم ـ أي: آكلي الربا ـ بأقبح تشبيه تحذيرًا من أكل الربا.

والثاني: من قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

والربا من أكبر الكبائر. لم يرد في أي ذنب دون الشرك مثل ما ورد في الربا من الوعيد؛ وذلك لأن النفوس تدعو إليه. حيث إنه يكثر به المال حسا. ولكنه ينقص به معنًى وبركة. والنفوس مجبولة على محبة المال. فلهذا ورد فيه التحذير والوعيد الشديد.

فإن قال قائل: هل الربا يقع في كل بيع؟ يعني: هل الزيادة في كل بيع ممنوعة؟

فالجواب: لا. إنما الربا في أشياء مخصوصة، بينها النبي ﷺ في قوله: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير،

والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلًا بمثل، سواءً بسواء، يدًا بيد»[1]. هذه هي الأموال التي يجري فيها الربا بالنص. واختلف العلماء - رحمهم الله - هل يلحق بها غيرها أو لا؟ فمن منع القياس كالظاهرية قالوا: لا يلحق بها غيرها. وعلى هذا فلا ربا في الأرز والذرة وما أشبهها. اقتصارًا على ما جاء به النص. ومن أجاز القياس في الأحكام الشرعية انقسموا إلى قسمين:

قسم قال: يقتصر على هذه الأصناف الستة، واحتج لقوله: بأن العلماء اختلفوا في علة الربا. فلما اختلفوا في علة الربا أسقطنا كل الخلاف وقلنا: نبقى على النص أسلم.

ومنهم من قال: إنه يلحق بها غيرها، وهو ما ماثلها في الطعم والاقتيات والنقدية. وعلى هذا فجميع النقود، أي: جميع ما يستعمل استعمال النقود، ففيه الربا. سواء كان من ذهب أو فضة أو معدن أو رصاص أو ورق؛ لأن العلة موجودة. وعلى هذا فلا يجري في الموزونات، كالحديد والرصاص والصفر وما أشبهها. وهذا هو الصحيح. أنه لا ربا في جميع الموزونات، إلا في الذهب والفضة.

والعلة في غير الذهب والفضة هو أنها قوت مدخرة؛ لأنك إذا نظرت إلى البر وجدت أنه قوت وأنه مدخر. وعلى هذا فلا ربا في

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقدًا، رقم (١٥٨٧).

الفواكه بجميع أنواعها، ولا ربا في البطيخ بجميع أنواعه. فلا يجوز للإنسان أن يبيع صاعًا من البر بصاعين، وإن كانت القيمة واحدة. ولا أن يبيع الذرة لمن كانوا يقتاتونها الصاع بالصاعين، ولو كانت القيمة واحدة. ويجوز أن يبيع البرتقالة ببرتقالتين، والتفاحة بالتفاحتين، وما أشبه ذلك؛ لأنها ليست قوتًا ولا مدخرًا. وهذا أقرب ما يكون من الأقوال. يجري الربا في الذهب والفضة والنقود مطلقًا، ويجري في المطعوم الذي يقتات دون الذي لا يقتات.

فإن قال قائل: يرد على هذا الملح ليس مطعومًا لوحده ولا مقتاتًا؟

والجواب: أن الملح مقتات، لا إشكال فيه. ولكنه ملازم للطعام الذي يدخر. لأنه لا يمكن أكل الذرة أو البر إلا بملح. فألحق به من هذا الوجه.

وهنا مسألة: لو فرض أن شخصًا أبدل حليا مستعملًا زنته مائة غرام، بحلي جديد زنته ثمانون غرامًا؟ فهذا ربا لا يجوز. وإن كانت القيمة واحدة. ولو أبدل صاعًا طيبًا من البر بصاعين رديئين يساويان الصاع في القيمة، فإنه ربا لا يجوز. ويدل لذلك أن النبي ﷺ أتي إليه بتمر طيب. فسأل: من أين هذا؟ ـ لأن تمر خيبر لا يكون كذلك ـ قالوا: يا رسول الله، كنا نأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة. فقال: «هذا عين الربا ردوه» أمر برد البيع وقال: إنه عين الربا. ثم فتح

لهم معاملة ليس فيها ربا. أمرهم أن يبيعوا الرديء بالدراهم، ويشتروا بالدراهم جيدًا. واعلم أنه إذا توافق المبيعان في العلة والنوع، فلابد من شرطين.

الشرط الأول: التساوي في المعيار الشرعي.

والثاني: القبض قبل التفرق.

وإذا اتفقا في المعيار الشرعي واختلفا في النوع، كشعير بحنطة، فلا بد من شرط واحد: وهو التقابض في المجلس، ولا يضر التفاضل. فلو باع صاعًا من الحنطة بصاعين من الشعير وتقابضا في المجلس فلا حرج؛ لقول النبي ﷺ: «إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم، إذا كان يدًا بيد»[1]. وأما بيع البر والشعير والتمر والملح وما أشبه ذلك بالدراهم والدنانير فلا حرج من التفرق قبل التقابض؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ جواز السلم. والسلم أن يدفع المشتري دراهم للبائع ويقبض المبيع بعد سنة أو سنتين، حسب ما يتفقان عليه. فإذا كان العوض أحد النقدين، فإنه لا يشترط التقابض في مجلس العقد.

٢- أن آكلي الربا يبتلون بالجشع والطمع، حتى يكونوا في تصرفاتهم كتصرف المجنون. وهذا على أحد المعنيين في الآية الكريمة. أما على

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣١٤).

المعنى الثاني: أن هذا وصف لحال قيامهم من قبورهم يوم القيامة. ففيه أيضًا أن آكلي الربا يخزون يوم القيامة أمام الناس، بل أمام العالم كله، فيقومون من قبورهم كما يقوم المصروع. نسأل الله العافية.

٣ـ شدة التحذير من الربا؛ لأن هذا التشبيه الذي ذكره الله ـ عز وجل ـ بمجرد ما يسمعه الإنسان العاقل سوف ينفر ويفر من الربا فراره من الأسد.

٤ـ إثبات أن الشيطان يتخبط الإنسان فيصرعه. وهذا ثابت بالكتاب كما هنا. وثابت بالسنة أيضًا، وثابت بالواقع فيما مضى من التاريخ، وفي الحاضر أيضًا. ولا يرتاب أحد في أن الشيطان قد يسلط على الإنسان فيتخبطه ويصرعه ويؤذيه، حتى يلحقه بالمجانين. ولكن ما هو الطريق الذي يحمي من الشيطان؟ الطريق هو أن نأخذ بهدي النبي ﷺ في استعمال الأوراد الشرعية، مثل قراءة آية الكرسي. فإن آية الكرسي من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح[1]. آية واحدة تقرؤها تحميك ولا يزال عليك من الله حافظ. لو استأجرت أكبر الحراس وأكثر الحراس على أن يقوك من الشيطان، ما استطاعوا. لكن آية الكرسي إذا قرأتها في ليلة مؤمنًا بما جاءت به السنة، فإنها ستحميك. «**لم يزل عليك من الله حافظ، ولا**

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الوتر، باب في المعوذتين، رقم (١٤٦٣).

بقربك شيطان حتى تصبح». ما أكثر الغافلين عن هذا. كذلك قراءة المعوذتين: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾. فإن النبي ﷺ أخبر أنه ما تعوذ متعوذ بمثلهما. كذلك أن تقول إذا نزلت البيت: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. فإن من نزل منزلًا فقالها، لا يضره الشيطان، أو لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله»[1].

٥ـ بطلان القياس الفاسد، وأنه لا قياس مع النص. فهؤلاء الذين يأكلون الربا لما قاسوا الربا على البيع، بل جعلوا حل الربا أبلغ من حل البيع، فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أبطل الله هذا القياس بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾. فيستفاد منه بطلان القياس المخالف للنص. ويسمى القياس المخالف للنص: **«فاسد الاعتبار»**، يعني لا عبرة به.

٦ـ بطلان حجة من أراد إبطال الحق بالباطل، بحجة لا يتمكن مؤمن من دفعها. وهي أن الحكم لله. فلا جدال بعد وضوح الحق. لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وقد قال ـ تبارك وتعالى ـ:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم (٢٧٠٨).

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥١، ٥٢]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولما أمر النبي ﷺ بقطع يد المرأة المخزومية التي كانت تستعير المتاع من الناس، وإذا جاءوا يطلبونه أنكرت، تجحد. فأمر النبي ﷺ بقطع يدها. فأهم ذلك قريشًا.. امرأة من بني مخزوم من قبائل قريش تقطع يدها!! وطلبوا من أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أن يشفع إلى النبي ﷺ، فشفع، كلم النبي ﷺ. فأنكر عليه النبي ﷺ وقال له: «أتشفع في حد من حدود الله؟» ثم خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم الله ـ أقسم ﷺ ـ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(١). وفاطمة أشرف من المخزومية نسبًا ودينًا، وهي سيدة نساء أهل الجنة ـ رضي الله عنها ـ، وقال: «لقطعت يدها»، ولم يقل: لأمرت بقطع يدها. يعني هو نفسه

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (٥٤)، حديث (٣٤٧٥)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم (١٦٨٨).

صلوات الله وسلامه عليه يباشر قطع يدها. والشاهد من هذا الحديث الإنكار على من عارض النص والحكم الشرعي.

٧ـ الوقوف عند كلام الله وكلام رسوله ﷺ. سواء أدرك العقل حكمته أم لم يدركها ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ انتهى.. لا جدال.

٨ـ أن الإنسان إذا تاب إلى الله، ورجع إليه، ومن الله عليه بموعظة تصل قلبه، فإنه يغفر له ما قد سلف؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾. وهذا فضل الله، ولله الحمد والمنة. الكفر وهو أعظم من الربا إذا تاب الإنسان منه تاب الله عليه. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]. وأخبر النبي ﷺ أن الإسلام يهدم ما قبله[1]. كذلك التوبة تهدم ما قبلها.

٩ـ أن الإنسان لا يلزمه أن يخرج ما اكتسبه بالربا بعد التوبة، لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾. ولكن يلزمه أن يسقط الربا بعد التوبة؛ لقول النبي ﷺ: «ربا الجاهلية موضوع، وأول ربًا أضع ربانا، ربا العباس بن عبدالمطلب»[2].

ولكن إذا قلنا: إن التائب من الربا إذا بقي له ربًا في ذمم الناس فإنه

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، رقم (١٢١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

يتركه، فهل يسقط عن ذمة الذي أعطى الربا؟

الجواب: لا يسقط. بل يؤخذ منه ويوضع في بيت المال. لئلا يجتمع له الربح من وجهين. فيقال: أنت أيها الدائن الذي لك الربا لا تأخذ الربا، لأنك تبت إلى الله، ولا ترجع في توبتك. لكن هذا الذي عليه الربا تصرف باختياره، والتزم الربا باختياره، وانتفع بالمال الذي أخذه. فلا يمكن أن نجمع له بين الفائدتين. نقول: نأخذ الربا منه ونجعله في بيت المال.

مثال ذلك: لو أن شخصًا تعامل مع شخص وأعطاه مليون ريال على أن يسدده على أقساط مليون ومئة ألف. نقول: أنت أيها الدائن لا تأخذ إلا مليون ريال. وأما أنت أيها المدين فأعط الدائن مليون ريال، ونأخذ منك مئة ألف نجعلها في بيت المال لأنك راض بدفعها. ولا يمكن أن نجمع لك بين هذا وهذا. هذا ما نراه في هذه المسألة.

ولكن: لو أعطاه الربا أحد البنوك في بلاد الكفر، فهل يلزمه أن يأخذه؟

الجواب: لا يلزمه. بل لا يجوز أن يأخذه، لأنه ربًا. نعم، إن ألزموه بذلك وقالوا لابد أن تأخذه لأن حساباتنا تختل لو رجعناه، فهنا يأخذه. ولكن يتصدق به تخلصًا منه، لا تقربًا به إلى الله ـ عز وجل.

فإن قال قائل: لو أبقينا ولم نأخذه، انتفعت به الأمم الكافرة، وربما

يوجهونه إلى الكنائس ومعابد الكفر، أو إلى مصانع الأسلحة ليتقووا بها أو يقاتلوا بها المسلمين؟ كل هذا محتمل. وفيه احتمال آخر ربما يكون أرجح منه: أن يضعوا هذه الزيادة الربوية في أموالهم فتزداد أموالهم ويزداد ربحهم. فالاحتمالان متقابلان. ثم على فرض أن يترجح الاحتمال الأول، فأنا لم أعطهم من مالي شيئًا؛ لأن هذه الزيادة لم تكن من مالي إذ إن المال الذي أعطيتهم إياه قد يصرفونه في تجارة تخسر، أو تربح أقل مما قدروه. فليس شيئًا خارجًا مني حتى أقول: إني أعنتهم في اقتصادياتهم أو في معابدهم أو في مصانعهم التي قد يكون ضررها عائدًا على المسلمين. ثم إني إذا تركتها وقلت لهم: إن ديني يحرم علي أخذها، فسأزداد عندهم رفعة، وسيكون هذا موضع العجب منهم، وربما يكون في هذا دعوة للإسلام. ثم إني إذا تركتها وتركها الناس أيضًا فسيضطر الناس إلى إنشاء معاملات مصرفية متمشية على طريقة الإسلام. ثم إني إذا أخذتها فهم يعلمون أن الإسلام يحرم الربا، بل الربا محرم في شرائعهم، فيكون المسلمون محل قدح عندهم، أن يكون هؤلاء مبارزين بمعصية دينهم أو بمخالفة دينهم، وهم يدعون أنهم مسلمون. والحاصل أن في تركه مصالح ودرء مفاسد.

١٠ - أن الله - تعالى - بعد أن قال: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾، أعقب ذلك بقوله: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. وهذا فيه شيء من التحذير من الربا، أي: أنه بعد أن عفا الله عنه مع ذلك قال: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فلا يدرى.

١١ـ أن من عاد إلى الربا بعد أن تبين له تحريمه، فإنه من أصحاب النار الذين هم فيها خالدون. وهذا وعيد شديد على آكل الربا. وإن كان القول الراجح، الذي هو مذهب أهل السنة، أن آكل الربا لا يخرج من الإسلام، ولا يستحق الخلود في النار. لكن يخشى إذا نبت جلده على الحرام أن لا تستجاب له دعوة، ولا تقبل منه عبادة، فتكون النار أولى به والعياذ بالله.

١٢ـ إثبات العقوبة بالنار؛ لقوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ والنار هي التي أعدها الله ـ تعالى ـ للكافرين. فيها من أنواع العذاب ما يدمي الأكباد.

١٣ـ إثبات الخلود في النار. وهو بالنسبة للكافرين خلود مؤبد. ذكر الله ـ تعالى ـ تأبيده في ثلاث آيات من القرآن الكريم، فقال ـ تعالى ـ في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقال الله ـ تعالى ـ في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]. وقال الله ـ تعالى ـ في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]. فهذه ثلاث آيات من كلام الله ـ عز وجل ـ. وكلام الله ـ تعالى ـ أصدق

الكلام، وحكمه فوق كل الأحكام. فلا أحد يحجر على الله ـ تعالى ـ في أحكامه. وإذا أخبرنا ـ جل وعلا ـ أن أهل النار الذين هم أهلها خالدون فيها أبدًا، فليس لنا بعد ذلك قول. ولهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة أن أهل النار الذين هم أهلها خالدون فيها أبد الآبدين ـ والعياذ بالله ـ أجارني الله وإياكم من عذاب جهنم، وجعلنا من أصحاب الجنة، وختم لنا بالخير والسعادة والتوحيد والإيمان والإيقان، وجعل خير أعمارنا آخرها، وخير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا وأسعدها يوم نلقاه، إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾؛ أي: يسحقه ويزيله بالكلية. وهذا يشمل المحق الحسي والمحق المعنوي. أما المحق الحسي فأن يسلط الله على مال المرابي ما يفنيه ويتلفه. وأما المحق المعنوي فأن يمحق الله بركته حتى لا يستفيد منه صاحبه.

ولما كان الربا ظلمًا في الأصل، بين الله ـ تعالى ـ ما يقابله من الإحسان، وهو الصدقات، فقال:

﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾؛ أي: يزيدها. والصدقات: جمع صدقة، وهي كل ما يبذله الإنسان لمحتاج يريد بذلك التقرب إلى الله ـ عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ كفار: أي بالغ الكفر.

والأثيم: الآثم؛ وذلك لعناده وشدة كفره.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ التحذير من الربا، وأنه لا خير فيه، بل يمحق الله به المال، إما محقًا حسيا بأن يسلط الله على المال نارًا تحرقه، أو ماءً يغرقه، أو يكون في ذمم أناس يفلسون ولا يستطيع الاستيفاء منهم.

٢ـ أن من ابتغى الشيء على وجه محرم فإنه يعاقب بنقيض قصده، فهؤلاء المرابون أرادوا أن يصلوا إلى الأموال الكثيرة، فعوقبوا بضد ما يريدون. أي: بمحق الربا؛ ولذلك كثيرًا ما نرى المرابين من أبخل عباد الله. وأحيانًا نرى بعضهم يسلط عليه ما يتلف ماله، إما بحوادث وجوائح، وإما أن يكون في ذمم أناس يلحقهم الإعسار فلا يستطيعون الوفاء.

٣ـ الحث على الصدقة، وأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يربيها ويزيدها. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ أخبر أنه «**ما يتصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الله ـ عز وجل ـ بيمينه**

فيربيها كما يربي أحدكم فلوه - أي صغير خيله - حتى تكون مثل الجبل»[1]. ولا شك أن هذا زيادة عظيمة، تمرة تكون مثل الجبل!!. فيشمل الزيادة في الدنيا، فإن المتصدق يخلف الله عليه، كما قال الله - تعالى -: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩]. والمتصدق ينزل الله له البركة في ماله، فيفتح له من أبواب نمو المال ما يزيده. حتى إن بعضهم ليتعجب: من أين جاءني هذا المال؟ يعني: إذا حاسب أو إذا راجع دفاتره في آخر العام قال: سبحان الله، من أين أتى؟! مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٣].

٤ـ إثبات المحبة لله - عز وجل - لقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ووجه الدلالة أنه - سبحانه وتعالى - لم ينف محبة هؤلاء إلا لثبوتها لمن كان على خلافهم. ولو كانت محبة الله منتفية عن كل أحد ما صح أن تخصص للكفار الأثيم. وبمثل هذا الاستدلال استدل الشافعي - رحمه الله - على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم بقوله - تعالى -: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾ - أي: الفجار - ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فقال: ما حجب هؤلاء في حال الغضب إلا ورآه الأبرار في حال الرضا. وهذا

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، رقم (١٤١٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٤).

استدلال جيد لا يدركه إلا الفحول من العلماء. ومحبة الله ـ عز وجل ـ للعبد محبه حقيقية ثابتة. جعلنا الله وإياكم من أحبابه.

وأخطأ من قال: إن محبة الله للعبد يعني إثابته على عمله. فإن الإثابة شيء منفصل عن الله ـ عز وجل ـ. ثواب المخلوق يخلقه الله ـ عز وجل ـ يكرم به من أطاعه. وأما المحبة: فهي وصف متعلق بذات الحق. وانظر إلى قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ كيف جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ اتباع النبي ﷺ سببًا موجبًا لمحبة الله ـ تعالى ـ للعبد: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

٥ـ التحذير من الكفر، وأنه سبب للإثم والعقوبة؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾.

* * *

ثم قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ﴾؛ أي: آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، وقد بين النبي ﷺ ذلك في حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين سأل جبريل

النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١). أن تؤمن بالله: أي: تؤمن به ـ عز وجل ـ ربا، وتؤمن به إلهًا، وتؤمن به موصوفًا بصفات الكمال. وهذه الأركان الثلاثة للإيمان بالله ـ عز وجل ـ. فهو الرب الإله الكامل الأوصاف. ومن مقتضى ربوبيته أن يكون له الحكم في عباده كونًا وشرعًا. ولذلك غلط من قال: إن التوحيد أربعة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الحاكمية؛ لأننا نقول: توحيد الحاكمية لا يحتاج إلى تخصيص، بل هذا مقتضى الربوبية، والخروج عما كان عليه علماؤنا من السلف والخلف من دون مسوغ لا ينبغي؛ لما يحصل به من البلبلة والإشكال، لا سيما في العقيدة.

ولقد ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ هذه الأقسام في سورة مريم فقال: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] فقوله ـ تعالى ـ: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ هذا توحيد الربوبية، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ ﴾ هذا توحيد الألوهية، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ هذا توحيد الأسماء والصفات. فلا محيد لنا عما كان عليه أسلافنا. ونقول لمن حكم

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان وأشراط الساعة، رقم (٨).

بغير ما أنزل الله، معتقدًا أن ما حكم به أفضل من حكم الله، أو أنه مثل حكم الله، نقول: إنك لم تحقق الإيمان بالربوبية. بل إنك باعتقادك أنه مثل حكم الله أو خير منه كفرت بالله ـ عز وجل ـ، لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة:٥٠]، أي: لا أحد أحسن حكمًا من الله. هذا واحد من أركان الإيمان.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة. الملائكة عالم غيبي لا نعلمهم، لولا أن الله أعلمنا عنهم. وقد خلقوا من نور، ولا يحتاجون إلى أكل ولا شرب ولا نوم، وهم أجساد ذوو عقل وفهم وعبادة وتسبيح وغير ذلك، مما وهبهم الله ـ عز وجل ـ، وأشرفهم ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل. وهؤلاء ثلاثة كان النبي ﷺ إذا استفتح صلاة الليل قال: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط المستقيم»[1]. فيجب علينا أن نؤمن بأن لله ملائكة، وهم عالم غيبي، لهم وظائف خصهم الله ـ تعالى ـ بها.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب. أي: أن الله ـ تعالى ـ أنزل على رسله

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠).

كتبًا، فما من رسول إلا ومعه كتاب يدعو الناس به. قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وأبسط هذه الكتب هو القرآن الكريم الذي قال عنه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

هذا الكتاب العظيم ناسخ لجميع الكتب السابقة، والبشر مخاطبون بالإيمان به وتحكيمه.

الركن الرابع: الإيمان برسل الله ـ عز وجل ـ وهم: البشر الذين أرسلهم الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى بني آدم يدعونهم إلى الله ـ تعالى ـ بالآيات البينات. أولهم نوح، وآخرهم محمد ـ صلى الله وسلم عليهم جميعًا.

وتؤمن بنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم، ومحمد رسول الله ﷺ وسائر المرسلين. وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وقد ذكرهم الله ـ عز وجل ـ في موضعين من كتابه العزيز، فقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن

يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧].

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر. واليوم الآخر هو يوم القيامة، وسمي آخرًا لأنه لا يوم بعده، إذ إن الخليقة تنتهي، إما إلى جنة أو إلى نار. وهو المثوى الأخير، وليس المثوى الأخير القبر. القبر زيارة وممر. سمع أعرابي رجلًا يقرأ قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: ١، ٢]؛ أي: حتى متم. فأقسم هذا الأعرابي، قال: والله ما الزائر بالمقيم. يعني: بل وراء تلك الزيارة يومًا آخر.

يوم القيامة ذكر في القرآن في مواضع كثيرة، وذكر ما يكون فيه. فعلينا أن نؤمن بكل ما ذكره الله ـ عز وجل ـ أو صح عن رسوله ﷺ فيما يكون في ذلك اليوم. اللهم اجعله علينا يسيرًا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ومن الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله مما يكون بعد الموت». حتى وإن كان في الحياة الدنيا. فالإنسان بعد الموت ينتقل إلى عالم الآخرة، ينتقل إلى دار الجزاء من دار العمل، فلا رجعة إلى الدنيا. لكن قد يقع إحياء الموتى في الدنيا على سبيل الآية والاعتبار، كما في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الركن السادس من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره. والإيمان بالقدر لابد فيه من أمور أربعة:

١ـ أن تؤمن بأن الله عليم بكل شيء.

٢ـ أن تؤمن بأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء.

٣ـ أن تؤمن بأن كل شيء بمشيئة الله، لن يخرج عن مشيئته شيء.

٤ـ أن تؤمن بأن كل شيء خلق لله ـ عز وجل، أي: مخلوق لله ـ عز وجل ـ. فلا يتم الإيمان بالقدر إلا بالإيمان بهذه الأربعة. وإذا تم الإيمان بهذه الأربعة، فقد تم الإيمان بالقدر.

وقوله: خيره وشره؛ لأن المقدور قسمان: قسم فيه خير، وقسم فيه شر. فتؤمن بهذا وهذا، وأن كله من عند الله ـ عز وجل ـ. هذه أركان الإيمان الستة الداخلة في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

أما قوله ـ تعالى ـ:﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: عملوا الأعمال الصالحات. فمتى تكون الأعمال صالحات؟ تكون الأعمال صالحات إذا تضمنت شيئين:

الأول: الإخلاص لله ـ عز وجل. والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ.

أما الإخلاص لله فأن لا يريد الإنسان بعمله - أي: بعمله الذي يتعبد لله به - إلا وجه الله - تعالى - والدار الآخرة. فلا يتعبد رياءً ولا سمعة، ولا طلبًا لجاه، ولا طلبًا لرئاسة، ولا طلبًا لمال. وإنما يتعبد لله - تعالى - طلبًا لوجهه - تبارك وتعالى - والوصول إلى دار كرامته.

الأمر الثاني: أن تكون عبادته موافقة لشريعة الله - عز وجل - على وفق ما شرعه النبي ﷺ.

فبالأمر الأول - أعني الإخلاص لله - عز وجل - ينتفي الشرك. وبالثاني - وهو المتابعة - تنتفي البدعة. فمن عمل لله عملًا أشرك فيه مع الله غيره، فهو باطل؛ لقوله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»[1]. وبالثاني - وهو متابعة الرسول ﷺ ينتفي الابتداع. فمن تعبد لله - تعالى - ببدعة، أي: بعبادة لم يشرعها النبي ﷺ، فعبادته مردودة عليه؛ لقول النبي ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[2] أي: مردود عليه. إذًا العمل الصالح ما اجتمع فيه شيئان: **الأول**: الإخلاص لله. والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ. فهذان وصفان: الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

الوصف الثالث: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. والصلاة: هي التعبد لله - تعالى - بأقوال وأفعال، مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم. وإقامة الصلاة: الإتيان بها على وجه مستقيم، وذلك بكونها خالصة لله متابعًا فيها رسول الله ﷺ.

والصلوات معروفة - والحمد لله - بين المسلمين خاصتهم وعامتهم. وهي خمس صلوات: الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء. هذه هي الصلوات الواجبة.

ويكون بدل الظهر - أي: في وقت الظهر - تكون صلاة الجمعة في يوم الجمعة. وإقامتها: أن تأتي بها مستقيمة على الوجه المشروع. وهي - أعني الصلاة - أعظم شرائع الدين بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وهذا متفق عليه بين أهل العلم، ولا يكفر أحد بترك شيء من الأعمال إلا الصلاة. كما قال عبدالله بن شقيق: «كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»[1]. وكفر تارك الصلاة ثابت بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة - رضي الله عنهم حتى إن بعضهم حكاه إجماعهم، أي أنهم مجمعون عليه.

وأما ما سوى الصلوات الخمس فإن تركه لا يكون كفرًا، فمن ترك صلاة العيد - مثلًا - لم يكفر. ومن ترك صلاة الكسوف لم يكفر. ومن

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

ترك صلاة الاستسقاء لم يكفر. ومن ترك الوتر، لم يكفر. وإن داوم على ذلك؛ لأن ما عدا الصلوات الخمس لا كفر في تركه.

وليعلم أنه لا يخلو المسلم من تقصير في صلاته. ولهذا من الله على عباده بمشروعية التقرب إليه بصلوات يتطوع فيها العبد لله ـ عز وجل ـ، فمثلًا الصلوات الخمس لها رواتب: أربع قبل الظهر بسلامين، وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وركعتان قبل الفجر. فهذه اثنتا عشرة ركعة. من صلاهن بنى الله له بيتًا في الجنة. وآكد هذه الرواتب راتبة الفجر. فإن النبي ﷺ كان لا يدعها حضرًا ولا سفرًا. وأما الظهر والمغرب والعشاء فكان ﷺ لا يصلي رواتبها في السفر. وسنة الفجر تمتاز عن غيرها بأنها خير من الدنيا وما فيها. كما قال النبي ﷺ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[1]. وتمتاز عن غيرها بأن السنة تخفيفها، أي: يخفف هاتين الركعتين. فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان النبي ﷺ يخففهما حتى إني لأقول: أقرأ بأم الكتاب؟»[2].

ومنها أن لها قراءة خاصة بعد الفاتحة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ في الأولى. و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في الثانية. أو ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي الفجر، رقم (٧٢٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب ما يقرأ في ركعتي الفجر، رقم (١١٧١)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي الفجر، رقم (٧٢٤).

أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[البقرة: ١٣٦]. وقوله: ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[آل عمران: ٦٤] يقرأ هذا تارة وهذا تارة، وإن قرأ غير ذلك فلا حرج، ولكن السنة أولى.

الوصف الرابع: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وآتوا الزكاة ﴾؛أي: أعطوا الزكاة مستحقها.

والزكاة: هي نصيب مفروض في الأموال الزكوية، يتطوع به العبد إلى ربه. أي: يفعله طاعة لله ـ عز وجل ـ، وامتثالًا لأمره. وهو ـ أعني إيتاء الزكاة ـ ركن من أركان الإسلام. ولكن لابد أن يكون في المستحقين له.

فنذكر أولًا الأموال الزكوية. الأموال الزكوية هي: الذهب، والفضة، والثمار، والحبوب، وسائمة بهيمة الأنعام، وعروض التجارة. وأما ما عدا ذلك من الفواكه والأشجار، والحيوان غير بهيمة الأنعام، والأثاث، والسيارات، والمكائن وما أشبهها، فليس فيها زكاة، إلا أن تكون معدة للتجارة، فإنها إذا أعدت للتجارة تكون عروض تجارة،

وفيها زكاة. وأما مستحقوها ـ أعني الزكاة ـ فقد ذكرهم الله ـ عز وجل ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٦٠]. وتفاصيل ذلك معلومة في كتب الفقه.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الجملة هذه خبر «إن». والمعنى: أن هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات الأربع ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾. والأجر يعني: الثواب، وسمى الله ـ تعالى ـ الثواب أجرًا؛ لأنه في مقابل عمل، فهو كأجر الأجير، وذلك من فضله ـ تبارك وتعالى ـ وكرمه.

والحقيقة أن الثواب الذي يجعله الله ـ تعالى ـ على العبادة ليس عوضًا عنها حقيقة، ولكن العمل سبب، ولهذا قال النبي ﷺ: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» . قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»[1].

والثواب على العمل إنما وضعه الله ـ عز وجل ـ، وهو الذي أوجبه على نفسه، وإلا لكانت نعمه التي تطرأ علينا أكثر من أعمالنا. لو نوقشنا

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله..، رقم (٢٨١٦).

الحساب لهلكنا. ولكن الله ـ تعالى ـ جعل هذه الأعمال سببًا للثواب الذي رتبه علينا.

من فوائد هذه الآية ما يلي:

١ـ عظم هذا الأجر والثواب؛ لأنه قال: ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾. والعندية المضافة إلى الله ـ عز وجل ـ تقتضي التعظيم. ولهذا يوصف الأجر في بعض الآيات بأنه أجر عظيم، وأنه أجر كبير، وأنه أجر كريم.

٢ـ أن هؤلاء الموصوفين بالصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ليس عليهم خوف في المستقبل، ولا منهم حزن فيما مضى. لا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم اكتسبوا فيه الخير وصرفوه في طاعة الله. ولا يخافون من المستقبل لأنهم آمنون. قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وهنا قال: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هـذا نـداء مـن الله ـ عـز وجل ـ إلى المؤمنين. وقد قال عبدالله بـن مسعود ـ رضي الله عنـه ـ: «إذا سمعت الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعهـا سـمعك، فإما خير تـؤمر بـه، وإمـا شر تنهـى عنـه». ووصـفهم الله ـ تعـالى ـ حـال النداء بالإيمان، حثا لهم على قبول ما يخاطبهم بـه؛ لأن مقتـضى الإيـمان حقيقة أن يتلقى الإنسان أوامر الله ونواهيه بالـسمع والطاعـة، ويتلقـى أخباره بالتصديق والإقرار.

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: هذا ما وجهه الله إلينـا. وتقـوى الله ـ تعـالى ـ أحـسن ما قيـل فيهـا: إنهـا اتخـاذ وقايـة مـن عذابـه ـ جـل وعـلا ـ، بفعـل أوامـره واجتناب نواهيه. هذه هي التقوى. يعنـي أن تقـوم بـأوامر الله ـ تعـالى ـ وتنتهي عن مناهي الله ـ عز وجل ـ. ولهذا يقول الشاعر:

خـــل الذنـــوب صغيرهـــا ... وكبيرهـــا ذاك التقـــــى
واعمـــل كمـــاش فـــوق ... أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقـــــرن صغـــيرة ... إن الجبـال مـن الحصـى

﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾؛ أي: اتركوه عند من عـاملتموه بـه، أي: لا تأخذوا منه شيئًا. فإذا كان لكم ربًا عند أحد فلا تأخـذوه. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقا، فاتركوا هذا الربا؛ لأن المؤمن حقا هو الذي يقدم طاعة الله ـ عز وجل ـ على ما تهواه نفسه، فتجده في عراك مع نفسه.. هل يترك

هذا أو لا يتركه؟ فالمؤمن حقا يتركه، ويغلب هواه لأنه مؤمن.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾: أي: فإن لم تتقوا الله وتذروا ما بقي من الربا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: أعلنوا الحرب مع الله ورسوله ـ والعياذ بالله ـ. وأي إنسان يستطيع أن يعلن الحرب مع الله؟! أي إنسان؟! إلا جاهل مغرور، أملى الله له واستدرجه. وكما قال النبي ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» وتلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1] [هود: ١٠٢].

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾: أي: إن من الله عليكم وتبتم بعد أن انتهكتم تحريم الربا.

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ بدون زيادة وبدون نقص.

﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص رءوس الأموال.

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد ما يلي:

١ ـ كمال العناية بالتحذير من الربا؛ لأن الله ـ تعالى ـ إذا صدر الخطاب بالنداء، دل ذلك على أهمية موضوعه

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ رقم (٤٦٨٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

٢ـأن مقتضى الإيمان بالله ـ تعالى ـ السمع والطاعة وترك ما بقي من الربا.

٣ـأن الإخلال بتقوى الله وبترك الربا، مناف لكمال الإيمان؛ لقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾.

٤ـأنه لو كان الإنسان قبض الربا سابقًا قبل نزول الآية، فله ما سلف. ولكن ما بقي يجب عليه أن يتقيه ويدعه.

٥ـالإغراء بترك الربا، وتحدي من يزعم أنه مؤمن ولا يترك الربا؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فوائد الآية الثانية:

١ـأن من لم يفعل، فهو محارب لله ورسوله. وما أعظم حرب الله ورسوله ـ نسأل الله العافية ـ كل من حارب الله ورسوله، فإنه مهزوم ولا شك، إلا أن يتوب.

٢ـعظم الربا، وأنه حرب لله ورسوله. فليس بالأمر السهل، هو صعب. وإنما شدد الله الوعيد فيه، لقوة الداعي في النفس إليه. وكلما قوي الداعي في النفس إلى المحرم، فإن الحكمة تقتضي أن يشدد في التحذير منه وعقوبته.

٣ـ صحة توبة المرابي؛ لقوله: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ

أَمْوَالِكُمْ﴾.

٤. أن التوبة لا يلزم العبد فيها أن ينقص شيئًا من ماله، أو أن يرد شيئًا مما أخذ، لقوله: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾.

٥. عدل الدين الإسلامي، لقوله: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾. فلا ظلم في الدين الإسلامي، الدين الإسلامي كله عدل. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

٦. الإشارة إلى سبب الربا، ونتيجة الربا أيضًا، وهو الظلم. وكانوا في الجاهلية إذا حل الدين، قال صاحب الدين للمطلوب: إما أن تقضيني، وإما أن تربي ـ أي تزيد ـ فإذا حل الدين مثلًا في أول شهر محرم، قال له صاحب الدين: إما أن توفي الآن، وإما أن تربي ـ أي تزيد ـ. فمثلًا إذا كان الدين عشرة آلاف، قال: إما أن توفيني الآن، وإلا فكل شهر أضيف إليك ألفًا. هذا ربا، هذا ظلم؛ لأنه لا يمكن أن يلجأ أحد إلى الالتزام بإضافة ألف إلى رأس المال إذا لم يوف إلا وهو فقير. والفقير لا تجوز مطالبته؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. وما أعظم الجرم؟ ما أعظم جرم أولئك القوم الذين إذا حلت الديون لهم على الفقراء ألزموهم بالتسليم أو الحبس. كيف هذا؟ كيف يلزم المعدم بأن يسلم؟ من أين؟ ثم كيف

يحبس هذا المسكين الذي لا يجد شيئًا يوفي به؟ وما فائدة حبسه؟ ليس في حبسه إلا المضرة العظيمة عليه، ومنعه من التكسب، وعلى عائلته - إن كان له عائلة - ويحصل بذلك إرهاق للدولة في ملء السجون بغير حق.

ويقال لهذا المرابي: أنت تعرف حال الرجل، لماذا تعطيه شيئًا؟ لولا أنه حملك الجشع والطمع بزيادة الربا، ما أعطيته؟ ولهذا تجد هؤلاء المرابين كلما كان الطالب للمال أفقر، زادوا عليه الضريبة. مما يدل على أنه ليس قصدهم - رحمة الخلق، بل قصدهم المال والمادة - نسأل الله العافية -. ثم إذا حل الدين، يعلم أن صاحبه فقير - وبعض الناس لا يرحمه ولا يخاف الله - يرفعه إلى الجهات المختصة، ويطالب بحبسه - نسأل الله العافية -. مع أن الله أوجب عليه أن ينظره فقال: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾، ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ ﴾ وتسقطوا عن الفقير ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

٧- الإشارة إلى وجوب التوبة من الربا، وكذلك من جميع الذنوب. فإن الإنسان ينبغي له بأن يبادر بالتوبة إلى الله - عز وجل -. فقد قال النبي ﷺ: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة»[1].

نسأل الله - تعالى - أن يتوب علينا وعليكم جميعًا، وأن يوفقنا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢).

للتخلص من ظلم العباد، لا نظلم ولا نظلم.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

﴿ وَإِن كَانَ ﴾؛ أي: وإن وجد ذو عسرة. أي: صاحب عسرة، وهو من لا يستطيع الوفاء.

﴿ فَنَظِرَةٌ ﴾؛ أي: فعليكم إنظار. ﴿ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾؛ أي: إلى أن ييسر الله عليه.

﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا ﴾ في إبرائه من دينه وعدم مطالبته نهائيًا.

﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لما في ذلك من الإيسار على المعسرين «ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» [1].

وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: إن كنتم ذوي علم. وهذه الجملة مستقلة لا علاقة لها بما قبلها؛ لأننا لو جعلناها متعلقة بما قبلها فسد المعنى، فكان المعنى على هذا التقدير: إن كنتم تعلمون فهو خير لكم، وإن كنتم لا تعلمون فليس خيرًا لكم. مع أنه خير على كل حال.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه، رقم (٢٤٤٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم رقم (٢٥٨٠).

أعقب الله ـ تعالى ـ هذه الآية لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ ومعنى عقبها أي: جعلها عقبية لها؛ لأنهم كانوا في الجاهلية إذا حل الأجل على المعسر ولم يوف، زادوا عليه في الربا. فمثلًا إذا كان يطلبه مئة ريال وحل أجلها ولم يوف، قال: نزيد عليك الأجل ونزيد الدين، فيقول: نؤجلها إلى شهر، وتكون بمئة وعشرة، أو إلى سنة وتكون بمئة وخمسين.

بين الله ـ تعالى ـ الواجب على الإنسان إذا كان صاحبه معسرًا أن ينظره إلى ميسرة.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ وجوب إنظار المعسر، أي: إمهاله حتى يغنيه الله؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

فإن قال قائل لماذا يجب علي إنظاره؟ ألا يمكنه أن يستقرض من أحد أو يستدين منه فيوفيني؟

فالجواب بلى، يمكن. ولكن ماذا يستفيد هذا المدين إذا استقرض؟ ماذا يستفيد؟ انتقل دينه لشخص آخر. يعني انتقل من الشخص الأول إلى الشخص الثاني. فأي فائدة؟ نلزمه أن يذهب ويتكفف الناس ليوفيك؟!

٢ـ أنه لا يحل لأحد له دين على شخص معسر أن يطالبه به عند القاضي أو عند السلطة ليحبسوه إذا كان يجب إنظاره ـ وهو تحريم طلبه ـ فكيف بمطالبته؟! فعلى أولئك الأغنياء أن يشكروا الله ـ تعالى ـ على نعمه عليهم بالغنى، وأن يرحموا أخاهم الفقير، وأن لا يرغموه على الوفاء وهو لا يجد. ومن طلب من السلطات أن يحبسوا غريمه وهو يعلم أنه ظالم ـ أي أن غريمه لا يجد ـ فهو ظالم لنفسه، ظالم لغريمه. ويجب على ولاة الأمور إذا ثبت عندهم أن هذا الغريم لا يستطيع الوفاء، أن يحكموا بعدم وجوب الوفاء عليه حتى يسره؛ لأن هذا حكم الله. ولينصحوا صاحب الدين بالكف عن مطالبته.

٣ـ أنه يجوز للمشتري أن يشتري شيئًا إلى ميسرة. بمعنى أن نقول للبائع: اشتريت منك هذا بمئة ريال إلى أن ييسر الله علي. وهذا وإن كان مجهولًا، لكن هذا هو مقتضى العقد. إذا علم البائع أن صاحبه فقير، فإن مقتضى العقل أن لا يطالبه حتى يوسر الله عليه. وقد أرسل النبي ﷺ إلى شخص قدم له بز من الشام، فطلب منه أن يبيع عليه ثوبين إلى ميسرة[1].

٤ـ فضيلة إعفاء الفقير من الدين، لقوله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ

(١) أخرجه أحمد (٢٤٦١٧)، والترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل، رقم (١٢١٣)، والنسائي، كتاب البيوع، باب البيع إلى الأجل المعلوم، رقم (٤٦٢٨).

لَّكُمْ﴾، أي: خير لكم من إنظاره.

٥-أن إبراء المعسر ليس بواجب: لأن الله فضله على الإنظار، ولم يبين أنه واجب. وقد ألغز بعض أهل العلم في هذه المسألة وقال: شيء مسنون صار أفضل من واجب. ولكن هذا الإلغاز فيه نظر؛ لأن هذا المسنون الذي هو «**الإبراء**» تضمن الواجب وزيادة. والواجب هو «**الإنظار**» فإذا أبرأه فقد أنظره وزاد. وكذلك ألغز بعض العلماء في الوضوء ثلاثًا مع الوضوء واحدة. فالوضوء واحدة واجب، يجب أن يغسل الإنسان أعضاء الوضوء مرة واحدة، إلا الرأس فيمسح. والثلاث أفضل من الواحدة، وهي سنة. فقال: إن هنا سنة أفضل من الواجب، وهي الوضوء ثلاثًا أفضل من الوضوء مرة. وهذا أيضًا غلط؛ لأنه إذا توضأ ثلاثًا فقد أتى بالواجب وزيادة.

٦- بيان تفاضل الأعمال، لقوله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ومتى تفاضلت الأعمال، تفاضل العمال.

٧- نعي الجهال على جهلهم؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، كما تقول: إن كنت رجلًا فافهم كذا.. إن كنت طالب علم فاترك ما حرم الله عليك..

٨- الحث على العلم؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا من أهل العلم العاملين به الداعين إلى

الله ـ تعالى ـ على بصيرة. إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٨١].

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا ﴾؛ أي: اتخذوا ما يقيكم من عذاب ذلك اليوم، وهو يوم القيامة.

﴿ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: تردون فيه إلى الله ـ عز وجل ـ، فيجازيكم بأعمالكم. ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ثم بعد رجوعكم إلى الله ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؛أي: تعطى كل نفس ثواب ما كسبت، أي: ما كسبته في الدنيا من الأعمال: الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. والسيئة بمثلها.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا ينقصون من حقوقهم شيئًا. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] ظلمًا في زيادة سيئاته، ولا هضمًا في نقص حسناته. ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾.

أتى الله ـ تعالى ـ بهذه الآية الكريمة بعد ذكر آية الربا لشدة التحذير منه ومن عقوبته، في ذلك اليوم العظيم الذي يجتمع فيه الخلائق على صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، لا مالك ولا مملوك، ولا سيد ولا مسود، يحشرون إلى الله حفاة عراة غرلًا، كما بدأهم الله ـ تعالى ـ، قال الله ـ عز وجل ـ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. اللهم أعنا على عسر ذلك اليوم، واجعله علينا يسيرًا.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـإثبات اليوم الآخر الذي هو مرجع الناس إلى الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة.

٢ـتعظيم شأن ذلك اليوم؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾.

٣ـأنه في ذلك اليوم تعطى كل نفس ما كسبت من خير وشر، فالعمل هنا في الدنيا، والجزاء في الآخرة.

٤ـأنه يحاسب ويعطى نصيبه من كان بالغًا عاقلًا ومن كان دون ذلك. لكن الفرق أن من دون البلوغ يكتب له ولا يكتب عليه. وأما من كان مجنونًا فلا يكتب له ولا عليه. والفرق فرق ظاهر؛ لأن الصغير العاقل يعرف ويريد ويقصد ويختار ويكره، خلاف المجنون. فالصغير

الذي لم يبلغ، يكتب له ولا يكتب عليه. وهذه من نعمة الله ـ عز وجل ـ، وكون رحمته سبقت غضبه. والمجنون لا يكتب له ولا عليه، لأنه لا قصد له.

٥ ـ الإشارة إلى أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، لقوله: ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ يعني: لا ما كسب غيرها. ولا يشكل على هذا أن من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لأن أصل سنيتها من عمله، فلولاه ما فعل الناس فتكون داخلة في كسبه.

٦ ـ انتفاء الظلم في الحساب، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. واستدل بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ من هذه الآية على أنه لا يصل الميت شيء من أعمال الحي. يعني لو صلى ونواها لشخص لم تصل إلى الميت. لكن هذا الخلاف فيه رأي.

والراجح من أقوال العلماء في هذه المسألة: أن كل عمل صالح إذا فعله الإنسان يصل إلى الميت. ولكن هل نقول للإنسان: اعمل عملًا صالحًا لوالديك الأموات لأنهم في حاجة، فقد انقطع عملهم بموتهم؟ الجواب: لا نقول له ذلك. لكن لو فعل لم نقل له إن ذلك لا يصل إليهم. وأحسن من هذا الدعاء للميت؛ لأن النبي ﷺ وهو الحكيم الذي بلغ البلاغ المبين، لما قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، قال: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو

له» ولم يقل أو ولد صالح يصلي له، أو يصوم عنه، أو يتصدق عنه، أو يحج عنه، أو يعتمر عنه. فدل هذا على أن ذلك غير مشروع، وأن الدعاء أفضل، وهو كذلك. وما انهمك به بعض الناس اليوم من حرصهم على إهداء القرب إلى الأموات، فليس معروفًا عند السلف - رحمهم الله - بهذا الانهماك الكثير، حتى إنك لتجد الميت أو الحي يهدي ثواب القرب للميت أكثر مما يهديه للحي. فتجد الميت يكتب مثلًا: هذه وصيتي في أضحية وعشاء للميت فلان، وينسى نفسه. وهذا من التقصير والقصور. من التقصير لأنهم لم يسألوا أهل العلم حتى يبينوا لهم الأمر. ومن القصور؛ لأن كون الإنسان يقدم غيره على نفسه، لا شك أنه قاصر النظر. فالمهم أن هذه الآية لا تدل على امتناع انتفاع الإنسان بعمل غيره؛ لأن السنة قد وردت بذلك، فهذا سعد بن عبادة - رضي الله عنه - استأذن النبي ﷺ أن يجعل مخرافه - أي: بستانه -، صدقة لأمه بعد موتها، فأذن له[1]. ورجل آخر قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها وأظنها لو تكلمت لتصدقت. أفأتصدق عنها؟ قال نعم[2]. وقال ﷺ: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»

(١) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب الإشهاد في الوقف والصدقة، رقم (٢٧٦٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب ما يستحب لمن توفي فجاءة أن يتصدقوا عنه، رقم (٢٧٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه، رقم (١٠٠٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم (١٩٥٢)، ومسلم، كتاب الصيام، باب قضاء الصوم عن الميت، رقم (١١٤٧).

وسمع رجلًا يقول: لبيك عن شبرمة. فقال ـ أي النبي ﷺ: «مَن شبرمة؟» قال: أخ لي أو قريب لي. قال له: «أحججت عن نفسك؟» قال: لا. قال: «حج عن نفسك، ثم حج عن شبرمة»[1].

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب المناسك، باب الرجل يحج عن غيره، رقم (١٨١١)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب الحج عن الميت، رقم (٢٩٠٣).

هذه الآية هي أطول آية في كتاب الله، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ [المدثر: ٢١] أقصر آية في كتاب الله. وتقدير الآيات وتحديدها توقيفي، هو من عند الله ـ تعالى ـ وحده. وترتيبها بوضعها في مكانها هو أيضًا من عند الله ـ تبارك وتعالى ـ توقيفي.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ تصدير الخطاب بالنداء يدل على أهميته؛ لأن النداء يقتضي التنبه لما سيلقى. ثم توجيه النداء إلى المؤمنين يدل على أن ما يخاطب به الإنسان من مقتضيات الإيمان، إن كان نهيًا فبالترك، وإن كان أمرًا فبالفعل.

﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾: المراد بالدين في هذه الآية: كل ما يثبت في الذمة من ثمن مبيع أو أجرة أو قرض أو غير ذلك.

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى حد معين.

﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ لأن ذلك أحفظ للمال، وأبعد عن الإشكال، فيكتب الدين ويكتب أجله.

ثم وجه الله ـ تعالى ـ إلى من هو أهل للكتابة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾: فلا يظلم حق المدين ولا الدائن، بل بالعدل، وهو: أن يؤدي إلى كل ذي حق حقه.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا يمتنع كاتب إذا طلبت منه الكتابة، عن الكتابة؛ لأن الذي من عليه بالكتابة هو الله ـ عز وجل ـ، فليشكر الله على هذه النعمة، وليكتب لإخوانه المسلمين، فيساعدهم على أمور دينهم ودنياهم.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تكرارًا لقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ﴾ أو نقول: هي جملة غير مكررة. يعني: ليست الجملة الأولى من أجل أن يرتب عليها قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾.

﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ يعني: يملي على الكاتب.

﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: المطلوب؛ لأنه لو أملى الطالب لكان إملاؤه دعوى. فإذا أملى المطلوب ـ الذي عليه الحق ـ صار إملاؤه إقرارًا.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ ليتق الله ـ أي: الذي عليه الحق ـ ربه الذي خلقه وأمده بالنعم وأعده لما يكلف به، ليتقه فلا يبخس من الحق شيئًا، أي: لا ينقص من الحق شيئًا. يكون عليه المئة فيملي على الكاتب: اكتب مئة. ولا ينقص.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾؛ أي: إذا كان الذي عليه الدين سفيهًا لا يحسن التصرف، أو ضعيفًا لا يدرك ما الذي وجب عليه، ولا يستطيع

القيام بالإملاء، أو لا يستطيع أن يمل لكونه أخرس مثلًا، وهـو الـذي لا ينطق. ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾؛ أي: فليباشر الولي الإقرار بـها يـأمر بكتابته، ولكن بالعدل من غير ظلم لمن له الحق.

ثـم أمـر الله ـ تبـارك وتعـالى ـ بالاستـشهاد عـلى الحـق، فقـال: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾؛ أي: اطلبوا منهم الشهادة.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ أي: المطلوبـان إن لم يكونـا رجلـين.. ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾؛ أي: فالشاهد رجل وامرأتان.

﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ لأمـانتهم وصـدقهم. وأمـا مـن لا يرضى فلا يكفي. لو أن المطلوب أتـى بـرجلين وقـال: هـذان يـشهدان، والطالـب لا يرضـاهما، لم يلزمـه القبـول. فيقـول: ائـت بـاثنين آخـرين أرضاهما.

وقولـه: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ هـذا تعليل لقوله: ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾. وهـو في الحقيقـة جـواب عـن سـؤال مقدر: لماذا كانت المرأتان بدلًا عـن الرجـل الواحـد؟. فبـين الله ـ تبـارك وتعالى ـ الـسبب في هـذا، فقـال: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾. والمـراد بالـضلال هنـا: النـسيان؛ لأنهـا قـد علمـت الأمـر، تحملت الـشهادة عـلى مـا علمـت، فـربما تنـسى الـشهادة رأسًـا، أو تنـسى تفصيل الشهادة، فعززت شهادتها بشهادة رجل. وقوله: ﴿فَتُذَكِّرَ﴾؛

أي: تبين لها الأمر حتى تذكر.

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾:

﴿وَلَا يَأْبَ﴾: لا يمتنع.

﴿ٱلشُّهَدَآءُ﴾: أيا كانوا.

﴿إِذَا مَا دُعُوا۟﴾: «ما» هنا: زائدة في الإعراب. لكنها تفيد قوة خبر الحكم. وكل حرف زائد في القرآن، فإنه للتوكيد.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ ولم يبين من الداعي؛ لأن الداعي قد يكون صاحب الحق، وقد يكون القاضي، وقد يكون الرجل المصلح بينهما.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾؛ أي: لا تملوا.

﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾؛ أي: الدين إلى أجل مسمى.

﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾؛ أي: لا تملوا. اكتبوا كل دين إلى أجله؛ لأن هذه الكتابة وإن شقت في أول الأمر، تريح في آخر الأمر. لا يمكن لأحد أن ينكر ما تضمنه العقد، وإذا أنكر فالشهود.

ثم بين الله الحكمة من ذلك في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾؛ يعني: أن استشهادكم الرجلين أو الرجل والمرأتين، ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، يعني: أعدل عند الله. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾،

فائدتان. ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ يعني: أقرب أن ينتفي عنكم الارتياب؛ لأنه إذا كان بلا شهود - أعني الدين - ثم جاء المدين ليوفي، فقد يرتاب الإنسان إذا لم يكن شهود ولا كتابة. قد يقول: لعل حقي أكثر؟ أو: أخشى أن يكون حقي أقل، وهذا أوفاني ما لا أستحق؟ فإذا كان هناك شهود وكتابة، انتفت هذه المشكلة.

قال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ لأن هذا فيه مشقة، والزمن قريب، التجارة حاضرة، تدار تبيع على هذا قماشًا، وعلى هذا أواني، وعلى هذا أوراقًا تدار وترجع إليه وتأخذ الثمن غدًا.

والتجارة: هي ما يتجر به الإنسان.

﴿حَاضِرَةً﴾ يعني: لا تحتاج إلى أجل.

﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يعني: تدور عليكم، تشتري هذه السلعة ثم تبيع على فلان، ثم تشتري أخرى وتبيع على فلان، وهكذا.. كأنها دائرة. يقول - جل وعلا -: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ يعني: ليس عليكم إثم إذا لم تكتبوها، لأن هذه تتداول، ولا يلحقها النسيان، لأن أمدها قريب، فهذا فرق.

يقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يعني: إذا جرى بينكم بيع، فأشهدوا. وذلك لأن الإشهاد يؤدي إلى ضبط البائع

والمشتري، بحيث لا يدعي البائع أن الثمن أكثر، ولا المشتري أن الثمن أكثر، ولا ينكر البائع شرطًا شرط عليه، ولا المشتري شرطًا شرط عليه. ففي الإشهاد ضبط الأمور.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قوله: يضار، أي: يلحق الضرر. لكن وزنها الصرفي إما أن يكون على تقدير: ولا يضارر كاتب ولا شهيد. وإما أن يكون على تقدير: ولا يضارر كاتب ولا شهيد. فالآية في بناء هذا صالحة للأمرين، وهذا من بلاغة القرآن أن تأتي كلمة بلفظ واحد تحتمل معنيين. إذا قلنا: إن أصلها ولا يضارر كاتب: صارت كاتب فاعل، وشهيد معطوفة على كاتب. ويكون المعنى: نهي الكاتب والشهيد أن يضرا المشهود له أو عليه. وأما على قراءة الفتح ـ فتح الراء ـ: ولا يضارر كاتب ولا شهيد. فكاتب وشهيد: نائب فاعل أصل ومعطوف عليه. والمعنى: ولا يضارر المكتوب له والمشهود عليه الكاتب ولا الشهيد. وعلى القراءتين جميعًا يكون النهي شاملًا للجميع: للكاتب، والشهيد، والمشهود له، والمشهود عليه، والمكتوب له، والمكتوب عليه. «ستة».

قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾، أي: تضاروا.

﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أي: خروج عن طاعة الله ـ عز وجل ـ، وخروج عما ينبغي أن تكونوا عليه من الأمانة.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: اتقـوا الله ـ تعـالى ـ عـن المـضارة بالكاتـب والشهيد.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾: والجملـة مـستأنفة، لبيـان نعمتـه علينـا بهـذا التعليم المفصل.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفـى عليـه شيء في الأرض ولا في السماء.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١-في هذه الآيـة الكريمـة فائـدة عظيمـة جـدا، وهـي عنايـة القـرآن الكريم بالبيع والشراء والـديون. فيكـون فيـه رد لقـول مـن يقـول: «إن الإسلام إنما جاء لإصلاح ما بين العبـد وبـين ربـه، وهـو العبـادة. وأمـا المعاملات الجارية بين الناس، فإن الناس أعلم بما يصلح دنياهم». فـإن هذا كذب وافتراء عـلى القـرآن. القـرآن فيـه تفـصيل كـل شيء، والـسنة بينت المجمل منه وفـصلته. فنقـول لهـؤلاء الـذين ادعـوا هـذه الـدعوى الكاذبـة الباطلـة، نقـول لهـم: إن أطـول آيـة في كتـاب الله جـاءت في المعاملات، مما يدل على عناية القرآن بالمعاملات.

٢-أن تنفيذ ما ذكـر في هـذه الآيـة مـن أوامـر ونـواه مـن مقتـضيات الإيـمان. فـإن الله ـ تعـالى ـ إذا صـدر الخطـاب بــ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، دل ذلـك عـلى أن مـن مقتـضى الإيـمان: امتثـال الأمـر في هـذا

الخطاب، واجتناب النهي فيه.

٣- جواز الدين إلى أجل سواء كان ذلك في المبيع أو في الثمن. مثاله في المبيع: السلم. والسلم عبارة عن شراء سلعة موصوفة يدركها الوصف، مؤجلة، ولكن بثمن معجل. كما جاء ذلك في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين. فقال ﷺ: «من أسلف في شيء، فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم»(١).

٤- أن الدين يكون إلى أجل مسمى، وإلى أجل غير مسمى. فإن كان إلى أجل غير مسمى، فالشرط غير صحيح. يعني مثلًا: لو قال لك قائل: بعتك هذا البيت. فقلت: اشتريت، لكن بثمن مؤجل. ولم تذكر الأجل، فإن الشرط لا يصح؛ لأنه مجهول، ويحصل النزاع بين البائع والمشتري فيما بعد. أما إذا كان إلى أجل معلوم فصحيح. مثل أن يقول: بعتك هذا البيت بعشرة آلاف ريال مؤجلة إلى سنة. هذا لا بأس به. سواء جعل لهذا الدين المؤجل أقساطًا في أثناء العام، بأن يقول: بعتك بعشرة آلاف ريال إلى سنة، كل شهر يحل خمسمائة ريال مثلًا، والشهر الأخير يحل باقي المبلغ. هذا لا بأس به.

---

(١) رواه البخاري، كتاب السلم، باب السلم في كيل معلوم، رقم (٢٢٣٩)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب السلم، رقم (١٦٠٤).

٥-وجوب كتابة الدين إلى أجل مسمى، لقوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾. وإنما وجب ذلك لئلا يحصل الإنكار فيها بعد، عمدًا أو نسيانًا، ولئلا يحصل التنازع بين الدائن والمدين؛ لأنهما قد ينسيان ذلك، وقد لا ينسيان ولكن يتعمدان أكل المال بالباطل والعياذ بالله. وقال بعض أهل العلم: إن كتابة الدين المؤجل إلى أجل مسمى ليست بواجبة، إلا إذا كان الإنسان يتصرف لغيره، كولي اليتيم مثلًا، إذا رأى المصلحة في بيع مالهم مؤجلًا فليفعل. ولكن يجب عليه أن يكتب الدين؛ لأنه يتصرف لغيره. وكالوكيل على بيع شيء إذا باعه إلى أجل مسمى، وجب عليه أن يكتبه، لئلا يضيع حق صاحبه. وهذا القول ـ أعني القول بالتفصيل ـ أقرب إلى الصواب؛ لأن الأول قد يكون فيه مشقة على الإنسان. ولكن مع ذلك لا ينبغي أن يترك الكتابة في دين مؤجل أبدًا.

٦-أنه لابد أن يكون الكاتب من غير المتعاقدين؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ . أن تكون الكتابة إقرارًا بشيء، ويكتبها من عليه الحق، فلا حرج؛ لأنه لا ضرر في ذلك إذا كان خطه معروفًا أو استشهد عليه شهيدين. دليل ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾، ولم يقل: وليكتب أحدكم.

٧-أنه يختار للكتابة من يوثق بكتابته وعدله، لكونه أمينًا وعالمًا بمدلولات الألفاظ؛ لأنه قد يؤتى بكاتب أمين، لا بأس، ولكن لا

يعرف مدلولات الألفاظ. وحينئذ يبقى الشك في كتابته.

٨- أنه يجب على الكاتب أن يكتب بالعدل، فإذا رأى من أحدهما ما يكون فيه نقص عليه، وهو جاهل لا يعرف تمامًا، فالواجب عليه أن يبين له، لئلا يغره الآخر؛ لأن بعض الناس يكون بينه وبين شخص معاملة، ويكون غريرًا لا يعرف، فيملي عليه الآخر ما يريد. وعند النزاع يكون هذا المغرور قد غرم وندم. فلابد أن يكون الكاتب عدلًا، يعني يكتب بالعدل: إذا رأى من تعبير أحدهما نقصًا كمله، وإذا رأى من تعبير أحدهما زيادة منعه. هذا هو العدل.

٩- أن الذي يملي على هذا الكاتب هو الذي عليه الحق؛ لقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾.

١٠- أنه لو ادعى من له الحق على من عليه الحق شيئًا زائدًا على إقراره، فإنه لا يقبل، لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل المرجع في هذا من عليه الحق. وأما من له الحق فقد يدعي ما ليس له عدوانًا أو نسيانًا.

١١- أن الأصل براءة الذمة. فمن ادعى على شخص شيئًا فعليه البينة. وإلا فالأصل براءة ذمة المدعى عليه. وكذلك الأصل براءة ذمة المدعى عليه مما زاد على ما أقر به، بدليل أن الله ـ تعالى ـ جعل المرجع إليه، أي: إلى الذي عليه الحق.

١٢- أن من عليه الحق يجب عليه أن يتقي الله ـ عز وجل ـ، وأن لا

ينقص من الحق شيئًا. وهذا من بلاغة القرآن، أن الله ـ تعالى ـ لما جعل المرجع في الحق إلى من عليه الحق، حذر من عليه الحق أن يتجاوز، فأمره بتقوى الله، ونهاه أن ينقص منه شيئًا؛ لأن بعض الناس يغلبه الشح، فإذا جعل الأمر إليه نقص. فنهى الله ـ تعالى ـ عن ذلك، وحذر من المخالفة في قوله: ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

١٣ ـ أنه يجب على من عليه الحق أن يقر به كله، فلا ينقص منه ولا شيئًا قليلًا. فمثلًا إذا كان في ذمته مليون ريال وربع ريال، يجب أن يقر بالمليون ريال والربع ريال، ولا يقل: «ربع ريال سهل، لا حاجة لأن أقر به لأنه سهل». لأن الله قال: ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾. و«شيئًا» نكرة في سياق النهي، فتعم الشيء القليل والكثير.

١٤ ـ أنه إذا كان الذي عليه الحق سفيهًا لا يحسن التصرف، أو ضعيفًا لا يحسن التعبير، أو لا يستطيع أن يملي إطلاقًا، لهيبة في نفسه، أو لدغة في لسانه، أو خرس، لا يستطيع أن يتكلم إطلاقًا، فإنه في هذه الحال يملي وليه، ولكن بالعدل. ويتفرع على هذه الفائدة: أن مثل هؤلاء يقام عليهم الأولياء ـ أعني: أنه إذا كان صاحب الحق سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع الإملاء، فإنه لابد أن يكون لهم ولي يتولى شئونهم؛ لقوله: ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾.

١٥ ـ أن على أولياء هؤلاء أن يتقوا الله، ويقولوا بالعدل بحيث لا

يسقطون شيئًا لصاحب الحق، ولا يضيفون إليه شيئًا. فمثلًا: إذا كان الحق ألفًا، فإن الولي يكتب الألف، ولا يجوز أن ينقصه شيئًا، يعني يجعله تسعمائة؛ لأن هذا ليس بعدل. ولا أن يضيف إليه شيئًا، بحيث يعرف أن الحق ألف، ولكن يجعله ألفًا ومئة. لوجوب العدل، وهو أن لا يفضل صاحب الدين على المدين، ولا العكس.

١٦ـ طلب الإشهاد على الدين. يعني: أنه يطلب ممن له الحق أن يستشهد شهيدين من الرجال.

١٧ـ إذا لم يوجد رجلان، فلابد من رجل وامرأتين؛ لقوله - تعالى - : ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾. ولكن قد ثبت في السنة أن النبي ﷺ قضى بالشاهد واليمين[1]. أي: إذا ادعى شخص على آخر بدين، وأنكر، وأقام صاحب الدين شاهدًا، وحلف معه، حكم له بذلك.

١٨ـ أن المطلوب عند الإشهاد أن يستشهد الإنسان رجلين، شهيدين من الرجال؛ لأن ذلك أكمل. والإنسان في ابتداء القضية الأمر بيده.

١٩ـ أنه لا بد أن يكون الشاهد بالغًا، لقوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾

(١) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب القضاء باليمين والشاهد، رقم (١٧١٢).

والرجل: هو الذكر البالغ. فأما شهادة الصبيان فلا تقبل إلا بشروط معروفة في كتب الفقه.

٢٠ـ أنه لا بد أن يكون الشاهد مسلمًا؛ لقوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمْۖ﴾ والخطاب كما في أول الآية للمؤمنين. فشهادة الكافر لا تقبل، إما مطلقًا، وإما إذا لم يكن ضرورة. فإن كان ضرورة فإنها تقبل. ومثل هذه الأحكام مبسوطة في كتب الفقهاء ـ رحمهم الله.

٢١ـ ومنها أن المرأتين تقومان مقام الرجل في الشهادة في الأموال؛ لقوله ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾، فهذه ثلاث وثائق في الشهادة: الأولى: شهادة الرجلين، وهي أكملها. والثانية: شهادة رجل وامرأتين. والثالثة: شهادة رجل ويمين المدعي، كما جاءت به السنة، وسبقت الإشارة إليه، فإنه صح عن النبي ﷺ أنه قضى بالشاهد واليمين في الأموال.

٢٢ـ أنه يجب على الشاهد إذا دعي أن يجيب؛ لقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾. وهذا شامل للتحمل والأذى. فالتحمل: مثل أن يطلب صاحب الحق من شخص أن يشهد له على فلان عند العقد، فيقول: إني أريد أن أقرض هذا الرجل مئة ريال، فتعال فاشهد. فيجب عليه أن يشهد، ولا يجوز أن يأبى، اللهم إلا أن يلحقه ضرر في بدنه أو ماله أو أهله، فهذا شيء آخر، بمعنى أنه إذا خاف أن يلحقه ضرر سقط

عنه الوجوب. ويشمل الأذى أيضًا إذا دعي الشاهد الذي شهد بالحق إلى مجلس القضاء ليشهد بالحق لصاحبه، وجب عليه أن يحضر إذا دعي. وظاهر الآية الكريمة أنه إذا لم يدع، لم يلزمه أن يشهد. ولكن في هذا تفصيل، وهو أن يقال: إن كان الذي له الحق يعلم بشهادة هذا الرجل، فإنه لا يلزمه أن يشهد حتى يدعوه صاحب الحق، وأما إذا كان لا يعلم، فإنه يجب على الشاهد أن يبلغ صاحب الحق بالشهادة، ويقول: أنا مستعد للحضور إذا طلب مني.

٢٣- أن ظاهر قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾: أنه لو كان الشهود أربعة، مثلًا، ثم طلب منهم الحضور، وجب عليهم الحضور، ولا يقولون: الحق يثبت بشهادة رجلين؛ لأن الآية عامة: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾. ولأنه ربما يقدح الخصم بشهادة الرجلين، فإذا قدح فيها وبطلت، ثم جاء بالشاهدين المكملين للأربعة، قدح فيهما أيضًا، وقال: هذان الشاهدان أتيت بهما من السوق، لماذا لم تأت بهما من أول القضية؟ فإذا دعي الشهود، ولو كانوا مئة، وجب عليهم الحضور.

٢٤- الإرشاد إلى الصبر وامتثال الأمر، لما في ذلك من الخير الكثير عاجلًا وآجلًا، لقوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ - أي: الدين -.

٢٥- تحرير الكتابة، فيذكر الأصل والوصف؛ لقوله: ﴿صَغِيرًا أَوْ

كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾. فلا يكتفى بأن يكتب في ذمة فلان دين لفلان، مؤجل، بل لابد أن يبين الأجل.

٢٦ـ رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ بعباده، حيث أمرهم بما فيه حفظ حقوقهم، وسد باب النزاع والخصومة. فإن الكتابة والإشهاد لا شك أن فيهما فضا للنزاع لو حصل.

٢٧ـ أن في الكتابة والإشهاد ثلاث فوائد:

أولًا: أنه أقسط عند الله.

ثانيًا: أنه أقوم للشهادة.

ثالثًا: أنه أقرب إلى عدم الشك.

لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾. لأنه إذا لم يكتب الدين وادعاه صاحبه، وليس عند المدين ذكر له، فقال له الدائن: إني قد أقرضتك مئة ريال. والمدين يشق بهذا المدعي وسيعطيه المئة. لكن سيعطيه المئة وهو في ريب، لأنه ليس هناك مستندات يطمئن إليها. ولهذا قال: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾. فإذا كتب وأشهد عليه، زال ما يمكن أن يقع في القلوب.

٢٨ـ أن الله ـ تبارك وتعالى ـ رحيم بعباده. إذا ذكر الحكم وصار يرد على النفوس التطلع إلى معرفة اختلاف الحكم، فإن الله ـ تعالى ـ يبين علته وحكمته. يؤخذ هذا من قوله: ﴿وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ

ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ ﴾. فإنه قد يقع في النفس: لماذا لا تقبل المرأة الواحدة مع الرجل الواحد، كما يقبل الرجل الواحد مع الرجل الواحد؟ فأجاب الله عن ذلك بقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ ﴾. لأن المرأة سريعة العاطفة، قليلة الحفظ، كل شيء يجذبها، كل شيء يغريها، كل شيء يخيفها، فقد تضل، أي: تنسى، أو تضل: ترتكب الخطأ عن عمد. فتذكرها الأخرى، إما بالموعظة إن كانت ارتكبت الخطأ عن عمد، وإما من باب أن تذكر ذلك بعد النسيان.

٢٩ـ أن فيها ردا واضحًا لقول أولئك الذين يريدون أن يسووا بين الرجل والمرأة، مع أن الله ـ تعالى ـ خالف بينهما قدرًا وشرعًا، فيما تقتضي الحكمة أن يختلفا فيه. وسنة الله ـ تبارك وتعالى ـ واحدة.

وقد جعل النبي ﷺ هذا من نقصان عقلها، أي: عقلها للأشياء وفهمها؛ لقول النبي ﷺ وهو يخطب في النساء: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب للب الرجل الحازم، من إحداكن» فسألنه عن نقصان العقل. فأخبر أن ذلك واضح من كلام الله ـ عز وجل ـ حيث جعل شهادة المرأتين عن رجل واحد[1].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، رقم (٧٩).

فإن قال قائل: إننا نجد في بعض النساء من النباهة والحفظ والعقل ما هو أكمل من كثير من الرجال. فكيف يتفق هذا مع ما جاءت به النصوص؟

فالجواب: أن العبرة بالأعم الأكثر، والنادر لا حكم له. فالأصل في المرأة قصورها عن الرجل واختلافها عن الرجل. وإذا وجد من النساء من هي كاملة العقل، قوية العزيمة فهذا نادر، والنادر لا حكم له. العبرة بالأعم الأغلب.

٣٠ـ جواز شهادة الإنسان إذا نسيها ثم ذكر بها، فيشهد. ولكن هل يلزمه أن يقول: إني شهدت ثم نسيت فذكرني فلان؟ الجواب: لا يلزم، ما دام أنه قد ذكر الشهادة حين ذكر بها، فلا حاجة أن يقول: نسيتها فذكرت بها. إذ إنه سيشهد بما شهد به أولًا وذكر إياه.

٣١ـ أنه إذا كانت العقود تجارة حاضرة، تدار بين الناس، بعت واشتريت، بعت واشتريت، وما أشبه ذلك، فلا بأس أن لا تكتب، لقوله ـ تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

٣٢ـ تخفيف الشريعة وتيسيرها لأنه لو أمر بأن يكتب كل شيء، حتى التجارة الحاضرة التي تدار، لكان في هذا مشقة عظيمة. ولكن من تيسير الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن التجارة الحاضرة التي تدار لا يلزم كتابتها.

٣٣- الإرشاد إلى الإشهاد عند البيع؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾. وهل الإشهاد هنا واجب أو ليس بواجب؟

الجواب: إن كان الإنسان يتصرف لغيره، كالولي والوكيل والوصي وناظر الوقف، وكانت الصفقة ذات أهمية، فالإشهاد واجب؛ لئلا يحصل في ذلك نزاع ويضيع حق الغير. أما إذا كان ذلك في العقد بنفسه، فالإشهاد ليس بواجب لكنه أفضل وأكمل، ولكنه لا يجب. ودليل ذلك: أن النبي ﷺ ابتاع فرسًا أو جملًا من أعرابي، وطلب أن يتبعه إلى بيته لينقد له الثمن، فلحق الناس هذا الأعرابي وجعلوا يزيدون الثمن، دون أن يعلموا أنه اتفق مع النبي ﷺ فلما وصل إلى البيت، قال الأعرابي للنبي ﷺ: هل لك أن تزيد؟ لأنه زيد في ثمنه. قال له: «إنك قد بعت علي». قال: ما بعت، هل لك أحد يشهد؟ ـ يقوله الأعرابي ـ فقام خزيمة بن ثابت ی قال: يا رسول الله، أنا أشهد أنك اشتريته منه بهذا الثمن. فاقتنع الأعرابي. ثم قال النبي ﷺ لخزيمة: كيف تشهد؟ ـ يعني: ولم تحضر؟ ـ قال: يا رسول الله، نصدقك بخبر السماء، ولا نصدقك بخبر الأرض؟» انظر الفطنة ما شاء الله؛ فجعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين[1]. وهذا يدل على أن الإشهاد عند

---

[1] رواه أحمد (٢١٣٧٦)، وأبو داود، كتاب الأقضية، باب إذا علم الحاكم صدق الشاهد الواحد يجوز له أن يحكم به، رقم (٣٦٠٧)، والنسائي، كتاب البيوع، باب التسهيل على ترك الإشهاد على البيع، رقم (٤٦٤٧).

البيع ليس بواجب.

٣٤ـ تحريم المضارة للكاتب والشاهد، سواء وقعت منهما، أو وقعت عليهما؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ وسبق أن الآية الكريمة صالحة لأن تكون المضارة من الكاتب والشاهد، أو على الكاتب والشاهد.

٣٥ـ ومنها الإشارة إلى تحريم المضارة، ووجوب إزالة الضرر؛ لقوله ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ والضرر منفي شرعًا، والضرار أشد، يجب أن يمنع. ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار» (١)؛ فنفى النبي ﷺ الضرر والضرار. والفرق بينهما أن الضرر يحصل بلا قصد. والضرار يحصل بقصد. ومن ضار ضار الله به. والعياذ بالله.

ويتفرع على هذا الحديث مسائل كثيرة منها: أنه يحرم على الجار أن يفعل ما يتضرر به جاره. وله أمثلة كثيرة ذكرها أهل العلم ـ رحمهم الله ـ في باب الصلح. فليرجع إليها. وكذلك يحرم على البائع والمشتري أن يضار أحدهما الآخر، وعلى المؤجر والمستأجر. وكل من بينه وبين أخيه معاملة، فإن هذه القاعدة داخلة فيها. بمعنى أنه لا يجوز إقرار الضرر،

---

(١) رواه أحمد (٢٨٦٢، ٢٢٢٧٢)، وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، رقم (٢٣٤٠، ٢٣٤١).

ولا تجوز المضارة.

٣٦- أن المضارة فسق، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾؛ أي: وإن تضاروا الكاتب والشهيد فإنه فسوق بكم، أي: خروج عن الطاعة وعن المروءة. فكيف يضار الكاتب وهو محسن! أو الشهيد وهو محسن! وكيف يقع الضرر أو الإضرار من الكاتب والشهيد، وهو مؤتمن! كل هذا يخرج عن العدالة إلى الفسق؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾.

٣٧- وجوب تقوى الله ـ تعالى ـ. وهي ـ أعني التقوى ـ امتثال أمر الله واجتناب نهيه، ولا سيما فيما ورد في هذه الآية الكريمة من الأوامر والنواهي، فتفعل الأوامر وتجتنب النواهي.

٣٨- منة الله ـ تبارك وتعالى ـ على عباده، بتعليمهم ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، واستقامة أحوالهم، وابتعادهم عن الخصومة والنزاع؛ لقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾. وقد ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ أدوات العلم في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]. هذه الوسائل التي يكون بها العلم؛ لأن المعلوم إما مسموع، وإما مرئي، وإما معقول. فأشار الله ـ تعالى ـ إلى ذلك كله في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا ما يحصل به العلم، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتروا ما يحصل به العلم،

﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ لتعقلوا ما يحصل به العلم.

٣٩ـ عموم علم الله ـ تعالى ـ بكل شيء؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾. فيشمل كل شيء، حتى الممتنع يعلمه الله ـ عز وجل ـ. يعني يعلم أنه ممتنع كما في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا﴾ يعني: لو كان معه إله ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ولقول الله ـ تعالى ـ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ومعلوم أنه لا يمكن أن يكون مع الله آلهة.

٤٠ـ التحذير من المخالفة؛ لأن الإنسان متى علم أن الله عليم بكل أحواله، بكل أقواله، بكل أفعاله، بكل تقلباته، فلا بد أن يخاف ويحذر. ولولا هذه الفائدة لم يحصل للإنسان سلوك حسن بالنسبة للمخالفة والطاعة.

فإن قال قائل: وهل يعلم الله ـ عز وجل ـ المستقبل؟

فالجواب: نعم. يعلم المستقبل: متى يكون وأين يكون وكيف يكون؟ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ في آية الكرسي: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

هذه تابعة للآية التي قبلها، حيث أمرنا الله ـ تعالى ـ بكتابة الدين المؤجل. فإذا كنا على سفر، وليس عندنا من يكتب، فكيف يتوثق الإنسان من صاحبه؟ بين الله ـ تبارك وتعالى ـ هنا ما يكون به التوثق، فقال: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ يعني: الواجب رهان تقبض.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾: أي: أمن صاحب الحق ممن عليه الحق، فلا حاجة إلى رهن، ولا إلى قبض رهن.

ولهذا قال: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ ولا حاجة إلى شيء سوى هذا.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ فيؤدي الأمانة على ما كانت عليه بدون نقص ولا زيادة.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ ﴾ انتقل إلى خطاب الشهداء، يخاطبهم ويقول: لا تكتموا الشهادة. أي: لا تخفوها، بل ائتوا بها، ولو كانت على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ

وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا﴾؛ أي: من يكتم الشهادة حين يسأل شهادته، أو حين يجب عليه أداؤها إذا لم يعلم المشهود له.

قال ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾: لما كان الكتمان من شهادة غير معلومة، ومحل ذلك القلب، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾.. لأن القلب هو محل الشهادة، فإذا كتمها الإنسان كان الإثم للقلب.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ يعني: لا تظنوا أنكم إذا كتمتم الشهادة، أن الله يخفى عليه ذلك. بل هو ـ سبحانه وتعالى ـ عليم بما نعمل من كل شيء، بل هو ـ عز وجل ـ يعلم ما لم نعمل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ۝١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٦ـ١٨].

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ أن التوثقة في الحق تكون بالرهن، كما تكون بالكتابة وبالشهادة. فالكتابة والشهادة سبق الكلام عليهما في الآية السابقة. وأما الرهان ففي هذه الآية. قال أهل العلم: والرهن أن يوثق الإنسان دينًا بعين. بمعنى أن يكون في ذمة شخص دين فيريد أن يوثقه، فيعطيه المدين عينًا يمكن أن يستوفي الحق منها. مثال ذلك: رجل استقرض منه آخر مئة

ريال، وليس عندهم كاتب ولا شاهد، فقال: أعطني رهنًا أستوثق لـه، فأعطاه رهنًا يساوي مئة ريال أو أقل أو أكثر. فإن كان يساوي مئة ريال أو أكثر فقد استوثق بدينه كله، وإن كان لا يساوي إلا أقل فقد استوثق لبعض دينه. وهو حر في أن لا يستوثق بجميع الدين.

٢ـ ذكر الحال التي يضطر فيها للرهن، وذلك فيما إذا كان على سفر؛ لأن هذا هو الذي يحتاج فيه الإنسان، أي: يضطر إلى رهن. ولا حرج أن يكون الرهن في الحضر؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه اشترى طعامًا لأهله من يهودي، وأرهنه درعه ﷺ. حتى إن النبي ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند هذا اليهردي.

٣ـ أنه لابد من قبض الرهن؛ لقوله: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٌ﴾. ولكن هذا إنما يكون من أجل تمام التوثقة، لا من أجل لزوم الرهن. فلا تتم التوثقة بالرهن إلا إذا كان مقبوضًا؛ لأنه لو كان عند الراهن، فربما يتلفه أو يجحده أو ما أشبه ذلك.

فإن قال قائل: وهل يصح إبقاء المرهون عند الراهن الذي عليه الحق، ويكون الرهن لازمًا؟

فالجواب: أن في هذا خلافًا بين أهل العلم. فمنهم من قال: إن قبض الرهن شرط للزومه. ومنهم من قال: إنه ليس بشرط للزومه. وهذا الثاني هو الصحيح، وهو الذي عليه عمل الناس. فيجوز

للإنسان أن يرهن بيتًا في دين له على صاحب البيت. مع بقاء صاحب البيت ساكنًا فيه. هذا هو القول الراجح. وحينئذ لا يجوز لصاحب البيت أن يتصرف فيه ببيع أو غيره مما يكون سببًا في نقل ملكه. وعمل الناس عليه من قديم الزمان. وعلى هذا فيكون قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ وصفًا لتمام التوثقة بالرهن.

٤ـ أنه إذا أمن بعض المتعاقدين الآخر، فلا حاجة إلى الرهن، ولا حاجة إلى قبضه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ﴾. وأمانته مقتضى العقد الذي حصل بينه وبين صاحبه.

٥ـ تهديد من لم يؤد الأمانة؛ لقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾. والخيانة في الأمانة من صفات المنافقين. فإن المنافق هو الذي إذا اؤتمن خان.

فإن قال قائل: وإذا خان الرجل أخاه، فهل يجوز للرجل أن يخونه في مقابلة ما خانه به؟

فالجواب: لا؛ لأن النبي ﷺ قال: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[1].

٦ـ تحريم كتمان الشهادة؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾. ولكن هل يشترط طلب المشهود له أن يشهد الشاهد؟ الجواب: إن كان

---

(١) رواه أحمد (١٤٩٩٨)، وأبو داود، كتاب أبواب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، رقم (٣٥٣٤، ٣٥٣٥) والترمذي، كتاب البيوع، باب رقم (٣٨) حديث رقم (١٢٦٤).

المشهود له قد علم بذلك، فإنه لا يأثم الشاهد حتى يطلب. فإذا طلب وامتنع فهو آثم. وأما إذا كان المشهود له لا يعلم، فالواجب على الشاهد أن يخبر المشهود له بأن له عنده شهادة، ثم إن شاء طلبها، وإن شاء تركها.

٧ـ أن العبرة بما في القلب، وعليه مدار الأعمال. ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

وقد ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ حال الذاكرين، وأن حضور القلب في الذكر هو المهم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

٨ـ علم الله ـ تبارك وتعالى ـ بكل ما نعمل، لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾. فكل ما نعمله فالله عليم به. حتى إن الله ـ تعالى ـ قال في سورة «ق»: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦].

٩ـ تهديد من خالف أمر الله. فإن إخبار الله ـ تبارك وتعالى ـ إيانا بعلمه بعملنا يقتضي التهديد. وأن الإنسان إذا أراد أن يعمل سوءًا

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

فليذكر أن الله عليم به، فيخاف الله. وإذا أراد أن يعمل صالحًا فليذكر أن الله يعلم به فلن يضيعه. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

يخبر الله في هذه الآية الكريمة أن له ما في السموات وما في الأرض: خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

و﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: يشمل كل السموات السبع وما فيها من الملائكة وغيرهم. وقد شاهد النبي ﷺ حين عرج به إلى السموات شاهد من شاهد من الرسل الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام.

وكذلك ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾. والأرض هنا وإن كانت مفردة، فالمراد الجنس، فيشمل الأرضين السبع، كل ما في الأرض من حي وميت ورطب ويابس وأنهار وبحار وغيرها، كله لله ـ عز وجل ـ.

﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾: تبدوا: أي: تظهروا، لأنه قوبل بقوله: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾، والكلمة يعرف معناها

إما بنفسها وإما بذكر ما يقابلها، وانظر إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] لو قال لك قائل: ما معنى ثبات؟ ربما لا تعرف معناها؛ لأن لفظها غريب. لكن إذا قرأت: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ عرفت أن المراد بقوله: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾؛ أي: متفرقين وحدانًا، ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

وقوله ـ عز وجل ـ ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾: هل يلزم من المحاسبة المؤاخذة والمعاقبة؟. فهم بعض الصحابة ذلك ـ رضي الله عنهم ـ وجاءوا يشكون الأمر إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، أمرنا بالصلاة والزكاة والصيام والحج، لما لنا فيه طاقة فقمنا به، لكن ما في النفوس ليس لنا به طاقة ـ وذلك لأن ما في النفوس يلقيه الشيطان، من الوساوس وغيرها، مما لا يستطيع الإنسان أن يتخلص منه ـ فقال النبي ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟! قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فقالوا ذلك، فأنزل الله بعدها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

وقال بعض أهل العلم: هذه الآية ليس فيها ما تخوفه بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ. لأنه لا يلزم من المحاسبة المؤاخذة. فها هو

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، رقم (١٢٥).

الله ـ عز وجل ـ يقرر المؤمن، يخلو به يوم القيامة، فيقرره بذنوبه: عملت كذا، عملت كذا.. حتى يقر. فيقول الله ـ عز وجل ـ: **قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**[1].

وعلى كل حال فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يعاقب العبد على شيء لا يحتمله. ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: بعد المحاسبة، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء؛ لأن له الملك المطلق. لا معقب لحكمه وهو السميع العليم. ولكنه ـ جل وعلا ـ لن يفعل فعلًا إلا لحكمة. إن غفر فلحكمة ورحمة، وإن عذب فلحكمة وعدل.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: لا يعجزه شيء ـ عز وجل ـ. إن كان موجودًا فهو قادر على إعدامه، وإن كان معدومًا فهو قادر على إيجاده.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١-عموم ملك الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما في السموات والأرض، وأنه لا شريك له في ذلك، ودليله أنه قال: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فقدم الخبر، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص والحصر عند أهل العلم.

٢-أن السموات جمع، ولكن ما العدد؟ بين ذلك في آية أخرى. قال ـ

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ رقم (٢٤٤١)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨).

عز وجل ـ: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ: ١٢].

أما الأرض فجاءت في القرآن مفردة. لكن صحت السنة بأنها سبع أرضين، كما في قوله ﷺ: «من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا، طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين»[1].

٣ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم ما يخفي العبد وما يبديه، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾. والغرض من هذا أن لا يضمر الإنسان في نفسه شيئًا يؤاخذه الله به يوم القيامة؛ لأن الإنسان متى علم أن الله عالم بما يبدي ويخفي، فلن يخفي شيئًا لا يرضاه الله ـ عز وجل ـ، إن كان مؤمنًا عاقلًا.

٤ـ إثبات المشيئة المطلقة لله ـ عز وجل ـ. لا راد لحكمه، ولا معقب لحكمه ـ عز وجل ـ، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾. والحكمة من ذكر هذا أن يلجأ العبد إلى ربه في مغفرة ذنوبه، ويعلق هذا بالله؛ لأنه لا أحد يغفر الذنوب إلا الله، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

٥ـ إثبات الفعل لله ـ عز وجل ـ. أي: أنه يفعل ما يريد، لقوله ـ

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها رقم (١٦١٠).

تعالى ـ: ﴿يَغۡفِرُ﴾ و ﴿يُعَذِّب﴾ و ﴿تُحَاسَبُ﴾.

٦-إثبات قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ على كل شيء، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾. والحكمة في هذا الخبر العظيم أن لا نستحسر في شيء نطلبه من الله ـ عز وجل ـ، بدون اعتداء. ولو كان بعيدًا، ولو كان عظيمًا. لا تقل: هذا مرض خطير، هذا مرض لا يرجى برؤه، هذا مرض كيف أسأل الله أن يشفيني منه.. لا يا أخي .. الله على كل شيء قدير. ولما قال زكريا لربه ـ عز وجل ـ أنه بلغه الكبر وكانت امرأته عاقرًا، قال الله له: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] وقال له: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٩]. انظر: ﴿خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ﴾.فالذي أوجدك من العدم قادر على أن يعدم ما فيك من مرض؛ لأنه على كل شيء قدير. فلا تيأس من أي شيء تريده من الله ـ عز وجل ـ. لكن لا تعتدي في دعائك، فتطلب ما لا يمكن شرعًا أو حساً.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾: الرسول: هو محمد ﷺ؛

لأنه لا رسول حين إنزال القرآن إلا محمد ﷺ. وهو خاتم الرسل، خاتم الأنبياء، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾: يشمل: ما أنزل إليه من القرآن الكريم، وما أوحي إليه من السنة النبوية، كما قال الله ـ عز وجل ـ ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾: معطوفة على الرسول. أي: وآمن المؤمنون كذلك بما أنزل على محمد ﷺ.

﴿ كُلٌّ ﴾؛ أي: كل من الرسول والمؤمنين آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

﴿ ءَامَنَ ﴾؛ أي: أقر إقرارًا تامًا لا شك فيه ولا ريب فيه، بالله وملائكته وكتبه ورسله. الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بأنه الرب وحده، وبأنه الإله وحده، وبأنه ذو الأسماء الكاملة والصفات الكاملة من كل وجه، فهو يشمل كل هذه الأربعة.

﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ ﴾: جمع ملك، وهم ـ أعني الملائكة ـ عالم غيبي لا يشاهد. اللهم إلا أن يقع ذلك آية يأتي بها الرسول ﷺ.

وهؤلاء الملائكة لا يحصي عددهم إلا الله. منهم من علمنا، ومنهم

من لم نعلم. فنؤمن بمن علمنا على حسب ما علمنا. ونؤمن بمن لم نعلم على وجه الإجمال.

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾؛ يعني: التي أنزلها الله على الرسل، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥].

الكتب: منها ما علمناه، ومنها ما لم نعلمه. فالتوراة علمنا أن الله أنزلها على موسى ـ عليه السلام ـ، والإنجيل علمنا أن الله أنزله على عيسى ـ عليه السلام ـ، والزبور آتاه الله داود ـ عليه السلام ـ، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ آتاه الله صحفًا، وموسى كذلك، وما لم نعلم نؤمن به على سبيل الإجمال.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: جمع رسول. وهم رجال أوحى الله إليهم بما شاء من شريعته، وأمرهم أن يبلغوه إلى الناس، قال الله ـ تعالى ـ لمحمد ﷺ، وهو خاتمهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧]. وهم قسمان: قسم علمناهم بأعيانهم وعلمنا أقوامهم، وقسم لم نعلمهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا

كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [غافر: ٧٨]. فنؤمن بهم على هذا الوجه: على وجه التفصيل فيمن علمناه، وعلى وجه الإجمال فيما لم نعلمه.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾: معنى لا نفرق، أي: في الإيمان بهم، بل نؤمن بهم جميعًا ـ وإن كنا نفرق بينهم في التفاضل ـ فإن الله قال في كتابه العظيم: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فنفرق بينهم من هذه الناحية. ونفرق بينهم أيضًا من جهة العمل بشرائعهم، فلا نعمل بشريعة سوى شريعة محمد ﷺ؛ لأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع.

﴿وَقَالُوا۟ ﴾؛ أي: قال الرسول والمؤمنون.

﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾؛ أي: سمعنا ما أمرتنا به يا ربنا، وما أخبرتنا عنه يا ربنا. وأطعنا أوامرك بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

﴿غُفْرَانَكَ ﴾: هذه مفعول لفعل محذوف مقدر. والتقدير: نسألك غفرانك. ولهذا ينبغي للقارئ أن يقف عند قوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ثم يقول: ﴿غُفْرَانَكَ ﴾. لئلا يتوهم السامع أننا أطعنا الغفران.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه. ستر الذنب بحيث لا يفضح به العبد. فإن العبد قد يعمل الذنب سرا ثم يطلع الله عليه الخلق ـ نسأل

الله الستر ـ كذلك أيضًا لا يؤاخذ به يوم القيامة.

وجه هذا التفسير ـ أعني أن الغفران شامل لمعنيي الستر والمجاوزة ـ أنه مأخوذ من المغفر، وهو ما يوضع على الرأس من حديد، يسمى البيضة أو الخوذة، يتقي به الإنسان السهام عند القتال. وهذا المغفر جامع بين ستر الرأس وبين وقايته، فلهذا قلنا: إن المغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقول الرب ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى حذفت منه ياء النداء. والتقدير: «يا ربنا». فهو دعاء.

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾: معطوف على: سمعنا وأطعنا، أو على الفعل المقدر قبل: ﴿غُفْرَانَكَ﴾.

إليك وحدك المصير. وإنما قلنا «وحدك» لأنه قدم المعمول وهو: ﴿إِلَيْكَ﴾، على العامل، وهو: ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾. وتقديم المعمول على عامله يفيد الحصر والاختصاص. والمصير هو المرجع.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- الثناء على محمد ﷺ والمؤمنين معه، بالإيمان التام الذي لا شك فيه ولا إشكال.

٢- أن النبي ﷺ قد أنزل إليه الوحي، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿بِمَآ أُنزِلَ

إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾. ومن الحكمة في إضافة هذا المنزل إلى رب الرسول ﷺ: إلقاء الهيبة والتعظيم على ما أنزل على الرسول ﷺ، لأنه إذا كان من عند الله، فسيكون له من العظمة والقبول ما ليس لغيره.

٣- أن إنزال القرآن على النبي ﷺ من الربوبية الخاصة التي يمن الله بها على من يشاء من عباده، لقوله - تعالى -: ﴿مِن رَّبِّهِۦ ﴾. ويتفرع على هذه الفائدة: أن من آتاه الله - تعالى - علمًا بما أنزله على محمد ﷺ، فإنه من الربوبية الخاصة والعناية الخاصة. ولهذا كان العلماء ورثة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام.

٤- ذكر التفصيل بعد الإجمال، لقوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ لأن الإيمان بهذه الأربعة من جملة الإيمان بما أنزل على النبي ﷺ.

٥- أن الإنسان يعلم بأن لله ملائكة، وأنه أنزل كتبًا تقوم بها الحجة، على كل رسول، وأنه أرسل رسلًا إلى الخلق؛ لأن العقول لا تدرك ما يجب لله - تعالى - من حقوق. وقد بين الله - تعالى - الحكمة من إرسال الرسل في قوله - تعالى -: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

٦- إثبات الملائكة - عليهم الصلاة والسلام -. وهم جنود الله - عز وجل -، يبعثهم الله - تبارك وتعالى - لمن شاء من خلقه. منهم ملائكة

يرسلون رحمة، وملائكة يرسلون للعذاب ـ اللهم اجعل من يتولانا ملائكة الرحمة.

٧ـ الإيمان بالكتب المنزلة على الرسل، فما علمنا منها آمنا به بعينه، وما لم نعلم نؤمن به إجمالًا. فنحن نعلم أن الله أنزل على موسى ـ عليه السلام ـ كتابًا يسمى التوراة، وعلى عيسى ـ عليه السلام ـ كتابًا يسمى الإنجيل، وداود ـ عليه السلام ـ آتاه الله كتابًا يسمى الزبور، وآتى الله إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ صحفًا. نؤمن بأن الله أنزل هذه، ولكن هل ما بين أيدي اليهود والنصارى اليوم، هي الكتب التي أنزلها الله؟ أو أنه وقع فيها التحريف والتبديل والإخفاء والإبانة؟ الجواب: الثاني. ولهذا لا يجب علينا أن نشهد أو أن نؤمن بأن التوراة التي في أيدي اليهود اليوم هي التي أنزلت على موسى، ولا أن الإنجيل الذي في أيدي النصارى هو الذي أنزل على عيسى؛ لأنه دخل فيه التبديل والتغيير والتقديم والتأخير. لكن نؤمن بأن موسى ـ عليه السلام ـ أنزل الله عليه كتابًا، وهو التوراة، وأن عيسى أنزل الله عليه كتابًا، وهو الإنجيل.. وهكذا.

٨ـ أنه يجب علينا أن نؤمن بكل الرسل من دون تفريق. فنؤمن بأن الله أرسل نوحًا ـ عليه السلام ـ، وأرسل إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب و ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ يعني: لا نقول نؤمن

بموسى - عليه السلام - ونكفر بنبي آخر، بل نؤمن بالجميع.

فإن قال قائل: أليس في هذا حجة للنصارى واليهود الذين يقولون إننا على كتاب وأنتم على كتاب، وأنتم تقولون: لا نفرق بين أحد من رسله؟!

قلنا: لا حجة. بل هذه الآية حجة عليهم؛ لأننا نؤمن بأن عيسى - عليه السلام - رسول الله، وأن موسى - عليه السلام - رسول الله، وهم لا يؤمنون بأن محمدًا ﷺ رسول الله. وإن آمنوا فبعضهم يقول: مرسل إلى العرب فقط دون غيرهم. فهم الذين كفروا وفرقوا بين الرسل. أما نحن فلا. فنحن نؤمن بالجميع، لكن الاتباع للشريعة الأخيرة، وهي التي جاء بها محمد ﷺ، لأنها ناسخة لجميع الشرائع السابقة. حتى إن عيسى - عليه السلام - بشر بمحمد ﷺ، فقال لقومه: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ على الوصف الذي أرسل: أنه مرسل لجميع الناس، فإنه كافر بعيسى - عليه السلام -. إذ كيف يبشرهم عيسى - عليه السلام - بنبي ليس برسول لهم، أو كيف يبشرهم برسول ليس برسول لهم؟ هذا مستحيل..كذلك لا يكون في هذه الآية حجة للمنهزمين أمام كبرياء الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، حينما يداهنونهم ويقولون: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾.

فإن هؤلاء انهزاميون، ضعفاء الإيمان، ضعفاء النفوس. بل نحن لا نفرق بين أحد من رسله في أن كل واحد منهم رســول صادق. ونؤمن بما صح عنه من أخبار الغيب. أما الشريعة فلا، بل نتبع شريعة آخرهم، وهــو محمد ﷺ. وقد مر علينا أن التفريق بينهم في الفضل بنص القرآن، فنفرق ونقول: أولو العزم أفضل من غيرهم. وأولو العزم أنفسهم يتفاضلون. أولو العزم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، ـ عليهم الصلاة والسلام ـ. ومع ذلك فهم يتفاضلون. أفضلهم محمد ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى ـ عليهم الصلاة والسلام.

٩ـ أن النبي ﷺ عبد مأمور، يلزمه السمع والطاعة؛ لأنه التزم بهذا، وقالوا ـ أي: الرسول والمؤمنون ـ سمعنا وأطعنا.

١٠ـ ومن الحكمة في إخبار الله ـ تبارك وتعالى ـ عن الرسول ﷺ والمؤمنين أنهم قالوا سمعنا وأطعنا: أن يكون لنا في ذلك أسوة، فنقول سمعنا وأطعنا. وهذا باعتبار الأوامر والنواهي، فلا نقول: لم أوجب الله كذا؟ لم حرم الله كذا؟ لا نقول: لم أحل الله البيع وحرم الربا؟ بل نقول: سمعنا وأطعنا، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١]، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى

ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾[الأحزاب: ٣٦]، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لمعاذة وقد سألتها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة[1]. لا يقول قائل: لماذا يجب الوضوء من أكل لحوم الإبل، ولا يجب الوضوء من أكل لحوم الغنم؟ بل نقول: سمعنا وأطعنا. والإنسان إذا مشى على هذا المنهج وهذه الطريقة سلم من إشكالات كثيرة، ومن شكوك كثيرة، وصار عبدًا حقا.

وإنني بهذه المناسبة أنبه أيضًا على شيء يفعله بعض الناس إذا ورد أمر بشيء، تجد بعض الناس يقول: هل الأمر للاستحباب أو للوجوب؟. يا أخي لا تقل هكذا.. قل: سمعنا وأطعنا. إن كان للوجوب فقد أثابك الله عليه ثواب الواجب، وإن كان للاستحباب أثابك الله عليه ثواب المستحب. لكن تسليمك لهذا الشيء، وفعلك إياه دون أن تشعر بأنه واجب أو مستحب، هذا أعلى المقامات. وكذلك إذا ورد النهي، يقول: هل هو للكراهة أو للتحريم؟. لا تسأل يا أخي. اترك، إذا نهيت.. اترك. ولهذا لا أعلم أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يقولون إذا أمر الرسول ﷺ بأمر: يا رسول الله، هل هو مستحب أو واجب؟ أو إذا نهى عن شيء يقولون: هل هو مكروه أو

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

حرام؟. ما علمت هذا.. نعم إذا دار الأمر بين أن يكون هذا الأمر للمشورة أو لإرشاد أو لطلب الفعل. سألوا الرسول ﷺ كما جاء ذلك في قصة بريرة وزوجها مغيث، كانت بريرة مولاة مملوكة، ثم عتقت، فخيرها النبي ﷺ بين أن تبقى مع زوجها أو تفسخ نكاحها، فاختارت فسخ النكاح، فجعل زوجها يطلب منها أن تبقى معه، ولكنها أصرت على المفارقة، حتى كان يلاحقها في أسواق المدينة يبكي يريد أن ترجع، ولكنها أبت، فطلب من النبي ﷺ أن يشفع له إليها، فشفع، وقال لها: ارجعي إلى مغيث. قالت: يا رسول الله، إن كنت تأمرني فسمعًا وطاعة، وإن كنت تشير علي فلا حاجة لي فيه. قال ﷺ: «**بل أشير عليك**». قالت: فلا حاجة لي فيه[1]. وماكانوا يسألون: أتريد الوجوب يا رسول الله أو تريد الاستحباب أبدًا.

فمن تمام الانقياد والذل لله ـ عز وجل ـ إذا سمعت أمرًا أن تفعله. نعم إذا تورط الإنسان في الشيء، أي في المخالفة، حينئذ يسأل: هل هو للوجوب يحتاج إلى توبة؟ أو للاستحباب، فالأمر فيه سعة؟ وأما قبل التورط، فيا أخي أنت مؤمن.. أنت ذليل.. أنت عبد.. إنك لو أمرت ولدك بشيء ورد عليك وقال: يا أبت أنت مصر أم لا؟! لرأيت هذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة رقم (٥٢٨٣) بغير هذا اللفظ.

سوء أدب. فكيف بأوامر الخالق؟! تمام الانقياد فعل المأمور، سواء أكان واجبًا أو غير واجب. تمام الانقياد ترك المنهي عنه سواء كان حرامًا أو غير حرام.

١١- أن كل واحد محتاج إلى مغفرة الله. الرسول ﷺ والمؤمنون يقولون: غفرانك. كل أحد محتاج إلى مغفرة الله. (كان النبي ﷺ لما أنزل عليه قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر ١-٣]، كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»[1].

وكان يسأل الله المغفرة في صلاته وخارج صلاته، بل قد قال الله له: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ [محمد: ١٩]. فكل إنسان محتاج إلى مغفرة الله. نسأل الله أن يعمنا بمغفرته وعفوه.

١٢- أنك إذا دعوت الله، فلتتوسل إليه بربوبيته؛ لأن الربوبية هي التي فيها الخلق والملك والتدبير، هي التي تتضمن الخلق والملك والتدبير. واسمع قول المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع، رقم (٧٩٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤).

رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]. واسمع من لهم نصيب مما كسبوا، حين يقولون: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

١٣ـ أن المصير إلى الله ـ عز وجل ـ وحده، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الإنشقاق: ٦]. وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢١ـ ٢٦]. مهما كان الإنسان، مهما فر، فالمصير إلى الله ـ عز وجل ـ. أخبرنا الله بذلك لحكمة، وهي أن نستعد لهذا المصير، وأن نعد له العدة. فبماذا تجيب أيها الإنسان ربك إذا لاقاك يوم القيامة؟

اللهم خفف علينا الحساب. اللهم خفف علينا الحساب. اللهم خفف علينا الحساب.

بماذا تلاقي ربك؟. إذا سمعت الله يقول: أقيموا الصلاة، أقم الصلاة لأنك ستسأل، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا

كَانُوا بِئَايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴾ [الأعراف:٦- ٩]. إنك مسئول عما حملت، فأعد لهذا السؤال جوابًا، واستمع إلى قول الله - عز وجل -: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٥، ٦٦].

نسأل الله - تعالى - أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله - عز وجل -: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

يخبر الله - عز وجل - في هذه الآية الكريمة عن بيان منته على هذه الأمة - ولله الحمد - بل وعلى غيرها من الأمم، فيقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾؛ أي: لا يلزمها إلا بما تطيق؛ لأن الوسع بمعنى الطاقة. وما لا تطيقه فإنه لن يلزمها به؛ لأن رحمته سبقت غضبه، ولأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾: وهذا هو العدل. ما كسبت

من خير فهو لها، لن يضيع، ولن ينقص منه شيء. وما اكتسبت من الشر فعليها، لن يزيد، بل بالعدل. قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢].

يقول ـ عز وجل ـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾؛ أي: يا ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. وهذه فرد من أفراد قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾. يعني: أن من آثار كونه ـ عز وجل ـ لا يكلف نفسًا إلا وسعها، أنه لا يؤاخذ بالنسيان والخطأ. وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ ﴾ هذه مقول لقول محذوف. والتقدير: «يقولون ربنا لا تؤاخذنا ـ أي: لا تعاقبنا ـ إن نسينا أو أخطأنا». يعني: إن وقعت المخالفة منا نسيانًا أو خطأً. فالنسيان يكون بعد العلم، والخطأ قبل العلم. النسيان أن يكون عند الإنسان علم ثم يذهل عنه ويغيب عن فكره. والخطأ أن لا يكون عند الإنسان علم، يكون جاهلًا. فالخطأ بمعنى الجهل هنا.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾: كرر قوله: ﴿رَبَّنَا ﴾ لأهمية هذا الدعاء.

قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾ أي: لا تحملنا وتكلفنا بالإصر الذي كان على من قبلنا. والإصر: الشدة والمشقة؛ لأن من قبلنا من الأمم عليهم مشقة في بعض التكاليف. مثل: إذا عدموا الماء فإنهم لا

يصلون بالتيمم، تبقى الصلوات في ذممهم، ولو بقوا شهرًا كاملًا. فإذا وجدوا الماء تطهروا به، ثم قضوا ما فاتهم من الصلوات. ولا شك أن هذا فيه مشقة. كذلك لا يصلون في كل مكان، إنما يصلون في المساجد الخاصة: الكنائس والبيع والصوامع. وهذه مشقة إذا وجبت عليهم الصلاة في برية، ولو تطهروا بالماء فإنه لا يمكن أن يصلوا إلا في الكنائس ولو بقوا أشهرًا، هذه مشقة.

ومن ذلك ما حرمه الله ـ عز وجل ـ عليهم من الطيبات بسبب ظلمهم كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠].

ومن ذلك ما ابتلي به النصارى من البدع والرهبنة التي لم تفرض عليهم. لكن هم فرضوها على أنفسهم يبتغون رضوان الله. المهم أن المؤمنين من هذه الأمة يسألون الله أن لا يحمل عليهم إصرًا كما حمله على الذين من قبلهم من اليهود والنصارى.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾: أتى بالواو: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾ عطفًا على قول الله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾: لأن الثاني من جنس الأول، أو قريب منه.

وقوله: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾؛ أي: ما لا نستطيعه من الأوامر التي تقع باختيارنا. وأما ما لا يقع باختيار الإنسان من

الأمراض وشبهها، فهذا أمر يؤجر الإنسان عليه ويثاب عليه، أو يكون تكفيرًا السيئات مضت.

﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾: ما قصرنا فيه من الواجب.

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾: ما انتهكنا من المحرم.

﴿وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾: بالتوفيق للاستقامة.

فهذه ثلاث جمل:

- العفو في التفريط بالواجب.
- المغفرة في ارتكاب المعصية.
- الرحمة في استقامة الحال.

﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾؛ أي: أنت الذي تتولى أمورنا، وأنت مرجعنا، وأنت ناصرنا، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعني: اجعل لنا الغلبة والنصرة على القوم الكافرين. إما بالآلات الحربية، وإما بالأدلة الشرعية. هذه الآية من أفضل الآيات وأيسرها.

في هذه الآية من الفوائد والحكم والأسرار ما يلي:

١ـ بيان رحمة الله ـ عز وجل ـ حيث لا يكلف نفسًا إلا وسعها. أي:

إلا طاقتها. وهذا عام في كل ما كلف به الإنسان. وهو أيضًا عام في التشريع العام والخاص. فالتشريع العام: شرائع الإسلام كلها يطيقها الإنسان ولا يعجز عنها. والتشريع الخاص: أن من عجز عن شريعة من الشرائع الإسلامية سقطت عنه، إما إلى بدل، وإما إلى غير بدل. فمثلًا: من عجز في كفارة اليمين عن إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فصيام ثلاثة أيام متتابعة، وإن عجز عن صيام الأيام الثلاثة المتتابعة سقطت. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. كذلك في قتل النفس خطأً إذا كانت معصومة: وهي نفس المؤمن، ونفس الذمي، ونفس المعاهد، ونفس المستأمن. أربعة فيها كفارة: عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع بأن كان فقيرًا مريضًا، أو فقيرًا كبيرًا في السن، فإنها تسقط. كذلك واجبات الحج فيها عند العلماء - رحمهم الله - فدية: ذبح شاة في مكة. تذبح وتوزع على فقراء مكة، فإذا عجز فلا شيء عليه، تسقط. وهلم جرا. وقد يكون العجز خاصا في شخص معين، فيسقط عنه. فالمهم أن شرائع الإسلام كلها تحت الوسع والطاقة. هذا على سبيل العموم. ثم على سبيل الخصوص: إذا كان أحد من الناس يعجز عن شيء من الشرائع سقط عنه، ولهذا قال أهل العلم: **«لا واجب مع العجز»**. وأخذوه من هذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. فنحمد الله - تعالى - على نعمه، ونسأله أن يعيننا جميعًا على ذكره وشكره وحسن عبادته. إنه جواد كريم.

٢ـ بيان سعة رحمة الله ـ تعالى ـ وعفوه حيث لم يلزم عباده بما لا يطيقون؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وهذا عام في كل ما ألزم الله به العباد، أنه يشترط فيه: الاستطاعة والقدرة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وقال ـ تعالى ـ في الإنفاق: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»(١). أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها أنه لا واجب مع العجز. بمعنى أنه إذا كان الشيء واجبًا وعجز عنه الإنسان، فإنه يسقط عنه. ولهذا أمثلة كثيرة في أبواب الفقه.

فمن ذلك: إذا عجز الإنسان عن الطهارة بالماء، لمرض أو شلل ولم يجد من يقوم بتطهيره، أو خوف من مرض، فإنه يتيمم. فيسقط عنه واجب الطهارة بالماء إلى التيمم، وإذا عجز عن التيمم ولم يجد من ييممه سقط عنه التيمم، وصلى بدون وضوء ولا تيمم؛ لأنه لا واجب مع العجز.

ومن ذلك: إذا أراد أن يصلي، وكان في ثوبه نجاسة، وليس عنده

---

(١) رواه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، رقم (١٣٣٧).

غيره، ولم يستطع إزالة النجاسة، فإنه يصلي بثوبه، ولا إعادة عليه؛ لأن اجتناب النجاسة حال الصلاة واجب، فإذا عجز عنه سقط.

ومن ذلك: أنه يجب على الإنسان في حال الصلاة أن يستقبل القبلة، إلا ما استثني. فإذا عجز عن استقبال القبلة لكونه مريضًا ووجهه إلى غير القبلة، وليس عنده من يوجهه، سقط عنه استقبال القبلة، وصلى على حسب حاله.وكذلك: لو كان فارا من عدو. لو وقف يصلي ويستقبل القبلة، أدركه العدو، فإنه يصلي حيث كان وجهه، ويسقط عنه استقبال القبلة للخوف.

ومن ذلك: أن الإنسان يجب عليه أن يصلي الفريضة قائمًا، فإن لم يستطع سقط عنه القيام، وصلى قاعدًا. فإن لم يستطع سقط عنه القعود، وصلى على جنبه الأيمن أو الأيسر، مستقبلًا القبلة، يومئ برأسه في الركوع والسجود. ولا يومئ بأصبعه كما يظنه بعض العوام. فإنه لا أصل لهذا. لا في القرآن، ولا في السنة، وما علمته في كتب العلماء.

ومن ذلك: أنه إذا كان عاجزًا عن قراءة الفاتحة لا يعرفها، سقطت عنه، ووجب بدلها ما يساويها من القرآن، إن كان يحسنه، وإلا فالذكر، يحمد الله، ويكبره، ويهلله.

ومن ذلك: أنه إذا وجبت عليه الزكاة، ولم يكن عنده نقود، ولا استطاع أن يبيع شيئًا من العروض التي تجب فيها الزكاة، فإن له أن

يؤخرها حتى يستطيع بيعها، ثم يخرج عما مضى. وهذا يقع كثيرًا فيمن عندهم أراض للتجارة، فكسدت، ولم يجدوا مشتريًا، لا بقليل ولا بكثير، وليس عندهم نقود. فهؤلاء لا يلزمهم أن يستقرضوا من الناس، ليخرجوا الزكاة، بل يكتبونه.

كلما حلت الزكاة يكتبون مقدار الزكاة على هذه الأراضي ويحفظونها. فإذا يسر الله لهم نقودًا - وهي التي يسميها الناس سيولة - أخرجوا الزكاة.

ومن ذلك: أن الصيام واجب - أعني: صيام رمضان -، فإذا عجز عنه حاضرًا ومستقبلًا سقط عنه، ووجب عليه أن يفدي عن كل يوم بإطعام مسكين، فإن لم يجد سقط عنه.

ومن ذلك: أن الإنسان إذا لم يكن عنده مال يحج به، سقط عنه الحج، حتى يوسع الله عليه.

والأمثلة في هذا كثيرة لا تحصى ولكن قاعدتها - والحمد لله - هي هذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٣- أن الناس يختلفون فيما يلزمهم من الشريعة؛ لقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. وهذا نكرة في سياق النفي. فقد يكون هذا الإنسان يستطيع أن يقوم بهذا الواجب، والآخر لا يستطيع. فيكون واجبًا على الأول، غير واجب على الثاني.

٤- أن ما كسبه الإنسان من العمل الصالح فهو له، لا يمكن أن ينقص منه؛ لقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾. سواء كان ذلك العمل منه مباشرة، أو لكونه دالا عليه وداعيًا إليه؛ لأن من دل على خير، فله مثل أجر فاعله[١]. وهذا - والله أعلم - هو الفائدة من قوله - تعالى -: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، وقال في الإثم: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، ولم يقل: «لها ما اكتسبت». لأن الكسب أعم من مباشرة الشيء.

فإن قال قائل: ما تقولون فيمن عنده مظالم للخلق، أليس يؤخذ من عمله الصالح لهم؟

فالجواب: بلى. لكنه هو الذي تسبب بهذا، حتى صار غارمًا لهؤلاء، فيقضى حقهم من حسناته يوم القيامة. فإن بقي من حسناته شيء، وإلا أخذ من سيئاتهم فطرح عليه، ثم طرح في النار[٢]. نسأل الله السلامة والعافية.

٥- أن على النفس ما اكتسبت من الإثم كما قال - عز وجل -: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ [النور: ١١]. وسواء اكتسبه مباشرة، أو عن طريق الدلالة والمعونة. فإن الدال على الشيء المحرم له نصيب من المحرم. وليس كالدال على الخير، الدال على الخير له مثل أجر فاعله.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله...، رقم (١٨٩٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

أما هذا فله كفل منها.

٦-إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ. يعني: أنه الخالق، المالك المدبر لجميع الأمور؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

٧ـ أن من آداب الدعاء أن يصدر الداعي دعاءه بهذا الاسم الكريم: «الرب» ولهذا تجد الأدعية التي في القرآن، غالبها مصدر بذلك. أي: بالرب. وكذلك الأدعية الواردة في السنة، وقد أشار إلى هذا النبي ﷺ حينما ذكر: «**الرجل يطيل السفر، أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب.. يا رب.. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام. فأنى يستجاب لذلك**»[(١)]. والمناسبة ظاهرة؛ لأن الرب ـ عز وجل ـ هو الذي بيده تصريف الأمور وتدبيرها، وتحصيل المطلوب.

٨ـ ارتفاع العقوبة والإثم مع الجهل والنسيان؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ـ أي: لا تعاقبنا ولا تلزمنا ـ قال الله ـ تعالى ـ: قد فعلت[(٢)]. وهذا عام في كل شيء فعله الإنسان من المحرمات نسيانًا أو جهلًا، فليس عليه شيء. وكل شيء تركه من الواجبات نسيانًا أو جهلًا، فليس عليه إثم. لكن بعض الواجبات يلزم الإنسان بقضائه

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥).
(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ رقم (١٢٦).

على وجه صحيح، مع انتفاء الإثم عنه حين الفعل. فالآية عامة في المأمورات والمنهيات، أنه لا مؤاخذة مع الجهل والنسيان. لكن الواجب قد يلزم الإنسان بفعله بعد الذكر. وهذه القاعدة قاعدة عظيمة شاملة لكل الشرائع التي أمر الله بها، وكل المحظورات التي نهى الله عنها.

ولنضرب لهذا أمثلة:

لو أن الإنسان توضأ، ونسي أن يمسح رأسه، وصلى، فليس عليه إثم، مع أنه صلى بوضوء غير صحيح. لكن لما كان هذا أمرًا واجبًا، قلنا: لابد أن تتوضأ وضوءًا صحيحًا ثم تعيد الصلاة؛ لأن الواجب يسقط إثمه بالجهل، ولكنه لا يسقط أو لا تبرأ الذمة بدونه. والدليل على هذا: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: (أن رجلًا دخل المسجد، فصلى، ولم يطمئن في صلاته. فجاء فسلم على النبي ﷺ، فرد عليه السلام، وقال: «ارجع فصل، فإنك لم تصل». ففعل ثلاث مرات ثم قال: والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا، فعلمني. فعلمه، وقال: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة، فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»[1]. فأمره

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، رقم (٧٥٧)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

النبي ﷺ أن يعيد الصلاة، لأنه ترك ركنًا فيها، وهو الطمأنينة. لكنه لم يؤثمه بهذه الصلاة المحرمة، لأنه كان جاهلًا.

ومن ذلك: لو نسي الإنسان أن يصلي بالكلية، صار عنده شغل شغله عن الصلاة، ولم يتذكر حتى خرج الوقت. فلا إثم عليه. مع أنه لو تعمد تركها لكان آثمًا. يعني: لو تعمد تركها حتى يخرج الوقت، لكان آثمًا، ولا تقبل منه. فهذا ليس عليه إثم. ولكنا نقول: صلها؛ لأنك تركت واجبًا. والواجب إذا نسي لا يسقط، لكن يسقط التأثيم بتأخيره. ودليل هذا قول النبي ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها، فليصلها إذا ذكرها. لا كفارة لها إلا ذلك» ثم تلا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤][1].

ومن ذلك: لو سلم قبل تمام صلاته ناسيًا، فلا إثم عليه. لكن عليه أن يتمها؛ لأنه ترك ركنًا فيها، أو أكثر. إلا أنه لا يأثم بسلامه قبل تمامها. ودليل ذلك ما ثبت في الصحيحين: (عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ صلى بأصحابه ذات يوم صلاة الظهر أو العصر، وسلم من ركعتين. ثم ذكروه، فأتم صلاته، وسلم. ثم سجد سجدتي السهو بعد السلام)[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكر، رقم (٥٩٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، رقم (٦٨٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب السهو، باب إذا سلَّم في ركعتين..، رقم (١٢٢٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

ومن ذلك: أن من أكل وهو صائم، ناسيًا، فلا إثم عليه، ولا يقضي؛ لأن هذا من باب فعل المحرم. والمحرم المقصود عدمه، لا المقصود إيجاده. فإذا ارتكبه الإنسان ناسيًا أو جاهلًا فلا إثم عليه. فكأنه لم يفعله تمامًا. عبادته صحيحة، ولا إثم عليه. ودليل هذا قول النبي ﷺ: «**من نسي وهو صائم، فأكل أو شرب، فليتم صومه. فإنما أطعمه الله وسقاه**»[1]. وفي قوله: «**فليتم صومه**»، دليل على أن صومه لم ينقص. ولو أكل يظن أن الشمس قد غربت، لكون السماء مغيمة، فأظلمت الدنيا، فأكل ظانا أن الشمس قد غربت، ثم انجلى السحاب فإذا الشمس لم تغرب!! فليس عليه شيء؛ لأنه جاهل. لكن إذا تبين أن الشمس لم تغرب، وجب عليه أن يتوقف عن الأكل، وأن يلفظ ما كان في فمه.

إذا قال قائل: كيف لا قضاء عليه؟ أكل في رمضان؟. قلنا: نعم. لكن هل هو جاهل أو عالم؟.

الجواب: جاهل. إذن داخل في قوله: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. وهذا دليل عام. وهناك دليل خاص في الموضوع: وهو ما رواه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: (**أفطرنا على عهد النبي ﷺ في**

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسيًا، رقم (١٩٣٣)، ومسلم، كتاب الصيام، باب أكل الناسي وشربه وجماعه لا يفطر، رقم (١١٥٥).

يوم غيم ثم طلعت الشمس)(١). ولم يأمرهم النبي ﷺ بالقضاء. ولو كان القضاء واجبًا، لكان من دين الله ـ تعالى ـ، ولوجب على النبي ﷺ أن يبلغه ويأمرهم بالقضاء. ولو أمرهم بالقضاء لنقل إلينا؛ لأنه إذا أمرهم بالقضاء صار القضاء من دين الله وشريعة الله. والله ـ تعالى ـ قد حفظ هذه الشريعة. فلما لم ينقل الأمر بالقضاء، ولا القضاء. علم أن القضاء ليس بواجب.

فإن قال قائل: لو أن إنسانًا صائمًا، وتوجد غيوم كثيفة، وأفطر عند الظهر. هل تعذرونه؟. فنقول: لا نعذره؛ لأنه معتد. وإنما نعذره إذا كان الوقت قريبًا من الغروب. يعني: أنه يتحرى غروب الشمس لكن لم يتأكده بواسطة الغيم. أما إنسان يفطر في نصف النهار، ويقول: أفطرت في يوم غيم. فهذا لا أحد يقره.

٩ـ أن الإنسان لو أعطى شخصًا زكاة ماله، يظن أنه فقير، فبان أنه غني. فزكاته مقبولة؛ لأنه حين إعطائه الزكاة يظن أن ذمته برئت. ويدل لذلك حديث الرجل الذي تصدق بصدقة على غني فأصبح الناس يتحدثون: تصدق الليلة على غني. فقيل لهذا الرجل: إن صدقتك قد قبلت(٢). ولأن الغنى والفقر أمر خفي. لكن إذا غلب على

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب إذا أفطر في رمضان ثم طلعت الشمس، رقم (١٩٥٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، رقم (١٤٢١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ثبوت أجر المتصدق وإن وضعت الصدقة في يد غير أهلها، رقم (١٠٢٢).

ظنك أن هذا ليس من أهل الزكاة، فالواجب أن تقول له: إن شئت أعطيتك، ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب. وأما إذا غلب على ظنك أنه فقير، فلا حاجة أن تقول له هذا. وإذا علمت أنه كاذب، وأنه غني، لكنه يسأل الناس أموالهم تكثرًا، فانصحه، وشدد عليه، ولا تعطه، فتساعده على الإثم والعدوان.

ومن ذلك: أن الرجل إذا أحرم، حرمت عليه المحظورات في الإحرام. ومنها: الطيب. فلو أن المحرم تطيب ناسيًا فليس عليه شيء. لا إثم ولا فدية. لكن متى ذكر وجب عليه غسله، إن كان على البدن، وإن كان على الإحرام وجب عليه إبدال الإحرام، أو غسل الإحرام.

لو أن المحرم صاد حمامة، بعد إحرامه قبل أن يدخل حدود الحرم، ظنا منه أن الصيد لا يحرم إلا إذا دخل حدود الحرم، فلا شيء عليه. حتى لو أكلها، فلا إثم عليه ولا جزاء؛ وذلك لدخوله في قوله: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

ومن ذلك: لو أن المحرم بالحج جامع زوجته ليلة مزدلفة، ظنا منه أن الحج عرفة، وانتهى. يسمع أن: الحج عرفة. وقف بعرفة وانتهى. فجامع زوجته ليلة مزدلفة جاهلًا، فليس عليه شيء. حجه صحيح، ولا يلزمه القضاء، ولا فدية عليه، ذلك لأنه لم يتعمد، بل هو جاهل. وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وقال: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ ﴾ [الأحزاب: ٥].

ومن ذلك: لـو أن رجـلًا قطـع شـجرة في الحـرم مـن غـير مـا زرعـه الآدمي، مما ينبت مـن المطـر. ولكنـه لا يـدري أن ذلـك حـرام. يظـن أن قطع الشجرة حرام على المحرم، وأمـا المحـل فـلا يحـرم عليـه. فـلا شيء عليه، ليس عليه إثم، لأنه كان جاهلًا. لكـن ظنـه أن الـشجر يحـرم عـلى المحرم خطأ؛ لأن قطع الشجر ليس حرامًا على المحـرم. حـرام عـلى مـن كان داخل حدود الحرم. وأما ما كان خارج حدود الحـرم فهـو حـلال. يجوز للمحرم وغير المحرم أن يقطعه. وأما ظـن بعـض النـاس أن قطـع الشجر تابع للإحرام، فليس بصحيح.

ومن ذلك: أن الإنسان إذا كان محرمًا، لو قطـع مـن رأسـه شـعرات كثـيرة، يظـن أنـه لا بـأس بـذلك، فـلا حـرج عليـه، لا إثـم ولا فديـة؛ لدخوله في عموم قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَاۚ ﴾.

وليعلم أن المحرم بالنسبة لحلق رأسه، له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يحلقه بدون حاجة، وبدون عذر. فهذا عليه الإثم والفدية. والفــديــة بـينـهـا الله ـ عز وجل ـ في قــولــه : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقد بين النبي ﷺ الصيام بأنه ثلاثة أيام. والصدقة بأنها إطعام ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع. والنسك ذبح شاة.

الحالة الثانية: أن يحتاج إلى حلقه، فيحلقه متعمدًا لكن للحاجة: إما لمرض في رأسه لا يزول إلا بحلق الشعر. وإما بأذى في رأسه، ككثف القمل مثلًا. كما جرى لكعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ. المهم: فهذا عليه الفدية وليس عليه إثم. ودليل ذلك الآية الكريمة التي سقناها: أن من كان مريضًا أو به أذى من رأسه، فعليه الفدية: من صيام، أو صدقة، أو نسك.

الحالة الثالثة: أن يحلقه ناسيًا أو جاهلًا: فهذا لا إثم عليه ولا فدية عليه؛ لدخوله في عموم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. وما ذكره بعض أهل العلم من وجوب الفدية في هذه الحال، ففيه نظر، وليس لنا أن نضيق ما وسعه الله ـ عز وجل ـ. كيف وقد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]؟! كيف وقد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]؟! كيف وقد قال النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر»[1]؟! كيف وقد كان ﷺ إذا بعث الناس

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

للدعوة للإسلام يقول: «يسروا ولا تعسروا»[١]؟!

فإن قال قائل: هل حلق بعض الرأس حرام أو لا؟ لأن الله قال: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾، ولم يقل: «بعض رءوسكم».. هل هو حرام أو لا؟.

الجواب: هو حرام؛ لقول النبي ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[٢]. وهذا قد نهى الله عنه، فيجتنب كله. لكن إن احتاج إليه - أي: إلى حلق بعضه - حلقه؛ لعموم قوله - تعالى -: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾. إذا حلق بعض الرأس، هل تلزمه الفدية أو لا؟. ظاهر السنة أنها لا تلزمه الفدية، وأن الفدية إنما تكون في حلق الرأس كاملًا، أو حلق أكثره. أما بعضه فلا دليل، ذلك أن النبي ﷺ احتجم في رأسه وهو محرم وشعر النبي ﷺ كثيف لا يمكن أن يحجم على رأسه إلا بعد حلقه: حلق مكان الحجامة. ولم ينقل عنه ﷺ أنه فدى. لكن لو أن الإنسان فدى من باب الاحتياط، فإنه لا ينكر عليه.

والحاصل أن هذه القاعدة - والحمد لله - قاعدة عظيمة. ليست من قول فلان وفلان، بل هي من قول من له الحكم وإليه الحكم - عز وجل -.

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، رقم (٦٩)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٣، ١٧٣٤).

(٢) تقدم تخريجه.

وهو الذي يحكم بين العباد، ويحكم في العباد. فإذا كان الله ـ تعالى ـ عفا عن عباده في الخطأ والنسيان، فلا يمكن أن نلغي هذا بأي حال من الأحوال. لا باستحسان ولا غير استحسان. بل إن الاستحسان هو: إسقاط المؤاخذة مع الجهل والنسيان؛ لأن هذا مما يرغب في الدين الإسلامي، ليسره وسهولته.

فإن قال قائل: أنتم إذا أسقطتم الإثم أو الفدية فيما فيه فدية أو الكفارة، فإنكم قد توسعون للناس؟

نقول: وليكن. إذا قيدنا الشيء بالشروط الشرعية، فلنوسع. فلو أن رجلًا صائمًا، وامرأته صائمة، وجامعها. ولكن لم يحصل إنزال. وجاء يسأل يقول: إنه فعل هذا. يظن أن الذي يفسد الصيام هو الجماع مع الإنزال؟ فإذا علمنا أن الرجل صادق، وأن هذا ظنه، قلنا: لا شيء عليك. صيامك صحيح، ولا كفارة، لأنه جاهل، داخل في الآية الكريمة.

فإن قال قائل: إذا كان الإنسان عالمًا بالحكم، لكنه جاهل بالعقوبة. ما ظن أن عقوبة هذا الفعل بهذه الشدة. فهل تسقطون عنه العقوبة؟

فالجواب: لا. لأن الرجل انتهك المحرم، ويدل لهذا حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في الصحيحين: «أن رجلًا أتى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، هلكت، وأهلكت. قال: ما بالك؟ قال: إني أتيت امرأتي في رمضان، وأنا صائم. » ـ الرجل الآن يعرف أن هذا حرام. الدليل:

أنه جاء خائفًا، ويقول: هلكت وأهلكت. لكنه لا يدري ما الكفارة، فسأله النبي ﷺ«هل يجد رقبة؟ قال: لا. هل يستطيع أن يصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا. هل يستطيع أن يطعم ستين مسكينًا؟ قال: لا. ثم جلس الرجل. وأرسل بتمر إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: خذ هذا تصدق به. فقال: يا رسول الله؛ أعلى أفقر مني؟ والله ما بين لابتيها - يعني: المدينة - أهل بيت أفقر مني. فضحك النبي ﷺ كيف هذا الرجل أتى خائفًا، ثم لا يذهب حتى يطعم - وقال له النبي ﷺ: أطعمه أهلك» (١). قال: أطعمه أهلك. ولم يقل: فإن أغناك الله فكفر؛ لأنه حين وجوب الكفارة لا يستطيع. وقد قررنا فيما سبق أنه لا واجب مع العجز. بناءً على قوله - تعالى -: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾. ولذلك لو أن إنسانًا صدم شخصًا خطأً، ومات المصدوم. فالدية واجبة على كل حال. ما لم يعف عنها أولياء المقتول. الكفارة؟ قلنا له: عليك كفارة عتق رقبة. قال: ما عندي شيء. قلنا: صم شهرين متتابعين. قال: ما أقدر. ماذا نقول؟ هل نقول: متى استطعت، فصم؟ أو: متى استطعت فأعتق؟. لا. ما عليه شيء؛ لأنه ما يستطيع. ولا إطعام، لأن كفارة القتل ليس فيها إطعام. هذ ما تدل عليه هذه الآية الكريمة.

---

(١) رواه البخاري،كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان...، رقم (١٩٣٦)، ومسلم، كتاب الصيام باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم...، رقم: (١١١١).

وأوصي إخواني - ولا سيما طلبة العلم، الذين من الله عليهم بقبول الناس فتواهم - أوصيهم أن يكون المأخذ الأول والثاني، والأول والآخر، هو الكتاب والسنة؛ لأنهما هما الطريق الموصلة إلى الله - عز وجل -. وكل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ. فهل إذا وقع الشيء خطأ ثم تبين الخطأ هل تترتب الأحكام على هذا الفعل أو لا؟ نقول: لا.

مثال ذلك: إنسان باع سلعة بعد أذان الجمعة الثاني وهو ممن تلزمه الجمعة، فالبيع غير صحيح؛ لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ١١]. البيع غير صحيح لكن البائع لا يأثم ما دام لا يعلم بالحكم. إلا أننا نقول: العقد ليس بصحيح؛ لأن الصحة ليست هي البيع، بل هو مترتب على البيع. فتبين أن هذا البيع فاسد، فلا تترتب عليه الصحة. لكن لا إثم.

ومن ذلك: لو أن رجلًا ذبح ذبيحة، ونسي أن يسمي الله - عز وجل -. فلا إثم عليه. مع أن الواجب أن يذكر اسم الله عليها، لكن نسي. نقول: لا إثم عليه، ولكن هل يأكل منها أو لا؟ الجواب: لا يأكل منها لأنه تبين له أن الذبيحة فاقدة الشرط. ولهذا قال الله - عز وجل -: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾

[الأنعام:١٢١]. فنقول: الذبيحة هذه حرام. لا تأكلها أنت أيها الذابح، ولا يأكلها غيرك. لكن لو أكلها غيره، وهو لا يدري أنها متروكة التسمية، فليس عليه إثم؛ لأنه جاهل. أو نسي فأكل، فلا إثم عليه؛ لأنه ناس.

فإن قال قائل: هذا الرجل نسي أن يسمي. لماذا لا تدخلونه في الآية؟

قلنا: نحن أدخلناه في الآية وقلنا: لا إثم عليه. لكن الآثار المترتبة على شيء غير صحيح، لا تكون صحيحة. وهنا شيئان: أكل وذبح. الذبح تبين أنه غير صحيح. لكنه لا إثم فيه؛ لأن الذابح ناس. لكن الأكل لا يجوز. ولهذا قلنا: لو أكل الإنسان الذابح أو غيره ناسيًا، أو جاهلًا، فلا إثم عليه. فلكل فعل حكمه. وهذا الذي قررناه هو ظاهر القرآن والسنة. وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وما ذكر ابن جرير ـ رحمه الله ـ من الإجماع على حل متروك التسمية سهوًا، ليس بصحيح. فلا إجماع. فإن من السلف من منع ذلك ـ أي: منع الأكل من متروك التسمية سهوًا ـ. لكن ابن جرير ـ رحمه الله ـ لا يرى خلاف الرجل والرجلين شيئًا. والواجب الرجوع إلى الكتاب والسنة، ما لم يخالف إجماعًا قطعيا. فإن خالف إجماعًا قطعيا، فليتهم الإنسان رأيه، ولا يخالف الإجماع.

ويستثنى من هذه الآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ

أَخْطَأْنَا ﴾، ما كان من حقوق العباد، فإنه لا فرق بين الناسي والذاكر، والعالم والجاهل. فلو أن شخصًا أخطأ، فلبس ثوب غيره، يظنه ثوب نفسه، ثم احترق هذا الثوب. فهل يضمن أو لا؟ الجواب: يضمن. لكن لا إثم عليه. وإنما قلنا: يضمن لأن هذا حق آدمي مبني على المشاحة. وأما حق الله، فقد سبق أنه ليس على الإنسان شيء في الكفارات والفدى.

فإن قال قائل: كيف تجيبون عن قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾[النساء: ٩٢]، فأوجب الله حق آدمي: وهو الدية، وحق نفسه: وهو الكفارة.

فالجواب: أن هذه مستثناة من القاعدة. ولله - تبارك وتعالى - أن يستثني ما شاء. هذه واحدة. وإذا قلت بهذا الجواب سلمت من كل اعتراض. تقول: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾. فأوجب الله - تعالى - الكفارة والدية في القتل الخطأ مع أنه خطأ. والحكم لله - عز وجل -. فيستثنى هذا من عموم آية البقرة. فإن قلت: ما الحكمة أنه يستثنى؟ فالجواب: أننا نعلم أن كل شيء حكم الله به ورسوله، فهو لحكمة، سواء علمنا تلك الحكمة أو لا. ثم نقول: لما كانت النفوس خطرها عظيم، صار الواجب حتى في الخطأ في حق الله وحق العباد، وإن كان الفاعل مخطئًا. والأمر في هذا والحمد لله واضح.

١٠- بيان منة الله - تبارك وتعالى - على هذه الأمة، في أنه لم يحمل عليها إصرًا كما حمله على الذين من قبل. والإصر: هو الشيء الشديد الثقيل. وكانت الأمم السابقة ولا سيما اليهود قد غلظ عليهم في الأحكام الشرعية، لأنهم كذبة، ولأنهم أهل طغيان وكبرياء. كما قال الله - عز وجل -: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١] إلخ الآية. فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾، لكن هذه الأمة لم يحمل الله عليها من الآصار والأغلال ما كان على من قبلها. ولهذا كان من وصف النبي ﷺ أنه يضع عن هذه الأمة إصرهم والأغلال التي كانت عليهم[1].

١١- أن الله له الحكم. يحكم بما شاء. يشدد على أقوام، ويخفف عن آخرين. وأنه - جل وعلا - لا يشدد على قوم، ويوسع على آخرين، إلا لحكم بالغة. سواء أدركناها أم لم ندركها. فعلى المؤمن أن يحقق قوله: «رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا»

١٢- أن الله - سبحانه وتعالى - لم يحمل عباده ما لا يطيقون، بل جعل الدين يسرًا من جميع النواحي، وهذا كالتأكيد، لقوله - تعالى -: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾. لكن هذه الجملة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

---

(١) كما في سورة الأعراف آية: ١٥٧.

وُسْعَهَا﴾ خبر من الله ـ تعالى ـ. وهذه الجملة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ دعاء من المؤمنين.

١٣ـ طلب العفو من الله والمغفرة والرحمة. فالعفو عن التقصير في الواجب. والمغفرة: عند فعل المحرم. والرحمة: ثواب العمل، والتوفيق للعمل الصالح. فيؤخذ من هذا أنه ينبغي للإنسان أن يدعو بهذه الجمل الثلاث: اعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا.

١٤ـ أن الله ـ تعالى ـ مولى المؤمنين؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾. وولاية الله ـ تعالى ـ نوعان: عامة وخاصة. فأما العامة: فهي الشاملة لجميع الخلق. وأما الخاصة: فهي المختصة بالمؤمنين. فكل أحد فالله مولاه، يتولاه ويتصرف فيه كما يشاء. وكل مؤمن فإن الله ـ تعالى ـ قد تولاه توليًا خاصا، وفقه به للإيمان والعمل الصالح. والمراد هنا: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾: الولاية الخاصة.

١٥ـ طلب النصر على القوم الكافرين. سواء كان النصر بالقول أو بالفعل. النصر بالقول: هو ظهور حجة المسلمين، ودحر حجة الكافرين. والنصر بالفعل: هو أن يكون قتال بيننا وبين أعدائنا الكفار، فينصرنا الله ـ تعالى ـ عليهم: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وليعلم إخواني المسلمون أن هذه الآية والتي قبلها، إذا قرأهما

الإنسان في ليلة كفتاه. أي: في الحفظ والرعاية والدعاء؛ لأنهما اشتملتا على كل مصالح الدين والدنيا.

وإلى هنا انتهى الكلام على سورة البقرة. السورة العظيمة التي أخذها بركة، وفقدها حسرة، ولا تستطيعها السحرة.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم تسليمًا كثيرًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

سورة آل عمران

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١، ٢].

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد ما يلي:

١ ـ أن كلام الله الذي أعجز البشر ـ ولا سيما العرب الفصحاء البلغاء ـ لم يكن من حروف غريبة يتحجج بها المعارض، بل هي من حروف يتركب منها كلامهم، يؤخذ هذا من قوله: ﴿الٓمٓ﴾.

٢ ـ انفراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالألوهية؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣ ـ إثبات الاسمين العظيمين ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، وقد ذكر هذان الاسمان في كتاب الله في ثلاثة مواضع، في آية الكرسي، وفي هذه الآية، وفي سورة طه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ ﴾ [طه: ١١١].

٤ ـ إثبات ما تضمنه هذان الاسمان من صفات الله، وقد قيل: إنهما يتضمنان جميع صفات الكمال لله ـ عز وجل ـ إما موافقة وإما التزامًا.

٥ ـ أن المدبر للخلق هو الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾،

ويترتب على هذا ألا تسأل إلا الله، ولا تعتمد إلا على الله، ولا تلجأ عند الشدائد إلا إلى الله ـ عز وجل ـ، لأنه هو القائم عليك المدبر لأمورك، فلا تلجأ إلى غير الله؛ فإن من تعلَّق شيئًا وكل إليه، ومن تعلق غير الله فهو خاسر.

*　*　*

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: نزله شيئًا فشيئًا، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ يعني: أنزلناه مفرقًا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، فالقرآن الكريم نزل شيئًا فشيئًا، بعضه بدون سبب، وبعضه لسبب، وهذا يرجع إليه في كتب التفسير.

﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ يعني: القرآن؛ لأنه مكتوب، مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الآدميين.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ يعني: أن ما جاء به فهو حق، أو بالحق يعني: أنه حق من عند الله، وكلا المعنيين صحيح، وكلاهما لا يتناقضان، وعلى هذا فنقول: إنه أتى بالحق وأنه حق.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال، يعني حال كون هذا الكتاب مصدقًا لما بين يديه، يعني من الكتب السابقة، ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

وتصديق القرآن لما بين يديه له وجهان:

الوجه الأول: شهادته بأن الكتب السابقة حق، فهو قد صدقها وبيَّن أنها حق.

الوجه الثاني: أنه وقع مطابقًا لما أخبرت به الكتب السابقة، فيكون مصدقًا لها فيما أخبرت به؛ لأن رسالة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - مذكورة في الكتب السابقة. قال الله - تبارك وتعالى - في وصف النبي ﷺ: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ على موسى، ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ على عيسى، وإنما قال

أنزل التوراة والإنجيل دون نزَّل لأن التوراة والإنجيل نزلتا جملة واحدة بدون تفريق.

وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني: من قبل أن نزل عليك الكتاب، وكان بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة، ولم يأت بعده نبي.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: علمًا يهتدون به، فأما التوراة فلبني إسرائيل، والإنجيل لبني إسرائيل، والقرآن لجميع الخلق.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ يعني: الفرق بين الحق والباطل، ولم يجعل ذلك ملتبسًا بل فرق الله ـ سبحانه وتعالى ـ بينهما تفريقًا واضحًا لا يزيغ عنه إلا هالك. وقيل: إن الفرقان هو القرآن لكن هذا القول ضعيف هذا القول؛ لأن الله ذكر تنزيل القرآن في أول الآية التي قبلها.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الجملة بعد ذكر الكتب الثلاثة تهديدًا لهؤلاء الكفار الذين قامت عليهم الحجة بإنزال الكتب عليهم. والكفر بآيات الله إما تكذيبها، وإما الاستكبار عنها، وعلى هذا يدور محور الكفر إما إنكار وتكذيب، وإما استكبار وإعراض.

﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: هي شرائعه - عز وجل -، فإن الشرائع من آيات الله؛ لأن كل شريعة أنزلها الله فهي مطابقة للحكمة تمامًا وللرحمة وللصلاح والإصلاح، ولن يأتي البشر بمثل شرائع الله في أي زمان أو مكان؛ فلهذا كانت الشرائع آية من آيات الله - عز وجل -.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: قوي في نوعيته، شديد في أبديته - والعياذ بالله - ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ عزيز أي: غالب كما قال - عز وجل -: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، و﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ أي: صاحب انتقام ممن يستحقه؛ لأنه - جل وعلا - عزيز لا يذل أبدًا، فله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

في هاتين الآيتين الكريمتين من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ - إثبات أن الله نزَّل الكتاب «القرآن» وهذا يدل على شيئين:-

الأول: أن القرآن كلام الله.

الثاني: علو الله - عز وجل -؛ لأنه إذا كان كلامه وقد نزل دلَّ ذلك على أن المتكلم به عالٍ وهو كذلك، فإن الله - تعالى - عالٍ بذاته وعالٍ بصفاته.

فعلو الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: علو ذات بمعنى أنه - تعالى - فوق كل شيء، وأدلته كثيرة

من القرآن والسنة وكلام السلف والعقل والفطرة.

الثاني: علو صفة بمعنى أن له الصفات العليا ـ عز وجل ـ، وأن صفاته أعلى الصفات وأكملها.

٢ـ شرف النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وعلو منزلته حيث نزَّل الله عليه هذا الكتاب العظيم.

٣ـ أن القرآن حق ليس فيه شيء مفترى من دون الله ـ عز وجل ـ، وإذا كان حقًّا وقد التزم الله ـ تعالى ـ أن يحفظه دلَّ ذلك على بطلان قول من يقول: إنه قد حذف منه شيء، فإن القرآن ـ والحمد لله ـ لم يحذف منه شيء وإنما تلقته الأمة صاغرًا عن كابر إلى يومنا هذا، ليس فيه شيء محذوف، ومن زعم أن فيه شيئًا محذوفًا فقد قدح في القرآن كله وقدح في قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقدح فيما أجمعت عليه الأمة الإسلامية ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

٤ـ أن كل ما جاء به القرآن فهو حق موافق للمصالح ومنافع الخلق، فما أمر به فالحق في امتثاله، وما نهى عنه فالحق في اجتنابه.

٥ـ شرف هذا الكتاب العزيز، حيث كانت الكتب السابقة قد نوهت عنه ونزل مصدقًا لها، وقد ذكرنا في التفسير الآية التي تدل على

هذا.

٦. وجوب الإيمان بالتوراة والإنجيل، وأن الله - تعالى - أنزل كتابًا يسمى التوراة، وهو نازل على موسى - عليه الصلاة والسلام - وكتابًا يسمى الإنجيل وهو نازل على عيسى - عليه الصلاة والسلام -، فيجب علينا أن نؤمن بأن الله - تعالى - أنزل التوراة وأنزل الإنجيل، ولكن هل التوراة الموجودة والإنجيل الموجود في أيدي اليهود والنصارى هو ما نزل حقًّا على موسى وعيسى؟

الجواب: قد بيَّن الله - عز وجل - أن فيهما زيادة ونقصًا وتبديلًا وتقديمًا وتأخيرًا، حُرف الكلم عن مواضعه، لكن الواجب أن نؤمن بأن الله أنزل كتابًا على موسى يسمى التوراة، وكتابًا أنزل على عيسى يسمى الإنجيل، وأنهما حق. ولكن هل بقيت شرائعهما؟ بمعنى هل يجب علينا أن نعمل بما فيهما من الشرع إذا ورد شرعنا بخلافه؟

الجواب: لا، بل ولا يجوز؛ لأن الكتاب العزيز **(القرآن)** نزل ناسخًا لكل ما سبقه من الكتب، قال الله - تعالى -: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ أي: له الهيمنة عليه والسلطة، فما خالفه ولو كان ثابتًا في التوراة والإنجيل فإنه منسوخ، والذي تولى ذلك هو الله، الذي أنزل هذا وهذا، فإذا نسخ الشرائع السابقة بشريعة محمد - صلى الله عليه

وعلى آله وسلم ـ وجب علينا أن نؤمن بأنها حق، وأنه يجب العمل بها قبل أن تنسخ، وأما بعد النسخ فلا يعمل بها.

٧ـ أن الناس محتاجون إلى هدى الله، لقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾، فالعقل لا يستقل بعلم ما ينفع ولا بعلم ما يضر أيضًا، بل لابد من شريعة تبين للناس ذلك، ولهذا قال: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

٨ـ أن الله ـ تعالى ـ أنزل الفرقان بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والضار والنافع، حتى لا يبقى الناس في عمى لا يهتدون سبيلًا.

فإن قال قائل: أليس يخفى على بعض الناس ما جاء في القرآن من حق؟

فالجواب: بلى، ولكن هذا ليس لقصور هداية القرآن، وإنما هو لقصور في المستدل بالقرآن، قد يكون ناقص علم، وقد يكون قاصر الفهم، وقد يكون سيئ الإرادة، لا يريد الحق؛ فيحرم من الوصول للحق، وأما من أعطاه الله ـ تعالى ـ فهمًا وعلمًا ونية حسنة يريد الوصول إلى الحق فلن يشتبه عليه شيء، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ

تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٧، ٨].

٩ـ وعيد أولئك الكفار الذين كفروا بما أنزل الله من الكتاب إما بالتكذيب وإما بالاستكبار.

١٠ـ التحذير من الكفر؛ لأن كل من علم بأن للكافر عذابًا شديدًا فسوف يحذر.

١١ـ إثبات هذا الاسم لله ـ عز وجل ـ وهو العزيز الغالب الذي لا يغلب.

١٢ـ أن الله ذو انتقام ولكن ممن؟ بيَّن الله ـ تعالى ـ أنه ينتقم من المجرمين، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢]، وانتقام الله ـ تبارك وتعالى ـ قوي شديد، نسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يعيذنا جميعًا من انتقامه وأسباب سخطه، إنه على كل شيء قدير.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

هذا من قول الراسخين في العلم يقولون في المتشابه: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ

كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ الزيغ بمعنى الميل، أي: لا تمل قلوبنا بعد إذ هديتنا بالعلم والتوفيق.

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾؛ أي: أعطنا من عندك رحمة تثبتنا بها، وتبعد عنا الشبهات.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾؛ أي كثير العطاء.

في هذه الآية الكريمة من الحِكم والفوائد، ما يلي:

١- أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله - سبحانه وتعالى - الثبات على الحق بألا يزيغ قلبه بعد إذ هداه؛ لأن قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن - عز وجل -، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه، والإنسان على خطر ما دامت روحه في جسده.

٢- التوسل إلى الله - تعالى - بنعمته حيث قالوا: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: كما مننت علينا بالهداية فلا تخذلنا بالغواية والزيغ.

٣- الاعتراف لله - عز وجل - بالفضل بهدايته، ولا شك أن من أعظم نعم الله على عبده أن يهديه للإسلام فينشرح به صدره، ويطمئن به قلبه.

٤- سؤال الله المزيد من فضله؛ لقوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾، وإنما أضافوا ذلك إلى الله في قولهم: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾؛ لأن عِظم العطية من عِظم المعطي، وكثرة الهدية والهبة من كرم المعطي.

٥- إثبات هذا الاسم الكريم من أسماء الله «الوهاب» أي: كثير الهبات والعطايا.

٦- التوسل إلى الله ـ تعالى ـ بأسمائه، فيختار الاسم المناسب لما يدعو به الإنسان، فهم قالوا: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾، والقائل يقول: اللهم اغفر إنك أنت الغفور، اللهم ارحمني إنك أنت الرحيم، وما أشبه ذلك.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿رَبَّنَا﴾؛ يعني: يا ربنا.

﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ أي: حاشرهم جميعًا في مكان واحد.

﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ اللام: هنا للتوقيت يعني: أنهم سيجمعون في يوم لا شك فيه، وهو يوم القيامة كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾: هذه جملة تعليلية يعني آمنا بذلك وأقررنا به؛ لأنك وعدت به وأنت لا تخلف الميعاد، وذلك لكمال صدقه - عز وجل - وكمال قدرته، فإنه بكمال الصدق والقدرة يحصل الموعود به، إذ إن إخلاف الوعد إما أن يكون لكذب الواعد، وإما أن يكون لعجزه، والرب - عز وجل - منزه عما لا يليق به من الكذب والعجز، فقوله أصدق القول، وقدرته أعظم القُدَر.

في هذه الآية الكريمة من الحِكم والفوائد، ما يلي:

١- أن الراسخين في العلم يؤمنون إيمانًا جازمًا لا يعتريه شك بيوم القيامة؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾.

٢- أن الأولين والآخرين يجمعون في مكان واحد في زمن واحد، وهذا كقوله - تعالى - ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

٣- صدق إيمان هؤلاء الراسخين في العلم بأنهم ليس عندهم شك ولا احتمال فيما وعد الله به من جمع الناس ليوم لا ريب فيه.

٤- أن إيمان أولئك الراسخين في العلم مبني على يقين وإيمان، أعني إيمانهم بيوم البعث مبني على يقين وإيمان بكمال صفات الله - عز وجل - حيث إنه - تعالى - لا يخلف الميعاد.

٥ـ أن العاقل يجب عليه أن يعمل لهذا اليوم الذي لا ريب فيه، ولكن النفوس تعمل ليوم زائل فانٍ، وتنسى اليوم الآخر الباقي، فما أكثر الذين غرتهم الحياة الدنيا ولهوا بها عن مستقبلهم في الآخرة، وكأنهم مقيمون أبدًا في الدنيا لا يرتحلون، وكأنهم لا يبعثون فيجزون، نسأل الله ـ عز وجل ـ أن يرزقنا الاستعداد لذلك اليوم العظيم، وأن يجعلنا فيه من السعداء، وأن يختم لنا ولإخواننا بالخير إنه على كل شيء قدير.

* * *

لما ذكر الله تعالى حال الراسخين في العلم المؤمنين بالله واليوم الاخر ذكر أيضًا نقيضهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي: كفروا بالله وبما يجب الإيمان به، وقد بيَّن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فمن كفر بشيء من ذلك دخل في هذه الآية، كذلك أيضًا من كفر كُفْر استكبار بأن استكبر عن طاعة الله فيما يخرج به العبد من الإسلام، إذا خالف أمر الله فهو داخل في هذه الآية، ولهذا أطلق الله ـ تعالى ـ الكفر فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولم يقل بكذا وكذا.

﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾: أي: لن

تفيدهم ولن تمنعهم من الله إذا أراد بهم سوءًا، كما قال: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١].

وقوله: ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ يشمل القليل والكثير، ومن أي نوع كان من ذهب أو فضة أو جواهر أو لآلئ أو أواني أو أي شيء، لن تفيدهم شيئًا، ولن تمنعهم شيئًا من عذاب الله إذا أراد الله ذلك. ولهذا نجد الزلازل والفيضانات والأمراض المهلكة، لا يمكن للغني مهما كثر ماله أن يدفعها عن نفسه إذا أرادها الله ـ عز وجل ـ.

﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ أيضًا أولادهم لا تغني عنهم من الله شيئًا، والأولاد هنا يشمل الذكر والأنثى؛ لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذكر والأنثى، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ﴾ [النساء: ١١]. قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ﴾ بعد أن ذكر «أولاد»، فدلَّ ذلك على أن الأنثى تدخل في مسمى الولد، الأولاد مهما كثروا ومهما كانوا في الشجاعة والقوة والبأس فإنهم لن يغنوا عن والديهم شيئًا من الله ـ عز وجل ـ، حتى لو وقفوا على بابهم بالسيوف والمدافع لن يغنوا عنهم من الله شيئًا.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين كفروا.

﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾؛ وقود: أي: الذي توقد به النار، هم وقود النار ـ والعياذ بالله ـ كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

﴿ ... وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦] يعني: أن الناس للنار مثل الحطب، النار تأكلهم وتشتعل بهم والعياذ بالله.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ إثبات هذا الحكم العظيم للكافرين ـ والعياذ بالله ـ، أنهم وقود النار.

٢ـ أن الكافر مهما قوي سلطانه وكثر ماله والمدافع عنه، فإن ذلك لن يغنيه من الله شيئًا.

٣ـ التحذير من الكفر؛ لأن شيئًا هذه عاقبته لابد أن يحذر منه العاقل.

٤ـ أنه إذا حصل هذا للكفار فإن المؤمن لن يصيبه ذلك، أي: لن يكون وقود النار، وإذا قدر أنه عمل عملًا سيئًا يستحق به دخول النار فإنه لن يخلد فيها.

٥ـ أن في الأموال والأولاد دفاعًا عن الإنسان بمعنى أنه يتخذ المال والولد حماية له، ولكن هل هذا يحميه من الله؟ لا، لا يحميه من الله.

٦ـ تسلية النبي ﷺ بأن هؤلاء الذين كفروا به هذا مصيرهم ـ والعياذ بالله ـ وأنهم لن يعجزوا الله.

٧ـ تهديد أولئك الكفار فإنهم لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، وتأمل قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ

فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥] بينما المؤمن يفرح ويقول للناس: ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ١٩] أما الكافر فيقول: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩] اللهم أعذنا من ذلك يا رب العالمين.

٨- إثبات النار وهي الدار التي أعدها الله ـ عز وجل ـ لأعدائه، فإنها مصيرهم أبد الآبدين، لن يخرجوا منها أبدًا، ولا يخفف عنهم من عذابها ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾ فيقال لهم: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] يقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨] ويقولون للملائكة ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، والله ما طمعوا في الخروج، ولا طمعوا في دوام التخفيف بل قالوا: يخفف عنا يومًا من العذاب، ويقولون لله ـ عز وجل ـ: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ فيقول لهم: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وهذا أعظم الإذلال وأعظم الخزي ـ والعياذ بالله ـ أن يقول لهم أرحم الراحمين: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾؛ لأنهم مستحقون لذلك معاقبون بعدله، فإنه ـ عز وجل ـ أهل العدل والإحسان منزه

عن الظلم، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٠].

* * *

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [آل عمران: ١١].

الدأب بمعنى: العادة.

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ ﴾ المراد به: أتباعه على دينه وهو على رأسهم، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود: ٩٧، ٩٨].

وفرعون: هو الطاغية العنيد المتكبر الذي أرسل الله ـ تعالى ـ إليه موسى بن عمران مع أخيه هارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وهو طاغية مصر.

﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾؛ أي: قبل آل فرعون، مثل: قوم لوط، وثمود، وعاد، وأشباههم، ثم ذكر هذا الدأب في قوله: ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾؛ أي: كذبوا بشريعتنا؛ لأن الشرائع من آيات الله ـ عز وجل ـ إذ لا أحد من البشر يستطيع أن يضع شريعة كشريعة الله في إصلاح عباد الله، فالشرائع آيات من آيات الله ـ عز وجل ـ، هؤلاء كذبوا بآيات الله ـ عز وجل ـ

واستكبروا عنها، ولكن هل تكذيبهم كان عن حقيقة؟ قال الله ـ تعالى ـ عن آل فرعون: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ يعني: هم في الباطن موقنون، ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] وهذه متعلقة بـ ﴿جحدوا﴾ يعني: جحدوا بها ظلمًا وعلوًّا مع استيقانهم بها.

وانظر إلى قول موسى يخاطب فرعون مواجهة، قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ لم يكذب فرعونُ موسى ـ مع قدرته على تكذيبه ـ لأن هذا هو الواقع، وأما قول فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] فهذا من باب التمويه على قومه، وإلا ففي قرارة نفسه أن موسى صادق لا شك عنده في هذا.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾؛ أي: أهلكهم، وإن شئت فقل: أي: أخذهم بالعذاب وهو الهلاك، والباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ ﴾؛ أي: بسبب ذنوبهم، والذنوب هي المعاصي.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: قوي العقاب ـ عز وجل ـ، والعقاب: المؤاخذة على الذنب، وسمي عقابًا؛ لأنه يعقب الذنب، والذنب سببه.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ بيان حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ في تحذير العباد حيث يذكر ما

جرى للأمم السابقة من النكال والعقاب بسبب التكذيب.

٢ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحابي أحدًا لشرفه أو نسبه أو ثروته أو ما أشبه ذلك، فالعباد في حق المعبود واحد، إذا عاقب أحدًا بهذا الذنب فسيعاقب من كان مثله ولا فرق.

٣ـ حكمة الله ـ عز وجل ـ في إنزال القرآن، فتجد قصص الأنبياء أحيانًا مبسوطًا مطولًا، وأحيانًا مختصرًا قصيرًا حسب ما تقتضيه البلاغة والفصاحة، والقرآن الكريم أعلى ما يكون فصاحة وبيانًا وبلاغة. ففي هذه الآية القصص مختصرة جدًّا.

٤ـ الحكمة في ذكر ما جرى على الأنبياء السابقين تسلية للنبي ﷺ وتحذيرًا للذين كفروا به.

٥ـ بيان قوة الله ـ عز وجل ـ، وأن الأمم مهما عظمت قوتهم واشتدت فإنهم لن يعجزوا الله. يقول الشاعر:

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيجزى بأظلم

٦ـ إثبات الأسباب، يعني أن الله من حكمته ربط المسببات بأسبابها، فالعقوبة التي ذكرها الله ـ عز وجل ـ لها سبب وهو الذنوب.

٧ـ التحذير من أسباب العقوبة، وقد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ

ﭐلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

٨ـ إثبات هذا الوصف لله ـ عز وجل ـ، وهو شدة العقاب، وذلك لكمال سلطانه؛ لأنه لا أحد يحول بينه وبين ما أراد من العقوبة.

٩ـ التحذير من المخالفة؛ لأن عقوبة الله إنما تكون بالذنوب التي هي إما ترك واجب وإما فعل محرم.

١٠ـ بيان ضرب الأمثال وإثبات القياس؛ لقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾، فكأن الرب ـ عز وجل ـ يقول: لينظر هؤلاء المكذبون ماذا صنع بآل فرعون والذين من قبلهم، وليقيسوا الحاضر على الماضي، وفيه إيماء إلى إعمال العقل؛ لأن دلالة القياس عقلية. وإعمال العقل هو أن يكون الإنسان ذا تعقل وتبصر في الأمور، ويقيس المتشابهات بعضها على بعض.

والقياس هو الدليل الرابع من أدلة الشريعة، فإن الأدلة أربعة أشياء، الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس الصحيح، لكن لابد أن يكون القياس صحيحًا، أما القياس الفاسد المصادم للنص فهو مطرح فاسد على اسمه؛ ولهذا يسمي الأصوليون القياس المخالف للنص يسمونه فاسد الاعتبار يعني لا اعتبار به وهذا حق. نسأل الله ـ تعالى ـ أن يرزقنا جميعًا البصيرة في دينه، وأن يجعلنا من أولي الألباب ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله - عز وجل -: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

يعني: أعلن لهم هذا القول بأنهم سيغلبون في الدنيا، وتكون العاقبة للمتقين، وإنما أَمَرَهُ الله - عز وجل - أن يقول ذلك من أجل كسر شوكتهم وإنزال الرعب في قلوبهم؛ لأنهم يعلمون أن قول النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - حق، وأن ما أخبر به سيقع.

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ﴾؛ يعني: يوم القيامة، فهم أذلاء في الدنيا وأذلاء في الآخرة.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ أي: بئس القرار هي.

في هذه الآية الكريمة من الأحكام والحكم:

١- أنه ينبغي للمسلم أن يكون عزيزًا بدينه، مستشعرًا للغلبة على أعدائه؛ لأنه بذلك تحصل له الجرأة والإقدام والشجاعة.

٢- أنه ينبغي فعل كل شيء يكون به إرهاب العدو وإذلاله وخذلانه وكسر شوكته، كما قال الله - عز وجل -: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ

تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٣ـ أن الغلبة للمؤمنين؛ لأن قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ ﴾ مبني لما لم يسم فاعله، ولكن الفاعل والغالب معروف، وهم المسلمون، ولكن متى يكون هذا؟ يكون إذا قام المسلمون بالإيمان الحق، الذي يملأ القلوب وتصلح به الجوارح، كما قال الله ـ تعالى ـ عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾، فسلَّم ذلك لهم، ولكن قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، فتأمل هذه الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾، ولم يقل: والله أعز ورسوله أعز والمؤمنون أعز، لأنه لو قال ذلك لكان للمنافقين عزة، ولكنه لا عزة لهم، فلا عزة للمؤمنين إلا إذا قاموا بأمر الله إيمانًا به ـ جل وعلا ـ وتصديقًا لأخباره واتباعًا لأحكامه، أما وهم متفرقون متنازعون منهمكون في حب الدنيا، فإنهم لم يأخذوا الشرط الذي تكون به العزة.

٤ـ إثبات الجزاء يوم القيامة.

٥ـ أن الكافرين يحشرون يوم القيامة إلى جهنم، ولكن حشرهم هذا ليس كحشر المتقين إلى الرحمن ـ عز وجل ـ، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥] مكرمون معززون، ﴿وَنَسُوقُ

ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾ [مريم: ٨٦] يساقون إليها سوقًا ـ والعياذ بالله ـ على أشد ما يكون من العطش، ثم يُدَعُّون فيها دعًّا ـ والعياذ بالله ـ ويلقون فيها إلقاءً. أعاذنا الله جميعًا من النار.

٦ـ الثناء على النار بالقدح في قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وصدق الله ـ عز وجل ـ فإن دارًا يلقى فيها أهلها من العذاب والنكال ما تنخلع له القلوب، وتدمى له الأكباد، لبئس المهاد هي.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

هذه الآية كالمثال لغلبة المؤمنين للكفار.

﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ﴾: الجملة هذه مؤكدة بـ «قد».

﴿ءَايَةٞ﴾، الآية: العلامة الدالة على أن الكفار مغلوبون.

﴿فِي فِئَتَيۡنِ﴾: أي: طائفتين التقتا في القتال، فئة تقاتل في سبيل الله، والقتال في سبيل الله هو القتال الذي يقصد به إعلاء كلمة الله ـ عز وجل ـ. كما قال النبي ﷺ لما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة

الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1] وهذا الرسول والمؤمنون.

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم قريش، وذلك في بدر، فقد كان المؤمنون نحو ثلاثمائة وأربعة عشر رجلًا، وكان أعداؤهم من قريش ما بين تسعمائة إلى ألف، ولهذا قال: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾، يعني: زائدًا على عدد المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ ﴿يُؤَيِّدُ﴾: يقوي، ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾؛ أي: بنصره من شاء من عباده، ولكن هذا تابع لحكمته - عز وجل -، فمن كان أهلًا للنصر نصره، ومن كان أهلًا للخذلان أو لم يكن أهلًا للخذلان لكن في خذلانه مصلحة للإسلام والمسلمين حصل له الخذلان، لكنه لا يستمر ولا يستقر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فيما حصل من غلبة القليل للكثير.

﴿لَعِبْرَةً﴾؛ أي: اعتبار يعتبر به الناس ولكن ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: لأصحاب الأبصار، والمراد بالأبصار هنا: أبصار البصيرة، إذ قد يكون الإنسان من ذوي الأبصار وإن كان أعمى، وقد لا يكون من ذوي الأبصار وإن كان مبصرًا.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا...، رقم (٢٨١٠)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا...، رقم (١٩٠٤).

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١- ضرب المثل بالشيء الواقع؛ لأن ذلك أبلغ في طمأنينة النفس، وطلب الطمأنينة لا ينافي أصل الإيمان، فإن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قال لله - عز وجل -: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأراه الله ذلك. وإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لم يكن شاكًّا في القدرة الإلهية ولكن يريد أن ينظر كيف، ولهذا قال النبي ﷺ نافيًا أن يكون إبراهيم شاكًّا: «نحن أولى بالشك من إبراهيم»[1]. يعني فإذا كنا مصدقين فإبراهيم أشد، ولما بشَّر الله - تعالى - زكريا بالولد قال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤٠، ٤١].

٢- أن النصر من عند الله - عز وجل - وليس بكثرة العدد، فئتان إحداهما تقاتل في سبيل الله والأخرى كافرة، والأولى أقل من الأخرى بالضعفين ومع ذلك غلبت بفضل الله. فالنصر من عند الله لا بكثرة العدد ولا بقوة العُدد، وانظر ما حصل للنبي - صلى الله عليه وعلى آله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى﴾ رقم (٤٥٣٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب...، رقم (١٥١).

وسلم ـ والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في غزوة حنين، حين افتخروا بكثرتهم، وقالوا: لن نغلب اليوم من قلة، فغلبوا وهم كثرة وعدوهم قليل، إذ كان الذين غلبوهم ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، والذين مع النبي ﷺ نحو اثني عشر ألفًا، ولكن كانت النهاية انتصار النبي ﷺ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، يعني: ولقد نصرك الله يوم حنين: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

٣ـ أنه ينبغي للإنسان ألا ينظر إلى كثرته ولا إلى قوته، ولكن ينظر إلى نصر الله ـ عز وجل ـ فيسأل الله النصر والعزة، ويسعى بأسباب النصر والعزة، بقوة الإيمان والعمل الصالح.

٤ـ أن القتال المضمون الانتصار فيه هو القتال في سبيل الله، وهو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، وأما القتال للعصبية، أو الوطنية، أو القومية وما أشبه ذلك فليس في سبيل الله، اللهم إلا أن يكون الإنسان يقاتل للدفاع عن وطنه الإسلامي باعتباره وطنًا إسلاميًّا، فيقاتل حماية للإسلام في هذا الوطن، فهذا يكون في سبيل الله.

٥ـ أن التأييد بالنصر لا يطلب إلا من الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾.

٦ـ إثبات المشيئة لله ـ تعالى ـ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ ﴾، ولكن هل هذه المشيئة مشيئة مطلقة مجردة؟ لا، هذه المشيئة لها سبب بيَّنه الله في القرآن فقال: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، فذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ أربعة شروط: ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾، ولا يمكن أن يمكَّن لهم في الأرض إلا إذا كانوا يعبدونه مخلصين له الدين، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾ [النور: ٥٥].

٧ـ أنه ينبغي للإنسان أن يعتبر ويتبصر في آيات الله ـ عز وجل ـ الكونية، وهي التي يقدرها الله ـ عز وجل ـ في الخلق، والشرعية وهي التي يشرعها لعباده، فتأمل يا أخي في آيات الله، تأمل في شريعة الله ولا سيما في شريعة محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ التي شرعها الله له تجدها أكمل ما يكون من الشرائع، وأنفع ما يكون للقلوب، وأصلح ما

يكون للأبدان، وأقوم ما يكون للبلدان، شريعة كاملة من كل وجه، وفي الآيات الكونية تجد العبر، تجد نخلتين في أرض واحدة تسقيان بماء واحد وبينهما فرق عظيم في الثمرة وفي الشجرة، في هيئتها، في خوصها ورماحها وغير ذلك، ثم تجد البقعة الصغيرة؛ من الأرض فيها أشجار مختلفة في شكل أوراقها، وفي لون أزهارها مما يدل على أن الخالق ـ عز وجل ـ على كل شيء قدير.

تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى آثـار ما صنـع المليـك
عيون من لجيـن شاخصـات	بأبصـار هي الذهب السبيك
على قطب الزبرجد شاهدات	بـأن الله ليـس لـه شريـك

٨- أنه لا يعتبر إلا ذوو البصائر، أما أهل الغفلة فيفوتهم الاعتبار؛ لقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: آية ١٤].

﴿زُيِّنَ﴾؛ أي: حُسن للناس هذا الشيء، والمُزَيِّنُ هو الله ـ عز وجل ـ، وإنما بُني الفعل لما لم يسم فاعله للعلم بالفاعل، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨] أي: خلقه الله ـ عز وجل ـ.

وقوله: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ أي: حب الملذات وما تميل إليه نفوسهم ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ ستة أشياء كلها محببة للناس مزينة لهم، ولكنهم مختلفون فيها، منهم من يغلب في حقه جانب النساء، ومنهم من يغلب في حقه جانب الخيل، وهكذا، وبدأ بالنساء؛ لأنهن أعظم فتنة وأضر وأخطر. قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[1]، وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فإن فتنة النساء عظيمة، ولذلك لما فتن الكفار بالنساء وجعلوهن السيدات، شاعت الفواحش فيهم، والصحبة غير البريئة، وحصل الشر والفساد.

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾: وهم ذكور الذرية، ولم يذكر البنات؛ لأن البنات لا يفتتن بهن الرجال من حيث هي بنت ولا يفتخرون بهن.

﴿وَٱلْقَنَـٰطِيرِ﴾: جمع قنطار، وهو المال الكثير.

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ﴾: وهي الدنانير.

﴿وَٱلْفِضَّةِ﴾: وهي الدراهم، وربما يشمل ذلك الحلي ونحوه.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾؛ أي: الموضوع عليها علامة تدل على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٥٠٩٦)، ومسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، رقم (٢٧٤٠).

جودتها وقوتها وسرعة عَدْوِهَا وكرِّها وفرِّها.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: وهي الإبل والبقر والغنم.

﴿وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾: وهي الزروع.

كلٌّ يتفاخر بما يناسبه من هذه الأشياء الستة: النساء، البنين، القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث.

ولكن هل هذه الأشياء باقية؟ وهل أهلها باقون لها؟

الجواب: اسمعه من الرب ـ عز وجل ـ: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: شيء يتمتع به الإنسان في دنياه فقط، وقد قال الله ـ عز وجل ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ وهي الحياة التي نحياها الآن، وسماها الله دنيا لوجهين:

الأول: أنها قريبة، أقرب من الآخرة.

الثاني: أنها دنيئة حقيرة بالنسبة للآخرة حتى إن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ قال: «لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من

الدنيا وما فيها»[1] سوط مقدار ذراع أو نحوه خير من الدنيا وما فيها.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾؛أي: المآب الحسن، والمآب: ما يؤوب إليه الإنسان ويرجع إليه.

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ التحذير من الفتنة في هذه الأمور المتعلقة بالدنيا، يؤخذ هذا من سياق الآية.

٢ـ أن حب هذه الأشياء من طبيعة الإنسان، ولكن لا يعني هذا أن يقدم هذه الأشياء على مرضاة الله ـ عز وجل ـ.

٣ـ عظم فتنة النساء؛ لأنه ـ تعالى ـ قدَّمها على كل ما في الدنيا من الشهوات.

٤ـ التحذير من فتنة النساء ـ نسأل الله أن يعصمنا وإخواننا المسلمين منها.

٥ـ جشع الإنسان وطمع الإنسان في اقتناء الأمول؛ لأنه قال: ﴿وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ أي: المكدسة، المحفوظة بربطها وشدٍّ بعضها على بعض، وهذا يدل على عناية الإنسان بجمع المال والمحافظة عليه.

٦ـ أن الذهب والفضة معدنان كريمان تتعلق بهما النفوس، ولذلك

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٥١٣٥)، والدارمي رقم (٢٨٢٠).

تجد تعلق النفوس بالذهب والفضة أقوى من تعلقها بغيرهما من المعادن ولو كان ذلك المعدن أغلى منهما، وهذا شيء مجبول عليه بنو آدم.

٧ـ الإشارة إلى الخيل، والمفاخرة بها، ولهذا تكون معلمة لها علامات تدل على جودتها والمفاخرة بها. وكذلك يقال في الأنعام التي هي: الإبل والبقر والغنم.

٨ـ الإشارة إلى أن الإنسان حارث، وهو كذلك، الإنسان حارث عامل، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ «**أحب الأسماء إلى الله عبدالله وعبدالرحمن، وأصدقها حارث وهمام**»[1].

٩ـ التزهيد في هذه الأمور، وأنها فانية زائلة، ولكن ما أحسن أن تكون وسيلة لمرضاة الله ـ عز وجل ـ، فالمرأة الصالحة عند الرجل الصالح مطلوبة، والتزوج مأمور به إما وجوبًا وإما استحبابًا بالشروط المعروفة عند العلماء، وكذلك البنون قد يكونون صالحين فينفعون والديهم في الحياة وبعد الممات، وكذلك الخيل قد تكون مما يُجاهد عليها في سبيل الله، وكذلك الإبل والبقر والغنم قد تكون مما يتقرب إلى الله ـ تعالى ـ بذبحه كالهدايا والضحايا والعقائق، وكذلك الحرث إذا لم يصد

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠) والترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء ما يستحب من الأسماء، رقم (٢٨٣٣)، والنسائي، كتاب الخيل، باب ما يستحب من شية الخيل، رقم (٣٥٦٥) وابن ماجه، كتاب الأدب، باب ما يستحب من الأسماء، رقم (٣٧٢٨).

عن ذكر الله، وصار الإنسان يحرث ابتغاء فضل الله والاستغناء عن عباد الله، فإنه محمود، تنتفع به حتى الطيور وحتى الزواحف من الظباء والأرانب وغيرها.

١٠ ـ أن حسن المآب حقيقة هو في الآخرة عند الله ـ عز وجل ـ كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[آل عمران: ١٥].

﴿قُلْ﴾؛ أي: قل يا محمد، ويجوز أن نقول: إنها عامة في كل داع إلى الله ـ عز وجل ـ أي: قل أيها الداعي إلى الله ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ والاستفهام للتشويق.

﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾: أؤخبركم، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الصف: ١٠].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه ما سبق من الأمور الستة التي زينت للناس، بل التي زين للناس حبها.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هذا موضع بيان الخير، ويجوز أن

تكون ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ متعلقة بـ ﴿خير﴾؛ أي: بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم، و ﴿جَنَّـٰتٌ﴾ هي بيان ذلك الخير، ولا يختلف المعنى.

﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ أي: اتقوا محارم الله، وأجمع ما قيل في التقوى: أنها توقي عذاب الله ـ تعالى ـ بامتثال أمره واجتناب نهيه على بصيرة.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ خصَّ ربوبيته بهم؛ لأنها ربوبية خاصة أوصلتهم إلى هذا المكان العظيم.

﴿جَنَّـٰتٌ﴾؛ أي: جنات إقامة، والمراد بها الجنات التي أعدها الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اللهم اجعلنا من ساكنيها يا رب العالمين.

﴿جَنَّـٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾؛ أي: تسيل.

﴿مِن تَحۡتِهَا﴾؛ أي: من تحت قصورها وأشجارها.

والأنهار أربعة ذكرها الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَـٰرٌ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنۡهَـٰرٌ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين أبدًا، وقد جاء التصريح في مواضع

عديدة من القرآن الكريم.

﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ معطوفة على ﴿جَنَّٰتٌ﴾، وخصَّها بالذكر لأنها ألذ شيء يكون في الجنة مما يتمتع به الناس، وأعظم من ذلك النظر إلى وجه الله الكريم ـ اللهم لا تحرمنا إياه.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾؛ أي: مطهرة من الأنجاس، فلا بول ولا غائط ولا عرق منتن ولا حيض ولا شيء، ومطهرة أيضًا من الكراهية لأزواجهن والبغضاء، ومطهرة من النشوز والتكره للزوج وما أشبه ذلك، فهي مطهرة من كل شيء.

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ معطوفة على ﴿جَنَّٰتٌ﴾ أي: رضا من الله ـ عز وجل ـ، يحل الله ـ عز وجل ـ عليهم رضاه فلا يسخط عليهم أبدًا، وهذا من أعظم النعيم، وفوقه النظر إلى وجه الله ـ عز وجل ـ.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: عليم بهم وبمن يستحق هذا الجزاء ومن لا يستحق.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ ـ أمر النبي ﷺ أن يبين للناس ما هو خير من ملاذ الدنيا وتشويقهم إلى ذلك بصيغة الاستفهام ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾.

٢ ـ أنه يجوز المقارنة بين شيئين مع بُعد ما بينهما؛ لقوله: ﴿بِخَيْرٍ مِّن

ذَٰلِكُمْۚ ﴾ وقد قال النبي ﷺ: «لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[1] بل أبلغ من ذلك قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٤]، فإن المفضل عليه في هذه الآية ليس فيه خير؛ لأن معنى الآية: أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًّا من أهل النار، وأهل النار لا خير في مستقرهم ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ وأبلغ من هذا قول الله ـ تعالى ـ متحديًا المشركين: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٥٩].

٣ـ أن المتقين لهم هذا الجزاء العظيم، هذه الجنات؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ تقديم الخبر على المبتدأ يدل على الاختصاص، أي: أن هذه الجنات لا تكون إلا للمتقين.

٤ـ علو منزلة الجنة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لأن الله ـ تعالى ـ فوق كل شيء، فإذا كانت هذه الجنات عند الله دلَّ ذلك على علوها، ويؤيدها قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين: ١٨]، وأخبر النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: أن الفردوس أعلى الجنة، وأن منه تفجر أنهار الجنة، وأن سقفه عرش الرب ـ تبارك وتعالى ـ[2].

٥ـ أن الجنات متنوعة، لقوله: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾،

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم (٢٧٩٠).

وجه هذا أنها جاءت بصيغة الجمع ﴿جَنَّتَانِ﴾،ويدل على تنوعها قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن: ٤٦ ـ ٦٢]، وأخبر النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «أن جنتين من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتين من فضة آنيتهما وما فيهما»(١).

٦ـأن الجنة ذات أشجار وقصور؛ لقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

٧ـأن أهل الجنة مخلدون فيها، وقد أخبر الله عن التأبيد في آيات متعددة، ومع كونهم مخلدين فيها ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف: ١٠٨]؛ أي: تحولًا؛ لأن كل واحد منهم قانع بما أعطيه من فضل الله، وكل واحد منهم لا يرى أن غيره أفضل منه من حيث النعيم وإن كان يرى أنه أفضل منه من حيث الدرجات، كما أخبر النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن أصحاب الجنة يتراءون الغرف يعني العليا ـ كما تتراءون الكوكب الدريَّ الغابر في الأفق قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم. قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»(٢). اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ رقم (٤٨٧٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، رقم (١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٥٦)، ومسلم، كتاب الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣٠).

٨ـ أن في الجنات أنهارًا متعددة، وقد جاء في سورة القتال ـ أو سورة محمد وهي سورة واحدة، اسمان لمسمى واحد ـ أن أنهار الجنة أربعة أنواع: ماء غير آسن، لبن لم يتغير طعمه، خمر لذة للشاربين، عسل مصفى.

٩ـ خلود أهل الجنة فيها، والخلود هذا أبدي بإجماع أهل السنة، قال الله ـ تعالى ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨]، أي: غير مقطوع.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٦].

هذه صفة لقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾، ويجوز أن تكون خبر مبتدإٍ محذوف، أي: هم الذين يقولون، يقولون بألسنتهم معتقدين ذلك بقلوبهم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ﴾؛ أي: يا ربنا.

﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾؛ أي: أيقنا وأقررنا بكل ما يجب الإيمان به، وقد بيَّن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أركان الإيمان في قوله حين سأله جبريل ـ عليه السلام ـ قال: ما الإيمان؟ أو قال: أخبرني عن الإيمان،

قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»[١].

﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ الفاء هنا عاطفة وتفيد السببية؛ أي: فبسبب إيماننا فاغفر لنا، فالإيمان من أسباب المغفرة.

﴿ذُنُوبَنَا﴾ الذنوب هي الآثام التي ارتكبها العبد، ومغفرتها أن الله يسترها عليك في الدنيا والآخرة، ويقيك من عذابها فهو ستر ووقاية.

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ أي: اجعل بيننا وبينه وقاية، والنار هي الدار التي أعدها الله ـ عز وجل ـ للكافرين، وفيها من أنواع العذاب ما تنخلع له القلوب ـ أجارنا الله وإياكم منها ـ.

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة منها:

١ ـ التوسل عند الدعاء بربوبية الله، أي: أن تقول: يا رب، أو يا ربنا، أو رب؛ وذلك أن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية؛ لأن الربَّ هو الخالق المالك المدبر لجميع الأمور.

٢ ـ التوسل بالإيمان بالله وبما يجب الإيمان به إلى مغفرة الذنوب، أي: التوسل بالأعمال الصالحة للإيمان؛ لأن الإيمان سبب للمغفرة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو؟ رقم (٩).

وهل هناك توسل بغير الإيمان بالله؟

الجواب: نعم، التوسل نوعان: نوع محرم، ونوع جائز.فالنوع المحرم أن يتوسل الإنسان إلى الله ـ تعالى ـ بمعبوداته التي يعبدها من دون الله ـ عز وجل ـ، وهذا شرك؛ لأنهم صرفوا العبادة لغير الله ـ عز وجل ـ، وصرف العبادة لغير الله شرك أكبر مخرج عن الملة، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]؛ أي: يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، والحقيقة أنها لن تقربهم إلى الله بل تبعدهم من الله لأنهم مشركون، ومن التوسل المحرم أن يتوسل الإنسان بالنبي ﷺ أي: بذاته، وذلك لأن التوسل بذاته لا يفيد شيئًا إذ إن ذات النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وإن كانت في أعلى منزلة من منازل البشر لكنها لا تفيد إلا النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ولا تنفع أحدًا يتوسل بها، وإلا لتوسل بها أقرب الناس إليه من الكفار، ويدلك على أن الذات ـ ذات النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لا يتوسل بها ولا ينتفع بها أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ طلب من ربِّه أن يستغفر لأمه فلم يأذن له، وطلب منه أن يزور قبرها فأذن له[1]، ويدل لذلك أيضًا أن الصحابة لم يكونوا يتوسلون بذات النبي ـ صلى الله عليه

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي و ربه ـ عز وجل ـ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦).

وعلى آله وسلم ـ ما منهم أحد قال: اللهم إنني أسألك بنبيك أن تغفر لي، أبدًا لا في حياته ولا في مماته، وأما حديث الأعمى الذي جاء يطلب من النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن يرد عليه بصره، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول: اللهم إنني أسألك بنبيك نبي الرحمة... إلخ[1]. فهذا إن صحَّ الحديث فله وجهان:

الأول: أسألك بنبيك أي: بإيماني به وتصديقي إياه واتخاذي إياه أسوة حسنة.

الثاني: أسألك أن يدعو لي نبيك، والتوسل بدعاء النبي ﷺ أي: أن تطلب من النبي ﷺ أن يدعو لك، هذا أمر جائز ورد عمومًا وخصوصًا، أما وروده عمومًا فإن رجلًا دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، فرفع يديه ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ورفع الناس أيديهم وقال: «اللهم أغثنا»، فما نزل من على المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته، وبقي المطر أسبوعًا كاملًا، وفي الجمعة الأخرى دخل الرجل أو رجل آخر فقال: يا رسول الله، غرق المال وتهدم البناء فادع الله يمسكها عنا، فرفع يديه وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٦٧٨٩)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب رقم (١١٨)، حديث رقم: (٣٥٧٨)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في صلاة الحاجة، رقم (١٣٨٥).

وبطون الأودية ومنابت الشجر» فانفرجت عن المدينة وصار المطر حولها[1].

هذا توسل للعموم، أما للخصوص فإن النبي ﷺ رأى أمته وفيهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة ابن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله يجعلني منهم فقال: «أنت منهم»[2]، وله أمثال.

إذن فقوله: «أسألك بنبيك نبي الرحمة» له وجهان لا غير، إما أن المعنى أسألك بالإيمان به، فيكون هذا من التوسل بالإيمان كما في هذه الآية، وإما أتوسل إليك بدعائه أي: أن يدعو لي، والتوسل بدعائه جائز، لكن هذا الأخير في حياته فقط، أما بعد مماته فإنه لا يجوز أن يتوسل الإنسان بدعاء الرسول؛ لأن الرسول ﷺ قد انقطع عمله، فإنه ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع، به أو ولد صالح يدعو له»[3].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، رقم (١٠١٣)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢١٨).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

وأما ما ورد في قصة العتبى فإنه لا صحة له، سنده غير صحيح[١]، ولا يعتمد عليه، وأما الاستدلال بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤] فلا دلالة فيها أصلًا، لأن قوله: «إذ» للماضي وليست للمستقبل، أي: لم يقل الله ـ عز وجل ـ: «ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول»، فهي في قضية معينة ماضية فلا يصح أن يستدل بها على شيء مستقبل، ويدل لهذا أيضًا أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم أعلم الناس بأحوال رسول الله ﷺ، وأعلم الناس بشريعة الله، وأتقى الناس وأشدهم حبًّا لرسول الله ﷺ لم يكونوا يسألونه أن يستغفر لهم إذا أذنبوا، بل إنه لما حلَّ الجدب في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ واستسقى فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا، قم يا عباس فادع الله[٢]، فالصحابة أفقه الناس في دين الله، وأعرف الناس بأحوال رسول الله، ما قالوا: يا رسول الله، ادع أن يغيثنا، ولا فرق بين أن تقول: يا رسول الله، ادع أن يغفر لي وبين أن تقول: ادع الله أن يغيثني، كلها لا تجوز، وبهذا بطل استدلال من

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٥)، وقال: رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ذكر العباس بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ، رقم (٣٧١٠).

يقول: التوسل بذات النبي ﷺ المجردة جائز.

وأقول لإخواني: لماذا تصرون على هذه المسألة الخلافية، والتي الراجح فيها عدم الجواز ـ وتدعون ما هو مشروع وجائز ولا لبس فيه ولا اشتباه، ما دمتم تريدون أن الله يستجيب لكم فتوسلوا بشيء لا شبهة فيه، توسلوا بأي نوع من أنواع الطرق المباحة واسلموا من البلاء.

مثل ذلك أيضًا: التوسل بجاه النبي ﷺ، ولا شك أن النبي ﷺ أعظم البشر جاهًا عند الله، ولكن من الذي يستفيد بجاهه إلا الرسول ﷺ، فليس جاهه من أعمالنا حتى نستفيد به، بل هو منزلة عند الله ـ عز وجل ـ، والله ـ تعالى ـ قد وجهه، فكان يجيب دعاءه في حياته، وكان هو صاحب المقام المحمود يوم القيامة ولا إشكال في هذا.

بدأنا بذكر التوسل الممنوع، بذكر أدلته ـ التي أسأل الله ـ تعالى ـ أن يفتح بها قلوبًا غلفًا، ويسمع بها آذانًا صمًا، ويبصر بها أعينًا عميًا، وأسأل الله أن يحميني وإخواني من البدع ما ظهر منها وما بطن، وأسأل الله لي ولإخواني الهداية والتوفيق ـ أقول: بدأنا بهذا لأن الكلام عليه أقل من الكلام على التوسل المشروع.

أما التوسل الجائز فهو أنواع: التوسل بأسماء الله عمومًا، التوسل بصفات الله عمومًا، التوسل باسم خاص من أسماء الله، التوسل بصفة خاصة من صفات الله، التوسل بالإيمان بالله، التوسل بالعمل الصالح،

التوسل بذكر حال الداعي، التوسل بدعاء الرجل الصالح يعني أن تطلب منه أن يدعو لك.

التوسل بأسماء الله، تقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى أن تغفر لي وترحمني وما أشبه ذلك، دليل هذا حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فيمن أصابه هَمٌّ أو غَمٌّ فقال: «اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي»، إذا قاله أزال الله عنه كل الهم والغم[1] والشاهد من هذا قوله: (بكل اسم هو لك): فتوسل بكل أسماء الله.

وأما التوسل باسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ فأن تقول: «اللهم اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم»، فتوسلت باسمين خاصين، اللهم اغفر لي إنك أنت الغفور هذا مناسب للمغفرة، وإذا قلت: «اللهم اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» هذا توسل باسمين مناسبين لما تدعو الله إياه.

الثالث: التوسل إلى الله بكل صفة من صفاته، مثل أن تقول:

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٣٧٠٤)، وأبو يعلى رقم (٥٢٩٧)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٣٥٢).

«اللهم إني أسألك بصفاتك العليا التي هي أكمل الصفات أن تدلني على الخير وتوفقني للعمل به».

الرابع: التوسل إلى الله بصفة من صفاته - صفة واحدة أو صفتين - المهم أنه شيء مخصوص من الصفات، كما في الحديث: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي».

الخامس: التوسل إلى الله - تعالى - بأفعاله، ومنه الدعاء في التشهد الأخير: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»(١) أي: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فصلِّ على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد.

السادس: التوسل إلى الله - تعالى - بالإيمان، ومنه هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٣٧٠)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي و بعد التشهد، رقم (٤٠٦).

السابع: التوسل إلى الله - تعالى - بالعمل الصالح، ومنه حديث الثلاثة[1]، الذين دخلوا غارًا فانطبقت عليهم الصخرة وعجزوا عن إزالتها، فتوسل كل واحد منهم بعمل صالح حتى انفرجت، توسل أحدهم بالبر التام لوالديه، والثاني بالعفة الكاملة، والثالث بالأمانة التامة.

الثامن: التوسل إلى الله - تعالى - بذكر حال الداعي، ومنه قول موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤]، وقد اجتمع التوسل بحال الداعي وصفة المدعو أو اسمه في دعاء أيوب فقال: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

التاسع: التوسل إلى الله - تعالى - بطلب الدعاء ممن ترجى إجابته من عباد الله الصالحين، وهذا على نوعين عام وخاص، أي أن طالب دعاء الغير، إما أن يكون طلبه عامًّا لجميع الناس أو خاصًّا به.

مثال الأول: أن رجلًا دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب الناس فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، فرفع النبي ﷺ والناس معه فقال: «اللهم أغثنا» ثلاث مرات. فأغاثهم الله - عز وجل -، ولم ينزل - عليه الصلاة والسلام - من المنبر إلا والمطر

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٦٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣).

يتحادر على لحيته[1].

ومثال الخاص: أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - حدَّث أن من أمته سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «أنت منهم»[2].

هذا ما حضرني الآن من أقسام التوسل الجائز، بقي أن يقال: هل من المشروع أن يطلب الإنسان من غيره أن يدعو له؟

والجواب: لا، بل ادع الله أنت بنفسك حتى تظهر افتقارك إلى الله - عز وجل - وحاجتك إلى الإجابة، وفي نفس الوقت الدعاء عبادة، وأنت إذا طلبت من غيرك أن يدعو لك تعلق قلبك به وربما يقول لك الشيطان: لا تدع الله، أنت أوصيت فلانًا الصالح أن يدعو لك وكفى، فلا تسأل أحدًا أن يدعو لك، ادع الله أنت. قال الله - تعالى -: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] ولم يقل: اسألوا عبادي الصالحين أن يدعوا لكم.

فإن قال قائل: كيف تجيبون عن الحديث أن النبي ﷺ قال

(١) تقدم تخريجه ص (٤٢١).
(٢) تقدم تخريجه ص (٤٢٢).

لعمر: «يا أخي لا تنسنا من دعائك»[١]؟

فالجواب: أن هذا حديث ليس بصحيح، وما ليس بصحيح فليس بحجة.

فإن قال قائل: ما تقولون في أن النبي ﷺ أمر من رأى أويس القرني أن يطلب منه أن يستغفر له[٢]؟

فالجواب: أن هذا خاص بهذا الرجل، وإلا فنحن نعلم أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وكثيرًا من الصحابة أفضل من أويس وهم في الصحبة كلهم أفضل من أويس، ومع ذلك لم يقل النبي ﷺ اطلبوا من أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أو ابن مسعود أو ابن عباس أو غيرهم من ذوي الفضل من الصحابة أن يدعو لكم، وما كان خاصًّا بشخص فإنه لا يتعداه إلى غيره، على أنه ربما يكون لهذا الحديث معنى آخر لمن تأمله.

أخي المسلم: عليك بدعاء الله ـ عز وجل ـ، عليك بالتوسل بالأسباب التي جعلها الله وسيلة ولا تقحم نفسك في أمور مشتبهة مع وجود أمور واضحة والحمد لله، فإن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٩٦)، والبزار (١/ ٢٣١) وأبو داود الطيالسي (١/ ٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني ـ رضي الله عنه ـ، رقم (٢٥٤٢).

وسلم ـ يقول: «من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»(١).

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ في وصف المتقين بعد أوصاف سبقت: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

خمس صفات.

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: الذين يصبرون على قضاء الله وقدره وعلى أحكام الله، وقد قسَّم العلماء ـ رحمهم الله ـ الصبر إلى ثلاثة أقسام:

أعلاها وأفضلها الصبر على طاعة الله، بألا يتضجر من الطاعة ولا يستثقلها، بل تكون محبوبة إليه راغبًا فيها ينتظر الطاعة تلو الطاعة، إذا خرج من المسجد من صلاة انتظر الصلاة الأخرى، إذا تصدق بشيء انتظر الصدقة بشيء آخر، إذا قام ببرٍّ انتظر البر في وقت آخر، المهم أنه صابر على طاعة الله لا يضجر ولا يسأم ولا يقول: ليته لم تفرض علينا.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

الثاني: الصبر عن معصية الله، بأن يحبس نفسه عن المعاصي صغائرها وكبائرها، فلا يتضجر من منعه إياها، بل يرى أن منعه من هذه المعاصي هو خيره وسعادته ونماء أخلاقه، فيصبر عن الفواحش، وقد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أنه قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» [1] الشاهد قوله: «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»، ومن هذا صبر يوسف - عليه الصلاة والسلام - حين دعته امرأة العزيز إلى نفسها فأبى - عليه الصلاة والسلام - وقال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة، التي لا تناسب الإنسان من الأمراض وفَقْد الأحبة، وفَقْد المال، والخوف، وغير ذلك، فيصبر على أقدار الله، فلا يعصي الله - تبارك وتعالى - ولا يتضجر مما قدر الله - تعالى -،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

ولا يأتي بأقوال محرمة، كقولهم في الجاهلية: وا ثبوراه، وانقطاع ظهراه، ولا يأتي بأفعال محرمة كفعل أهل الجاهلية فيشق الثوب، ويلطم الخد، وينتف الشعر تسخطًا من أقدار الله، وأعظم من ذلك وأقبحه أولئك الذين ينتحرون جزعًا من المصائب وتخلصًا منها، فإنهم والله كالمستجير من الرمضاء بالنار! إنهم يعذبون في نار جهنم خالدين فيها مخلدين أبدًا ـ والعياذ بالله ـ كما جاء في الحديث، والإنسان يجب عليه أن يكون مؤمنًا عاقلًا، فيؤمن أن هذه المصيبة من عند الله ـ عز وجل ـ فيرضى ويسلِّم، قال علقمة ـ وهو أحد أصحاب عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾: هو الرجل تصيبه المصيبه فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

والناس مع المصيبة أقسام:

قسم جزع، يجزع ويتسخط ويرى أن ربه ظالمه ـ والعياذ بالله ـ فهذا خاسر؛ لأن مصيبته لن ترتفع بهذا، ما كان فإنه لا يرتفع إلا بمشيئة الله، وهذا خسر الدنيا والآخرة.

القسم الثاني: صابر، هو يتألم ويود أن لم تكن هذه المصيبة، لكن ليس في قلبه شيء على ربه، ولا يتكلم بلسانه بما لا يجوز، ولا يفعل فعلًا حرامًا، فهو صابر منتظر للفرج، وهذا له الثواب إذا احتسب الأجر على الله ـ عز وجل ـ.

القسم الثالث: راضٍ بقضاء الله، والفرق بين الراضي والصابر، أن الراضي يستوي عنده المصيبة وعدمها ما دام الشيء كائنًا بقضاء الله وقدره، وقد قال النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له»[1].

القسم الرابع: الشاكر. بأن يرضى بقضاء الله وقدره، ويشكر الله على هذه المصيبة بالنسبة لما هو أعظم، فإذا أصيب بفَقْد ولد من أولاده قال: الحمد لله أنه لم يفقد ولدًا آخر، ويشكر الله على وجه آخر أن هذه المصيبة التي لا بد أن تقع تكفر بها السيئات، وترفع بها الدرجات مع الاحتساب، فيشكر الله على ما يحصل من هذه المصيبة، لا على المصيبة نفسها، إلا إذا وازنها بمصيبة أكبر فهو يشكر الله أن لم تكن المصيبة الكبرى.

الخلاصة أن كلمة ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تشمل الصابر على طاعة الله، والصابر عن معصية الله، والصابر على أقدار الله المؤلمة.

الوصف الثاني قال: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾: الصادقين في أقوالهم، فلا يقولون الكذب، الصادقين بأفعالهم فلا تكون مخالفة لما في قلوبهم، فإن مخالفة الفعل للقلب إذا كان الفعل رئاء وسمعة من النفاق، فهؤلاء صادقون في أقوالهم لا يكذبون، وهم صادقون في معاملتهم مع الله،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

مخلصون له، متبعون لرسوله ﷺ.

الوصف الثالث: ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ﴾: القانت: هو المديم للطاعة على وجه الخشوع والإنابة والإخبات لله ـ عز وجل ـ، هم قانتون في صلاتهم، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، قانتون في جميع عباداتهم كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

الوصف الرابع: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ يعني: الذين ينفقون أموالهم فيما يرضي الله ـ عز وجل ـ، فليس عندهم أشر ولا بطر ولا بخل وشح، بل هم ينفقون أموالهم في سبيل الله ابتغاء رضوان الله. كالزكاة وصرف الأموال في الحج، وصرفها في الإنفاق على الأقارب والصدقات على عامة المسلمين وما أشبه ذلك.

الوصف الخامس: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ يعني: الذين يستغفرون الله في آخر الليل؛ لأن آخر الليل مظنة إجابة الدعاء، وقد ثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: أن الله ـ تعالى ـ ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له[1]. قال أهل العلم: إنهم

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل، رقم (٦٣٢١)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

يقومون لله ـ تعالى ـ ويتهجدون ثم يستغفرون الله ـ تعالى ـ فيختمون تهجدهم بالاستغفار خوفًا من أن يكونوا قد قصروا.

و«الأسْحَار»: جمع سحر، وهو آخر الليل.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾: الشهادة هي الإخبار بالشيء عن يقين، وشهادة الله ـ تبارك وتعالى ـ أكبر شهادة، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٩]، فلا شهادة فوق شهادة الله ـ عز وجل ـ. فما هو المشهود به؟ المشهود به هو: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فما أعظم الشاهد، وما أعظم الشهادة، وما أعظم المشهود به.

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حق إلا هو ـ عز وجل ـ، فكل المعبودات من دونه فهي باطلة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، فمن دعا ملكًا من الملائكة، أو رسولًا من الرسل، أو نبيًّا من الأنبياء، أو صديقًا من الصديقين، أو شهيدًا من الشهداء، أو وليًّا من الأولياء، أو صالحًا من الصلحاء، فقد أشرك بالله؛ لأنه جعل لله إلهًا آخر، وتعلق بباطل لا ينفعه، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ

لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦]، فمن ذهب إلى قبر شخص وقال: يا سيدي، يا مولاي! إن زوجتي لا تنجب فاجعلها تنجب، فقد كفر وأشرك وتعلق بما لا ينفعه، ومن ذهب إلى قبر أحد فقال: يا مولاي، إني فقير فارزقني، فقد كفر وأشرك ولن ينفعه ذلك، ومن ذهب إلى قبر أحد وقال: يا مولاي إني مريض فاشفني. فقد كفر وأشرك ولن ينفعه ذلك، ومن سجد لصنم أو ركع لصنم فقد أشرك وكفر، ولن ينفعه ذلك، كل من صرف شيئًا من العبادة لغير الله أو دعا غير الله فيما لا يقدر عليه غير الله فإنه مشرك كافر.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: وشهد الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأفضلهم جبريل، شهدوا كلهم أن لا إله إلا الله.

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾: يعني الذين آتاهم الله العلم، ويدخل فيهم الأنبياء والعلماء، لأن الأنبياء من أولي العلم، قال الله ـ تعالى ـ لنبيه

ﷺ،﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ ﴾؛ أي: شهدوا أنه لا إله إلا هو، وأنه ـ عز وجل ـ قائم بالقسط أي بالعدل، لن يظلم أحدًا، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١٢٠] لا يخاف ظلمًا بزيادة السيئات، ولا هضمًا بنقصان الحسنات، فهو ـ سبحانه ـ قائم بالقسط أي بالعدل.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾هذا تأكيد بعد الشهادة، والمعنى: لا معبود حق إلا هو ـ عز وجل ـ.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: ذو العزة، وهي الغلبة التامة، فهو العزيز فلن يغلبه أحد، يقول الشاعر الجاهلي.

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وقال ابن القيم في «النونية»:

وهو العزيز فلن يرام جنابه أنى يرام جناب ذي السلطان

أي الله ـ عز وجل ـ

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛أي: الذي له الحكم التام، لا معقب لحكمه، ولا

شريك له في ملكه وحكمه، وهو ذو الحكمة البالغة، فكـل مـا قـدره الله فهو على وفق الحكمة، وكل ما شرعه الله فهو على وفق الحكمة، لا تقل مثلًا: لماذا قدر الله الكفر؟ نقول: لحكمة عظيمة، لـو لا الكفـر مـا عـرف الإيمان، لو كان الناس كلهم مؤمنين فأين الكـافر؟! ولا نعـرف أن هـذا إيمان؛ لأن النـاس كلهـم عـلى هـذا، ولـو لا الكفـر مـا قـام عَلَـم الجهـاد، ولولا الكفر ما حصل الابتلاء، ولولا الكفـر لكـان خلـق جهـنم عبثًـا، وهلمَّ جرّا.

لو قال قائل: ما الحكمـة مـن خلـق إبلـيس؟ قلـنـا: لحكمـة عظيمـة، ليبتلي الله الخلق، من يتبع إبليس ومن يتبع الحـق، ولـو لا هـذا مـا عـرف الصادق من غيره.

لماذا قدر الله المرض؟ لحكمة عظيمة، لولا المرض ما عرف الإنسان الصحة، ولا عرف قدر نعمته عليه بالصحة.

لماذا منع الله المطر في وقته؟ لحكمة، حتـى يلجـأ النـاس إلى الله ـ عـز وجل ـ ويعرفوا أنه لن يفرج كربـاتهم إلا خـالقهم ـ عـز وجـل ـ، وهلـم جرا، وقد قيل: بضدها تتبين الأشياء.

فالمهم أنه يجب عليك أن تؤمن بأن كل ما قدره الله من خير أو شر، أمن ورخاء، خوف أو طمأنينة، فهو لحكمة.

كذلك بالنسبة للشرائع، مثلًا: لمـاذا أحـل الله البيـع وحـرم الربـا؟

لحكمة عظيمة، لما يترتب على الربا من المفاسد، لماذا حرم الله السفاح ـ وهو الزنا ـ وأحل النكاح؟ لحكمة عظيمة، ولولا هذا لاختلطت الأنساب، ولم يعرف الإنسان أباه من غيره.

فعلينا أن نؤمن بأن الله حكيم في كل شيء فيما خلق وفيما شرع؛ لأن الله وصف نفسه بذلك فقال: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وفي الجمع بين العزة والحكمة فائدة وهي أن حكم الله ـ عز وجل ـ كان عن عزة وقدرة وسلطان، وأن عزة الله مقرونة بالحكمة، بخلاف عزة غيره، فقد يكون الإنسان إذا عَز وغلب متصرفًا تصرفًا غير مناسب، تغره الغلبة فيتصرف تصرفًا أحمق، أما الله عز وجل فعزته مقرونة بالحكمة، ولهذا يقرن الله ـ تعالى ـ كثيرًا بين هذين الاسمين الكريمين، وهما ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾؛ يعني: الدين المقبول عقيدة وقولًا وعملًا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وغير الإسلام لا يقبل، والإسلام بالمعنى العام هو الاستسلام لله ـ تبارك وتعالى ـ وطاعته بفعل أوامره واجتناب

نواهيه، وهذا يشمل كل شريعة كانت قائمة غير منسوخة، فالمؤمنون بنوح مسلمون، وبإبراهيم مسلمون، وبموسى مسلمون، وبعيسى مسلمون، وبمحمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ مسلمون.

ولكن كل دين ينسخ ما قبله أو يكمل ما قبله، والدين الإسلامي الذي بعث به محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ناسخ لكل ما قبله، فلا دين مع دين محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولهذا قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان»[1] فلا يقام فيها كنيسة ومسجد، أو بيعة ومسجد، لا، بل المسجد فقط، لأن الجزيرة هي أم بلاد الإسلام، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، والإيمان يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها[2].

دين الإسلام بعد بعثة محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ هو الدين الذي جاء به محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لا غير، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ﴿دِينَكُمْ﴾؛ يعني: الذي نزلت فيه هذه الآية ـ وهو يوم عرفة في حجة الوداع ـ فقد نزلت هذه الآية على النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وهو واقف بعرفة.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١١٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الإيمان يأرز إلى المدينة، رقم (١٨٧٦)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، رقم (١٤٧).

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

﴿لَكُمۡ﴾ أيها المؤمنون بمحمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقال الله ـ عز وجل ـ في وصف القرآن: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: حاكمًا على الكتب السابقة كلها، فهو ناسخ لها.

والجملة ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ في اللغة العربية تفيد الحصر، وهو ـ أعني الحصر ـ إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، فكأنه قال: «ما الدين عند الله إلا الإسلام»،لكن جاءت إن للتوكيد، واستفيد الحصر من تعريف جزأي الجملة، «الدين، والإسلام» فالإسلام الخاص هو ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وهو ناسخ لجميع ما سبق من الأديان.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى، اختلفوا فمنهم من آمن، ومنهم من كفر.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾؛ أي: العلم الثابت المتيقن، وقد كانوا يعرفون النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ كما يعرفون أبناءهم، يعرفون ذلك بما ذكر من أوصافه في التوراة والإنجيل، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾

[الأعراف: ١٥٧].

فهم يعرفون أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ هو الرسول الحق كما يعرف الرجل ابنه، بعد ذلك اختلفوا، منهم من آمن، ومنهم من كفر، لكن ما الذي حملهم على هذا؟ الذي حملهم البغي والعدوان والحسد، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، قالوا: كيف يكون الرسول الذي بُشرنا به من العرب؟! لماذا لم يكن من بني إسرائيل؟ فحسدوهم على ذلك.

ثم قال ـ عز وجل ـ مبينًا حكم هؤلاء: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ من يكفر بآيات الله الدالة على شرعه وعلى صدق رسوله محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: فيحاسبه الله ـ عز وجل ـ، وما أسرع حساب الله، إذ ليس بين الإنسان وبين هذا الحساب إلا أن يموت، ولا يدري الإنسان متى يموت، ثم إذا مات ـ ولو عُمِّر ألف سنة ـ فكأنه لم يعش في الدنيا إلا ساعة واحدة، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقال ـ عز وجل ـ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] فما أسرع حساب الله ـ عز وجل ـ.

في هذه الآية حكم وأحكام منها:

١ ـ أنه لا دين عند الله سوى الإسلام، وهو الذي جاء به محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وعلى هذا فالأديان التي عليها اليهود والنصارى وغيرهما باطلة مردودة غير مقبولة عند الله ـ عز وجل ـ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٥٨].

وتوهم اليهود والنصارى أنهم على دين مقبول عند الله ـ الآن ـ وهم مكذبون بمحمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ما هو إلا أماني كاذبة، فإنهم ـ والله ـ ليسوا على شيء وليسوا على دين، كيف وقد كفروا بمحمد ﷺ؟!! ولهذا نقول: من زعم أن اليهود والنصارى اليوم على دين مقبول عند الله فإنه كافر كفرًا أكبر مخرجًا عن الملة، ولا تقولوا: إني شددت، أنا ليس بيدي التكفير أو رفع التكفير، التكفير حكم شرعي متلقى من الشرع، فكما أننا لا نملك أن نحلل أو نحرم فكذلك لا نملك أن نُكَفِّر أو لا نكفر، لكن أرأيتم رجلًا يقول: إن هؤلاء على دين مقبول ـ أعني اليهود والنصارى اليوم ـ والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ أفليس هذا هو مكذبًا لله؟! والمكذب لله ـ تعالى ـ كافر، ثم ماذا تقولون: إن الدين عند الله الإسلام فقط، فغيره ما هو دين، كيف نقول: إن غيره دين مقبول؟! أفليس هذا هو التكذيب بعينه؟! أنا أعجب من قوم الآن يداهنون غاية المداهنة

لأعداء الله من اليهود والنصارى وغيرهم فيقولون: هؤلاء أهل أديان سماوية، نعم دين اليهود دين سماوي حين كانت شريعتهم قائمة، أما وقد نسخت، فالذي شرعها أولًا هو الذي رفعها ثانيًا، وكذلك يقال في النصارى، وإننا بقولنا هذا لسنا أعداء للإنسانية بل نحن أولياء الإنسانية؛ لأننا نريد أن نحمل الإنسانية على دين الله الذي شرعه وقبله حتى يفلحوا في الدنيا والآخرة، ولهذا يروى عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أنه كان يخرج إلى الناس بعد أن بُعث، يخرج إلى منى ويقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»[1]، نحن لا نريد أن نبكت على هؤلاء اليهود والنصارى، بل نريد أن ندلهم على الحق الذي يفلحون به ويسعدون به، ويحيون به حياة طيبة، وهو اتباع محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، ولكننا مع ذلك نسلم بقضاء الله ونقول: لو شاء الله ما أشركوا، وأما أن نداهنهم ونقول: أنتم على الحق، أنتم أهل دين سماوي وما أشبه ذلك من العبارات التي يقولها من لا يفهم معناها، أو من لا قيمة للإسلام عنده، فالواجب البراءة من المشركين ومن شركهم ومن عبادتهم ومن دينهم، لكننا مع ذلك نشهد أن موسى من عند الله ومن أولي العزم، وأن عيسى من عند الله ومن أولي العزم، نشهد بذلك ونؤمن به، ونحن أحق بموسى منهم، وأحق بعيسى

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٥٥٩٣، ١٦١٦٧)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ٦١)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٨٢).

منهم، وأحق بإبراهيم منهم، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. هذا هو الواجب على كل مسلم، وهذا لا يمنع أن ننتفع بما عندهم من العلوم الدنيوية من علم الصنائع وعلم الزراعة وغير ذلك مما لا يوجب مودة لهم ولا موالاة لهم.

٢ـ أن من عمل عملًا يتعبد به لله على غير وفق الشرع فهو مردود؛ لأنه إذا لم يكن موافقًا للشرع لم يكن من الإسلام فلا يقبل، ولكن لا يعني ذلك أن فاعله يكفر؛ لأن هذا له تفاصيل معروفة عند أهل العلم، ويؤيد هذا الحكم قول النبي ﷺ «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[1] ويؤيده ما ثبت في الصحيحين أن رجلًا دخل المسجد فصلى صلاة لا يطمئن فيها، ثم جاء فسلَّم على النبي ﷺ فردَّ السلام مع أن الرجل صَلى صلاة غير مقبولة ثم قال له: «ارجع فصل فإنك لم تصل»، فرجع الرجل فصلى كصلاته الأولى، ثم جاء فسلَّم على النبي ﷺ فردَّ ـ عليه السلام ـ وقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» فرجع فصلى كالأولى، ثم أتى إلى النبي ﷺ فسلّم عليه فردَّ ـ عليه السلام ـ وقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» لأن صلاته ليست على وفق الشريعة، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا فعلّمني ـ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

هنا كلام موفق من هذا الرجل، لماذا؟

أولًا: أقسم بالذي بعثه بالحق ولم يقل والله؛ إشارة إلى أن ما يرشده إليه النبي ﷺ هو الحق وأنه من عند الله.

ثانيًا: ذكر نقص نفسه، وأنه محتاج إلى من يكمل نقصه، فقال: لا أحسن غير هذا؛ ليعذره النبي ﷺ وليرشده إلى الحق.

ثالثًا: قال: علِّمني، طلب من النبي ﷺ أن يعلمه. ومعلوم أن نبينا ﷺ سيعلمه لكن إذا جاء بطلب على شغف وانتظار صار أبلغ في النفس وأرسخ في القلب، فعلَّمه، قال: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تطمئن قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»[1].

الشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ: «فإنك لم تصلِّ»، أي: لم تصل صلاة مقبولة، وإلا فالرجل صَلى لكنها غير مقبولة؛ لأنها ليست على وفق الشريعة، وعلى هذا فما يحدثه أهل البدع من عبادات قولية أو فعلية يجب أن نعرضها على السنة، فإن كانت السنة تؤيدها فهي حق

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

بالسنة، وإن لم تكن تؤيدها فهي باطلة مردودة على صاحبها لا تزيده من الله إلا بُعدًا؛ لأن النبي ﷺ حذَّر من البدع وقال: «كل بدعة ضلالة»(١) قد يزين الشيطان لأهل البدع بدعهم، ويحدث في قلوبهم رقة، وفي أعينهم دمعة، ولكن ذلك لا ينفعهم؛ لأنهم على خلاف الشرع.

فإذا قال قائل: ما تقولون: هل الأصل في العبادات أن يتعبد الإنسان لله ـ تعالى ـ بما يستحسنه؟ أو الأصل في العبادات المنع والتحريم حتى يثبت أنها مشروعة من عند الله إما في الكتاب أو السنة أو الإجماع؟

الجواب: أن الأصل في العبادات المنع، فلا يتعبد لله إلا بما علمنا أنه شرعه أو غلب على ظننا أنه شرعه بمقتضى طرق الاستدلال، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] لو كان كل إنسان يستحسن شيئًا يتعبد لله به صار عبادة لتفرق الناس، وصار كل طائفة لهم دين، وكل أهل بلد لهم دين، وكل أهل زمان لهم دين، ومسخ الدين الإسلامي، لكن هنا قواعد.

وعلى هذا فلو رأيت شخصًا يتعبد لله ـ عز وجل ـ بخلاف ما تعرف أنه شرع قل له: لماذا تفعل كذا؟ لماذا تفعل كذا؟ هل هذا وارد؟ إذا قال: نعم وارد.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

نقـول: هـل ورد عـلى وجـه صـحيح؟ إن أثبـت ذلـك عـلى وجـه صحيح، قلنا: الحمد لله جزاك الله خيرًا، وزادك من التمسك بـدين الله، وأرشدتنا الآن إلى شيء كنا نجهله.

أما إذا كان ما أورده لا يصح عن النبي ﷺ أو كان يصح عنه لكنه فهمه على غير ما أراد الرسول ﷺ؛ فإننا لا نقبله، وما أكثر الأحاديث الموضوعة الباطلة التي يحتج بها بعض أهل البدع وهي لا أصل لها.

فعليك يا أخي بهذا الأصل، أي إنسان يتعبد لله بشيء قل لـه: ما الدليل؟ فإن أتى بدليل فعلى العين والرأس، ويجب علينا قبول ذلك، وإن لم يأت بدليل نصحناه وخوفناه من الله ـ عز وجل ـ وقلنا: لا تجعل نفسك شريكًا مع الله تشرع العبادة بدون إذن من الله، والواجب على كل مسلم تبين لـه الحق أن يتبعه، وتبين لـه الضلال أن يجتنبه، حتى يكون مسلمًا حقًّا مستسلمًا لله ـ عز وجل.

٣ـ أن أهل الكتاب المختلفين قد اختلفوا عن علم لا عن جهل، والمخالف عن علم أشر إثمًا من المخالف عن جهل، فالمخالف عن علم من قسم المغضوب عليهم، والمخالف عن جهل من قسم الضالين، والأول أشر لومًا وأعظم إثمًا.

٤ـ أن هؤلاء الذين خالفوا من أهل الكتاب لم يخالفوا عن صدق نية وحسن طوية، ولكنه البغي والعدوان والحسد.

٥- تهديد من يكفر بآيات الله بأن محاسبته قريبة فعليه ألا يتمادى، عليه أن يرجع إلى الإيمان بعد الكفر، إلى السنة بعد البدعة، إلى الطاعة بعد المعصية، قبل أن يفجأه الأجل ولا يتمكن، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

٦- إثبات محاسبة الله ـ عز وجل ـ للخلق، وقد بيَّن الله ـ تبارك وتعالى ـ كيف هذه المحاسبة فقال ـ جل وعلا ـ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٩] ـ أسأل الله أن يجعلنا جميعًا منهم ـ يحاسب حسابًا يسيرًا، وذلك بأن يخلو الله ـ عز وجل ـ بعبده ويقرره بذنوبه ويقول: فعلتَ كذا يوم كذا، وفعلتَ كذا يوم كذا، فإذا أقر، قال الله ـ تعالى ـ: «إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1]، اللهم اجعلنا من هؤلاء يا رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ رقم (٢٤٤١)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨).

أما الكفار - والعياذ بالله - فإنهم لا يحاسبون حساب من له حسنات وسيئات وينظر بينها، ولكنها تحصى عليهم أعمالهم ويوقفون عليها ويخزون بها، وينادى على رءوس الأشهاد ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[هود: ١٨].

٧ـ حث الإنسان على المبادرة بالتوبة؛ لأنه إذا علم أن الله سريع الحساب فسوف يخشى من وقوع الموت والمفاجأة فيسرع بالتوبة، ولا سيما التوبة من حقوق الآدميين؛ لأن حقوق الآدميين لابد أن تستوفى ولو من أعمال الإنسان الصالحة، فلذلك أحث إخواني الذين عليهم حقوق للناس من عمال أو جيران أو أقارب أو أزواج أن يبادروا بالخروج من هذه الحقوق قبل أن يفجأهم الموت وتبقى الحقوق تؤخذ من أعمالهم الصالحة كما قال النبي ﷺ لأصحابه ذات يوم «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه؛ أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

الخطاب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ للنبي ﷺ، والمحاجة هي المجادلة بالإدلاء بالحجة لغلبة الخصم، أي: إن حاجك هؤلاء المكذبون لك، فقل: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾، أي: وجهته إليه مستسلمًا لأمره راضيًا بحكمه ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ معطوفة على التاء في قوله: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ يعني: ومن اتبعني أسلم وجهه لله أيضًا، وهم الذين آمنوا برسوله محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ من العرب ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ .. الخ سمي اليهود والنصارى بالذين أوتوا الكتاب؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل على اليهود كتاب التوراة، وعلى النصارى كتاب الإنجيل، وما زال فيهما بقايا إلى أن بعث النبي ﷺ، وأما الأميون فهم العرب؛ لأنهم جهال، والجاهل ينسب للأم؛ لأن الإنسان إذا خرج من أمه خرج وهو لا يعلم شيئًا، كما قال الله ـ عز وجل ـ ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾: الاستفهام هنا بمعنى الأمر، أي: أسلموا، ويحتمل أن يكون للتقرير، أي: أَبَعْدَ هذا البيان تسلمون؟

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾؛ أي: الـذين أوتـوا الكتـاب والأميـون ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا﴾، أي: سلكوا طريق الهدى والرشاد.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ فإن الضرر على أنفسهم، وليس على النبي ﷺ من توليهم شيء، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد أديت و﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ولهـذا خـتم هـذه الآيـة بقولـه ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: علـيم بأحوالهم الظاهرة والباطنة.

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة منها:

١ ــ أن أهـل الكتـاب والمـشركين أيـضًا يحـاجون النبـي ﷺ أي يجادلونه، وأن هذا أمر كائن من أول الرسالة وسيستمر إلى آخرها.

٢ـ أنه لا بـأس في مجادلـة المشركين وأهـل الكتـاب لكـن بـشرط أن يكون عند الإنسان علم بما عليه الخصم، وعلم بـما هـو عليـه أيضًا مـن الحق. أما علمه بما عليه الخصم فلأجل أن يعرف معايبه ومن أين يأتيه، وأما العلم بما عنده فليكون عنده حجة قوية يفل بها الخصم.

٣ـ إعلان الإخلاص أمام هـؤلاء المحـاجين؛ لقولـه: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾.

٤ـ أن الوجه أشرف الأعضاء، ولهـذا يعـبر بـه عـن الـنفس؛ لقولـه:

﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾.

٥ـ أن المتبعين للنبي ﷺ مسلمون وجوههم لله كإمامهم ـ عليه الصلاة والسلام.

٦ـ فضيلة اتباع النبي ﷺ والتنويه بفضل متبعيه.

٧ـ أن يعرض طلب الإسلام على أهل الكتاب وعلى المشركين، وإن شئت فقل على أهل الكتاب وغيرهم ممن لا كتاب له، فيشمل المشرك والجاحد جحدًا تامًّا كالشيوعيين وغيرهم.

٨ـ أن من أسلم فقد اهتدى وسلك الطريق التي بها النجاة، ومفهوم الآية أن من لم يسلم لم يهتد، والرجل يفوته من الاهتداء بقدر ما فاته من الإسلام، وكلما أسلم الإنسان وجهه ازداد اهتداء بشريعة الله، قال الله ـ تعالى ـ ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

٩ـ أنه ليس على المسلم إلا البلاغ، فإن اهتدى المبلَّغ فهذا له وللمبلِّغ، وإن لم يهتد فعليه، فالمبلِّغ إذا قام بالواجب برئت ذمته.

١٠ـ أنه لابد للداعي إلى الله أن يبلغ بلاغًا تامًّا، فيسلك كل طريق يكون سببًا لهداية الخلق.

١١ـ أن الله ـ تعالى ـ بصير بعباده ـ جل وعلا ـ فهو الذي جعل منهم

الكـافر والمـؤمن، والمطيـع والعـاصي، والـبر والفـاجر؛ لأن حـالهم لا تستقيم إلا بهذا، فلولا الكفر لم يعرف الإيمان، ولولا المعصية ما عرفت الطاعة، ولولا هذا الاختلاف لم يكن هناك أمر بالمعروف ولا نهي عـن المنكر، ولولا هذا الاختلاف لم يكن هناك جهاد في سبيل الله، ولهذا قال الله ـ تعـالى ـ ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فلـه ـ جـل وعـلا ـ الحكمـة في اهتـداء المهتدي واستكبار المعتدي.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يجحدونها ولا يعترفون بها، قد يكونون متيقنين لها لكن يجحدون، كما قال الله ـ تعالى ـ في آل فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وآيات الله ـ تعالى ـ نوعان:

آيات كونية: وهي ما يتعلق بالمخلوقات.

آيات شرعية: وهي ما جاء به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: النبيون جمع نبي، وهو من أوحي إليه بشرع، فإن أمر بتبليغه فرسول، وإلا فنبي فقط.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ أي: بغير حق يبيح قتلهم، وهذا القيد يراد به التشنيع على قاتلي الأنبياء، أي: أنهم يقتلونهم بغير حق، ولا يراد به الاحتراز حتى يقال: إن قتل الأنبياء يكون بحق ويكون بغير حق.. كلا، بل إن قتل الأنبياء كله بغير حق، لكن هذا القيد لأجل التشنيع على هؤلاء وأنهم قتلوهم بغير حق في قتلهم، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، فإنه لا إثم ولا بغي بحق، لكن فيه التشنيع على هؤلاء الذين يبغون ويأثمون.

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ أي: ما لم ينزل به برهانًا ودليلًا، ومن المعلوم أنه لا يمكن أن يقوم برهان ودليل على الشرك، بل البرهان والدليل على بطلانه، لكن هذا من باب التشنيع على المشركين حيث أشركوا بالله بدون دليل ولا برهان.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يأمرون بالقسط: أي: بالعدل، والعدل كل ما جاءت به الشريعة فهو عدل، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فمن هم الذين يأمرون بالعدل؟ هم العلماء، ويدخل في هذه الجملة

الأنبياء، فيكون عطف ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من باب عطف العام على الخاص. فهؤلاء المعتدون اعتدوا على الرسل وعلى أتباعهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]؛ أي: أخبرهم بعذاب مؤلم - والعياذ بالله -؛ وذلك لعظم جرمهم.

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة منها:

١- الوعيد الشديد على من اتصف بهذه الصفات: الكفر بآيات الله، قتل الأنبياء بغير حق، قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس.

٢- تحريم هذه الأفعال القبيحة: الكفر بآيات الله، وقتل النبيين بغير حق، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس.

٣- أن كل من قُتل من الأنبياء فقد قتل بغير حق، بل بالعدوان والظلم والجور.

٤- أن للحق أعداءً وإلا فما ذنب الأنبياء؟ وما ذنب الذين يأمرون بالقسط من الناس؟

٥- الثناء على الذين يأمرون بالقسط من الناس؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - توعد من قتلهم بهذا العذاب الأليم.

٦- إخبار من عمل ما يحصل به العذاب بما توعد به لعله يرتدع وينزجر؛ لقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٧- أن عذاب أهل النار مؤلم، وليس كما زعمه بعضهم أنهم يتأقلمون على هذا العذاب ثم لا يتأثرون به، بل إنهم يتألمون أشد الألم، نسأل الله العافية ـ اللهم أعذنا من النار.

٨- جواز الإخبار بلفظ التبشير حتى في الأشياء المؤلمة ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فإن قال قائل: البشارة فيما يسر فكيف عبَّر عن العذاب بالبشارة به؟

فالجواب من أحد وجهين:

الأول: أنه لا يسلم أن البشارة فيما يسر فقط، بل البشارة كل ما يؤثر على المُبشَّر، ومعلوم أن الإنسان تؤثر عليه البشارة بالخير والبشارة بالشر؛ لأنه مأخوذ من البَشَرة أي: من تغيرها.

الثاني: وإن شئت فقل: إنه أطلق عليه التبشير مع أنه عذاب؛ لأن هؤلاء الذين كفروا بآيات الله، وقتلوا الأنبياء بغير حق، وقتلوا من يأمر بالقسط من الناس، ظنوا أنهم غانمون وأنهم كاسبون فقيل هذا كسبكم أبشروا به.

٩- أن الله ـ تعالى ـ يدافع عن أوليائه؛ لأن كون الله ـ تعالى ـ يعد هؤلاء المعتدين عليهم بالعذاب الأليم يدل على أنه مدافع عنهم ـ جل وعلا ـ ويؤيد ذلك قول الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]. وقوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «من عاد لي

وليًا فقد آذنته بالحرب»[1] أي: أعلنت الحرب عليه، ولا شك أن الله - سبحانه وتعالى - أوفى معاهد بعهده، وقد قال الله - تعالى - لبني إسرائيل: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٠]، وعهد الله الذي أمرنا أن نوفي به هو أن نقوم بطاعته - عز وجل - فإذا قمنا بطاعته فهو أوفى منا - عز وجل -، قال الله - تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾؛ أي لا أحد أوفى بعهده من الله ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

* * *

قال الله - تعالى -: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٢].

أي: أولئك الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق؛ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس هم الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، فلم تنفعهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، وما يمدهم الله به من مال وبنين، فهو من باب الاستدراج - والعياذ بالله - كما قال - عز وجل -: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).

لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وما لهم أحد ينصرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ـ والعياذ بالله ـ، قال الله ـ تعالى ـ ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة منها:

١ـ أن من قام بالصفات السابقة فهو كافر؛ لأنه لا عمل يبطل الأعمال في الدنيا والآخرة إلا الكفر، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَٰخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٢ـ أن الكافر لا ينتفع بعمله لا في الدنيا ولا في الآخرة.فإن قال قائل: أليس الله ـ تعالى ـ يمد الكافر بمال وبنين في الدنيا وينعمه؟قلنا: بلى، لكن هذا لا يزداد به إلا إثمًا ـ والعياذ بالله ـ؛ لأن الكافر يحاسب على كل شيء حتى على الأكل والشرب واللباس، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَٰخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧] فهي حل للذين آمنوا في الحياة الدنيا، وهي خالصة لهم يوم القيامة، فلا يعذبون عليها بخلاف الكافر.

٣ـ قطع أمل المشركين الذين يشركون بالله ويقولون: إن هؤلاء الأصنام التي كانوا يعبدونها شفعاؤنا عند الله، فبين الله بهذه الآية وفي أمثالها أن هؤلاء ليس لهم ناصر، وصدق الله ـ عز وجل ـ، في الآخرة

يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، فنسأل الله لنا ولإخواننا المسلمين الثبات على الحق والوفاة عليه، وأن يؤيدنا بنصره في الدنيا والآخرة، إنه على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام للتعجب والتعجيب، والمعنى ألم تنظر إلى حال هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، أي: أعطوا نصيبًا من الكتاب، عندهم شيء من العلم، فيدعون إلى كتاب الله القرآن ليحكم بينهم، ولكنهم يصرون على الإباء والاستكبار.

﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ يتولون: أي: يولون الأدبار وهم معرضون فلا يلتفتون والمراد بهذا الاستفهام التعجب من توليهم والتعجب من حالهم لأن الذي ينبغي ـ حيث كان عندهم نصيب من الكتاب ـ أن يستجيبوا إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم ولكن لكبريائهم وفخرهم واعتزازهم بما معهم من العلم يأبون ذلك. وأول من يدخل في هذه الآية اليهود؛ لأن عندهم نصيبًا من الكتاب مع التحريف والتبديل والتغيير، فإذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم

تولوا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فاعجب لحال هؤلاء. وهذا التولي الذي يقومون به تولٍ من ليس عنده نية في الرجوع، ولهذا قال:﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون.

في هذه الآية الكريمة من الحِكم والفوائد، ما يلي:

١- القدح في حال هؤلاء الذين عندهم علم من الكتاب ثم يعرضون عن الحق.

٢- التعجب من حال هؤلاء، تعجب إنكار لا تعجب سرور وإقرار.

٣- أن هؤلاء لم يعطوا الكتاب كله بل نصيب منه، وذلك لأن ما بأيديهم من التوراة - حين نزول القرآن الكريم - قد بدِّل وغيِّر وفات منه الشيء الكثير.

٤- أن هؤلاء يدعون إلى الحق لا من طرف واحد؛ لأنه لم يقل: يدعوهم رسول الله بل قال:﴿يُدْعَوْنَ﴾ فكأن الأمة كلها تدعوهم إلى كتاب الله ليحكم بينهم.

٥- أن المرجع في الحكم بين الناس هو كتاب الله - عز وجل - كما قال الله - تعالى -:﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩].

٦ـ إضافة القرآن إلى الله ـ تعالى ـ؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ تكلم به، فهو كلام الله منزل على قلب النبي ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين.

٧ـ أن هؤلاء الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم بعد أن يفكروا ويقدروا يتولوا، لأنه أتى بـ (ثم) الدالة على التراخي، بمعنى أن الأمر لم يفجأهم بل فكروا وقدروا ثم تولوا.

٨ـ أن التولي ليس من الجميع بل من فريق منهم، ولهذا أسلم من أسلم من اليهود كعبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ، ومن النصارى كالنجاشي، فليس كلهم أعرضوا وتولوا بل منهم من اهتدى وعرف الحق.

٩ـ أن التولي قد يكون مع الإعراض وقد يكون بدونه، والتولي مع الإعراض أشد؛ لأن المتولي الذي لم يعرض قد يلتفت ويرجع لكن تولي المعرض ـ والعياذ بالله ـ ما بعده أمل.

١٠ـ أن الواجب عند التنازع الرد على كتاب الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، وهذا ما أمر الله به في قوله: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٤]

المشار إليه في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تولي هؤلاء وإعراضهم إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، فإن اليهود ادعوا أن النار لا تمسهم إلا أيامًا معدودات، قالوا ذلك لأصحاب النبي ﷺ، وقالوا: إنكم تخلدون فيها، وهذه دعوى باطلة أبطلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في قوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠] وهم لم يتخذوا عند الله عهدًا بل ادعوا ذلك كذبًا وزورًا وسيخلدون في نار جهنم أبدا الآبدين.

وقوله ﴿لَن تَمَسَّنَا﴾؛ يعني: لن تصيبنا النار إلا أيامًا معدودات، وفي آية أخرى ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، والمعنى واحد؛ لأنه جمع التكسير يجوز في وصفه الإفراد والجمع.

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: في دينهم أي في العمل الذي يتعبدون به ويدينون لله به، غرهم هذا وانخدعوا به، ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وهو قولهم: إنا على الحق، فأصروا على الباطل وادعوا أنهم على الحق.

في هذه الآية الكريمة من الحِكم والفوائد، ما يلي:

١ ـ إثبات الأسباب للواقعيات لأن قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء للسببية.

٢ـ أن السبب قد يكون صحيحًا وقد يكون باطلًا، فإن كان صحيحًا فمسببه صحيح، وإن كان باطلًا فمسببه باطل، ومعلوم أنه لا برهان لهؤلاء ولا دليل على أن النار لا تمسهم إلا أيامًا معدودات.

٣ـ أن الذين أوتوا الكتاب مُقِرُّونَ بالآخرة والبعث؛ لأن قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ﴾ يدل على إثباتهم للآخرة؛ لأن العذاب بالنار في الآخرة، وهو كذلك، وقد ظن وضل قوم أن من آمن بالله واليوم الآخر دون العمل بما يقتضيه ذلك فهو مؤمن، ولهذا يعتقد بعض الجهال أن اليهود والنصارى مؤمنون باليوم الآخر فهم مؤمنون، ولم يعلموا أن الإيمان باليوم الآخر له شروط وله مقتضيات.

٤ـ إقرار الذين أوتوا الكتاب بأن النار تمسهم؛ لقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ﴾، وهذا إقرار منهم بأنهم مستحقون للنار وأنهم يعذبون فيها، فيبقى قولهم ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ﴾ دعوى إن أتوا ببرهان عليها وإلا فقد أقروا على ان النار تمسهم.

٥ـ أن الانسان قد يغتر بما هو عليه من عمل وهو خطأ؛ لقوله: ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، وهذه نقطة يجب الحذر منها أن تستحسن شيئًا وهو سيئ، قال الله ـ عز وجل ـ منكرًا هذا: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ [فاطر: ٨]، ويهدي من يشاء وقال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾

[النمل: ٤]، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

فليحذر الإنسان من هذا الخلق السيئ، أن يُزَيَّنَ له سوء عمله فيراه حسنًا، فإن هذا أشد ممن يرى سوء العمل سيئًا لأن الثاني قد يقلع والأول سيستمر.

٦ـأن يحذر العالم من المخالفة، فإن بعض الناس الذي آتاه الله علمًا قد يحرم الشيء على الناس ولا يحرمه على نفسه وقد يحرمه على شخص ولا يحرمه على آخر لمجرد الهوى وهذا عكس الصواب، أي: أنه ينبغي للإنسان أن يحتاط لنفسه أكثر مما يحتاط لغيره، ولهذا لما قيل للبراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ حين حدث عن النبي ﷺ أنه قال: «أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، المريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والكبيرة التي لا تنقي»[1] قال له رجل: إني أكره أن يكون في الأذن نقص أو في القرن نقص، أو قال: في السن نقص، فقال: ما كرهته فدعه ولا تحرمه على غيرك. وهذا من فقه البراء ـ رضي الله عنه ـ فالإنسان

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٨١٩٢)، وأبو داود، كتاب الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، رقم (٢٨٠٢).

ينبغي له أن يكون على نفسه أشد من غيره، أما أن يفتي نفسه بشيء ويتأول التأويلات التي لا مؤثر لها ويفتي غيره بما هو أشد فهذا خلاف الأمانة وخلاف الصدقة.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٢٥].

﴿فَكَيْفَ﴾ أي: فكيف تكون حال هؤلاء ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾؛ أي: مع خصومهم يوم القيامة ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ اللام يحتمل أن تكون للتوقيت أي: جمعناهم إلى ذلك اليوم، ويحتمل أن تكون بمعنى في أي: في يوم لا ريب فيه، وكلا المعنيين حق، والريب: هو الشك مع القلق، يعني: أن هذا اليوم لا ريب فيه ولا امتراء فيه ولا شك فيه بل هو واقع لا محالة وذلك يوم القيامة، نسال الله - تعالى - أن يجعله يسيرًا علينا وعلى إخواننا المسلمين.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؛ أي: أعطيت كل نفس ما كسبت وفاءً، فالمحسن له الإحسان والمسيء له العدل، قال الله - عز وجل - ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المجموعون في ذلك اليوم. ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي:

لا ينقصون من حقهم شيئًا، فلا يزاد في ظلم الظالم على ظلمه ولا ينقص من إحسان المحسن في إحسانه بل كل يوفى أجره إما بالفضل أو بالعدل.

في هذه الآية الكريمة من الحِكم والفوائد، ما يلي:

١- تعظيم يوم القيامة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٢- تهديد أولئك الذين لم ينقادوا إلى الله ورسوله.

٣- إثبات يوم القيامة وأن الله ـ تعالى ـ يجمع فيه الخصم وخصمه.

٤- أن يوم القيامة واقع لا محالة ولا تردد فيه ولا إشكال، وذلك من حكمة الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه ليس من الحكمة أن الله ـ تعالى ـ يخلق الخلق ويشرع الشرائع وينقسم الناس إلى مؤمن وكافر وبر وفاجر ثم يموتون ولا يبعثون، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥].

٥- أن كل نفس توفى ما كسبت إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ [آل عمران: ٢٥]؛ لأن (ما) اسم موصول يعم كل ما كسبت.

٦ـ انتفاء الظلم في ذلك اليوم؛ لأن الذي يقضي بين العباد في ذلك اليوم هو رب العالمين ـ عز وجل ـ وهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا يظلم أحدًا، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، لأنه ـ تبارك وتعالى ـ كامل العدل، كامل الوفاء فلكمال عدله وتمام وفائه ـ جل وعلا ـ لا يظلم أحدًا.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿قُلِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصح أن يوجه إليه الخطاب.

﴿ٱللَّهُمَّ﴾ بمعنى: يا الله، ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: مالك كل مملوك، أو مالك الملك أي: مالك التمليك، تملك من تشاء، ثم فَصَّل شيئًا من ملكه ـ عز وجل ـ فقال:

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ هـذا شيء مـشاهد تجد الرجل اليوم ملكًا وغدًا مملوكًا أو بالعكس؛ لأن الذي بيده الأمر هو الله ـ عز وجل. ونزع الملك إما بموت الملك أو باستيلاء غيره عليه وعلى مملكته؛ لأن الأمر أمر الله ـ عز وجل ـ ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي: تجعل

له عزة وغلبة على خصمه.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالعكس، أي: تجعل الذل على من تشاء، تعز من تشاء ولو كان ذليلًا في نفسه، وتذل من تشاء ولو كان عزيزًا في نفسه.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾؛ أي: أن كل خير فهو من الله، كما قال النبي ﷺ «يد الله ملأى - أي ممتلئة - سحاء - أي كثيرة العطاء - الليل والنهار - يعني يعطي في الليل والنهار - عز وجل - لا تغيضها نفقة أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض - أي لم ينقص ما في يمينه - سبحانه وتعالى -»[1].

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي لا يعجزك شيء، كل شيء فالله قادر عليه إيجاد المعدوم وإعدام الموجود ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة منها:

١- أنه يجب على الإنسان اللجوء إلى الله - عز وجل -؛ لأنه سبحانه وتعالى مالك الملك ورب الخلق.

٢- أن الملك كله لله - جل وعلا - له ملكوت السموات والأرض.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله - تعالى -: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ رقم (٧٤١١).

٣ـ أنه ـ جل وعلا ـ يعطي الملك من يشاء، ولكن المشيئة هذه مقرونة بالحكمة ليست مشيئة بغير حكمة بل بحكمة العزيز الحكيم، كذلك نزع الملك ممن يشاء بحكمة.

٤ـ ألا يغتر أحد بما أعطاه الله من الخير، فإن الله قد ينزعه منه، فليجأ إلى الله وليسأله الثبات.

٥ـ أن العزة والذل بيد الله ـ عز وجل ـ يعز من يشاء ويذل من يشاء.

٦ـ أنه بناء على هذا الذي أثبته الله لنفسه فإنه يجب على العاقل ألا يسأل إلا

٧ـ الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه هو الذي بيده الأمور.

٨ـ إثبات اليد لله؛ لقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾، وهي يد حقيقة، لكن لا يجوز أبدًا أن نتصور أو نقول إنها مثل أيدي المخلوقين؛ لأنه الله ـ تعالى ـ يقول في القرآن الحكيم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٩ـ إضافة الخير إلى الله؛ لقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾، وأما الشر فقد قال النبي ﷺ: «الشر ليس إليك»[1] يعني إلى الله، ولهذا لا يجوز أن نقول:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧١).

بيدك الخير والشر، بل بيدك الخير لأن الشر الذي يحدث بالقضاء والقدر ليس شرًّا بالنسبة إلى فعل الله؛ لأن الله لم يقدره إلا لحكمة لكنه شر بالنسبة للمفعولات بها أي: لمخلوقات الله - عز وجل.

١٠ - عموم قدرة الله - عز وجل - على كل شيء؛ لقوله - تعالى - ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: ٢٧].

﴿تُولِجُ﴾أي: تدخل الليل في النهار، وذلك بأن يطول الليل ويقصر النهار ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾بأن يطول النهار ويقصر الليل، وقد جعل الله - تعالى - مدار ذلك على أربعة فصول، فصل الربيع، فصل الصيف، فصل الخريف، فصل الشتاء، أربعة فصول لكنها اثنا عشر برجًا، يطول الليل في أيام الشتاء ويطول النهار في أيام القيظ ولا أحد يستطيع أن يزيد دقيقة واحدة في الليل أو في النهار أو ينقص دقيقة واحدة وإنما ذلك إلى الله - عز وجل - الذي هو على كل شيء قدير.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ يشمل هذا النبات والحيوان، أما النبات فها هي الحبة يابسة لا تنمو فإذا بذرت في الأرض حيت ونمت،

وكـذلك النـواة للنخلـة يابـسة لا تنمـو فـإذ بـذرت في الأرض نمـت وصارت نخلة، وفي الحيوان أيضًا الدجاجة تخرج منها البيضة ميتة لا تنمو ثم تعود البيضة فرخًا حيًّا ناميًا فيخرج الحي من الميت الفرخ من البيض، والميت من الحي البيضة من الدجاجة، ولا أحـد يـستطيع هـذا، وربما نقول: إن معنى الآية أشمل من ذلك، فنقول: إن المراد بالحي هنا: حي القلب الذي آتاه الله علمًا وإيمانًا، والميت ميت القلب الذي لم يوفـق لعلم ولا إيمان، فأبو إبراهيم الخليل - على إبراهيم الخليل الـسلام - كـان مشركًا تبرأ منه ابنه إبراهيم لما تبين له أنه عدو لله، وابن نوح كان كافرًا، فأخرج الله إبراهيم من صلب أبيه آزر، وأخرج الله ابن نوح من صلب نوح والله على كل شيء قدير.

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: تعطي من تشاء من فضلك أنواعًا من الرزق بغير حساب وربما يرزق الله المرء من حيث لا يحتسب، كما قال الله - عز وجل - ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ولا أحد يملك ما ذكر إلا الله وحده - عز وجل.

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة منها:

١- بيان قدرة الله - عز وجل - بإدخال الليل على النهار، وإدخال النهار على الليل، وهذا لا يستطيعه أحد.

٢- بيان قدرة الله - تعالى - من وجه آخر وهو إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ولا أحد يستطيع ذلك إلا الله - عز وجل -، فالله - تعالى - يقلب الظلمة نورًا إذا أدخل النهار على الليل والنور ظلمة إذا أدخل الليل على النهار.

٣- أن العطاء والفضل من الله وحده، وأن ذلك راجع إلى مشيئة الله؛ لقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

٤- إثبات المشيئة لله في قوله: ﴿مَن تَشَآءُ﴾، ولكن إعلم أيها المسلم أن مشيئة الله ليست مشيئة مجردة عن حكمة بل مشيئة الله - سبحانه وتعالى - تابعة لحكمته، فإذا كانت حكمة الله تقتضي إيجاد الشيء أوجده الله، وإذا كان تقتضي إعدامه أعدمه الله، وإذا كانت تقتضي تغييره غيره الله؛ لأنه - سبحانه - على كل شيء قدير.

فإن قال قائل: هل رزق الله دليل على رضاه على العبد؟ أو دليل على سخطه؟ أو ليس فيه دليل على هذا ولا هذا؟

فالجواب: إن كان العبد مقيمًا على معصية الله فإن رزق الله له استدراج يملي له حتى إذا أخذه لم يفلته، كما قال الله - عز وجل -: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال النبي ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، وتلا قوله - تعالى - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ

إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][1] فإذا رأيت أن الله أغدق لك الرزق في الأموال والأهل والبنين والجاه وما أشبه ذلك وأنت مقيم على معصيته فاعلم أن هذا استدراج وأن مآلك الخسارة والهلاك والشقاء، وأما إذا كان رزق الله - عز وجل - مع استقامة الإنسان على دين الله فهذا دليل على رضا الله على العبد، دليل هذا قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وفي الحديث القدسي: «من وجد خيرًا فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه»[2] فانتبه يا أخي لنفسك إذا رأيت الله قد أغدق عليك النعم فانظر بماذا تقابل هذه النعم؟ أتقابلها بالعصيان فهذا استدراج، أم بالشكران فهذا زيادة وفضل.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾ هذا نهي، ومعناه: يجعل، والمؤمنون: فاعل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ رقم (٤٦٨٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

(٢) أخرجه مسلم البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

يتخـذ، والكـافرين: مفعولهـا، أي: لا يجـوز للمـؤمنين أن يتخـذوا الكـافرين أوليـاء: مـن دون المؤمنين، أوليـاء يعنـي يتولـونهم بالمعرفـة والنصرة وما أشبه ذلك، فيتخذون الكافرين أولياء ويـدعون المؤمنين، ولا بد أن يكـون لهـذا أسـباب، منهـا: أنـه في نظـر كثـير مـن ذوي النظـر القاصر إذا رأى تفوق الكافرين في الأمور المادية وهي الأمـور الدنيويـة أعـرض عـن المـؤمنين، وجعـل وجهـه إلى الكـافرين، فيكـون اتخـاذه الكافرين أولياء من دون المؤمنين سببه أنه انبهر بـما لـدى الكـافرين مـن القوى المادية فاتجه إليهم ونسي إخوانه المؤمنين.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾: أي من يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فلا قيمة لـه عنـد الله، لـيس مـن الله في شيء، ولا عهد له عند الله ولا ذمة له عند الله ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، يعنـي: إلا في حـال تخـافون عـلى أنفسـكم وتعملـون مـا تتقـون بـه شرهـم دون ا تخاذهم أولياء، وعلى هذا فالاستثناء هنا منقطـع، يعنـي لكـن إذا اتقيـتم منهم تقاة فلا حرج عليكم من دون أن تتخذوهم أولياء.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: يحذركم: أي: يخوفكم وينذركم الله ـ جل وعلا ـ نفسه أن يعاقبكم إما عاجلًا وإما آجلًا ولهـذا قـال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: المرجـع في جميـع الأمـور الـشرعية والقدرية، فهو الذي يحكم بين عباده في شرعـه، ويحكـم بـين عبـاده في

قدره ـ عز وجل ـ، يحكم بين عباده بالشرع ويحكم في العباد بالقدر.

في هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ تحريم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين لقوله ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، **والأصل في النهي التحريم، لاسيما أن الله ـ تعالى ـ قد كرر مثل ذلك فقال ـ جل وعلا ـ:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، **وقال ـ جل وعلا ـ:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢].

٢- وجوب موالاة المؤمنين وهذه الموالاة هي الحقيقة الثابتة للمؤمنين بعضهم مع بعض قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] **ثم فَصَّل شيئًا من هذه الولاية فقال** ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١].

٣- عقوبة من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وهو أنه ليس

له عند الله عهد فيوكل إليهم أي: إلى هؤلاء الكافرين، ومن وكل إلى غير الله فقد خاب وخسر.

٤ـ جواز مدارة الكفار على وجه لا يصل إلى الموالاة؛ لقوله ـ تعالى ـ ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ وكما ذكرنا أن الاستثناء هنا منقطع، أي: أن هذه التقاة ليست من الولاية التي نهى الله عنها.

٥ـ تحذير الله ـ تعالى ـ العباد نفسه أن يعاقبهم إذا عصوا الله ـ عز وجل ـ باتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين سواء كانت العقوبة عاجلة أو آجلة.

٦ـ أن مرجع الخلق إلى الله ـ عز وجل ـ شرعًا وقدرًا، أما الشرع فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وأما القدر فلقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٩، ٥٠]، ولهذا يجب على الإنسان إزاء قضاء الله وقدره أن يرضى ويسلم بقضاء الله وقدره وألا يتسخط بقضاء الله عند المصائب وألا يتحكم على الله لأنه هو الولي ـ عز وجل ـ، وفي مقام الشرع يجب أن يكون التحاكم إلى الله ورسوله وأن يكون الحكم فيما حكم الله به ورسوله، ولا يحل لأحد أن يخرج عن هذا.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩].

﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمد، أو قل أيها الإنسان لغيرك ﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾؛ والمراد بها في الصدور: ما أضمره الإنسان في نفسه ولم يُطْلِعْ عليه أحدًا.

﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾؛ أي: تظهروه وتبينوه للناس، إما للأقربين أو للأقربين والأباعد أو للأباعد دون الأقارب.

﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ فيعلم ـ جل وعلا ـ ما أبداه الإنسان وما أخفاه، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق: ١٦]؛ أي: ما تحدثه به نفسه.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مما لا يحيط به الإنسان علمًا ولا يبديه ولا يخفيه بل ولا يعلمه، وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿مَا﴾ هنا اسم موصول بمعنى الذي، والأسماء الموصولة عند العلماء تفيد العموم، أي: يعلم كل ما في السماوات والأرض، من أعيان وأوصاف وأحوال وتغيرات، كل شيء.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ قدير: أي. فاعل لكل ما أراده بلا عجز ـ عز وجل ـ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي

السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]، وختم الآية بهذا الاسم الكريم القديم بعد ذكر العلم؛ ليبين - عز وجل - أن الله قدير على كل شيء، قدير على أن يغير ما في نفس الإنسان مما أخفاه وما في جوارحه ولسانه مما أبداه؛ لأنه - جل وعلا - على كل شيء قدير.

قيل لأعرابي: بما عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وصرف الهمم، أعرابي عجيب استدل بشيء يدركه كل الناس نقض العزائم وصرف الهمم، نقض العزائم هو أن الإنسان يعزم على الشيء - وهو بكل تأكيد - وإذا به يتراجع إما مرة واحدة وإما بالتدرج بدون أن يقول له أحد شيئًا، لكنِ اللهُ نقضَ عزيمته.

وصرف الهمم أن يهم الإنسان بالشيء وإذا به ينصرف إلى شيء آخر مثل أن يهم الإنسان بالتجارة في الأواني وإذا به ينصرف إلى التجارة في العقار بدون أن يتكلم معه أحد.

وقيل لآخر: بم عرفت الله؟ فقال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على السميع البصير؟!

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة منها:

١-إحاطة علم الله - جل وعلا - بكل شيء مما في نفوس العباد سواء أبدوه أم أخفوه، وكذلك ما في السماوات والأرض، فالله - جل وعلا -

محيط به علمًا.

٢-أنه يجب على المرء أن يراقب الله - تعالى - فيما يضمره، فإنه لا يخفى على الله، وما أكثر ما يظن الجاهل أنه إذا فعل المعصية سرًّا فليس عليه شيء، ينسى أن الله رقيب عليه - عز وجل.

٣-أن الإنسان له القدرة على إخفاء الشيء وإظهاره، وهو كذلك، وإذا كان كذلك فإنه لا ينبغي أن يظهر ما الحكمة في إخفائه، ولا أن يخفي ما الحكمة في إظهاره، وهذا يختلف باختلاف الأشخاص واختلاف الأحوال واختلاف الأزمان واختلاف الأمكنة فليلاحظ الإنسان هذا، أحيانًا يكون من الحكمة أن تبدي ما في نفسك، وأحيانًا يكون من الحكمة إخفاء ما في نفسك ولكن إذا تورطت وأجبرت على أن تبدي ما في نفسك وأنت ترى أن الحكمة عدم إبدائه، فماذا تصنع؟الجواب: أن أؤول وأوري في الكلام فأنوي في قلبي خلاف ظاهر اللفظ، مثاله: قال لك رجل احلف لي ألا تخبر عني بما رأيت مني من الأخلاق السيئة، وأنت تعلم أو يغلب على ظنك أنك لو لم تحلف لأصابك بسوء فماذا تصنع؟

الجواب: احلف له وتأول وانو ألا تخبر به اليوم تنوي بقلبك وأنت مظلوم إذا رأيت أن الحكمة إبداؤه وإظهاره، وهذا يريد ألا تبدي ولا تظهر.أو تنوي ألا تخبر به زيدًا من الناس؛ لأنك لا ترى فائدة في إخبار

زيد، لكنك ترى فائدة في إخبار ولاة الأمور.

٤ـ عموم علم الله ـ تعالى ـ بما في السماوات وما في الأرض، وعلم الله ـ تعالى ـ محيط بكل شيء جملة وتفصيلًا، فالجملة كما في هذه الآية والتفصيل كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

٥ـ إثبات قدرة الله على كل شيء؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ويتفرع على ذلك أنك متى عرفت قدرة الله على كل شيء فلن تيأس من رحمته؛ لأنه قادر على أن يغير حالك.

فلنضرب لهذا مثلًا لرجل مريض طال به المرض فأنهك جسمه فقيل له: ادع الله، فقال: لا، من شدة اليأس، فهذا غلط بل ادع الله ـ عز وجل ـ فالله على كل شيء قدير، ولما قال زكريا: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٨، ٩]. فكر في نفسك أولًا، لم تك شيئًا فأوجدك الله، إذًا هذا الذي أصابك أيها الرجل من المرض لم يكن شيئًا من قبل والله قادر على رفعه بعد وجوده، لا تيأس، عليك بالصبر وانتظار الفرج فيما أصابك من المصائب، فإنه ما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر، واعلم أن

النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿يَوْمَ تَجِدُ ﴾: ظرف زمان عامله محذوف، والتقدير اذكر يوم تجد، أو اذكروا يوم تجد، وهذا اليوم الذي تجد فيه كل نفس ما عملت هو يوم القيامة تجد كل نفس ما عملت من الخير محضرًا، حاضرًا لديها، مكتوب بصحائف الأعمال، يؤتى المؤمن كتابه بيمينه ـ أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم ـ فيفرح بهذا الكتاب الذي قرأه ويقول للناس: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩]، خذوا اقرءوا كتابي فرحًا بذلك ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٠]؛ أي: أيقنت أني ملاق حسابيه، يجده محضرًا فيفرح ويسر ويبتهج وينادي الناس هاؤم اقرءوا كتابيه ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ ﴾ [آل عمران: ٣٠]: «ما» مبتدأ ليس معطوف على «ما» الأولى، يعني والذي عملت من السوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا، تود: أي النفس، لو أن بينها وبين ما وجدت من سوء، أمدًا بعيدًا أي: زمنًا بعيدًا، فلم يدركها ولم تدركه.

ولكن هل ينفع ذلك بعد أن كتب؟ وجاء وقت الجزاء، إن كان الإنسان كافرًا فهو لا ينفعه وإلا فهو تحت مشيئة الله.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أعاد ذلك أي: تحذير الله نفسه عباده؛ لأهمية الأمر وأن الإنسان يجب أن يحذر عقوبة الله -عز وجل- إذا خالف الله.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ الرأفة أشد الرحمة وألينها، والعباد هم الخلق فهو -عز وجل- رءوف بعباده عمومًا، يدفع عنهم البلاء ويرزقهم النعماء، ويلطف بهم لكن من الناس من يرى هذه النعمة فينيب إلى ربه ويشكرها، ومنهم من لم يكن كذلك.

في هذه الآية حكم وفوائد عظيمة منها:

١- أن كل ما عمله الإنسان فسيجده حاضرًا، كل ما عمل من خير سواء كان في حق الله أو حق العباد وسواء كان ماليًّا أو بدنيًّا أو جامعًا بين البدني والمالي أي: خير عمله سيجده محضرًا.

٢- كمال عدل الله -عز وجل- حيث لم يظلم أحدًا حسنة واحدة من حسناته، وهذا يستفاد من العموم في قوله ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾.

٣- أن عامل السوء يتمنى يوم القيامة ويود بكل قلبه أن بينه وبين السوء أمدًا بعيدًا، ولكن أنى له ذلك، وقد انتقل من دار العمل إلى دار الجزاء، ولهذا جاء في الحديث: «ما من ميت يموت إلا ندم إن كان محسنًا ندم ألا يكون ازداد وإن كان مسيئًا ندم ألا يكون استعتب»

٤- التحذير من عمل السوء والحث على عمل الخير ما دام الإنسان في زمن الإمهال، والطريق مفتوح والعمل متيسر قبل أن يندم حين لا ينفع الندم.

٥- شدة فرار أصحاب السوء مما أساءوا به؛ لقوله: ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾، فعليهم أن يتذكروا هذه الحال حتى يخلصوا منها.

٦- الحذر من مخالفة الله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ فاحذر يا أخي احذر ربك - عز وجل - الذي يعلم السر وأخفى، لا تقع في مخالفته، لا يفقدك حيث أمرك ولا يجدك حيث نهاك.

٧- إثبات الرأفة لله - عز وجل - بعباده، وهذا يعني أن نتعرض لما فيه رأفة الله من فعل الخيرات وترك المنكرات.

* * *



أحكام من القرآن الكريم



